النبي المعصوم

نور الدين أبو لحية

دار الكتاب الحديث

موقع المؤلف: **http://noursalam.free.fr/**

بريد المؤلف: **nouresalam@hotmail.com**

الطبعة الأولى

دار الكتاب الحديث – القاهرة –

للطباعة والنشر والتوزيع

الفرع	العنوان	الهاتف	الفاكس	البريد الالكتروني
القاهرة	ص.ب ٧٥٧٩ البريدي ١١٧٦٢ مدينة نصر – ٩٤شارع عباس العقاد	٠٠٢٠٢٢٢٧٥٢٩٩٠	٠٠٢٠٢٢٢٧٥٢٩٩٢	dkh_cairo@yahoo.com
الكويت	١٣٠٨٨ شارع الهلالي برج الصديق ص.ب ٢٢٧٥٤	٠٠٩٦٥٢٤٦٠٦٣٤	٠٠٩٦٥٢٤٦٠٦٢٨	ktbhades@ncc.moc.kw
الجزائر	ص ب ٠٦١ درارية الجزائر عمارة ٣٤	٢١٣٥٤١٠٥	٢١٣٥٣٠٥٥	dkhadith@hotmail.com

من القرآن الكريم

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤)﴾ (الأنعام)

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾(سبأ:٤٦)

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ (يونس)

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤)﴾ (النجم)

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢)﴾

(النجم)

تنبيه

نحب أن ينتبه قارئ هذه السلسلة لما يلي:

١ ـــ بما أن الغرض من هذه الرسائل هو أن تكون مدرسة تعلم فنون الحوار الإيماني، والجدال بالتي هي أحسن، فقد اهتممنا في أصل الرواية بما يحقق هذا الغرض، و لم ننشغل عنه بأي شاغل.. ولكن الكثير من المعلومات التفصيلية أو التوثيقية قد يحتاج إليها لتحقيق هذا الغرض، وهي مما لا يمكن إدراجه في الأصل.. فلذلك اكتفينا بإيرادها في الهوامش..

فلذلك يحتاج من يتعلم من هذه الرواية مراجعة ما ورد في الهوامش والاهتمام بها باعتبارها معلومات أساسية تيسر عليه فهم وتحصيل ما يرد في أصل الرواية من معلومات.

٢ ـــ أننا لم نهتم كثيرا بتوثيق كل ما نرجع إليه من مصادر ما عدا ما يتعلق بالنصوص المقدسة الإسلامية والمسيحية.. أما سائر النصوص، فتوثيقها يستهلك صفحات كثيرة، وقد يشغل القارئ عن المهمة التي تهدف إليها هذه الرواية..

بالإضافة إلى أن أكثر ما نورده مما توزع وجوده في الكتب الكثيرة التي اهتمت بهذه الناحية.. ولهذا نكتفي بذكر المراجع العامة التي لجأنا إليها دون التدقيق في التوثيق في كل محل.

٣ ـــ نحب أن نعتذر هنا عن عدم ذكر الصلاة على رسول الله ﷺ أو على الأنبياء، وعدم الترضي عن الصحابة والعلماء والأولياء ـــ كما هو شأن المؤلفات الإسلامية ـــ في بعض المواضع، أو في كثير منها، وذلك لأن الحديث المفترض فيها بحسب الرواية بين مسيحيين.. والضرورة الفنية تقتضي أن لا نذكر ذلك حتى لا يؤثر في أصل الرواية وجانبها الفني.. ولا حرج على القارئ المسلم أن يصلي على رسول الله ﷺ والأنبياء كلما ذكروا بغض النظر عن كتابة ذلك..

٤ ـــ قد يعترض بعض أدباء الأدب الواقعي على كثير مما يرد في هذه السلسلة مما لا يمكن انسجامه مع الجانب الفني الواقعي.. كحفظ أبطال الرواية للنصوص الطويلة مع كون بعضهم من العامة البسطاء.

ونحن نقدر هذا النقد.. ولكنا ننبه إلى أن الغرض من السلسلة ليس أحداث الرواية، وإنما الجانب العلمي منها.. وإنما ذكرنا هذه الأحداث لنمزج المعلومة التي قد تكون جافة بما ييسر تحصيلها من التشويق والمتعة.

ولذلك إذا تعارض التشويق مع المعلومة قدمنا المعلومة عليه بناء على اعتبارها الأصل.

المقدمة

في صباح اليوم السابع من زيارة البابا لي، كنت ممتلئا أشواقا للحديث الذي سيحدثني عنه، فقد ذكر أنه سيروي لي رحلته إلى رسول الله ﷺ.. وهي رحلة لا مثلها رحلة.. وهو حديث لا مثله حديث..

فخير ما شنف الأسماع.. وخير ما وعته القلوب.. وخير ما اطمأن إليه الضمير.. وخير ما انطوت عليه الجوانح.. حديث يكون فيه رسول الله ﷺ.. ذلك الذي تزينت به الأرض.. واستبشرت به السماء.. وتعطرت به الأكوان.

كنت أسير في غرفتي أنتظر بشغف شديد تلك اللحظات التي أدخل فيها على البابا، لندخل جميعا إلى حضرة الحبيب، ونقبل تلك العتبات المقدسة التي وطئتها قدماه.

لكني.. وفجأة من غير ميعاد.. أصابني اكتئاب شديد، دونه كل اكتئاب، وحطت علي آلام دونها كل الآلام..

لقد تذكرت تلك الحرب الشعواء التي اجتمع لها كل الشياطين ليشوهوا جمال الشمس التي تتفتح بإشراقتها الأزهار، وتغرد بإطلالتها الأطيار، وتتمسح بأشعتها الأنهار والمحيطات والبحار والأشجار..

تذكرت تلك الأوصاف الكثيرة التي خطط لها شياطين دار الندوة.. فراحوا ــ بكل ما امتلأت به قلوبهم من أحقاد ــ يصفون رسول الله ﷺ بالساحر والكاهن والمجنون.. ويصفون الأنوار التي أشرقت بإشراقته بالدجل والخرافة وأساطير الأولين.

و لم يكتفوا بذلك.. بل راحوا يشيعون هذا في كل زمان.. وفي كل مكان.

فتلقفه من أفواههم مبشرون ومستشرقون ومستغربون وملحدون ووجوديون ودهريون.. كلهم صار ينطق بلسان أبي جهل، ويلقي خطب أبي لهب، ويحاكي أساطير النضر بن الحرث..

وتلقفه من هؤلاء رسامون راحوا يسخرون من معلم السلام ليحولوه إلى قائد عصابة.

وتلقفه منهم روائيون راحوا يسخرون من معلم العفاف والزهد ليحولوه إلى زير نساء.

وتلقفه منهم سياسيون راحوا يحولون من معلم العدالة والشورى والحرية ليرسموا بدله صورة نيرون ولينين وأتاترك.

وتلقفه منهم رجال دين، طرحوا وقارهم، ورموا صلبانهم وكتبهم المقدسة، ليحولوا من المعراج الذي يعرج به إلى الله، ومن المرآة التي تتجلى فيها حقائق الأزل، ومن النور الذي يهتدى به.. إلى دجال ينصب الشراك، ويضع الأساطير، ويملأ الدنيا بالكفر والإلحاد والظلمات..

وتلقفه منهم رجال دنيا أصحاب بطون منتفخة.. راحوا يسقطون صور جشعهم وحرصهم واستغلالهم على رسول الله ﷺ، ليحولوا من الزاهد الكريم الراغب في الله إلى حريص بخيل راغب في جيوب الناس.

وتلقفه منهم جامدون راحوا يصفون رسول الله ﷺ بالجمود..

وتلقفه منهم منغلقون راحوا يصفون رسول الله ﷺ بالانغلاق..

وتلقفه منهم مستكبرون راحوا يصفون رسو الله ﷺ بالاستكبار..

ولا زال المتلقفون يتلقفون.. ولا زالت الأقلام المملوءة بالحبر المدسوس في محبرة النفوس المدنسة يسيل..

ولا زالت الخطب.. ولا زالت الأفواه المنجسة بهجاء الشمس..

لا زال كل هؤلاء.. ولا زال هناك من يمدهم بكل شيء..

وضعت يدي على رأسي.. وقد ركبتني الهموم على هذه البشرية التي لا تتقن شيئا كما تتقن سب الشمس..

بينما أنا كذلك إذا بي أسمع ولدي في الغرفة المجاورة يردد قصيدة لأبي العتاهية، يقول فيها:

أرى النـــاسَ قـــد أُعْـــروا ببغْـــيٍ وريبـــةٍ   وغـــيٍ إِذا مـــا ميـــزَ النـــاسَ عاقـــلُ

وقـــد لزمـــوا معـــنى الخِـــلافِ فكلـــهمْ   إلى نحـــوِ مـــا عـــابَ الخليفـــةَ مائـــلُ

إِذا مـــا رَأَوا خَـــيراً رَمَـــوهُ بظنـــةٍ   وإِن عـــاينوا شـــراً فكُـــلٌّ مناضـــلُ

وإِن عـــاينوا حَبْـــراً أديبـــاً مهـــذباً   حَســـيباً يقولـــوا إِنـــه لُمخاتِـــلُ

وإِن كـــانَ ذا ذِهْـــنٍ رَمَـــوه ببدْعَـــةٍ   وسَـــمَّوهُ زنـــديقاً وفيـــه يُجـــادلُ

وإِن كـــانَ ذا ديـــنٍ يســـموه نَعجـــةً   ولـــيس لـــه عَقْـــلٌ ولا فيـــه طائـــلُ

وإِن كـــانَ ذا صـــمتٍ يقولـــون صُـــورةٌ   ممثلـــة بـــالعَيِّ بـــل هـــو جاهـــلُ

وإِن كـــانَ ذا شـــرٍ فويـــلٌ لأمـــهِ   لمـــا عنـــهُ يَحْكـــي مـــن تَضُـــمُّ المحافـــلُ

وإِن كـــانَ ذا أصـــلٍ يقولـــون إِنمـــا   يفـــاخرُ بـــالموتى ومـــا هـــو زائـــلُ

وإِن كـــانَ ذا مَجهـــولاً فـــذالك عنـــدهم   كبـــيضِ رمـــالٍ لـــيس يُعـــرفُ عامـــلُ

وإِن كـــان ذا مـــالٍ يقولـــون مالـــهُ   مـــن السُّـــحْتِ قـــد رابـــي وبـــئسَ المآكـــلُ

وإِن كـــانَ ذا فقـــرٍ فقـــد ذَلَّ بينـــهم   حقـــيراً مهـــيلاً تَزْدريـــهِ الأرذالُ

وإِن قنـــعَ المســـكينُ قـــالوا لقِلـــةٍ   وشـــحةِ نفـــسٍ قـــد حَوَتْهـــا الأنامـــلُ

وإِن هـــو لمـــك يقنـــعْ يقولـــون: إِنمـــا   يطالـــبُ مـــن لم يُعْطـــهِ ويُقاتـــلُ

وإِن يكســـبْ مـــالاً يقولـــوا: بهيمـــةٌ   أتاهـــا مـــن المقـــدور حَـــظٌ ونائـــلُ

وإِن جـــادَ قـــالوا: مُسْـــرِفٌ ومبـــذرٌ   وإِن لم يَجُـــدْ قـــالوا: شَـــحيحٌ وباخـــلُ

وإِن صـــاحبَ الغِلْمـــانَ قـــالوا: لريبـــةٍ   وإِن أجمعـــوا في اللفـــظِ قـــالوا: مبـــاذلُ

وإِن هَـــوِيَ النســـوانَ سمـــوه فـــاجراً   وإِن عَـــفَّ قـــالوا: ذاك خُنْثـــى وباطـــلُ

وإن تـــابَ قـــالوا: لم يَتُـــبْ، منـــه عـــادةٌ ولكـــن لإفـــلاسٍ ومـــا تَـــمَّ حاصـــلُ
وإن حَـــجَّ قـــالوا: لـــيس للّـــهِ حَجَّـــهُ وذاكَ ريـــــاءٌ أنتجتْـــــه المحافـــــلُ
وإن كـــان بالشـــطرنجِ والنـــردِ لاعبـــاً ولاعـــبَ ذا الآدابِ قـــالوا: مُـــداخلُ
وإن كـــانَ في كُـــلِّ المـــذاهبِ نـــابزاً وكـــان خفيـــفَ الـــرُوحِ قـــالوا: مُثافـــلُ
وإن كـــان مِغرامـــاً يقولـــون: أهـــوجٌ وإن كـــان ذا تَثْبُـــتٍ يقولـــون: باطـــلُ
وإن يَعْتَلِـــلْ يومـــاً يقولـــون: عُقوبـــةٌ لشَـــرَّ الـــذي يـــأتي ومـــا هـــو فاعِـــلُ
وإن مـــاتَ قـــالوا: لم يَمُـــتْ حَتْـــفَ أنفـــهِ لمـــات هـــو مـــن شَـــرَّ المآكـــلِ آكـــلُ
ومـــا النـــاسُ إلا جاحـــدٌ ومُعانـــدٌ وذو حَسَـــدٍ قـــد بـــانَ فيـــه التخاتـــلُ

كان لإنشاد ولدي لهذه القصيدة وقعا طيبا في نفسي.. وكأن الله ألهمه أن يقرأها في تلك الساعة ليسري عني ما أصابني من ألم.

نهضت نشيطا، وقلت: فليقولوا ما يشاءون.. وليتحجبوا بما يشاءون..

دعِ النـــاسَ لا تـــرجُ الرضـــى عنـــكَ منـــهم فلـــيس لإرضـــاءِ العبيـــدِ سَـــبيلُ
إذا كنـــتَ مِقْـــداماً يقولـــونَ أَحْمـــقٌ وإن لم تكـــنْ فظـــاً يُقـــالُ ذليـــلُ
وإن كنـــتَ جـــواداً يقولـــون مُسْـــرِفٌ وإن أنـــتَ لم تُسْـــرِفْ يقـــالُ بخيـــلُ
ولا تتـــهيبْ شـــرَّ مـــا أنـــتَ حـــاذٌق ولا ترقـــبْ خـــيرَ مـــا أنـــت آمـــلُ
فخوفُـــكَ لا يقصـــي الـــذي هـــو قـــادمٌ وشَـــوْقُكَ لا يُـــدْني الـــذي هـــو راحـــلُ

لكن الحزن عاد من جديد.. ولكن لا على هؤلاء.. ولا على الحبيب الذي أشرقت به الأكوان، وتعطرت به الأزمان.. فهو كالبحر لا تكدره الدلاء.. وإنما على أولئك البسطاء الذين لم يتح لهم أن يسمعوا إلا للأصوات المكدرة بسب الحبيب، و لم يتح لهم أن يقرأوا إلا ما يحجب عنهم الشمس التي لا حياة لهم إلا بها.

في غمرة تلك الأحزان التي ألمت بي، و لم أجد ما يرفعها عني سمعت صوت البابا يناديني.. فأسرعت أحث خطاي إليه.. وفي وجهي من الكدورة ما لم أستطع أن أمسحه.

لما رآني، وتفرس في وجهي تلك الكدورة، قال: ما بالك.. لقد حسبتك مشتاقا إلى الأحاديث التي سنتحدث عنها في رحلتنا إلى الحبيب المصطفى ﷺ.

قلت: أجل.. ومن لا يفرح بالحديث عن الحبيب.

قال: فما بال الحزن يكسو وجهك!؟

قلت: لقد تذكرت أبا جهل وأبا لهب..

قال: لقد دفنا في طي النسيان.. ولم يبق إلا الحبيب الذي اشتغلا بسبه.. فتحقق بذلك تأويل قوله تعالى:﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ (الكوثر:٣)

قلت: لكن الأمر لم يقتصر عليهما.. ولا على من عاصرهما.. لقد ولد في كل جيل من الأجيال من يخلفهما في الوظيفة القذرة التي تولوها.. ألم تسمع بسلمان رشدي.. أو برسامي الرسوم الكاريكاتورية.. أو أولئك الذين ملأوا مدرجات الجامعات بمحاضرات تلبست بلباس العلم لتصور الشمس بصورة المستنقعات والسموم والقمامات.. أو أولئك الذين تركوا سماحة المسيح ونور المسيح ومحبة المسيح ليشتغلوا بسب محمد!؟

قال: لقد سمعت بهم.. بل كنت في يوم من الأيام أمارس هذه الوظيفة القذرة.. وأنت تعلم قصتي..

شعرت بالحياء من ذكري لهذا، فقلت: أعتذر إليك.. لم أكن أقصدك، فأنت أرفع شأنا.. ولكني أقصد أولئك الذين لا يبالون بما يقولون، ولا يندمون على ما يقولون، ولا يرجعون عما يقولون.

قال: فهم لا يؤذون إلا أنفسهم..

قلت: بل يؤذون غيرهم.. فما ذنب أولئك البسطاء الذين لم يسمعوا إلا خطبهم، ولم يقرأوا إلا كتبهم، ولم يتفرجوا إلا على صورهم؟

قال: أصدقك القول.. من صدق وجد.. وقديما قال أولياء الله: جد صدقا، تجد مرشدا.

قلت: ما تقصد؟

قال: الحق عزيز.. فلذلك توضع في طريقه العقبات.

قلت: لم؟

قال: ليتميز الصادق من الكاذب، والمخلص من المنافق، والراغب من النافر.. ألم تسمع قوله تعالى، وهو يشير إلى هذه السنة من سنن العدالة الإلهية:﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) (العنكبوت:٢ ـــ ٣)؟

قلت: أعلم أن الفتن هي نار الله الحارقة التي يتميز بها الخبيث من الطيب.. وأنها أسئلة الاختبار التي يفلح المكلف على أساسها أو يخسر.. وأنها المقياس الذي يحدد أنواع القلوب وطبائعها.

قال: فلذلك كان لابد لتمييز الطيب من الخبيث من الفتنة.. والذي ينكر الفتن كالذي ينكر الامتحان نفسه، لأنه لا امتحان بدون أسئلة.

ولهذا كانت الفتن هي المحددة لحقيقة الإنسان كما قال تعالى على لسان نبيه موسى:﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ (لأعراف: من الآية١٥٥)، فالفتن حسب هذه الآية، وحسب ما ورد في النصوص المقدسة ليست شرا محضا، بل هي خير محض لمن عرف كيف يتعامل معها، كما أن أسئلة الامتحان خير محض لمن أتقن الإجابة عليها.

قلت: لقد ذكرتني بعمر.. فقد كان له فهم في كتاب الله.. وقد سمع مرة رجلا يتعوذ من الفتنة، فقال له:(اللهم إني أعوذ بك من ألفاظه، أتسأل ربك أن لا يرزقك أهلا ومالا وولدا؟)، ثم نبهه إلى ما ينبغي أن يقال، فقال:(أيكم استعاذ من الفتنة فليستعذ من مضلاتها)

بل روي أن أم سلمة قالت:(استيقظ النبي ﷺ ذات ليلة، فقال:(سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن؟.. وماذا فتح من الخزائن؟.. أيقظوا صواحب الحجر فرب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة)

قال: أرأيت.. لقد جمع رسول الله ﷺ في هذا الحديث بين الفتن والخزائن، و لم يحدد الحديث نوع الخزائن المفتوحة لتشمل جميع ما يتصور من خزائن الثواب والعقاب، ولهذا دعا رسول الله ﷺ إلى إيقاظ أصحاب الحجر اغتناما لفرصة هذه الفتن لنيل أكبر نصيب من الثواب.

ارتدت إلي نفسي، وتلك الظلمة التي كانت تملأ علي جوانحي، فصحت بلسان الاعتراض من غير شعور: ولكن لم!؟

قال: أرأيت تلك الإعلانات التي تعلنها جهات متعددة عن فتح مسابقات ترفع الناجح فيها إلى ما تهفو إليه نفسه من مناصب ودرجات؟

قلت: أجل.. وكم رأيت الأبصار تتطلع إليها؟

قال: ألا تحوي تلك المسابقات على ما تتيه العقول في فك ألغازه.. أم تراها تأتي وحلها معها؟

قلت: لو كان الأمر كذلك ما كانت المسابقة مسابقة.. ولما كان الامتحان امتحانا.

قال: فهكذا الفتن.. إنها نوع من تلك المسابقات.. ليتميز الصادق فيها من الكاذب.. ويتميز المحب المخلص من المنافق الدجال.. ويتميز بائع نفسه لله من بائعها للشياطين.

قلت: فهل لهذا صلة بذاك؟

قال: أجل.. فلو رأى الناس.. جميع الناس.. الحقائق بصورتها الكاملة التي يشتهونها ما بقي أحد في الدنيا إلا وتعلق بها.

ثم التفت إلي، وقال: هل تراهم يختلفون في التنافس على الحسناء التي تسفر عن كل جمالها؟

قلت: لا شك أنهم لا يختلفون.

قال: ولكنها إن حجبت بعض محاسنها.. أو ظهرت بصورة قد لا ترضي أهواءهم تراهم يرغبون عنها.. بل قد يرمونها بالحجارة.

قلت: أجل.. فلا يبقى عند الامتحان إلا الصادقون.. وقد سبق أن قال الشاعر يعبر عن هذا:

وفي الأحباب مختصٌ بوَجْدٍ وآخرُ يدعي معها اشتراكا
إِذا اشتبكَتْ دموعٌ في خدودٍ تبيَّنَ من بَكَى ممن تَباكا

قال: فطبق هذا المثال على الفتن التي فتن الله بها عباده ليمحص الصادقين من الكاذبين والطيبين من الخبيثين.

قلت: علمني كيف أطبق هذا المثال.. فلا زلت أرى الحقائق ولا أعيشها.

قال: أترى من العجب أن يتخذ الله بشرا رسولا يجعله واسطة بينه وبين عباده ليكون سفيرا يوصل لهم حقائق الأزل؟

قلت: لا أرى عجبا في ذلك.. فلا يمكن أن يصبح كل البشر رسلا.. ولو أصبحوا كلهم رسلا لما بقي

هناك تكليف.

قال: ولكن هذا كان فتنة لكثير من الناس.. لقد عموا عن كمالات الرسل بشيء توهموه عيبا، وهو كون الرسول بشرا مثلهم.

قلت: لقد ذكر الله تعالى هذا عن أقوام من الناس منذ بدأ الناس، فقد حكى الله تعالى عن قوم نوح ذلك، فقال:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧)﴾(هود)

قال: فبم أجابهم نوح؟

قلت: لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال:﴿ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ (هود:٢٨)

قال: فقد اعتبر أن ما حصل له من فضل الله رحمة من الله.. ولكنها عميت عليهم.. أو أنهم عموا عنها.. لأنهم احتجبوا بمظاهر البشرية عن خصائص الخصوصية.

إنهم يشبهون تلك الحسناء الجميلة التي قد تتنقب بنقاب لا يرضاه المغرورون، فيحجبون بالنقاب عن الجمال الذي تغير منه الشموس.

قلت: ولكن هناك من يقبل أن يكون البشر رسولا؟

قال: لله من الحجب ما لا يمكن لعقل أن يدرك منتهاه.. فمن لا يحجب بالبشرية قد يحجب بالعنصرية التي حجب بها اليهود وقومنا حين زعموا أن الله لا يحق له أن يتخذ رسولا من غير بني إسرائيل.

قلت: فمن لا يحجب بهذا؟

قال: قد يحجب بالبساطة التي كان يعيشها رسول الله ﷺ.. حين كان يأكل كما يأكل الناس، ويتسوق كما يتسوق الناس.

قلت: صحيح ذلك.. فقد حجب أقوام بهذا، كما قال الله تعالى:﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨) ﴾ (الفرقان)

قال: فقد حجب هؤلاء بمسير رسولهم في الأسواق، أو بأكله للطعام.

قلت: هناك كثيرون لا يحجبون بهذا.. بل يعتبرونه من الكمالات.. فالبساطة تقرب المرء من الناس.. فيشعر بما يشعرون.. ويعيش ما يعيشون.. فإذا تكلم تكلم عن بينة.. وإذا دعا دعا عن بصيرة.

قال: ولكن هؤلاء أيضا قد يحجبون.

قلت: فما الذي يحجبهم؟

قال: ألم أذكر لك أن لله من الحجب ما له من الأبواب.. بل إن كل باب من الأبواب حجاب من الحجب.. فمن انفتح له الحجاب جاوز الأبواب.. ومن لم ينفتح له الحجاب أغلقت في وجهه الأبواب؟

قلت: صدقت.. وقد ذكرتني بقوله تعالى:﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً ﴾ (الاسراء:٦٠)

فمع أن هذا الإخبار لا يحوي أي غرابة بالنسبة للعقل الذي يعلم قدرة الله التي لا تحدها الحدود إلا أنه كان فتنة كبيرة للعقول البسيطة المحدودة، وقد روي أنه لما نزلت الآيات التي ذكرت شجرة الزقوم[١] قال كفار قريش:(ما نعرف هذه الشجرة، فقدم عليهم رجل من إفريقية فسألوه)، فقال:(هو عندنا الزُبد والتمر)، فقال ابن الزبعري:(أكثر الله في بيوتنا الزقوم)، فقال أبو جهل لجاريته:(زقمينا) ؛ فأتته بزبد وتمر، ثم قال لأصحابه:(تزقموا؛ هذا الذي يخوفنا به محمد؛ يزعم أن النار تنبت الشجر، والنار تحرق الشجر)

قال: ومثل هذا الفتن الكثيرة التي تجعل من الحقائق شبهات عظيمة ينظر إليها الغافلون بأعينهم المحجوبة عن الحق، فلا يرون إلا الظلمات.

قلت: أبهذا تبرر وجود الفتن التي تقف العقول دون إدراك أسرارها؟

قال: أجل.. ولكن هذا ليس تفسيري.. بل هو تفسير الله.. فالله هو الذي يختبر عباده ليتميز الخبيث من الطيب.. لقد ذكر الله ما فتن به ثمودا، فقال:﴿ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴾ (القمر:٢٧)

فقد كانت الناقة التي عمقت إيمان المؤمنين فتنة للجاحدين.. فتميز الخبيث من الطيب.

قلت: فالاختبار واحد إذن..لكن المؤمن يستقبله استقبال الطيبين، والكافر يستقبل استقبال الخبيثين!؟

قال: أجل.. وقد ذكر الله تعالى ذلك، منبها عباده إلى هذه الأنواع من الفتن، حتى يدخلوا كل شيء عن بينة، قال تعالى:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (الحج:١١)

قلت: لقد ذكرتني بقوله تعالى عن عدة الملائكة:﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ) (المدثر:٣١)

فقد أخبر الله تعالى أن في إخباره عن عدد الملائكة الموكلين بجهنم كان فتنة للخلق، وكان تأثير هذه الفتنة مختلفا على حسب قابلية كل شخص وتعامله مع إخبارات الله.

أما المؤمنون فزادتهم إيمانا إلى إيمانهم، وعرفوا أن قدرة الله التي لا يعجزها شيء لا تعجز عن مثل هذا، بل اعتبروا هذا من دلائل القدرة التي تزيدهم إيمانا إلى إيمانهم.

أما السطحيون البسطاء في تفكيرهم الغارقون في أوحال التشبيه، فاعتبروا ذلك سندا شرعيا لكفرهم.

---

(١) كقوله تعالى:﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨)﴾ (الصافات)، وقوله تعالى:﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦)﴾ (الدخان)

وقد ورد في السيرة ذكر بعض آثار هذه الفتنة على الكافرين، قال ابن عباس:(لما نزل قوله تعالى:﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ (المدثر:٣٠) قال أبو جهل لقريش:(ثكلتكم أمهاتكم! أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر، وأنتم الدهم – أي العدد – والشجعان، فيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم!)

وقال أبو الأسود بن كلدة الجمحي:(لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة من الملائكة، وبمنكبي الأيسر التسعة، ثم تمرون إلى الجنة) ؛ يقولها مستهزئا.

وقال آخر:(أنا أكفيكم سبعة عشر، واكفوني أنتم اثنين)

وقال آخر:(أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم، ثم تخرجون من النار؟)

قال: فقس هذا على كل ما ذكره أحفاد أبي جهل وأبي لهب..

قلت: أمر هؤلاء أخطر بكثير..

قال: وما خطره؟

قلت: لم يكن لأبي جهل قناة فضائية، ولم يكن لأبي لهب موقعا إليكترونيا، ولم يكن لهما ولا لغيرهما ما لأهل عصرنا من الطاقات التي تحتار فيها الشياطين.

قال: ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لمحبيه في ذلك الوقت شيء من ذلك..

قلت: ماذا تقصد؟

قال: إن عدل الله الذي وضع الحجب حتى لا يدخل دار الطيبين إلا الطيبون صحبته رحمة الله.. فلذلك لم يترك للشر المجال وحده.. بل وضع مع الشر خيرا كثيرا لينسخه ويمسحه.. فمن التفت إليه غلب خيره شره، ومن لم يلتفت إليه حجب بالشر عن الخير.

قلت: ولكن الحملة في عصرنا شعواء.. والحرب مريرة.. لقد وضعوا أطهر خلق الله في قفص الاتهام.

قال: هم لا يفعلون إلا ما فعله المشركون والكفار في زمن رسول الله ﷺ وفي كل زمان.. ألم يحك الله عن المشركين تلك الشبهات الكثيرة التي طرحوها ووضعوا الخطب الطويلة في إثباتها؟

قلت: بلى.. فقد قال تعالى:﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (التوبة:٦١)

وقال تعالى:﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴾ (يونس:٢)

وقال تعالى:﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (هود:١٢)

وقال تعالى:﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ

أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ (الحجر:٦-١٥)

قاطعني، والدموع تفيض من عينيه قائلا: أرأيت.. إن ربي يخاطبني، ويخاطب كل تلك الجموع التي راحت تشوه الحقائق التي نطقت بها كل دلائل الأكوان.. إن هؤلاء الجاحدين لو فتحت لهم أبواب السماء.. فعرجوا إليها.. ورأوا جمالها.. لارتدوا يكذبون أبصارهم .. ويكذبوا الحقائق التي رأوها رأي العين.

قلت: نعم.. فمع أن حياة رسول الله ﷺ تمثل قمة الزهد وقمة العفاف نجد من قومنا من يرمونه بالجاري وراء شهواته.. وهو الذي لم تستقر به أرض.. وهو الذي تفطرت قدماه من السجود.. واغبرتا من السير في سبيل الله.. وأدميتا من الأذى في سبيل الله.

وهو الذي عصب الحجر على بطنه من الجوع.. ولم يعرف الفنادق التي يعرفونها، ولا الليالي الحمراء التي يعيشونها.. فليله قيام، ونهاره جهاد وصيام وطاعة تقصر عنها الجبال.

قال: إن الشياطين التي تملأ عليهم قلوبهم حجبتهم عن كل ذلك.. فلم يروا إلا زوجاته..

قلت: ولكن ألا ترى في ذلك فتنة؟

قال: قد أخبرتك بأن الله تعالى جعل من حكمته اختبار عباده بمثل هذه الفتن.. ألم تسمع قوله تعالى لرسول الله ﷺ في أمر زينب بنت جحش، فقد قال له معاتبا:﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ (الأحزاب:٣٧).. أتدري لم خشي رسول الله ﷺ؟

قلت: لقد خشي على أن يفتن قومه، فيقولوا: تزوج بنت متبناه.

قال: ولكن الله تعالى نهاه أن يخضع لتلك المخاوف.. لأن الله تعالى هو واضع الأسئلة.. وليس على رسول الله ﷺ إلا البلاغ.

قلت: لقد وعيت هذا.. فبورك فيك.. ولكن ألا يستطيع هؤلاء المحجوبون بهذه الفتن أن يحتجوا يوم القيامة في محكمة العدل التي لا تضيع مثاقيل الذر؟

قال: فما يقولون؟

قلت: يقولون: يا ربنا.. لو أن نبيك لم يتزوج تسعة نساء.. ولم يتزوج عائشة البكر الصغيرة.. ولم يغز بضعا وعشرين غزوة.. لكنا اتبعناه.

قال: فهل ترى في هذا حجة؟

قلت: هم يتصورون بينهم وبين أنفسهم أن في ذلك حجة.

قال: ليس الشأن في تصوراتهم.. بل الشأن في الحقيقة.. فالمتهم قد يرى نفسه بريئا.. ولكن الحقائق والبينات التي لدى القاضي هي التي تحدد البريء من المجرم.

قلت: فهل على هؤلاء أن يسحبوا اتهاماتهم حتى يتبصروا الحقائق؟

قال: إنهم إن لم يسحبوها بنور الحقائق.. فسيقفون يوم القيامة في تلك المحكمة التي لا تسمع إلا الحقائق..

ليقال لهم: إن الله الذي بعث محمدا.. أيده بكل تلك المعجزات.. ونصره كل ذلك النصر.. وأنطق كل الحقائق لتدل عليه.. هو الذي أباح له.. بل هو الذي أمره أن يتزوج بأولئك النسوة.. وأن يغزو تلك الغزوات.. فهل ستراهم يخاصمون الله؟

قلت: لا يمكنهم ذلك فالله:﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ (الانبياء:٢٣)

قال: ومع ذلك.. فإن الله ــ بعدله ــ لو سألوه لأجابهم.. ولقال لهم: ألا ترون حكامكم يسلمون قصورا خاصة.. وتتاح لهم حصانة خاصة.. وتعطى لهم من الصلاحيات ما لا يعطى لغيرهم.. ثم ترون كل ذلك طبيعيا لا شبهة فيه؟

قلت: لا شك أنهم يجيبون بالإيجاب.. فكل حكام العالم.. وكل ملوكه.. لهم ما وصفت.. بل لهم من الدنيا ما لم تر عين، أو تسمع أذن، أو يخطر على قلب بشر.

قال: فلم يحجرون على رسول الله ﷺ أن يزوجه الله من يشاء ومتى يشاء؟

سكت، فقال: إن العقول هي التي تحاسب.. ولذلك ستواجه بأنواع الحجج.

قلت: أترى المنطق الذي نعيش به في الدنيا هو نفسه الذي يحكم أحكام الآخرة؟

قال: أجل.. فالله هو الذي وضع برامج العقول.. وهي برامج لا تتخلف، فلا تبديل لكلمات الله.

قلت: فأنت ترى أن يخاطب هؤلاء بالعقل..!؟

قال: بالعقل المؤيد بالنقل.. لتقام عليهم الحجة.. ثم هم بعد ذلك وما يشاءون.. إن شاءوا أن يحكموا عقولهم.. وإن شاءوا حكموا الشياطين التي تملي على عقولهم كيف تفكر.

***

ما وصل البابا من حديثه إلى هذا الموضع حتى شعرت براحة تملأ أقطار نفسي.. ولكن سرعان ما شعرت بالألم يعتريني من جديد.. فقد كنت أبحث عن فك رموز الشبهات.. وكنت ــ كعهدي بنفسي دائما ــ لا يقنعني الإجمال.. فلا يرضي همتي إلا التفاصيل التي أتبصر بها الحقائق.

طالع البابا ــ بما أعطاه الله من بصيرة ــ ما في نفسي، فقال: أعلم ذلك.. أنت تحب التفاصيل.. ولا يقنعك الإجمال.

قلت: لقد آتاك الله فراسة.. ولكني مع ذلك لن أشغلك عن حديثك عن رحلتك إلى الإسلام.. فلندع هذا الموضوع إلى نهاية رحلتك إلى شمس محمد ﷺ.

قال: بل هذه هي مقدمة هذه الرحلة.. فرحلتنا اليوم إلى (النبي المعصوم).. ولا يصلح مقدمة لهذا إلا هذا.. ولا يجيب عن شبهاتك إلا رحلتي هذه.. فقد كنت ممتلئا شبهات تضيق بها أركان نفسي.. وكنت في بيئة لا تنفخ في نفسي إلا شياطين الشبهات.

قلت: فهل وقاك الله شرها؟

قال: أجل.. ففضل الله واسع.. وقد كنت كلما محوت شبهة حل محلها نور وشعاع جديد من أشعة شمس محمد ﷺ.

قلت: فكيف بدأت رحلتك؟.. وهل التقيت في بدايتها معلمي (معلم السلام) كما تعودت أن تلتقي به؟

قال: أجل.. ولكن قبل ذلك حصلت أحداث.. سأحكي لك ما نحتاج إليه منها في رحلتنا هذه.

***

اعتدل البابا في جلسته، وحمد الله، وصلى وسلم على نبيه، ممتلئا في كل ذلك خشوعا ووقارا ملأني منه هيبة، ثم قال: لقد ذكرت لك في رحلاتي السابقة أن أخي ترقى في مراتب الكنيسة، ليصل إلى الفاتيكان، ليحقق حلمنا في ذلك الكرسي الذي عشنا حياتنا من أجله.

وذات يوم دخلت إلى غرفتي فإذا بي أجد أخي يطالع دفتري الذي وضعته عن القلوب التي تعلقت بمحمد ﷺ.. لكنه ما إن رآني حتى أسرع، فأغلقه، ثم قال لي: هذا دفتر مهم.. وقد أوحى لي نظري فيه مشروعا.. إن حققناه بنجاح، فسيتاح للمسيحية من الانتشار ما لم يتحقق لها في جميع تاريخها.

قلت: المسيحية تنتشر بقوة.. ولا تحتاج إلى أي مشاريع.

قال: ذلك صحيح.. ولكنها تنتشر ببذل المال[1] .. وهي بذلك قد أصبحت عبئا ثقيلا على المحسنين.

قلت: هل تريد أن تنشرها بغير مال.. إن ذلك مستحيل؟

قال: وما وجه الاستحالة؟

قلت: أنت تعلم وجوه الاستحالة.. وقد جرب غيرنا من قبل ما ذكرته، فلم نحصل على شيء.

قال: ولكن الإسلام ينتشر من غير مال.. بل إنه ينتشر بقوة.. انظر ما كتبته هذه الجريدة من إحصائيات.. وما علقت عليها من تعاليق.

نظرت.. فوجدت فيها (في بريطانية يعتنق الإسلام أكثر من خمسة آلاف بريطاني كل عام.. وفي فرنسا بلغ الذين اعتنقوا الإسلام حتى الآن أكثر من ٤٠٠ ألف فرنسي.. وفي الولايات المتحدة بلغ عدد المسلمين السود والبيض أكثر من مليونين.. وفي اليابان تجاوز الذين اعتنقوا الإسلام ١٥ ألف ياباني في عامين)

ثم رأيت تعقيبا على هذه الإحصائيات يقول: (وفق دراسات مركز (رصد العقائد) في مدينة (برن)

---

(١) بسبب ما يملكه المبشرون من إمكانات ضخمة أوصلتهم إلى جميع الأماكن التي يريدونها والعمل فيها بكل قوة، وفي المقابل الإمكانات الضعيفة والشحيحة لدى الدعاة المسلمين هذا كله جعل التنصير عامل إعاقة قوي لانتشار الإسلام بين غير المسلمين. فقد توقف انتشار الإسلام في إفريقيا جنوبي الصحراء، فقد كان المسلمون عشرة أضعاف المسيحيين واليوم أصبح المسيحيون أضعاف المسلمين.

وفيما يلي بعض الحقائق عن الجهود التنصيرية وما يتوفر من إمكانات للتنصير في جنوب إفريقيا، وهذا على سبيل المثال لا الحصر:

١٦٠٠ مستشفى، ٥١١٢ مستوصف، ١٠٥٠صيدلية، ١٢٠ ملجأ للمرضى، ٩٠٥ دار لإيداع الأيتام والعجزة والأرامل، ٨٨٦١٠ كتاب تنصير مطبوعة بعناوين مختلفة ونشر منها مئات الملايين، ٢٤٩٠٠ مجلة كنسية أسبوعية يوزع منها ملايين النسخ، ٧٠٠٠٠٠نشره يوزع منها عشرات الملايين، ٢٣٤٠محطة إذاعية وتلفازية تنشر تعاليم الإنجيل وخدمة التنصير، ١٢٠٠٠٠معهد تنصير، ١١٠٠٠ روضة أطفال تلقنهم فيها التنصير، ١١٢٠٠٠٠٠٠ نسخة توزع مجاناً من الإنجيل في العالم، ٦٥٢ لغة ولهجة إفريقية ترجم لها الإنجيل على كاسيت للأميين.

ومع هذه الجهود الجبارة إلا أن التنصير بين المسلمين فيه صعوبة كبيرة جداً.

انظر:: التنصير طرقة وأساليبه ص(٤)

بسويسرا فإن الإسلام أكثر الأديان انتشارا في العالم.. وهذه الحقيقة قد أكدها دارسو الأديان، فالباحثة الكهنوتية الأمريكية كارول أنوي تقول: (الإسلام هو أسرع الأديان انتشاراً في أمريكا الشمالية)[1]، والدكتور هستون سميث يقول:(إن الإسلام في هذا العصر كما في العصور السابقة أسرع الأديان إلى كسب الأتباع المصدّقين)[2]، والمبشر جون تكل يقول:(الإسلام آخذ في الانتشار رغم أن الجهود التي تبذل في سبيله تكاد تكون في حكم العدم)[3]

فإذا علمنا أن الإسلام ينتشر بجهود فردية مبعثرة، وأنه لا يرصد في سبيله إلا نسبة ضئيلة جداً مما يرصد للتبشير بغيره من الأديان، إذا علمنا هذا علمنا يقيناً مدى الصدق الذي تحمله الصرخة البائسة التي أطلقها لورنس براون حين قال:(الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام، وفي قدرته على التوسع، وفي حيويته، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار)[4].. وأطلقها مثله المستشرق هاملتون جب حين قال: (إن أخطر ما في هذا الدين أنه ينبعث فجأة دون أسباب ظاهرة، ودون أن تستطيع أن تتنبأ بالمكان الذي يمكن أن ينبعث منه)[5]

أغلقت الجريدة، ثم نظرت إليه، وقلت: فأنت تريد أن تنتشر المسيحية بهذا الأسلوب..!؟

قال: وما الذي يمنعنا من ذلك؟

قلت: كل شيء يمنعنا من ذلك.. وأنت تعلم كل ذلك.. فكتابنا المقدس يختلف كثيرا عن كتابهم.. وليس في عقيدتنا من اليسر والوضوح والقوة ما في عقيدتهم.. وليس في شريعتنا ما في شرائعهم.

قال: ولكن المسيح لنا ومعنا.. وهو يغنينا عن كل ذلك.

قلت: وهم يؤمنون بالمسيح كما نؤمن به.. بل ويقدرونه أعظم من تقدير عوامنا وخواصنا له.

قال: وتلك ميزة تيسر علينا الدخول عليهم.. فسندخل عليهم من المسيح الذي يحبونه لنمحو من أذهانهم اسم (محمد)

لست أدري كيف شعرت بألم شديد، وهو يذكر محمدا ﷺ بهذا الأسلوب.. لقد اكتشفت في تلك اللحظة أن البذور التي نبتت منها محبة محمد ﷺ قد غرست في قلبي.. فلذلك آلمني ما قاله أخي.. لكني أمسكت لساني عن أن ينكر عنه ما قال.

قلت: فكيف نمحو اسم (محمد) الذي استقر في ضمائرهم، وامتلأت به جوانحهم؟

قال: بما يمحو به السياسيون بعضهم بعضا.

قلت: السياسيون يمحو بعضهم بعضا بالفضائح..

قال: فلنمارس هذا الأسلوب مع محمد.. إن محمدا ينال أكثر أصوات الناخبين، ليزاحم مسيحنا المقدس.. وإخلاصنا للمسيح يقتضي أن نمارس كل الأساليب حتى نحطم أخطر جبل يقف في وجه المسيحية.

---

(١) سر إسلام الأمريكيات، كارول أنوي، ص١٨٠.
(٢) ديانات الإنسان، د. هستون سميث.
(٣) الغارة على العالم الإسلامي، ل.شاتلييه.
(٤) عن (التبشير والاستعمار) د. عمر فروخ ومصطفى الخالدي، ص ١٤٨.
(٥) عن (أمريكا والإسلام) د.عبد القادر طاش، ص ١٣٣.

قلت: ولكنا إن فعلنا ذلك وقعنا في كذب كثير.. و لم تعد لنا قداسة الأحبار.

قال: ومن ذكر لك بأن الذي يقوم بذلك نحن؟

قلت: ومن يقوم به؟

قال: هذا ما جئت لأحدثك عنه.. وهذا هو المشروع الذي لو قدر له أن ينجح، فسيكون فتحا عظيما في المسيحية لم يحصل مثله من قبل.

قلت: لم أفهم ما الذي ترمي إليه.

قال: ألا ترى الأحزاب الضعيفة كيف تتحالف، ثم كيف تتضخم مع ضعفها لتقضي على كل المنافسين؟

قلت: ذلك في السياسة ونحن في الدين.. وفي السياسة من التلاعب ما ليس في الدين.

قال: كل شيء سياسة..

قلت: فما السياسة التي تريد أن نمارسها لنوقف زحم الإسلام؟

قال: تشويه (محمد)..

لست أدري كيف نهضت من مكاني، وصحت في وجه أخي بقوة: لا.. لا.. ذلك ليس ممكنا.. لا ينبغي أن نفعل هذا.. إن كل شيء سيلعننا إن فعلنا ذلك.. إننا سنتحول إن فعلنا ذلك إلى شياطين أهل الندوة.

تعجب أخي من موقفي، وقال: ما بالك.. أراك تدافع عن محمد؟.. أرى سهام المسلمين المسمومة قد أثرت فيك؟

ارتددت إلى نفسي، فقلت: لا.. أنت لم تفهم موقفي.. لا يمكننا ـــ ونحن في هذه المرتبة الرفيعة من مراتب الكنيسة ـــ أن نفعل هذا.

قال: صدقت في هذا.. وهذا ما خططت له.

قلت: أرحني بذكر مخططك.. ولا تكثر من المقدمات.

قال: لقد فكرت في إجراء تحالف قوي للكنيسة مع كل من يبغض محمدا ﷺ سواء كان مسيحيا أو ملحدا.. حتى لو كان يكره المسيحية، ويكره المسيح، فيمكننا أن نتحالف معه لنقضي على (أسطورة محمد)

قلت: فكيف يتم هذا التحالف؟

قال: بأن نتفق جميعا فيما نقول، وفيما نفعل.

قلت: لا زال الجميع يسبون محمدا.. فما ميزة المشروع الذي جئت به؟

قال: التحالف.. فبالتحالف يصير الضعيف قويا، والجبان شجاعا..

قلت: ومن ترى أنه سيتحالف معك؟

قال: الجميع.. كلهم سيمدون أيديهم سواء كانوا ساسة أو اقتصاديين أو فلاسفة.. كل أصناف المجتمع يمكنها أن تمد يدها إلينا.

قلت: فهل أخبرت البابا عن عزمك هذا؟

قال: لا يمكنني أن أخبر البابا عنه إلا بعد أن ينجح..

قلت: كيف تعرف أنه نجح أو لم ينجح؟

قال: لقد كنت منذ مدة طويلة ــ بل في جميع فترات غيابك ــ أخطط لهذا، وقد كسبت عشرة رجال من مختلف المشارب، وكلهم يلبس عباءة بغض محمد.. وسنستثمرهم لنبدأ هذا المشروع.

ابتسمت ساخرا، وقلت: عشرة!؟.. أتريد بعشرة رجال أن توقف زحمم الإسلام، وتشوه شخص محمد!؟.. إن لدينا أساطيل من الجيوش.. وكلها لم تطق، فكيف يطيق عشرة.. أم أنك ستزود كل واحد منهم بقوة (السوبرمان) ليتمكن من غسل جميع أدمغة المسلمين.

قال: أنت إلى الآن لم تفهمني..

قلت: فاشرح لي..

قال: هذا مشروع.. وكل مشروع في الدنيا يعتمد عينة.. ثم تعمم أحكام العينة على الجميع بعد ذلك.

قلت: فأنت تريد أن تختبر مدى صلاحية مشروعك بهؤلاء العشرة؟

قال: لقد فهمتني الآن.. فلا يمكنني أن أطرح على البابا هذا المشروع إلا موثقا بالبينات والإحصائيات.. ألا تعلم أن الكنيسة لم تعد تعتمد الأساليب التي مارسها أسلافها.. لقد أصبحت كنيسة علمية تعتمد كل أساليب البحث العلمي.

قلت: فكيف تسجل البينات؟

قال: بكل أنواع التسجيل.. التسجيل الإحصائي وبالصور.. بل بالكاميرا أسجل كل ما سيحصل.. وسنرى من تحليلنا لما نراه ما ينبغي أن نفعله.

قلت: إن هذا يحتاج أموالا..

قال: إن وظيفتي هنا ترتبط بهذا.. ولي ميزانية خاصة لا أسأل فيها عما أصرفه من أموال.. ولكني مع ذلك لن أصرف شيئا.. فقد ذكرت لك أني أريد أن أوقف زحف الإسلام من غير مال ولا سلاح.

قلت: فهل سنذهب إلى أدغال إفريقيا لنفعل ذلك؟

قال: أهل إفريقيا يروننا خبزا قبل أن يرونا كنيسة.. ولذلك لن نذهب إليهم.. ولا إلى جميع فقراء العالم.. بل لن نخرج من أوروبا..

قلت: أوروبا لن تحتاج إلينا.. فأهلها مسيحيون.

قال: سنذهب إلى أولئك الذين باعوا المسيحية بالإسلام.. وانتخبوا محمدا بدل المسيح.

قلت: فماذا نقول لهم؟

قال: لقد ذكرت لك أن مشروعي يهدف إلى استخدام كل الطاقات وجمعها لتتحول وجهة واحدة هي رمي محمد بالفضائح التي تحول القلوب عنه.. ولهذا سنذهب إلى هؤلاء.. أو ستذهب هذه الطاقات إلى هؤلاء لتريهم من صور محمد ما لم يروا.. وتسمعهم من أخبار محمد ما لم يسمعوا.

***

في ذلك المساء..

خرجت إلى الغابة التي كنت قد وصفتها لك من قبل[1].. وهناك استلقيت على عشبها، وفي قلبي آلام لست أدري سببها.

نظرت إلى السماء الزرقاء الجميلة.. ونظرت إلى أشعة الشمس الحنون وهي تسقي الحقول والأزهار والمياه.. وقلت لنفسي: يا ترى كيف تكون الدنيا لو وضعت الحجب على الشمس.. هل ستتفتح الأزهار.. وهل ستغرد الأطيار.. وهل ستبقى الألوان الجميلة التي يكتسي بها الكون!؟

بينما أنا كذلك إذا بي أسمع صوت صاحبك (معلم السلام)، وهو يقول: الشمس أقوى من أن تحجبها الأكف المشلولة.

قلت: أنت!؟.. ما الذي جاء بك إلى هنا؟

قال: الذي جاء بك إلى هنا.

قلت: الهم هو الذي جاء بي إلى هنا.. فقد قدر لي أن أعيش مع من لا شغل له غير سب الشمس، ووضع الحجب عليها.

قال: فقد أريد لك إذن أن ترى من الشمس ما لا يرى غيرك.. فأبشر.

قلت: كيف تبشر المتألم الحزين؟

قال: في كل شيء وضع الله الحزن والسرور.. فكل شيء يمكنه أن يملأك حزنا، وفي نفس الوقت يملؤك سرورا.

قلت: هذا تناقض.. فالحزن والسرور متناقضان لا يلتقيان إلا إذا التقى الخطان المتوازيان.

قال: هما لا يلتقيان.. ولكنهما يسيران في اتجاه واحد.. وهذا كاف لالتقائهما.

قلت: لم أفهم.

قال: أخبرني ما الذي يحزنك لأدلك على مواضع السرور فيه.. فيستحيل أن يكون هناك شيء محزن دون أن يضع الله فيه ما يملؤك سرورا.

قلت: فلنجرب ما تقول.. أنا حزين لأن أخي التوأم يريد أن يشوه الشمس.. وهو يطلب مني أن أشاركه في هذا.. وقد عقد لذلك حلفا شيطانيا أخاف على نفسي من لعناته.

قال: فأبشر.. فقد أراد الله أن يريك من جمال الشمس ما لم تكن ترى، ويعلمك من علومها ما لم تكن تعلم.

قلت: لم أفهم.

قال: إن أخطر ما يصاب به البشر هو الغفلة.. فالغفلة تعني احتقارك للأشياء وعدم شعورك بها.. فلذلك ينبهنا الله بالآلام والأحزان ليزيح عنا الغفلة..

نظر إلى عيني فوجدهما لا زالتا تبحثان عن تفسير، فقال: هل كان يمكن لك أن تعلم جمال الصحة لو لم تر آلام المرض؟

---

(١) انظر مقدمة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

قلت: صحيح ما ذكرت.. فالصحة تاج على الأصحاء لا يراه إلا المرضى.

قال: وقد يراه الأصحاء إذا شفوا من أمراضهم.

قلت: صحيح ذلك.. فما علاقته بهذا؟

قال: إن ما ذكرت لي من هذا التحالف لا يختلف عن الفيروسات والجراثيم التي تغزو الأجسام لتنهك صحتها.. لكن الجسم القوي سرعان ما يقاومها.. فيكتسب بمقاومتها مناعة وصحة.

قلت: ولكنه قد يضعف.. فتقتله.

قال: لا خير في جسم ضعيف.. فلذلك لا تحزن عليه.. واطلب جسما أقوى.

قلت: فهمت.. لا ينبغي أن أفر إذن..

قال: إنك إن فررت تكون قد فررت من نفسك.. فليس في الخارج إلا صدى نفسك..

قلت: صدقت.. إني بيني وبين نفسي تعتريني شبه أجتهد اجتهادا مؤلما في صرفها.

قال: أنت تفر منها.. ولا يمكنك أن تفر من شيء يسكنك.. لأنها إن خرجت من قلبك ووعيك سكنت محلا من عقلك.. وما سكن محلا من عقلك يوشك أن تسقيه الأيام قوة ليسيطر على كل عقلك.

قلت: بدأت أفهم.. نعم.. صحيح ما تقول.. فما في الخارج صدى لما في نفسي.. إن نفسي تفر.. فلذلك ووجهت بما تفر منه.

نظر إلي نظرة حازمة ممتلئة عتابا كعتاب المحبين، ثم قال: لن ينجيك في هذه المفازة المملوءة بالأفاعي والسباع إلا حصن واحد.

قلت: ما هو؟

قال: العقل.. فلا يمكن لمن ألغى عقله أن ينجو في هذه المتاهة.

قلت: لا يمكن لأحد أن يلغي عقله.

قال: كلهم يلغون عقولهم.. كلهم يلغون عقولهم..

قال ذلك، ثم انصرف وهو يردد ذلك.. طلبت منه أن يقف، فلم يقف.. بل سار حتى غيبه الأفق.

***

بعد أيام قليلة طلب مني أخي أن أصحبه ليريني مفاجأة سماها (مفاجأة العصر)، فسرت معه، وأنا ممتلئ مخافة من هذه المفاجأة التي يريد أن يريها لي.. فأنا أعلم أن ما في نفسه من أحقاد على محمد ﷺ لن يرشح منها أي خير.

وصلنا دارا واسعة محاطة بحديقة غريبة.. لقد كان ذوق أصحاب الدار عجيبا، حيث أنهم لم يرضوا لها إلا أن تزين بأفتك أنواع الأشجار الشوكية، حتى صارت تشبه دور السحرة كما تمثل في الأفلام الخيالية.

سألت أخي متعجبا عن تزيين الدار بمثل هذه الأشواك، فقال: هذه موضة جديدة.. والمصمم الذي صمم هذه الدار استوحى آخر التصاميم.

قلت: أتعرفه؟

قال: وكيف لا أعرفه.. وأنا الذي قصدته ليصممها؟

قلت: فهذه الدار ملكك إذن.. وهي المفاجأة التي تريد أن تريني إياها؟

قال: هذه الدار ملك لأجيال كثيرة من الناس.. وربما تصلح هذه الأيام أن تكون ملكا لنا.. أما المفاجأة التي أريد أن أريك إياها، فهي في داخل الدار.. فهلم معي إليها.

دخلنا الدار، وكان أول ما واجهنا لافتة مكتوب عليها (دار الندوة)، فدهشت، وقلت لأخي: ما هذا الاسم؟

قال أخي: هذا الاسم هو المفاجأة.

قلت: لم أفهم.

قال: لاشك أنك تعرف (دار الندوة) التاريخية.

قلت: أجل.. تلك الدار التي كان يجتمع فيها الملأ من قريش ليشوهوا محمدا ودين محمد.. ويحاربوا محمدا ودين محمد.

قال: فقد اجتمعت أنا والنفر الذين ذكرتهم لك.. وأحيينا تلك الدار من جديد، لتؤدي وظيفتها بأسلوب عصري يستخدم آخر تقنيات العصر.

قلت: ولكن تلك الدار التي كان يجتمع فيها الملأ من قريش كانت دارا مشؤومة، لم تنجز شيئا، ولم تستطع أن تصد زحف محمد ودين محمد.

قال: لأنهم اعتمدوا طرقا بدائية.. ثم إن خسارة معركة من المعارك لا تعني الهزيمة النهائية.

صحت في أخي: ولكن ألا تشعر بأنك تريد أن تدخل في المسيحية هرطقة لم تكن في أسلافها؟

لست أدري كيف خرج رجل من منفذ من منافذ تلك الدار، وكأنه خرج من بطن من بطون الكتب المبعثرة فيها، وقال: لا.. بل نريد أن نحيي سنة مسيحية لم تزل ولن تزال.. وليس لنا من دور هنا فقط إلا التجديد.

قلت: من أنت؟

قال أخي: هذا أحد أفراد جماعتنا، بل هو أهم أفراد جماعتنا، وهو رجل حفظ التاريخ عن ظهر قلب، ويستطيع أن يعد لك الآلاف من رجال الكنيسة الذين ملأوا في يوم من الأيام رحاب مثل هذه الدار.

قلت: إن لهجته غريبة، وهي تدل على أنه ليس من أهل هذه البلاد.

قال: ذلك صحيح.. ولكنه يتقن جميع اللغات.. بل تستطيع أن تطلق عليه قاموس لغات.

قلت: ومن أين هو؟

قال: لقد ذكر لي بعض من سكن هذه الدار بأنه من نجد.. وقد كان بعض سلفنا يطلق عليه لقب (الشيخ النجدي)[1]

([1]) نريد بالشيخ النجدي هنا الشيطان الذي حضر اجتماع دار الندوة في الوقت الذي خطط فيه المشركون لقتل النبي ﷺ ففي الحديث عن عبد الله بن عباس ــ رضي الله عنه ــ قال: لما أجمعوا لذلك واتعدوا أن يدخلوا في دار الندوة ليتشاوروا فيها في أمره

قاطعنا الرجل، وقال: تعال أريك شيئا..

سرت معه، ففتح خزانة مملوءة بالمخطوطات القديمة، وقال: انظر هذه المخطوطات.. إنها جميعا حروب ساخنة ضد محمد ودين محمد.

قلت: من كتبها؟

قال: كثيرون هم.. منهم يوحنا الدمشقي، وتلميذه أبو قره، ويوحنا النقيوسي، ويحى بن عدي.. ومنهم ثيوفانس المعترف، ونيقتاس البيزنطي، وجرمانوس.. ومنهم ايزدور الأشبيلي، وأولوخيو، وبول الفارو.. ومنهم بدرودي الفونسو، وسان بدرو باسكوال، وريكولدو دي مونت كروس، ورامون مارتي، وريموندلول، ووليم الطرابلسي، ووليم الصوري، ووليم آدم، وجاكيوس دي فتري، وهامبرت الروماني، وفيد يترو أوف بافيا.. وغيرهم كثير.

قال ذلك، ثم أخرج كتابا ضخما، وقال: انظر على سبيل المثال هذا الكتاب.. إنه يسمى المشروع الكلوني، وهو أول وأكبر مشروع استشراقي هدف بالدرجة الأولى إلى تفنيد الإسلام.

إن هذا المشروع يصح أن يطلق عليه بأنه المشروع الغربي الأكبر لتشويه صورة الإسلام.

قلت: متى كان هذا، ومن تبناه؟

قال: لقد تأسس هذا المشروع سنة ١١٤٣ م، وهو يُنسب إلى دير كلوني في جنوب فرنسا ـــ الذي تأسس سنة ٩١٠م ـــ ومنه انبثقت حركة لإصلاح الحياة الرهبانية عُرفت في التاريخ الأوربي باسم (حركة الإصلاح الكلونية) التي لم تلبث أن أسهمت في تقوية الجهاز الكنسي في الغرب الأوربي.

وقد نال دير كلوني منزلة الحصانة تحت الحماية المباشرة للبابا في روما، والحق المطلق في أن ينشئ أديرة أخرى تابعة لهُ.

وخلال القرنين التاليين من تأسيسه نال دير كلوني تأثيراً كبيراً وثروة ضخمة، وأصبح في الواقع عاصمة للامبراطورية الديرية حيث يتبعه أكثر من ستمائة دير، وعشرات الآلاف من الرهبان في كل مكان من العالم الغربي.

بل ترقى رهبان ديركلوني إلى بابوات وكرادلة، وكثير من رؤسائه كانوا مستشارين للاباطرة والملوك.

لا شك أنك تعرف البابا جريجوري السابع، وتلميذه البابا أوربان الثاني.

قلت: ومن لا يعرفهما.. إنهما اللذان أطلقا الحروب الصليبية ضد المسلمين.

قال: فقد كان هذان الرجلان من رهبان دير كلوني.

لقد تم في سنة ١١٢٢ اختيار رئيس جديد لدير كلوني هو الراهب بيير موريس دي مونتبوسيير، الذي أطلق عليه معاصروه لقب بطرس المكّرم.

ﷺ غدوا في اليوم الذي اتعدوا له وكان ذلك اليوم يسمى يوم الرحمة، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل، عليه بتلة فوقف على باب الدار فلما رأوه واقفا على بابها، قالوا: من الشيخ؟ قال شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يعدمكم منه رأيا ونصحا، قالوا: أجل فادخل فدخل معهم.. الحديث رواه ابن إسحق وغيره.

وقد أمضى هذا الراهب المحترم سنواته الأولى في تدعيم سلطة الدير ومكانته، وفي سنة ١١٤٢ قام برحلة إلى شمال الأندلس لزيارة الأديرة الكلونية في تلك البلاد، وهناك علم من بعض المترجمين بوجود رسالة لنصراني شرقي تدافع عن النصرانية وتهاجم الإسلام مكتوبة باللغة العربية، وعرف منهم مضمونها، فقرر القيام بمشروع ترجمتها وترجمة القرآن الكريم وبعض المصنفات الأخرى إلى اللاتينية بهدف دحض الإسلام والرد عليه.

عاد بطرس المكرّم إلى دير كلوني في فرنسا بعد أن اتفق مع خمسة مترجمين للقيام بالعمل لديه، وبيّن لهم أهدافه من المشروع وأجزل لهم العطاء لتنفيذه.

فتح المؤرخ الكتاب الضخم على جزء من أجزائه، وقال: هذا الجزء على سبيل المثال ترجمة للقرآن إلى اللغة اللاتينية، وهي احدى الترجمات الخمس التي أصبحت تُعرف في أوربا بإسم المجموعة الطليطلية، وقد قام بهذه الترجمة مترجم انجليزي يسمى روبرت أوف كيتون كان قد استقر في برشلونة في الأندلس منذ سنة ١١٣٦ وأتقن العربية واهتم بالمؤلفات العربية في علم الفلك والهندسة، وقد عَلِمَ روبرت أوف كيتون من بطرس المكرم أن هدفه تعريف الغرب المسيحي بالإسلام الذي يعتبره هرطقة من الهرطقات الكبرى التي هددت النصرانية، وأن بطرس المكرم ينوي الرد على الإسلام، لذلك قام روبرت أوف كيتون بترجمة ذكية لمعاني القرآن، كان لها تأثيرها الجيد في صياغة العقيدة الغربية الحاقدة تجاه محمد ودين محمد.

سأقرأ عليك بعض ما جاء في مقدمته لتلك الترجمة.. لقد أطلق عليها بذكائه الحاد اسم (تمهيد عن الخرافة الإسلامية المسماة بالقرآن).. اسمع..

أخذ يقرأ من المخطوط بصوت عال، وكأنه تقمص شخصية كاتبها:(أنا كشفت عن شريعة محمد بيديّ، وجلبتها إلى خزينة اللغة الرومانية، الأمر الذي سوف يساعد رسالة المسيح المخلّص على الانتشار وتخليص الجنس البشري من هذا الإثم ــ الإسلام ــ.. ذلك أن دكاترة الكنيسة أهملوا تلك الهرطقه الكبرى ــ يقصد الإسلام ــ لتصل وتصعد إلى شئ ضخم جداً ومفرط لمدة خمسمائة وسبع وثلاثين سنة، لأنها مهلكة وضارة، بسبب أن الزهرة من تلك العقيدة المتعصبة الفاسدة، مجرد غطاء فوق عقرب، تحول دون أن تلفت الأنتباه إليه، وتُحطِّم بالخداع قانون الدين المسيحي)

التفت إلي، وقال: اسمع أنه يقول مخاطباً بطرس المكرَّم:(ولذلك قمت بالعمل معك لما علمت أن نفسك مجتهدة في سبيل كل شيء صالح، وأنك تتوق إلى ردم المستنقع غير الخصب للعقيدة الإسلامية.. لذلك أنا كشفت عن السُّبل والوسائل ــ بكل جهدي ــ للوصول إلى ذلك.. وهكذا أنا أحضرت الخشب والحجارة اللازمة لعمارتك الجميلة التي يجب أن تنتصب فوق الجميع خالدة، أنا كشفت الغطاء عن دخّان محمد الذي يجب أن يُخمد بواسطة منفاخك)

التفت إلي، وقال: سأضرب لك أمثلة عما قام به هذا الرجل الداهية المخلص:

انظر هنا.. لقد أعطى معنىً غامضاً لخطاب (يا أهل الكتاب) وجعله يبدو في معظم الأحيان وكأنه موجه للمسلمين.. وهو بذلك ــ وبذكاء حاد ــ يحول كل انتقادات القرآن لليهود والمسيحين إلى المسلمين أنفسهم.

فتح صفحات من الكتاب، وقال: انظر هنا.. لقد أضفى على كل الآيات المتعلقة بأحكام الزواج والطلاق

معاني جنسية داعرة بحيث تبدو للقارئ الغربي لاسيما الرهبان مثيرة للاشمئزاز والنفور .. انظر ما يقول في الآية ٢٣٠ من سورة البقرة.. (فإن طلقها فلا تحل له حتى يطأها رجل غيره)[1]

وانظر ما يقول في الآية ٢٢٠ من سورة البقرة.. (ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير، وإن تخالطوهم بأن تمارسوا معهم اللواط)[2]

وانظر ما يقول في الآية ٢٢٣ من سورة البقرة.. (نساؤكم حرث لكم فأتوا نساءكم في أدبارهن)[3]

وانظر ما يقول في الآية ٥٠ من سورة الأحزاب.. (يا أيها النبي نحن نجيز لك أزواجك اللائي أتيتهن مهورهن، وجميع إيمائك اللائي أعطاكهن الله، وبنات عمك، وبنات عماتك، وبنات خالك وبنات خالاتك، اللائي اتبعنك، وكل امرأة مؤمنة إذا هي ترغب أن تقدّم جسدها أو نفسها للرسول، وإذا الرسول يرغب أن يضطجع معها فليفعل، وهذا خاص لك وليس للمؤمنين الآخرين)[4]

أرسل ضحكة عالية، وقال: أرأيت هذا الذكاء الحاد الذي اتسم به هذا المترجم.. إن هذه الترجمة التي قام بها روبرت أوف كيتون لحساب بطرس المكرم سنة ١١٤٣ هي أول ترجمة عرفتها أوربا.. وقد كان لها تأثير خطير على الفهم الأوربي للإسلام حتى القرن الثامن عشر، فقد ظلت تنتشر مخطوطاتها حتى قام عالمان سويسريان بطباعتها في بازل سنة ١٥٤٣ وعن هذه الترجمة اللاتينية قام أريفابيني الإيطالي بترجمتها إلى الإيطالية سنة ١٥٤٧ وعن هذه الترجمة الإيطالية قام سالمون اشفجر بترجمتها إلى الألمانية سنة ١٦١٦ وعن هذه الترجمة الألمانية تُرجمت إلى الهولندية سنة ١٦٤١.

فتح الشيخ النجدي ذلك الكتاب الضخم على جزء آخر منه، وقال: هذه هنا (رسالة النصراني الشرقي)، وهي الأخيرة في المجموعة الطليطلية، وتُعرف باسم (الرسالة الإسلامية والجواب المسيحي).. وقد كانت هذه الرسالة هي سبب المشروع الكلوني جميعه.

إن هذه الرسالة عبارة عن رسالة وجواب على الرسالة.. الرسالة مرسلة من رجل مسلم يُدعى عبدالله بن إسماعيل الهاشمي إلى صديق له مسيحي يدعى عبد المسيح بن إسحاق الكندي.

وقد صيغت رسالة الهاشمي بحيث يبدو قريباً للخليفة المأمون، بينما صيغ الجواب وكأن الكندي يعمل في بلاط الخليفة نفسه.

ابتسم، وقال: من الواضح أن كلا الاسمين مستعاران، وأن كاتب النصين عالم عربي مسيحي عاش في العراق في القرن العاشر الميلادي.. لقد كان هذا الكاتب في منتهى الذكاء والإخلاص.

---

(1) يريد بذلك قوله تعالى:﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ (البقرة: من الآية٢٣٠)

(2) يريد بذلك قوله تعالى:﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ)(البقرة: من الآية٢٢٠)

(3) يريد بذلك قوله تعالى:﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ)(البقرة: من الآية٢٢٣)

(4) يريد بذلك قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) (الأحزاب:٥٠)

لقد كلّف بطرس المكرم اثنين من المترجمين بترجمة هذا النص هما بطرس الطليطلي، وبطرس أوف بواتييه.

قلب الشيخ النجدي نظره في المخطوطة، ثم قال: تبدأ رسالة الهاشمي المزعوم بالسلام والرحمة على صديقه المسيحي، زاعماً أن ذلك سنة النبي في مخاطبته للناس بما فيهم المسيحيين، ثم يبدي الهاشمي المزعوم تعبيرات مختلفة من الاحترام لصديقه والإشارة إلى النسب الأصيل للكندي، والإشاده بتقواه وثقافته ومعرفته، ويدعوه إلى اعتناق الإسلام الذي هو دين الحنيفية، دين أبيهما الأول ابراهيم، وهو التوحيد الخالص لله تعالى، ثم يعرض أركان الإسلام الخمسة، والجهاد، ويسهب في ذكر نعيم الجنة لاغراء صديقه النصراني باعتناق الإسلام، وأنه إذا اعتنق الإسلام يمكنه الزواج بأربع زوجات ويطلق متى يشاء ويملك من الجواري ما يشاء، ويحصل على ترقية في بلاط الخليفة، وفي النهاية يعرض على صديقه أن يجيبه بكل صراحة على عرضه وأن يقول ما يحلو له في الدفاع عن دينه ويحثه على التخلي عن عبادة الثالوث.

وقد أجاب الكندي في ١٤٠ صفحة، أي أكبر بسبع مرات من رسالة الهاشمي، بحيث يترك جوابه الانطباع لدى القارئ المسيحي أنه نال الغلبة والقهر بالحجة والبرهان.

قلب الشيخ النجدي نظره في الكتاب، ثم قال: يبدأ الكندي المزعوم رسالته بالعرفان بالجميل لصديقه الهاشمي والدعاء للخليفة المأمون، ثم يدافع عن عقيدة الثالوث، ويذكر أن عقيدة الحنيفية التي يدعو إليها الهاشمي التي كان عليها إبراهيم إنما هي عبادة الأصنام، حيث يذكر أن إبراهيم ظل يعبدها لمدة سبعين سنة في حرّان مع آبائه.

وقد رد بأسلوب فلسفي قوي على عقيدة التوحيد.. ثم وجه هجومه على محمد، واتهمه بأنه تطلّع إلى المُلك، ولما كان يعرف أن نفوس قريش تأبى أن يصبح ملكاً عليها ادّعى النبوة للوصول إلى هدفه.

لا يتحدث جواب الكندي عن دعوة محمد في مكة، وإنما ينتقل فجأة إلى المدينة، حيث يذكر أن محمدا اغتصب مربد غلامين يتيمين، وبنى عليه مسجده، وأنه اصطحب قوماً فراغاً لاعمل لهم وبدأ في شن الغارات وممارسة النهب والسلب وقطع الطريق وإخافة السبيل.

وهو يتهم محمدا أنه أمر باغتيال بعض الآمنين في بيوتهم.. ثم يشير إلى جروح محمد يوم أحد، ويرى أنه لو كان رسولاً لمنعه الله من الضرر، ثم يذكر أن محمدا لم يكن له هم إلا امرأة جميلة يتزوجها.. ويتهمه بالاستخفاف بالله في محاباة زوجاته، ويكرر حديث الإفك عن عائشة.

وبعد ذلك يثير جواب الكندي موضوع النبوة وعلاماتها.. وهذا من أهم أجزاء هذه الرسالة.. وهو يذكر بذكاء حاد أن شروط النبوة لا تتوافر في محمد.. ذلك أن أهم علامات النبوة هي المعجزات، ومحمد لم يأت بشيء منها، وأنه أنكر أنه يستطيع أن يأت بآية كما جاء في القرآن، وأنه لا دليل لدى محمد على رسالته الإلهية..

وهو يذكر أن الإسلام انتشر بحد السيف، وأن نجاح الفتوح الإسلامية ليس دليلاً على إعجاز إلهي، لأنها يمكن أن تكون وسيلة من الله لمعاقبة الناس المذنبين.. وهو يذكر أن المسيحية انتشرت بالتبشير واستشهاد الحواريين، بينما الإسلام انتشر بالقهر والسيف.

وهو يذكر أن لغة القرآن ليست معجزة، ويعتبر لغة الشاعر امرئ القيس أقوى من لغة القرآن.

ويذكر أن الإغراء المادي والوعد بالملذات الحسية في جنة شهوانية هو الذي أغرى العرب المحرومين أن ينضموا إلى الإسلام وجيوشه، وأن جيوش المسلمين كانت مليئة بالمنافقين الذين انضموا إليها طلباً للغنائم.

وهو يهاجم شعائر الإسلام، ويعتبر الحج عملاً من أعمال الوثنية، ويرى أن الجهاد ليس إلا عملا شيطانيا.

وهو يذكر أن محمدا لم يكن يهدف مثلما هدف المسيح إلى أن يخلّص ويهذب الإنسان، وإنما هدف إلى ما هدف إليه الفاتحون الآخرون وهو أن يوسع مملكته.

وهو يذكر أن المسيحية هي الصراط المستقيم المذكور في سورة الفاتحة.

وهو يذكر أن الشرائع ثلاث: شريعة الكمال الإلهي وهي التي جاء بها المسيح، وشريعة العدل وهي التي جاء بها موسى، وشريعة الشيطان وهي التي جاء بها محمد.

وهو يذكر أن محمدا كان يتلقى قرآنه من راهب طُرد من الكنيسة، وذهب إلى إلى تهامة واسمه سرجيوس، وتسمى عند محمد باسم نسطوريوس، وأنه هو الذي كان يسميه محمد جبريل أو الروح القدس.

التفت إلي، وقال: هذه الترجمة الرئيسة في المشروع الكلوني نالت بين قومنا شعبية هائلة، وأصبحت بمثابة انجيل المبشرين والمستشرقين منذ ترجمتها وإلى اليوم، حيث اعتبروها أفضل دفاع عن المسيحية وأقوى هجوم على الإسلام.

وضع الشيخ النجدي الكتاب في الخزانة بلطف، ثم قال ـــ وقد أخرج كتابين آخرين ـــ: بعد أن انتهى بطرس المكرم من ترجمة هذا المشروع الذكي قام بتأليف ردين على الإسلام هما هذان الردان.. أما الأول فهو (المجمل الكامل عن الهرطقة الإسلامية).. وأما الثاني، فهو (الدحض)، وقد قسمه إلى كتابين، كل كتاب مكون من فصلين وكلاهما كتبه باللاتينية.

التفت إلي، وقال: سأقرأ عليك بعض ما ورد في هذا الرد..

أخذ الشيخ النجدي يقرأ بصوت عال:(إلى هذا الحد الفعلي علّم (محمد) القذر الشرير أتباعه إنكار جميع أسرار الدين المسيحي، وحكم تقريباً على ثلث الجنس البشري بعدم معرفة يوم الدينونة للرب، بواسطة حكايات مجنونه يهذي بما لم يُسمع بمثلها استجابة لأبليس والهلاك السرمدي)

إلى أن يقول:(هكذا كان (محمد) ناشطاً جداً في الشؤون العالمية، وذكيا إلى أبعد حد، هو انبثق من الأصل الوضيع والفقر إلى الغنى والشهرة، ونهض بنفسه إلى أعلى شيئاً فشيئاً، وتكراراً هاجم كل أولئك الذين كانوا بجواره، وكان بشكل بارز يضم إليه الأقرباء بالخداع، والسلب، والغزوات، قاتلاً أي شخص غيلة إن استطاع، هو ازداد رعباً بواسطة اسمه، وفي الوقت المناسب وصل إلى القمة بالتراعات، ثم بدأ يطمح إلى منصب الملك على شعبه، ولما كان يدرك أنه لا يستطيع أن يحقق هذه الرغبة بسبب أصله الوضيع قرَّر أن يصبح ملكاً عن طريق السيف، وتحت قناع الدين وبواسطة الإسم رسول الله)

قلب صفحات من أحد الكتابين، وأخذ يقرأ:(هكذا عُلِّم محمد من جانب أحسن علماء اللاهوت البارزين، والمتهرطقين، فانتجوا قرآنه، ونسجوا معاً، في ذلك الشكل غير الفصيح، له كتاباً مقدساً شيطانياً،

صُنِّف على حد سواء من الخرافات اليهودية والأغاني العابثة للهراطقة، كاذباً أن هذه المجموعة جُلبت إليه سورة وراء سورة بواسطة جبريل، الذي اسمه هو عرفه من الكتاب المقدس في ذلك الوقت، هو أفسد بسم مهلك ذلك الشعب الذي لم يعرف الرب، وفي سلوك هذا المفُسد أن جعل في حواف القدح المملوء بالعسل السم المهلك الذي يتسرب معه، هو (محمد) حطَّم، واحسرتاه، الأرواح والأجساد لذلك الشعب البائس، ذلك الرجل، أثنى على الشريعة المسيحية واليهودية، والشرير مع ذلك يقتبس منها ويرفضها في الوقت نفسه)

قلب صفحات من أحد الكتابين، وقال: بعد ذلك يتناول بطرس المكرَّم، الجنة والنار، والتعاليم الأخلاقية ويهاجم التصوير القرآني للجنة والنار فيقول:(محمد يصف عذاب جهنم كأنها تسرهُ حتى يصفها، وكأنه كان ملائماً لرسول زائف كبير أن يخترع تلك الأوصاف، وهو يصور جنة ليست من مجتمع ملائكي، ولا من تجلى الرب، ولا من ذلك الخير الأعلى، الذي لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. بل في هذه الطريقة هو وصفها مثلما هو رغبها أن تكون معدَّة لنفسه، هو يعد أتباعه هناك بالأكل من اللحم، وكل أنواع الثمرات، هناك أنهار من اللبن والعسل والمياه المتدفقة. هناك العناق والإشباع الشهواني من النساء العذارى الأجمل، فيها أشياء كثيرة، جنته كلها حسية)

ثم يتناول بطرس المكرم تعدد الزوجات في الإسلام باعتباره عملاً من أعمال الزنى.

ثم يعود بطرس المبجل للهجوم البذئ على محمد، فيقول:(وبالإضافة إلى كل هذه الأشياء، هو استطاع أن يجتذب إليه الرغبات الشهوانية للرجال، حيث أطلق لهم الأعنة للنهم والتلوث هو نفسه كان له في ذات الوقت ستة عشر زوجة.. مقترفاً الزنى كأنه شرط بواسطة الأمر الإلهي، وبذلك أضاف إلى نفسه عدداً ضخماً من الناس المحكوم عليهم بالهلاك السرمدي)

التفت إلي، وقال ــ وهو يشير إلى الكتابين ــ: لقد ضم هذان الردان للمشروع الكلوني..

ثم قال معقبا: لقد كان هذا المشروع هو الإنجيل الذي الذي غدا في متناول الرهبان للاعتماد عليه في كتاباتهم العدائية ضد محمد ودين محمد.

فهذا وليم الصوري أسقف صور ــ الذي عاصر الحروب الصليبية حتى عصر صلاح الدين الأيوبي وأرّخ للمملكة الصليبية في بلاد الشام وعلاقتها بالمسلمين ــ بدأ حديثه في تاريخه عن محمد فقال:(في زمن الامبراطور هرقل، وطبقاً للروايات والتواريخ الشرقية حققت معتقدات محمد الضارة موطئ قدم راسخ لها في الشرق، وهذا هو أول أبناء الشيطان المعُلِن بالكذب أنه رسول مرسل من الله، وبذلك أضل بلدان الشرق خصوصاً بلاد العرب، والبذرة السَّامة التي زرعها اخترقت إلى حد بعيد المناطق التي استخدم فيها خلفاؤه السيف والعنف بدلاً من التبشير والنصح، لاجبار الناس، مهما كانوا خاضعين، ليعتنقوا المعتقدات الخاطئة للرسول)

أما جاكيوس دي فتري اسقف عكا الذي شارك في الحملة الصليبية الخامسة ١٢١٧ــ١٢٢١ فقال:(إن محمداً أخذ جيرانه الذين كان يحسدهم في الخفاء، وذبحهم بغدر)

أما سان بدرو باسكوال وهو راهب إسباني عاش في القرن ١٣ فقد كتب عدة كتب ضد المسلمين، ومنها

كتاب أطلق عليه (الفرقة المحمدية)، قال فيه:(ما الذي جاء به محمد غير الفسوق والسلب، القرآن على حد سواء وبتناقض أمر بالسبب والحرب، والحديث أكدّ هذا، حيث وُعِدَ المسلمون بمكافأة ضخمة من أجل الموت في الحرب، وأن جروحهم سوف تكون جميلة يوم البعث، ذلك أن محمداً أمر بأن الناس من غير المسلمين يجب أن يُقتلوا بواسطة الجهاد، وتُغتصب نساؤهم ويؤخذن سبايا مع الأطفال، وخيراتهم تُنهب وبلادهم تُحتل)

وقد ذكر سان بدرو باسكوال هذا أن محمداً أثنى ذات مرة على آلهة الوثنيين في آيات زعم أن المسلمين يسمونها الآيات الشيطانية.

التفت إلي، وقال: لقد كان هذا القول هو الذي أوحى لأحد زملائنا في هذا المشروع الذي أسسنا من أجله هذه الدار بكتابة روايته (الآيات الشيطانية)، كما أن باسكوال وفنديترو وريكولدو وغيرهم من كتّاب العصور الوسطى كانوا المصدر الرئيس لهذه الرواية.

لقد اخترع سان بدور باسكوال قصصاً وأساطير عجيبة تناول فيها جوانب من سيرة محمد، ونزول الوحي عليه وموقف خديجة..

فمثلاً غزوة بدر يقدمها بهذا الشكل:(اصطحب محمد عصابة من اللصوص، وبعد ذلك سمع أن تجاراً كثيرين من مكة كانوا يقتربون من تلك المدينة من مناطق أخرى في طابور عظيم من البهائم المحملة بالأثقال، هو أختبأ في مكمن مع أصحابه وقتل سبعين من التجار وسائقي البغال من أهل مكة، وأخذ أكثر من سبعين أسيراً، ونهبوا القافلة بالكامل)

وعن قصة نزول الوحي يذكر أن محمدا تلبسَّه الشيطان، ويسب خديجة التي صدقته ويقول مخاطباً محمدا:(في الواقع أنا أقول لك يا محمد إن هذا الذي فعلته ليس نبوة، بل إنك قلت أشياء معينة مثلما تعوَّد العّرافون اليوم أن يقولوها عن طريق استحضار العفاريت بأي أسلوب، فهذا لن يكون مدهشاً لأنه سيوجد عرَّافون كثيرون في العالم يقولون حقائق قليلة وكذب كثير)

ويقول عن وفاة محمد:(إن محمداً عندما أوشك أن يموت حاول أن يعمِّد نفسه ـــ أي يتنصَّر ـــ لكن الشياطين منعته)

سرنا قليلا في القاعة، فرأينا صورة لرجل مشرقي يلبس ألبسة القرون الوسطى، وقد وضع على رأسه تاج مزين بالصلبان المذهبة، فقلت: أي ملك هذا؟

قال: هذا ملك من ملوك هذه الدار.. إنه يوحنا الدمشقي (٥٥ ـــ ١٣١هـــ / ٦٧٥ ـــ ٧٤٩ م) لاشك أنك تعرفه.. فيستحيل أن يدخل هذه الدار أحد لا يعرف يوحنا الدمشقي.. لقد كان من مسيحيي الشام، عاش في العصر الأموي، وتضلع في اللاهوت، وكتب كتباً كثيرة، ومن ضمنها كتاب كتبه باليونانية بعنوان الهرطقات.

لقد أفرد فيه فصلاً عن الإسلام أطلق عليه اسم (هرطقة الأسماعيليين) ويقصد بالإسماعيلين العرب من أبناء اسماعيل بن ابراهيم، وهذا الفصل شديد الطعن، اتهم فيه يوحنا العرب بالهرطقه والضلال والخرافة، واعتبرهم فرقة نصرانية متهرطقة، وزعم أن محمداً كان رسولاً زائفاً ادَّعى النبوة زمن الامبراطور هرقل، بعد أن قرأ العهد

القديم والعهد الجديد وتعلّم من راهب أريوسي فتظاهر بالتقوى حتى استمال العرب إليه وأخبرهم أنه تلقى كتاباً من السماء، وقدّم فيه تلك الشرائع المضحكة التي تسمى بالإسلام.

ومما ذكره هذا الرجل ــ وهو دليل من أدلة ذكائه وإخلاصه ــ أن محمدا دخل إلى بيت زينب بنت جحش في غياب زوجها فافتتن، بها وخرج وهو يقول: سبحان مقلب القلوب..

لقد كتب كتابه هذا في بلاد الدولة البيزنطية (دولة الروم) واستخدمه الكتّاب البيزنطيون في هجماتهم الفكرية على الإسلام، ثم تُرجم إلى اللاتينية وأسهم في صياغة العقيدة الغربية تجاه الإسلام والمسلمين طوال العصور الوسطى وحتى العصر الحاضر.

سرنا قليلا، فرأينا صورة أخرى، فقال: هذه صورة الراهب الإيطالي (فيديترو أوف بافيا) الذي جاء إلى بلاد الشام في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي..

لقد كتب هذا الرجل الفاضل وصفاً مختصراً لتشويه صورة محمد عند القراء الغربيين ومما قاله:(إن محمداً جمع حوله عبيداً آبقين، ورجالاً مؤذين مرتشين ومضطهدين للاخرين، من أصناف مختلفة، وعندما أطاعوه وأصبح أميرهم، أرسلهم إلى غابة ذات طرق فرعية وإلى قمم الجبال، وأخذوا يغيرون على الطرق التي يتردد عليها المسافرون، فيسلبون الناس، وينهبون بضائعهم ويقتلون كل من يُبدي مقاومة. وحل الخوف من محمد وأصحابه بجميع الناس الذين يقطنون بتلك البلاد)

وقد كان هذا الراهب أحد الكتّاب الغربيين الذين تلقّفوا القصة المختلقة على محمد مع زينب بنت جحش، والتي اخترعها يوحنا الدمشقي وصاغها بشكل داعر، ومما قاله فيديترو:(كان هناك رجل معروف يُدعى سايدوس ــ زيد ــ وكان له زوجة تُدعى سيبيب ــ زينب ــ كانت من أجمل النساء الجميلات اللائي عشن على الأرض في أيامها، فسمع محمد بشهرة جمالها، واشتعل بالرغبة فيها، وأراد أن يراها، فجاء إلى منزل المرأة في غياب زوجها، وسأل عن زوجها. هي قالت: يارسول الله، ما ذا تريد، لماذا أنت هنا؟ زوجي ذهب إلى الخارج في العمل، هذا لم يكن مخفياً عن زوجها، هو عندما عاد إلى بيته، قال لزوجته: هل كان رسول الله هنا؟ هي أجابت: هو كان هنا، هو قال هل رأى وجهك؟ هي أجابت: نعم هو رآه، وهو أيضاً سهّرني وقتاً طويلاً، هو قال لها: أنا لا أستطيع أن أعيش معك وقتاً أطول من هذا..)

نظر إلي، وقال: أرأيت ما أذكاه..

سرنا قليلا، فرأينا صورة أخرى، فقال: هذه صورة الراهب (ريكولدو أوف مونت كروس) المتوفى سنة ١٣٢٠، وقد جاء إلى عكا سنة ١٢٨٩ وانتقل منها إلى آسيا الصغرى، ومنها إلى الشرق حيث وصل إلى مراغة في رحلة تبشيرية، ثم جاء إلى الموصل وإلى بغداد. ثم عاد إلى دير مونت كروس.

وقد صنّف هذا الرجل الفاضل عدة كتب يهاجم فيها الإسلام منها كتاب سماه (دحض القرآن).. ومما جاء فيه قوله:(إن الإسلام مجرد خدعة شيطانية ابتدعها الشيطان كي يمهد الطريق لمجيء المسيح الدجّال، وذلك حين شعر الشيطان بعدم قدرته على إيقاف انتشار المسيحية، وأن الوثنيات بدأت تتهاوى أمام المسيحية، وأنه ليس في مقدوره دحض شريعة موسى وانجيل عيسى، فابتدع الشيطان ذلك الدين ليكون وسطاً بين المسيحية

واليهودية.. والقرآن ليس قانون الله، نظراً لأن أسلوبه لا يطابق الأسلوب الإلهي، الذي لا يوجد فيه سجع ولا عبارات موزونة كتلك التي جاءت في الكتب المقدسة)

***

ما وصل الشيخ النجدي من حديثه إلى هذا الموضع حتى سمعت الباب يدق بشدة.. فأصابني رعب شديد.. فقد كانت الدار بكل ما تحمله من تحف وصور ومخطوطات تشبه الديار التي لا تسكنها إلا الأشباح..

أسرع أخي، ففتح الباب، فدخل مجموعة رجال مختلفي المظاهر والمشارب، وكأن كل واحد منهم عالم قائم بذاته.

عرفني بهم أخي واحدا واحدا .. واتفقنا في ذلك المجلس على طريقة تنفيذ المشروع الذي أراد أخي أن يجربه في تلك المدينة..

وقد اتفقوا على اختيار ساحة في المدينة تسمى (ساحة الحرية)، فتحت خصيصا لكل من يريد أن يتكلم ما يشاء، وفيما يشاء.. فلا قمع فيها، ولا ردع.

وقد دعاهم إلى اختيارها ما رأوه من استغلال المسلمين لها لنشر إسلامهم.. وما رأوه كذلك من الإقبال المتزايد للناس على الإسلام فيها، وفي مثلها من المحال.

التفت البابا إلي، وقال: هذه قصة هذه الدار.. أما قصة النفر، وما يرتبط بشبهاتهم من وجوه الردود، فهي موضوع رحلتنا هذه.

أولا ـــ خطايا

كان أول من أراد أن يرسم منهج التشكيك لهذه الجماعة التي اجتمعت على محمد ﷺ هو أخي.. وتوأمي.. ونفسي الثانية.

لقد أراد بخروجه للمسلمين، بعد أن جمع ما أطاق من أنواع السموم، أن يكون أسوة حسنة لكل الفريق الذي اجتمع على أخطر مهمة في التاريخ وأصعبها.. وهي مهمة تشويه الشمس التي لا تغيب.

وقد أراد في نفس الوقت أن يمهد الأرض التي تجعل كل المسلمين يتقبلون كل ما سيفرزه غيره من سموم التشكيك والتشويه.

وقد كان لأخي من الذكاء والفطنة ما جعله يستند إلى مصادر المسلمين وحدها، وخاصة المصادر الأصلية التي لا يشك فيها أحد منهم، ليمزج منها خلطات تحول وجه كل من شرب منها عن قبلة محمد ﷺ.

وكان من الآيات التي جذبت انتباهه لهذا، الآيات التي أسند الله تعالى فيها الغفلة والضلال لرسول الله ﷺ، كقوله تعالى:﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ (سبأ:٥٠)، وقوله تعالى:﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى﴾ (الضحى:٧)، وقوله تعالى:﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف:٣)، وقوله تعالى في الآية التي قصم أخي ظهرها:﴿ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾(الأنعام: من الآية٥٦)[1]

وكان منها الآيات التي أخبرت عن مغفرة الله لنبيه ﷺ، وذلك كقوله تعالى:﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ (الفتح:٢)، وقوله تعالى:﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ (محمد:١٩)، وقوله تعالى:﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ (الشرح:٢)، وقوله تعالى:﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (التوبة:٤٣)، وقوله تعالى:﴿ لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (لأنفال:٦٨).. وغيرها من الآيات.

ومن السنة جميعا لم يلفت انتباهه إلا قوله ﷺ:(والله إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ الله وأَتُوبُ إِلَيْه فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً)[2]، وقوله ﷺ:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلى الله واسْتَغْفِرُوهُ، فإِنِّي أَتُوبُ فِي اليَومِ مئةَ مَرَّةٍ)[3]

أخذ أخي في حقيبته هذه النصوص المقدسة، ثم مزجها بما شاء من فهوم، واستنتج منها ما شاء من استنتاجات.. ثم راح إلى ساحة الحرية ليبشر بما تصوره من خطايا رسول الله ﷺ..

---

(١) الآية كاملة هكذا:﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (الأنعام:٥٦)

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم.

قلت: فهل ذهبت معه؟

قال: لست أدري.. ولكني ربما كنت معه.. فكل كلمة قالها، أشعر أني ــ مثله ــ نطقت بها.. وكل كلمة سمعها أشعر أني ــ مثله ــ سمعتها.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لا تسأل عن ذلك.. فلن ينفعك البحث في ذلك.

***

وقف أخي في تلك الساحة التي هيئت لمن يشاء أن يقول ما يشاء، ثم قال: أنا أخاطب بكلمتي هذه العقول.. ولا أخاطب غير العقول.. فمن كان ذا عقل، فليسمع لي، وليرد علي بما يشاء.. ومن لم يكن له عقل يميز به الحقائق من الأباطيل، وأهل الضلال من أهل الهداية.. فلا أرغب في سماعه لحديثي.. لسبب بسيط، وهو أنه لن يفهمه.. وإذا فهمه، فلن يتقبله.

اجتمعت جموع كثيرة حوله، وكان من بينها تلك الجماعة التي أسلمت حديثا، وفي ذلك المحل الذي أتيح لحرية التعبير.

بدأ أخي حديثه بما تعودته منه من طرق الاستفزاز، فهو يتصور أن هذا الأسلوب هو الأسلوب الوحيد الذي يمكن أن يبني به ما يشاء، ويهدم ما يشاء.

وقد كان أخي يستخدم هذا الأسلوب في علاقاته جميعا، وقد بنى به كل ما كان يحلم به من مجد ومن مناصب ابتداء من أول السلم إلى منتهاه.

بعد أن اجتمعت الجموع أخذ أخي يرسل أول قنابله، فقال: لقد سمعت أنه ــ وقبل أسبوع ــ وقف رجل في هذا الموقف.. وحدث الناس كثيرا عن محمد.. وكان من نتيجة حديثه أن ألغى البعض عقولهم، وراحوا يسيرون خلف رجل امتلأ ضلالة وخطيئة..

نادى رجل من الجمع بغضب قائلا: من ترميه بالضلال والخطيئة؟

نظر إليه أخي.. ثم قال ببساطة يستفزه: وهل هناك غير محمد!؟.. إن هذا الوصف لا ينطبق على أحد في الدنيا كما ينطبق على محمد.

غضب الرجل.. وغضب معه كثير من أفراد الجماعة الملتفة بأخي.. بل قام بعضهم لينزله من ذلك المحل الذي يخطب منه.. فقام رجل من القوم، هو أشبه الناس بصاحبك (معلم السلام).. بل لعله (معلم السلام) نفسه إلا أني سمعت القوم يسمونه حكيما.. ولا أزال إلى الآن لا أعرف هذا الرجل، ولا أعرف سر وجوده في كل محل يتعرض له مقام النبي ﷺ للإساءة.

ولم يكن هذا العجب عجبي فقط، بل كان عجب العصابة جميعا، والتي عبر بعض أفرادها عن سخطه بقوله:(ما بال هذا المحامي يظهر كل مرة ليحبط جميع مخططاتنا)

بل إن بعض أفراد عصابتنا هم به ذات مرة ليخنقه.. ولكن الله خلصه منه.

لن أستعجل في حكاية هذا.. ولهذا سأعود بك إلى موقفه.. وكيف استطاع أن يواجه ذلك الموقف

الشديد بحكمة وعقل وسلام.

قال الحكيم، بنبرة ممتلئة حكمة ووقارا وهدوءا، متوجها للجمع الغاضب: رويدكم يا جماعة.. فما ينبغي لنا، ونحن تلاميذ رسول الله ﷺ، ونحن الذين شملتنا أشعة محمد ﷺ أن نتصرف هذا التصرف.

إن هذا أخ من إخواننا وقع في شبه جرته إلى هذا التصرف.. والشبه تعالج بالعلم، لا بالأيدي.. هكذا علمنا رسول الله ﷺ.. وهكذا ينبغي أن نمثل رسول الله ﷺ.

قال ذلك، ثم التفت إلى أخي، وقال: هو ذا أنا أمامك.. أنا الذي تقصده.. فقد قمت قبل أسبوع بالوقوف في موقفك هذا.. لأحدث من أراد أن يستمع إلي عن رحلتي إلى محمد وشمس محمد.. وكان لحديثي أن يطول.. ولكن الجمع الذي التف حولي كان كالزيت الذي يكاد يضيئ ولو لم تمسسه نار.. فلذلك ما إن ذكرت أول شعاع من أشعة محمد حتى راحوا يعلنون حبهم لمحمد وإيمانهم به.

قال أخي: وقد أرسلتني الحقيقة لأنقذ هذا الجمع الذي استغفلته، فرحت ترميه في شباك الضلال.

قال الحكيم: وأنا ممتن لك.. لتنقذني ــ أنا أيضا ــ من هذه الشباك.. فاذكر لي، واذكر للجمع ما ينقذنا من هذا الضلال الذي جعلنا نتبع محمدا.

سكت أخي يستجمع أنفاسه، وقد ساءه هذا الموقف اللين الذي أبداه الحكيم، ثم قال: تخيلوا معي ــ أيها الجمع ــ أنكم في صحراء.. وليس لديكم أي بوصلة تهتدون بها.. ثم جاءكم أمي لا يعرف الطريق، ولا علم له بالجغرافية، فأخبركم أنه الهادي.. هل تقبلونه؟

ثم أجاب نفسه بنفسه: لا شك أنكم لن تقبلوه.. فالضال لن يكون هاديا.. والخطاء لن يكون مربيا.. والمخطئ لن يكون معلما.. هكذا علمنا الكتاب المقدس.. وهذا هو المقياس العلمي الذي ملأ به عقولنا، فرحنا لا نخضع إلا للحقيقة.

غضبت الجماعة المسلمة لهذا الاستفزاز.. لكنه قال بهدوئه المعتاد: لا تغضبوا.. فأنا لن أحدثكم إلا بالقرآن الذي جاء به محمد.. وبالأحاديث التي يترلها المسلمون مترلة القرآن.

التفت الجمع إليه مستغرقين فيما يقول، متعجبين منه، فشجعه ذلك، فراح يقول: لقد ذكرت لكم أن محمدا خطاء.. والخطاء لا يكون مربيا.. ولا يكون هاديا.. ولا يكون رسولا.

لأن أول صفات المربي أن يكون قدوة لغيره.. ومن كان ذا خطيئة لم يرب غيره إلا على الخطيئة..

ومن أدوار الرسول أن يكون شافعا.. ومن كان ذا خطيئة يستحيل أن يكون شافعا للمذنبين.. لأنه يحتاج هو نفسه لمن يشفع له.

سكت قليلا، ثم قال: لا تغضبوا.. فليس هذا كلامي.. هذا ما قال القرآن.. لقد جاء في القرآن أمر محمد بالاستغفار، والاستغفار لا يكون إلا للمذنبين، ففي القرآن هذه الأوامر الشديدة لمحمد:﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً) (النساء:١٠٦).. ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْأِبْكَارِ) (غافر:٥٥).. ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) (محمد:١٩)

وفي القرآن وعد لمحمد بأن يغفر له ذنبه.. والمغفرة لا تكون إلا للمذنبين:﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ﴾ (الفتح: ١-٢)

بل إن محمدا نفسه يصرح بوقوع الخطايا منه.. اسمعوا هذا الدعاء الذي لا ينطق به إلا من امتلأ بالخطايا.. (اللهم انت ربى لا اله الا انت خلقتني وانا عبدك وانا على عهدك ووعدك ما استطعت اعوذ بك من شر ما صنعت ابوء لك بنعمتك على وابوء لك بذنبى فاغفر لى فانه لا يغفر الذنوب إلا انت)[1]

واسمعوا هذا الدعاء الذي تفوح منه روائح الخطايا:(اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي خطأي وعمدي وهزلي وجدي وكل ذلك عندي أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شئ قدير)[2]

أرأيتم .. إن محمدا في هذا الدعاء يقر بأن له خطايا.. وأنه أسرف فيها.. وأنه ارتكب من الخطايا جميع أنواعها وفي جميع المحال.

ليس هذا فقط.. اسمعوا هذا الدعاء:(اللهم انى اعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل)[3]

ولكثرة خطاياه كان يقول لأصحابه:(والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرةً)[4].. بل كان يقول: (يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرةٍ)[5]

وقد عد أحد أصحابه كثرة استغفاره، فقال: إن كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس، يقول: رب اغفر لى، وتب علي، انك انت التواب الغفور مائة مرة[6].

التفت إلى الجمع، وقال: أرأيتم.. هل يمكن الوثوق في نبي خطاء؟

ثم أضاف بسخرية قائلا: إن أي تصرف ستنقلونه عن هذا النبي يمكن أن يكون من الذنوب التي تاب منها.. فهل تجيزون لأنفسكم أن تكرروا أخطاء غيركم؟.. وهل تجيزون لأنفسكم أن تعبدوا الله بالأخطاء التي تيب منها؟

سكت الجمع، فقام الحكيم، وقال: إذا أذنت لي.. فسأجيبك عما طرحت من أسئلة؟

قال أخي: أجب بما تشاء.. لن تجد عندي إلا سعة الصدر.

---

(١) رواه البخاري والنسائي.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) رواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة.
(٤) رواه البخاري.
(٥) رواه مسلم.
(٦) البيهقي في الشعب.

١ ــ الخطايا والنبوة

قال الحكيم: سأجيبك عن هذا بأمرين.. أما أحدهما فأعتمد فيه على الجدل، فلذلك سأقنعك بما لا يقبله عقلي وديني.. ولكن دينك وعقلك يقبله.. وهو أسلوب اعتمده القرآن حين قال يخاطب اليهود:﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرائيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران:٩٣)

ولذلك أقول لك: ائت بكتابك المقدس.. وأجبني عما أطرحه عليك من أسئلة.

قال أخي: كتابي المقدس دائما معي.. هو في عقلي وقلبي وروحي.. وحروفه تنتقش في ذاكرتي.

قال الحكيم: فأنت أقرب إلى الحق إذن من كل هذا الجمع.. فمن قرأ الكتاب المقدس بصدق لن يصل إلا إلى محمد ﷺ.

قال أخي: بل يصل المسيح..

قال الحكيم: المسيح ومحمد.. وغيرهما من الأنبياء كلهم قد خرجوا من عالم واحد، فمن وصل لأحدهم بصدق وصل للآخر لا محالة.

قال أخي: كيف تضع محمدا مع الأنبياء.. وقد ذكرت لك من ضلالاته وخطاياه ما يرفعه عن ذلك المقام الرفيع الذي تدعونه له!؟

قال الحكيم: اعذرني.. ربما أكون قد أخطأت في تعبيري.. ولكن المنهج العلمي يدعوني ويدعوك للتريث حتى نبحث في سير هؤلاء الأنبياء الذين رأيت أن محمدا ﷺ أقل شأنا من أن يوضع معهم.

آدم:

أشار الجمع موافقين لما ذكره الحكيم، فقال: فلنبدأ بآدم.. أليس آدم أبا البشر، وأول الأنبياء.. أجبني ما مقامه فيكم[1]؟

---

(١) من المراجع التي رجعنا إليها في ذكر ما نسبب للأنبياء من معاصي (إظهار الحق) لرحمة الله الهندي، وقد قدم لذكره لما نسب للأنبياء باعتذار قال فيه:(اعلم أرشدك اللّه تعالى في الدارين أن المسيحيين يدعون أن الأنبياء إنما يكونون معصومين في تبليغ الوحي فقط، تقريراً كان أو تحريراً. وأما في غير التبليغ، فليسوا بمعصومين لا قبل النبوّة ولا بعدها. فيصدر عنهم بعدها جميع الذنوب قصداً، فضلاً عن الخطأ والنسيان، فيصدر عنهم الزنا بالمحارم فضلاً عن الأجنبيات، ويصدر عنهم عبادة الأوثان، وبناء المعابد لها، ولا يخرج عندهم نبي من إبراهيم إلى يحيى عليهما السلام لا يكون زانياً أو من أولاد الزنا أعاذنا اللّه من أمثال هذه العقائد الفاسدة في حق الأنبياء عليهم السلام.

وقد عرفت في الأمر السابع من مقدمة الكتاب، وفي الفصل الثالث والرابع من الباب الأول، وفي المقصد الأول من الباب الثاني أن ادعاءهم العصمة في التبليغ أيضاً باطل لا أصل له على أصولهم. ويصدر هذا الادعاء عنهم لتغليط العوام، فمطاعنهم على محمد r في بعض الأمور التي يفهمونها ذنوباً في زعمهم الفاسد، لا تقدح في نبوته على أصولهم. وإني وإن كنت أستكره أن أنقل ذنوب الأنبياء والكفريات المفتريات عن كتبهم ولو إلزاماً، ولا أعتقد في حضرات الأنبياء إنصافهم بهذه الذنوب والكفريات حاشا وكلا. لكني لما رأيت أن علماء بروتستنت أطالوا ألسنتهم إطالة فاحشة في حق محمد r في الأمور الخفيفة، وجعلوا الخردلة جبلاً لتغليط العوام الغير الواقفين على كتبهم، وكان مظنة وقوع السذج في الاشتباه بتمويهاتهم الباطلة، نقلت بعضها إلزاماً، وأتبرأ عن اعتقادها

قال أخي: هو فينا ذو مقام.. فهو أبونا الأول الذي ولدنا منه الولادة الأولى.. وكل مسيحي يشعر أنه ابن آدم بحكم ولادته، ويولد ولادة جديدة في المسيح بإيمانه، لذلك يحتفظ المسيحي بعلاقة دائمة مع آدم الأول وآدم الآخر، وإن اختلفت طبيعة هذه العلاقة وأثرها في الحالتين.

قال الحكيم: ولكنكم تذكرون لنا ــ خلافا لنا ــ بأنه ظل على خطيئته.. لقد قال أحدكم في كتاب كتبه عن أولياء الكتاب المقدس سماه (طريق الأولياء): (يا أسفي على أنه لم تثبت توبته وعلى أنه ما استغفر اللّه لذنبه مرة واحدة أيضاً)

نوح:

قال ذلك، ثم التفت إلى أخي قائلا: وما تقولون في نوح؟

قال أخي: نوح ــ في معتقدنا نحن المسيحيين ــ هو الرجل البار الذي ينجو من العقاب وينعم بالخلاص.. ففي وسط الشر المدمّر للعالم، يبرز نوح كرأس للإنسانية الجديدة وصورة مسبقة للمسيح.

قال الحكيم: فافتح كتابك المقدس، واقرأ من سفر التكوين (٩: ٢٠)

أخذ أخي يقرأ: (وَاشْتَغَلَ نُوحٌ بِالْفَلاحَةِ وَغَرَسَ كَرْماً، وَشَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خَيْمَتِهِ، فَشَاهَدَ حَامٌ أَبُو الْكَنْعَانِيِّينَ عُرْيَ أَبِيهِ، فَخَرَجَ وَأَخْبَرَ أَخَوَيْهِ اللَّذَيْنِ كَانَا خَارِجاً. فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافَثُ رِدَاءً وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا وَمَشَيَا الْقَهْقَرَى إِلَى دَاخِلِ الْخَيْمَةِ، وَسَتَرَا عُرْيَ أَبِيهِمَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَدِيرَا بِوَجْهَيْهِمَا نَحْوَهُ فَيُبْصِرَا عُرْيَهُ. وَعِنْدَمَا أَفَاقَ نُوحٌ مِنْ سُكْرِهِ وَعَلِمَ مَا فَعَلَهُ بِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ قَالَ: (لِيَكُنْ كَنْعَانُ مَلْعُوناً، وَلْيَكُنْ عَبْدَ الْعَبِيدِ لإِخْوَتِهِ)، ثُمَّ قَالَ: تَبَارَكَ اللهُ إِلَهُ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْداً لَهُ. لِيُوْسِعِ اللهُ لِيَافَثَ فَيَسْكُنَ فِي خِيَامِ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْداً لَهُم)

ابتسم الحكيم، وقال: ألا ترى الخطايا الكثيرة التي تفوح من هذا النص، والتي تنسب لهذا النبي الكريم.

ألا ترون أن الذي شاهد عري أبيه هو (حام)؟

قال الجمع: نعم..

قال الحكيم: ولكن نوحا ــ في هذا النص ــ لا يلعن ابنه الذي شاهده، وإنما يلعن نسل أحد أبنائه.. وهو كنعان.. وهذا الابن لم يولد حينذاك.. بل ولد بعد عشرين سنة..

ولو فرضنا أنه حمل إثم الأب على الابن، وهو خلاف العدل، فما وجه تخصيص كنعان.. فقد كان لحام أربعة أبناء: كوش ومصرايم وفوط وكنعان.

نظر الحكيم، وقال: من المؤسف أن يحمل الكتاب المقدس مثل هذه العنصرية.. إن هذه القصة ــ بلا شك

بألف لسان وليس نقلها إلا كنقل كلمات الكفر، ونقل الكفر ليس بكفر، وقدمت نقلها على نقل مطاعنهم في محمد r والجواب عنها)

وقد ذكر أنه نقل هذه النصوص وبعض التعليقات عليها من كتاب كتبه القسيس (وليم اسمت) (من علماء بروتستنت كتاباً في لسان أردو وطبعه في البلد مرزابور من بلاد الهند في سنة ١٨٤٨ من الميلاد، وسماه طريق الأولياء، وكتب فيه حال الأنبياء من آدم إلى يعقوب عليهم السلام ناقلاً عن سفر التكوين وتفاسيره المعتبرة عند علماء بروتستنت)

ـــ من افتراءات الكتاب المقدس على أنبياء الله واتهامهم بارتكاب الكبائر.. وهي تفضح عنصرية اليهود حيث قصدوا بهذه اللعنة الكنعانيين سكان فلسطين قبل اليهود، فنسبوا أنفسهم إلي سام، وادعوا اختصاصهم بذلك ليتسنى لهم ادعاء حق السيطرة على الكنعانيين.

إبراهيم:

ثم التفت إلى أخي، وقال: أنبئني عن مقام إبراهيم فيكم، وفي الكتاب المقدس؟

قال أخي: هو نبي من أنبياء الكتاب المقدس العظام.. بل إنه يحتل مركزاً ممتازاً في تاريخ الخلاص.. فدعوته ليست مجرد نقطة البداية في تدبير الله، لكنها أيضاً تحدّد الاتجاهات الأساسية لهذا التدبير.

قال الحكيم: ولكنكم تعتقدون أنه وقع في خطايا كثيرة.. سأذكر لك منها بعض ما وصلت إليه، ولا أرى إلا أنك ستقرني عليها.

منها ما ذكره صاحبكم في كتابه الذي كتبه عن (طريق الأولياء)، فقد قال في حال إبراهيم:(لا يعلم حاله إلى سبعين سنة من عمره، وهو تربى في الوثنيين، ومضى أكثر عمره فيهم، ويعلم أن أبويه ما كانا يعرفان الإله الحق. ويحتمل أن إبراهيم أيضاً كان يعبد الأصنام ما لم يظهر اللّه عليه، ثم ظهر عليه وانتخبه من أبناء العالم، وجعله عبداً خاصاً) [1]

فظهر أن المظنون عندكم أن إبراهيم إلى سبعين سنة من عمره كان يعبد الأصنام.. بل إن كونه عابد الأصنام إلى أن بلغ سبعين سنة، قريب اليقين، نظراً لأصولكم، لأن أهل العالم في هذا الوقت عندكم كانوا وثنيين، وهو تربى فيهم، وأبواه أيضاً كانا منهم. ولم يظهر عليه الرب إلى ذلك الوقت، والعصمة عن عبادة الأوثان ليست بشرط بعد النبوة، فضلاً عن أن تكون شرطاً قبل النبوة.

لنترك هذا.. فقد تتعلل بأن هذا قبل النبوة.. ولننتقل إلى ما تذكرونه عنه بعد النبوة.. اقرأ علي ما ورد في (سفر التكوين:١٢/١٠ ــ ١٣)

قرأ أخي: (وكانَ جوعٌ في أرضِ كنعانَ، فنَزلَ أبرامُ إلى مِصْرَ لِيَتغَرَّبَ هُناكَ، لأنَّ الجوعَ كانَ شديدًا. فلمَّا وصَلَ إلى أبوابِ مِصْرَ قالَ لِساراي اَمْرأتِهِ: (أعرِفُ أنَّكِ اَمرأةٌ جميلَةُ المَنظَرِ، فإذا رآكِ المِصْريُّونَ سيَقولونَ: هذِهِ اَمْرَأتُه، فيَقتُلونَني ويُبقُونَ علَيكِ. قُولي إنَّكِ أُختي، فيُحسِنُوا مُعاملَتي بِسبَبِكِ ويُبقُوا على حياتي لأجلِكِ)

قال الحكيم: ألا ترى الخطيئة العظيمة التي وقع فيها إبراهيم في هذا النص؟.. إن سبب الكذب ــ كما يدل هذا النص ــ ما كان مجرد الخوف، بل رجاء حصول الخير أيضاً، بل الخير كان أقوى، ولذلك قدمه، وقال ليكون لي خير بسببك، وتحيي نفسي من أجلك.

على أن خوفه من القتل مجرد وهم، لا سيما إذا كان راضياً بتركها، فإنه لا وجه لخوفه بعد ذلك أصلاً، وكيف يجوز العقل أن يرضى إبراهيم بترك حريمه وتسليمها ولا يدافع دونها، ولا يرضى بمثله من له غيرة ما، فكيف يرضى مثل إبراهيم الغيور.

---

(١) طريق الأولياء، ٧٤، نقلا عن (إظهار الحق)

سكت الحكيم قليلا، ثم قال: لم يكن هذا هو الذنب الوحيد.. بل إن إبراهيم ــ على حسب ما ذكر الكتاب المقدس ــ كرر نفس هذا الذنب.. ففي (سفر التكوين: ٢٠/١-١٨):(وَانتقلَ إبراهيمُ مِنْ هُناكَ إلى أرضِ النَّقَبِ، فأقامَ بَينَ قادِشَ وشورَ ونزلَ بمدينةِ جرارَ. وقالَ إبراهيمُ عَنْ سارةَ امرأتِه: (هيَ أختي) فأرسلَ أبيمالِكُ، مَلِكُ جرارَ، فأخذَ سارةَ. فجاءَ اللهُ إلى أبيمالكَ في حُلُمِ اللَّيلِ وقالَ لَه: (ستموتُ بسبَبِ المرأةِ التي أخذْتَها، فهيَ مُتزوِّجةٌ برجلٍ). و لم يكُنْ أبيمالكُ اقتربَ إليها، فقالَ: (يا سيّدي، أأُمَّةً بريئةً تَقْتُلُ؟ أما قالَ لي إبراهيمُ: هيَ أُختي، وقالت لي امرأتُهُ أيضًا: هوَ أخي؟ فبسلامةِ قلبي ونقاوةِ يَديَ فعلْتُ هذا). قالَ لَه اللهُ في الحُلُم: (أنا أعرفُ أنَّكَ بسلامةِ قلبِكَ فعلْتَ هذا، ولذلِكَ مَنَعْتُكَ مِنْ أنْ تَمُسَّها فتَخطَأُ إليَ. والآنَ رُدَ امرأةَ الرَّجلِ، فهوَ نَبيٌّ يُصلِّي لأجلِكَ فتحيا. وإنْ كُنتَ لا تردُّها، فاَعلمْ أنَّكَ لا بُدَ هالكٌ أنتَ وجميعُ شعبكَ)

فبكَّرَ أبيمالكُ في الغَدِ واستدعى جميعَ رجالِهِ وأخبرَهُم بكُلِّ ما جرى، فخافوا خوفًا شديدًا. ثُمَ دعا أبيمالكُ إبراهيمَ وقالَ لَهُ: (ماذا فعَلْتَ بنا؟ وبماذا أذنبتُ إليكَ حتى جلبْتَ عليَ وعلى مملكتي خطيئةً عظيمةً؟ ما فعَلْتَ بي لا يفعَلُهُ أحدٌ) وسألَ أبيمالكُ إبراهيمَ: (ماذا خطرَ لكَ حتى فعَلْتَ هذا؟) فأجابَ إبراهيمُ: ((ظنَنْتُ أنْ لا وجودَ لخوفِ اللهِ في هذا المكانِ، فيقتلُني النَّاسُ بسبب امرأتي. وبالحقيقةِ هيَ أختي ابنةُ أبي لا ابنةُ أُمِّي، فصارت امرأةً لي. فلَمَّا شَرَّدني اللهُ مِنْ بَيتِ أبي قلتُ لها: تُحسِنينَ إليَ إنْ قلتِ عنِّي حَيثُما ذهبْنا: هوَ أخي)

فأخذَ أبيمالكُ غنَمًا وبقَرًا وعبيدًا وجواريَ وأعطى هذا كُلَّه لإبراهيمَ وأعادَ إليهِ سارةَ امرأتَهُ. وقالَ أبيمالكُ: (هذِهِ بلادي بَينَ يَديكَ، فأقِمْ حَيثُما طابَ لكَ)

وقالَ لسارةَ: (أعطيتُ أخاكِ ألفًا مِنَ الفضَّةِ، وهو لكِ رَدُّ اعتبارٍ أمامَ عُيونِ كُلِّ مَنْ معَكِ وسِواهُم بأنِّيلم أتزوَّجكِ)

فصلَّى إبراهيمُ إلى اللهِ، فشفَى اللهُ أبيمالكَ وامرأتَهُ وجوارِيَهُ فولَدْنَ، وكانَ الرّبُّ أغلقَ كُلَ رَحِمٍ في بيتِ أبيمالكَ بسببِ سارةَ امرأةِ إبراهيمَ)

التفت الحكيم إلى أخي، ثم قال: ألا أن إبراهيم في هذا النص أيضا مارس نفس الأسلوب.. ولعل السبب هاهنا ما عدا الخوف أيضاً، كان حصول المنفعة، وقد حصلت كما صرح بذلك هذا السفر المبارك..

لقد قال صاحبكم.. صاحب (طريق الأولياء) معلقا على هذا:(لعل إبراهيم لما أنكر كون سارة زوجة له في المرة الأولى، عزم في قلبه أنه لا يصدر عنه مثل هذا الذنب، لكنه وقع في شبكة الشيطان السابقة مرة أخرى بسبب الغفلة)[١]

وقال في موضع آخر: (لا يمكن أن يكون إبراهيم غير مذنب في نكاح هاجر، لأنه كان يعلم جيداً قول المسيح المكتوب في الإنجيل، أن الذي خلق من البدء خلقهما ذكراً وأنثى، وقال من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه، ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً)[٢]

بل أقول: إنه لا يمكن أن يكون غير مذنب في زواجه من سارة، لأنه كان يعلم جيداً قول موسى المكتوب

---

(١) طريق الأولياء: ٩٩.

(٢) طريق الأولياء: ٩٢ و ٩٣.

في التوراة: (لا تكشف أختك من أبيك كانت أو من أمك التي ولدت في البيت أو خارجاً من البيت)، وقوله: (أي رجل تزوج أخته ابنة أبيه أو أخته ابنة أمه، ورأى عورتها ورأت عورته، فهذا عار شديد، فيقتلان أمام شعبهما. وذلك لأنه كشف عورة أخته فيكون إثمهما في رأسهما)، وقوله:(يكون ملعوناً من يضاجع أخته من أبيه أو أمه)

إن هذا الزواج مساوٍ للزنا عندكم.. ويلزم من هذا أن يكون إبراهيم ــ عليه السلام ــ زانياً قبل النبوة وبعدها، ويكون أولاده كلهم من سارة أولاد الزنا.

ولو جوزتم زواج الأخت في شريعته لزم تجويز تعدد الزواج أيضاً في تلك الشريعة.

إسحق:

سكت قليلا، ثم قال: ليس إبراهيم وحده هو من وقع في هذا.. إن مثل هذا ورد عن ابنه الوارث لبركاته إسحق.. اقرأ ما ورد في (سفر التكوين:٢٦/٦-١١)

قرأ أخي: (فأقامَ إسحَقُ في جرارَ وسأَلَهُ أهلُ جرارَ عَنِ امرأتِهِ فقالَ: (هيَ أُختي)، لأنَّهُ خافَ أنْ يقولَ: (هيَ امرأتي)، لِئلاَ يَقتُلوهُ بسببها وكانَت جميلةَ المَنظَر. ولمَّا مضَى على إقامتِهِ هُناكَ وقتٌ طويلٌ حدَثَ أنَّ أبيمالِكَ، مَلِكَ الفلِسطيِّينَ أطَلَّ مِنْ نافذةٍ لَه ونظرَ فرأى إسحَقَ يُداعِبُ رِفقةَ امرأتَهُ. فدَعاهُ وقالَ لَه: (إذًا هيَ امرأتُكَ، فلماذا قلتَ إنَّها أُختُكَ؟) فقالَ إسحَقُ: (لأنِّي ظَننتُ أنِّي رُبَّما أهلِكُ بسببها) فقالَ أبيمالِكُ: (ماذا فعَلتَ بنا؟ لولا قليلٌ لضاجعَ أحدُ أبناءِ شعبِنا امرأتَكَ فتُذنبَ) وأوصى أبيمالِكُ جميعَ الشَّعبِ قالَ: (مَنْ مسَ هذا الرَّجلَ أو امرأتَهُ فموتًا يموتُ)

قال الحكيم: ألا ترى إسحق في هذا النص يقتفي أثر أبيه، فيعود إلى نفس الخطيئة؟.. لقد قال صاحب طريق الأولياء: (زل إيمان إسحاق لأنه قال لزوجته أنها أخته)[1].. وفي موضع آخر قال: (يا أسفي إنه لا يوجد كمال في أحد من بني آدم غير الواحد العديم النظير، والعجب أن شبكة الشيطان التي وقع فيها إبراهيم، وقع فيها إسحاق أيضاً، وقال عن زوجته أنها أخته، فيا أسفي أن أمثال هؤلاء المقربين عند الله محتاجون إلى الوعظ)[2]

يعقوب:

ثم التفت إلى أخي، وقال: ونفس الأمر حصل مع يعقوب.. فهو لم يكتف بالكذب، بل راح يخدع أباه.. بل يخدع الله.. اقرأ على الجمع من (سفر التكوين:٢٧/١-٤٥)

قرأ أخي: (ولمَّا شاخ إسحَقُ وكلَّت عيناهُ عَنِ النَّظَرِ دعا عيسو ابنَهُ الأكبرَ وقالَ لَه: (يا ابني)، قالَ: (نعم. ها أنا). فقالَ: (صِرتُ شيخا كما ترى ولا أعرفُ متى أموتُ. فخذْ عُدَّتَكَ وجعْبَتَكَ وقوسَكَ واخرُج إلى البرِّيَّةِ وتصيَّدْ لي صَيدًا، ٤وهَيِّئْ ليَ الأطعمةَ التي أُحبُّ، وجئْني بها فآكلَ وأباركَكَ قَبلَ أنْ أموتَ).

وكانَت رِفقةُ سامعةً حينما كلَّمَ إسحَقُ عيسو ابنَهُ. فلمَّا خرج عيسو إلى البرِّيَّةِ ليصطادَ صَيدًا ويجيءَ بهِ إلى

---

(١) طريق الأولياء: ١٦٨.

(٢) طريق الأولياء:١٦٩.

أبيهِ، قالت رِفقةُ ليعقوبَ ابنها: (سَمِعتُ أباكَ يقولُ لعيسو أخيكَ: جئْني بصيدٍ وهَيِّئْ لِيَ أطعمةً فآكلَ مِنها وأباركَكَ أمامَ الرّبِّ قَبلَ موتي. والآنَ يا ابني، اسْمَعْ لكلامي واعملْ بما أُوصيكَ به. اذهبْ إلى الماشيةِ وخذْ لي مِنها جديَيْنِ مِنْ خيرةِ المَعَزِ، فأُهيّئهُما أطعمةً لأبيكَ كما يُحِبُّ. فتُحضِرُهما إلى أبيكَ، ويأكلُ لِيباركَكَ قَبْلَ موتِهِ). فقالَ يعقوبُ لرِفقةَ أُمِّهِ: (لكنَّ عيسو أخي رَجلٌ أشعَرُ وأنا رجلٌ أملَسُ. ماذا لو جسَّني أبي فوجدَني مُخادِعًا؟ ألا أجلِبُ على نفْسي لعنةً لا برَكةً؟) فقالت لَه أُمُّهُ: (عليَ لعنَتُكَ يا ابني. ما عليكَ إلاَ أنْ تسمَعَ لِكلامي وتذهبَ وتجيئني بالجديَين. فذهبَ وجاءَ بهما إلى أُمِّهِ، فهيَّأت أطعمةً على ما يُحبُّ أبوهُ. وأخذت رِفقةُ ثيابَ عيسو ابنها الأكبرِ الفاخرةَ التي عِندَها في البَيتِ، فألبسَتْها يعقوبَ ابنَها الأصغرَ وكست يَدَيهِ والجانبَ الأملَسَ مِنْ عُنُقِهِ بجلدِ المَعَزِ. وناولت رِفقةُ يعقوبَ ما هيَّأتْهُ مِنَ الأطعمةِ والخبزِ، فدخلَ على أبيهِ وقالَ: (يا أبي)، قالَ: (نعم، مَنْ أنتَ يا ابني؟) فقالَ لَه يعقوبُ: (أنا عيسو بكرُكَ. فعَلْتُ كما أمرْتَني. قُمِ اجلِسْ، وكُلْ مِنْ صَيدي، وامنَحْني برَكَتَكَ). فقالَ لَه إسحَقُ: (ما أسرعَ ما وجدْتَ صَيدًا يا ابني!) قالَ: (الرّبُّ إلهُكَ وفَّقَني). فقالَ: (تعالَ لأجسَّكَ يا ابني، فأعرفَ هل أنتَ ابني عيسو أم لا). فتقدَّمَ يعقوبُ إلى إسحَقَ أبيهِ، فجسَّهُ وقالَ: (الصَّوتُ صوتُ يعقوبَ، ولكنَّ اليدَينِ يَدا عيسو). ولم يعرِفْهُ، لأنَّ يَدَيهِ كانتا مُشعِرتَينِ كيَدَيْ عيسو أخيهِ. فقبلَ أنْ يباركَهُ. قالَ: (هل أنتَ حقًا ابني عيسو؟) قالَ: (أنا هوَ). فقالَ: (قدِّمْ لي مِنْ صَيدِكَ، يا ابني، حتى آكُلَ وأُباركَكَ). فقَدَّمَ لَه فأكَلَ، وجاءَ بخمرٍ فشربَ. وقالَ لَه إسحَقُ: (تقَدَّمْ وقبِّلْني يا ابني). فتَقَدَّمَ وقبَّلَه، فشمَ رائحةَ ثيابه وباركَه وقالَ: (ها رائحةُ ابني كرائحةِ حقلٍ باركَه الرّبُّ يُعطيكَ اللهُ مِنْ نَدى السَّماءِ ومِنْ خصوبَةِ الأرْضِ فَيضًا مِنَ الحِنطةِ والخمرِ! وتخدُمُكَ الشُّعوبُ وتسجدُ لكَ الأُمَمُ! سيِّدًا تكونُ لإخوَتِكَ، وبَنو أُمِّكَ يَسجدونَ لكَ. مَلعونٌ مَنْ يلعَنُكَ، ومُبارَكٌ مَنْ يُبارِكُكَ!)

فما إنْ فرَغَ إسحَقُ مِنْ برَكتِه، وخرَجَ يعقوبُ مِنْ عِندِه حتى رجعَ عيسو أخوهُ مِنَ الصَّيدِ فهيَّأَ هوَ أيضًا أطعمةً وجاءَ بها إلى أبيهِ وقالَ لَه: (قُمْ يا أبي، وكُلْ مِنْ صَيدي، وبارِكْني). فقالَ لَه أبوهُ: (مَنْ أنتَ؟) قالَ: (أنا ابنُكَ البكرُ عيسو). فارتَعَشَ إسحَقُ ارتعاشًا شديدًا وقالَ: (فمَنْ هوَ الذي صادَ صَيدًا وجاءني به، فأكَلْتُ مِنه كلِّه قَبلَ أنْ تجيءَ وباركْتُه؟ نعم، بارَكْتُه ومُبارَكًا يكونُ). فلمَّا سَمِعَ عيسو كلامَ أبيهِ صرَخ عاليًا بمرارةٍ وقالَ لَه: (بارِكْني أنا أيضًا يا أبي). فأجابَه: (جاءَ أخوكَ بمَكْرٍ وأخذَ برَكَتَكَ). فقالَ عيسو: (ألأنَّ اسمَهُ يعقوبُ تعقَّبني مرَّتَينِ؟ أخذَ بَكوريَّتي، وها هوَ الآنَ يأخذُ برَكتي). وقالَ: (أما أبقيتَ لي برَكَةً؟)

فأجابَه إسحَقُ: (هاأنا جعَلْتُهُ سيِّدًا لكَ، وأعطيتُه جميعَ إخوتِه عبيدًا، وزَوَّدْتُه بالحِنطةِ والخمرِ، فماذا أعمَلُ لكَ يا ابني؟) فقالَ عيسو: (أما لكَ غيرُ برَكةٍ واحدةٍ يا أبي؟ بارِكْني أنا أيضًا يا أبي). ورفعَ عيسو صوتَه وبكى. فأجابَه أبوُه:(بعيدًا عن خصوبَةِ الأرضِ يكونُ مَسكِنُكَ، وعَنْ نَدى السَّماءِ مِنْ فوقُ. بِسَيفِكَ تعيشُ وأخاكَ تخدُمُ فإذا قويتَ تكسر عَنْ عُنُقِكَ نيرَه)

وحقَد عيسو على يعقوبَ بسبَبِ البرَكةِ التي باركَهُ بها أبوه. وقالَ عيسو في نفْسهِ: (إقتربت أيّامُ الحِدادِ على أبي. فأقتلُ يعقوبَ أخي). وجاءَ مَنْ أخبرَ رِفقةَ بكلامِ عيسو، فاستدعت يعقوبَ وقالت لَه: (أخوكَ ينوي أنْ يقتُلَكَ. والآنَ اسمعْ لكلامي يا ابني، فقُمْ اهربْ إلى لابانَ أخي في حارانَ، وأقِمْ عِندَه أيّامًا قليلةً حتى يهدأ

غضَبُ أخيكَ فإذا هدأ غضَبُ أخيكَ ونسيَ ما فعَلْتَ بهِ أُرسِلُ وآخذُكَ مِنْ هُناكَ. لماذا أفقدُكُما في يومٍ واحدٍ؟)

قال الحكيم: يكفيني ما قرأته.. هل ترى هذا سلوك نبي أبي أنبياء!؟.. نحن المسلمين لا نقول هذا .. بل نتره الأنبياء عن كل خطيئة صغيرة كانت أو كبيرة..

لقد ذكر بعض علماء المسلمين.. وهو ابن حزم.. في نقد لاذع وتحليل رائع، ما في هذا النص من أكاذيب وخرافات ومتناقضات فقال: وفي هذا الفصل فضائح وأكذوبات وأشياء تشبه الخرافات، فأول ذلك اطلاقهم على نبي الله يعقوب ــ عليه السلام ــ أنه خدع أباه وغشه وهذا مبعد عمن فيه خير من أبناء الناس مع الكفار والأعداء، فكيف من نبي مع أبيه وهو نبي أيضاً؟! هذه سوءات مضاعفات.

ثانياً: اخبارهم أن بركة يعقوب إنما كانت مسروقه بغش وخديعة وتخابث، وحاشا للأنبياء عليهم السلام من هذا. ولعمري انها لطريقة اليهود، فما تلقى منهم إلا الخبيث الخادع والشاذ.

ثالثاً: اخبارهم أن الله أجرى حكمه وأعطى نعمته على طريق الغش والخديعة، وحاش لله من هذا.

رابعاً: أنه لا يشك أحد في أن إسحق ــ عليه السلام ــ لما بارك يعقوب حينما خدعه، كما زعم النذل الذي كتب لهم هذا الهوس، إنما قصد بتلك البركة عيسو، وأنه دعا لعيسو لا ليعقوب. فأي منفعة للخديعة ها هنا؟ لو كان لهم عقل.

وأما وجوه الكذب فكثيرة جداً. من ذلك نسبتهم الكذب إلى يعقوب ــ عليه السلام ــ وهو نبي الله ورسوله، في أربع مواضع:

أولها وثانيها قوله لأبيه اسحاق أنا ابنك عيسو وبكرك، فهاتان كذبتان في نسق، لأنه لم يكن ابنه عيسو، ولا كان بكره، وثالثها ورابعها قوله لأبيه: صنعت جميع ما قلت لي فاجلس وكل من صيدي.فهاتان كذبتان في نسق، لأنه لم يكن له شيئاً ولا أطعمه من صيده، وكذبات أخرى هي: بطلان بركة اسحق إذ قال ليعقوب تخدمك الأمة وتخضع لك الشعوب وتكون مولى اخوتك، ويسجد لك بنو أمك، وبطلان قوله لعيسو تستعبد لأخيك. فهذه كذبات متواليات. فوالله ما خدعت الأمم يعقوب ولا بنيه بعده، ولا خضعت لهم الشعوب، ولا كانوا موالي اخوتهم، ولا سجد لهم ولا له بنو أمه. بل إن بني اسرائيل هم الذين خدموا الأمم في كل بلدة وخضعوا للشعوب قديماً وحديثاً في أيام دولتهم وبعدها.

وأما قوله (تكون مولى اخوتك ويسجد لك بنو أمك)، فلعمري لقد صح ضد ذلك جهاراً، إذ في توراتهم أن يعقوب كان راعياً لأنعام ابن عمه لابان بن ناحور بن لامك وخادمه عشرين سنة، وأنه بعد ذلك سجد هو وجميع ولده حاشا من لم يكن خلق منهم بعد لأخيه عيسو مرارا كثيرة.

وما سجد عيسو قط ليعقوب، ولا ملك قط أحد من بني يعقوب بني عيسو. وقد تعبد يعقوب لعيسو في جميع خطابه له، وما تعبد قط عيسو ليعقوب. وقد سأل عيسو يعقوب عن أولاده فقال له يعقوب: هم أصاغر من الله بهم على عبدك. وقد طلب يعقوب رضاء عيسو وقال له: اني نظرت الى وجهك كمن نظر إلى بهجة الله، فارض عني، واقبل ما اهديت اليك. فما نرى عيسو وبنيه إلا موالي يعقوب وبنيه.

فما نرى تلك البركة إلا انها معكوسة منكوسة! ونعوذ بالله من الخذلان.

قال ذلك، ثم ابتسم، وقال: لقد ذكرني هذا النص قصة حكاها رحمة الله الهندي، فذكر أن فاجراً من فرقة بانو طلب حشيشاً من الحمّار لأجل حصانه، وما أعطاه الحمار، فقال: إن لم تعطني أدع على حمارك، فيموت الليلة، وراح، فمات حصانه في تلك الليلة، فلما استيقظ ووجد حصانه ميتاً، حرك رأسه متعجباً، فقال: يا عجباً يا عجباً أنه مضى مليونات من السنين على ألوهية إلهنا، ولا يميز الحصان من الحمار إلى هذا الحين، دعوت على الحمار وأهلك حصاني.

ثم علق على هذا بقوله: ولو كان حال ديانة أبي الأنبياء الإسرائيلية هكذا أو حال علم اللّه هكذا، فللمنكر أن يقول: يجوز أن يكون مبنى معاملات الأنبياء الإسرائيلية مع اللّه أيضاً على الخداع كأبيهم الأعلى، ويجوز أن يكون عيسى ــ عليه السلام ــ وعد اللّه أن تعطيني قدرة الكرامات، أدع الخلق إلى توحيدك وربوبيتك، لكن اللّه ما ميز الصدق عن الكذب، فأعطاه القدرة فدعا إلى ربوبية نفسه وبغى على اللّه.. أعوذ باللّه من هذه الأمور الواهية.

ليس هذا فقط ما ذكر عن يعقوب..

لقد ذكر الكتاب المقدس أن يعقوب اشترى النبوة من أخيه عيسو فى مقابل طبق عدس وقطعة لحم، ففي (تكوين ٢٥/ ٢٩-٣٤):(وَطَبَخَ يَعْقُوبُ طَبِيخاً فَأَتَى عِيسُو مِنَ الْحَقْلِ وَهُوَ قَدْ أَعْيَا. فَقَالَ عِيسُو لِيَعْقُوبَ: أَطْعِمْنِي مِنْ هَذَا الأَحْمَرِ لأَنِّي قَدْ أَعْيَيْتُ. (لِذَلِكَ دُعِيَ اسْمُهُ أَدُومَ). فَقَالَ يَعْقُوبُ: بِعْنِي الْيَوْمَ بَكُورِيَّتَكَ. فَقَالَ عِيسُو: هَا أَنَا مَاضٍ إِلَى الْمَوْتِ فَلِمَاذَا لِي بَكُورِيَّةٌ؟ فَقَالَ يَعْقُوبُ: احْلِفْ لِيَ الْيَوْمَ. فَحَلَفَ لَهُ. فَبَاعَ بَكُورِيَّتَهُ لِيَعْقُوبَ. فَأَعْطَى يَعْقُوبُ عِيسُوَ خُبْزاً وَطَبِيخَ عَدَسٍ فَأَكَلَ وَشَرِبَ وَقَامَ وَمَضَى. فَاحْتَقَرَ عِيسُو الْبَكُورِيَّةَ)

لوط:

التفت إلى أخي، وقال: أنبئني عن مقام لوط فيكم، وفي الكتاب المقدس؟

قال أخي: هو من الأنبياء البررة، وقد شهد له بطرس في رسالته الثانية (٢: ٧) بالبر والصلاح والاستقامة فهو يقول:(وَإِذْ حَكَمَ اللهُ عَلَى مَدِينَتَيْ سَدُومَ وَعَمُورَةَ بِالْخَرَابِ، حَوَّلَهُمَا إِلَى رَمَادٍ، جَاعِلاً مِنْهُمَا عِبْرَةً لِلَّذِينَ يَعِيشُونَ حَيَاةً فَاجِرَةً. وَلَكِنَّهُ أَنْقَذَ لُوطاً الْبَارَّ، الَّذِي كَانَ مُتَضَايِقاً جداً مِنْ سُلُوكِ أَشْرَارِ زَمَانِهِ فِي الدَّعَارَةِ. فَإِذْ كَانَ سَاكِناً بَيْنَهُمْ، وَهُوَ رَجُلٌ بَارٌّ، كَانَتْ نَفْسُهُ الزَّكِيَّةُ تَتَأَلَّمُ يَوْمِيّاً مِنْ جَرَائِمِهِمِ الَّتِي كَانَ يَرَاهَا أَوْ يَسْمَعُ بِهَا. وَهَكَذَا نَرَى أَنَّ الرَّبَّ يَعْرِفُ كيف يُنْقِذَ الأَتْقِيَاءَ مِنَ الْمِحْنَةِ)

قال الحكيم: فاقرأ ما ورد عنه في الكتاب المقدس من سفر التكوين: ١٩ / ٣٠ ــ ٣٨)

قرأ أخي: (وخافَ لُوطَ أنْ يسكُنَ في صُوغرَ، فصعِدَ إلى الجبَلِ وأقامَ بالمغارةِ هوَ وابنتاهُ. فقالتِ الكُبرى للصُّغرى: ((شاخ أبونا وما في الأرضِ رَجلٌ يتزوَّجنا على عادةِ أهلِ الأرضِ كُلِّهم. تعالَي نسقي أبانا خمرًا ونضاجعُهُ ونقيمُ مِنْ أبينا نسلاً)). فسقتا أباهُما خمرًا تلكَ اللَّيلةَ، وجاءتِ الكُبرى وضاجعت أباها وهوَ لا يَعلمُ بنيامِها ولا قيامِها. وفي الغدِ قالتِ الكُبرى للصُّغرى: ((ضاجعتُ البارحةَ أبي، فلنَسْقِهِ خمرًا اللَّيلةَ أيضًا،

وضاجعيهِ أنتِ لِنُقيمَ مِنْ أبينا نسلاً)). فسقتا أباهُما خمرًا تِلكَ الليلةَ أيضًا، وقامتِ الصُّغرى وضاجعَتْهُ وهوَ لا يَعلمُ بنيامِها ولا قيامِها. فحملتِ ابنتا لُوطٍ مِنْ أبيهما. فولدتِ الكُبرى ابنًا وسمَّتْهُ موأبَ، وهوَ أبو المؤابيِّينَ إلى اليوم. والصُّغرى أيضًا ولدتِ ابنًا وسمَّتْهُ بنَ عمِّي، وهوَ أبو بَني عمُّونَ إلى اليومِ)

قال الحكيم: أهذا هو الطهر والبراءة والتقى!؟.. لقد قال صاحب (طريق الأولياء)[1] يتأسف عليه:(حاله حري أن يبكى عليه، ونحن بعد التأسف والخوف والخشية على أنفسنا نتعجب منه، أهو الذي بقي نقي الثوب عن جميع شرور سادوم، وكان قوياً في السلوك على صراط اللّه، وبعيداً عن جميع نجاسات تلك البلدة وغلب عليه الفسق بعد ما خرج إلى البر، فأي شخص يكون مأموناً في بلد أو بر أو كهف)

فإذا كان القسيسيون قد بكوا عليه، فليكفنا بكاؤهم[2].. ولنبحث في سجل خطايا نبي آخر.. أخبرني عن

---

(١) طريق الأولياء:١٢٨.

(٢) من باب تبرئة نبي الله لوط ــ عليه السلام ــ فسنعيد هنا ذكر ما ذكرناه في رسالة (الكلمات المقدسة) من أدلة براءة لوط ــ عليه السلام ــ من تلك التهمة الشنيعة، فقد جاء فيه:

كعادة الكتاب المقدس، فإنه يترك في نصوصه أدلة التحريف والكذب، وسنقتصر من أدلة كذب هذه القصة ما ذكره الكتاب المقدس علي لسان بنت لوط الكبرى أنه لا يوجد رجال في الأرض (و ليس في الأرض رجل)، فهذا القول خطأ من وجوه:

١. أن الرب دمر قرية سدوم وعمورة فقط بما فيها من البشر، أما باقي الأرض وما بها من البشر، فلم يمسهم.

٢. كان لوط قريبا جدا من عمه إبراهيم وقومه، وقد مرت ملائكة الرب علي إبراهيم وهم في طريقهم لتدمير قرية سدوم وعمورة بل شاهد إبراهيم القرية والدخان ينبعث منها، كما في (تكوين: ١٩: ٢٧ -٢٨):« وبكر ابراهيم في الغد الى المكان الذي وقف فيه أمام الرب وتطلع نحو سدوم وعمورة ونحو كل أرض الدائرة ونظر وإذا دخان الأرض يصعد كدخان الأتون » أي أن لوط لم يبعد عن إبراهيم وقومه، وبالتالي يمكن لبنات لوط الزواج من قوم إبراهيم أو من أي قرية قريبة منهم.

٣. أن في الكتاب المقدس ما يدل على كون بناته متزوجات.. حيث أن لوطا طلب من أزواج بناته الاستعداد للرحيل معهم (تكوين:١٩: ١٤):« فخرج لوط وكلم أصهاره الآخذين بناته وقال: قوموا اخرجوا من هذا المكان لأن الرب مهلك المدينة فكان كمازح في أعين أصهاره »

وقد ورد في نفس الوقت ما يدل على أنهما غير متزوجتين حيث أن لوط أخبر قومه أن لديه بنتين لم يعرفا رجلا، أي لم يسبق لهم الزواج (تكوين: ١٩: ٨):« هوذا لي ابنتان لم تعرفا رجلا اخرجهما اليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم وأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئا لأنهما قد دخلا تحت ظل سقفي »

ولسنا ندري أي النصين نصدق!؟

٤. أن الرب أهلك الآثمين فقط، ونجى البارين فقط.. فإن كان زوجي بنتي لوط ــ ان صح أنهما من المتزوجات ــ من الآثمين لماذا طلب ملاك الرب من لوط أن يأخذهم معه (تكوين: ١٩: ١٢):« وقال الرجلان للوط من لك أيضا ههنا اصهارك وبنيك و بناتك وكل من لك في المدينة اخرج من المكان ».. فهل الرب يحابي لوط وبناته وأصهاره!؟

٥. أن المخمور الذى لا يستطيع أن يفرق بين بناته والأجنبيات لشدة سُكره، لا يكون فى هذا الوقت مستعدا للممارسة الجنسية، والغريب فى باقى القصة أن الأب لم يسأل ابنتيه العذراوتين عن سبب الحمل؟ ومثل هذا الوضع لو وقع لبعض آحاد الناس لضاقت عليه الأرض بما رحُبت حزناً وغماً.

٦. أنه لو كان الموابيين والعمونيين من الزنى لغضب الله عليهم أو أهمل شأنهم، ولكننا نرى فى سفر التثنية أن الله قد أعطى أرض الإيميين للموآبيين ميراثاً « فَقَالَ لِي الرَّبُّ: لا تُعَادِ مُوآبَ وَلا تُثِرْ عَلَيْهِمْ حَرْباً لأَنِّي لا أُعْطِيكَ مِنْ أَرْضِهِمْ مِيرَاثاً. لأَنِّي لِبَنِي لُوطَ قَدْ أَعْطَيْتُ «عَارَ» مِيرَاثاً. ١٠الإِيمِيُّونَ سَكَنُوا فِيهَا قَبْلاً. شَعْبٌ كَبِيرٌ وَكَثِيرٌ وَطَوِيلٌ كَالعَنَاقِيِّينَ »(سفر التثنية ٢: ٩-١٠)، كماً أعطى أرض الرفائيين لبنى عمون ميراثاً:« ١٩فَمَتَى قَرُبْتَ إِلَى تُجَاهِ بَنِي عَمُّونَ لا تُعَادِهِمْ وَلا تَهْجِمُوا عَلَيْهِمْ لأَنِّي لا أُعْطِيكَ

موسى:

قال أخي: هو فينا النبي منقطع النظير (تثنية ٣٤: ١٠- ١٢) الذي على يده حّرر الله شعبه، وعقد عهده معه (خروج ٢٤: ٨)، وأعلن له شريعته (خروج ٣٤: ١٠، راجع ٣٤: ٢٧).. وموسى هو الوحيد ـــ بالاشتراك مع يسوع ـــ الذي يطلق عليهما العهد الجديد لقب الوسيط.

لكن بينما أعطى الله الشريعة بواسطة عبده الأمين موسى (عبرانيين ٣: ٥، غلاطية ٣: ١٩) لشعبه إسرائيل وحده، فهو يخلص جميع البشر بوساطة ابنه (عبرانيين ٣: ٦) يسوع المسيح (١ تيموتاوس ٢: ٤-٦).. ولهذا، فإن الشريعة أتتنا عن يد موسى، وأما النعمة والحق فقد بلغا إلينا عن يد يسوع المسيح (يوحنا ١: ١٧)

قال الحكيم: لن أجادلك فيما ذكرته.. ولكني لن آخذ منه إلا شيئا واحدا أحتاجه الآن.. وهو أن موسى

مِنْ أَرْضِ بَنِي عَمُّونَ مِيرَاثاً – لأَنِّي لِبَنِي لُوطٍ قَدْ أَعْطَيْتُهَا مِيرَاثاً. ٢٠هِيَ أَيْضاً تُحْسَبُ أَرْضَ رَفَائِيِّينَ. سَكَنَ الرَّفَائِيُّونَ فِيهَا قَبْلاً لكِنَّ العَمُّونِيِّينَ يَدْعُونَهُمْ زَمْزُمِيِّينَ »(تثنية ٢: ١٩-٢٠)

وقد أعطى الله الموآبيين والعمونيين ميراث الأرض قبل أن يورث بنى إسرائيل وقبل أن يدخلوا أرض الميعاد، بل وحرَّمَ أرض الموآبيين والعمونيين على بنى إسرائيل كما ورد فى سفر (التثنية ٢: ٩ و ١٩)

ولو كان الإرث يستلزم عهداً من الرب، فقد حصل عليه العمونيون والموابيون، وبذلك يكونون قد دخلوا فى جماعة الرب، لأن الرب لا يعطى عهداً لأبناء الزنى:« ٢لا يَدْخُلِ ابْنُ زِنىً فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ. حَتَّى الجِيلِ العَاشِرِ لا يَدْخُل مِنْهُ أَحَدٌ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ »(تثنية ٢٣: ٢)، وبذلك يكون الموآبيون والعمونيون ليسوا من أبناء زنى ويكون كتبة هذه القصة من الكاذبين. ويكون بنى إسرائيل قد ادعوا وجود هذا العهد من الله ويكونوا أيضاً من الكاذبين.

ولو صدقنا قول التوراة أن العمونيين والموآبيين من نسل الزنى، وعلى الرغم من ذلك قد حصلوا على عهد من الله وعلى إرث، يكون قد نال عهد الله أبناء الزنى والأطهار (بنى إسرائيل)، فلا ميزة إذن للأطهار عن أبناء الزنى، ويصبح قول التوراة بأن بنى إسرائيل شعب الله المختار لأنهم أخذوا عهداً من الله بتملك الأرض، هو قول كذب.

٧. أن راعوث كانت موآبية وهى أم نبى الله داود الذى كان من ذريته كل ملوك يهوذا حتى السبى، والذى قال عنه الرب:« ١٤أَنَا أَكُونُ لَهُ أَباً وَهُوَ يَكُونُ لِيَ ابْناً. إِنْ تَعَوَّجَ أُؤَدِّبْهُ بِقَضِيبِ النَّاسِ وَبِضَرَبَاتِ بَنِي آدَمَ. ١٥وَلَكِنَّ رَحْمَتِي لاَ تُنْزَعُ مِنْهُ كَمَا نَزَعْتُهَا مِنْ شَاوُلَ الَّذِي أَزَلْتُهُ مِنْ أَمَامِكَ. ١٦وَيَأْمَنُ بَيْتُكَ وَمَمْلَكَتُكَ إِلَى الأَبَدِ أَمَامَكَ. كُرْسِيُّكَ يَكُونُ ثَابِتاً إِلَى الأَبَدِ» (صموئيل الثانى ٧: ١٤-١٦)

فلا يمكن أن من شرفه الله بهذا الشرف أن يكون من سلالة زنى. كما أن سليمان قد تزوج من نعمة العمونية وأنجب منها رحبعام (ملوك الأول ١٤: ٢١)، ولا يمكن أن يكون رؤوس جماعة الرب من أمهات زنى، فضلاً عن أنهم من نسل الرب (تبعاً للتشريع النصرانى)، فلابد أن يكون هذا التشريع مدسوس على التوراة.

وقد بين السموال بن يحيى المغربى ـــ أحد أحبار اليهود الذين أسلموا، وقد كان أبوه حبراً يهودياً كبيراً وإماماً ضليعاً فى اليهودية وكذلك كانت أمه ـــ السر الذي دعا إلى اختلاق هذه القصة، فقال:« وأيضاً فإن عندهم أن موسى جعل الإمامة فى الهارونيين، فلما ولى طالوت (شاول) وثقلت وطأته على الهارونيين وقتل منهم مقتلة عظيمة، ثم انتقل الأمر إلى داود، بقى فى نفوس الهارونيين التشوق إلى الأمر الذى زال عنهم، وكان (عزرا) هذا خادماً لملك الفرس، حظيا لديه، فتوصل إلى بناء بيت المقدس، وعمل لهم هذه التوراة التى بأيديهم، فلما كان هارونيا، كره أن يتولى عليهم فى الدولة الثانية داودىّ، فأضاف فى التوراة فصلين للطعن فى نسب داود، أحدهما قصة بنات لوط والآخر قصة ثامار (مع يهوذا) ولقد بلغ - لعمرى - غرضه، فإن الدولة الثانية كانت لهم فى بيت المقدس، لم يملك عليها داوديون، بل كان ملوكهم هارونيون » إفحام اليهود:١٥١ و ١٥٢.

نبي من أنبياء الكتاب المقدس.. أليس كذلك؟

قال أخي: إن لم يكن موسى نبيا، فليس هناك نبي في الكتاب المقدس.

قال الحكيم: ما دمت قد ذكرت هذا.. فاقرأ لي ما ورد في (الخروج:٢/١١ -١٢)

قرأ أخي:(وحدث في تلك الأيام لما كبر موسى أنه خرج إلى إخوته لينظر في أثقالهم. فرأى رجلا مصريا يضرب رجلا عبرانيا من إخوته فالتفت الى هنا وهناك ورأى ان ليس احد فقتل المصري وطمره في الرمل)

قال الحكيم: ألا ترى كيف يصور الكتاب المقدس نبي الله موسى متعمدا للقتل.. بل تعتبره عنصريا، فهو لم يقتله إلا لأنه مصري.

التفت إلى أخي، ثم قال: اقرأ علي ما ورد في (سفر الخروج:٤/١٠- ١٧)

قرأ أخي: (فقال موسى للرّبِّ: (يا ربُّ! ما كُنتُ يومًا رَجلاً فصيحًا. لا بالأمسِ ولا مِنْ يومَ كَلَّمْتَني أنا عبدَكَ بل أنا بطيءُ النُّطْقِ وثقيلُ اللّسانِ) فقالَ لَه الرّبُّ: (مَنِ الذي خلَقَ للإنسانِ فَمًا؟ ومَنِ الذي خلَقَ الأخرسَ أوِ الأصمَ أوِ البَصيرَ أوِ الأعمى؟ أما هوَ أنا الرّبُّ؟ فَاذهَبْ وأنا أُعينُكَ على الكلامِ وأُعَلِّمُكَ ما تقولُ) فقالَ موسى: (يا ربُّ! أرسِلْ أحدًا غَيري) فغَضِبَ الرّبُّ على موسى غضَبًا شديدًا وقالَ لَه: (أعرفُ هرونَ اللاّويَ أخاكَ أنَّه فصيحُ اللِّسانِ وها هوَ الآنَ خارجٍ لِلقائِكَ وحينَ يراكَ يفرَحُ في قلبه. فَكَلِّمْهُ أنتَ بما تُريدُ أنْ يَنطِقَ بهِ، وأنا أُعينُكُما على ما تقولانه وأُعلِّمُكُما وأُريكُما ما تعمَلانه. هوَ يُخاطِبُ الشَّعبَ عَنكَ ويَنطِقُ باسمِكَ، وأنتَ تكونُ لَه كأنَّكَ اللهُ يُوحي إليه. وخذْ بيَدِكَ هذِهِ العصا، فبِها تصنَعُ المُعجزاتِ)

قال الحكيم: ألا ترى كيف نص الكتاب المقدس على أن الله غضب على موسى غضبا شديدا؟

سكت أخي، فقال له الحكيم: اقرأ علي ما ورد في (سفر الخروج:٣٢/١٩)

قرأ أخي:(فلما دنا من المحلة وأبصر العجل وجوق المغنيين فاشتد غضب موسى ورمى باللوحين من يده فكسرهما في أسفل الجبل)

قال الحكيم: أليس هذان اللوحان كانا من عمل اللّه وخط اللّه؟

قال أخي: بلى.. وقد صرح بذلك في هذا الباب.

قال الحكيم: فكسرهما خطأ، و لم يحصل بعد ذلك مثلهما، لأن اللوحين اللذين حصلا بعدهما كانا من عمل موسى ومن خطه.

قال أخي: أجل.. وقد صرح بذلك في الباب الرابع والثلاثين من سفر الخروج.

قال الحكيم: ليس هذا فقط ما رمى به الكتاب المقدس هذا النبي الكريم.. اقرأ علي ما ورد في (سفر العدد:٢٠/١٢)

قرأ أخي: (وقال الرب لموسى وهارون من أجل إنكما لم تصدقاني وتقدساني قدام بني إسرائيل، من أجل ذلك لا تدخلان أنتما بهذه الجماعة إلى الأرض التي وهبت لهم)

قال الحكيم: ليس هذا فقط.. اقرأ ما ورد في (سفر الاستثناء: ٣٢/ ٤٨-٥٢)

قرأ اخي: (وكلم الرب موسى في ذلك اليوم وقال له ارق هذا الجبل عباريم وهو جبل المجازاة إلى جبل نابو

الذي في أرض مواب تلقاء أريحاء، ثم انظر إلى أرض كنعان التي أنا أعطيها لبني إسرائيل ليرثوها ثم مت في الجبل الذي تصعد إليه ويجتمع إلى شعوبك، كما مات أخوك هارون في هور الطور واجتمع إلى شعبه على أنكما عصيتماني في بني إسرائيل عند ماء الخصام في قادس برية صين و لم تطهراني في بني إسرائيل فإنك ستنظر إلى الأرض التي أنا أعطيها بني إسرائيل من تلقائها، وأما أنت فلا تدخلها)

قال الحكيم: ألا ترى في هاتين العبارتين تصريحا بصدور الخطأ عن موسى وهارون ــ عليهما السلام ــ بحيث صارا محرومين عن الدخول في الأرض المقدسة، بل قد قال اللّه لهما زاجراً: (إنكما لم تصدقاني وتقدساني وإنكما عصيتماني)!؟

سكت أخي، فقال الحكيم: فلنترك موسى.. ولنذهب إلى أخيه هارون.. شريكه في النبوة.. أخبرني ما مقامه فيكم؟

هارون:

قال أخي: هو عندنا ــ كان ولا يزال ــ مثال الكاهن الأعظم كما في (سيراخ ٤٥: ٦ - ٢٢) ومثال الشفيع القدير الذي صرف عن الشعب الغضب الإلهي (حكمة ١٨: ٢٠- ٢٥).. وقد كان الأسينيون في عصر يسوع ينتظرون لا المسيا الملك ابن داود فقط، بل المسيا الكاهن الأسمى ابن هارون.

قال الحكيم: وأنتم تنصون على نبوته.. فقد كتب القسيس (اسمت) في القسم الأول من كتابه المسمى بتحقيق الدين الحق المطبوع سنة ١٨٤٢ في الصفحة ٤٢: (كما أنه لم يكن بينهم ــ أي بين بني إسرائيل ــ سلطان لم يكن بينهم نبي غير موسى وهارون وسبعين من المعينين)، ثم قال: (لم يكن غير موسى وهارون ومعينيهما نبياً لهم)[1]، فدل هذا على أن هارون نبي عند المسيحيين.

ثم التفت إلى أخي، فوجده، وكأن هذا النقل لم يعجبه، فقال: لا بأس.. فلنترك هذا القسيس.. ولنرجع إلى الكتاب المقدس.. فهو الذي ينص بصراحة لا فوقها صراحة على نبوته.. ولا يضره أن يكون متبعاً لشريعة موسى، فهذا لا يتنافى مع النبوة كما لا ينافي هذا نبوة يوشع وداود وأشعيا وأرمياء وحزقيال وغيرهم من الأنبياء الإسرائيليين، الذين كانوا ما بين زمان موسى.

لقد جاء في (سفر الخروج: ٢٧/٤):(فقال الرب لهارون اذهب وتلق موسى إلى البرية فمضى وتلقى به إلى جبل اللّه وقبله).. وفي (سفر العدد:١/١٨):(وقال الرب لهارون).. وفي (سفر العدد:٨/١٨):(ثم كلم الرب هارون وقال له).. وفي (سفر العدد:٢٠/١٨):(ثم قال الرب لهارون).. وفي هذا الباب من الأول إلى الآخر هو المخاطب حقيقة.

وفي الباب الثاني والرابع عشر والسادس عشر والتاسع عشر توجد هذه العبارة: (وكلم الرب

---

(١) نقل رحمة الله الهندي هذا النقل من هذا الكتاب، ثم عقب عليه بقوله: ولا بد أن يعلم الناظر أني نقلت هاتين العبارتين من النسخة المطبوعة سنة ١٨٤٢ وكتبت الرد على هذه النسخة، وسميته تقليب المطاعن، ورد صاحب الاستفسار أيضاً على هذه النسخة، وسمعت أن هذا القسيس بعد الرد حرف كتابه، فزاد في بعض المواضع ونقص في البعض، وبدل البعض، كما فعل صاحب ميزان الحق في نسخة الميزان مثله، فلا أعلم أن هذا القسيس ألقى هاتين العبارتين في النسخة الأخيرة المحرفة أم لا.

موسى وهارون وقال لهما) في ستة مواضع.

وفي الآية الثالثة عشر من الباب السادس من سفر الخروج هكذا: (فكلم الرب موسى وهارون وأوصاهما وأرسلهما إلى بني إسرائيل وإلى فرعون ملك مصر ليخرجا بني إسرائيل من مصر)

أنت ترى من هذه العبارات أن اللّه أوحى إلى هارون منفرداً وبشركة موسى، وأرسله إلى بني إسرائيل وفرعون كما أرسل موسى.. بل من طالع سفر الخروج يظهر له أن المعجزات التي صدرت في مقابلة فرعون، ظهر أكثرها على يد هارون.

قال أخي: لا حاجة لك لذكر كل هذه الأدلة.. فأنا لا أنكر نبوة هارون[1].

قال الحكيم: ما دمت قد قلت ذلك، فاقرأ علي ما ورد في (سفر الخروج: ٣٢ / ١-٦)

قرأ أخي: (ولَمَّا رأى الشَّعبُ أنَّ موسى أبطأَ في النُّزولِ مِنَ الجبَلِ اَجتَمَعوا على هرونَ وقالوا لَه: (قُمِ اَصنَعْ لنا آلِهَةً تسيرُ أمامَنا. فهذا الرَّجلُ موسى الذي أخرَجنا مِنْ أرضِ مِصْرَ لا نعرِفُ ماذا أصابَهُ) فقالَ لَهُم هرونُ: (انزَعوا حَلَقَ الذَّهَبِ التي في آذانِ نسائِكُم وبَنيكُم وبناتِكُم وجيئوني بها) فنَزَعَ جميعُ الشَّعبِ حَلَقَ الذَّهَبِ التي في آذانِ نسائِهِم وجاؤوا بها إلى هَرونَ. فأخذَها مِنْ أيديهِم وأذابَها وسَكَبَها في صَنَمٍ على صورَةِ عِجلٍ. فقالَ الشَّعبُ: (هذِهِ آلِهتُكُم يا بَني إسرائيلَ، آلِهتُكُمُ التي أخرَجَتْكُم مِنْ أرضِ مِصْرَ) فلمَّا رأى هرونُ ذلِكَ بَنى أمامَ الصَّنَمِ مذبَحًا ونادى وقالَ: (غدًا عيدٌ للرّبِّ) فبكَّروا في الصَّباحِ وأصعَدوا مُحرقاتٍ وقدَّموا ذبائِحَ سلامَةٍ وجلسوا يأكُلونَ ويشرَبونَ، ثُمَّ قاموا يمرَحونَ)

قال الحكيم: ألا ترى في هذا النص ما يدلك على الخطيئة العظيمة التي وقع فيها هارون.. بل هي أعظم الخطايا على الإطلاق..

ألا ترى أن هارون صنع عجلاً، وبنى مذبحاً أمامه، ونادى وقال: غداً عيد للرب. فعبد العجل وأمر بني إسرائيل بعبادته فقربوا وقوداً وذبائح؟

التفت إلى أخي، فلم يجبه بشيء، فقال: دعنا من هارون.. ولنبحث في سيرة نبي آخر.. اذكر لي.. ما مقام داود فيكم؟

داود:

قال أخي: لقد دُعي داود من قبل الله، وكرّس بدهن المسحة (١ صموئيل ١٦: ١٦/ ١- ١٣) فهو دائماً مبارك من الله، وهو الشخص الذي يقصده الله بحضوره، ولأن الله كان معه فقد نجح في كل مساعيه (١٦: ١٨)، في محاربته لجليات (١٧: ٤٥- ٤٧)، وفي حروبه التي قام بها في خدمته لشاول (١٨: ١٤- ١٦)، وفي الحروب التي قام بها كملك ومحرر لإسرائيل.. (ووقى الرب داود حيثما توجه) (٢ صموئيل ٨: ١٤)

قال الحكيم: فاقرأ علي ما قصه الكتاب المقدس عنه في سفر صموئيل الثاني (١١: ١-٢٧)

---

(١) ذكرنا هذه الأدلة هنا على اعتبار أن من المسيحيين من ينكر نبوته، ومنهم صاحب ميزان الحق ـــ كما يذكر رحمة الله الهندي ـــ فقد أنكر نبوة هارون في الصفحة ١٠٥ من كتابه المسمى بحل الإشكال المطبوع سنة ١٨٤٧.

قرأ أخي: (ولمَّا جاءَ الرَّبيعُ، وهوَ وقتُ خروجِ المُلوكِ إلى الحربِ، أرسلَ داوُدُ يوآبَ والقادةَ معَهُ على رأسِ كُلِّ جيشِ بَني إسرائيلَ، فسحقوا بَني عَمُّونَ وحاصروا مدينةَ ربَّةَ. وأمَّا داوُدُ فبَقيَ في أورُشليمَ. وعِندَ المَساءِ قامَ داوُدُ عَنْ سريرِهِ وتمشَّى على سطحِ القصرِ، فرأى على السَّطحِ امرأةً تَستحِمُّ وكانَت جميلةً جدُا. فسألَ عَنها، فقيلَ لَه: (هذِهِ بَتشابَعُ بنتُ أليعامَ، زوجةُ أوريَّا الحِثِّيِّ). فأرسَلَ إليها رُسُلاً عادوا بها وكانَت اغتَسلت وتَطهَّرت، فدخلَ عليها ونامَ معَها، ثُمَ رجعت إلى بَيتِها. وحينَ أحسَّت أنَّها حُبلى أعلَمتهُ بذلِكَ. فأرسَلَ داوُدُ إلى يوآبَ يقولُ: (أرسِلْ إليَ أوريَّا الحِثِّيَّ) فأرسَلَهُ. فلمَّا جاءَ سألَهُ داوُدُ عَنْ سلامةِ يوآبَ والجيشِ وعَنِ الحربِ، ثُمَ قالَ لَه: (إنزِلْ إلى بَيتِكَ واغسلْ رِجلَيكَ واَسترِحْ). فخرجَ أوريَّا مِنَ القصرِ وتَبعتْهُ هديَّةٌ مِنْ عِندِ داوُدَ. فنامَ على بابِ القصرِ معَ الحرَسِ و لم ينزِلْ إلى بَيتِهِ. فلمَّا قيلَ لداوُدَ: (أوريَّا لم يَنزِلْ إلى بَيتِهِ)، دَعاهُ وقالَ لَه: (أما جئتَ مِنَ السَّفرِ؟ فما بالُكَ لا تنزلُ إلى بَيتِكَ؟) فأجابَهُ أوريَّا: (تابوتُ العَهدِ ورجالُ إسرائيلَ ويَهوذا مُقيمونَ في الخيامِ، ويوآبُ وقادَةُ سيِّدي المَلِكِ في البَرِّيَّةِ، فكيفَ أدخلُ بَيتي وآكُلُ وأشربُ وأنامُ معَ زوجتي؟ لا وحياتِكَ، لا أفعَلُ هذا). فقالَ لَه داوُدُ: (أقِمْ هُنا اليومَ، وغَدًا أصرفُكَ). فبقيَ أوريَّا ذلِكَ اليومَ في أورُشليمَ، وفي اليومِ التَّالي دعاهُ داوُدُ، فأكلَ معَهُ وشربَ حتى سَكِرَ. ثُمَ خرَجَ مساءً، فنامَ حيثُ ينامُ الحرَسُ، و لم ينزِلْ إلى بَيتِهِ. فلمَّا طلَعَ الصَّباحُ كتَبَ داوُدُ إلى يوآبَ مكتوبًا وأرسَلَهُ بيَدِ أوريَّا، يقولُ فيهِ: (وجهوا أوريَّا إلى حيثُ يكونُ القِتالُ شديدًا، وارجعوا مِنْ ورائِه فيَضرِبَهُ العَدوُّ ويموتُ). وكانَ يوآبُ يحاصِرُ المدينةَ، فعيَّنَ لأوريَّا موضِعًا عَلِمَ أنَّ للعدوِّ فيهِ رِجالاً أشدَّاءَ. فخرَجَ رِجالُ المدينةِ وحارَبوا يوآبَ، فسقَطَ لداوُدَ بَعضُ القادَةِ ومِنْ بَينِهِم أوريَّا الحِثِّيُّ. فأرسَلَ يوآبُ وأخبَرَ داوُدَ بكلِّ ما جرى في الحربِ. وقالَ يوآبُ للرَّسولِ: (بَعدَما تُخبِرُ المَلِكَ بكُلِّ ما جرى في الحربِ، وإذا ثارَ غضَبُهُ وقالَ: لماذا دَنَوتُم مِنْ سورِ المدينةِ لِتُحاربوا؟ أما تعلَمونَ أنَّ الذينَ فوقَ السُّورِ يَرمونَكُم بالسِّهامِ؟ مَنْ قتَلَ أبيمالِكَ بنَ يَروبَّشْتَ؟ أما هيَ امرأةٌ في تاباصَ رَمَتْهُ بحَجرِ طاحونةٍ مِنْ فوقِ السُّورِ فقُتِلَ؟ فلماذا دَنوتم مِنَ السُّورِ؟) إذا قالَ لكَ هذا الكلامَ أجِبْهُ: (عبدُكَ أوريَّا الحِثِّيُّ أيضًا ماتَ). فذهَبَ الرَّسولُ إلى داوُدَ وأخبرَهُ بجميعِ ما أمرَهُ بِهِ يوآبُ، وقالَ لداوُدَ: (قَويَ علَينا الأعداءُ وخرَجوا لقِتالِنا في البَرِّيَّةِ، فطارَدناهُم إلى بابِ المدينةِ، فرَمانا العَدوُّ بالسِّهامِ مِنْ فوقِ السُّورِ، فماتَ البَعضُ مِنْ قادَةِ المَلِكِ، وقُتِلَ أيضًا عبدُكَ أوريَّا الحِثِّيُّ). فقالَ لَه داوُدُ: (هذا ما تقولُ ليوآبَ: لا يُحزِنْكَ ذلِكَ، لأنَّ السَّيفَ لا يرحَمُ أحدًا. تابعْ هُجومَكَ على المدينةِ ودمِّرْها. قُل لَه ذلِكَ حتى يتشجعَ). وسمِعَت زوجةُ أوريَّا أنَّ زوجها ماتَ، فناحَت عَلَيهِ. ولمَّا انتَهَت أيَّامُ مَناحَتِها، أرسَلَ داوُدُ وضَمَّها إلى بَيتِهِ، فكانَت زوجةً لَه وولدَت لَه ابنًا. واستاءَ الرّبُّ مِمَّا فعلَهُ داوُدُ)

قال الحكيم: أهذا هو داود النبي الذي وصفته بما وصفته؟

قال أخي: هذا ما قاله الكتاب المقدس عنه.

قال الحكيم: ألا ترى داود كيف صار في الكتاب المقدس رمزا للرذيلة.. إن هذا الحدث الذي ورد في صمويل كان في الوقت الذي كان جيشه يحارب فيه؟

وفي الوقت الذي كان أوريا يضحي بنفسه كان عرضه ينتهك.. ثم يرمى أوريا في سلة مهملات الكتاب

المقدس، بينما يمجد داود، ويتشرف بأن يكون أبا للمسيح.. أليس في هذا تمجيدا للرذيلة؟

سليمان:

سكت أخي، فقال: فلنتحدث عن ابنه وثمرة فؤاده سليمان.. أجبني: ما مقام سليمان فيكم؟

قال أخي: إن سليمان يرمز عندنا للحكمة.. فإذا ذكرت الحكمة ذكرنا معها سليمان.. وإذا ذكرنا سليمان ذكرنا معه الحكمة.. وقد قال عنه الكتاب المقدس في (سفر ملوك الأول: ٤:٣٠):(وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بني المشرق)

قال الحكيم: هذا ما قاله سفر الملوك الأول في إصحاحه الرابع.. فاقرأ علي ما ذكره نفس السفر في الباب الحادي عشر.

أخذ أخي يقرأ:(وكان سليمان الملك قد أحب نساء كثيرة غريبة، وابنة فرعون، ونساء من بنات الموابيين، ومن بنات عمون، ومن بنات أدوم، ومن بنات الصيدانيين، ومن بنات الحيثانيين من الشعوب الذين قال الرب لبني إسرائيل لا تدخلوا إليهم، ولا يدخلوا إليكم لئلا يميلوا قلوبكم إلى آلهتكم، وهؤلاء التصق بهم سليمان بحب شديد وصار له سبعمائة امرأة حرة، وثلثمائة سرية، وأغوت نساءه قلبه فلما كان عند كبر سليمان أغوت نساءه إلى آلهة أخر، و لم يكن قلبه سليماً للّه ربه مثل قلب داود أبيه وتبع سليمان عستروت إله الصيدانيين وملكوم صنم بني عمون وارتكب سليمان القبح أمام الرب و لم يتم أن يتبع الرب مثل داود أبيه ثم نصب سليمان نصبة لكاموش صنم مواب في الجبل الذي قدام أورشليم، ولملكوم وثن بني عمون وكذلك صنع لجميع نسائه الغرباء، وهن يبخرن، ويذبحن لآلهتهن فغضب الرب على سليمان حيث مال قلبه عن الرب إله إسرائيل الذي ظهر له مرتين ونهاه عن هذا الكلام أن لا يتبع آلهة الغرباء، و لم يحفظ ما أمره به الرب فقال الرب لسليمان: إنك فعلت هذا الفعل، و لم تحفظ عهدي ووصاياي التي أمرتك بهن، أشق شقاً ملكك، وأصيره إلى عبدك(الملوك الأول:١١/ ١ ــ ١١)

أشار الحكيم إلى أخي أن يسكت، ثم قال: ألا ترى هذه الخطايا الكثيرة التي لا يفعل مثلها أضعف المؤمنين إيمانا..

إن هذا السفر يذكر أن سليمان ارتد آخر عمره.. وهو الوقت الذي تتوجه فيه القلوب إلى الله.. مع أن جزاء المرتد في الشريعة الموسوية هو الرجم حتى لو كان المرتد نبيا ذا معجزات كما صرح بذلك الباب الثالث عشر، والسابع عشر من سفر الاستثناء، بل لا يعلم من موضع من مواضع التوراة، أنه يقبل توبة المرتد، ولو كان توبة المرتد مقبولة، لما أمر موسى بقتل عبدة العجل، حتى قتل ثلاثة وعشرين ألف رجل على خطأ عبادته.

ليس ذلك فقط.. بل أنتم تعتقدون أنه بنى المعابد العالية للأصنام في الجبل قدام أورشليم، وهذه المعابد كانت باقية مئتي سنة حتى نجسها، وكسر الأصنام يوسنا بن آمون ملك يهوذا في عهده، بعد موت سليمان بأزيد من ثلثمائة وثلاثين سنة.. لا يمكنك أن تخالفني في ذلك، فقد جاء ذلك صريحا في الباب الثالث والعشرين من سفر الملوك الثاني.

ليس ذلك فقط.. بل أنتم تعتقدو أنه تزوج نساء من سفر الشعوب، التي منع الله من الزواج منهن، كما

في الباب السابع من الاستثناء:(ولا تجعل معهم زيجة فلا تعط ابنتك لابنه، ولا تتخذ ابنته لابنك)

ليس ذلك فقط.. بل انتم تعتقدون أنه تزوج ألف امرأة، وقد كانت كثرة الأزواج محرمة على من يكون سلطان بني إسرائيل في الآية السابعة عشر من الباب السابع عشر من سفر الاستثناء:(ولا تكثر نساؤه لئلا يخدعن نفسه)

ليس ذلك فقط.. بل أنتم تعتقدون أن نساءه كن يبخرن ويذبحن للأوثان، مع أنه ورد في الباب الثاني والعشرين من سفر الخروج:(من يذبح للأوثان فليقتل)، فكان قتلهن واجباً.

بل أنتم تعتقدون أن هؤلاء النسوة أغوين قلبه، فكان رجمهن واجباً على ما هو مصرح به في الباب الثالث عشر من سفر الاستثناء، وهو ما أجرى عليهم الحدود إلى آخر حياته.

التفت إلى أخي، ثم قال: هل تراني زدت على ما ذكرت الكتاب المقدس عن هذا النبي الكريم حرفا واحدا.

لم يملك أخي إلا أن يقول: صدقت في كل هذا.. ولكن الله تواب رحيم.

فقال الحكيم: كل هذه كبائر لابد لها من توبة.. فهل ثبتت توبة سليمان في كتبكم.

صمت أخي، فقال: لقد قرأت الكتاب المقدس مرات لا تحصى.. ولم أظفر بشيء.. بل لو تاب لهدم المعابد التي بناها، وكسر الأصنام التي وضعها في تلك المعابد، ورجم تلك النساء المغويات.. على أن توبته ما كانت نافعة لأن حكم المرتد في التوراة ليس إلا الرجم.

صمت أخي، فقال: فما دمت قد جوزت لهذا الحكيم أن يخطئ، ثم يتوب، لم ترفعت عن أن تضم محمدا إلى أولئك الأنبياء مع أن محمدا ﷺ ثبتت توبته، ولم تثبت معصيته.. بينما سليمان وكل من ذكرنا ثبتت معاصيهم ولم تثبت توبتهم.

أفتعتبر التوبة جريمة ينبغي أن يطرد من يمارسها من حضرة أنبياء الله.. بينما تعتبر المعصية طاعة تجعل من المجرم الفاسق المنحرف حكيما من الحكماء ونبيا من الأنبياء.

الحواريون:

لم يجد أخي بما يجيبه، فقال الحكيم: فلنترك العهد القديم.. فربما كان فيه أثر من آثار اليهود.. ولنذهب إلى العهد الجديد.. ولنبحث في سيرة الحواريين.. حدثني ما مقامهم فيكم؟

قال أخي: الحواريون هم تلاميذ المسيح..

قال الحكيم: لا أقصد هذا.. بل أقصد علاقتهم بالنبوة.

قال أخي: نحن نؤمن بنبوتهم.. بل نرى أنهم لتشرفهم بصحبة المسيح أفضل من موسى وسائر الأنبياء الذين ورد ذكرهم في العهد القديم.

قال الحكيم: فلنبحث في سيرهم.. لقد ذكر الكتاب المقدس أنهم في الليلة التي أخذ اليهود فيها المسيح تركوه في أيدي الأعداء، أليس هذا ذنبا عظيما؟

قال أخي: بلى.. ولكنه صدر عن الجبن الذي طبعت عليه النفوس..

قال الحكيم: فلنسلم هذا.. ولكن هل ترى أنهم يعذرون في شيء هو أسهل الأشياء.. لقد كان المسيح في غاية الاضطراب في تلك الليلة، وقال لهم: إن نفسي حزينة جداً، امكثوا ههنا واسهروا معي، ثم تقدم قليلاً للصلاة، ثم جاء إليهم فوجدهم نياماً، فقال لبطرس: أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة، اسهروا وصلوا.

فمضى ثانية للصلاة، ثم جاء فوجدهم نياماً، فتركهم ومضى، ثم جاء إلى تلاميذه، وقال لهم: ناموا واستريحوا.

قال أخي: ذلك صحيح.. وقد صرح به متى في إنجيله (متى: ٢٦/٣٦-٤٦).. ففيه:(ثُمَّ جاءَ يَسوعُ معَ تلاميذِهِ إلى موضِعٍ اَسْمُهُ جَتْسِماني، فقالَ لهُم: (اُقعُدوا هُنا، حتّى أذهَبَ وأُصلِّيَ هُناكَ) وأخَذَ مَعهُ بُطرُسَ وَابنَيْ زَبَدي، وبَدأَ يَشعُرُ بالحُزنِ والكآبَةِ. فقالَ لهُم: (نفسي حَزينَةٌ حتّى الموتِ. اَنتَظِروا هُنا واَسهَروا مَعي) واَبتَعَدَ عنهُم قَليلاً واَرتَمى على وجهِهِ وصلّى فَقالَ: (إنْ أمكَنَ يا أبــي، فلْتَعبُرْ عنِّي هذِهِ الكأسُ. ولكنِ لا كما أنا أُريدُ، بل كما أنتَ تُريدُ) ورجَعَ إلى التَّلاميذِ فوجَدَهُم نــيامًا، فقالَ لبُطرُسَ: (أهكذا لا تَقدِرونَ أنْ تَسهَروا مَعي ساعةً واحدةً؟ اسهَروا وصلّوا لِــئلاَّ تَقَعُوا في التَّجرِبَةِ. الرُّوحُ راغِبةٌ، ولكنَّ الجسَدَ ضَعيفٌ) واَبتَعدَ ثانيةً وصلّى، فقالَ: (يا أبــي، إذا كانَ لا يُمكِنُ أنْ تَعبُرَ عنِّي هذِهِ الكأسُ، إلاَّ أنْ أشرَبَها، فلْتكُنْ مَشيئتُكَ) ثُمَّ رجَعَ فوَجَدَهُم نــيامًا، لأنَّ النُّعاسَ أثقَلَ جُفونَهُم فتَركَهُم وعادَ إلى الصَّلاةِ مرَّةً ثالِثةً، فردَّدَ الكلامَ نفسَهُ. ثُمَّ رجَعَ إلى التَّلاميذِ وقالَ لهُم: (أنــيامٌ بَعدُ ومُستَريحونَ؟ جاءَتِ السّاعَةُ الّتي فيها يُسلَّمُ ابنُ الإنسان إلى أيدي الخاطِئينَ. قوموا نَنصرِفْ! اَقترَبَ الّذي يُسَلِّمُني)

قال الحكيم: هل ترى هذا الموقف موقف أنبياء.. بل أشرف الأنبياء.. إن العصاة من أهل الدنيا لا يفعلون مثل هذا مع من هو مثلهم في معاصيهم.. فكيف يفعل أنبياء كرام مثل هذا.. وأي محبة لهم للمسيح الذي شرفوا به، وهم ينامون عنه وقد علموا أنه سيفقدونه في تلك اللحظات.

سكت قليلا: هؤلاء هم الحواريون في مجموعهم.. أما أفرادا.. فسأكتفي باثنين منهما.. كلاهما ورد فيه الثناء في الكتاب المقدس.

أما الأول.. فهو يهوذا الأسخريوطي، فقد كان أحد الحواريين، وكان مستفيضاً بروح القدس، وممتلئاً به، بل صاحب الكرامات.. فقد ورد في (إنجيل متى: ١٠/١-٤):(ودَعا يَسوعُ تلاميذَهُ الاثنيَ عشَرَ وأعْطاهُم سُلطانًا يَطرُدونَ به الأرواحَ النَّجسَةَ ويَشفونَ النّاسَ مِنْ كُلِّ داءٍ ومرَضٍ وهذِهِ أسماءُ الرُّسُلِ الاثني عشَرَ: أوَّلُهُم سِمْعانُ المُلَقَّبُ بُطرُسَ وأخوهُ أندَراوُسُ، ويَعقوبُ بنُ زَبدي وأخوهُ يوحنّا، وفيلُبُّسُ وبَرْتولماوُسُ، وتوما ومتَّى جابــي الضَّرائبِ، ويَعقوبُ بنُ حَلْفَى وتَدّاوسُ، وسِمْعانُ الوطنيُّ الغَيورُ، ويَهوذا الإسخَرْيوطيُّ الّذي أسلَمَ يَسوعَ)

قال أخي: أجل.. ومن لا يعرف يهوذا؟

قال الحكيم: فهذا النبي باع دينه بدنياه، وسلم المسيح لليهود مقابل ثلاثين درهماً، ثم خنق نفسه ومات.. أليس كذلك؟

قال أخي: بلى.. ففي إنجيل متى (٢٦/١٤-١٦):(وفي ذلِكَ الوقتِ ذَهبَ أحدُ التَّلاميذِ الاثنَي عشَرَ، وهوَ يهوذا المُلقَّبُ بالإسْخَريوطِـــيِّ، إلى رُؤساءِ الكَهَنَةِ وقالَ لهُم: (ماذا تُعطوني لأُسَلِّمَ إلَيكُم يَسوعَ؟) فوَعدوهُ بثلاثينَ مِنَ الفِضَّةِ. وأخَذَ يَهوذا مِنْ تِلكَ السَّاعةِ يترَقَّبُ الفُرصةَ ليُسَلِّمَ يَسوعَ)

وفيه (٢٧/١-٥) (ولمَّا طلَعَ الصُّبحُ، تَشاورَ جميعُ رُؤساءِ الكَهنَةِ وشُيوخُ الشَّعبِ على يَسوعَ ليَقتُلوهُ. ثُمَّ قَيَّدوهُ وأخَذوهُ وأسلَموهُ إلى الحاكِمِ بـــيلاطُسَ. فلمَّا رأى يَهوذا الّذي أسلَمَ يَسوعَ أنَّهُم حكَموا علَيهِ، ندِمَ ورَدَّ الثَّلاثينَ مِنَ الفِضَّةِ إلى رُؤساءِ الكَهنَةِ والشّيوخِ، وقالَ لهُم: (خَطِئتُ حينَ أسلَمتُ دمًا بريئًا) فقالوا لَه: (ما علَينا؟ دَبِّرْ أنتَ أمرَكَ) فرَمى يَهوذا الفِضَّةَ في الهَيكَلِ وانْصرفَ، ثُمَّ ذهَبَ وشَنَقَ نفسَهُ)

قال الحكيم: أيمكن لنبي أن يفعل كل هذه الجرائم؟

سكت أخي، فقال الحكيم: ليس ذلك فقط.. بل شهد يوحنا في حقه في الباب الثاني عشر من إنجيله أنه كان سارقاً، وكان الكيس عنده، وكان يحمل ما يلقى فيه. أيكون مثل هذا السارق البائع دينه بدنياه نبيا.. ثم لا ترضون أن يكون محمد الطاهر المطهر نبيا!؟

فلندع هذا.. ولنبحث في سيرة بطرس.. أليس هو رئيس الحواريين.. بل خليفة المسيح على حسب ادعائكم!؟

قال أخي: أجل.. هو كذلك.. بل كال له المسيح من الثناء ما لم يكل لأحد غيره، ففي (متى: ١٦/١٧-١٩):(فقالَ لَه يَسوعُ: (هَنيئًا لَكَ، يا سِمْعانُ بنَ يُونا! ما كشَفَ لكَ هذِهِ الحَقيقةَ أحدٌ مِنَ البشَرِ، بل أبـــي الّذي في السَّماواتِ. وأنا أقولُ لكَ: أنتَ صَخرٌ، وعلى هذا الصَّخرِ سأبني كَنيسَتي، وقوّاتُ الموتِ لنْ تَقوى علَيها. وسأُعْطيكَ مفاتيحَ مَلكوتِ السَّماواتِ، فما تَربُطُهُ في الأرضِ يكونُ مَربوطًا في السَّماءِ، وما تحُلُّهُ في الأرضِ يكونُ مَحلولاً في السَّماءِ)

قال الحكيم: ومع هذا الفضل الذي تحسبونه له.. فقد أنكر المسيح خائفا على نفسه..

قال أخي: أجل.. فعندما أخذ اليهود المسيح تبعه من بعيد إلى دار رئيس الكهنة، فجلس خارج الدار، فجاءت جارية قائلة: وأنت كنت مع يسوع الجليلي. فأنكر قدام الجميع، ثم رأى أخرى، وقالت للذين هناك: هذا كان مع يسوع الناصري. فأنكر أيضاً يقسم أني لست أعرف هذا الرجل، وبعد قليل جاء القيام، وقالوا لبطرس: حقاً أنت أيضاً منهم، فابتدأ حينئذ يلعن ويحلف: إني لا أعرف هذا الرجل. وللوقت صاح الديك، فتذكر بطرس كلام المسيح: إنك قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات[1].

قال الحكيم: ليس ذلك فقط.. بل في نفس الإنجيل نرى المسيح يقول له: (اَبتَعِدْ عنّي يا شَيطانُ! أنتَ عَقَبَةٌ في طريقي، لأنَّ أفكارَكَ هذِهِ أفكارُ البَشرِ لا أفكارُ اللهِ)(متى: ١٦/٢٣)

---

(١) ففي (متى:٢٦/٣١ -٣٥):(وقالَ لهُم يَسوعُ: (في هذِهِ اللَّيلَةِ ستَترُكوني..كُلُّكُم، فالكِتابُ يَقولُ: سَأضربُ الرّاعيَ، فتَتَبدَّدُ خِرافُ القَطيعِ. ولكِنْ بَعدَ قيامَتي مِنْ بَين الأمواتِ أسبُقُكُم إلى الجليلِ) فقالَ بُطرُسُ: (لَو تَركوكَ كُلُّهُم، فأنا لن أترُكَكَ) فقالَ لَه يَسوعُ: (الحَقَّ أقولُ لكَ: في هذِهِ اللَّيلَةِ، قَبلَ أن يَصيحَ الدّيكُ، تُنكِرُني ثلاثَ مرّاتٍ) فأجابَهُ بُطرُسُ: (لا أُنكِرُكَ وإنْ كانَ علَيَّ أن أموتَ معَكَ) وهكذا قالَ التَّلاميذُ كُلُّهُم)

بل إن بولس قال عنه في الباب الثاني من رسالته إلى أهل غلاطية:(ولكن لما أتى بطرس إلى أنطاكية، قاومته مواجهة لأنه كان ملوماً لأنه قبل ما أتى قوم من عند يعقوب كان يأكل مع الأمم، ولكن لما أتوا كان يؤخر ويفرز نفسه خائفاً من الذين هم من أهل الختان ورأى معه باقي اليهود أيضاً حتى أن برنابا أيضاً انقاد إلى ريائهم لكن لما رأيت أنهم لا يسلكون باستقامة حسب حق الإنجيل، قلت لبطرس قدام الجميع إن كنت وأنت يهودي تعيش أممياً، فلماذا تلزم الأمم أن يتهودوا) (غلاطية:٢/١١-١٤)

المسيح:

التفت الحكيم إلى أخي، وقال: أنتم تزعمون بأن المسيح إله أو أقنوم من إله.. ومن كان كذلك فهو أرفع بكثير من درجة النبوة.. بل لا مقارنة بينهما.. أليس كذلك؟

قال أخي: بلى.. ما تقوله صحيح.. فلا يمكن المقارنة بين ابن الله الحقيقي وكل البشر..

قال الحكيم: ولكنكم مع ذلك تشوهون صورة المسيح.. وتملؤونه سيرته المختصرة التي وصلتكم بأصناف الخطايا.

انتفض أخي[1]، وقال: كيف تقول هذا؟.. إن المسيح هو مثال الرحمة والسلام والمحبة.. أليس هو الذي يقول:(أريد رحمة لا ذبيحة)(متى: ٩: ١٣)؟

قال الحكيم: أنتم تنقلون عنه هذه الكلمات القليلة لتحسنوا صورته، ولكنها أضعف من أن تقاوم الصورة التي شوهتموها بما نسبتم إليه من أقوال وأفعال.

أنتم تجلعون لسانه الممتلئ بذكر الله، الغارق في التبشير به، لسانا ممتلئا سبابا وشتائم ولعنات مع أنكم تعلمون بـــ (أن الشتامون لا يرثون ملكوت الله) كما صرح بذلك بولس في رسالته الأولى الي كورنثوس(٦: ١٠)

ألستم الذين نسبتم إلى المسيح شتمه لتلك المرأة الكنعانية الطيبة، بل جعلتموه يعتبرها من زمرة الكلاب؟.. ألستم الذين تررون في متى (١٥: ٢٦) أنه عندما جاءت المرأة الكنعانية تسترحمه بأن يشفى ابنتها رد عليها قائلاً:(لا يجوز أن يأخذ خبز البنين، ويرمى للكلاب)؟

وبعدما أراقت هذه المرأة المسكينة آخر نقطة من ماء وجهها، وأقامت الحجة بقولها للمسيح:(والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها)، حقق لها أملها، وشفيت ابنتها (متى ١٥: ٢٧)

أنتم تروون هذا، وتتباهون به، بل وتجعلونه من دلائل ألوهيته.. مع أنه لو وقف مثل هذا الموقف أي إنسان، فإنكم تتهمونه بالعنصرية، وبقساوة القلب، وبسوء الأدب.

ليس ذلك فقط.. فموسوعة الشتائم التي نسبتموها للمسيح لا تقف هنا:

فالمسيح ـــ على حسب كتابكم المقدس ـــ يمتد إلى الأنبياء الكرام ليصفهم باللصوص.. ألستم تقرأون في يوحنا (١٠: ٧) أن المسيح قال:(أنا باب الخراف، وجميع الذين جاءوا قبلي سارقون ولصوص)

([1]) سبق أن ذكرنا جزءا من هذا الحوار في رسالة (أنبياء يبشرون بمحمد)، وقد اقتضى المقام إعادته هنا.

أنتم تجعلون المسيح رمزا للسلام، وتروون عن المسيح وصيته للتلاميذ بمحبة الاعداء والإحسان إليهم.. أليس كذلك؟

قلت: بلى..

قال: ولكنكم عندما تصورون حياة المسيح تصورونها بصورة المناقض لأقواله، فهو لا يبغض أعداءه فقط، وإنما يبغض أقرب الأقربين إليه، ويسبه، ويلقي الشتائم عليه.

ألستم تروون أنه أهان أمه وسط الحضور، فقال لها:(مالي ولك يا إمرأة)(يوحنا:٢: ٤)؟

ألستم الذين تروون إهانته لمعلمي الشريعة بقوله لهم:(يا أولاد الأفاعي)(متى:٣: ٧)؟.. وبقوله لهم:(أيها الجهال العميان)(متى:٢٣: ١٧)؟

ألستم الذين تروون إهانته لتلاميذه، وشتمه لهم، إذ قال لبطرس كبير الحواريين:(يا شيطان) (متى:١٦: ٢٣)، وشتم آخرين منهم بقوله:(أيها الغبيان، والبطيئا القلوب في الإيمان) (لوقا ٢٤: ٢٥).. مع أنه هو نفسه الذي قال لهم:(قد أعطى لكم أن تفهموا أسرار ملكوت الله)(لوقا: ٨: ١٠)؟

ألستم الذين جعلتموه يشتم أحد الذين استضافوه ليتغدى عنده، وجعلتموه يشتمه في بيته.. أليس في الكتاب المقدس:(سأله فريسي أن يتغذى عنده، فدخل يسوع واتكأ، وأما الفريسي فلما رأى ذلك تعجب أنه لم يغتسل أولاً قبل الغداء، فقال له الرب:(أنتم الآن أيها الفريسيون تنقون خارج الكأس، وأما باطنكم فمملوء اختطافاً وخبثاً يا أغبياء، ويل لكم أيها الفريسيون)، فأجاب واحد من الناموسيين، وقال له: يا معلم، حين تقول هذا تشتمنا نحن أيضاً، فقال:(وويل لكم أنتم أيها الناموسيون) (إنجيل لوقا:١١: ٣٩)؟

ألستم الذين نسبتم إليه قوله لهيرودس:(قولوا لهذا الثعلب)(لوقا: ١٣: ٣٢)؟

ألستم الذين جعلتموه يطلب من تلاميذه عدم إفشاء السلام في الطريق(لوقا: ١٠: ٤)؟

ألستم الذين قولتموه:(لا تعطوا القدس للكلاب ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير)(متى:٧: ٦)؟

ألستم الذين جعلتموه يكذب على إخوته.. لقد رويتم في إنجيل يوحنا(٧: ٣) أن إخوة المسيح طلبوا منه أن يصعد إلي عيد المظال عند اليهود، فرد عليهم قائلاً:(اصعدوا انتم إلي العيد، فأنا لا أصعد إلي هذا العيد.. ولما صعد إخوته إلي العيد، صعد بعدهم في الخفية لا في العلانية)؟

أنتم تروون وصيته لكم بأعدائكم، ولكنكم في نفس الوقت تجعلونه يقول بكل قسوة:(أما أعدائي الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامي)(لوقا: ١٩: ٢٧)

نعم.. أنتم تتقنون الفرار.. فتهربون من قسوة هذا القول بشتى محاولات التأويل والتحريف، فتارة تذكرون أن هذا سيكون يوم القيامة مع أن النص واضح، فالمسيح يقول:(فأتوا بهم إلى هنا)، وليس فيه أي إشارة إلى يوم القيامة.. وتارة تقولون: إن هذا مثل، مع أنكم تعلمون أن المثل انتهى عند الفقرة السادسة والعشرين من نفس الإصحاح..

أنتم لم تكتفوا بكل ذلك.. بل جعلتموه يتجرد من أبسط مظاهر الرحمة ليلعن شجرة مسكينة لا ذنب لها سوى أنها لم تثمر.. ولم تثمر من عندها، بل لأنه لم يكن وقت الثمر.. ألستم تروون في (مرقس:١١: ١٢):(

وفي الغد، بعدما غادروا بيت عنيا، جاع. وإذ رأى من بعيد شجرة تين مورقة، توجه إليها لعله يجد فيها بعض الثمر. فلما وصل إليها لم يجد فيها إلا الورق، لأنه ليس أوان التين. فتكلم وقال لها: (لا يأكلن أحد ثمرا منك بعد إلى الأبد)؟

و لم تكتفوا بالشجر، بل رحتم تنسبون إلحاق الأذى بالحيوانات البريئة.. بل تجلعونه يتسبب بمقتل ألفي حيوان في وقت واحد.. ألستم تروون في (مرقس: ٥: ١١):(وكان هناك قطيع كبير من الخنازير يرعى عند الجبل، فتوسلت الأرواح النجسة إلى يسوع قائلة: أرسلنا إلى الخنازير لندخل فيها، فأذن لها بذلك، فخرجت الأرواح النجسة ودخلت في الخنازير، فاندفع قطيع الخنازير من على حافة الجبل إلى البحيرة، فغرق فيها، وكان عدده نحو ألفين)؟

ألا تسألون أنفسكم: ما ذنب الخنازير وصاحب الخنازير، حين أراد إخراج الشياطين من المجنون؟.. ألم يكن من الأجدى إخراج الشياطين دون الإضرار بالخنازير؟!

أنتم تجلعونه رمزا للسلام، لكنكم تشوهون السلام الذي يدعو إليه بما تنسبون إليه من سلوك.. ألستم تروون أنه صنع سوطا من الحبال، ودخل به الهيكل، وطرد جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون فيه وبعثر دراهمهم وقلب موائدهم.. لا يمكنك أن تكذب ذلك.. فقد جاء في (يوحنا:٢: ١٤):(وإذ اقترب عيد الفصح اليهودي، صعد يسوع إلى أورشليم، فوجد في الهيكل باعة البقر والغنم والحمام، والصيارفة جالسين إلى موائدهم، فجدل سوطا من حبال، وطردهم جميعا من الهيكل، مع الغنم والبقر، وبعثر نقود الصيارفة وقلب مناضدهم)

ألا يحمل هذا السلوك عنفا غير مبرر؟.. كان في إمكان يسوع المحبة أن يتصرف بما تمليه المحبة والسلام اللذان يدعو إليهما.

ألستم تروون في سفر الرؤيا [٢: ٢١ ــ ٢٣] أن مسيح المحبة قال عن إمرأة اسمها إيزابل كانت تدعي انها نبية:(فإني سألقيها على فراش، وأبتلي الزانين معها بمحنة شديدة..وأولادها أقتلهم بالموت، فستعرف جميع الكنائس أني أنا هو الفاحص الكلى والقلوب، وأجازي كل واحد منكم بحسب أعماله)

فهل من المحبة والرحمة أن يقتل الأطفال بذنب أمهم؟

نعم أنتم تروون وصيته لكم بأعدائكم، ولكنكم في نفس الوقت تجعلونه يأمركم بكل قسوة ببغض أقرب الناس إليكم.. ألستم تروون قوله في (لوقا:١٤: ٢٦):(إن جاء إلي أحد، و لم يبغض أباه وأمه وزوجته وأولاده وإخوته وأخواته، بل نفسه أيضا، فلا يمكنه أن يكون تلميذا لي)؟

بل أنتم تناقضون أنفسكم حين تجعلون من رسو ل السلام يقول:(لا تظنوا أني جئت لألقي سلاما على الأرض. ما جئت لألقي سلاما، بل سيفا.فإني جئت لأجعل الإنسان على خلاف مع أبيه، والبنت مع أمها، والكنة مع حماتها) (متى: ١٠: ٣٤)

بل جعلتموه يقول:(جئت لألقي على الأرض نارا، فلكم أود أن تكون قد اشتعلت؟) (لوقا ١٢: ٤٩)

بل جعلتم الله نفسه نارا.. ألم يقل صاحبكم في رسالة العبرانيين [١٢: ٢٩]:(لأن إلهنا نار آكلة).. بل

جعلتموه يتجرد من الرحمة ويترك ابنه يلاقي أبشع أنواع العذاب دون ذنب وهو يصرخ بصوت عظيم:(إلهي إلهي لماذا تركتني؟)(متى:٢٧: ٤٦)

التفت الحكيم إلى أخي، وقال: هل تراني زدت شيئا في كتابكم؟.. إن كل ما قرأته من كتبكم المقدسة.. إنها تحمل صورة مشوهة عن المسيح نرفضها ــ نحن المسلمين ــ رفضا شديدا.

٢ ــ الأدب والخطيئة

ما انتهى الحكيم من حديثه هذا حتى وقف رجل من الجمع، وقال: وعينا كل ما ذكرته.. ولا نحسب هذا الرجل إلا وقد بهت لما ذكرت، فلذلك لا نراه يحير جوابا.

قال الحكيم: لا ينبغي أن تقول هذا.. فنحن نبحث عن الحقيقة، ولا نتصارع تصارع الديكة.. لقد ذكر ما كان يختمر في ذهنه من شبهات.. وقد ذكرت له ما أراه من حقائق.. ولا حرج عليه أن يسأل ما يشاء، أو يعقب بما يشاء.. أليس هذا ميدان الحرية التي لا يشتاق لها إلا العقلاء؟

قال الرجل: فلدينا نحن ــ المسلمين ــ من الشبه ما نريد طرحها.. فما ذكره من الآيات وقع بين أيدي نفر من قومنا نسميهم (المخطئة) راحوا يبحثون عما يتوهمونه من خطايا الأنبياء.. يفسرون بذلك القرآن.. ويصححون بذلك الحديث.

ولذلك نلتمس منك أن تخرج من الحديث الذي أملاه الجدل إلى الأحاديث التي تمليها الحقيقة.. حقيقة النبوة.

قال الحكيم: أما إن قلت ذلك.. فإن لمقام النبوة في عين أهل الحقائق درجة من الطهارة لا نستطيع معها أن نتصور في حقهم معصية.

فالنبوة تعني القرب من الله.. ولا يقترب من الله إلا من امتلأ بالطهارة..

والنبوة تعني نصح الخلق.. ولا تقبل النصيحة من غير منتصح بها.

والنبوة تعني كمال الإنسانية.. ولا يصل كمال الإنسانية من تلطخ بأوزار المعاصي.

والنبوة تعني صفاء مرآة القلب حتى تنجلي فيها الحقائق كما هي.. والمعاصي هي السكين الذي يجرح الصفاء.. والدنس الذي يكدره.

قال الرجل: فما تقول فيما ذكرت من نصوص عن معاصي الأنبياء؟

قال الحكيم: ذلك من تحريف اليهود لكتبهم.. وتبعهم أحبار المسيحيين من غير تمحيص ولا تدقيق..

ولو أنهم أعملوا بعض عقولهم لعرفوا أن اليهود الذين لم يؤتمنوا على المسيح يستحيل أن يؤتمنوا على الكتاب المقدس.. وأن اليهود الذين شوهوا المسيح بكل ما أطاقت لهم عقولهم أن يشوهوه يستحيل أن يحفظوا نبيا.

قال الرجل: ولكن هناك أحاديث وصلتنا تنص على بعض ما نصت عليه هذه الكتب.

قال الحكيم: تلك أحاديث كعب الأحبار ووهب بن المنبه وغيرهم من اليهود الذين أسلموا.. ولكنهم لم يطيقوا أن يتخلصوا من مراتبهم الدينية.. فراحوا يمارسونها مع المسلمين.. فدخل في الإسلام منهم تلك اللوثة اليهودية..

ولكن الله خلص المسلمين منها بالعدول من العلماء الذين يغيرون على مقام الأنبياء.

قلت: فهل ستحدثنا عن ذلك الآن؟

قال: لا.. حديث ذلك يطول.. ولكني سأقتصر منه على ما يتعلق بنبينا محمد ﷺ.. فسلوني عما أشكل عليكم من الآيات.. وسأجيبكم بفضل الله ومنته.

وقبل أن تسألوني.. فقد رأيت أن كل النصوص التي قد يساء فهمها ترجع إلى أمرين: أما أولهما، فهو تلك الشفافية الروحية التي كانت لنبينا ﷺ.. والتي جعلته ــ وهو الكامل ــ يستشعر التقصير.. فلا يمتلئ لسانه وكيانه إلا عبودية وتواضعا واستغفارا.

وأما الثانية.. فهي أن النبي ﷺ هو محل قدوة للمؤمنين، فلذلك يكون هو واسطة الخطاب الإلهي للمؤمنين، فيتوهم القاصرون أن ذلك الخطاب بما فيه من زجر وعتاب خاص به ﷺ.

شفافية:

قام رجل من القوم، فقال: فلنبدأ حديثنا بما ذكره هذا الحبر من الأحاديث الكثيرة التي نرى فيها محمدا يستغفر ربه.. ألا ترى فيها دلالة على المعصية؟

قال الحكيم: لا.. لا أرى فيها ذلك.. بل أرى فيها نفسا ممتلئة حياء من الله، فهي تستغفره كل حين من تقصيرها وتفريطها في حقه.. فمقام الله أعظم من أن يؤدى.

ألا ترى الرجل الكريم يهدي الهدية التي لا هدية تعدلها، ومع ذلك يقدمها بحياء وكأنه يقدم ذنبا لا هدية.. بينما ترى الرجل الوقح يدل بالحقير، ويمن به!؟

قال الرجل: ذلك صحيح..

قال الحكيم: فهكذا الأمر مع محمد ﷺ.. فقد كان له من الرقة والإيمان والأدب مع الله ما جعله يدمن على استغفاره.

التفت إلى أخي، ثم قال: ليس هذا خاصا بمحمد ﷺ.. بل كل الصديقين والأنبياء يشعرون بهذه المشاعر النبيلة.. سأذكر لك نماذج من الكتاب المقدس لتدلك على هذا:

ففي إنجيل مرقس(١٠/١٧-١٨)، وإنجيل لوقا(١٨) نجد هذا النص الممتلئ بمثل هذه المشاعر: (وفيما هو خارج إلى الطريق، ركض واحد وجثا له وسأله أيها المعلم الصالح ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية فقال له يسوع: لماذا تدعوني صالحاً ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو اللّه).. ألا ترى أن المسيح أقر في هذا النص بأنه ليس صالحاً، ولا صالح إلا اللّه وحده؟

وفي الزبور(٢٢/١-٢) نجد هذا النص:(إلهي إلهي انظر لماذا تركتني تباعد عني خلاصي بكلام جهلي إلهي بالنهار أدعوك فلم تستجب لي وبالليل فلم تحفل بي).. ولما كانت آيات هذا الزبور راجعة إلى المسيح على زعمكم، فكان القائل بها عندكم هو المسيح.

وفي (إنجيل متى:٢٧/٤٦) نجد هذا النص: (ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً: إيلي إيلي لما شبقتني أي إلهي إلهي لماذا تركتني)

وفي إنجيل مرقس (١/٤-٩) نجد هذا النص: (كان يوحنا يعمد في البرية ويكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا وخرج إليه جميع كورة اليهودية وأهل أورشليم واعتمدوا جميعهم منه في نهر الأردن معترفين بخطاياهم..

وفي تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الجليل واعتمد من يوحنا في الأردن)

لقد كانت هذه المعمودية، معمودية التوبة، بمغفرة الخطايا، كما صرح مرقس في الآية الرابعة والخامسة والآية الثالثة من الباب الثالث من إنجيل لوقا هكذا: (فجاء إلى جميع الكورة المحيطة بالأردن يكرز بمعمودة التوبة لمغفرة الخطايا)، وفي الآية الحادية عشر من الباب الثالث من إنجيل متى هكذا: (أنا أعمدكم بماء للتوبة)، وفي الآية الرابعة والعشرين من الباب الثالث عشر من كتاب الأعمال هكذا: (إذ سبق يوحنا فكرز قبل مجيئه بمعمودية التوبة لجميع شعب إسرائيل)، والآية الرابعة من الباب التاسع عشر من كتاب الأعمال هكذا: (فقال بولس أن يوحنا عمد بمعمودية التوبة)

فهذه النصوص كلها، تدل على أن هذه المعمودية، كانت معمودية التوبة لمغفرة الخطايا، فمتى سلم اعتماد المسيح من يحيى، لزم تسليم اعترافه بالخطايا والتوبة منهما أيضاً، لأن حقيقة هذا الاعتماد ليست غير ذلك.

وفي الباب السادس من إنجيل متى في الصلاة التي علمها المسيح تلاميذه هكذا:(اغفر لنا ذنوبنا كما نحن نغفر أيضاً للمذنبين إلينا ولا تدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير)

والظاهر أن المسيح كان يصلي تلك الصلاة التي علمها تلاميذه، ولم يثبت من موضع من مواضع الإنجيل أنه ما كان يصلي هذه الصلاة.. بل إنه كان كثير الصلاة، فلزم أن يكون دعاؤه باغفر لنا ذنوبنا مرات كثيرة بلغت الآلاف.

قام رجل من القوم، وقال: قد يصح ما ذكرت إن كان النبي ﷺ هو المبادر للاستغفار.. ولكنا نرى الله تعالى هو الذي يحثه عليه، ويأمره به، فالله تعالى يقول:﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً) (النساء:١٠٦)، ويقول:﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْأِبْكَارِ) (غافر:٥٥)، ويقول:﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) (محمد:١٩).. وغيرها من الآيات التي تأمر النبي ﷺ بالاستغفار.. وقد حدثت عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: لزم رسول الله ﷺ هؤلاء الكلمات قبل موته بسنة: (سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك)، قالت فقلت: يا رسول الله لقد لزمت هذه الكلمات، قال: (إن ربي عهد إلي عهدا أو أمرني بأمر، فأنا أتبعه)، ثم قرأ:﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (النصر:١) حتى ختم السورة[1].

فكيف تجتمع العصمة مع الأمر بطلب الغفران؟

قال الحكيم: إن التعرف على سر ذلك يقتضي الوقوف على أصل مسلّم به بين العقلاء، وهو أنّ عظمة الشخصية وخطر المسؤولية متحالفان، فربَّ عمل يُعد صدوره من شخص جرماً وخلافاً، وفي الوقت نفسه لا يعد صدوره من إنسان آخر كذلك.

سأحاول أن أبسط لك ذلك..

أنت تعرف أنّ الأحكام الشرعية تنقسم إلى واجب وحرام ومستحب ومكروه ومباح.. وتعلم أنه لا محيص عن الإتيان بالواجب وترك الحرام.. نعم هناك رخصة في ترك المستحب والإتيان بالمكروه، ولكن المترقب

---

(١) محمد بن يحيى بن عمر برجال ثقات.

من العارف بمصالح الأحكام ومفاسدها، تحلية الواجبات بالمستحبات، وترك المحرمات مع ترك المكروهات، ولا يقصر عنه المباح، فهو وإن أباحه الله سبحانه ولكن ربّما يترجح فعله على تركه أو العكس لعنوان ثانوي.

فالعارف بعظمة الرب يتحمّل من المسؤولية ما لا يتحمله غيره، فيكون المنتظر منه غير ما ينتظر من غيره، ولو صدر منه ما لا يليق، وتساهل في هذا الطريق، فإنه يتأكد منه الاستغفار وطلب المغفرة، لا لصدور الذنب منه، بل من باب قياس عمله إلى علو معرفته وعظمة مسؤوليته.

وإن شئت فاستوضح ذلك من ملاحظة حال المتحضر والبدوي، فالمرجوّ من الأوّل القيام بالآداب والرسوم الرائجة في الحضارات الإنسانية، ولكن المرجوّ من الثاني أبسط الرسوم والآداب، فما ذلك إلاّ لاختلافهما من ناحية التربية والمعرفة، كما أنّ الترقب من نفس المتحضرين مختلف جداً، فالمأمول من المثقف أشد وأكثر من غيره كما أنّ الانضباط المرجو من الجندي يغاير المترقب من غيره، والغفلة القصيرة من العاشق يعد جرماً وخلافاً في منطق العشق، وليست كذلك إذا صدرت من غيره.

وهذه الأمثلة ونظائرها الوافرة تثبت أنّ عظمة الشخصية وكبر المسؤولية متحالفان، وأنّ الوظائف لا تنحصر في الإتيان بالواجبات، والتحرّز عن المحظورات بل هناك وظائف أُخرى، وكلّما زاد العلم والعرفان توفرت الوظائف وكثرت المسؤوليات، ولأجل ذلك تُعدّ بعض الغفلات أو اقتراف المكروهات من الأولياء ذنباً، مع أنها في الواقع ليست بالنسبة إليهم ذنباً مطلقاً، بل إنها ذنب إذا قيس إلى ما أُعطوا من الإيمان والمعرفة، ولو قاموا بطلب المغفرة والعفو، فإنّما هو لأجل هذه الجهات.

ولهذا نرى شيخ الأنبياء نوحاً ــ عليه السلام ــ يقول:﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً﴾ (نوح:٢٨)

ويقتفيه إبراهيم ــ عليه السلام ــ ويقول:﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (ابراهيم: ٤١)

وعلى أثرهم يقول النبي ﷺ:﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(البقرة: من الآية٢٨٥)

والمنشأ الوحيد لهذا الطلب مرّة بعد أُخرى هو وقوفهم على أنّ ما قاموا به من الأعمال والطاعات وإن كانت في حد نفسها بالغة حدّ الكمال لكن المطلوب والمترقّب منهم أكمل وأفضل منه.

قام رجل من القوم، وقال: لقد ورد في الحديث إشارة إلى أن النبي ﷺ يعرض له ما يستدعي الاستغفار، فقد قال ﷺ:(إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله، وفي لفظ: وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة)[١].. فقد ذكر أن علة استغفاره ما يحل على قلبه من الغين.

قال الحكيم: سر هذا الحديث لا يفهمه إلا أولياء الله الذين رزقوا من أذواق أهل الله ما يتيح لهم التعبير عن بعض حقائق الجمال التي وردت فيه:

ونبدؤهم بأبي الحسن الشاذلي الذي قال: رأيت رسول الله ﷺ فسألته عن حديث: (إنه ليغان على قلبي)، فقال: (يا مبارك ذلك غين الأنوار).

---

(١) رواه مسلم.

وقال الشيخ شهاب الدين السهروردي: لما كانت روح النبي ﷺ لم تزل في الترقي إلى مقامات القرب تستتبع القلب، والقلب يستتبع النفس، ولا ريب أن حركة الروح والقلب أسرع من نهضة النفس، وكانت خطى النفس تقصر عن مداهما في العروج، فمما نهضت به الحكمة إبطاء حركة القلب لئلا تتقطع علاقة النفس عنه، فيبقى العباد محرومين فكان ﷺ يفزع إلى الاستغفار، لقصور النفس عن ترقي القلب.

وقال: لا تعتقد أن الغين حالة نقص، بل هو حالة كمال.. فذلك مثل جفن العين حين يمسح الدمع القذى عن العين، فإنه يمنع العين عن الرؤية، فهو من هذه الحيثية نقص، وفي الحقيقة هو كمال.. فهكذا بصيرة النبي ﷺ متعرضة للأغبرة الثائرة من أنفاس الأخيار، فدعت الحاجة إلى ستر حدقة بصيرته، صيانة لها، ووقاية عن ذلك.

وقال أبو سعيد الخراز: الغين شئ لا يجده إلا الأنبياء وأكابر الأبرار والأولياء، لصفاء أسرارهم، وهو كالغيم الرقيق الذي لا يدوم.

وقال آخر: إن في الاستغفار والتوبة معنى لطيفا، وهو استدعاء لمحبة الله تعالى، فإحداثه الاستغفار والتوبة في كل حين استدعاء لمحبة الله تعالى.

وقال آخر: لقد رأى الاشتغال بالأمور المباحة من أكل أو شرب أو جماع أو نوم أو راحة ومخالطة الناس، والنظر في مصالحهم، ومحاربة عدوهم تارة، ومداراته أخرى، وتأليف المؤلفة، وغير ذلك مما يحجبه عن الاشتغال بذكر الله تعالى، والتضرع إليه، ومشاهدته، ومراقبته، ذنبا بالنسبة إلى المقام العلي، وهو الحضور في حظيرة القدس.

وقال آخر: هو ما يستغشي القلب، ولا يغطية كل التغطية، كالغيم الرقيق لذي لا يمنع ضوء الشمس، ثم لا يفهم من الحديث أنه يغان على قلبه مائة مرة، وإنما هذا عدد الاستغفار لا الغين، فيكون المراد بهذا الغين الإشارة إلى غفلات قلبه، وفترات نفسه، وسهوها عن مداومة الذكر، ومشاهدة الحق، لما كان ﷺ من مقامات البشر، وسياسة الأمة، ومعاناة الأهل، ومقاومة الولي والعدو، ومصلحة النفس، وأعباء الرسالة، وحمل الأمانة، وهو في هذا كله في طاعة ربه، وعبادة خالقه، ولكن لما كان صلى الله عليه وسلم أرفع الخلق عند الله تعالى مكانة، وأعلاهم درجة، وأتمهم به معرفة، وكانت حالة عند خلوص قلبه، وخلو همه، وتفرده بربه أرفع حاليه، رأى حاله فترته عنها، وشغله بسواها، غمضا من علي حاله، ورفيع مقامه، فاستغفر من ذلك.

وقال آخر: لم يزل ﷺ مترقيا من رتبة إلى رتبة، فكلما رقي درجة التفت إلى ما خلفها، وجد منها وحشة لقصورها بالإضافة إلى التي انتهى إليها، وذلك هو الغين، فيستغفر منه.

وقال آخر: هو حالة خشية، وإعظام، والاستغفار شكرها.

وقال آخر: هو السكينة التي تغشي قلبه، والاستغفار لإظهار العبودية والشكر لما أولاه.

وتأدب آخرون، فرأوا أنفسهم أقصر من أن يتحدثوا عن هذا المقام:

قال شعبة: سألت الأصعمي ما معنى ليغان على قلبي؟ فقال: عمن يروى ذلك؟ قلت: عن النبي ﷺ، قال: لو كان قلب غير النبي ﷺ لفسرته، وأما قلبه ﷺ فلا أدري.

وكان شعبة يتعجب منه، وسئل أبو عبيدة عنه فلم يفسره.

وقال الجنيد: لولا أنه حال النبي ﷺ لتكلمت فيه، ولا يتكلم على حال إلا من كان مشرفا عليها، وجملة حاله يشرف على نهايتها أحد من الخلق[1].

قام رجل آخر، فقال: فما تقول في قوله تعالى:﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾ (الفتح: ١-٣).. فإذا كان النبي ﷺ معصوماً من العصيان ومصوناً من الذنب، فكيف أخبر سبحانه عن غفران ذنبه، بل ما تقدم منه وما تأخر.

قال الحكيم: قبل أن أجيبك لا ينبغي أن أتخطى سيدا من سادات آل البيت.. وهو الإمام الرضا.. فقد سأله المأمون عن الآية فقال:(لم يكن أحد عند مشركي أهل مكة أعظم ذنباً من رسول الله ﷺ، لأنّهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمائة وستين صنماً، فلمّـــا جاءهم بالدعوة إلى كلمة الإخلاص كبر ذلك عليهم وعظم، وقالوا:﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ ﴾ (ص: ٥ ــ ٧)، فلمّـــا فتح الله عزّ وجلّ على نبيه محمد ﷺ مكة[2]، قال له: يا محمد: (إنّا فتحنا لك (مكة) فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) عند مشركي أهل مكة بدعائك إلى توحيد الله عزّ وجلّ فيما تقدّم، وما تأخّر، لأنّ مشركي مكة، أسلم بعضهم وخرج بعضهم عن مكة، ومن بقي منهم لم يقدر على إنكار التوحيد عليه إذا دعا الناس إليه، فصار ذنبه عندهم في ذلك مغفوراً بظهوره عليهم، فقال المأمون: لله درّك يا أبا الحسن.

قال الرجل: ماذا يقصد مولانا الإمام الرضا بقوله هذا؟

قال الحكيم: ألا تلاحظ أن في اعتبار القرآن الغاية المتوخاة من الفتح هي مغفرة ذنب النبي ﷺ، ما تقدّم منه وما تأخّر غرابة؟

قال الرجل: أجل.. أرى ذلك.. فطالما قلت لنفسي: كيف صار تمكينه سبحانه نبيّه ﷺ من فتح القلاع والبلدان سبباً لمغفرة ذنوبه، مع أنّه يجب أن تكون بين الجملة الشرطية والجزائية رابطة عقلية أو عادية، بحيث تعدّ إحداهما علّة لتحقّق الأُخرى أو ملازمة لها، وهذه الرابطة خفية في المقام جداً، فإنّ تمكين النبي من الأعداء والسيطرة عليهم يكون سبباً لانتشار كلمة الحق ورفض الباطل واستطاعته التبليغ في المنطقة المفتوحة، فلو قال: إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً، لتتمكن من الجهر بالحق، ونشر التوحيد، ودحض الباطل، كان الترتب أمراً طبيعياً، وكانت الرابطة محفوظة بين الجملتين، وأمّا جعل مغفرة ذنوبه جزاء لفتحه صقعاً من الأصقاع، فالرابطة غير واضحة.

قال الحكيم: وهذا ما وضحه الإمام الرضا.. فقد أراد أنه لما جاء النبي الأكرم ﷺ داعياً إلى التوحيد في

---

(١) انظر هذه الأقوال وغيرها في (الشفا) للقاضي عياض، و(سبل الهدى) وغيرهما.

(٢) هناك اختلاف في المراد من الفتح في هذه الآية، فقيل المراد: فتح مكة وهو ما ذكره هنا، وثانيها: فتح الروم وغيرها وثالثها: المراد من الفتح صلح الحديبية ورابعها: فتح الإسلام بالحجة والبرهان، والسيف والسنان وخامسها: المراد منه الحكم كقوله ﷻ:﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق ﴾ (الأعراف: ٨٩) وقوله:﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بالحق ﴾ (سبأ: ٢٦)، وكلها وجوه محتملة ولو أن الأرجح بينها هو كونه صلح الحديبية.

مجالي الخلق والأمر، وإلى حصر التقديس والعبادة في الله، وأنّه لا معبود سواه ولا شفيع إلاّ بإذنه، فأخذ بتحطيم الوثنية ورفض عبادة الأصنام، صارت دعوته ثقيلة على قريش وأذنابهم، حتى ثارت ثائرتهم على النبي الأكرم، فقابلوا براهين النبي بالبذاءة والشغب والسب والنسب المفتعلة، فوصفوه بأنّه كاهن وساحر، ومفتر وكذّاب.. ثم صاروا إلى حربه كما علمتم.

فهذه الحوادث الدامية عند قريش، المرّة في أذواقهم بما أنّها جرّت إلى ذهاب كيانهم، وحدوث التفرقة في صفوفهم، والفتك بصناديدهم على يد النبي الأكرم ﷺ، صوّرته في مخيلتهم صورة إنسان مجرم مذنب قام في وجه سادات قومه، فسب آلهتهم وعاب طريقتهم بالكهانة والسحر والكذب والافتراء، و لم يكتف بذلك حتى شن عليهم الغارة والعدوان فصارت أرض يثرب وما حولها، مجازر لقريش، ومذابح لأسيادهم، فأيّ جرم أعظم من هذا، وأي ذنب أكبر منه عند هؤلاء الجهلة الغفلة، الذين لا يعرفون الخيّر من الشرير، والصديق من العدو، والمنجي من المهلك؟

فإذن ما هو الأمر الذي يمكن أن يبرئه من هذه الذنوب ويرسم له صورة ملكوتية فيها ملامح الصدق والصفاء، وعلائم العطف والحنان حتى تقف قريش على خطئها وجهلها.

إنّ الأمر الذي يمكن أن ينزّه ساحته من هذه الأوهام والأباطيل، ليس إلاّ ذلك الفتح الذي فتح الله به عليه.. فعرفوا الحقيقة التي كانوا يحاربونها.

ثم إن ذلك العطف الذي أبداه النبي ﷺ في تلك الواقعة مع كونه من القدرة بمكان، وقريش في حالة الانحلال والضعف، صوّر من النبي ﷺ عند قومه وأتباعه بصورة إنسان مصلح يحب قومَه ويطلب صلاحهم ولا تروقه الحرب والدمار والجدال فوقفوا على حقيقة الحال، وعضّوا الأنامل على ما افتعلوا عليه من النسب وندموا على ما فعلوا، فصاروا يميلون إلى الإسلام زرافات ووحداناً.

فهذا الفتح العظيم وقبله وقعة الحديبية أثبتا بوضوح أن النبي الأعظم ﷺ أكرم وأجل وأعظم من أن يكون كاهناً أو ساحراً، إذ الكاهن والساحر أقصر من أن يقوم بهذه الأمور الجليلة، كما أنّ لطفه العميم وخلقه العظيم آية واضحة على أنّه رجل مثالي صدوق، لا يفتري ولا يكذب، وإنّ ما جرى بينه وبين قومه من الحروب الدامية، كانت نتيجة شقاقهم وجدالهم ومؤامراتهم عليه.

وبذلك، فإن الذنوب التي كانت تدّعيها قريش على النبي ﷺ بعد وقعة الحديبية، أو فتح مكة، أُسطورة خيالية قضت عليها سيرته في كل من الواقعتين من غير فرق بين ما ألصقوا به قبل الهجرة أو بعدها، وعند ذلك يتضح مفاد الآيات كما يتضح ارتباط الجملتين: الجزائية والشرطية، ولولا هذا الفتح كان النبي محبوساً في قفص الاتهام، وقد كسرته هذه الواقعة، وعرّفته نزيهاً عن كل هذه التهم.

وعلى ذلك فالمقصود من الذنب ما كانت قريش تصفه به، كما أنّ المراد من المغفرة إذهاب آثار تلك النسب في المجتمع.

قال الرجل: هذا توجيه طيب.. ولكني أريد غيره.. فهل هناك غيره؟

قال الحكيم: أجل.. وهو ما سنعرفه في العلة الثانية من العلل التي يفسر بها هذا النوع من الخطاب.. وهي

القدوة.

قال الرجل: فاشرح لنا ما يرتبط بهذا الآن.

قال الحكيم: القرآن الكريم ــ عند العارفين بالله الفاهمين عنه ــ هو خطاب الله للبشر جمعيا.. و لم يكن محمد ﷺ إلا واسطة لذلك الخطاب..

لهذا.. فكل عارف بالله يسمع القرآن من الله.. ويفهم أنه المخاطب بكل حرف من حروفه ما صيغ فيه بضمير المخاطب المفرد وما صيغ بغيره.. بل ما صيغ منه بكل الظمائر.

قال الرجل: فماذا يفهم هؤلاء الكمل من هذه الآيات؟

قال الحكيم: هذه الآيات تبين الجزاء الذي أعده الله لمن وصل به اجتهاده إلى الفتح المبين.. فقد ذكرت الآيات أنواعا من الجزاء.. ومهدت لها بالمغفرة الشاملة، فالمغفرة هي الأساس لغيرها من أنواع الجزاء.. كما أن تطهير التربة هو الأساس لغرس البذور الطيبة.

قال الرجل: ولكن الله تعالى وعد في هذا الجزاء بمغفرة الذنوب المتقدمة والمتأخرة.. فكيف يكون ذلك؟

قال الحكيم: ألم تسمع قوله ﷺ لعمر في شأن حاطب الذي شهد بدار:(ما يدريك يا عمر أن الله عز وجل اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال:(اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)[1]

قدوة:

قال الرجل: وعينا هذا.. ولكنا نرى النبي ﷺ يكثر من الاستغفار إلى درجة أنه يلفت انتباه أصحابه.

قال الحكيم: ذلك صحيح.. وذلك من وظائف النبوة.. فالنبي قدوة لأمته.. ولهذا تجده يشعر أنه أول المخاطبين بكل تكليف..

ليس هذا خاصا بنبينا فقط.. بل هو عام لكل الأنبياء.. وقد قال تعالى فيهم:﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾(الأنعام: من الآية٩٠)

وقد ورد في إنجيل متى أن المسيح صام أربعين نهاراً، أو أربعين ليلة، وفي (إنجيل مرقص:١/٣٥) (وفي الصبح باكراً جداً قام وخرج ومضى إلى موضع خلاء وكان يصلي هناك).. وفي (إنجيل لوقا:٥/١٦): (وفي تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلي وقضى الليل كله في الصلاة للّه)

التفت إلى أخي، ثم قال: أنتم تقولون بأن المسيح متحد في ذات اللّه.. ولذلك فإن هذه التكاليف لا تحمل عندكم إلا على معنى واحد.. وهو ما ذكرته من قصد الاقتداء والتعليم.

قام رجل من القوم، وقال: نرى في القرآن الكريم آيات كثيرة وردت في حق النبي ﷺ وهي تحمل نوعا من الخطاب الحاد صار ذريعة للمخطئة يرمون بها نبيهم.

قال الحكيم: فاذكرها لي أفسرها بما يفهمه أهل الحقائق المعظمين لمقام النبوة[2].

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) كثير من هذه الردود رجعنا فيه لمرجعين مهمين في هذا الباب، هما:
تتريه الأنبياء، لأبي القاسم علي بن الحسين الموسوي، المعروف بالشريف المرتضى.

قال الرجل: منها قوله تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ) (الرعد:٣٧)، وقوله تعالى:﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ) (البقرة:١٤٥)، وقوله تعالى:﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ) (البقرة:١٢٠)

فهذه الآيات تخاطب النبي ﷺ بلحن حاد، وقد تمسّكت المخطّئة بالقضية الشرطية على أرضية متوقعة في نفس النبي لاتّباع أهوائهم، وإلاّ فلا وجه للوعيد.

قال الحكيم: ومن أين لهم هذا النوع من الاستدلال.. ألا يعرف هؤلاء اللغة العربية، وأساليبها.. بل إن هذا مما تتفق عليه جميع اللغات.. فالقضية الشرطية لا تدل إلاّ على الملازمة بين الشرط والجزاء.. وهي لا تدل ــ بحال من الأحوال ــ على تحقّق الطرفين، ولا على إمكان تحقّقهما.

ألم يقرأ قوله تعالى:﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الانبياء: من الآية٢٢)!؟

قال الرجل: بلى قرأوها.. وهم يستدلون بها على توحيد الله.

قال الحكيم: فلم لم يستدلوا بها على وجود آلهة مع الله؟

قال الرجل: لعدم تحقق الجزاء.

قال الحكيم: فهل رأوا ربهم تخلى عن نبيهم.. فلم ينصره.. ولم يكن له وليا ولا واقيا؟

قال الرجل: حاشاهم أن يقولوا ذلك.

قال الحكيم: فكيف لهم أن يجوزوا شيئا لا دليل لهم عليه؟

قام رجل آخر، وقال: فما تقول في قوله تعالى:﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً إِلاَّ رَحْمَةً مِن رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً﴾ (الاسراء:٨٦-٨٧)؟

قال الحكيم: هذه الآيات لا يفهم منها الصادقون إلا صدق نبيهم ﷺ.. فالله لم يستلب الوحي من نبيه ﷺ مع قدرته عليه.. وذلك دليل كمال للنبي ﷺ لا دليل قصور منه.

قال الرجل: لم أفهم .. كيف يكون ذلك دليل كمال؟

قال الحكيم: أرأيت لو أن رجلا اجتاز مسابقة يقوم عليها خبراء أشداء يلاحظون النقير والقطمير.. ونجا منها بنجاح.. هل يعتبر ذلك كمالا أم لا؟

قال الرجل: بل يعتبر ذلك عين الكمال.

قال الحكيم: فلو اجتاز هذا على خبراء لا يرون ولا يسمعون ولا يهتمون.. هل يصح لهذا أن يفخر بكماله بهذا الاجتياز؟

عصمة الأنبياء في القرآن الكريم، تأليف: العلاّمة المحقّق جعفر السبحاني.
وغيرها من المراجع.

قال الرجل: لا يستطيع أن يفخر هذا بشيء.. وليس ما فعله كمالا.

قال الحكيم: فتره الله عن لوثات التشبيه.. وارتق بهذا المثال لتعرف مقام نبيك ﷺ.

قام رجل آخر، فقال: صدقت.. إن المثال الذي ذكرته فهمت به سر قوله تعالى مخاطبا نبيه ﷺ:﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الزمر:٦٥)، وقوله تعالى:﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الاَقَاوِيلِ لاَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِن أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾(الحاقة: ٤٤ ــ ٤٧)

قال الحكيم: إن هذه الآيات ونظائرها التي تحكى عن القضية الشرطية يفهم منها الصادقون أمرين:

أما أولهما.. فمقدار الكمال الذي من الله به على نبيه ﷺ.. فراح يجتاز كل الامتحانات الصعبة التي وضع فيها بنجاح لا مثله نجاح.

وأما الثاني.. فما ذكرته لكم من أن القرآن الكريم يخطاب الأمة عبر نبيها.. فالكمل يسمعون الخطاب لهم، فيشعرون بأليم العتاب إن قصروا أو حدثتهم أنفسهم بالتقصير.. أما القاصرون، فيرون العتاب مخصوصا بنبيهم، فينحجبون عن الغرض القرآني، كما ينحجب التلميذ الأبله.

قام رجل من القوم، وقال: وكيف ينحجب هذا التلميذ؟

قال الحكيم: لقد تعود الكثير من الأساتذة ان يوجهوا تلاميذهم عبر النجباء منهم.. فيحذرون النجيب من التقصير.. ليفهم غيرهم من باب (إياك أعني واسمعي يا جارة)

أما الأذكياء.. فيفهمون من هذا شدة الأمر.. وأنه حتى النجابة لا يمكن ان تشفع للمقصر.

وأما البله.. فيفهمون الأمر قاصرا على من توجه الخطاب له، فينحجبون بالمخاطب عن الخطاب.

قام رجل من القوم، وقال: لقد فهمت بما ذكرته أسرار آيات من القرآن:

منها آيات وردت فاصلتها بنهي النبي ﷺ عن أن يكون من الممترين، وهي قوله تعالى:﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧)﴾ (البقرة)، وقوله تعالى:﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَاب ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠)﴾ (آل عمران)، وقوله تعالى:﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (الأنعام:١١٤)، وقوله تعالى:﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (يونس:٩٤)

ففي الموضع الأول يعلمنا الله تعالى أن لا نقيم وزناً لارجاف المرجفين في العدول بالصلاة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، كما يحكي سبحانه وتعالى عنهم بقوله:﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة:١٤٢)

وفي الموضع الثاني يبطل الله تعالى ألوهية المسيح ــ عليه السلام ــ بحجّة أنّه وليد مريم ــ عليها السلام ــ بأنّ تولده بلا أب يشبه تكوّن آدم من غير أب ولا أُم، ثم يخاطب النبي ﷺ بعد ذلك بقوله:﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ

فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) (آل عمران:٦٠).. ولا شك ــ عند العقلاء ــ أنّ الخطاب جرى مجرى (إياك أعني واسمعي يا جارة)، فإنّ النبي ﷺ كان أعظم من أن يتسرب إليه الشك في مثل هذا.

وهكذا سائر المواضع.. فالنهي عن الشك نهي موجه للأمة عن طريق نبيها.. لا أنه موجه للنبي بسبب احتمال وقوع الشك منه.

قام رجل آخر، وقال: فما تقول في قوله تعالى:﴿ وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً ﴾ (النساء:١٠٧)، فإن هذه الآية الكريمة تنهى النبي ﷺ عن المجادلة عن الخائنين.. ومثلها قوله تعالى:﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴾ (النساء:١٠٥)

قال الحكيم: لم يكن النبي ﷺ في أي لحظة من لحظات حياته مدافعاً عن الخائنين، وانّما وردت الآية بهذا الأسلوب من باب تربية المجتمع وتوجيهه وتحذيره من هذا النوع من السلوك، وبما أنّ أكثر الناس لا يتحمّلون الخطاب الحاد، بل يكون مرّاً في أذواق أكثرهم، اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون المخاطب، غير من قصد له الخطاب.

قام رجل آخر، فقال: فما تقول في قوله تعالى مخاطبا نبيه ﷺ:﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً) (الاسراء:٢٢)، وقوله تعالى:﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً) (الاسراء:٢٩)، وقوله تعالى:﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً) (الاسراء:٣٩)، وقوله تعالى:﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِن رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٨٦ ــ ٨٨)

قال الحكيم: هو ما ذكرته في غيرها.. فهذه الخطابات وما يشبهها وإن كانت موجهة في الظاهر إلى النبي ﷺ لكن المقصد منها عامة الناس.. فالنبي ﷺ أعظم من أن يشرك بالله تعالى.. فهو لم يحصل منه شرك قبل نبوته، فكيف يحصل منه بعد نبوته.

***

بعد أن انتهى الحكيم من حديثه لم يجد أخي ما يقوله.. ولذا سار مطأطئ الرأس، متغير الوجه، خارج ميدان الحرية ليترك الجماعة ملتفة حول الحكيم تسأله ويجيبها..

التفت إلى أصحابنا المستغرقين في مشاهدة ما حصل في ساحة الحرية.. فرأيت وجوههم كالحة عابسة عليها غبرة ترهقها قترة.

أما أنا.. فقد تترلت علي حينها أنوار جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

ثانيا ــ استبداد

في مساء اليوم الثاني.. وفي دار الندوة الجديدة.. دخل (نيكولاس إيلمنسكي)[1].. الرجل الذي تقلب في السياسة، وقلبته السياسة.. بوجه متغير حاول بابتسامته الدبلوماسية العريضة أن يخفي تغيره، لكنه لم يطق.

ابتدرته الجماعة قائلة: ما الذي فعلت!؟.. ما نسبة نجاحك!؟.. هل هناك نتائج إيجابية!؟

نظر إليهم بابتسامته العريضة، وقال: طبعا.. هناك نتائج إيجابية.. ولا يمكن إلا أن تكون هناك نتائج إيجابية.. لقد فزت في جميع جولاتي الدبلوماسية، فكيف لا أفوز في هذه.

أطرق قليلا، ثم قال: نعم.. لقد كانت الحرب مستميتة بيني وبين من يدعونه حكيما.. لقد كان مجادلا بارعا، ومحاميا قويا.. ولكن الحق كان معي.. وسيظل معي.. ولا ينبغي أن يكون إلا معي.

ابتدر أخي ليأخذ القرص، ليضعه في القارئ، فقال نيكولاس: أرى أن تتركوا الفرصة لأحدثكم أنا بدل رؤية القرص.. فليس هناك رواية أحسن من رواية الشفاه..

ثم ابتسم لهم، وقال: نعم هذا أسلوب قديم.. ولكني أرى أنه الأفضل.

قال رجل من الجماعة: أرى أن السياسة قد أثرت فيك يا نيكولاس.. فدعنا نسير بالطريقة التي اجتمعنا لنسير عليها.

سكت نيكولاس على مضض.. فابتدر أخي.. ووضع القرص في القارئ.. وبدأ شريط الأحداث:

رأينا نيكولاس يجتمع إلى نفر من الناس في ميدان الحرية، ثم يخاطبهم قائلا: هل تعرفون محمدا؟

قال رجل من الجمع: منا من يعرفه.. ومنا من لا يعرفه.. ولكنا نتفق جميعا ــ من يعرفه ومن لا يعرفه ــ في أنا نحب أن نعرفه، أو نستزيد من معرفته.. فإن كان لديك شيء منها، فأنبئنا.. فكلنا آذان صاغية.

قال نيكولاس: هل تعرفون لينين؟

قالوا: أجل.. ولكنه مستبد آثم.

قال نيكولاس: وهل تعرفون فرعون وأتاترك وهتلر؟

قالوا: أجل.. وهم لا يختلفون عن لينين.

قال رجل من الجماعة: نحن نبحث عن محمد.. ونريد أن نعرف محمدا.. ولا حاجة لنا بمعرفة هؤلاء المستبدين الظالمين.

قال نيكولاس: من عرف هؤلاء فقد عرف محمدا.. بل إن محمدا أسوأ منهم.. فإن أحدا منهم لم يقل: إني

([1]) أشير به إلى (نيكولاس إيلمنسكي)(ق ٢٠ م)، وهو مبشر روسي، رسم سياسة تنصيرية للتتار بجذبهم إلى المسيحية عن طريق الدمج الديني والثقافي، فكان يهدف إلى (تنشئة نخبة مثقفة من المواطنين يعتنقون المذهب الأرثوذوكسي لكن ثقافتهم تترية ويستخدمون اللغة التترية القازانية المكتوبة بالأحرف الروسية)، وقد ارتد عن الإسلام بفعل هذه السياسة في عهد ألسكندر الثاني قرابة مائة ألف (١٠٠ .٠٠٠) مسلم والتحقوا بطائفة كرياشن (ألكسندر بينيغسن وشانتال لوميرييه كيلكجاي: المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفييتي – ص ٢٧، ونجيب العقيقي: المستشرقون: ص ٢٦)

مستبد يوحي إلي، ولكن محمدا قالها.

هنا ظهر الحكيم بطلعته البهية، ونوره الساطع، وصاح من بعيد: في أي سورة ورد ما ذكرته؟

ثم أضاف: لقد قرأت القرآن.. وربما قرأت الآية خطأ، فالآية تقول:﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ (الكهف: من الآية١١٠).. وليس في القرآن آية تدعو للاستبداد، أو تحث عليه، أو تشرع له.. بل إنه ليس هناك كتاب في الدنيا يدعو إلى الثورة على الاستبداد كالقرآن.

سكت قليلا، ثم قال: ربما تتصور أن ذلك حديثا.. ليس هناك حديث في الدنيا يحث على الاستبداد أو يشرع له[1].

قال نيكولاس: ربما يكون ما ذكرته صحيحا.. ونحن لا نتحدث عنه هنا.. نحن نبحث في حياة محمد.. وحياة محمد عنوان للاستبداد بجميع أشكاله.. وإلا لما تسنى له أن يقيم أي دولة، أو ينشئ أي مجتمع.

قال الحكيم: لست أدري هل أنت صاحب شبهة تبحث عن التحقيق.. أم أنك صاحب هوى تبحث عن الجدل؟

قال رجل من الجمع: لا.. لا نظنه إلا صاحب شبهة، فإن كان لديك ما يرفعها عنه، فاذكره له.. ونحن هنا لنرى أنصع الحجج.. حجتك أو حجته.. لنتبعها.

قال الحكيم: يسرني ذلك.. ولست أدري هل يرضى صاحبنا بذلك أم لا؟

لم يجد نيكولاس إلا أن يجيب بالإيجاب..

حينذاك قال الحكيم: أليس المستبد هو الذي يحتقر الرعية، ويتكبر عليها، ويستولي على جميع أمورها، بحيث يفرض رأيه على كل أحد، ولا يسمع لأي أحد؟

قالوا: بلى.. هذا هو المستبد.. وكل مظاهر الاستبداد تنطلق من هذا.

قال الحكيم: فإذا أثبت لكم أن محمدا ﷺ كان يحترم كل من يحيط به، بل كل من ولي أمره من المسلمين، وأنه فوق ذلك كان يستشيرهم في الصغير والكبير، والحقير والجليل.. هل أكون بذلك قد دفعت شبهته؟

قال الجمع: لا نرى الصواب إلا فيما ذكرت.

التفت الحكيم إلى نيكولاس، وقال: هل تقر بهذا الأصل أم أنك تخالف فيه؟

قال نيكولاس: ليس الشأن في التعرف على الأصول إنما الشأن في إثباتها.

قال الحكيم: فاسمع مني ما يثبتها لك.

([1]) لدينا رسالة خاصة بالاستبداد، اسمها (أوتاد الاستبداد)، أو (حوار مع الطواغيت)، وفيها رد مفصل على موقف الإسلام من الاستبداد بأنواعه.

١ ــ احترامه للرعية

استجمع الحكيم أنفاسه، ثم قال: لو تأملتم حياة جميع الزعماء والقادة والمصلحين وعلاقتهم بمن يحيط بهم لن تجدوا رجلا في سماحة محمد ﷺ ولا تواضعه ولا احترامه.

ضحك نيكولاس، وقال: وأستطيع أن أقول في المقابل: لو تأملتم جميع حياة المستبدين والمتكبرين والظالمين، فلن تجدوا رجلا مثل محمد.

قال الحكيم: ما دام كل منا له دعواه.. فليقدم كل واحد منا ما عنده من إثباتات.

قال نيكولاس: حسبي من الإثباتات أنه كان يفرض عليهم أي حكم، فلا يجدون مناصا من تنفيذه.

قال الحكيم: وكل الحكام يفعلون ذلك.. أم ترى أنه يستسلم لأهوائهم لتضع في الدين ما تشاء؟

سكت نيكولاس، فقال الحكيم: أما أنا.. فسأذكر لكم أربعة أدلة تعرفون من خلالها أن محمدا ﷺ كان يحترم من ولي عليهم أعظم احترام، ولا يمكن لمن يكون له كل ذلك الاحترام أن تكون فيه ذرة من استبداد.

المخالطة:

قال رجل من الجمع: فما الدليل الأول؟

قال الحكيم: الدليل الأول هو مخالطة النبي ﷺ لأصحابه ورعيته وعدم احتجابه عنهم بأي نوع من أنواع الحجاب.. بل إنه كان يعتبر الحجاب نوعا من الاستبداد، لقد قال ﷺ يحذر من الاحتجاب عن الرعية:(من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين، فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم، احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة)[1]

ومن هذا المنطلق كان أسهل شيء على أي أحد من الناس مقابلة رسول الله ﷺ والجلوس معه..

فقد قال الحسن ــ رضي الله عنه ــ يصف رسول الله ﷺ:(والله ما كان رسول الله ﷺ تغلق دونه الأبواب، ولا يقوم دونه الحجاب، ولا يغدى عليه بالجفان، ولا يراح بها عليه، ولكنه كان بارزا، من أراد أن يلقى نبي الله ﷺ لقيه، كان يجلس على الأرض، ويطعم ويلبس الغليظ، ويركب الحمار، ويردف خلفه، ويلعق يده)[2]

ووصفه حمزة بن عبيد الله بن عتبة قال: كانت في رسول الله خصال ليست في الجبارين، كان لا يدعوه أحمر، ولا أسود، إلا أجابه، وكان ربما وجد تمرة ملقاة فيأخذها، فيرمي بها إلى فيه، وإنه ليخشى أن تكون من الصدقة، وكان يركب الحمار عريا، ليس عليه شئ)[3]

وذات مرة لقيه رجل تصور أنه مثل كل القادة والزعماء.. وقد حدثنا حديثه ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ فذكر أن رسول الله ﷺ كلم رجلا فأرعد، فقال: (هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش

([1])رواه أبو داود، والترمذي.

([2]) رواه أحمد في الزهد، وابن عساكر ــ وقال: هذا حديث مرسل ــ وقد جاء معناه في الأحاديث المسندة.

([3]) رواه ابن سعد.

كانت تأكل القديدة)[1]

وفي حديث آخر عن عبد الله بن بسر، قال: أهديت إلى رسول الله ﷺ شاة فجثا على ركبتيه، فأكل، فقال أعرابي: يا رسول الله ما هذه الجلسة؟ فقال:(إن الله عزوجل جعلني عبدا كريما، و لم يجعلني جبارا عنيدا)[2]

وقد أشفق الصحابة على رسول الله ﷺ مما يصيبه من تلك المخالطة، فطلبوا منه أن يتخذوا له محلا خاصا، فأبى، ففي الحديث: قال العباس ــ رضي الله عنه ــ: يا رسول الله إني أراهم قد آذوك، وآذاك غبارهم، فلو اتخذت عريشا تكلمهم فيه، فقال رسول الله ﷺ:(لا أزال بين أظهرهم يطئون عقبي وينازعوني ثوبي، ويؤذيني غبارهم، حتى يكون الله هو الذي يرحمني منهم)[3]

وكان من تواضعه ﷺ أنه لم يكن يتميز بشيء عن سائر الناس حتى أن من الناس من لا يعرفه كما روي عن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبرٍ فقال: اتقي الله واصبري، فقالت: إليك عني؛ فإنك لم تصب بمصيبتي! و لم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ، فلم تجد عنده بوابين[4]، فقالت: لم أعرفك، فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى[5].

وكان ﷺ يسلم على كل من لقيه صغيرا كان أو كبيرا، يعرفه أو لا يعرفه، فعن أنس ــ رضي الله عنه ــ أنه مر على صبيان، فسلم عليهم وقال: كان النبي ﷺ لى الله عليه وسلم يفعله[6].

وعن هند بن أبي هالة ــ رضي الله تعالى عنه وعن أمه ــ قال: كان رسول الله ﷺ يبدأ من لقيه بالسلام[7].

وكان ﷺ يسير مع أي أحد يعرفه أو لا يعرفه، عن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ، فتنطلق به حيث شاءت[8].

وكان ﷺ يركب الحمار كما يركبه سائر العوام، عن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: كان رسول الله ﷺ يركب الحمار، ويعود المريض، ويشهد الجنازة، ويأتي دعوة المملوك، وكان يوم بني قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف، على إكاف من ليف[9].

بل كان ﷺ يردف خلفه.. وقد ذكر العلماء أسماء من ردفهم النبي ﷺ وهم نحو الخمسين أفرد أسماءهم الحافظ أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب ابن الحافظ الكبير ابن عبد الله بن مندة في جزء لطيف وأضيف إليهم غيرهم.

([1]) رواه ابن ماجه.
([2]) رواه ابن ماجه.
([3]) رواه ابن إسحاق الزجاجي في تاريخه.
([4]) ولا يعارض هذا بما ورد في بعض النصوص من الاستئذان عليه ﷺ كما
([5]) رواه البخاري ومسلم.
([6]) رواه البخاري ومسلم.
([7]) رواه الترمذي وصححه والبيهقي.
([8]) رواه البخاري.
([9]) رواه الترمذي.

وقد نظم أسماءهم بعضهم فقال:

وإردافه جم غفير فمنهم علي [1] وعثمان[2] سويد[3] وجبريل
أسامة[4] والصديق[5] ثم ابن جعفر[6] وزيد[7] وعبد الله[8] ثم سهيل[9]
معاوية قيس بن سعد[10] صفية[1] وسبطاه[2] ماذا عنهم سأقول

([1])كما روي عرفة بن الحارث قال: شهدت رسول الله ﷺ في حجة الوداع، وأتي بالبدن فقال: (ادعوا لي أبا الحسن)، فدعى علي ــ رضي الله عنه ــ فقال: خذ بأسفل الحربة، وأخذ رسول الله ﷺ بأعلاها، فطعن بها البدن، فلما فرغ ركب البغلة، وأردف عليا ــ رضي الله عنه ــ.

وروى عن عمرو بن رافع المزني قال: رأيت رسول الله ﷺ يخطب بعد الظهر على بغلة، ورديفه علي بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ.

([2])كما روى ابن مندة عن خالد الزياد عمن أخبره أن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه تلقى رسول الله ﷺ بالروحاء عند مقدمه من بدر فأخرج رسول الله ﷺ رجله من غرز الركاب، وقال لعثمان: (اركب فردفه)، فنفخ عثمان، فقال رسول الله ﷺ: (اسكت)، قال يوسف البهلول أحد رواته أي اسكت، فإن الله تعالى زوجك أختها.

([3]) هو الشريد بن سويد الثقفي أبو عمرو رضي الله تعالى عنه، كما روى البخاري في الأدب عنه قال: أردفني رسول الله ﷺ فقال: (أما تروي لأمية بن أبي الصلت) قلت: بلى قال: (هيه).

([4]) هو أسامة بن زيد ــ رضي الله عنه ــ كما روى البخاري عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلة مردفا أسامة بن زيد وذكر الحديث.

وروى أحمد والشيخان عن أسامة بن زيد ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ ركب على حمار عليه إكاف تحته قطيفة فركبه، وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود عبادة بن الصامت في بني الحارص من الخزرج – الحديث.

([5])كما روى أحمد والبخاري عن محمد بن يحيى بن عمر وابن أبي شيبة عن أنس قال: أقبل رسول الله ﷺ إلى المدينة، وهو مردف أبا بكر فذكر حديث الهجرة.

([6]) هو عبد الله بن جعفر ــ رضي الله عنه ــ كما روى أحمد، ومسلم وأبو داود، وابن ماجه عنه قال: أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه فأسر إلي حديثا، لا أحدث به أحدا من الناس.

([7]) هو زيد بن حارثة ــ رضي الله عنه ــ عن أسامة بن زيد عن أبيه زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ وهو مردفي إلى نصب من الأنصاب وركب رسول الله ﷺ ناقته، وهو مردفني خلفه، فلما كان بأعلى مكة لقيه زيد بن عمرو بن نفيل فذكر الحديث.

([8]) هو عبد الله بن الزبير ــ رضي الله عنه ــ عن أبي مليكة أن ابن الزبير قال لعبد الله بن جعفر ــ رضي الله عنه ــ: أتذكر يوم تلقانا رسول الله ﷺ فحملني وتركك.

([9]) هو سهيل بن بيضاء ــ رضي الله عنه ــ كما روي أحمد والطبراني في الكبير، وابن أبي شيبة، وابن مندة، وعبد بن حميد وابن حبان عنه قال: بينما نحن في سفر مع رسول الله ﷺ، وأنا رديفه فقال رسول الله ﷺ: (يا سهيل بن بيضاء) ورفع صوته مرتين أو ثلاثا، كل ذلك يجيبه سهيل، فسمع الناس صوت رسول الله ﷺ فظنوا أنه يريدهم فحبس من كان بين يديه، ولحقه من كان خلفه حتى إذا اجتمعوا قال رسول الله ﷺ: (إنه من شهد أن لا إله إلا الله حرمه الله عزوجل على النار، ووجبت له الجنة)

([10]) هو قيس بن سعد بن عبادة ــ رضي الله عنه ــ قال: أتى النبي ﷺ دار سعد فقام على بابها فسلم فرد سعد وخافت، ثم سلم فرد سعد وخافت، ثم سلم فرد سعد وخافت، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك انصرف راجعا، وخرج سعد يسعى في أثره، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما منعني أن أرد عليك إلا لتكثر لنا من السلام، فأدخل يا رسول الله فدخل فوضع له ماء يستبرد به، فاغتسل، ثم جلس فقال: (اللهم صلي على الأنصار، وعلى ذرية الأنصار، وعلى ذرية ذرية الأنصار)، فلما أراد أن يرجع أتي بحمار وجعلت عليه قطيفة – ما هي بخز – وقرام عربي فأرسل ابنه معه ليرد الحمار، قال: (احمله بين يدى)، فقال: سبحان الله يا نبي الله أحمله بين يديك؟ قال: (نعم، هو أحق بصدر حماره)، قال: هو لك يا رسول الله قال: (احمله إذا خلفي).

معاذ[3] أبو الدرد[4] بريدة عقبة وآمنة إن قام ثم دليل
وأولاد عباس [5] كذا قال شارح أسامة [6] والدوسي فهو نبيل
كذلك خوات [1] حذيفة سلمة [2] كريم وأما وجهه فجميل

([1]) هي صفية بنت حيبي ـــ رضي الله عنها ـــ زوج النبي ﷺ روى عن أنس قال: إقبلنا من خيبر، وأقبل رسول الله ﷺ بصفية بنت حيبي قد حازها، وكنت أراه يجري، وأراه بعباءة، أو بكساء، ثم يردفها.

وروي عنه: أنه كان مع رسول الله ﷺ هو وأصحابه فعثرت برسول الله ﷺ ناقته وصفية رديفة رسول الله ﷺ، فوثب أبو طلحة فقال: (أضررت؟ فقال: (لا)، عليك بالمرأة)، قال: فألقيت على وجهي ثوبا، فألقيته عليها.

([2]) روى ابن أبي شيبة، وابن مندة عن عبد الله بن جعفر رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر تلقي بصبيان أهل بيته، وأنه قدم من سفر فسبق بي إليه، فحملني بين يديه ثم جئ بأحد ابني فاطمة، فأردفه خلفه فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة.

وروى مسدد عن مورق عن مولى لهم أن رسول الله ﷺ قدم من سفره فاستقبله عبد الله بن جعفر، والحسين بن علي، فحمل أكبرهما خلفه، وحمل أصغرهما بين يديه.

([3]) هو معاذ بن جبل ـــ رضي الله عنه ـــ كما روى البزار بسند رجاله ثقات عن أبي هريرة، وأحمد، والشيخان عن أنس، وأحمد، والشيخان، والترمذي عن معاذ ـــ رضي الله عنه ـــ أن معاذا كان ردف رسول الله ﷺ على حمار يقال له عفير، ليس بينه، وبينه شئ إلا مؤخرة الرحل، فقال: (يا معاذ) فقال: لبيك يا رسول الله ﷺ وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: (يا معاذ بن جبل): قال لبيك يا رسول الله، وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: (يا معاذ بن جبل): فقال: لبيك يا رسول الله وسعديك قال: هل تدري ما حق الله تعالى على العباد؟ قال معاذ: الله ورسوله أعلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فإن حق الله عز وجل على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئا)، ثم سار ساعة ثم قال: (يا معلذ بن جبل) قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: (هل تدري ما حق العباد على الله؟) قال: الله أعلم قال: (حق العباد على الله عز وجل ألا يعذبهم) قال: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: (لا تبشرهم فيتكلوا)، فأخبر بها معاذ عند موته تأثما.

([4]) هو أبو الدرداء عويمر بن مالك، قال: كنت ردف رسول الله ﷺ فقال: (يا أبا الدرداء، من شهد إن لا إله إلا الله مخلصا وجبت له الجنة).

([5]) هم: **الفضل بن العباس** ـــ رضي الله عنه ـــ كما روى أحمد عن أبي أمامة الباهلي ـــ رضي الله عنه ـــ قال: لما كان في حجة الوداع قام رسول الله ﷺ وهو مردف الفضل بن العباس، فقال: (يا أيها الناس خذوا مني العلم، قبل أن يقبض العلم، أو قبل أن يرفع العلم)

وروى الأئمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: مان الفضل بن العباس رديف رسول الله ﷺ فجاءته امرأة من خثعم — الحديث.

و**عبد الله بن عباس** ـــ رضي الله عنه ـــ كما روى أحمد قال: أردفه رسول الله ﷺ على دابته، فلما استوى عليها كبر رسول الله ﷺ ثلاثا، وحمد ثلاثا، وسبح ثلاثا، وهلل الله تعالى واحدة.

و**قثم بن عباس** ـــ رضي الله عنه ـــ كما روى أحمد، والشيخان عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أتى رسول الله ﷺ، وقد حمل قثما بين يديه، والفضل خلفه، وروى ابن المبارك في الزهد عن عكرمة قال: ركب رسول الله ﷺ دابة وأركب قثما بين يديه وأردف الفضل خلفه.

و**عبيد الله بن عباس** ـــ رضي الله عنه ـــ قال: كنت رديف رسول الله ﷺ وأتله رجل فقال: يا رسول الله أن أمه عجوز كبيرة إن حرمها خشى أن يقتلها، وإن حملها لم تستمسك فأمره رسول الله ﷺ أن يحج عنها.

([6]) هو أسامة بن عمير الهذلي رضي الله تعالى عنه، روى الطبراني، برجال الصحيح، عنه قال: كنت رديف رسول الله ﷺ، فعثر بعيرنا فقلت: تعس الشيطان فقال: (لا تقل تعس الشيطان، فإنه يعظم حتى يصير مثل البيت، ويقول: بقوتي صرعته ولكن قل: باسم الله، فإنه يصير مثل الذباب).

كذا بنت قيس خولة وابن أكوع وقدرهم في العالمين جليل
كذالك غلمان ثلاث [3] وزاد أبا إياس [4] وحسبي الله فهو وكيل
كذلك زيد جابر [5] ثم ثابت فعن جبهم والله لست أحول

وقد ذيلها بعضهم فقال:

هناك رجال لم يسموا حذيفة غفارية [6] فاعلمه ثم أقول
صدي بن عجلان [7] سويد أبو ذر [8] فذلك حاز الفضل وهو جزيل
كذاك أبو هر[9] رووه فكن له سميعا رواة النقل ثم عدول
وعقبة بن عامر لم يروا له عليك بها يدعى لدي نبيل

وهم أكثر من أن يحصوا ـــ كما روي عن أنس ـــ رضي الله عنه ـــ قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر،

---

(1) هو خوات بن جبير الأنصاري ـــ رضي الله عنه ـــ، قال ابن منده: كان ردف رسول الله ﷺ لما خرج إلى بدر، فرده من الروحاء لأنه اشتكى.

(2) هو سلمة بن عمرو بن وهب بن سنان، وهو الأكوع الأسلمي ـــ رضي الله عنه ـــ قال: أردفني رسول الله ﷺ على ناقته حتى دخلنا المدينة.

وروى الطبراني، برجال ثقات، عن سلمة رضي الله تعالى عنه قال: أردفني رسول الله ﷺ مرارا، ومسح رأسي مرارا، واستغفر لي، ولذريتي عدد ما بيدي من الأصابع.

(3) منهم غلام من بني عبد المطلب، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما قدم رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح استقبله غلامان من بني عبد المطلب، فحمل أحدهما بين يديه والآخر خلفه.

(4) كما روى ابن منده، والحارث بن أبي أسامة رضي الله تعالى عنه قال: كنت ردف رسول الله ﷺ فقال: (قل)، فقلت: ما أقول؟ فقال: (قل هو الله أحد) حتى ختمها، وقال: (قل أعوذ برب الفلق) وقال: (قل أعوذ برب الناس) ثم قال: (يا أبا إياس ما قرأ الناس بمثلهن).

(5) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام ـــ رضي الله عنه ـــ روى عنه قال: أردفني رسول الله ﷺ خلفه، فجعلت فمي على خاتم النبوة، فجعل ينفخ علي مسكا، ولقد حفظت منه تلك الليلة سبعين حديثا، ما سمعها أحد معي.

(6) هي امرأة من بني غفار ـــ رضي الله عنها ـــ كما روى أحمد وأبو داود عنها رضي الله تعالى عنها قالت: أردفني رسول الله ﷺ على حقيبة رحله، فوالله لا نزل رسول الله ﷺ إلى الصبح فأناخ وتوليت من حقيبة رحله وإذا بها دم، وكانت أول حيضة حضتها قالت: فتقبضت إلى الناقة، واستحيت، فلما رأى رسول الله ﷺ ما بي ورأى الدم، قال: (لعلك نفست؟) قلت: نعم، قال: (فأصلحي من شأنك، ثم خذي إناء من ماء فاطرحي فيه ملحا، ثم اغسلي ما أصاب الحقيبة من الدم، ثم عودي لمر كبك)، قالت: فلما فتح رسول الله ﷺ خيبر وهب لنا من الفيئ.

(7) هو أبو أمامة صدي بن عجلان الباهلي رضي الله تعالى عنه قال: كنت ردف النبي ﷺ، وقال: (إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث، الولد للفراش وللعاهر الحجر، وحسابهم على الله عز وجل).

(8) عن أبي ذر ـــ رضي الله عنه ـــ قال: ركب رسول الله ﷺ حمارا وأردفني خلفه رواه أحمد ومسلم.

(9) كما ذكر المحب الطبري في سيرته أن رسول الله ﷺ ركب حمارا عربا إلى قباء، وأبو هريرة معه، فقال: (يا أبا هريرة أحملك؟) فقال: ما شئت يا رسول الله، قال: (اركب)، فوثب أبو هريرة ليركب فلم يقدر، فاستمسك، برسول الله ﷺ، فوقعا جميعا، ثم ركب رسول الله ﷺ، ثم قال: (يا أبا هريرة أحملك؟) فقال: ما شئت يا رسول الله، قال: (اركب)، فوثب أبو هريرة ليركب، فلم يقدر أبو هريرة على ذلك، وتعلق برسول الله ﷺ فوقعا جميعا، ثم قال: (يا أبا هريرة أحملك؟)، فقال: لا، والذي بعثك بالحق نبيا، لا أرميك ثلاثا.

وغزا أردف كل يوم رجلا من أصحابه [1].

وكان ﷺ يلبس لباسا بسيطا كسائر الناس، عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: خرج رسول الله ﷺ وقد عقد عباءة بين كتفيه فلقيه أعرابي، فقال: لم لبست هذا يا رسول الله؟ فقال: (ويحك، إنما لبست هذا لأقمع به الكبر)[2]

وكان ﷺ يأكل مع كل الناس حتى من عافهم الناس أو خافوا من عدواهم، فعن جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ أخذ بيد مجذوم، فأدخله معه في القصعة، ثم قال له: (كل باسم الله، وثقة بالله، وتوكلا عليه)[3]

وكان ﷺ يجيب كل من دعاه، ولأي شيء دعاه، حتى لو كان حقيرا، فعن ابن عباس وأنس ــ رضي الله عنهما ــ قال: كان رسول الله ﷺ يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعقل الشاة، ويجيب دعوة المملوك، زاد أنس: ويقول: (لو دعيت إلى ذراع لأجبت، ولو أهدي إلي كراع لقبلت)[4]، وعن أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ قال: كان رسول الله ﷺ يجيب دعوة العبد إلى أي طعام دعا، ويقول: (لو دعيت إلى كراع لأجبت)[5]

المشاركة:

قال رجل من الجمع: عرفنا الدليل الأول.. وعرفنا قوته.. فما الدليل الثاني؟

قال الحكيم: لم يكن رسول الله ﷺ يكتفي بمخالطة الناس مجرد مخالطة ليقتنص ودهم كما يفعل بعض الزعماء والقادة.. وإنما كان يشاركهم في حياتهم وأعمالهم.. بل كان ﷺ لرحمته لهم يستأثر بأشقها.

فمن مشاركته لمن كان معه ﷺ مشاركتهم في الأعمال التي يقومون بها:

ومما روي في ذلك مشاركته ﷺ لهم في بناء المسجد بعد هجرته إلى المدينة المنورة بالرغم من العناء الكبير الذي لاقاه في هجرته، عن الحسن قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة قال: ابنوا لنا مسجدا، قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: عرش كعرش موسى، ابنوا لنا بلبن، فجعلوا يبنون ورسول الله ﷺ يعاطيهم اللبن على ما دونه ثوب، وهو يقول:

اللهم إن العيش عيش الآخرة   فاغفر للانصار والمهاجرة

فمر عمار بن ياسر فجعل النبي ﷺ ينفض التراب عن رأسه، ويقول: ويحك يا ابن سمية! تقتلك الفئة الباغية[6].

([1]) رواه أحمد والبخاري وأبو يعلى.
([2]) رواه ابن عدي.
([3]) رواه أبو داود والترمذي.
([4]) رواه أبو الشيخ، وابن سعد.
([5]) رواه الخطيب في الرواية عن مالك.
([6]) رواه ابن عساكر.

وعن يعقوب بن يزيد قال: كان رسول الله ﷺ يتبع غبار المسجد بجريدة[1].

وفي غزوة الخندق.. بعد أن أحاطت الأحزاب بالمدينة المنورة.. وفي ذلك الموقف الشديد الذي تزلزلت له القلوب.. والذي يكتفي فيه القادة بالجلوس في غرفهم المكيفة للتخطيط وإلقاء الأوامر.. كان النبي ﷺ مع أصحابهم يشاركهم في كل صغيرة وكبيرة..

قالت أم سلمة ــ رضي الله عنها ــ: ما نسيت يوم الخندق، وهو يعاطيهم اللبن، وقد اغبر شعره، تعني النبي ﷺ [2].

وعن البراء ــ رضي الله عنه ــ قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ يحمل التراب على ظهره، حتى حال التراب بيني وبينه وإني لانظر إلى بياض بطنه[3].

قال محمد بن عمر: وكان رسول الله ﷺ من شدة اجتهاده في العمل يضرب مرة بالمعول ومرة يغرف بالمسحاة التراب، ومرة يحمل التراب في المكتل، وبلغ منه التعب يوما مبلغا فجلس، ثم اتكأ على حجر على شقه الايسر فنام: فقام أبو بكر وعمر رضي الله عنهما على رأسه ينحيان الناس عنه، أن يمروا به، فينبهوه، ثم استيقظ ووثب فقال: أفلا أفزعتموني! وأخذ الكرزن يضرب به ويقول:

اللهم إن العيش عيش الاخرة فاغفر للانصار والمهاجرة

اللهم العن عضلا والقارة فهم كلفوني أنقل الحجارة

وعمل المسلمون في الخندق حتى أحكموه.

بل كان ﷺ في هذا الموقف الشديد يتكفل بكل عمل شاق يتوقفون عنده، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن المسلمين عرض لهم في بعض الخندق كدية عظيمة شديدة بيضاء مدورة، لا تأخذ فيها المعاول، فكسرت حديدهم، وشقت عليهم، فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ وهو في قبة تركية فقال: أنا نازل، ثم قام، وبطنه معصوب بحجر من الجوع، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا، فدعا بإناء من ماء فتفل فيه، ثم دعا بما شاء الله أن دعو به، ثم نضح من ذلك الماء عليها، فيقول من حضرها: والذي بعثه بالحق إنها عادت كالكثيب المهيل ما ترد فأسا ولا مسحاة[4].

و لم يكن ﷺ في ذلك الموقف الشديد يكتفي بالعمل فقط.. بل كان يسليهم ويرتجز بما يرتجزون، ويضحك كما يضحكون:

قال ابن إسحاق وابن عمر: وارتجز المسلمون في الخندق برجل يقال له (جعيل) أو جعالة بن سراقة، وكان رجلا دميما صالحا، وكان يعمل في الخندق، فغير رسول الله ﷺ اسمه يومئذ فسماه عمرا، فجعل المسلمون يرتجزون ويقولون:

([1]) رواه ابن أبي شيبة.
([2]) رواه أحمد برجال الصحيح وأبو يعلى.

([3]) رواه محمد بن عمر.
([4]) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

سماه من بعد جعيل عمرا وكان للبائس يوما ظهرا

وجعل رسول الله ﷺ لا يقول شيئا من ذلك، إلا إذا قالوا: عمرا، وإذا قالوا: ظهرا، قال: ظهرا.

وعن البراء بن عازب ـــ رضي الله عنه ـــ قال: رأيت رسول الله ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى وارى التراب بياض بطنه[1]، وكان كثيف الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات لابن رواحة:

والله لولا ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الاقدام إن لاقينا

والمشركون قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

ورفع بها صوته: أبينا أبينا[2].

وعن سلمان ـــ رضي الله عنه ـــ: أن رسول الله ﷺ ضرب في الخندق وقال:

باسم الاله وبه هدينا ولو عبدنا غيره شقينا

يا حبذا ربا وحب دينا[3]

وكان ﷺ في ذلك الموقف الشديد يدعو الله لهم، ويشجعهم بكل ما أطاق أن يشجعهم به، عن سهل بن سعد وأنس رضي الله عنهما قالا: جاءنا رسول الله ﷺ ونحن نحفر في الخندق، وننقل التراب على أكتادنا[4] في غداة باردة، و لم يكن لهم عبيد يعملون ذلك، فلما رأى ما هم فيه من النصب والجوع قال:(اللهم لا عيش إلا عيش الاخرة، فاغفر للانصار والمهاجرة)، فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

قال أنس: ويؤتونه بملء كفي شعير، فيصنع لهم بإهالة سنخة[5]، توضع بين يدي القوم، وهم جياع وهي بشعة في الحلق، ولها ريح منتن.

ومما كان يشجعهم به ما روي في الحديث من ضربه على تلك الكدية وما كان فيها من معجزات، فقد ورد في الحديث: فأخذ المعول من سلمان، وقال:(بسم الله)، وضرب ضربة فكسر ثلثها، وبرقت برقة فخرج نور من قبل اليمن فأضاء ما بين لابتي المدينة حتى كأن مصباحا في جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله ﷺ وقال:(أعطيت مفاتيح اليمن، إني لابصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة، كأنها أنياب الكلاب)، ثم ضرب الثانية فقطع ثلثا آخر، وبرق منها برقة فخرج نور من قبل الروم فأضاء ما بين لابتي المدينة فكبر رسول الله ﷺ وقال: أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لابصر قصورها الحمر من مكاني الساعة.

ثم ضرب الثالثة، فقطع بقية الحجر وبرق برقة من جهة فارس أضاءت ما بين لابتي المدينة، فكبر رسول الله ﷺ وقال:(أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لابصر قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب من مكاني

([1])وفي لفظ: حتى أغمر بطنه، أو قال اغبر بطنه، وفي لفظ: حتى وارى الغبار جلده.

([2]) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

([3]) رواه البيهقي.

([4]) جمع كتد، وهو ما بين الكاهل إلى الظهر، وفي لفظ: أكتافنا، وفي لفظ عن متوننا.

([5]) الاهالة: الودكة، والسنخة: المتغيرة الريح الفاسدة الطعم.

هذا، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، فأبشروا بالنصر.

فاستبشر المسلمون، وقالوا: الحمد لله موعد صادق، بأن وعدنا النصر بعد الحصر، وجعل يصف لسلمان، فقال سلمان: صدقت يا رسول الله ﷺ، هذه صفته، أشهد أنك رسول الله.

ثم قال رسول الله ﷺ:(هذه فتوح يفتحها الله تعالى بعدي يا سلمان، لتفتحن الشام، ويهرب هرقل إلى أقصى مملكته، وتظهرون على الشام فلا ينازعكم أحد، وليفتحن هذا المشرق، ويقتل كسرى فلا يكون كسرى بعده)، قال سلمان: فكل هذا قد رأيت[1].

ومن مشاركته ﷺ لأصحابه ــ التي هي رعيته ــ أنه كان يذوق من الجوع ما يذوقون، بل يذوق أعظم مما يذوقون[2]، ففي غزوة الخندق قال أبو طلحة: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع، فرفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين.

وكان ﷺ آخر من يأكل إذا ما دعوا إلى أي أكل، فعن أبن عباس ــ رضي الله عنه ــ: أن جابرا رأى رسول الله ﷺ يوم الخندق عاصبا بطنه بحجر من الجوع وأنهم لبثوا ثلاثة أيام لا يذوقون ذواقا.

قال جابر: فاستأذنت رسول الله ﷺ إلى المترل فأذن لي، فذهبت فقلت لامرأتي: إني رأيت رسول الله ﷺ خمصا شديدا، ما في ذلك صبر، فعندك شئ؟ قالت: عندي صاع من شعير وعناق، فأخرجت إناء فيه صاع من شعير، وذبحت العناق، وطحنت الشعير، وجعلنا اللحم في البرمة، فلما انكسر العجين وكادت البرمة أن تنضج وأمسينا، وأراد رسول الله ﷺ الانصراف ــ قال: وكنا نعمل نهارا، فإذا أمسينا رجعنا إلى أهلنا ــ قالت لي: لا تفضحني برسول الله ﷺ ومن معه.

فأتيت رسول الله ﷺ فساررته فقلت: طعيم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان.

فشبك أصابعه في أصابعي وقال: كم هو؟ فذكرت له، فقال: كثير طيب، لا تترلن برمتكم، ولا تخبزن عجينكم حتى أجئ، وصاح رسول الله ﷺ:(يا أهل الخندق إن جابرا قد صنع لكم سورا فحي، هلا بكم)، وصار رسول الله ﷺ يقدم الناس، ولقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى، وقلت: جاء الخلق، والله إنها للفضيحة على صاع من شعير وعناق، فدخلت على امرأتي فقلت: ويحك! جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والانصار ومن معهم، فقالت: أنت دعوتهم أو هو؟ قلت: بل هو دعاهم، قالت: دعهم، الله ورسوله أعلم، نحن قد أخبرناه بما عندنا، فكشفت عني.

فدخل رسول الله ﷺ وقال:(ادخلوا عشرة عشرة، ولا تضاغطوا)، فأخرجت له عجينا فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق فيها وبارك، فقال لنا:(اخبزوا واغرفوا وغطوا البرمة، ثم أخرجوا الخبز من التنور، وغطوا الخبز)، ففعلنا، فجعلنا نغرف ويغطي البرمة، ثم يفتحها فما نراها نقصت شيئا، ويخرج الخبز من التنور، ثم يغطيه فما نراه نقص شيئا، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم، ويقرب إلى أصحابه ويقول لهم:(كلوا)

فإذا شبع قوم قاموا، ثم دعا غيرهم حتى أكلوا وهم ألف، وانحرفوا وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا

([1]) سبق تخريج الحديث بتفاصيله، وانظر رسالة (معجزات حسية) من هذه السلسلة.

([2]) سنرى تفاصيل ذلك في محلها.

ليخبز كما هو، فقال:(كلوا واهدوا، فإن الناس أصابتهم مجاعة شديدة)

فلم نزل نأكل ونهدي يومنا ذلك أجمع، فلما خرج رسول الله ﷺ ذهب ذلك[1].

وفي حديث آخر عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: والله الذي لا إله إلا هو، إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع. ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه، فمر بي النبي ﷺ فتبسم حين رآني، وعرف ما في وجهي وما في نفسي، ثم قال: أبا هر قلت: لبيك يا رسول الله، قال: الحق ومضى فاتبعته، فدخل فاستأذن، فأذن لي فدخلت، فوجد لبناً في قدح فقال: من أين هذا اللبن؟ قالوا: أهداه لك فلانٌ – أو فلانةٌ – قال: أبا هر قلت: لبيك يا رسول الله، قال: الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهلٍ، ولا مالٍ، ولا على أحدٍ، وكان إذا أتته صدقةٌ بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هديةٌ أرسل إليهم، وأصاب منها وأشركهم فيها، فساءني ذلك فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة! كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شربةً أتقوى بها، فإذا جاؤوا وأمرني فكنت أنا أعطيهم؛ وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله، صلى الله عليه وسلم بدٌ، فأتيتهم فدعوتهم، فأقبلوا واستأذنوا، فأذن لهم وأخذوا مجالسهم من البيت قال: يا أبا هرٍ قلت: لبيك يا رسول الله قال: خذ فأعطهم قال: فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح، فيشرب حتى يروى ثم يرد علي القدح حتى انتهيت إلى النبي ﷺ، وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر إلي فتبسم، فقال: أبا هرٍ قلت: لبيك يا رسول الله، قال: بقيت أنا وأنت قلت: صدقت يا رسول الله، قال: اقعد فاشرب فقعدت فشربت، فقال: اشرب فشربت، فما زال يقول: اشرب حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكاً! قال: فأرني فأعطيته القدح، فحمد الله تعالى، وسمى وشرب الفضلة[2].

المواساة:

قال رجل من الجمع: عرفنا الدليل الثاني.. واقتنعنا به.. فما الدليل الثالث؟

قال الحكيم: لقد كان رسول الله ﷺ بالإضافة إلى ذلك كله يتعامل مع من ولي أمرهم تعامل الأصحاب لا تعامل السلطان.. بل كان ﷺ يسمي من استظل بظل ولايته صاحبا، حتى لو كان له عدوا.

فإنه لما قال رأس المنافقين ابن أبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فبلغها زيد بن أرقم رسول الله ﷺ، وجاء ابن أبي يعتذر ويحلف ما قال، فسكت عنه رسول الله ﷺ، فأنزل الله تصديق زيد في سورة المنافقين، فأخذ النبي ﷺ بأذنه فقال: أبشر فقد صدقك الله، ثم قال: هذا الذي وفى لله بأذنه فقال له: عمر يا رسول الله مر عباد بن بشر فليضرب عنقه فقال ﷺ:(فكيف إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه)[3]

وهكذا ﷺ كان مع سائر الناس.. فقد كان يسير مع كل أحد ليقضي حاجته، فعن أنس ــ رضي الله عنه

([1]) رواه اليخاري ومسلم، وانظر تفاصيل أكثر في (معجزات حسية)

([2]) رواه البخاري.

([3]) رواه ابن إسحق وغيره.

ـــ قال: كانت امرأة في عقلها شئ قالت: يا رسول الله إن لي إليك حاجة، فقال:(يا أم فلان انظري أي الطرق شئت أقضي لك حاجتك)، فقام معها يناجيها، حتى قضت حاجتها[1].

وفي حديث آخر عنه قال: إن كانت الوليدة من ولائد أهل المدينة لتجئ فتأخذ بيد رسول الله ﷺ، فما يترع يده من يدها، حتى تذهب به حيث شاءت من المدينة الحاجة[2].

وعن عبد الله بن أبي أوفى ـــ رضي الله عنه ـــ قال: كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر، ويقل اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، ولا يأنف، ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين يقضي لهما حاجتهما[3].

وعنه قال: كان رسول الله ﷺ لا يستنكف أن يمشي مع الضعيف، والأرملة، فيفرغ لهم من حاجاتهم[4].

وقد استدل عدي بن حاتم بهذا السلوك على نبوته ﷺ، فقد روي أنه أتى رسول الله ﷺ فإذا عنده امرأة وصبيان، أو صبي، فذكر قربهم من النبي ﷺ، قال: فعرفت أنه ليس ملك كسرى وقيصر[5].

وكان ﷺ يعود مرضى المسلمين، ويهتم بهم، فعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أخبره أن مسكينة مرضت، فأخبر رسول الله ﷺ بمرضها، وكان رسول الله ﷺ يعود المساكين، ويسأل عنهم[6].

وكان ﷺ يجيب أي دعوة لا يهمه ما كانت، ولا ممن كانت:

فعن ابن عباس ـــ رضي الله عنه ـــ قال: إن كان الرجل من أهل العوالي ليدعو رسول الله ﷺ نصف الليل على خبز الشعير فيجيبه[7].

وعن أبي هريرة ـــ رضي الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ قال: لو دعيت إلى ذراع أو كراع لاجبت، ولو أهدي إلي ذراع لقبلت[8].

وعن أنس ـــ رضي الله عنه ـــ قال: كان رسول الله ﷺ يجيب دعوه المملوك[9].

بل كان ﷺ لا يفرق في إجابة الدعوة بين مسلم وكافر، فعن أنس ـــ رضي الله عنه ـــ أن يهوديا دعا رسول الله ﷺ إلى خبز شعير وإهالة سنخة فأجابه[10].

لقد وصف بعضهم سلوك رسول الله ﷺ فقال:(وكان ﷺ يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويداعب

---

(1) رواه أحمد ومسلم.
(2) رواه أبو بكر بن أبي شيبة.
(3) رواه الدارمي.
(4) رواه الخرائطي.
(5) رواه البخاري في الأدب، وروي عبد بن حميد عن عدي بن حاتم قال: أتينا رسول الله ﷺ، وهو جالس في المسجد فقال القوم: هذا عدي، وجئت بغير أمان ولا كتاب، فلما دفعت إليه أخذ بيدي، وقد كان قال قبل ذلك: إني لأرجو أن يجعل الله يده في يدي قال: فقام معي فلقيته امرأة وصبي معها فقالا: لنا إليك حاجة، فقام معهما، حتى قضى حاجتهما.
(6) رواه أبو ذر الهروي في دلائله.
(7) رواه الطبراني، ورواه مسدد مرسلا برجال ثقات.
(8) رواه البخاري.
(9) رواه ابن ماجه.
(10) رواه أحمد وابن سعد وابن شيبة.

صبيانهم ويجلسهم في حجره ويجيب دعوة الحر والعبد والامة والمسكين ويعود المرضى في أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر، قال أنس: ما التقم أحد أذن النبي ﷺ فينحى رأسه حتى يكون الرجل هو الذى ينحى رأسه، وما أخذه بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخذ.

و لم ير مقدما ركبتيه بين يدى جليس له، وكان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة، لم ير قط مادا رجليه بين أصحابه حتى يضيق بهما على أحد يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبى ويكنى أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم، ولا يقطع على أحد حديثه، وروى أنه كان لا يجلس إليه أحد وهو يصلى إلا خفف صلاته وسأله عن حاجته فإذا فرغ عاد إلى صلاته[1]، وكان أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفسا ما لم يترل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب، قال عبدالله بن الحارث: ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله ﷺ)[2]

الخدمة:

قال رجل من الجمع: عرفنا الدليل الثالث.. واقتنعنا به.. فما الدليل الرابع؟

قال الحكيم: لقد كان رسول الله ﷺ لا يكتفي بمجرد المشاركة والمواساة ولا الخلطة المجردة عن أي عمل إيجابي.. بل كان فوق ذلك كله، ومع ذلك كله، يبادر لأي خدمة سواء شورك فيها أو لم يشارك، وسواء كانت في بيته أو خارج بيته، لا يسأل على ذلك أجرا ولا شكرا.

عن أنس قال: ذهبت بعبد الله بن أبي طلحة إلى النبي ﷺ يوم ولد، والنبي ﷺ في عباءة يهنأ بعيرا له[3].

وقد وصفت عائشة ــ رضي الله عنها ــ ما كان يصنع ﷺ في بيته، فقالت:(كان بشرا من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته ويخيط ثوبه، ويخدم نفسه، ويخصف نعله، ويعمل ما تعمل الرجال في بيوتهم، ويكون في مهنة أهله، يعني خدمة أهله، فإذا سمع المؤذن خرج إلى الصلاة)[4]

وعنها ــ أيضا ــ قالت: كان رسول الله ﷺ يعمل عمل أهل البيت وأكثر ما يعمل للخياطة [5].

وكان خارج بيته في أي شغل أو خدمة يحتاجها المسلمون، لا يستكبر عن أي عمل:

وكان أخطر أعماله وأهمها تعليم الناس، يصبر في ذلك أيما صبر، عن أبي رفاعة تميم بن أسيدٍ ــ رضي الله عنه ــ قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب، فقلت: يا رسول الله، رجلٌ غريبٌ جاء يسأل عن دينه لا يدري ما دينه؟ فأقبل علي رسول الله ﷺ، وترك خطبته حتى انتهى إلي، فأتي بكرسيٍ، فقعد عليه، وجعل يعلمني مما علمه الله، ثم أتى خطبته، فأتم آخرها[6].

([1])كما روي عن أنس بن مالك أن نبي الله ﷺ قال: أني لأدخل الصلاة وأنا أريد أن أطيلها فاسمع بكاء الصبي فاتجوز في صلاتي مما اعلم من شدة وجد أمه من بكائه.

([2]) انظر: عيون الأثر: ٤٢٣/٢.

([3]) رواه أبو داود.

([4]) رواه البخاري ومسلم.

([5]) رواه ابن سعد.

([6]) رواه مسلم.

وكان ﷺ لا يترك هذه الوظيفة حتى وهو منشغل بحاجاته الأساسية، عن أنسٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أكل طعاماً لعق أصابعه الثلاث قال: وقال: إذا سقطت لقمة أحدكم، فليمط عنها الأذى، وليأكلها، ولا يدعها للشيطان وأمر أن تسلت القصعة. قال: فإنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة[1].

بل كان ﷺ يعلمهم حتى ما يرتبط بحياتهم من معايش، فقد روي أنه مر مرة بغلام يسلخ شاة، فقال له رسول الله ﷺ:(تنح حتى أريك، فإني لا أراك تحسن تسلخ)، فأدخل رسول الله ﷺ يده بين الجلد واللحم، فدخس بها حتى توادت إلى الإبط، ثم قال:(يا غلام هكذا فاسلخ)[2]

وكان ﷺ إذا نام الناس يشتغل حارسا لهم، فيهب عند كل فزعة، عن محمد بن الحنفية ــ رضي الله عنه ــ قال: كان رسول الله ﷺ أشجع الناس، وقال: فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق الناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعا، وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحة عري، في عنقه السيف، وهو يقول: لم تراعوا، لم تراعوا، ما وجدت من شيء، وقال للفرس: وجدناه بحرا، وإنه لبحر، قال: وكان فرسه بطيئا فيه قطاف فما سبق بعد[3].

وكان ﷺ عند الغزو هو الترس الذي يتترسون به، عن علي ــ رضي الله عنه ــ قال: كنا إذا حمي البأس ولقي القوم القوم، اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون منا أحد أدنى من القوم منه[4].

وروى عنه أيضا قال: لما كنا يوم بدر اتقينا المشركين برسول الله ﷺ، وكان أشد الناس بأسا يومئذ، وما كان أحد أقرب من المشركين منه.

وعن البراء سأله رجل من قيس: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال البراء: ولكن رسول الله ﷺ لم يفر، كانت هوازن ناسا رماة، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، وأكببنا على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بلجامها، وهو يقول: (أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب)[5]

زعن عمران بن حصين ــ رضي الله عنه ــ قال: ما لقي رسول الله ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب[6].

التفت الحكيم إلى دوج، وقال: هذه بعض الدلائل على ما كان عليه رسول الله ﷺ من احترام لرعيته الذين ولي أمرهم.. ولو قعدت أفصل لك ما يدل على هذه الأدلة ما خرجنا من هنا[7].

ثم التفت إلى الجمع، وقال: هل يكفيكم ما ذكرنا من أدلة؟

قال رجل من الجمع: لقد كان يكفينا أقل مما ذكرت.. وقد صدقت، فلم نر زعيما في الدنيا مهما كان

([1]) رواه مسلم.
([2]) رواه أبو داود، وابن ماجه، وابن حبان، وقاسم بن ثابت، والطبراني عن أبي سعيد وغيره من الصحابة.
([3]) رواه ابن سعد، وهذا من جملة معجزاته ﷺ كونه ركب فرسا قطوفا بطيئا فعاد بحرا لا يسابق، ولا يجارى.
([4]) رواه أحمد، وابن ماجه.
([5]) رواه ابن أبي شيبة.
([6]) رواه أبو الشيخ.
([7]) سنرى أدلة أوفر على هذا في سائر السلسلة.

متواضعا، يبلغ به تواضعه لمن يتزعم عليهم إلى تلك الدرجة.

٢ ـــ استشارته للرعية

لم يجد نيكولاس في ذلك الموقف إلا أن قال: لا ينفي ما ذكرته من احترام محمد لمن تولى عليهم كونه مستبدا.. ذلك أن المستبد قد يفعل ذلك من باب كسب القلوب، ثم هو بعد ذلك يمارس ما يمليه عليه استبداده من تصرفات.

قال الحكيم: فما الذي ينفي استبداده؟

قال نيكولاس: رجوعه للرعية واستشارته لها.. وأن لا يبت أمرا إلا بعد استئذانها.

قال الحكيم: كلامك صحيح.. وسأشرح لك وللجمع ما يثبت لك أن محمدا ﷺ هو الوحيد الذي استطاع أن يجمع ذلك كله في منتهى كماله.

قال نيكولاس: كيف تقول ذلك.. وهو يملي عليهم الأوامر.. ويزعم أنها تأتيه من السماء.. فلا يملكون إلا تنفيذها.

قال الحكيم: إن في حياة رسول الله ﷺ ناحيتين، لكل منهما حكمه الخاص: أما الناحية الأولى.. فهي كونه نبيا يوحى إليه من الله.. وأما الناحية الثانية، فهي كونه بشرا وضع له من حرية الاختيار ما يمكنه من التصرف كما يشاء، أو كما تشاء الحكمة.

لقد أشار إلى هاتين الناحيتين أحد الصحابة، وهو الحباب بن المنذر في غزوة بدر عندما رأى مكانا آخر أهم من المكان الذي اختاره رسول الله ﷺ، فذهب.. وهو الجندي البسيط.. إلى رسول الله ﷺ، وقال بأدب: يا رسول الله.. أرأيت هذا المترل، أمترلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال ﷺ: (بل هو الرأي والحرب والمكيدة)، فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمترل، فانهض يا رسول الله بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم ـــ أي جيش المشركين ـــ فنترله ونغور ـــ نخرب ـــ ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضًا، فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون.

فأعجب النبي ﷺ هذا الاقتراح، ونهض بالجيش إلى أقرب ماء من العدو فترل عليه، ثم صنعوا الحياض وغوروا ما عداها من الآبار.

أنت ترى أن هذا الرجل الممتلئ أدبا لم يقدم مشورته إلا بعد أن علم أن المسألة من الأمور التي يمكن أن تقدم فيها الآراء المختلفة.

الناحية التوقيفية:

قال نيكولاس: ففي الناحية الأولى لا مجال للشورى إذن؟

قال الحكيم: يمكنك أن تقول ذلك.. ففي هذه الناحية لا يتنازل محمد ﷺ عن شيء أمر به.. أو نهى عنه.. بل نهى المؤمنين أن يقفوا موقف الاختيار في هذا الجانب، قال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾ (الأحزاب:٣٦)، وقال:﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ

وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) (النساء:٦٥)

بل إنه حذر من مخالفة أمره، فقال:﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(النور: من الآية٦٣)

بل إنه نهى أن يتبع محمد ﷺ آراء أحد من الناس مقابل الهدي الذي جاء به، قال تعالى:﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ)(المائدة: من الآية٤٨)، وقال تعالى:﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ) (المائدة:٤٩)

قال نيكولاس: فهل تركت هذه النصوص للاستبداد شيئا؟

قال الحكيم: أرأيت لو ذهبت إلى طبيب من الأطباء، هو خبير في ميدانه، فوصف لك شيئا من الأدوية أنت أحوج الناس إليه.. أتراك تجادله في ذلك؟

قال نيكولاس بقوة: نعم قد أجادله.. وقد حصل ذلك كثيرا.. فأنا لست إمعة تحركني الرياح حيث شاءت.

قال الحكيم: ولكنك بعد جدالك له لا تجد إلا أن تسلم له، ثم تتناول الأدوية التي وصفها لك.

سكت نيكولاس، فقال الحكيم: ما ذكرت صحيح.. ولذلك فإن الله برحمته يذكر لنا ــ عند ذكره لأصناف الأدوية الربانية ــ الحكم منها، لتقبل عليها العقول والقلوب عن بينة.. وفي ذلك منتهى الرحمة والحكمة والعدالة.. فالله برحمته لا يفرض علينا فرائضه كما يفرضها الملوك الذين يشتهون التسلط على غيرهم.. بل إن الله يأمرنا بما يرحمنا به، وبما ينفي وصول مضرة لنا.

لقد ذكر القرآن الكريم كثيرا هذا، فقد ذكر مثلا حكمة اعتزال النساء في المحيض وذكر أنها دفع الأذى قال تعالى:﴿ وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) (البقرة:٢٢٢)

وذكر حكمة تحريم الخمر، وأنه مع ما فيها من المنافع المتوهمة تحوي أضرارا أخطر من منافعها، قال تعالى:﴿ يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا)(البقرة: من الآية٢١٩)، ثم فصل في ذكر المضار الكثيرة التي استدعت تحريمها، فقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) (المائدة:٩٠-٩١)

وذكر حكمة تحريم الزنا، وأنها فحشه وسوء سبيله، ومفاسد مآله، فقال تعالى:﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً) (الاسراء:٣٢)

وذكر حكمة تشريع الزواج وأنها السكن والمودة والرحمة وإعمار الكون، فقال تعالى:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ

خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الروم:٢١)

قال نيكولاس: ولكن هذه التشريعات تجعل الإنسان في دائرة ضيقة لا تقل عن الدائرة التي يرسمها المستبدون.

ابتسم الحكيم، وقال: حتى ولو لم تتحكم فيه هذه الدائرة التي تتصور ضيقها، فستتحكم فيه دوائر أخرى شاء أم أبى.. حتى الخمر ـــ التي تتصور أن تحريمها استبداد ـــ لو تحرر أي شخص من استبداد تحريمها، فسيقع في استبداد شربها.. لعلك تعرف الإدمان، وتعرف المخاطر التي يجلبها لصاحبه.

ومع ذلك.. فإن الشريعة التي جاء بها الإسلام تقوم على التوسعة ورفع الحرج ليعيش الإنسان حياته الطبيعية على حسب ما تتطلبه الفطرة السليمة.

ولذلك ترى من قواعد الشريعة هذه القاعدة الذهبية (المشقة تجلب التيسير)، وقاعدة (الضرورات تبيح المحظورات)، و(والضرورة تقدر بقدرها)، و(العادة محكمة)

قال نيكولاس: أنا لي رأي في هذه القواعد التي ذكرتها.

قال الحكيم: يسرني سماعه.

قال نيكولاس: أرى أن الفقهاء الذين لاحظوا ضيق الشريعة وتشددها وعدم تناسبها مع الحاجات المختلفة للإنسان هم الذين راحوا ينسخون أحكامها بمثل هذه القواعد، كما فعل بولس عندنا في المسيحية.. أرى أن كلاهما مارس نفس السلوك.

ابتسم الحكيم، وقال: ما كان لفقهائنا أن يفعلوا هذا.. ولن يتركهم أحد لو فعلوه.. إن ما ذكرته لك هو ما دلت عليه النصوص المقدسة من الكتاب والسنة.

لقد قال تعالى يقرر تلك القواعد:﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)(المائدة: من الآية٦)، وقال تعالى:﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) (الحج:٧٨)، وقال تعالى:﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (البقرة:١٧٣)، وقال تعالى:﴿ قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (الأنعام:١٤٥)

وبمثل ذلك قال ﷺ يقرر تلك القواعد:((إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة)[1]

فهذا الحديث يقرر قواعد كثيرة توهمت أنت أنها من صنع الفقهاء، فهو يقرر التيسير (إن الدين يسر)..

([1]) رواه البخاري.

ويقرر منع التشدد والمبالغة من غير موجب:(ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه).. ويقرر ملازمة السداد والوسطية، أي الصواب من غير إفراط ولا تفريط: (فسددوا).. ويحث على بلوغ الكمال: (وقاربوا)، أي اعملوا بما يقرب من الأكمل.. زيحث على دوام العمل وزيادته: (واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة)

وقد كان ﷺ ــ الذي تصفه بالاستبداد لا يختار من الأمور إلا أيسرها ــ قالت عائشة ــ رضي الله عنها ــ: (ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادما قط ولا امرأة ولا شيئا إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا انتقم لنفسه من شئ يؤتى به إليه حتى تنتهك محارم الله فيكون هو ينتقم لله عزوجل، ولا خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما حتى يكون إثما فإذا كان إثما كان أبعد الناس من الاثم)[1]، فهذا الحديث ينص على أن المختار في الشريعة هو التيسير والرفق والتخفيف في الأمور كلها ما لم يكن إثما[2].

سكت الحكيم قليلا، ثم قال: ومع ذلك كله، فإن الدين الذي أمر به محمد ﷺ لم يأمر به كما أمر به لينين..

هنا لاحظت وجه نيكولاس، وقد تغير تغيرا شديدا، وكأنه كان يقصده.

قال الحكيم ذلك، ثم التفت إلى نيكولاس، وقال: لعلك تعرفه.. لا أظن إلا أنك تعرفه.. فإن شئت ذكرت لك بعض جرائمه وجرائم إخوانه من الذين تصوروا أنهم رحمة نزلت من السماء لتحمي الإنسان.

لقد وقع حوالي (٦٠-٦٥) مليونا من المسلمين تحت وطأة الثورة البلشفية، وهؤلاء المسلمون ينتشرون على أرض مساحتها أكثر من (١٥) مليون ميل مربع (أكثر من مساحة إفريقيا).

وبعد أن انتصر الشيوعيون ــ بأفكارهم التي أرادوا فرضها فرضا ــ حصدوا كل من خالفهم من المسلمين حصدا مريعا.. في تركستان الشرقية التي احتلتها الصين سنة (١٩٣٤م) ــ بمساعدة الجيش الأحمر الروسي ــ قتل (ربع مليون مسلم) من المفكرين والعلماء والشباب.

وعندما قامت الثورة الصينية سنة (١٩٥٢م) قتلت (١٢٢) ألفا من المسلمين.

وفي يوغسلافيا أباد تلميذ لينين المخلص تيتو بعد الحرب العالمية من المسلمين (٢٤) ألفا.

وفي القرم، أبيد سنة (١٩٢١م) (مائة ألف)، وهجر (خمسين ألف) في عهد بيلاكون، وكان عدد مساجدها قبل احتلالنا لها زمن كاترينا الثانية (١٥٥٤) مسجدا، وعدد سكانها (٥) ملايين، فما زالت تهجر

---

[1] رواه أحمد وعبد بن حميد وابن عساكر.

[2] اختلف الفقهاء فيما إذا اختلف مفتيان عالمان كلاهما أهل للفتوى على قولين هل يأخذ بأيسرهما قولا، أم لا، على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه يأخذ بالأشد؛ لأنه أحوط وأبرأ للذمة.

القول الثاني: يأخذ بالأيسر؛ لأنه أقرب إلى مقاصد الشريعة؛ ولأن الأصل براءة الذمة، فلا يلزم عباد الله إلا بما نتيقن أن الله ألزمهم به.

القول الثالث: أنه يخير؛ لتعارض العلتين.

ولعل في الحديث الذي ذكرناه ما يرجح القول الثاني مع مراعاة مقاصد الشريعة، لأن التيسير في بعض المحال قد يتنافى مع المقاصد الشرعية، ويكون حينذاك من حظ نفس، مثل تهرب الغني إلى الأقوال الميسرة في الزكاة هربا من إخراجها.

وتقتل وتنفي إلى سيبريا حتى بقي منهم (٣) مليون وبقي من المساجد (٧٠٠) مسجد.

وعندما ذهب إليها الشيوعيون سنة (١٩٢٠م) أغلقوا المساجد، وشنوا على أهل القرم حرب التجويع.. لقد نشرت الأزفستيا في (١٥) يوليو سنة (١٩٢٢م) تقريرا للرفيق (كالينين) عن مجاعة القرم يقول:(بلغ عدد الذين أصابتهم محنة الجوع في يناير (٣٠٢٠٩٠) مات منهم (١٤٤١٣)، وارتفع عددهم في مارس إلى (٣٧٩٠٠٠) مات منهم (١٢٥٧٤))[١]

وفي سنة (١٩٤٦م) كان قد بقي من شعب القرم نصف مليون نفاهم ستالين إلى سيبريا[٢].

وفي القفقاس، بلاد الشيشان والشركس، نفى ستالين إلى سيبريا وأذربيجان جميع الشعبين: (٨٠٠) ألف من الشيشان، و(٣٠٠) ألف من شعب كارة شاي و(٢٥٠) ألفا من شعب كالموك.

و لم يبق في جمهورية الشيشان كلها مسجد واحد.. لقد هدموا المساجد وحولوها إلى اصطبلات ودور للسينما ومراكز للحزب ودور للترفيه ونوادي..

أما المساجد الباقية في المناطق الأخرى، فقد أجبرت على أن تدفع ضرائب للدولة، فمسجد لينين جراد الباقي للسياحة، يدفع عنه المسلمون ضريبة سنوية قيمتها (٢٤ ألف) روبل.

وفي تركستان الغربية كان مجموع ما قتل من المسلمين فيها(٦) ملايين مسلم سنة (١٩١٩م)، هرب منها مليونان ونصف، وسنة (١٩٣٤م) قتل مائة ألف مسلم.. وفي سنة (١٩٣٧-١٩٣٩م) أعدم ونفي إلى سيبريا نصف مليون مسلم.. وفي سنة (١٩٣٤م) نفي منها ٩٣٠٠ ألف مسلم.. وفي سنة (١٩٥٠م) قتل منها (٧) آلاف مسلم.. وفي سنة (١٩٣٢-١٩٣٤م) مات جوعا ٣ ملايين مسلم، أخذت محاصيلهم وقدمت إلى الصين.. وفي سنة (١٩٥١م) اعتقل منهم (١٣٥٦٥) مسلما.. وفوق هذا ثبت بالإحصائيات الروسية أن ستالين قتل وحده ١١مليونا من المسلمين [٣].

قارن هذا مع الطريقة التي دعا بها محمد ﷺ إلى دينه، والحرية التي أتاحها في تقبله، لقد قال الله تعالى موضحا دور الرسول ﷺ:﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦)﴾ (الغاشية)

إن هذه الآيات الكريمة تبين دور الرسول ﷺ ودور كل مسلم في نشره لدينه ودعوته إليه.. إن دوره قاصر على التذكير والتنبيه والموعظة.. أما ما عدا ذلك فلله، فالله هو الهادي وهو المحاسب وهو المعاقب.. فهو وحده رب الدين.

لقد قال الله تعالى يبين للمسلمين أسلوب نشر الحقائق التي لا ينبغي أن تكون محل اختيار:﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ

([١]) انظر: الإسلام في وجه الزحف الأحمر لمحمد الغزالي ص(١٤٢).

([٢]) انظر: مجلة البلاغ الكويتية العدد (٤٧٨) نوفمبر سنة (١٩٧٨م)

([٣]) المسلمون في الإتحاد السوفياتي لكاتبين فرنسيين هما (شانتال كلكجي، الكسندر بينيغسن) تعريب د. إحسان حقي ص(٢٦٧).

أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل:١٢٥)

فالآية تأمر المؤمن بأن يقدم رأيه مدعما بما يراه من أدلة، ثم يترك الحرية للآخر بالاقتناع بقوله أو عدم الاقتناع.

سأنقل لك نموذجا عن أسلوب رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الدين الذي جاء به لتقارن بين استبداد المستبدين وجدلهم وبين سلام رسول الله ﷺ وحكمته وعدله..

حدث جابر بن عبد اللّه ــ رضي الله عنه ــ قال: اجتمعت قريش يوماً فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا، فليكلمه ولننظر ماذا يرد عليه، فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة، فقالوا: أنت يا أبا الوليد: فأتاه عتبة فقال: يا محمد أنت خير أم عبد اللّه؟ فسكت رسول اللّه ﷺ، فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول اللّه ﷺ فقال: إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبدت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى يسمع قولك، إنا واللّه ما رأينا سِخَلَةً قط أشأم على قومك منك، فرّقت جماعتنا وشتّت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، واللّه ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف، حتى نتفانى، أيها الرجل إن كان إنما بك الحاجة، جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً واحداً وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً)، فقال رسول اللّه ﷺ:(فرغت؟)، قال:(نعم)، فقال رسول اللّه ﷺ:﴿ بسم اللّه الرحمن الرحيم حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (فصلت:٢) حتى بلغ:﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (فصلت:١٣)، فأمسك عتبة على فيه، وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله[1].

ليس ذلك فقط.. فالقرآن يخاطب المخالفين ليقول لهم بعد مناقشة طويلة في الأدلة على وحدانية الله:﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ (ســـبأ:٢٤)

فهو في حواره مع المخالفين يعتبرهم مع المسلمين سواء في الهداية أو الضلال، ثم يضيف على الفور في تنازل كبير:﴿ قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (ســـبأ:٢٤)، فيجعل اختياره هو بمرتبة الإجرام على الرغم من أنه هو الصواب، ولا يصف اختيار الخصم بغير مجرد العمل.

أما عن سلوكه ﷺ مع المخالفين.. بل مع من لا يكتفون بالمخالفة المجردة، بل يضيفون إليها تدبير المكايد لحرب الإسلام، مما يعتبر في عصرنا خيانة عظمى، فسأذكر لك ثلاثة نماذج مختلفة عنها، لترى كيف كان ﷺ متسامحا.. ولا يمكن أن يكون المستبد متسامحا.

---

(١) رواه البغوي في تفسيره، وقد روي أن عتبة بن ربيعة لما سمع ذلك من رسول الله ﷺ لم يخرج إلى قريش، واحتبس عنهم، فقال أبو جهل:« يا معشر قريش واللّه ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه، وما ذاك له إلا من حاجة أصابته، فانطلقوا بنا إليه، فقال أبو جهل:« يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك صبأت إلى محمد وأعجبك طعامه، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد »، فغضب عتبة وأقسم أن لا يكلم محمد أبداً، وقال:« واللّه لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً، ولكني أتيته وقصصت عليه القصة، فأجابني بشيء واللّه ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة فأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخشيت أن يترل بكم العذاب»

أما **النموذج الأول**، فهو تعامله ﷺ مع المنافقين، ونختار للدلالة على ذلك رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول، قد كان عبد الله بن أبي رأس المنافقين، وإليه يجتمعون، وكان في محل بحيث يخاف أي زعيم من أن ينقلب عليه.. فعندما قدم النبي ﷺ المدينة وعبد الله بن أبي سيد أهلها لا يختلف عليه اثنان، لم يجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين غيره حتى جاء الإسلام.

بل كان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه، ثم يملكوه عليهم، فجاءهم الله عز وجل برسوله ﷺ وهم على ذلك فما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن، ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكا.. فلما أن رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارها مصرا على نفاق وضغن.

وهو الذي أطلق تهديده في غزوة بني المصطلق، فقال:﴿ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ)(المنافقون: من الآية٨)[1]

([1]) وقصة ذلك هي أنه بينما المسلمون على ماء المريسيع وقد انقطع الحرب، وهو ماء ظنون إنما يخرج في الدلو نصفه، أتى سنان بن وبر الجهني وعلى الماء جمع من المهاجرين والانصار، فأدلى دلوه وأدلى جهجاه بن مسعود الغفاري أجير عمر بن الخطاب، فالتبست دلو سنان ودلو جهجاه، وتنازعا فضرب جهجاه سنانا فسال الدم، فنادى سنان: يا للانصار، ونادى جهجاه: يا للمهاجرين، وفي لفظ: يا لقريش، فأقبل جمع من الحيين، وشهروا السلاح حتى كادت أن تكون فتنة عظيمة، فخرج رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟! فأخبر بالحال فقال:(دعوها فإنها منتنة، ولينصر الرجل أخاه ظالما كان أو مظلوما، فإن كان ظالما فلينهه، وإن كان مظلوما فلينصره)

وإن جماعة من المهاجرين كلموا عبادة بن الصامت، وجماعة من الأنصار كلموا سنانا فترك حقه، وكان عبد الله بن أبي جالسا مع عشرة مع المنافقين، منهم مالك، وسويد، وداعس، وأوس بن قيظي، ومعتب بن قشير، وزيد بن اللصيت وعبد الله بن نبتل، وفي القوم زيد بن أرقم ــ رضي الله عنه ــ وهو غلام لم يبلغ الحلم أو قد بلغ، فبلغ ابن أبي صياح جهجاه: يا آل قريش، فغضب ابن أبي غضبا شديدا، وقال: والله ما رأيت كاليوم قط، والله إن كنت لكارها لوجهي هذا، ولكن قومي غلبوني، أو قد فعلوها؟ لقد نافرونا وكاثرونا في بلدنا، وأنكروا منتنا، والله ما صرنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل: (سمن كلبك يأكلك)، والله لقد ظننت أني سأموت قبل أن أسمع هاتفا يهتف بما هتف به جهجاه، وأنا حاضر لا يكون لذلك مني غير، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل.

ثم أقبل على من حضر من قومه، فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم: أنزلتموهم بلادكم فنزلوا، وأسهمتموهم في أموالكم حتى استغنوا، أما والله لو أمسكتم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم، ثم لم يرضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضا للمنايا، فقتلتم دونه، فأيتمتم أولادكم وقللتم وكثروا.

فقام زيد بن أرقم بهذا الحديث كله إلى رسول الله ﷺ فوجد عنده نفرا من المهاجرين والانصار، فأخبره الخبر، وكره رسول الله ﷺ خبره وتغير وجهه، فقال رسول الله ﷺ: يا غلام لعلك غضبت عليه! قال: لا والله يا رسول الله، فقد سمعته منه، قال: لعله أخطأ سمعك، قال: لا والله يا رسول الله، قال: فلعله شبه عليك، قال: لا والله يا رسول الله.

وشاع في العسكر ما قال ابن أبي، وليس للناس حديث إلا ما قال، وجعل الرهط من الأنصار يؤنبون الغلام ويلومونه، ويقولون: عمدت إلى سيد قومك تقول عليه ما لم يقل، وقد ظلمت وقطعت الرحم! فقال زيد: والله لقد سمعت ما قال، والله ما كان في الخزرج رجل واحد أحب إلي من عبد الله بن أبي، ولو سمعت هذه المقالة من أبي لنقلتها إلى رسول الله ﷺ، وإني لأرجو أن ينزل الله على نبيه ما يصدق حديثي.

في ذلك الموقف قال أوس بن خولي: يا أبا الحباب، إن كنت قلته فأخبر النبي ﷺ فليستغفر لك، ولا تجحده، فينزل فيك ما يكذبك، وإن كنت لم تقله فأت رسول الله ﷺ فاعتذر له، واحلف له ما قلته.

فحلف بالله العظيم ما قال من ذلك شيئا.

وهو الذي نزلت فيه سورة كاملة تبين خصال المنافقين ومواقفهم.. ومع ذلك، فإن النبي ﷺ لم يقدم على قتله، ولا اغتياله كما يفعل ذلك كل الزعماء بمختلف الأساليب.

لقد جاءه جمع من الناس يطلبون أن يقتلوه لخيانته.. لكنه لم يأذن لواحد منهم.

قال عمر بن الخطاب ـــ رضي الله عنه ـــ: لما كان من أمر ابن أبي ما كان جئت رسول الله ﷺ وهو في فيء شجرة عنده غلام أسود يغمز ظهره، فقلت: يا رسول الله كأنك تشتكي ظهرك! فقال: تقحمت بي الناقة الليلة، فقلت: يا رسول الله ائذن لي أن أضرب عنق ابن أبي، فقال رسول الله ﷺ:(أو كنت فاعلا؟) قلت: نعم والذي بعثك بالحق.

فقال رسول الله ﷺ:(إذن لارعدت له آنف بيثرب كثيرة، لو أمرتهم بقتله قتلوه، قلت: يا رسول الله فمر محمد بن مسلمة يقتله، قال: لا يتحدث الناس أني أقتل أصحابي)

بل إن ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي تقدم طالبا أن يقتل أباه إن أمر بذلك رسول الله ﷺ، فقد جاء إلى رسول الله ﷺ فقال:(يا رسول الله، إن كنت تريد أن تقتل أبي فيما بلغك عنه فمرني به، فوالله لاحملن إليك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا، والله لقد علمت الخزرج ما كان فيها رجل أبر بوالديه مني، وما أكل طعاما منذ كذا وكذا من الدهر ولا شرب شرابا إلا بيدي، وإني لأخشى يا رسول الله أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس، فأقتله فأدخل النار.. وعفوك أفضل، ومنك أعظم)

فقال رسول الله ﷺ:(يا عبد الله ما أردت قتله ولا أمرت به، ولنحسنن له صحبته ما كان بين أظهرنا)

ولم يكتف هذا الابن المؤمن بهذا، بل عجل بعد ما أطلق أبوه تهديده، فأناخ بجامع طرق المدينة ودخل الناس حتى جاء أبوه عبد الله بن أبي فقال: وراءك، فقال: مالك ويلك؟ قال: والله لا تدخلها أبدا إلا أن يأذن رسول الله ﷺ ليعلمن اليوم من الأعز من الأذل.

فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ، فشكا إليه ما صنع ابنه، فأرسل إليه النبي ﷺ أن خل عنه حتى يدخل ففعل.

وعندما حضرت هذا المنافق الخائن الموت دخل عليه رسول الله ﷺ، فجرى بينهما كلام، فقال له عبد الله بن أبي: قد أفقه ما تقول، ولكن من علي اليوم وكفني بقميصك هذا وصل علي.. فكفنه رسول الله ﷺ بقميصه وصلى عليه[1].

وفي ذلك نزل قوله تعالى:﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (التوبة:٨٤)

التفت إلى نيكولاس، وقال: أنت ترى أن الآية لم تأمر بشيء مما يأمر به المستبدون.. لقد اكتفت بذكر

ثم مشى ابن أبي إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: يا بن أبي إن كانت منك مقالة فتب، فجعل يحلف بالله ما قلت ما قال زيد، ولا تكلمت به.

فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ:(عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثة ولم يحفظ ما قال الرجل)، حدبا على ابن أبي ودفعا عنه، وكان شريفا في قومه عظيما، فظان يظن أنه قد صدق، وظان يظن به السوء.

([1]) رواه عبد بن حميد.

الأحكام الشرعية التعبدية المحضة.. والتي يتصور هؤلاء أنها لا تضرهم ولا تنفعهم.

بل إن النبي ﷺ في هذه النواحي الأخروية تعامل معهم برحمة لا نظير لها، فقد روي أنه لما نزل قوله تعالى فيهم:﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة:٨٠) قال النبي ﷺ:(أسمع ربي قد رخص لي فيهم، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم)[1]

وحينذاك نزل قوله تعالى:﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (المنافقون:٦)

التفت الحكيم إلى دوج، وقال: هل ترى هذا المنطق، وهذه النفس الطاهرة نفس مستبد؟

سكت نيكولاس، وقد تغير وجهه تغيرا شديدا، فقال الحكيم: أما **النموذج الثاني**، فهم اليهود.. ولاشك أنك تعرف اليهود، وتعرف ما أصابهم من إخوانك المسيحيين في جميع فترات التاريخ..

أما مع محمد ﷺ، فقد أتيح لهم من الحرية ما لم يكونوا يحلمون به، فلذلك راحوا يفعلون ما يحلوا لهم، ويقولون ما يحلو لا يخشون في ذلك لومة لائم[2].

لقد روى المفسرون بأسانيدهم في تفسير قوله تعالى:﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (آل عمران:١٨١) أن أبا بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ دخل بيت المدراس بعد نزول قوله تعالى:﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة:٢٤٥)، فوجد يهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص بن عازوراء، وكان من علمائهم وأحبارهم.

فقال أبو بكر: ويلك يا فنحاص: اتق الله عز وجل وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة.

فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغني، ولو كان عنا غنيا ما استقرض منا أموالنا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنيا ما أعطانا الربا.

فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك أي عدو الله.

فذهب فنحاض إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، انظر ما فعل بي صاحبك.

فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر:(ما حملك على ما صنعت؟)، فقال أبو بكر: يا رسول الله إن عدو الله قال قولا عظيما.. إنه زعم أن الله عز وجل فقير، وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه.

([1]) رواه ابن جرير.
([2]) سنرى التفاصيل المرتبطة بتعامل رسول الله ﷺ مع اليهود في فصل (حروب) من هذه الرسالة.

فجحد ذلك فنحاص، وقال: ما قلت ذلك.

فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص ردا عليه وتصديقا لأبي بكر ــ رضي الله عنه ــ:﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) (آل عمران:١٨١)، ونزل في أبي بكر الصديق، وما بلغه في ذلك في الغضب:﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) (آل عمران:١٨٦)[1]

ورووا في تفسير قوله تعالى:﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) (الأنعام:٩١) أن رجلا من اليهود ــ يقال له مالك بن الضيف ــ جاء ومعه جماعة فخاصموا النبي ﷺ، وقالوا له: يا أبا القاسم، ألا تأتنا بكتاب من السماء كما جاء به موسى ألواحا؟

فأنزل الله عز وجل:﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً﴾ (النساء:١٥٣)، فقال له النبي ﷺ:(أنشدك الله بالذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين؟) وكان حبرا سمينا.. فغضب، وقال: والله ما أنزل الله على بشر من شئ.

فقال له أصحابه الذين معه: ويحك! ولا على موسى؟ فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شئ، فأنزل الله تعالى الآية[2].

التفت إلى نيكولاس، وقال: ها أنت ترى أن كل ما كان يجري بين محمد ﷺ هو مجرد محاورات.. وبالرغم من سلاطة لسانهم، وبالرغم من قدرته ﷺ على استئصالهم في أي لحظة، لكنه لم يفعلوا إلى أن وصل الأمر إلى الحد الذي لا يصبر عنه.. لأن الصبر عنه سيؤدي إلى زوال الأمة التي أسسها محمد ﷺ [3].

سكت قليلا، ثم قال: أما **النموذج الثالث**، فهو تعامله ﷺ مع من وقع في أخطاء كبرى من أصحابه، مما يعتبر في عصرنا خيانة عظمى.

ونختار لذلك نموذج حاطب بن أبي بلتعة.. وقصة ما وقع من خيانته حدثنا بها علي بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ قال: بعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثد والزبير وكلنا فارس، قال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين، فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ﷺ، فقلنا: الكتاب؟ فقالت: ما معنا من كتاب، فأنخناها، فالتمسنا، فلم نر كتاباً، فقلنا: ما

---

(1) رواه ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، وابن جرير عن السدي، وابن جرير عن عكرمة.
(2) رواه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، وابن جرير عن محمد بن كعب القرظي.
(3) انظر التفاصيل المرتبطة بهذا في فصل (حروب) من هذه الرسالة.

كذب رسول الله ﷺ ؛ لتخرجن الكتاب، أو لنجردنك، فلما رأت الجد، أهوت إلى حجزتها وهي محتجزة بكساء، فأخرجته، فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ فقال عمر: يا رسول الله ؛ قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه، فقال النبي ﷺ: ما حملك على ما صنعت؟ قال حاطب: والله ما بي أن لا أكون مؤمناً بالله ورسوله ﷺ، أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله، فقال ﷺ: صدق، ولا تقولوا إلا خيراً. فقال عمر: إنه قد خان الله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه، فقال: أليس من أهل بدر؟ لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ــ أو: فقد غفرت لكم ــ فدمعت عينا عمر وقال:(الله ورسوله أعلم)[1]

التفت إلى دوج، وقال: هل ترى أن المستبد يمكن أن يقف مثل هذا الموقف.

إن المستبد يقتل بمجرد الظنة والاتهام، وأنت ترى أن محمدا ﷺ مع كونه نبيا يوحى إليه لم يستدعه حتى ثبت له في الواقع وبالدليل القطعي ما صنعه.

والمستبد لا يترك الفرصة لمن يتهمه، وأنت ترى محمدا ﷺ كيف استمع له.

والمستبد أسرع الناس إلى السيف، وأنت ترى محمدا ﷺ كيف عفا عنه.

والمستبد ينكر كل جميل قدم له، وأنت ترى أن محمدا ﷺ كيف لم ينس فضل حاطب ــ مع خيانته ــ في موقفه من غزوة بدر.

وهكذا.. فهذه المواقف التي هي مجرد نماذج تحيل أن يكون في محمد ﷺ ذرة مما في نفوس المستبدين.

الناحية الاختيارية:

قال رجل من الجمع: وعينا هذه الناحية، وأدركنا مدى العدالة التي تحويها.. وأدركنا السر الذي دعا إلى عدم استشارتنا فيها.. وأدركنا مدى الحرية التي أعطيت لنا خلالها.. فحدثنا عن الناحية الثانية.

قال الحكيم: لقد نص القرآن الكريم على وجوب الشورى في هذه الناحية، وأمر بها، فقال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (الشورى:٣٨).. لقد قرن الله تعالى الشورى في هذه الآيات بأمور كلها واجبة، بل كلها من أصول الواجبات، كالصلاة والزكاة والاستجابة لله.

بل إن الله تعالى في هذه الآية الكريمة فصل بين الصلاة والزكاة مع أن العادة هي الجمع بينهما، وقد فصل بينهما بالأمر بالشورى، لأنه لا يمكن أن تؤدى الزكاة أو أي شيء له علاقة بالمجتمع إلا بعد الشورى، حتى يمحص المحتاج من غير المحتاج.

قال نيكولاس: نحن لا نتحدث عن الإسلام.. بل نتحدث عن سلوك محمد.. فقد يأمر أحد من الناس غيره بالشورى من غير أن يمارسها.

قال الحكيم: إن كان هناك أحد في الدنيا يمكن وصفه بأنه أكثر الناس استشارة لغيره، فلن يكون ذلك إلا

---

[1] رواه البخاري.

محمد ﷺ..

فمع أن الله أغناه بما يوحى إليه[1] إلا أنه كان يشاور في الصغير والكبير تنفيذا لما دعاه الله إليه في قوله تعالى:﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)(آل عمران: من الآية١٥٩) الامر) الاية (آل عمران ١٥٩).

وقد ذكر أبو هريرة ـــ رضي الله عنه ـــ كثرة استشارة النبي ﷺ لأصحابه، فقال: ما رأيت من الناس أحدا أكثر مشورة لاصحابه من رسول الله ﷺ [2].

بل إنه كان يستشيره حتى في شؤونه الخاصة، فقد روي أن قيصر أهدى لرسول الله ﷺ جبة من سندس، فاستشار أبا بكر وعمر ـــ رضي الله عنهما ـــ فقالا: يا رسول الله، نرى أن تلبسها، يكبت الله بها عدوك، ويسر المسلمين، فلبسها، وصعد المنبر فخطب وكان جميلا يتلألأ وجهه فيها، ثم نزل فخلعها، فلما قدم عليه جعفر وهبها له.

أما في الشؤون العامة، فلم يترك الشورى في أي موقف من المواقف.. بل إنه كان يتوجه بطلب الشورى للناس جميعا لا لمجلس معين، ولا لناس مخصوصين.. وفوق ذلك يتنازل في أحيان كثيرة لما يراه غيره مع مخالفته لرأيه.

ففي **غزوة بدر**، وهي أول معركة يخوضها النبي ﷺ ضد المشركين تجلت الشورى بأعمق صورها وفي جميع مجالاتها.

ففي البداية استشارهم ﷺ في دخول المعركة، وعدم دخولها [3].. ثم استشارهم في المحل الذي يترلون فيه.. ثم استشارهم فيما نتج عن المعركة من الأسرى:

أما الأول، فقد روي أنه لما علم ﷺ بخبر مسير قريش، ليمنعوا عيرهم، استشار الناس، فتكلم المهاجرون فأحسنوا، وكان منهم أبو بكر الذي قام، فقال فأحسن.

ثم قام عمر بن الخطاب فقال: إنها قريش وعزها، والله ما ذلت منذ عزت ولا أمنت منذ كفرت، والله لتقابلنك، فأهب لذلك أهبته، وأعد لذلك عدته.

ثم قام المقداد بن الاسود، فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله، فنحن معك، والله ما نقول لك كما قال قوم موسى لموسى:﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)(المائدة: من الآية٢٤)، ولكن اذهب أنت وربك، فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، عن يمينك وشمالك، وبين يديك وخلفك، والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه.

([1]) روى سعيد بن منصور ابن المنذر عن الحسن في الاية قال: قد علم الله أن ما به إليهم من حاجة، ولكن أراد ليستن به من بعده.

([2]) رواه ابن أبي حاتم والخرائطي.

([3]) ذكر الحافظ في الفتح الروايات الواردة في هذا، ثم قال: ويمكن الجمع بأن النبي ﷺ استشارهم في غزوة بدر مرتين: الاولى: وهو بالمدينة أول ما بلغه خبر العير مع أبي سفيان، وذلك بين في رواية مسلم، والثانية: بعد أن خرج كما في حديث ابن مسعود في الصحيح، وحيئذ قال سعد بن معاذ ما قال.

وقد كان بإمكان رسول الله ﷺ أن يكتفي بهذا.. فقد سكت الجميع بعد أن تكلم هؤلاء، وحصل بسكوتهم الإجماع السكوتي، وهو إجماع معتبر عند الجميع، لكن النبي ﷺ لم يكتف به، بل راح يستشيرهم، ففهمت الانصار أنه يعنيهم، فقام سعد بن معاذ ـــ رضي الله عنه ـــ فقال: يا رسول الله، كأنك تعرض بنا.

وكان ﷺ إنما يعنيهم لانهم بايعوه على أن يمنعوه من الاحمر والاسود في ديارهم، فاستشارهم ليعلم ما عندهم، فقال سعد: يا رسول الله قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض لما أردت، ولعلك يا رسول الله تخشى أن تكون الانصار ترى عليها ألا ينصروك إلا في ديارهم، وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم، فاظعن حيث شئت، وصل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لامرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان[1] لنسيرن معك، والله لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن نلقي عدونا غدا، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقربه عينك، ولعلك خرجت لأمر فأحدث الله غيره، فسر بنا على بركة الله، فنحن عن يمينك وشمالك، وبين يديك وخلفك، ولا نكونن كالذين قالوا لموسى:﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)(المائدة: من الآية٢٤)، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما متبعون)

فأشرق وجه رسول الله ﷺ، وسر بقول سعد، وحين رأى ﷺ موافقة الجميع، أعلن بدء الحرب، فقال:(سيروا على بركة الله، وأبشروا، فإن الله تعالى وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم)[2]

انتفض نيكولاس قائلا: ولكن.. ألم تسمع بأن هناك مخالفين رغبوا في العير، ولم يرغبوا في النفير.

قال الحكيم: صدقت.. لقد ذكرهم أبو أيوب، فقال: لما سرنا يوما أو يومين قال لنا رسول الله ﷺ:(ما ترون في القوم فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟)، فقلنا: والله ما لنا طاقة بقتال القوم، ولكن أردنا العير، ثم قال: ما ترون في قتال القوم؟ فقلنا مثل ذلك، وذكر الحديث فأنزل الله تعالى:﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ) (لأنفال:٥)[3]

قال نيكولاس: فكيف سار محمد إذن وخالف ما ذهب إليه هؤلاء؟

قال الحكيم: إن رسول الله ﷺ لم يفرض على أي أحد من الناس الخروج.. حتى هؤلاء الذين لم يعجبهم ذلك، لم يقهرهم رسول الله ﷺ عليه.. ولم يقل لهم بعد أن وافقت الأغلبية العظمى على الخروج: اخرجوا معي.. بل ترك لهم حرية الاختيار.. ولم يفعل ذلك في ذلك الوضع الصعب غير محمد ﷺ.

قال رجل من الجمع: عرفنا استشارته للخروج للمعركة، فكيف استشارهم في خطتها؟

([1]) وفي رواية: برك الغماد من ذي يمن.

([2]) انظر: البيهقي في الدلائل، وغيره.

([3]) رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه.

قال الحكيم: عندما ارتحل رسول الله ﷺ وحل بمكان ظن أنه المكان المناسب، جاءه رجل من عامة المسلمين، هو الحباب بن المنذر، وقال بأدب: يا رسول الله.. أرأيت هذا المترل، أمترلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال ﷺ: (بل هو الرأي والحرب والمكيدة)، فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمترل، فانهض يا رسول الله بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم ــ أي جيش المشركين ــ فنترله ونغور ــ نخرب ــ ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضًا، فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون.

فأعجب النبي ﷺ هذا الاقتراح، ونهض بالجيش إلى أقرب ماء من العدو فترل عليه، ثم صنعوا الحياض وغوروا ما عداها من الآبار.

قال رجل من الجمع: لقد سبق أن ذكرت هذا.. فكيف استشارهم فيما نتج عن الغزوة؟

قال الحكيم: أنتم تعلمون أن الله نصر المسلمين في غزوة بدر، وقد كان من مظاهر انتصار المسلمين في تلك الغزوة أن الله أمكنهم من كثير من أعدائهم الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب.. وكان في إمكان محمد ﷺ لو كان يفكر تفكير مستبد أن يبت فيهم بأمره، أو أن يقتلهم ليشفي غليله منهم، ولكنه لم يفعل.. بل استشار المسلمين في شأنهم..

روي أنه لما جيئ بالأسرى استشار رسول الله ﷺ الناس، فقال: ما ترون في هؤلاء الأسرى؟ إن الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس.

فقال أبو بكر: يا رسول الله أهلك وقومك، قد أعطاك الله الظفر ونصرك عليهم، هؤلاء بنو العم والعشيرة والاخوان استبقهم، وإني أرى أن تأخذ الفداء منهم، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم بك، فيكونوا لك عضدا.

فقال رسول الله ﷺ:(ما تقول يا بن الخطاب؟)

فقال عمر: يا رسول الله قد كذبوك وأخرجوك وقاتلوك، ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان قريب لعمر، فأضرب عنقه، وتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه حتى يضرب عنقه، حتى ليعلم الله تعالى أنه ليست في قلوبنا مودة للمشركين، هؤلاء صناديد قريش وأئمتهم وقادتهم فاضرب أعناقهم، ما أرى أن يكون لك أسرى، فإنما نحن راعون مؤلفون.

وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، انظر واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم نارا.

فدخل رسول الله ﷺ البيت، فقال أناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال أناس: يأخذ بقول عمر، وقال أناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، ثم خرج فقال:(إن الله تعالى ليلين قلوب أقوام فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله تعالى ليشد قلوب أقوام فيه حتى تكون أشد من الحجارة، مثلك يا أبا بكر في الملائكة مثل ميكائيل يترل بالرحمة، ومثلك في الأنبياء مثل إبراهيم قال:﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(ابراهيم: من الآية٣٦)، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى بن مريم إذ قال:﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة:١١٨)، ومثلك يا عمر في الملائكة مثل جبريل يترل بالشدة والبأس

والنقمة على أعداء الله تعالى، ومثلك في الأنبياء مثل نوح إذ قال:﴿ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾(نوح: من الآية٢٦)، ومثلك في الأنبياء مثل موسى، إذ قال:﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾(يونس: من الآية٨٨)، لو اتفقتما ما خالفتكما، أنتم عالة فلا يفلتن منكم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق)

فقال عبد الله بن مسعود: يا رسول الله إلا سهيل ابن بيضاء، فإني سمعته يذكر الاسلام، فسكت رسول الله ﷺ فقال عبد الله: فما رأيتني في يوم أخاف أن تقع علي الحجارة من السماء مني في ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ:(إلا سهيل بن بيضاء)

فلما كان من الغد غدا عمر إلى رسول الله ﷺ، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر، وهما يبكيان، فقال: يارسول الله ما يبكيكما؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإلا تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ:(إن كاد ليمسنا في خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم، ولو نزل العذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب، لقد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة) لشجرة قريبة منه، وأنزل الله تعالى:﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لأنفال:٦٧)[1]

بل قد ورد في الحديث أن النبي ﷺ استشار من الصحابة بعدد الأسرى، فعن علي قال: قال رسول الله ﷺ في أسارى يوم بدر: (إن شئتم قتلتموهم، وإن شئتم فاديتموهم واستمتعتم بالفداء، واستشهد منكم بعدتهم)، قال: فكان آخر السبعين ثابت بن قيس، قتل يوم اليمامة[2].

سكت قليلا، ثم قال: وفي **غزوة أحد** شاور النبي ﷺ أصحابه، ونزل عن رأيه إلى رأى أكثريتهم، مخالفا لرأيه، مع أنهم تنازلوا بعد ذلك عما ذهب إليه من رأي مراعاة لرأي رسول الله ﷺ.

فقد روي أنه لما قصد أبو سفيان وأصحابه المدينة يريدون حرب رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: (إني رأيت في المنام سيفي ذا الفقار انكسر، وهي مصيبة[3]، ورأيت بقرا تذبح، وهي مصيبة، ورأيت علي درعا وهي مدينتكم لا يصلون إليها، إن شاء الله تعالى)[4]

وبعد أن قص عليهم ما رأى من الرؤيا قال لهم: إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة، ونجعل النساء والذرية في الآطام، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن دخلوا علينا قاتلناهم في الأزقة فنحن أعلم بها منهم، ورموا من فوق الصياصي والآطام)، وكانوا قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية فهي كالحصن.

وكان هذا الذي ذكره رسول الله ﷺ رأي الاكابر من المهاجرين والأنصار، وكان عبد الله بن أبي المنافق

([1]) هذا نص مرويات مختلفة رواها أحمد عن أنس، وابن مردويه عن أبي هريرة، وابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه، وابن المنذر، والطبراني، وغيرهم، عن ابن مسعود، وابن مردويه، عن ابن عباس، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم، عن ابن عمر.

وانظر تفاصيل موقف الإسلام من الأسرى، وسلوك رسول الله ﷺ نحوهم في فصل (حروب) من هذه الرسالة.

([2]) رواه البيهقي والحاكم وقال: على شرط الشيخين.

([3]) روى البيهقي عن ابن شهاب قال: يقول رجال: كان الذي رأى بسيفه الذي أصاب وجهه.

([4]) رواه الطبراني والبزار.

يرى رأي رسول الله ﷺ.

لكن جماعة من المسلمين غالبهم أحداث لم يشهدوا بدرا، وطلبوا الشهادة وأحبوا لقاء العدو، وأكرمهم الله تعالى بالشهادة يوم أحد قالوا: يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبنا عنهم، فقال عبد الله بن أبي: يا رسول الله أقم بالمدينة، ولا تخرج، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا بشر مجلس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم الصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا.

فقال حمزة بن عبد المطلب، وسعد بن عبادة، والنعمان بن مالك في طائفة من الأنصار: إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج إليهم جبنا عن لقائهم، فيكون هذا جرأة منهم علينا، وقد كنت يوم بدر في ثلاثمائة رجل، فظفرك الله تعالى عليهم، ونحن اليوم بشر كثير، قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله تعالى به، فساقه الله تعالى إلينا في ساحتنا.

وقال إياس بن أوس بن عتيك: نحن بنو عبد الأشهل، إنا لنرجو أن نكون البقر المذبح.

وقال غيره: هي إحدى الحسنيين: الظفر أو الشهادة، والله لا تطمع العرب في أن تدخل علينا منازلنا.

وقال حمزة: والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاما حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة.. وكان يوم الجمعة صائما ويوم السبت صائما.

وقال النعمان بن مالك: يا رسول الله لا تحرمنا الجنة، فوالذي نفسي بيده لأدخلنها، فقال رسول الله ﷺ:(لم؟) قال: لأني أحب الله تعالى ورسوله، ولا أفر يوم الزحف، فقال رسول الله ﷺ:(صدقت)[1]

وحث مالك بن سنان الخدري وإياس بن عتيك وجماعة على الخروج للقتال.

فلما رأى ﷺ رغبتهم في القتال خارج المدينة، صلى ﷺ الجمعة بالناس ـــ وكان ذلك اليوم يوم جمعة ـــ ثم وعظهم، وأمرهم بالجد والاجتهاد، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا، ففرح الناس بالشخوص إلى عدوهم، وكره ذلك المخرج بشر كثير.

ثم صلى رسول الله ﷺ العصر بالناس وقد حشدوا، وحضر أهل العوالي، ورفعوا النساء في الآطام.

ودخل رسول الله ﷺ بيته ومعه أبو بكر وعمر ـــ رضي الله عنهما ـــ فعمماه وألبساه، وقد صف الناس له بين حجرته إلى منبره، ينتظرون خروج رسول الله ﷺ، فجاء سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، فقالا للناس: استكرهتم رسول الله ﷺ، وقلتم له ما قلتم، والوحي يترل عليه من السماء، فردوا الأمر إليه، فما أمركم به فافعلوه، وما رأيتم له فيه هوى ورأيا فأطيعوه.

فبينما هم على ذلك إذ خرج رسول الله ﷺ وقد لبس الدرع فأظهرها، وحزم وسطه بمنطقة من حمائل سيف من أدم، واعتم، وتقلد السيف.

وندم الناس على إكراهه، فقالوا: يا رسول الله استكرهنا، ولم يكن لنا ذلك، فإن شئت فاقعد، فقال رسول الله ﷺ:(قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم، ولا ينبغي لنبي إذ لبس لامته أن يضعها، حتى يحكم الله

([1]) وقد استشهد يومئذ ـــ رضي الله عنه ـــ

بينه وبين أعدائه.. انظروا ما أمركم به فاتبعوه، امضوا على اسم الله تعالى، فلكم النصر ما صبرتم)[1]

التفت الحكيم إلى نيكولاس، وقال: ها أنت ترى رسول الله ﷺ كيف يتنازل في هذا الأمر الخطير إلى رأي أصحابه مع يقينه بما لرأيه من مصداقية.

بل إنك ترى كيف أنه ــ مع تنازلهم عن آرائهم لرأيه ــ لم يتحين الفرصة، فيمضي رأيه.

سكت قليلا، ثم قال: وفي **غزوة الأحزاب** تلك الغزوة التي تعرض فيها المسلمون إلى أخطر ما تعرضوا له.. فقد كادت الأحزاب تستأصلهم.. أراد رسول الله ﷺ مصالحة غطفان لما بلغه نقض بني قريظة العهد.

وقد أرسل ــ لأجل ذلك ــ إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف، وهما قائدا غطفان، فلما جاءا في عشرة من قومهما قال لهما رسول الله ﷺ:(أرأيتما إن جعلت لكما ثلث تمر المدينة أترجعان بمن معكما، وتخذلان بين الأعراب؟)، فقالا: تعطينا نصف تمر المدينة، فأبى رسول الله ﷺ أن يزيدهما على الثلث، فرضيا بذلك، فأحضر رسول الله ﷺ الصحيفة والدواة، وأحضر عثمان بن عفان، فأعطاه الصحيفة، وهو يريد أن يكتب الصلح بينهما، وعباد بن بشر قائم على رأس رسول الله ﷺ، مقنع في الحديد، فأقبل أسيد بن حضير إلى رسول الله ﷺ، ومعه الرمح، ولا يدري بما كان من الكلام، فلما جاء إلى رسول الله ﷺ، وعيينة بن حصن ماد رجليه بين يدي رسول الله ﷺ، وعلم ما يريدون قال: يا عين الهجرس اقبض رجليك، أتمدهما بين يدي رسول الله ﷺ؟ والله لولا رسول الله ﷺ لقتلتك بهذا الرمح!

ثم أقبل على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إن كان أمرا من السماء فامض له، وإن كان غير ذلك، فوالله لا نعطيهم إلا السيف، متى طمعوا بهذا منا؟

فسكت رسول الله ﷺ، فدعا سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، فاستشارهما في ذلك وهو متكئ عليهما، والقوم جلوس، فتكلم بكلام يخفيه، وأخبرهما الخبر.

فقالا: يا رسول الله، إن كان الأمر من السماء فامض له، وإن كان أمرا لم تؤمر به ولك فيه هوى فامض له سمعا وطاعة، وإن كان إنما هو الرأي فما لهم عندنا إلا السيف.

وأخذ سعد بن معاذ الكتاب، فقال رسول الله ﷺ:(إني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما)

فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله تعالى ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة واحدة إلا قرى أو بيعا، أفحين أكرمنا الله تعالى بالاسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا!؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

فقال رسول الله ﷺ: أنت وذاك.

فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا[1].

([1]) رواه ابن عتبة وابن إسحاق وابن سعد وغيرهم.

سكت قليلا، ثم قال: وفي **حصاره الطائف**.. وبعد أن مضت خمس عشرة من حصارها، استشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلي، فقال:(يا نوفل ما ترى في المقام عليهم)، فقال: يا رسول الله ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك[2].

وقد أخذ رسول الله ﷺ برأيه، ومر الناس بالرجوع.

قال ذلك، ثم التفت إلى نيكولاس، وقال: ها أنت ترى أن محمدا ﷺ لا يبت أمرا من أمور الحرب، والتي هي أخطر الأمور، إلا استشار فيه، بل يتنازل عن رأيه لما يراه غيره.. فهل يمكن لمستبد أن يفعل مثل هذا؟

سكت قليلا، ثم قال: لم يقتصر الأمر على الحرب.. بل تعداه إلى غيرها مما له علاقة بالدين نفسه.

لا شك أنك تعرف الأذان الذي يؤذن به المسلمون لصلاتهم.

قال نيكولاس: أجل.. وكيف لا أعرفه.. وهو لا يزال يدفع الناس إلى الدين دفعا!؟

قال الحكيم: فهذا الأذان كان من بركات استشارة رسول الله ﷺ لأصحابه، فقد روي[3] أن رسول الله ﷺ حين قدم المدينة كان يجمع للصلاة حين مواقيتها بغير دعوة، فلما كثر الناس اهتم النبي ﷺ كيف يجمع الناس للصلاة؟ فاستشار الناس.

وكان من المقترحات التي اقترحت عليه أن قيل له: انصب راية عند حضور الصلاة إذا رأوها أعلم بعضهم بعضا.

وكان منها القنع [4] (يعني شبور اليهود)[5]، فلم يعجبه ذلك وقال:(هو من أمر اليهود)

([1]) رواه ابن إسحق وغيره، وقد روي أن غطفان هي التي طلبت المصالحة، فقد روى البزار والطبراني عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: جاء الحارث إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد ناصفنا تمر المدينة وإلا ملأتها عليك خيلا ورجالا، فقال: حتى أستأمر السعود: سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ، وسعد بن الربيع، وسعد بن خيثمة، وسعد بن مسعود، فكلمهم رسول الله ﷺ في ذلك، فقالوا: لا، والله ما أعطينا الدنية في أنفسنا في الجاهلية، فكيف وقد جاء الله تعالى بالاسلام، فرجع إلى الحارث فأخبره، فقال: غدرت يا محمد.

([2]) رواه محمد بن عمر، وانظر تفاصيل الحصار والحكمة من الرجوع في فصل (حروب) من هذه الرسالة.

([3]) هذه الأحداث مجموعة من نصوص مختلفة رواها البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن ابن عمر، وابن إسحاق، وإسحاق بن راهويه، وأبو داود بسند صحيح عن محمد بن عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه، عن أبيه، وأبو داود بسند صحيح عن ابن عمر عن أنس بن مالك عن عمومة له من الأنصار، وإسحاق بن راهويه عن الشعبي مرسلا بسند حسن، وعبد الرزاق وأبو داود عن عبيد ابن عمير أحد كبار التابعين، وابن أبي شيبة، وأبو داود، وابن خزيمة، وأبو الشيخ، والدارقطني، والبيهقي، والطحاوي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى.

([4]) فسر في الحديث أنه الشبور، وهو البوق، هذه اللفظة قد اختلف في ضبطها، فرويت بالباء والتاء، والثاء والنون، وأشهرها وأكثرها النون، قال الخطابي: سألت عنه غير واحد من أهل اللغة فلم يثبتوه لي على شئ واحد، فإن كانت الرواية بالنون صحيحة فلا أراه سمي إلا لإقناع الصوت به، وهو رفعه، يقال: أقنع الرجل صوته ورأسه إذا رفعه.

ومن يريد أن ينفخ في البوق يرفع رأسه وصوته..قال الزمخشري: أو لأن أطرافه أقنعت إلى داخله: أي عطفت، وقال الخطابي: وأما (القبع) بالباء المفتوحة فلا أحسبه سمي به إلا لأنه يقبع فم صاحبه: أي يستره، أو من قبعت الجوالق والجراب: إذا ثنيت أطرافه إلى داخل.(انظر: النهاية ٤ / ١١٥ – ١١٦)

([5]) الشبور: هو البوق، انظر النهاية ٢ / ٤٤٠.

وكان منها الناقوس فقال:(هو من أمر النصارى)

وكان منها أن قالوا: لو رفعنا نارا، فقال:(ذلك للمجوس)

فقال عمر: أولا تبعثون رجلا ينادي بالصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ:(يا بلال قم فناد بالصلاة)

فانصرف عبد الله بن زيد، وهو مهتم لما اهتم له رسول الله ﷺ، فأري الأذان في منامه، قال: طاف بي وأنا نائم رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسا في يده فقلت له: يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قال: قلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟ قلت: بلى، فقال: تقول:(الله أكبر، الله أكبر، أشهد ألا إله إلا الله، أشهد أن محمدا رسول الله، أشهد أن محمد رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله)

قال: ثم استأخر عني غير بعيد، ثم قال: تقول إذا أقيمت الصلاة: الله اكبر، الله أكبر، أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله.

فلما أصبحت أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما رأيت، ولولا أن يقول الناس، لقلت إني كنت يقظانا غير نائم.

وقد أري نفس الرؤيا عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ ولكنه قال: إذا أصبحت أخبرت رسول الله ﷺ، وأما الأنصاري فطرق رسول الله ﷺ ليلا، فأخبره.

فقال رسول الله ﷺ:(إنها لرؤيا حق إن شاء الله تعالى)، ثم قال له:(لقد أراك الله خيرا، فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت)، وفي رواية:(فمر بلالا فليؤذن، فإنه أندى منك صوتا) فقمت مع بلال فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به.

فسمع عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ فخرج يجر رداءه وهو يقول:(والذي بعثك بالحق يا رسول الله، لقد رأيت مثل الذي رأى)[1]

هنا انتفض نيكولاس، وكأنه وجد فريسة يريد أن يصطادها، وقال: على ذكر عمر.. لقد سمعت بما لهذا الرجل مما تسمونه موافقات، وأنا أسميه تأسيسات، فالرجل كان يملي على نبيكم ما يفعله.

ابتسم الحكيم، وقال: عجبا لكم.. عجبا لكم.. لقد كنت قبل حين تتهم محمدا بالاستبداد، وأنه يملي عليهم، فلا يجدون إلا أن ينفذوا ما يملى عليهم.

قال نيكولاس: فاعتبرني مخطئا في ذلك، وأجبني عن هذه الشبهة[2].

---

(1) وفي حديث أبي عمير بن أنس أن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ كان رآه فكتمه عشرين يوما.

وفي حديث عبيد بن عمير:« فبينما عمر بن الخطاب يريد أن يشتري خشبتين للناقوس إذ رأى في المنام:(لا تجعلوا الناقوس بل أذنوا)، فذهب عمر ليخبر النبي ﷺ بالذي رأى، وقد جاء الوحي فما راع عمر إلا بلال يؤذن.

قال عبد الله بن زيد: فقال رسول الله ﷺ لعمر:(ما منعك أن تخبرني؟)، فقال: سبقني عبد الله بن زيد فاستحييت. رواه أبو داود.

(2) هذه الشبهة من الشبه الخطيرة الكثيرة التي يترنم بها المبشرون والمستشرقون.

قال الحكيم: إن ما روي من موافقات عمر ــ رضي الله عنه ــ لا يدل إلا على شيء واحد.

قال نيكولاس: هو ما قصدته لك من اشتراكه مع محمد في تأسيس الدين.

قال الحكيم: لا.. إنه يدل على أنه تلميذ نجيب استوعب الدروس التي يلقيها عليه أستاذه محمد ﷺ، فراح بما له من فطرة نقية، وذكاء حاد، وإدراك لمقاصد الإسلام يتحدث بما يعتبر سبقا، وليس في الحقيقة إلا نتيجة لمقدمات عرفها من الإسلام.

قال نيكولاس: لم أفهم ما تقصد.

قال الحكيم: ألا ترى الأستاذ العبقري الذي يقدم لتلاميذه جميع المقدمات العلمية التي يحتاجونها يتيح لهم بعد ذلك الفرصة ليستنتجوا من المقدمات ما يرونه من نتائج؟

قال نيكولاس: ذلك صحيح.

قال الحكيم: فهذا هو التفسير الوحيد لتلك الموافقات.. فهي لا تدل إلا على العبقرية التي كان يمارس بها محمد ﷺ وظيفته التعليمية[1].

سكت قليلا، ثم قال: سأذكر لك بعض النماذج عن تلك الموافقات لترى انسجامها مع ما ذكرته لك.. وهي بعد ذلك من الأدلة التي تنقض ما رميت به نبينا من استبداد.

من تلك الموافقات، قوله: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فترلت:﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً ﴾(البقرة: من الآية١٢٥)

أتدري ما الدرس الذي حفظه عمر ــ رضي الله عنه ــ والذي جعله ينطق بهذا قبل أن يترل حكمه.

قال نيكولاس: ما هو؟

قال الحكيم: لقد علم ارتباط المناسك الشرعية بآثار الخليل إبراهيم عليه السلام.. فكل مناسك الحج مرتبطة به من الصفا والمروة وعرفة والطواف بالبيت وغيرها.. ثم رأى أن المقام خال من أي شعيرة، فلذلك ذكر هذا.. وكان ما ذكره عين ما كان سيترل على رسول الله ﷺ.. فعمر هو الذي وافق الله.. لا الله هو الذي وافق عمر[2].

سكت قليلا، ثم قال: ومن تلك الموافقات قوله: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن، فترلت آية الحجاب.

أتدري ما الدرس الذي حفظه عمر ــ رضي الله عنه ــ والذي جعله ينطق بهذا؟

سكت نيكولاس، فقال الحكيم: لقد رأى عمر ــ رضي الله عنه ــ حرص الإسلام على العفاف، وعلى تحصين المجتمع من كل ما يقرب من الفواحش، فلذلك ذكر هذا، ووافق به ما أتى به الحكم الشرعي.

أو أن المجتمع ترقى إلى أن يتقبل هذا الحكم الشرعي، فترل هذا الحكم، فالأحكام الشرعية تراعي التدرج

([1]) سنرى التفاصيل المرتبطة بهذه الوظيفة في رسالة (النبي المعلم) من هذه السلسلة.

([2]) وهذا سر تعبير عمر ــ رضي الله عنه ــ عن موافقاته بأنه وافق ربه، فقد روى أبو داود الطيالسي، وابن أبي حاتم وابن مردوية وابن عساكر عن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ قال: وافقت ربي في أربع.. وغيرها من النصوص.

حرصا على عدم التشديد الذي قد يؤدي إلى النفور.

قال نيكولاس: لقد وعيت هذا، وتقبلته، ولكن ألا ترى نبيكم يستشير الرجل فقط، ولا يعتبر النساء.. ألستم تقولون:(شاوروهن وخالفوهن)[1]؟

ابتسم الحكيم، وقال: إن كان أحد من الناس قال هذا، فإن محمدا ﷺ لم يقله.. وكيف يقوله، وهو الذي لم يفرق بين رجل وامرأة في أي شيء؟

وكيف يقوله، وقد كان ﷺ يستشيرهن، ويقبل مشورتهن، ففى (الحديبية) شاور أم سلمة في امتناع أصحابه عن التحلل من إحرامهم بعد الصلح، فقد عز عليهم ذلك بعد نية العمرة، فأشارت عليه أم سلمة أن يخرج إليهم، ويتحلل من إحرامه أمامهم دون أن يتكلم، فما أن رأوه فعل ذلك، حتى بادروا إلى الاقتداء به.

سكت نيكولاس، فقال الحكيم: وأزيدك شيئا ــ قد لا يستطيع عقلك أن يهضمه، ولكني أقوله لتعرف شمول الشورى التي كان يمارسها رسول الله ﷺ ــ فقد روي في الحديث أن رسول الله ﷺ قال:(إن الله سبحانه تعالى أرسل إلي ملكا من الملائكة حجزته تساوي الكعبة، ما هبط على نبي قبلي، ولا يهبط على أحد بعدي، وهو إسرافيل عليه السلام، فقال: (السلام عليك يا محمد، إن ربك يقرئك السلام، أنا رسول ربك إليك، أمرني أن أخيرك: إن شئت نبيا عبدا، وإن شئت نبيا ملكا)، فنظرت إلى جبريل عليه السلام كالمستشير، فأشار إلي جبريل بيده، أن تواضع، فقلت، (بل نبيا عبدا، يا عائشة لو قلت: نبيا ملكا، ثم شئت لسارت معي الجبال ذهبا)، قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يأكل متكئا ويقول: (آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد)[2]

ومثل ذلك ما روي في معراجه من قبوله لما اقترحه موسى عليه السلام من أمر الصلاة.

بعد أن لم يجد نيكولاس ما يعترض به على الشورى التي كان يمارسها رسول الله ﷺ في جمع المجالات راح يقول: ولكن ممارسة الشورى وحدها لا تنفي الاستبداد، فقد يشاور المستبد مستبدين مثله، فيمارس من خلالهم ما تهواه نفسه من الاستبداد.

قال الحكيم: صدقت في هذا.. جزاك الله خيرا..

كان لهذا الدعاء تأثيره الشديد في نفس نيكولاس الذي أشرق وجهه بعد أن كان كالحا.

واصل الحكيم حديثه يقول: نعم.. لقد ذكر القرآن الكريم أن المستبدين قد يتخذون وزراء يعينونهم على استبدادهم.. وقد ذكر القرآن من نماذج ذلك فرعون الذي قال له ملؤه الذين كانوا مستشاريه:﴿ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾(لأعراف: من الآية١٢٧)

---

(1) روي هذا الحديث، وهو موضوع باتفاق المحدثين، ومثله ما روي عند العسكري من حديث حفص بن عثمان بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر قال: قال عمر: خالفوا النساء، فإن في خلافهن البركة، بل يروى في المرفوع من حديث أنس: لا يفعلن أحدكم أمراً حتى يستشير، فإن لم يجد من يستشير، فليستشر امرأة، ثم ليخالفها، فإن في خلافها البركة، وقد أخرجه ابن لال، ومن طريقه الديلمي من حديث أحمد بن الوليد الفحام، حدثنا كثير بن هشام، حدثنا عيسى بن إبراهيم الهاشمي عن عمر بن محمد عنه به، وعيسى ضعيف جداً مع انقطاع فيه. (انظر: تذكرة الموضوعات: ١٢٨)

(2) رواه أبو نعيم وابن عساكر من طرق عن ابن عباس موقوفا، وابن سعد عن عائشة، وأبو نعيم عن ابن عمر مرفوعا.

قال نيكولاس: فأنت توافقني فيما أقول إذن؟

قال الحكيم: لو وافقتك حقائق التاريخ لوافقتك.. فهلم جميعا نسأل التاريخ عن موقف رسول الله ﷺ من العدالة التي هي نقيض الاستبداد[1].

لقد ذكر رسول الله ﷺ سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، أتدري من أولهم؟

سكت نيكولاس، فقال الحكيم: لقد ذكره رسول الله ﷺ فقال:(إمامٌ عادلٌ)، وذكر ﷺ (أن المقسطين عند الله على منابر من نورٍ: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا)[2]، فأنت ترى رسول الله ﷺ كيف يعمم معنى العدالة لتشمل كل شيء.

وأخبر ﷺ أن أهل الجنة ثلاثةٌ: ذو سلطانٍ مقسطٌ موفقٌ، ورجلٌ رحيمٌ رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلمٍ، وعفيفٌ متعففٌ ذو عيالٍ[3].

فهل يمكن لنبي يدعو إلى مثل هذا، ويأمر بمثل هذا أن يجور!؟

سكت نيكولاس، فقال الحكيم: شيء آخر كان يفعله ﷺ كثيرا، وهو دليل من دلائل انتقاض ما ترميه به من استبداد، وهو تخييره ﷺ لرعيته بين الاحتمالات المختلفة، ثم قبول ما تختاره منها، أو يترك لكل شخص ما اختاره منها.

وسأقتصر لك من التاريخ مثلين أختم بهما:

أما الأول، فهو أنه ﷺ لما غنم غنائم بني النضير دعا ثابت بن قيس بن شماس، فقال: ادع لي قومك، قال ثابت: الخزرج يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ:(الانصار كلها)، فدعا له الأوس والخزرج، فتكلم رسول الله ﷺ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكر الانصار وما صنعوا بالمهاجرين وإنزالهم إياهم في منازلهم وإيثارهم على أنفسهم، ثم قال:(إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين مما أفاء الله تعالى علي بن بني النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم)

فتكلم سعد بن عبادة وسعد بن معاذ ــ رضي الله عنهما ــ وجزاهما خيرا، فقالا:(يا رسول الله بل تقسمه بين المهاجرين، ويكونون في دورنا كما كانوا)

ونادت الانصار ــ رضي الله عنهم وجزاهم خيرا ــ: رضينا وسلمنا يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ:(اللهم ارحم الانصار، وأبناء الانصار)[4]

وقد نزل في ذلك قوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْأِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ

([1]) سنرى التفاصيل المرتبطة بعدالة النبي ﷺ في الرسالة التالية لهذه الرسالة، وهناك رسالة خاصة بعدالة الإسلام.

([2]) رواه مسلم.

([3]) رواه مسلم.

([4]) فقسم رسول الله ﷺ ما أفاء الله تعالى عليه، وأعطى المهاجرين، ولم يعط أحدا من الانصار من ذلك الفئ شيئا إلا رجلين كانا محتاجين: سهل بن حنيف وأبا دجانة، وأعطى سعد بن معاذ رضي الله عنه سيف بن أبي الحقيق، وكان سيفا له ذكر عندهم.

الْمُفْلِحُونَ) (الحشر:٩)

أما النموذج الثاني فإنه بعد غزوة هوازن، وبعد أن أراد رسول الله ﷺ أن يرد السبي إلى أهله عرض على الناس المسألة، وخيرهم في ذلك، فعن المسور ومروان: أن رسول الله ﷺ قام في المسلمين، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:(أما بعد فان إخوانكم قد جاءونا تائبين، وإني قد رأيت أن أراد عليهم سبيهم، فمن أحب أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول فئ يفيئه الله علينا فليفعل)، فقال الناس: قد طبنا ذلك يا رسول الله، فقال لهم رسول الله ﷺ:(إنا لا ندري من أذن منكم ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم)، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم[1].

قال ابن إسحاق: وقال رسول الله ﷺ:(أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم)، فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لله ولرسوله، وقالت الانصار: وما كان لنا فهو لله ولرسوله.

فقال الاقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا.

وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا.

وقال العباس بن مرداس: أما أنا وبنوا سليم فلا.

فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال العباس بن مرداس: وهنتموني، فقال رسول الله ﷺ:(من كان عنده منهن شئ فطابت نفسه أن يرده فسبيل ذلك، ومن أمسك منكم بحقه فله بكل إنسان ست فرائض من أول فئ يفيئه الله)، فرد المسلمون الى الناس نساءهم وأبناهم، و لم يتخلف منهم أحد غير عيينة بن حصن فإنه أخذ عجوزا فأبى أن يردها.

***

بعد أن انتهى الحكيم من حديثه لم يجد (نيكولاس إيلمنسكي) ما يقوله.. ولذا سار مطأطئ الرأس، متغير الوجه، خارج ميدان الحرية ليترك الجماعة ملتفة حول الحكيم تسأله ويجيبها..

التفت إلى أصحابنا المستغرقين في مشاهدة ما حصل في ساحة الحرية.. فرأيت وجوههم كالحة عابسة عليها غبرة ترهقها قترة.

أما أنا.. فقد تترلت علي حينها أنوار جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

([1]) رواه البخاري.

ثالثا ـــ استكبار

في مساء اليوم الثالث.. وفي دار الندوة الجديدة.. دخل (روبرتو كالديرولي)[1].. الرجل الذي احترق في أتون الشيوعية إلى أن ذاب فيها، وذابت فيه.. فصار وكأنه يمثلها، وصارت وكأنها تمثله.. ولكنه جاء بغير الصورة التي ذهب بها.

لقد رأيته عندما ذهب صباحا إلى ميدان الحرية نشيطا، يختال في مشيته جذلا، وكأنه يحمل المدفع الذي يقضي به على ما عجز غيره أن يقضي عليه.

وكان يسير، وهو يردد الآيات التي يريد أن يلقي بقنابلها على الجمع.. ويحفظ معها الروايات التي تقضي على ما تبقي.

لقد ذهب بذلك النشاط في الصباح.. ولكنه عاد خائر القوى في مساء ذلك اليوم.. فابتدرته الجماعة قائلة: ما الذي فعلت!؟.. ما نسبة نجاحك!؟.. هل هناك نتائج إيجابية!؟

نظر إليهم بابتسامة ذابلة، وقال: ربما.. طبعا.. لولا ذلك الرجل الذي يدعونه حكيما لكانت كل النتائج إيجابية.. لكن.. مع ذلك.. لا يمكن.. حتما.

وضع رجل من الجماعة يده على رأس روبرتو، فوجد الحمى بدأت تتسرب إليه، فالتفت إلى الجماعة، وقال: لا ينفع استجواب صاحبنا، فقد دبت إليه حمى شديدة.. ولن نسمع من محموم إلى الهذيان.

أخذ أخي القرص.. ووضعه في القارئ.. وبدأ شريط الأحداث:

رأينا روبرتو يجتمع إلى نفر من الناس في ميدان الحرية، ثم يخاطبهم قائلا: هل تعرفون محمدا؟

قال رجل من الجمع: وكيف لا نعرفه؟.. ومن لا يعرفه؟

وقال آخر: إن كان لديك حديث عنه، فحدثنا، فلا تحلو المجالس إلا بذكره، ولا تتعطر الأيام إلا بذكراه.

هنا صاح روبرتو كالثور الهائج قائلا: كيف تقولون هذا؟.. إن محمدا هذا الذي سلب عقولكم لا يعدو

([1]) أشير به إلى وزير الإصلاح الإيطالي المتطرف (روبرتو كالديرولي) الذي ارتدى بصورة استفزازية قمصانًا مطبوع عليها الرسوم الكاريكاتيرية المسيئة للنبي ﷺ في خطوة استفزازية وتحدٍ سافر للمسلمين، بعدما دعا قبل أيام لشن 'حملة صليبية' ضد الإسلام.

ونقلت وكالة أنباء (أنسا) الإيطالية عن (كالديرولي) ـــ عضو حزب رابطة الشمال المعادي للأجانب، وخصوصًا المسلمين ـــ قوله:(لدي قميص مطبوعة عليه الرسوم التي أزعجت الإسلام، وسوف أبدأ في ارتدائها اليوم)

وأضاف الوزير المتطرف أن على الغرب أن يقف ضد من أسماهم (المتطرفين الإسلاميين)، على حد وصفه، وعرض أن يقدم القمصان لأي شخص يريدها، وزعم أن القمصان ليس المقصود بها الاستفزاز.

وواصل كالديرولي ادعاءاته قائلاً: علينا أن نضع حدًا لهذه الرواية، بأننا يمكن أن نتحدث مع هؤلاء الناس، إنهم يريدون فقط إذلال أشخاص، وهذا كل ما هنالك، وماذا نصبح الآن، حضارة الزبدة المنصهرة،.

يشار إلى أن الوزير الإيطالي المتطرف والمعروف بحملاته ضد المسلمين كان قد دعا إلى استخدام القوة ضد المسلمين، وطالب بتدخل بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر لتنظيم حملة صليبية جديدة ضد الإسلام.

وحزب رابطة الشمال الذي ينتمي إليه كالديرولي معروف بمعاداتها للأجانب والمسلمين، وقد سعى لاستثمار جريمة الصحف الغربية في التطاول على محمد ﷺ لترويج البرنامج اليميني المتطرف للحزب، قبل شهرين من الانتخابات التشريعية في إيطاليا.

أن يكون مستكبرا من المستكبرين العظام الذين تشوه بهم تاريخ الإنسانية.. إنه عدو الفقراء والمستضعفين.. إنه ذلك البرجوازي الذي أراد أن تظل البروليتاريا تقدم خدماتها للرأسماليين النفعيين.. إنه الذي سقى المستضعفين الأفيون الذي تخدروا به، فانمحوا أمام المستكبرين.

ظهر الغضب على كثير من أفراد الجماعة، لكنهم لم يجدوا أن يفعلوا شيئا، فهذا الميدان يسمح لكل أحد أن يقول ما يشاء، ويعتبر مجرما كل من مس أحدا بأذى من أجل فكرة يطرحها.

هنا ظهر الحكيم، وصاح من بعيد في زميلنا (روبرتو) قائلا: لقد طرحت دعاوى عريضة.. ربما لم تسبق إليها.. ونحن نحترم دعاواك ولا نتهمك فيها.. ولكنا لن نقبلها منك حتى تعطينا من البينات ما يدل عليها فـــ:

الدعاوى إن لم تقيموا عليها بينات أبناؤها أدعياء

لم يعجب روبرتو الأسلوب الذي تحدث به الحكيم، فقد كان يحب الثورة، ولم يكن يعرف الانتصار إلا بالثورة، لكنه قال بهدوء متكلف: نعم.. لدي بينات.. وبينات كثيرة لا يمكن لهذا الجمع أن يستوعبها.

وسأبدأ من القرآن نفسه.. فخير من عرف بمحمد هو القرآن..

لقد جاء فيه هذا العتاب الشديد على ميل محمد إلى المستكبرين وهجره للمستضعفين:﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ (عبس:١ ـــ ١٠)

فهذه الآيات تتحدث عن قصة محمد مع ابن أم مكتوم، وقد ذكر كل المفسرين أن محمدا كان يوماً يخاطب بعض عظماء قريش، وقد طمع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم، وكان ممن أسلم قديماً، فجعل يسأل محمدا عن شيء ويلح عليه.. ولم يجد محمد إلا أن يعرض عنه.. أن يعرض عن ذلك المستضعف ليقبل على غيره من المستكبرين.

أليس في هذا أعظم دليل على استكبار محمد؟

قال الحكيم: أرأيت لو كنت في ذلك الموقف ماذا كنت ستصنع؟

قال روبرتو: لا شك أني أقبل على المستضعف.. وأصفع ذلك المستكبر.

قال الحكيم: ألا ترى أنك ـــ بذلك ـــ تمارس عنصرية مقيتة؟

قال روبرتو: عندما أميل إلى المستكبر تكون العنصرية.. لا عند ميلي للمستضعف.

قال الحكيم: كلاهما سواء.. المستكبر والمستضعف بشران.. وكلاهما يحتاج إلى التعرف على الحق.. بل إن حاجة المستكبر أشد، فقد يكون الحائل بينه وبين الحق شبهة أو شهوة أو جهل.. وإقبالك عليه قد يداويه من كل ذلك.

قال روبرتو: ولكني لن أفعل أبدا مثل محمد.. لن أترك المستضعف من أجل المستكبر.

قال الحكيم: إن محمدا لم يترك المستضعف.. وإنما طمع في المستكبر.

لقد كان يعلم أن المستضعف من أتباعه، وأنه ـــ لذلك ـــ يمكنه أن يتعلم منه في أي وقت.. أما المستكبر، فلم يكن من أتباعه، ولذلك لا مطمع في سماعه منه إلا الفينة بعد الفينة.

قال روبرتو: فلم عاتب ربكم محمدا إذن؟

قال الحكيم: العتاب الموجه لمحمد ﷺ هو في حقيقته توبيخ لذلك المستكبر.. فهو توبيخ لبس لباس عتاب.. ولم يكن العتاب مقصودا لذاته.

قال روبرتو: لم أفهم.

قال الحكيم: أرأيت لو أنك جلست مع أحمق تريد أن تقنعه بشيء، وهو يجادلك فيه.. فجاءك صديق، وقال لك ــ وذلك الأحمق يسمع ــ:(لم تضيع وقتك في الحديث مع مثل هذا.. إن الحديث مع هذا مضيعة للوقت)

هل ترى في كلامه عتابا لك، أم تراه توبيخا لذلك الأحمق؟

قال روبرتو: أرى فيه كليهما.

قال الحكيم: ولكن العتاب الموجه إليك في هذا عتاب منطلق من محب لك.. أم أنك تخالفني في هذا؟

قال روبرتو: أجل.. ذلك صحيح.. فلولا محبته لي ما نهاني عن تضييع وقت مع من لا يجدي معه حديثي شيئا.

قال الحكيم: فهكذا قس الأمر على حال محمد ﷺ مع ذلك المستكبر.. فالنبي ﷺ امرؤ امتلأ محبة لخلق الله وحرصا عليهم.. فلذلك لم يكن يحمل أي حقد على أي أحد من الناس مستكبرا أو مستضعفا.. بل كان يبلغ الكل.. ويحرص على الكل..

لقد قال له ربه يعاتبه على ذلك الحرص الشديد على إيمان الخلق:﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ (الكهف:٦)، وقال:﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:٣)

ونهاه أن يحزن على إعراضهم، فقال تعالى:﴿ وَلا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران:١٧٦)، وقال:﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة:٤١)، وقال:﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (لقمان:٢٣)

قال روبرتو: سلمت لك بهذا.. ولكني لن أسلم لك بأن محمدا كان في صف المستضعفين.

قال الحكيم: إن هذا يستدعي بحثا في حياة محمد ﷺ ومواقفه المختلفة.. وأرى أن المنهج العلمي في التحقيق في هذا يقتضي البحث في مسألتين:

أما الأولى، فالبحث في موقفه من المستضعفين.

وأما الثانية، فالبحث في نوع الحياة التي عاشها، وهل هي أقرب لحياة المستضعفين أم هي أقرب لحياة المستكبرين.

قال روبرتو: يكفيني أن تثبت الأولى.

قال الحكيم: بل الكمال في إثبات الثانية، فكم من مستكبر يدعي أنه مع المستضعفين، وهو يعيش على

دمائهم وعرقهم.. وكم من مستكبر يجعل من نصرة المستضعفين أحبولة يصطاد بها القلوب والعقول ليحقق ما تمليه عليه شهواته.

قال روبرتو: ليس الشأن أن نعرف القوانين.. ولكن الشأن في أن نثبتها.

قال الحكيم: فاصبر علي حتى أثبت لك كل ذلك[1].

([1]) انظر التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في رسالة (رحمة للعالمين) من هذه السلسلة.

١ ــ موقفه من المستضعفين

قال روبرتو: فابدأ بإثبات الدعوى الأولى.

قال الحكيم: أول ما يثبت الدعوى الأولى هو ما ذكرت من عتاب الله لنبيه ﷺ من أجل ذلك الأعمى.. ألا ترى في إنزال عشر آيات قرآنية من أجل رجل بسيط فقير أعمى قلاه الناس وهجروه ما يدلك على عظم المكانة التي يحتلها الفقراء والمستضعفون في هذا الدين؟

سكت روبرتو، فقال الحكيم: ومثل ذلك ما روي أن المشركين عز عليهم أن يكون عند محمد ﷺ ضعفاء الناس وفقراءهم، فقالوا: لو نحاهم لأتيناه فأنزل الله تعالى قوله:﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام:٥٢)

ومثل ذلك ما ورد من الأمر بالصبر مع هؤلاء المستضعفين مع طيب الثناء عليهم، قال تعالى:﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ (الكهف:٢٨)

ثم بعد هذا.. اذهب لتقرأ القرآن.. وقد كان خلق محمد ﷺ هو القرآن.. فلن تجد فيه إلا الأمر بالإحسان للمستضعفين والدعوة إلى رحمتهم، وبيان العذاب الأليم لمن قسى عليهم.

اقرأ في القرآن قوله تعالى وهو يحث على الجهاد والتضحية بالنفس في سبيل نصرة المستضعفين:﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾ (النساء:٧٥)

واقرأ فيه تلك الوصايا المتكررة بالمستضعفين، قال تعالى:﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً﴾ (النساء:١٢٧)، وقال تعالى:﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾ (الاسراء:٣٤)

واقرأ فيه تلك الوصايا الرقيقة باليتامى قال تعالى:﴿ كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ (الفجر:١٧)، وقال تعالى:﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾ (الضحى:٩)

بل إن القرآن الكريم اعتبر من يؤذي اليتيم مكذبا بالدين، قال تعالى:﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣)﴾ (الماعون)

فإن لم يكفك كل هذا، فاذهب إلى سنة رسول الله ﷺ، وكيف حضت على الإحسان المستضعفين وكفالة جميع ما يرتبط بهم من حاجات بدءا بالحاجات النفسية، وانتهاء بجميع الحاجات المادية.

قال أبو ذر ــ رضي الله عنه ــ:(أوصاني خليلي ﷺ أن أنظر إلى من هو أسفل مني ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأن أحب المساكين وأن أدنو منهم، وأن أصل رحمي وإن قطعوني وجفوني، وأن أقول الحق وإن كان

مرا، وأن لا أخاف في الله لومة لائم، وأن لا أسأل أحدا شيئا، وأن أستكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله، فالها من كتر الجنة)[1]

وعنه ــ رضي الله عنه ــ قال: قال لي رسول الله ﷺ:(انظر أرفع رجل في المسجد)، قال: فنظرت فإذا رجل عليه حلة قلت: هذا قال: قال لي: انظر أوضع رجل في المسجد، قال: فنظرت، فإذا رجل عليه أخلاق قال: قلت: هذا قال: فقال رسول الله ﷺ:(لهذا عند الله خير يوم القيامة من ملء الأرض مثل هذا)[2]

وعن مصعب بن سعد قال رأى سعد ــ رضي الله عنه ــ أن له فضلا على من دونه فقال رسول الله ﷺ:(هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم)[3]

وعن واثلة بن الأسقع ــ رضي الله عنه ــ قال: كنت في أصحاب الصفة فلقد رأيتنا وما منا إنسان عليه ثوب تام وأخذ العرق في جلودنا طرقا من الغبار والوسخ إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: ليبشر فقراء المهاجرين، إذ أقبل رجل عليه شارة حسنة، فجعل النبي ﷺ لا يتكلم بكلام إلا كلفته نفسه أن يأتي بكلام يعلو كلام النبي ﷺ، فلما انصرف قال:(إن الله عز وجل لا يحب هذا وضربه، يلوون ألسنتهم للناس لي البقر بلسالها المرعى كذلك يلوي الله عز وجل ألسنتهم ووجوههم في النار)[4]

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال قال رسول الله ﷺ:(رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره)[5]

وعن ثوبان ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ:(إن من أمتي من لو جاء أحدكم يسأله دينارا لم يعطه ولو سأله درهما لم يعطه ولو سأله فلسا لم يعطه فلو سأل الله الجنة أعطاها إياه ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره)[6]

وعن أبي أمامة ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ قال:(إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر وكان غامضا في الناس لا يشار إليه بالأصابع وكان رزقه كفافا فصبر على ذلك)، ثم نقر بيده، فقال:(عجلت منيته قلت بواكيه قل تراثه)[7]

وعن أسامة بن زيد ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ قال:(قمت على باب الجنة، فكان عامة من دخلها المساكين، وأصحاب الجد محبوسون، غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار)[8]

التفت الحكيم إلى روبرتو، وقال: إن كل هذه النصوص ملأت نفوس المستضعفين قوة، فلم يعودوا

([1]) رواه أحمد والطبراني من رواية الشعبي عن أبي ذر ولم يسمع منه.
([2])رواه أحمد بأسانيد رواها محتج بهم في الصحيح وابن حبان في صحيحه.
([3]) رواه البخاري والنسائي وعنده فقال النبي ﷺ:(إنما تنصر هذه الأمة بضعيفها بدعوهم وصلاقم وإخلاصهم)
([4])رواه الطبراني بأسانيد أحدها صحيح.
([5])رواه مسلم.
([6]) رواه الطبراني ورواته محتج بهم في الصحيح.
([7]) رواه الترمذي.
([8]) رواه البخاري ومسلم.

يشعرون بتلك المهانة ولا ذلك الاحتقار الذي نفخه فيهم فقرهم، أو القوانين والأعراف التي وضعها المستكبرون والتي كانت تعتبر الفقر بلاء وإهانة من الله لعباده.

قال روبرتو: ولكن المعنويات المرتفعة لا تكفي وحدها لإشباع بطون المستضعفين الخاوية؟

قال الحكيم: ولذلك ورد في النصوص الحث ــ بكل الأساليب ــ على إطعام المستضعفين.. لقد ذم النبي ﷺ كل طعام لا يحضره مسكين، فقال:(شر الطعام طعام الوليمة يمنعها من يأتيها ويدعى إليها من يأباها)[1]

أما القرآن، فقد حفل بالدعوة إلى إعطاء ﴿ ذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ (لأنفال: من الآية٤١) وغيرهم من أصناف المستضعفين.

ففي أموال الفيئ يقرن المستضعفون برسول الله ﷺ وقرابته، قال تعالى:﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ (الحشر: من الآية٧)

ويخبر تعالى أن من شروط مجاوزة العقبة التي تحول بين الإنسان وفضل الله الإحسان إلى اليتامى، قال تعالى:﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ﴾(البلد:١١ ــ ١٥)

بل إن الله تعالى ــ من باب الحث على الاتصاف بصفات الله والتخلق بأخلاقه ــ يخبرنا عن إيوائه لرسول الله ﷺ عندما كان يتيما، قال تعالى:﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ (الضحى:٦)

أما من السنة، فقد وردت النصوص الكثيرة التي تعتبر الإحسان إلى اليتامى من خير أعمال البر، فخير بيوت المسلمين بيت يكفل يتيما، قال ﷺ:(خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه)[2]

بل إن المسح على رأس اليتيم عطفا وحنانا ورحمة يكتب لصاحبه بكل شعرة حسنة، قال ﷺ:(من مسح على رأس يتيم لم يمسحه إلا لله كانت له في كل شعرة مرت عليها يده حسنات)[3]

بل إن الرسول ﷺ يخبر بأن الساعي عليهم كالمجاهد والقائم، قال ﷺ:(الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله تعالى وأحسبه قال وكالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر)[4]

وأول جزاء يجازى به المحسن لليتيم أنه في حال إحسانه يبتعد عنه الشيطان، وبابتعاده تحل البركة، ويترل الخير، كما روي:(ما قعد يتيم مع قوم على قصعتهم فيقرب قصعتهم الشيطان)[5]

ومن الجزاء الذي يجازى به المحسن المغفرة، هي من أعظم الجزاء، وقد بين ﷺ ما أعده الله لكافل اليتيم

([1]) رواه مسلم، ورواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه موقوفا على أبي هريرة، بصيغة:(شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء وتترك المساكين)

([2]) رواه ابن ماجه.

([3]) رواه أحمد وغيره.

([4]) رواه البخاري ومسلم.

([5]) رواه والطبراني في الأوسط عن أبي موسى وأورده ابن الجوزي في الموضوعات، وهناك حديث آخر قريب منه هو « ما من مائدة أعظم بركة من مائدة جلس عليها يتيم » رواه لديلمي عن أنس.

منها، فقال:(من ضم يتيما من بين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله عز وجل غفرت له ذنوبه البتة إلا أن يعمل عملا لا يغفر، ومن أذهب الله كريمتيه فصبر واحتسب غفرت له ذنوبه)[1]

وفي حديث آخر أخبر ﷺ أن الله لا يعذب من رحم اليتيم، وفيه دلالة على مغفرة ذنوبه، قال ﷺ:(والذي بعثني بالحق لا يعذب الله يوم القيامة من رحم اليتيم ولان له في الكلام ورحم يتمه وضعفه ، و لم يتطاول على جاره بفضل ما آتاه الله)[2]

وأخبرت النصوص أن جزاء المحسن لا يتوقف عند ذلك الحد، بل إن الإحسان إلى اليتيم لا يزال بصاحبه حتى يدخله الجنة، قال ﷺ:(من قبض يتيما من بين مسلمين إلى طعامه وشرابه أدخله الله الجنة ألبتة إلا أن يعمل ذنبا لا يغفر له)[3]، وفي رواية سندها حسن:(حتى يستغني عنه وجبت له الجنة ألبتة)

بل أخبر ﷺ أن المحسنين إلى اليتامى من أول من يدخلون الجنة، قال ﷺ:(أنا أول من يفتح باب الجنة إلا أني أرى امرأة تبادرني ، فأقول ما لك ومن أنت؟ تقول: أنا امرأة قعدت على أيتام لي)[4]

وفي القرآن الكريم إشارة إلى هذا الجزاء في قوله تعالى:﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ (الانسان:٨)، فقد ذكر قبل هذه الآية الجزاء المعد هؤلاء، وهو من أعظم الجزاء، قال تعالى:﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾ (الانسان:٥ ـــ ٦)

بل ورد في النصوص ما هو أعظم من ذلك كله، فقد أخبر ﷺ أن كافل اليتيم رفيقه في الجنة بصيغ مختلفة، قال ﷺ:(أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا ، وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى وفرج بينهما)[5]، وقال ﷺ:(كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة) وأشار مالك بالسبابة والوسطى[6]، وقال ﷺ:(من كفل يتيما له ذو قرابة أو لا قرابة له فأنا وهو في الجنة كهاتين وضم إصبعيه، ومن سعى على ثلاث بنات فهو في الجنة ، وكان له كأجر المجاهد في سبيل الله صائما قائما)[7]، وقال ﷺ:(من عال ثلاثة من الأيتام كان كمن قام ليله وصام نهاره وغدا وراح شاهرا سيفه في سبيل الله وكنت أنا وهو في الجنة أخوان ، كما أن هاتين أختان ، وألصق إصبعيه السبابة والوسطى)[8]

والشريعة الإسلامية لم تترك كل ذلك لضمائر الناس، وإنما شرعت التشريعات الكثيرة التي تكفل التكافل الاجتماعي في أرفع صوره وأرقى أساليبه مما لم يصل إليه البشر في أي حضارة من الحضارات[9].

([1]) رواه ابن سعد، والطبراني في الكبير عن مالك.
([2])رواه الطبراني بسند رواته ثقات إلا واحدا ومع ذلك ليس بالمتروك.
([3]) رواه الترمذي وصححه.
([4])رواه أبو يعلى بسند حسن.
([5])رواه البخاري.
([6])رواه مسلم.
([7])رواه البزار.
([8])رواه ابن ماجه.
([9]) انظر في تفاصيل هذا رسالتي (كنوز الفقراء) و(مفاتيح المدائن) من رسائل السلام، وسنرى التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في رسالة (رحمة للعالمين) من هذه السلسلة.

٢ ـــ حياة المستضعفين

قال رجل من الجمع: لقد أثبت الدعوى الأولى، فأثبت الثانية.

قال الحكيم: كل شيء في الأولى يدلك على الثانية.. فالرجل الذي دافع كل ذلك الدفاع عن المستضعفين.. بل لم يقم في العالم من يدعو لدولة المستضعفين كمحمد ﷺ.. لم يكن في حياته يعيش إلا كواحد منهم.

لقد امتلأ بالعبودية التي قربته من كل الناس، فقيرهم وضعيفهم ومسكينهم ومريضهم.. وكل من هجره الناس وجد في محمد ﷺ الصدر الحنون الذي يستقبله ويرعاه ويملؤه بالأنس.

لقد خير ﷺ بين حياة الكبراء الملوك، وبين حياة العبودية، فاختار حياة العبودية:

روى أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس، ومعه جبريل عليه السلام، إذ انشق أفق السماء، فأقبل جبريل يدنو من الأرض، ويدخل بعضه في بعض، ويتضاءل، فإذا ملك قد مثل بين يدي رسول الله [1] ﷺ، فقال: (السلام عليك يا محمد، إن ربك يقرئك السلام، أنا رسول ربك إليك، أمرني أن أخيرك: إن شئت نبيا عبدا، وإن شئت نبيا ملكا)، فنظرت إلى جبريل عليه السلام كالمستشير، فأشار إلي جبريل بيده، أن تواضع، فقلت، (بل نبيا عبدا)

ثم قال ﷺ لعائشة ـــ رضي الله عنها ـــ بعد أن أخبرها هذا الحديث:(يا عائشة لو قلت: نبيا ملكا، ثم شئت لسارت معي الجبال ذهبا)، قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يأكل متكئا ويقول: (آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد)[2]

وقد عرفه الناس بهذا المظهر الممتلئ بالعبودية، عن حمزة بن عبيد الله بن عتبة قال: كانت في رسول الله ﷺ خصال ليست في الجبارين، كان لا يدعوه أحمر، ولا أسود، إلا أجابه، وكان ربما وجد تمرة ملقاة فيأخذها، فيرمي بها إلى فيه، وإنه ليخشى أن تكون من الصدقة، وكان يركب الحمار عريا، ليس عليه شئ[3].

وكان ﷺ لأجل الظهور بهذا المظهر الذي يقربه من الكل يتعمد على أن يتميز عن المستضعفين بأي شيء يجعله يهابونه:

ففي الوقت الذي يحرص فيه المستكبرون على تخير المراكب وتزيينها لبث المهابة في القلوب[4] كان ﷺ يركب أبسط المراكب.. والتي يستحيل على المستعلين أن يركبوها:

عن أبي ذر ـــ رضي الله عنه ـــ قال: ركب رسول الله ﷺ حمارا وأردفني خلفه[5].

([1])في لفظ: إن الله سبحانه تعالى أرسل إلى النبي ﷺ ملكا من الملائكة حجزته تساوي الكعبة، ما هبط على نبي قبلي، ولا يهبط على أحد بعدي، وهو إسرافيل عليه السلام.

([2]) رواه أبو نعيم وابن عساكر من طرق عن ابن عباس موقوفا، وابن سعد عن عائشة، وأبو نعيم عن ابن عمر مرفوعا.

([3]) رواه ابن سعد.

([4]) ويشير إلى ذلك قوله تعالى حكاية عن قارون:﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (القصص:٧٩)

([5]) رواه أحمد ومسلم.

وعن يزيد الرقاشي ــ رضي الله عنه ــ قال: حج رسول الله ﷺ على رحل رث وقطيفة تساوي أربعة دراهم، وقال: (اللهم حجة مبرورة، لا رياء فيها، ولا سمعة)[1]

وعن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: إن رسول الله ﷺ كان يقود راحلته، ويمشي هنيهة[2].

وعن أبي المثنى الأملوكي ــ رضي الله عنه ــ قال: كان رسول الله ﷺ، ومن قبله من الأنبياء ــ عليهم السلام ــ يمشون على العصا، يتوكئون عليها، تواضعا لله عز وجل[3].

وعن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: كان رسول الله ﷺ يركب الحمار، ويردف بعده، ويجيب دعوة المملوك[4].

وعن أبي موسى ــ رضي الله عنه ــ قال: كان رسول الله ﷺ يركب الحمار، ويلبس الصوف، ويعقل الشاة، ويأتي مدعاة الضعيف[5].

وعن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: كان رسول الله ﷺ يركب الحمار، ويعود المريض، ويشهد الجنازة، ويأتي دعوة المملوك، وكان يوم بني قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف، على إكاف من ليف[6].

وعن أنس ــ رضي الله عنه ــ أن رسولل الله ﷺ دخل مكة، وذقنه على رحله متخشعا[7].

وعنه قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة استشرفه الناس، فوضع رأسه على رحله متخشعا[8].

وعن عبد الله بن بريدة ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا أتى رسول الله ﷺ بحمار، وهو يمشي، فقال له: اركب يا رسول الله، فقال:(إن صاحب الدابة أحق بصدر دابته، إلا أن يجعل له)، قال: قد فعلت[9].

وفي الوقت الذي يحرص فيه المستكبرون على أجمل الثياب وأغلاها كان ﷺ يتخير أبسطها، وأقربها إلى ثياب الفقراء:

عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: خرج رسول الله ﷺ وقد عقد عباءة بين كتفيه فلقيه أعرابي فقال: لم لبست هذا يا رسول الله؟ فقال: (ويحك، إنما لبست هذا لأقمع به الكبر)[10]

وروى عن عبد الرحمن بن جبر الخزاعي قال: بينما رسول الله ﷺ يمشي مع أصحابه إذ أخذ رجل منهم، فستره بثوب فلما رأى ما عليه، رفع رأسه، فإذا هو علاه قبلي ستر، فقال: (مه)، فأخذ الثوب، فوضعه، وقال:

---

(1) رواه الحارث بن أبي أسامة.
(2) رواه بقي بن مخلد.
(3) رواه ابن الأعرابي.
(4) رواه ابن سعد.
(5) رواه الحاكم.
(6) رواه الترمذي.
(7) رواه الحاكم.
(8) رواه أبو يعلى.
(9) رواه الحاكم.
(10) رواه ابن عدي.

(إنما أنا بشر مثلكم)[1]

وفي الوقت الذي يتخبر فيه المتكبرون جلساءهم وندماءهم كان ﷺ يجلس مع المستضعفين من الفقراء والمرضى الذين قلاهم الناس:

عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيد مجذوم، فأدخله معه في القصعة، ثم قال له: (كل باسم الله، وثقة بالله، وتوكلا عليه)[2]

وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر، ويقل اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، ولا يأنف، ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين يقضي لهما حاجتهما[3].

وعنه قال: كان رسول الله ﷺ لا يستنكف أن يمشي مع الضعيف، والأرملة، فيفرغ لهم من حاجاتهم[4].

عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كلم رجلا فأرعد، فقال: (هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديدة)[5]

وعن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: كانت امرأة في عقلها شئ قالت: يا رسول الله إن لي إليك حاجة، فقال ﷺ:(يا أم فلان انظري أي الطرق شئت أقضي لك حاجتك، فقام معها يناجيها، حتى قضت حاجتها[6].

وعن عدي بن حاتم ــ رضي الله عنه ــ أنه أتى رسول الله ﷺ فإذا عنده امرأة وصبيان، أو صبي، فذكر قربهم من النبي ﷺ، قال: فعرفت أنه ليس ملك كسرى وقيصر[7].

وعن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: إن كانت الوليدة من ولائد أهل المدينة لتجئ فتأخذ بيد رسول الله ﷺ، فما يترع يده من يدها، حتى تذهب به حيث شاءت من المدينة الحاجة[8].

وعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أخبره أن مسكينة مرضت، فأخبر رسول الله ﷺ بمرضها، وكان رسول الله ﷺ يعود المساكين، ويسأل عنهم [9].

وعندما لاحظ العباس ــ رضي الله عنه ــ ما يلاقيه رسول الله ﷺ من ذلك قال له: يا رسول الله إني أراهم قد آذوك، وآذاك غبارهم، فلو اتخذت عريشا تكلمهم فيه، فقال رسول الله ﷺ:(لا أزال بين أظهرهم يطئون عقبي وينازعوني ثوبي، ويؤذيني غبارهم، حتى يكون الله هو الذي يرحمني منهم)[10]

وفي الوقت الذي تقام فيه للمستكبرين الموائد الضخمة كان ﷺ يأكل على الأرض ببساطة وتواضع.

---

(1) رواه ابن أبي شيبة وعلي بن عبد القدير البغوي.
(2) رواه أبو داود والترمذي.
(3) رواه الدارمي.
(4) رواه الخرائطي.
(5) رواه ابن ماجه.
(6) رواه أحمد ومسلم.
(7) رواه البخاري في الأدب.
(8) رواه أبو بكر بن أبي شيبة.
(9) رواه أبو ذر الهروي في دلائله.
(10) رواه ابن إسحاق الزجاجي في تاريخه.

عن عبد الله بن عمرو ــ رضي الله عنه ــ قال: ما رأيت رسول الله ﷺ يأكل متكئا، ولا يطأ عقبه رجلان[1].

وعن ابن عباس، وأنس ــ رضي الله عنهما ــ قالا: كان رسول الله ﷺ يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعقل الشاة، ويجيب دعوة المملوك، زاد أنس: ويقول: (لو دعيت إلى ذراع لأجبت، ولو أهدي إلي كراع لقبلت)[2]

وعن الحسن ــ رضي الله عنه ــ قال: والله ما كان رسول الله ﷺ تغلق دونه الأبواب، ولا يقوم دونه الحجاب، ولا يغدى عليه بالجفان، ولا يراح بها عليه، ولكنه كان بارزا، من أراد أن يلقى نبي الله ﷺ لقيه، كان يجلس على الأرض، ويطعم ويلبس الغليظ، ويركب الحمار، ويردف خلفه، ويلعق يده[3].

وعن عبد الله بن بسر قال: أهديت إلى رسول الله ﷺ شاة فجثا على ركبتيه، فأكل، فقال أعرابي: يا رسول الله ما هذه الجلسة؟ فقال:(إن الله عزوجل جعلني عبدا كريما، و لم يجعلني جبارا عنيدا)[4]

وفي الوقت الذي يجلس فيه المستكبرون لينحني المستضعفون بالسلام عليهم كان ﷺ يبدأ من لقيه بالسلام:

عن هند بن أبي هالة رضي الله تعالى عنه وعن أمه قال: كان رسول الله ﷺ يبدأ من لقيه بالسلام [5].

وعن أنس ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ مر على صبيان، فسلم عليهم[6].

وعن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: كان رسول الله ﷺ إذا استقبله الرجل وصافحه، لا يترع يده من يده، حتى يكون الرجل هو الذي يترع، ولا يصرف وجهه عن وجهه، حتى يكون الرجل هو الذي يصرفه، و لم ير مقدما ركبتيه بين يدي جليس له[7].

وعن قيس بن سعد ــ رضي الله عنه ــ قال: زارنا رسول الله ﷺ في مترلنا فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرد أبي رداً خفياً، فقلت لأبي: ألا تأذن لرسول الله، فقال: زده حتى يكثر علينا من السلام فقال ﷺ: السلام عليكم ورحمة الله، ثم رجع فاتبعه سعد فقال: يا رسول الله! إني كنت أسمع تسليمك وأرد عليك رداً خفياً لتكثر علينا من السلام، فانصرف معه النبي ﷺ، وأمر له سعد بغسل فاغتسل، ثم ناوله ملحفة مصبوغة بزعفران فاشتمل بها ثم رفع يديه وهو يقول:(اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد)[8]

وفي الوقت الذي يتخذ فيه المستكبرون أصناف الخدم والحشم كان ﷺ يعمل بيده:

عن يعقوب بن يزيد قال: كان رسول الله ﷺ يتبع غبار المسجد بجريدة[9].

([1]) رواه أحمد، وأبو داود.

([2]) رواه أبو الشيخ عن ابن عباس، وابن سعد عن أنس.

([3]) رواه أحمد في الزهد، وابن عساكر، وقال: هذا حديث مرسل، وقد جاء معناه في الأحاديث المسندة.

([4]) رواه ابن ماجه.

([5]) رواه الترمذي، وصححه، والبيهقي.

([6]) رواه البخاري.

([7]) رواه الترمذي وابن ماجه.

([8]) رواه أحمد.

([9]) رواه ابن أبي شيبة.

وعن أبي سعيد وغيره من الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ قال: مر النبي ﷺ بغلام يسلخ شاة، فقال له رسول الله ﷺ:(تنح حتى أريك، فإني لا أراك تحسن تسلخ)، فأدخل رسول الله ﷺ يده بين الجلد واللحم، فدخس بها حتى توارت إلى الإبط، ثم قال:(يا غلام هكذا فاسلخ)[1]

وعن حسنة بن خالد وسواء بن خالد ــ رضي الله عنهما ــ أنهما أتيا رسول الله ﷺ وهو يعالج حائطا، أو بناء له[2].

وعن ابنة خباب ــ رضي الله عنها ــ أنها أتت النبي ﷺ بشاة فاعتقلها فحلبها، وقال:(ائتني بأعظم إناء لكم)، فأتيناه بجفنة العجين، فحلب فيها حتى ملأها، قال:(اشربوا أنتم وجيرانكم)[3]

وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: كان رسول الله ﷺ يخيط ثوبه، ويخصفف نعله، ويرقع دلوه، ويحلب شاته ويخدم نفسه[4].

وعن عبد الله بن عبد العزيز العمري قال: كان رسول الله ﷺ مهما استكفى أهله من شئ لم يكن يستكفيهم صب الوضوء لنفسه، وإعطاء المسكين بيده، ويكفيهم إجانة الثياب[5].

***

بعد أن انتهى الحكيم من حديثه لم يجد روبرتو ما يقوله.. ولذا سار مطأطئ الرأس، متغير الوجه، خارج ميدان الحرية ليترك الجماعة ملتفة حول الحكيم تسأله ويجيبها..

التفت إلى أصحابنا المستغرقين في مشاهدة ما حصل في ساحة الحرية.. فرأيت وجوههم كالحة عابسة عليها غبرة ترهقها قترة.

أما أنا.. فقد تترلت علي حينها أنوار جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

---

(1) رواه أبو داود، وابن ماجه، وابن حبان، وقاسم بن ثابت، والطبراني.
(2) رواه البخاري في الأدب المفرد.
(3) رواه أبو داود الطيالسي.
(4) رواه أحمد وابن عدي وابن حبان.
(5) رواه أبو الحسن بن الضحاك.

رابعا ـــ استغلال

في مساء اليوم الرابع.. وفي دار الندوة الجديدة.. دخل جيري فالويل[1].. وهو في مظهره الخارجي يمثل رجل دين كأحسن ما يكون رجال الدين هيبة ووقارا.. ولكنه في حقيقته التي لا يعرفه من خلالها إلا خواص أصحابه من أعظم رجال الدنيا، وأكثرهم شغفا بها وحرصا عليها وتضحية في سبيلها بكل شيء..

لقد كنت أرى فيه شخص (يهوذا الأسخريوطي) بكل ما يمثله يهوذا من معاني.. فإن كان يهوذا قد سلم المسيح من أجل قليل من المال.. فإن هذا يسلم بكل مبادئ المسيح من أجل ذلك القليل.

وقد كان لهذه الصفة فيه سيء الظن بمن حوله، فلا يرى من يقترب منه أو يتودد إليه إلا لصا يريد أن ينال من ماله، أو يأكل من طعامه.. فلذلك تجده أبعد الناس عن الناس.. يبتسم لهم.. ولكنه سرعان ما يعرض عنهم حتى لا يطمع أحد فيه..

ولكنه إن وجد في الناس من يستطيع أن يأكل هو من طعامه، أو ينال هو من ماله أقبل عليه إقبالا كليا، وسلمه ما شاء من صكوك الغفران..

وكان لهذا يذكرني بقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)(التوبة: من الآية٣٤)

دخل جيري فالويل في ذلك المساء دار الندوة الجديدة بوجه لا يصعب على أي أحد أن يرى ما فيه من تغير..

ابتدرته الجماعة قائلة: ما الذي فعلت!؟.. ما نسبة نجاحك!؟.. هل هناك نتائج إيجابية!؟

نظر إليهم بقسوة، وقال: أرى أننا نريد أن نخرج الماء من بئر شحيحة لا تسح بقطرة.. فدعنا منهم.. ولنبحث عن منبع آخر.. فليس عند أولئك الأشحاء شيء.

قالوا: ماذا فعلت معهم؟

قال: لقد رميتهم بكل أسلحتي.. لكنهم استغلوا بعض النصوص راحوا يصفعون بها وجهي.. ويستغلون بها طهارة قلوب العوام ليقنعوهم بدين اللصوص وقطاع الطرق.

قال ذلك، ثم راح يستغرق في اللاشيء المحيط به.. ابتدر أخي، ووضع القرص في القارئ، وبدأ شريط الأحداث:

([1]) أشير به هنا إلى قسيس إنجيلي معروف بهذا الاسم يقيم في منطقة لينشبرج في منطقة فيرجينيا، له برنامج أسبوعي إذاعي وتلفزيوني يصل إلى أكثر من ١٠ ملايين منزل أسبوعيا، وله جامعة خاصة أصولية تسمى جامعة الحرية، يهاجم النبي ﷺ من خلال وسائل إعلامية أمريكية كبرى، إضافة إلى موقعه الخاص على الانترنت [www.falwell.com] وضع في صفحته الأولى تاريخا زائفا عن النبي ﷺ، ومن أقواله التي ذكرها في برنامجه الذي استغرق مدة ٦٠ دقيقة في ٢٠٠٢/١٠/٦ م:(أنا أعتقد أن محمدا كان إرهابيا، في اعتقادي.. المسيح وضع مثالا للحب كما فعل موسى، وأنا أعتقد أن محمدا وضع مثالا عكسيا، وإنه كان لصا وقاطع طريق)

وهذا القول هو الذي جعلنا نختاره لهذا الفصل.

ظهر جيري فالويل في ميدان الحرية محاطا بجماعة من الناس، وهو يقول لهم: هل تريدون وصفا جامعا لمحمد يغنيكم عن كل وصف؟

قال رجل من الجماعة: أي محمد تقصد؟ .. هل تقصد ذلك النبي الذي ظهر في تلك الصحراء المجدبة فحولها جنة فيحاء.. وظهر في ذلك الزمن المملوء بالظلمات، فحوله زمنا مملوءا بالأنوار؟

قال جيري: بل أقصد ذلك اللص قاطع الطريق الذي راح يستغل كل شيء ليحقق لنفسه كل شيء.

قال الرجل: فأنت تقصد رجلا يسمى بمحمد غير النبي محمد؟

قال جيري: بل لا أقصد غير ذلك الرجل الذي استغل بساطة الناس، فراح يدعي النبوة ليجني منها ما شاءت له نفسه من أموال وجاه.

هنا ظهر الحكيم كالنور المشرق، وصاح: أرى أنك صاحب بنك؟

قال جيري: لا.. بل أنا رجل دين.

قال الحكيم: يمكن لرجل الدين أن يملك بنكا.. لا حرج عليه في ذلك.. لا حرج عليه في المسيحية، ولا حرج في الإسلام.

قال جيري: فلنفرض أني أملك بنكا.. ما علاقة ذلك بما نحن فيه؟

قال الحكيم: أصحاب البنوك في العادة هم الذين يعرفون مقادير الثروات التي تخفى على سائر الناس.

قال جيري: فلنفرض ذلك.. ما علاقة ذلك بما نحن فيه؟

قال الحكيم: لذلك علاقة عظيمة.. فأنت قد ذكرت بأن محمدا إنسان استغل النبوة لبجني من ورائها أموالا وجاها.. وصاحب المال يحتاج أن يضع ماله في بنك ليحفظه ويزيده.

قال جيري: لا شك أنك مجنون.

قال الحكيم: لم؟

قال جيري: لأن محمدا مات منذ قرون طويلة.. و لم يكن أهل تلك القرون يسمعون بالبنوك.

قال الحكيم: فكيف عرفت ثروة محمد.. وأنه جناها من خلف ستار النبوة؟

قال جيري: كل شيء يدل على ذلك.. فرجل بسيط كان يرعى الغنم بقراريط يتحول إلى زعيم عظيم تجبى إليه الأموال من كل صوب.. وتجبى إليه قبلها القلوب لاشك أنه إنسان مستغل.. أو بتعبير آخر أكثر صراحة: لاشك أنه لص مختبئ في ثياب نبي.

قال الحكيم: دعنا من الصراحة الوقحة.. ولنبحث في حقائق التاريخ عن حياة محمد، وعلاقتها بما تسميه استغلالا أو لصوصية.

قال جيري: أنا لم أحكم بما ذكرت لك إلا انطلاقا من حقائق التاريخ.

قال الحكيم: قبل أن أجيبك من حقائق التاريخ أجبني..

قال جيري: سل ما بدا لك.

قال الحكيم: لو أن لصا طالب جاه ومنصب استدعاه الملأ من قومه، وعرضوا عليه أموالهم وما اشتهاه من

منصب وجاه من غير تعب منه ولا نصب، فأعرض عن ذلك، وقال: أنا لا أريد أن آخذ أموالكم إلا بالتعب والنصب، ولن أتأمر عليكم إلا بعد أن يشتعل رأسي شيبا، وتشتعل حياتي ألما وتعبا وهما وغما.

قال جيري: مجنون من يقول هذا.. ولا أظن أن هناك لصا في الدنيا يعرض عن الفريسة السهلة ليقع على الفريسة الشديدة.. إن الأسود مع بهيميتها وصغر عقولها لا تفعل ذلك.

قال الحكيم: فهل ترى محمدا صاحب عقل وحكمة، أم أنك تراه أضعف عقلا من الأسود وسائر الوحوش؟

قال جيري: بل أرى عقله قد اجتمعت فيه العقول، ولكنه راح يستغله في الحيلة ليقتنص من المال والجاه ما لم يحلم به أبوه وجده.

قال الحكيم: لقد روى المؤرخون الذين تستند إليهم أن محمدا قد عرض عليه في بداية حياته الدعوية ـــ أي في نواحي الأربعين ـــ كل ما يشتهي من جاه ومال ومنصب.. ولكنه أعرض عن ذلك..

سكت قليلا، ثم قال: سأحدثك حديث ذلك.. فلعله لم يبلغك.

لقد روى المؤرخون بأسانيد كثيرة[1] أن قريشا اجتمعت يوما بعد أن رأت أن الإسلام لا تزيده الأيام إلا قوة، فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا شتت أمرنا وعاب ديننا، فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه، فقالوا: ما نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة[2]، فقالوا: بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه.

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال:(يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم وكفرت من مضى من آبائهم، يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ.

قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم نسمع قولك، إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا وأشتت أمرنا وعبت ديننا وفضحتنا في العرب، حتى طار فيهم أن في قريش ساحرا وإن في قريش كاهنا والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا بعضا إليك بالسيوف حتى نتفانى.

لما رأى صمت رسول الله ﷺ وعدم إجابته له، قال: أيها الرجل، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها، فقال له رسول الله ﷺ:(قل أبا الوليد أسمع)

فقال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعناه لك من أموالنا حتى تكون

([1]) رواه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى والحاكم وصححه عن جابر بن عبد الله والبيهقي وابن عساكر عن ابن عمر.

([2]) وعند ابن إسحاق وابن المنذر عن محمد بن كعب القرظي: أن عتبة بن ربيعة قال يوما، وكان جالسا في نادي قريش، والنبي ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا، وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون.

أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به الشرف سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطلب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئكك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يسمعه منه قال له: أقد فرغت أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل.

فراح رسول الله ﷺ يقرأ من سورة فصلت، فلما سمعه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما، فسمع منه إلى أن بلغ قوله تعالى:﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (فصلت:١٣)، فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم أن يكف عنه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: قد سمعت أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك، فقال: ما عندك غير هذا؟ فقال: ما عندي غير هذا.

فقام عتبة و لم يعد إلى أصحابه واحتبس عنهم فقال أبو جهل: والله يا معشر قريش ما نرى عتبة إلا قد صبا إلى محمد وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة أصابته فانطلقوا بنا إليه، فأتوه.

فقال أبو جهل: والله يا عتبة ما جئناك إلا أنك قد صبوت إلى محمد وأعجبك أمره فإن كان لك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد.

فغضب وأقسم لا يكلم محمدا أبدا وقال: لقد علمتم أني من أكثر قريش مالا ولكني أتيته، فقص عليهم القصة، قالوا: فما أجابك؟ قال: والله الذي نصها بنية ما فهمت شيئا مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب فخفت أن يترل عليكم العذاب.

قالوا: ويك يكلمك الرجل بالعربية لا تدرى ما قال؟! قال: والله ما سمعت مثله، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا باكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي وخلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به، يا قوم أطيعوني في هذا الأمر واعصوني بعده، فو الله لقد سمعت من هذا الرجل كلاما ما سمعت أذناي كلاما مثله وما دريت ما أرد عليه.

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد.

قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم.

التفت إلى جيري، وقال: أرأيت هذا الموقف.. هل يمكن لإنسان حريص جشع لص لم ينهض إلا ليحقق مآربه الشخصية أن يقف مثل هذا الموقف؟

ليس ذلك فقط.. و لم يعرض عليه ذلك في ذلك المحل فقط.. بل عرض عليه في محال كثيرة إلى أن ملأ قلوب أعدائه يأسا بقوله لعمه:(يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ــ حتى يظهره الله أو أهلك فيه ــ ما تركته)

ليس ذلك فقط.. بل إنه لم يقبل أن ينتصر مع التخلي عن جزء بسيط من المبادئ التي كلف بأدائها، لقد

روي أنه ـــ في تلك الأيام الشديدة التي اشتد فيها أذى أعدائه عليه وعلى أصحابه ـــ أتى إلى قبيلة بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فقال رجل منهم اسمه (بَيْحَرَة بن فِرَاس):(والله، لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب)، ثم قال للنبي ﷺ:(أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟)، فقال ﷺ: (الأمر إلى الله، يضعه حيث يشاء)، فقال الرجل:(أفَتُهْدَفُ نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه)

التفت إلى جيري، وقال: هل ترى هذا التصرف تصرف مستغل للفرص منتهز لها.. لقد كان في إمكان محمد ﷺ أن يفعل ما تفعله أكثر الأحزاب، حين تتخلى عن مبادئها، وتتحالف مع العدو والصديق.. لتحقق من مآربها الشخصية ما تشاء، ولكن محمدا ﷺ لم يفعل ذلك.. لقد كانت مبادئه أغلى من كل شيء.

قال جيري: يمكنك أن تذكر كل ذلك.. ويمكنك أن تذكر أكثر من ذلك، ولكن تاريخ محمد أوسع من أن ينحصر في حياته المكية..

ربما أسايرك في أن محمدا بدأ حياته كصاحب مبدأ.. ولكنه فعل في الأخير ما يفعله أكثر أصحاب المبادئ.. فإنهم سرعان ما يتيهون عن مبادئهم حين يعتلون عروش السلطة، أو حين يبهرهم بريق الذهب.

قال الحكيم: فأنت تريد إذن أن أحدثك عن حياته المدنية؟

قال جيري: في تلك الحياة استغل محمد منصبه أكبر استغلال.

قال الحكيم: إن المستغل هو الذي يأخذ ولا يعطي.. يأخذ كل شيء، ثم لا يعطي شيئا.. ومحمد ﷺ لم يكن كذلك.. بل كان العفيف الذي لا يأخذ، والكريم الذي لا يتوقف عن العطاء.. ويستحيل على المستغل أن يكون له هذان الخلقان.

قال جيري: من السهل أن تدعي ما تشاء.

قال الحكيم: فلنحتكم إلى حقائق التاريخ وأسانيده لنرى كيف كان محمد ﷺ في حياته.. وما علاقتها بما يفعله المستغلون من تلصص وشح.

١ ــ العفاف

تعلقت أنظار الجماعة بالحكيم، فشجعه ذلك على أن يتحدث عن الأدلة النافية للشبهة التي طرحها صاحبنا جيري فالويل.

قال الحكيم: لعل أول صفة وأعظم صفة في محمد ﷺ.. وهي صفة يشاركه فيها جميع رسل الله وأنبياؤه.. هي عفافه عن أموال الناس وزهده فيها[1]..

لقد قال الله تعالى يذكر ذلك، ويأمره به:﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ)(الأنعام: من الآية٩٠)، وقال تعالى:﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً) (الفرقان:٥٧)، وقال تعالى:﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) (صّ:٨٦)

ولهذا اعتبر القرآن الكريم من أدلة صدق محمد ﷺ عفافه عن أمواله قال تعالى:﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ) (الطور:٤٠)، وقال تعالى:﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) (المؤمنون:٧٢)

فالنبي ﷺ لم يكن ينال على تلك الوظيفة الخطيرة التي كلف بها، والتي جعلته لا يرتاح ليل نهار، أي أجر سوى الأجر الذي أعده الله له.

بل هو فوق ذلك أمر بأن يعيش جميع حياته ــ مهما فتح الله عليه من الدنيا ــ بتواضع وزهد وبعد عن الملذات التي يتهافت عليه الناس، قال تعالى:﴿ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) (الحجر:٨٨)، وقال تعالى:﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) (طــه:١٣١)

بل إن نساء النبي ﷺ اشتكين من شدة العيش التي كن يعشنها، فنزل القرآن الكريم يخيرهن بين تلك الحياة التي فرضت على رسول الله ﷺ بحكم وظيفته الخطيرة، وبين السراح للتمتع بما شئن من الحياة الدنيا، قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾

---

[1] ويدل لهذا ما وراه أحمد، والبيهقي في الشعب، وابن أبي حاتم والديلمي عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: ظل رسول الله ﷺ صائما، ثم طوى، ثم ظل صائما، قال: (يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد، ولا لآل محمد، يا عائشة إن الله تعالى لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروها، والصبر على محبوها، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ما كلفهم، فقال:﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ)(الاحقاف: من الآية٣٥).. والله لأصبرن جهدي، ولا قوة إلا بالله)

وروى أحمد في الزهد، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، عن أم عبد الله بنت شداد بن أوس ــ رضي الله عنها ــ أنها بعثت إلى رسول الله ﷺ بقدح لبن عند فطره، وهو صائم فرد إليها رسولها، أنى لك هذا اللبن؟ قالت: من شاة لي، فرد إليها رسولها، أنى لك الشاة؟ فقالت: اشتريتها من مالي، فشرب منه، فلما كان من الغد أتته أم عبد الله، فقالت: يا رسول الله بعثت إليك بلبن، فرددت إلي الرسول فيه، فقال لها: (بذلك أمرت الرسل لا تأكل إلا طيبا، ولا تعمل إلا صالحا)

وهذا يرد على المجازفين الذين تصوروا أن رسول الله ﷺ لو كان في هذا العصر للبس ما يلبس أهله من فاخر الثياب، أو يركب ما يركب أهله من مترف المراكب، وقد رددنا على هذا في رسالة (كنوز الفقراء) من (رسائل السلام)

(الأحزاب)

التفت الحكيم إلى جيري، وقال: لقد كان ذلك في المدينة المنورة، حيث كان النبي ﷺ هو زعيمها الأوحد..

لقد كان في إمكانه حينها أن ينعم بأجمل حياة وأمتع حياة.. ولكنه رفض كل ذلك، وعاش حياة لا يعيشها أدنى فقيرا رأيته في حياتك.

لن أجازف، فأتكلم كلاما من عندي، ولذلك سنذهب إلى التاريخ الذي رضيت أن نعتبره حكما.. فالتاريخ هو الوحيد الذي يفسر تلك الآيات التي تبين كيف كان النبي ﷺ في حياته.

حدث ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ قال: كنت أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن قول الله تعالى:﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (التحريم:٤)، فكنت أهابه حتى حججنا معه حجة، فقلت: لئن لم أسأله في هذه الحجة لا أسأله، فلما قضينا حجنا أدركناه، وهو ببطن مر، وقد تخلف لبعض حاجاته، فقال: مرحبا بك يا ابن عم رسول الله ﷺ ما حاجتك؟ قلت: شئ كنت أريد أن أسألك عنه يا أمير المؤمنين، فكنت أهابك فقال: سلني عما شئت، فإنا لم نكن نعلم شيئا حين تعلمنا، فقلت: أخبرني عن قول الله تعالى:﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ من هما؟ قال: لا تسأل أحدا أعلم بذلك مني، كنا بمكة لا يكلم أحدنا امرأته، إنما هي خادم البيت، فلما قدمنا المدينة، تعلمنا من نساء الأنصار، فجعلن يكلمننا ويراجعننا، وإني أمرت غلمانا لي ببعض الحاجة، فقالت امرأتي: بل اصنع كذا وكذا، فقمت إليها بقضيب، فضربتها به، فقالت: يا عجبا لك، يا بن الخطاب! تريد أن لا تكلم فإن رسول الله ﷺ تكلمه نساؤه، فخرجت فدخلت على حفصة، فقلت: يا بنية، انظري لا تكلمي رسول الله ﷺ ولا تسأليه، فإن رسول الله ﷺ ليس عنده دينار ولا درهم يعطيكهن، فما كانت لك من حاجة حتى دهن رأسك فسليني.

وكان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح جلس في مصلاه، وجلس الناس حوله حتى تطلع الشمس، ثم دخل على نسائه امرأة امرأة يسلم عليهن ويدعو لهن، فإذا كان يوم إحداهن جلس عندها، وإنها أهديت لحفصة بنت عمر عكة عسل من الطائف أو من مكة وكان رسول الله ﷺ إذا دخل يسلم عليها حبسته حتى تلعقه منها أو تسقيه منها، وأن عائشة أنكرت احتباسه عندها، فقالت لجويرية عندها حبشية ــ يقال لها خضراء ــ: إذا دخل على حفصة فادخلي عليها، فانظري ما يصنع فأخبرتها الجارية بشأن العسل، فأرسلت عائشة إلى صواحبتها، فأخبرتهن، وقالت: إذا دخل عليكن فقلن: إنا نجد منك ريح معافيرن ثم إنه دخل على عائشة، فقالت: يا رسول الله، أطعمت شيئا منذ اليوم، فإني أجد منك ريح مغافير، وكان رسول الله ﷺ أشد شئ عليه أن يوجد منه ريح شئ، فقال: هو عسل، والله لا أطعمه أبدا حتى إذا كان يوم حفصة، قالت: يا رسول الله، إني لي حاجة إلى إن نفقت لي عنده، فأذن لي أن آتيه فأذن لها، ثم إنه أرسل إلى جاريته مارية، فأدخلها بيت حفصة، فأتت حفصة فوجدت الباب مغلقا، فجلست عند الباب، فخرج رسول الله ﷺ وهو فزع ووجهه يقطر عرقا، وحفصة تبكي، فقال: ما يبكيك؟ فقالت: إنما أذنت لي من أجل هذا، أدخلت أمتك بيتي، ما كنت

تصنع هذا بامرأة منهن، أما والله ما يحل لك هذا يا رسول الله، فقال: والله، ما صدقت: أليس هي جاريتي، قد أحلها الله تعالى لي، أشهدك أنها علي حرام، ألتمس بذلك رضاك، انظري لا تخبري بذلك امرأة منهن، فهي عندك أمانة.

فلما خرج رسول الله ﷺ قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة، فقالت: ألا أبشري، إن رسول الله ﷺ قد حرم أمته، فقد أراحنا الله منها.

فأنزل الله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التحريم:١)، ثم قرأ رسول الله ﷺ:﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ (التحريم: من الآية٤)، فهي عائشة وحفصة، وزعموا أنهما كانتا لا تكتم إحداهما للأخرى شيئا، وكان لي أخ من الانصار إذا حضرت، وغاب في بعض ضيعته، حدثته بما قال رسول الله ﷺ وإذا غبت في بعض ضيعتي، حدثني فأتاني يوما وقد كنا نتخوف جبلة بن الايهم الغساني، فقال: ما دريت ما كان؟ فقلت: وما ذاك؟ لعله جبلة بن الايهم الغساني، تذكر قال: لا ولكنه أشد من ذلك إن رسول الله ﷺ صلى صلاة الصبح، فلم يجلس كما كان يجلس، و لم يدخل على أزواجه كما كان يصنع، وقد اعتزل في مسربته، وقد ترك الناس يموجون ولا يدرون ما شأنه، فأتيت والناس في المسجد يموجون ولا يدرون فقال: يا أيها الناس كما أنتم.

ثم أتى رسول الله ﷺ وهو في مسربته، قد جعلت له عجلة، فرقى عليها، فقال لغلام له أسود ــ وكان يحجبه ــ: استأذن لعمر بن الخطاب، فاستأذن لي فدخلت ورسول الله ﷺ في مسربته فيها حصير وأهب معلقة وقد أفضى بجنبه إلى الحصير، فأثر الحصير في جنبه وتحت رأسه وسادة من أدم محشوة ليفا، فلما رأيته بكيت، قال: ما يبكيك؟ قلت يا رسول الله، فارس والروم أحدهم يضطجع في الديباج والحرير، فقال: إنهم عجلت لهم طيباتهم، والآخرة لنا، ثم قلت: يا رسول الله، ما شأنك؟ فإني قد تركت الناس يموج بعضهم في بعض، فعن خبر أتاك فقال: اعتزلهن؟ فقال: لا، ولكن كان بيني وبين أزواجي شئ فأحببت ألا أدخل عليهن شهرا.

ثم خرجت على الناس، فقلت: يا أيها الناس، ارجعوا، فإن رسول الله ﷺ كان بينه وبين أزواجه شئ، فأحب أن يعتزل، فدخلت على حفصة، فقلت: يا بنتي، أتكلمين رسول الله وتغيظينه وتغارين عليه؟ فقالت: لا أكلمه بعد بشئ يكرهه، ثم دخلت على أم سلمة وكانت خالتي، فقلت لها كما قلت لحفصة، فقالت: عجبا لك يا عمر بن الخطاب، كل شئ تكلمت فيه، حتى تريد أن تدخل بين رسول الله ﷺ وبين أزواجه، وما يمنعنا أن نغار على رسول الله ﷺ وأزواجكم يغرن عليكم، فأنزل الله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ (الأحزاب:٢٨) حتى فرغ منها[1].

التفت الحكيم إلى جيري، وقال: إن هذه الحادثة التي ذكرتها لك بطولها وقعت في المدينة.. وكل لفظ منها يدلك على مدى الزهد الذي كان يعيشه محمد ﷺ.

إنها عند أصحاب الرؤى القاصرة مثار شبه كثيرة، ولكنها عند أصحاب العقول النيرة دليل من دلائل

([1]) ذكره الهيثمي في المجمع ٥ / ١٣ من طريق عبد الله بن صالح، وعزاه للطبراني في الاوسط، وهو ــ بصيغة أخرى ــ في الصحيحين من حديث عائشة ٨ / ٦٥٦ (٤٩١٢) (٦٦٩١) ومسلم ٢ / ١١٠٠ (٢٠ / ١٤٧٤)

الصدق والزهد والعفاف..

تصور لو أن محمدا ﷺ كان يملك قصرا كتلك القصور التي يملكها أثرياء عصره.. أو على الأقل كان يملك بيوتا كثيرة ممتلئة بالأثاث الكثير الذي كان ينعم به أهل عصره.. هل كان لمثل هذه الأحداث أن تقع؟

لا.. لن تقع أبدا.. لأن السبب الأول في هذه الأحداث هو المال.. فلو أن النبي ﷺ كان ذا مال وذا ثروة وذا بيوت واسعة كثيرة ما حصل ما حصل.

لقد رأيت صورة لبيت النبي ﷺ.. وقد ورد في رواية أخرى عن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ قال: دخلت على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رمال حصير قد أثر في جنبه، فرفعت رأسي في البيت، فوالله ما رأيت فيه شيئا يرد البصر، إلا أهب ثلاثة معلقة، وصبرة من شعير، فهملت عينا عمر، فقال: ما لك؟ فقلت: يا رسول الله أنت صفوة الله من خلقه، وكسرى وقيصر فيما هما فيه؟ فجلس محمرا وجهه، فقال: (أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ ثم قال: أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، أما ترضى أن تكون لهم الدنيا، ولنا الآخرة؟) قلت: بلى، يا رسول الله، فأحمد الله عز وجل)، ثم قال:(يا عمر لو شاء أن يسير الجبال الراسيات معي ذهبا لسارت)[1]

وعن ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال: اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح عنه، فقلت: يا رسول الله ألا آذنتنا فبسطت شيئا يقيك منه، تنام عليه، فقال: (ما لي وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فقال تحت شجرة ثم راح وتركها)[2]

التفت إلى الجمع المحيط به، ثم قال: لا تحسبوا أن هذه الفاقة فاقة ناتجة عن حاجة حقيقية، أو أن النبي ﷺ لم يكن يملك إلا هذا الخيار.. لا.. لقد كان الغنى أمامه.. لقد كان الغنى أقرب إليه من الفقر.. ولكنه آثر تلك الحياة حتى يكون كأبسط الناس، وأسوة لجميع الناس، وحتى لا يأتي أحد من الناس، فيتصور أن النبوة وسيلة من وسائل الثروة، أو طريق من طرقها.

لقد حدثت عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ عن الخيارات التي كانت متاحة أمام رسول الله ﷺ، فقالت: قال رسول الله ﷺ: (يا عائشة لو شئت لسارت معي جبال الذهب)[3]

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: (عرض علي ربي بطحاء مكة ذهبا، فقلت: لا يا رب، ولكني أجوع يوما، وأشبع يوما، فإذا شبعت حمدتك، وشكرتك، وإذا جعت تضرعت إليك، ودعوتك)[4]

وفي حديث آخر عن حبيب بن أبي ثابت عن خيثمة قال: قيل يا رسول الله ﷺ إن شئت أعطيناك خزائن الدنيا، ومفاتيحها لم نعطها أحدا قبلك، ولا نعطيها أحدا بعدك، لا ينقصك ذلك عند الله شيئا، فقال: (اجمعوها لي في الآخرة)، فأنزل الله:﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

([1]) رواه أحمد وأبو يعلى، وتمام الرازي، وابن عساكر وأبو داود الطيالسي، والترمذي، وصححه.. والجملة الأخير زادها أبو الحسن بن الضحاك.

([2]) رواه أحمد وأبو يعلى، وتمام الرازي، وابن عساكر وأبو داود الطيالسي، والترمذي – وصححه.

([3]) رواه ابن عساكر.

([4]) رواه ابن سعد، والترمذي، وأبو الشيخ عن أبي هريرة وابن سعد وابن حبان عن أبي أمامة.

الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً) (الفرقان:١٠)

وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: نام رسول الله ﷺ على وسادة حشوها ليف، فقام وقد أثر بجلده، فبكيت فقال: (يا أم سلمة ما يبكيك؟) قلت: ما أرى من أثر هذه، فقال: (لا تبكي، لو أردت أن تسير معي هذه الجبال لسارت)[١]

وروي أن جبريل عليه السلام جلس إلى رسول الله ﷺ، فنظر إلى السماء، فإذا ملك يترل، فقال جبريل: إن هذا ملك ما نزل منذ خلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد إن الله تعالى يخيرك بين أن تكون نبيا عبدا أو تكون نبيا ملكا، فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل كالمستشير له، فأشار جبريل إلى رسول الله ﷺ أن تواضع لربك، فقال رسول الله ﷺ: (بل أكون نبيا عبدا)، قال ابن عباس: فما أكل بعد تلك طعاما متكئا حتى لقي ربه)[٢]

وعن ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لقد هبط علي ملك من السماء ما هبط على نبي قبلي، ولا يهبط على أحد بعدي، وهو إسرافيل، فقال: أنا رسول ربك إليك أمرني أن أخيرك: إن شئت نبيا عبدا وإن شئت نبيا ملكا، فنظرت إلى جبريل فأومأ إلي أن تواضع، فلو أني قلت: نبيا ملكا لسارت الجبال معي ذهبا)[٣]

وعن خيثمة قال: قيل للنبي ﷺ:(إن شئت أعطيناك خزائن الأرض، ومفاتيحها، ما لم يعط شئ قبلك، ولا نعطيها أحدا بعدك، ولا ينقصك ذلك مما عند الله شيئا، وإن شئت جمعتها لك في الآخرة)، فقال ﷺ: (اجمعوها لي في الآخرة)[٤]

وعن أبي أمامة ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ: (عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا، فقلت: يا رب، ولكن أشبع يوما، وأجوع يوما ــ أو قال: ثلاثة، أو نحو هذا ــ فإذا جعت تضرعت إليك، وإذا شبعت حمدتك، وشكرتك)[٥]

وقد ظل هذا الخيار مفتوحا أمام رسول الله ﷺ طول حياته، فقد حدث أبو سعيد ــ رضي الله عنه ــ عن الأيام الأخيرة لرسول الله ﷺ، فذكر أنه ﷺ جلس على المنبر فقال: (إن عبدا خيره الله تعالى أن يؤتيه من زهرة الدنيا وما عنده، فاختار ما عنده)، فبكى أبو بكر، وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، قال: فعجبنا له فقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خير، وكأن رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا به[٦].

بل إن النبي ﷺ كان يسأل الله أن يختار له هذا النوع من الحياة البسيطة التي تجعله أقرب الناس إلى الناس،

---

(١) رواه أبو ذر الهروي.
(٢) رواه أحمد، وابن حبان عن أبي هريرة، ويعقوب بن سفيان وابن مردويه عن ابن عباس.
(٣) رواه الطبراني.
(٤) رواه البرقاني وابن أبي شيبة، وابن جرير.
(٥) رواه ابن المبارك.
(٦) رواه البخاري، وغيره.

فقد كان يدعو، ويقول:(اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا)[1]

وكان يسأل الله حياة المسكنة التي هي أقرب أنواع الحياة للعبودية، كان أبو سعيد ــ رضي الله عنه ــ يقول: أحبوا المساكين، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (اللهم أحيني مسكينا، وأمتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين)[2]

وعنه قال:(يا أيها الناس، لا يحملنكم العسر على طلب الرزق من غير حله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (اللهم توفني فقيرا، ولا توفني غنيا، واحشرني في زمرة المساكين، فإن أشقى الأشقياء من اجتمع عليه فقر الدنيا، وعذاب الآخرة)[3]

و لم يكن رسول الله ﷺ يكتفي بالدعاء.. بل كان في حياته ﷺ يتهرب من كل ما يمكن أن يملأ حياته بذخا وترفا.. بل من كل ما يملؤها هدوءا ودعة.

لقد حدثت عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: دخلت علي امرأة من الأنصار فرأت على فراش رسول الله ﷺ عباءة خشنة، فانطلقت، فبعثت إلي بفراش حشوه الصوف، فدخل رسول الله ﷺ فقال: (ما هذا يا عائشة؟) فقلت: يا رسول الله فلانة الأنصارية دخلت، فرأت فراشك، فذهبت، فبعثت إلي بهذا الفراش، فقال: (رديه)، قالت: فلم أرده، وقد أعجبني أن يكون في بيتي، حتى قال ذلك مرات، فقال: (رديه يا عائشة، فوالله لو شئت لأجرى الله معي الجبال ذهبا وفضة)[4]

وعن إسماعيل بن أمية قال: صنعت عائشة لرسول الله ﷺ فراشين، فأبى أن يضطجع على واحد[5].

وقد روي أن رجلا أتى رسول الله ﷺ بهدية، فنظر، فلم يجد شيئا يجعلها فيه، فقال: (ضعه في الحضيض، فإنما هو عبد يأكل كما يأكل العبد، ويشرب كما يشرب العبد، لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقي الكافر منها ماء)[6]

وعن عائشة ــ رضي الله عنه ــ قالت: اتخذت لرسول الله ﷺ فراشين حشوهما ليف وإذخر، فقال: (يا عائشة ما لي وللدنيا، إنما أنا والدنيا بمنزلة رجل نزل تحت شجرة في ظلها، حتى إذا فاء الفيئ ارتحل، فلم يرجع إليها أبدا)[7]

وعن زيد بن أرقم ــ رضي الله عنه ــ قال: كنا مع أبي بكر ــ رضي الله عنه ــ إذ استسقى، فأتي بماء وعسل، فلما وضعه على يديه بكى وانتحب، حتى ظننا أن به شيئا، ولا نسأله عن شيء، فلما فرغ قلنا: يا خليفة رسول الله ﷺ، ما حملك على هذا البكاء؟ قال: بينما أنا مع رسول الله ﷺ رأيته يدفع عن نفسه شيئا ولا

([1]) رواه البخاري ومسلم.
([2]) رواه ابن المبارك والترمذي.
([3]) رواه ابن عدي.
([4]) رواه الحسن بن عرفة في جزئه المشهور، وابن عساكر.
([5]) رواه أحمد في الزهد.
([6]) رواه ابن أبي شيبة.
([7]) رواه ابن حبان.

أرى شيئا، فقلت: يا رسول الله ما الذي أراك تدفع عن نفسك، ولا أرى شيئا؟ قال: (الدنيا تطلعت لي) فقلت: إليك عني، فقال لي:(أما إنك لست بمدركي) قال أبو بكر: فشق علي، وخشيت أن أكون قد خالفت أمر رسول الله ﷺ، ولحقتني الدنيا[1].

التفت الحكيم إلى جيري، وقال: هل يمكن لمستغل توفر له من الفرص ما توفر لمحمد ﷺ أن يذوق طعم الجوع؟

سكت جيري، فقال بعض القوم: لعل صاحبنا لا يعرف معنى الجوع، فاشرحه له.

قال الحكيم: الجوع جوعان.. هناك جوع يمكن تسميته جوع المترفين، وهو جوع يرجع سببه إلى أن المترف لم يجد من الطعام الذي يشتهي ما يملأ بطنه.. فلذلك لا يرتبط هذا النوع من الجوع بعدم وجود الطعام، وإنما يرتبط بعدم وجود الطعام المشتهى.

وهناك جوع سببه عدم وجود الطعام مطلقا.. لا المشتهى، ولا غير المشتهى.. وهذا هو الجوع الذي ذاقه رسول الله ﷺ حتى كان يعصب الحجر على بطنه منه.

التفت إلى جيري، وقال: سأذكر لك من النصوص التي تواترت لتدل على هذا[2]، وتنفي أي دخن قد يتسرب منه الشيطان ليملأ القلوب بالوساوس، وسأبدأ حديثي بأقرب الناس إلى النبي ﷺ والتي ذاقت معه من حياة الزهد ما ذاقت.

لقد ذكرت عائشة ــ رضي الله عنها ــ حياتها مع النبي ﷺ، فقالت: كان يأتي علينا الشهر، وما نوقد فيه نارا، إنما هوالتمر والماء، إلا أن نؤتى باللحم)[3]

وقالت:(ما شبع آل محمد من خبز بر ثلاثة أيام متتابعات، حتى قبض ﷺ)

وقالت:(ما أكل آل محمد أكلتين في يوم واحد إلا إحداهما تمر)

وقالت: توفي رسول الله ﷺ حين شبع الناس من الأسودين، التمر والماء.

وقالت: ما شبعنا من الأسودين التمر والماء.

وقالت: والله لقد مات رسول الله ﷺ وما شبع من خبز، وزيت في يوم واحد مرتين.

وقالت: ما رفع رسول الله ﷺ غداء لعشاء، ولا عشاء لغداء قط، ولا اتخذ من شئ زوجين لا قميصين، ولا رداءين، ولا إزارين، ولا من النعال ولا رئي فارغا قط في بيته، إما يخصف نعلا لرجل مسكين أو يخيط ثوبا لأرمة[4].

([1]) رواه البزار.

([2]) تعمدنا نقل الروايات الكثيرة بتخريجها هنا لأن هناك من يناقش في مثل هذا انطلاقا من صورة رسمها لرسول الله ﷺ راح يفرضها عليه ضاربا بالنصوص المقدسة عرض الحائط.

أما ما قد يساء فهمه من هذه النصوص، فقد ذكرنا الرد عليه في مناسبات كثيرة.

([3]) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.. والأقوال التي تلي قولها هذا روايات في الحديث، وقد اخترنا اعتبارها أحاديث قائمة بذاتها.

([4]) رواه ابن عساكر.

وقالت:(والذي بعث محمدا بالحق نبيا ما رأى منخلا، ولا أكل خبزا منخولا، منذ بعثه الله إلى أن قبض، قيل، كيف كنتم تصنعون؟ قالت: كنا نقول أف أف[1] .

وقالت: ما كان يبقى على مائدة رسول الله ﷺ من خبز الشعير قليل ولا كثير[2] .

وقالت: ما رفعت مائدة رسول الله ﷺ من بين يديه، وعليها فضلة من طعام قط[3] .

وقالت: ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعا حتى مضى لسبيله[4] .

وكانت تقول لعروة: يا ابن أختي، إنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار، قلت: يا خالة فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، وكانت لهم منائح، وكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها، فيسقيناه.

وكانت تقول له:(وايم الله، يا ابن أختي إن كان يمر على آل محمد الشهر لم يوقد في بيت رسول الله ﷺ نار، لا يكون إلا أن حوالينا أهل دور من الأنصار – جزاهم الله خيرا في الحديث والقديم – فكل يوم يبعثون إلى رسول الله ﷺ بغزيرة شياههم، فينال رسول الله ﷺ من ذلك، ولقد توفي رسول الله ﷺ وما في رفى من طعام يأكله ذو كبد إلا قريبا من شطر شعير، فأكلت منه حتى طال علي، لا تغني وكلته عني، فيا ليتني لم آكله، وأيم الله، وكان ضجاعه من أدم حشوه ليف)

وقالت: لو أردت أن أخبركم بكل شبعة شبعها رسول الله ﷺ حتى مات، لفعلت[5].

وقالت: أهديت لنا ذات يوم يد شاة من بيت أبي بكر ــ رضي الله عنه ــ فوالله إني لأمسكها على رسول الله ﷺ ويحزها، أو يمسكها علي رسول الله ﷺ وأحزها، قبل على غير مصباح؟ قالت: لو كان عندنا دهن مصباح لأكلناه، إن كان ليأتي على آل محمد الشهر ما يخبزون فيه خبزا، ولا يطبخون فيه برمة[6] .

وقالت: ما شبع آل محمد ثلاثة أيام من خبز البر حتى ذاق رسول الله ﷺ الموت، وما زالت الدنيا علينا عسرة كدرة حتى مات رسول الله ﷺ، فلما مات أنصبت علينا صبا[7].

وقالت: ربما قال النبي ﷺ: (يا عائشة هلمي إلى غذاءك المبارك، وربما لم يكن إلا التمرتين)[8]

وقالت: ما اجتمع في بطن رسول الله ﷺ طعامان قط، إن أكل لحما لم يزد عليه، وإن أكل تمرا لم يزد عليه، وإن أكل خبزا لم يزد عليه[9] .

---

(1) رواه أحمد برجال ثقات غير سليمان بن رومان.
(2) رواه الطبراني في الأوسط بسند حسن.
(3) رواه الطبراني في الأوسط بسند حسن.
(4) رواه البخاري ومسلم والبيهقي.
(5) رواه ابن عساكر.
(6) رواه ابن سعد وأحمد برجال الصحيح وابن عساكر وابن الجوزي.
(7) رواه ابن عساكر.
(8) رواه ابن عدي.
(9) رواه ابن سعد.

وعن مسروق قال: دخلت على عائشة يوما، فدعت بطعام فقالت لي: كل فلقل ما أشبع من طعام، فأشاء أن أبكي أن بكيت، قال: قلت: لم يا أم المؤمنين؟ قالت: أذكر الحال التي فارقها رسول الله ﷺ، ما شبع رسول الله ﷺ في يوم مرتين من خبز شعير حتى لحق بالله[1] .

وقال: دخلت على عائشة، وهي تبكي، فقلت: يا أم المؤمنين ما يبكيك؟ قالت: ما ملأت بطني من طعام فشئت أن أبكي إلا بكيت، أذكر رسول الله ﷺ وما كان فيه من الجهد[2] .

وقال: دخلت على عائشة وهي تبكي، فقلت: يا أم المؤمنين ما يبكيك؟ قالت: ما أشبع فأشاء أن أبكي إلا بكيت، وذلك لأن رسول الله ﷺ كانت تأتي عليه أربعة أشهر ما يشبع من خبز بر[3].

وعلى ما شهدت به عائشة ــ رضي الله عنها ــ تواترت الشهادات الكثيرة من المقربين لرسول الله ﷺ.. وسأذكر لك من ذلك ما يعطيك صورة عن هذا العفيف الزاهد الذي لم تجد له في قاموسك غير وصف الجشع والحرص والاستغلال.

ذكر أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ أن فاطمة ــ رضي الله عنها ــ جاءت بكسرة خبز إلى رسول الله ﷺ فقال: (ما هذه الكسرة؟) قالت: قرصة خبزتها، فلم تطب نفسي إلا أن آتيك بهذه الكسرة، فقال: (أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام)[4]

وقال: مشيت إلى رسول الله ﷺ بخبز شعير وله هالة ولقد سمعته يقول: (ما أصبح لآل محمد، ولا أمسى في آل محمد إلا صاع، وإنهن يومئذ لتسعة أبيات)[5]

وقال: إن النبي ﷺ لم يجتمع له غداء ولا عشاء من خبز ولحم إلا على ضفف[6] .

وقال: شهدت وليمة للنبي ﷺ ما فيها خبز ولا لحم[7] .

وقال: أكل رسول الله ﷺ بشعا ولبس خشنا، فسئل أبو الحسن ما البشع؟ قال: غليظ الشعير، وما كان يسفه إلا بجرعة من ماء[8].

وقال: ما أعلم أن رسول الله ﷺ رأى رغيفا مرققا بعينه، حتى لحق بربه، ولا شاة سميطا قط[9] .

وعن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ يلتوي يومه من الجوع، ما يجد

([1]) رواه ابن عساكر.

([2]) رواه ابن سعد.

([3]) رواه ابن سعد.

([4]) رواه أحمد، وابن سعد وأبو داود، والحارث بن أبي أسامة برجال ثقات.

([5]) رواه البخاري ومسلم، وقد علل الحسن البصري هذه الخطبة بقوله فيما رواه أبو الحسن بن الضحاك وابن سعد عنه قال: خطب رسول الله ﷺ الناس فقال: (والله ما أمسى في آل محمد صاع من طعام لتسعة أبياته، والله ما قالها رسول الله ﷺ استقلالا لرزق الله تعالى، ولكن أراد أن تتأسى به أمته)

([6]) رواه ابن أبي شيبة، أحمد، وأبو يعلى، والترمذي في الشمائل، وابن سعد بإسناد صحيح.

([7]) رواه ابن سعد.

([8]) رواه أبو الحسن بن الضحاك.

([9]) رواه ابن سعد.

من الدقل ما يملاء به بطنه[1] .

وعن يزيد الرقاشي قال: قدم على عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وفد من قبل البصرة فيهم الأحنف بن قيس، فرأوا طعاما خشنا وثوبين خلقين، فكلموا حفصة أن تكلمه في ذلك، فكلمته، فجعل عمر ـــ رضي الله عنه ـــ يناشدها الله، هل تعلمين أن رسول الله مكث عشرين سنة لم يشبع من خبز الشعير؟ لم يشبع ثلاثين يوما تباعا[2] .

وعن أبي هريرة ـــ رضي الله عنه ـــ قال: والذي نفسي بيده، ما شبع رسول الله ﷺ وأهله ثلاثة أيام تباعا من خبز حنطة، حتى فارق الدنيا[3].

وقال:(ما كان يفضل عند أهل بيت رسول الله ﷺ خبز الشعير)[4]

وقال: مات رسول الله ﷺ لى و لم يشبع هو، ولا أهله من خبز الشعير[5] .

وقال: ما شبع رسول الله ﷺ من الكسر اليابسة، حتى فارق الدنيا، وأصبحتم تهذرون الدنيا[6] .

وقال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يصلي جالسا، قلت: يا رسول الله ما أصابك؟ قال: (الجوع)، فبكيت قال: (لا تبك يا أبا هريرة، فإن شدة الجوع لا تصيب الجائع – يعني يوم القيامة – إذا احتسب في دار الدنيا)[7]

وقال: أتى رسول الله ﷺ يوما بطعام سخين، فأكل، فلما فرغ قال: (الحمد لله ما دخل بطني طعام سخين منذ كذا وكذا)[8]

وقال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني مجهود فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، فأرسل إلى أخرى، فقالت: مثل ذلك، حتى قال كلهن مثل ذلك، فقال رسول الله ﷺ: (من يضيف هذا الليلة رحمه الله تعالى؟) فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله ﷺ، فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: أعندك شيء؟ فقالت: لا، إلا قوت صبياني[9] .

وروي أنه مر بالمغيرة بن شعبة وهو يطعم الطعام، فقال: ما هذا الطعام؟ قال: خبز النقي واللحم للمسلمين قال: وما النقي؟ قال: الدقيق، فعجب أبو هريرة، ثم قال: عجبا لك يا مغيرة، رسول الله ﷺ قبضه الله تعالى، وما شبع من الخبز والزيت مرتين في يوم، وأنت وأصحابك تهذرون ههنا الدنيا بينكم ونقد باصبعه،

---

(1) رواه ابن سعد.
(2) رواه أبو الحسن بن الضحاك.
(3) رواه أحمد والبخاري ومسلم، والترمذي.
(4) رواه الترمذي.
(5) رواه ابن سعد.
(6) رواه ابن سعد.
(7) رواه ابن أبي الدنيا وأبو سعد الماليني وأبو الحسن بن الضحاك.
(8) رواه ابن ماجه.
(9) رواه ابن ماجة.

يقول كأنكم صبيان[1] .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ كان يبيت الليالي المتتابعة طاويا، وأهله لا يجدون عشاء، وكان عامة خبزهم خبز الشعير[2] .

وعن أبي الدرداء ــ رضي الله عنه ــ قال: لم يكن ينخل لرسول الله ﷺ دقيق قط[3].

وعن عبد الرحمن بن عوف ــ رضي الله عنه ــ قال: خرج رسول الله ﷺ من الدنيا، و لم يشبع هو، ولا أهله من خبز الشعير[4] .

وعنه قال: مات رسول الله ﷺ و لم يشبع من خبز الشعير، فما أرنا أخرنا لما هو خير لنا[5] .

وعن نوفل بن إياس الهذلي قال: أتينا في بيت عبد الرحمن بن عوف بصحيفة فيها خبز ولحم، فلما وضعت بكى عبد الرحمن، قلت: ما يبكيك؟ فقال: مات رسول الله ﷺ و لم يشبع هو ولا أهله من خبز الشعير، ولا أرانا أخرنا لما هو خير لنا[6] .

وعن سهل بن سعد ــ رضي الله عنه ــ قال: ما شبع رسول الله ﷺ في يوم شبعتين حتى فارق الدنيا[7] .

وعن أبي أمامة ــ رضي الله عنه ــ قال: ما كان يفضل من أهل بيت رسول الله [8] ﷺ.

وعن النعمان بن بشير قال: ألستم في طعام وشراب ما شئتم، لقد سمعت ابن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ يقول: لقد رأيت نبيكم ﷺ يلتوي من الجوع، وما يجد من الدقل ما يملأ بطنه[9] .

وعنه قال: احمدوا الله عز وجل فربما أتى على رسول الله ﷺ اليوم يظل يلتوي ما يشبع من الدقل[10] .

وعن عمران بن حصين ــ رضي الله عنه ــ قال: ما شبع آل محمد ﷺ من خبز مأدوم حتى مضى لسبيله [11].

وقال: ما شبع رسول الله ﷺ من غداء وعشاء حتى لقي ربه[12] .

وعن أبي حازم قال: قلت لسهل بن سعد: أكانت المناخل على عهد رسول الله ﷺ؟ فقال: ما رأيت منخلا في ذلك الزمان، وما أكل النبي ﷺ الشعير منخولا حتى فارق الدنيا، قلت: كيف تصنعون؟ قال: (كنا

---

(1) رواه ابن سعد.
(2) رواه أحمد، وابن سعد والترمذي وصححه.
(3) رواه الطبراني.
(4) رواه البزار بسند جيد.
(5) رواه عبد بن حميد.
(6) رواه الترمذي وابن سعد.
(7) رواه الطبراني.
(8) رواه أحمد وابن سعد والترمذي وصححه.
(9) رواه مسلم والبيهقي.
(10) رواه ابن أبي شيبة.
(11) رواه أحمد.
(12) رواه الطبراني.

نطحنها، ثم ننفخ قشرها، فيطير ما طار، ويتمسك ما استمسك)[1]

وعن ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ قال: دخلت مع رسول الله ﷺ حائطا من حيطان المدينة، فجعل يأكل بشرا أخضر، فقال: (كل يا ابن عمر)، فقلت ما أشتهيه يا رسول الله، قال: (ما تشتهيه؟ إنه لأول طعام أكله رسول الله ﷺ منذ أربعة أيام)[2]

وعن عتبة بن غزوان ــ رضي الله عنه ــ قال: لقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما طعامنا إلا ورق الحبلة حتى تقرحت أشداقنا[3] .

وكان ﷺ يعصب في أحيان كثيرة الحجر على بطنه من الجوع[4] .. فهل يمكن لإنسان حريص مستغل أن يفعل هذا؟

لقد تواتر هذا عن الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ وسأذكر لك من الشهادات ما يدلك على ذلك:

عن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ قال: احتفر رسول الله ﷺ الخندق وأصحابه قد شدوا الحجارة على بطونهم من الجوع[5].

وعن جبير بن نفير قال: قال أبو البجير ــ رضي الله عنه ــ: أصاب رسول الله ﷺ يوما الجوع، فوضع على بطنه حجرا، وقال: (يا رب نفس ناعمة طاعمة، جائعة عارية يوم القيامة)[6]

وعنه قال: كان رسول الله ﷺ يشد حبليه بالحجر من الغرث[7] .

وعن جابر ــ رضي الله عنه ــ قال: مكث رسول الله ﷺ وأصحابه، وهم يحفرون الخندق ثلاثا لم يذوقوا

([1]) رواه ابن سعد والدارقطني في الافراد، وصححه.

([2]) رواه الطبراني.

([3]) رواه أحمد، ومسلم، وابن ماجه.

([4])وقد كان ذلك من عادة العرب عند الجوع، فإذا خوى البطن لم يمكن معه الانتصاب، فيعمل الشخص حينئذ إلى صفائح رقاق في طول الكف، أو أكثر، فيربطها على بطنه، ويشدها بعصابة فوقها، فتعتدل قامته بعض الاعتدال، وقد قال بعض من وقع له ذلك: كنت أظن أن الرجلين تحملان البطن، فإذا البطن هو الذي يحمل الرجلين.

ومما يدل على اشتهار ذلك بين العرب ما رواه أحمد، والبخاري، عن عبد الله بن عتيق قال: أقمت مع أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ سنة، فقال: لو رأيتنا، وإننا ليأتي على أحدنا الأيام ما يجد طعاما يقيم به صلبه، حتى إن كان أحدنا ليأخذ الحجر فيشد به على أخمص بطنه، ثم يشده بثوبه، ليقيم به صلبه.

وروى أبو داود الطيالسي عن أبي سعيد الخدري ــ رضي الله عنه ــ قال: أصابني جوع على عهد رسول الله ﷺ حتى شددت على بطني حجرا.

وروى الحارث بن أبي أسامة عن عامر بن ربيعة ــ رضي الله عنه ــ قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية نخلة ومعنا عمرو بن سراقة، وكان رجلا لطيف البطن طويلا، فجاع، فانثنى صلبه، وكان لا يستطيع أن يمشي، فسقط علينا، فأخذنا صفحة من حجارة فربطناها على بطنه، ثم شددنا إلى صلبه، فمشى معنا، فجئنا حيا من العرب، فضيفونا، فمشى معنا، قال: كنت أحسب الرجلين تحملان البطن، فإذا البطن يحمل الرجلين.

([5]) رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في زوائد المسند.

([6]) رواه البيهقي وابن عساكر.

([7]) رواه ابن سعد.

طعاما، قال جابر: فحانت مني التفاتة فإذا رسول الله ﷺ قد شد على بطنه حجرا من الجوع[1] .

وعن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: قال أبو طلحة: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع، ورفعنا عن حجر حجر، فرفع النبي ﷺ عن حجرين[2] .

وعن أبي البجير ــ رضي الله عنه ــ قال: أصاب النبي ﷺ جوع يوما، فعمد إلى حجر فوضعه على بطنه[3].

وعن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: جئت رسول الله ﷺ يوما فوجدته جالسا مع أصحابه يحدثهم، وقد عصب على بطنه بعصابة، قال أسامة: أنا أشد على حجر، فقلت لبعض أصحابه: لم عصب رسول الله ﷺ بطنه؟ قالوا: من الجوع[4] .

وعن حصين بن يزيد الكلبي ــ رضي الله عنه ــ قال: ربما شد رسول الله ﷺ على بطنه الحجر من الجوع[5].

وقد صور الشاعر الصالح[6] ذلك بقوله:

طــوى كشـــحه تحـــت الحجـــارة مـــن طـــوى	وإحســـــانه مــــا قـــــل منــــه مثــــال
كـــأن عيـــــال النـــــاس طـــــرا عيالــــه	فكلـــــــهم ممـــــا لديــــــه يعــــــال
يبيـــت علـــى فقـــر، ولـــو شـــاء حولـــت	لـــــه ذهبــــــا محضـــــا ربي وجبــــــال
ومــــا كانـــــت الـــــدنيا لديــــه بموقــــع	فقـــــد صـــــرمت فيهـــــا لديــــه حبـــــال
رأى هـــــــذه الـــــــدنيا ســــريعا زوالهـــــا	فلـــــم يــــرض شـــــيئا يعتريــــــه زوال
لعمـــــرك مــــــا الأعمــــــار إلا قصــــيرة	ولكـــــن آمـــــــال الرجـــــال طــــــوال
أتتــــــه مفــــــاتيح الكنـــــوز فردهـــــا	وعافــــــت يمـــــين مســـــها وشمـــــال
وكــــان يفــــيض المـــــال بـــين عفاتـــــه	كمـــــا فضـــــت التـــــرب المهـــــال شمـــــال
فمــــا كـــــان للمـــــال الشـــــديد بمائـــــل	وكـــــم غــــر أربـــــاب العقـــــول فمــــالوا

وكان ﷺ لذلك كله يسد جوعه بأي طعام حلال، لا يسأل عن نوعه، ولا عن طيبته التي يحرص عليها

(1) رواه البخاري ومسلم.
(2) رواه الترمذي بسند جيد قوي.
(3) رواه ابن أبي الدنيا، والبيهقي في الزهد، وابن عساكر.
(4) رواه مسلم والبيهقي.
(5) رواه أبو نعيم وابن عساكر.
(6) هو ابن جابر الأندلسي، وقد مضى ذكره وذكر قصيدته في رسالة (قلوب مع محمد)

أهل الشهوات، لقد كان رسول الله ﷺ يقول: (ما أبالي ما رددت به عن الجوع)[1]

وعن عتبة بن غزوان ــ رضي الله عنه ــ قال: لقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ، وما لنا طعام إلا أوراق الشجر، حتى تقرحت أشداقنا[2] .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ قال: دخل رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على أم هانئ بنت أبي طالب، وكان جائعا.. فقال رسول الله ﷺ:(هل عندك طعام آكل) فقالت: إن عندي لكسرة يابسة، وإني أستحي أن أقدمها، قال: (هلميها فكسرها في ماء)، فجاءته بملح، فقال: (ما من أدم؟) فقالت: ما عندي يا رسول الله إلا شئ من خل، فقال: (هلميه)، فلما جاءت صبه على طعامه، وأكل، ثم حمد الله تعالى، ثم قال: (نعم الأدم الخل يا أم هانئ لا يفتقر بيت فيه خل)[3]

وعن أم سعد قالت: دخل رسول الله ﷺ على عائشة وأنا عندها، فقال: هل من غداء؟ قالت: عندنا خبز وتمر وخل، فقال رسول الله ﷺ:(نعم الإدام الخل.. اللهم بارك في الخل، فإنه كان إدام الأنبياء قبلي، و لم يفتقر بيت فيه خل)[4]

وعن أسماء بنت عميس، وكانت صاحبة عائشة التي خبأتها فأدخلتها على رسول الله ﷺ في نسوة، فما وجدنا عنده إلا قوتا، إلا قدحا من لبن، فتناول فشرب منه، ثم ناوله عائشة فاستحيت منه، فقلت: لا تردي يد رسول الله ﷺ، فأخذته فشربته، ثم قال: (ناولي صواحبك)، فقلن: لا نشتهيه، فقال: (لا تجمعن كذبا وجوعا)، فقلت: إن قالت إحدانا لشئ تشتهيه لا أشتهي، أيعد ذلك كذبا؟ فقال: (إن الكذب يكتب كذبا، حتى الكذيبة تكتب كذيبة)[5]

ولكنه ﷺ في المقابل كان أحرص الناس على طيبة الطعام التي يعرفها الصالحون، والتي أمر الله تعالى بها أنبياءه في قوله:﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (المؤمنون:٥١)

وهي طيبة لا تعتمد الذوق ولا النكهة ولا تفنن الطباخين، وإنما تعتمد على كون الطعام حلالا لم يختلط بعرق المستضعفين، ولا دماء المحرومين.

ولهذا كان ﷺ يخشى من طعام الصدقة، ولا يأكله مع عظم حاجته إليه، عن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: كان رسول الله ﷺ ليصيب التمرة، فيقول: (لولا أخشى أنها من الصدقة لأكلتها)[6]

وعن ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ وجد تمرة تحت جنبه من الليل فأكلها، فلم ينم تلك الليلة، فقالت بعض نسائة: يا رسول الله أرقت البارحة، قال: (إني وجدت تمرة فأكلتها، وكان عندي تمر من

([1]) رواه ابن المبارك في الزهد عن الأوزاعي.
([2]) رواه أبو الحسن بن الضحاك.
([3]) رواه ابن المبارك في الزهد.
([4]) رواه ابن ماجة.
([5]) رواه أحمد.
([6]) رواه البخاري ومسلم.

تمر الصدقة، فخشيت أن تكون منه)[1]

التفت إلى جيري، وقال: لاشك أن لكل مستغل حريص رصيد في البنك يخبئه لوقت الحاجة، فهو لا يكتفي ــ لحرصه ــ بما يأكله أو يلبسه في لحظته، بل يريد أن يضمن كل لحظة من حياته.. بل هو يسعى ليخزن من الأموال ما يكفيه لآلاف السنين.

أليس كذلك.. أم تراني خاطئا؟

قال رجل من الجماعة: بل هو كذلك.. بل من هؤلاء من يخزن المال الذي يكفي الملايين.. بينما لم يبق من عمره إلا أيام معدودة.

قال الحكيم: أما محمد ﷺ.. فقد كان خلاف ذلك تماما.. فلم يكن يدخر شيئا لغد[2] .

عن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: كان رسول الله ﷺ لا يدخر شيئا لغد[3] .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ قال: نظر رسول الله ﷺ إلى أحد فقال: (ما يسرني أنه ذهب لآل محمد، أنفقه في سبيل الله، أموت يوم أموت وعندي منه ديناران، إلا دينارين أعدهما للدين إن كان)[4]

وعن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: كنت أخدم رسول الله ﷺ فقال يوما: (ما عندك شئ تطعمنا؟) قلت: نعم يا رسول الله، فضل من الطعام الذي كان أمس، قال: (ألم أنهك أن تدع طعام يوم لغد؟)[5]

وعنه قال: أهدي لرسول الله ﷺ طائران، فقال: (ما هذا؟) قال بلال: خبأته لك يا رسول الله، فقال: (يا بلال لا تخف من ذي العرش إقلالا.. إن الله تعالى سيأتي برزق كل غد، ألم أنهك أن تدخر شيئا لغد؟)[6]

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: دخل رسول الله ﷺ على بلال فوجد عنده صبرة من تمر، فقال: (ما هذا يا بلال؟) فقال: تمر أدخره، فقال: (ويحك يا بلال، أو ما تخاف أن يكون له بخار في النار؟ انفق يا بلال، ولا تخش من ذي العرش إقلالا)[7]

وعن أم سلمة ــ رضي الله عنها ــ قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وهو ساهم الوجه قالت: حسبت ذلك من وجع، قلت: ما لي أراك ساهم الوجه؟ قال: (من أجل الدنانير السبعة التي أتتنا بالأمس، و لم نقسمها)

([1]) رواه أحمد برجال ثقات.

([2]) أما ما روي من أنه كان يدخر قوت سنة، فقد أجاب عنه الحافظ البجلي بقوله: سألت نعيم بن حماد قلت: جاء عن رسول الله ﷺ أنه لم يشبع في يوم من خبز مرتين، وجاء عنه أنه كان يعد لأهله قوت سنة، فكيف هذا؟ قال: كان يعد لأهله قوت سنة، فتنزل النازلة، فيقسمه، فيبقى بلا شئ.

ومما يؤيد هذا ما رواه أحمد، وأبو يعلى برجال ثقات عن أنس قال: أهديت لرسول الله ﷺ ثلاثة طوائر فأطعم خادمه طائرا، فلما كان من الغد أتته به، فقال لها رسول الله ﷺ: (ألم أنهك أن ترفعي شيئا لغد؟ فإن الله تعالى يأتي برزق كل غد)

([3]) رواه البخاري.

([4]) رواه أحمد وأبو يعلى بسند جيد.

([5]) رواه ابن أبي شيبة في المصنف.

([6]) رواه أبو سعد الماليني والخطيب.

([7]) رواه البيهقي، والبزار، والطبراني، وأبو يعلى.

١

وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ أنها قالت لأبي أمامة بن سهل بن حنيف، وعروة بن الزبير: لو رأيتما رسول الله ﷺ في مرض له، وكانت عندي ستة دراهم أو سبعة، قالت: فأمرني نبي الله ﷺ أن أفرقها، قالت: فشغلني وجع النبي ﷺ حتى عافاه الله، ثم سألني عنها، فقال: (ما فعلت، أكنت فرقت الستة الدنانير أو السبعة؟) فقلت: لا، والله، لقد كان شغلني وجعك، قالت: فدعا بها، فوضعها في كفه، فقال: (ما ظن نبي الله لو لقي الله وهذه عنده؟)[٢]

وعن جمع من الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه ذات يوم، وفي يده قطعة من ذهب، فقال لعبد الله بن عمر: ما كان قال لربه إذا مات وهذه عنده؟ فقسمها قبل أن يموت، والتفت إلى أحد، فقال: (والذي نفسي بيده ما يسرني أن يحول هذا ذهبا وفضة لآل محمد، أنفقه في سبيل الله، أبقي بعد صبح ثلاثة، وعندي منه شيء، إلا شيئا أعده لدين)، وفي لفظ: (أموت يوم أموت أدع منه دينارين، إلا دينارين أعدهما لدين أن كان)، قال ابن عباس: فمات رسول الله ﷺ، وما ترك دينارا، ولا درهما، ولا عبدا، ولا وليدة، وترك درعه مرهونة عند رجل من اليهود رهنا بثلاثين صاعا من شعير، كان يأكل منها ويطعم عياله[٣] .

وعن بلال ــ رضي الله عنه ــ: قال: دخل رسول الله ﷺ، وعندي شئ من تمر، فقال: (ما هذا؟) فقلت: ادخرنا لشتائنا، فقال: (أما تخاف أن ترى له بخارا في جهنم؟)[٤]

عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: دخل رسول الله ﷺ على بلال، وعنده صبرة من تمر، فقال: (ما هذا يا بلال)، قال: أعددت ذلك لأضيافنا، قال: (أما تخشى أن يكون له بخار في نار جهنم؟ أنفق بلال، ولا تخش من ذي العرش إقلالا)[٥]

وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: قال رسول الله ﷺ: (يا بلال أطعمنا)، قال: ما عندي إلا صبرة من خبز خبأته لك، قال: (أما إن الله يجعل له بخارا في نار جهنم أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا)[٦]

وعن أبي ذر ــ رضي الله عنه ــ قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في صرة المدينة فاستقبلنا أحدا، فقال: يا أبا ذر، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: (ما يسرني أن عندي مثل أحد ذهبا، تمضي على ثلاثة، وعندي منه دينار، إلا شيئا أرصده لدين، إلا أن أقول في عباد الله هكذا، وهكذا)[٧]

وعن ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ قال: خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان الأنصار،

---

(١) رواه ابن حبان والبيهقي.

(٢) رواه ابن سعد والبيهقي.

(٣) رواه البزار عن أبي سعيد، والبزار، والطبراني عن سمرة بن جندب، والطبراني، والبزار بسند حسن وأحمد، وأبو يعلى برجال ثقات والبزار وأحمد بسند حسن عن ابن عباس.

(٤) رواه الطبراني والبزار.

(٥) رواه البزار، والطبراني بسند حسن.

(٦) رواه أبو ذر الهروي في دلائله.

(٧) رواه البخاري.

فجعل يلتقط من التمر، ويأكل، فقال لي: (يا ابن عمر ما لك لا تأكل؟) قلت يا رسول الله لا أشتهيه، قال: (لكني أشتهيه، وهذه صبح رابعة لم أذق طعاما، و لم أجده، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبون رزق سنتهم ويضعفون؟ قال: فوالله ما برحنا، ولا زمنا حتى نزلت:﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (العنكبوت:٦٠)، فقال رسول الله ﷺ:(لم يأمرني بكنز الدنيا، ولا اتباع الشهوات، فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية، فإن الحياة بيد الله، ألا وإني لا أكنز دينارا، ولا درهما، ولا أخبئ رزقا لغد)[1]

التفت إلى جيري، وقال: أليس كل المستغلين الذين تنفتح لهم الدنيا لا يقنعون بما هم فيه، بل يضمون إلى غناهم غنى أولادهم، وغنى كل من يتقرب منهم.

قال رجل من الجماعة: ذلك صحيح.. ولا نحسب ذلك إلا طبعا في البشر، فلا ينفك أحد منهم منه.

قال الحكيم: إلا محمد ﷺ، أو من رباه محمد ﷺ.. فإنه يستحيل عليه أن يطعم ولده ثمرة استغلال.. اسمعوا لما روته الأخبار الصحاح:

عن فاطمة ــ رضي الله عنها ــ أن رسول الله ﷺ أتاها يوما فقال:(أين أبنائي؟) يعني: حسنا وحسينا، قالت: أصبحنا وليس في بيتنا شئ يذوقه ذائق، فقال علي: اذهب بهما، فإني أتخوف أن يتليا عليك، وليس عندك شيء، فذهب إلى فلان اليهودي فتوجه إليه رسول الله ﷺ فوجدهما يلعبان في سرية بين أيديهما فضل من تمر، فقال:(يا علي ألا تقلب ابني قبل أن يشتد الحر؟)، قال علي: أصبحنا وليس في بيتنا شئ، فلو جلست يا رسول الله، حتى أجمع لفاطمة شيئا من التمر، فجلس رسول الله ﷺ حتى اجتمع لفاطمة شئ من التمر، فجعله في صرته ثم أقبل، فحمل النبي ﷺ أحدهما وعلي الآخر، حتى أقبلهما[2] .

وعن علي ــ رضي الله عنه ــ أنه قال لفاطمة ــ رضي الله عنها ــ ذات يوم: والله، لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وقد جاء أبوك بسبي فاذهبي فاستخدميه، فقالت: وأنا والله، لقد طحنت حتى مجلت يداي فأتت رسول الله ﷺ فقال:(ما جاء بك أي بنية؟) قالت: جئت لأسلم عليك، واستحيت أن تسأله ورجعت، فقال: ما فعلت؟ قالت: استحييت أن أسأله، فأتيا جميعا رسول الله ﷺ، فقال علي: يا رسول الله، لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وقالت فاطمة: يا رسول الله، لقد طحنت حتى مجلت يداي، وقد جاءك الله بسبي وسعة، فأخدمنا فقال: لا، والله، لا أعطيكم، وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع لا أجد ما أنفق عليهم ولكني أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم فرجع.

فأتاهما رسول الله ﷺ، وقد دخلا في قطيفتهما إذا غطت رؤوسهما تكشفت أقدامهما، وإذا غطت أقدامهما تكشفت رؤوسهما فتأثر فقال: مكانكما، ثم قال:(ألا أخبر كما بخير مما سألتماني)، قالا: بلى، قال:(كلمات علمنيهن جبريل فقال: تسبحان الله في دبر كل صلاة عشرا وتحمدان عشرا وتكبران عشرا، فإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثا وثلاثين واحمدا ثلاثا وثلاثين وكبرا أربعا وثلاثين)

([1]) رواه أبو بكر الحميدي.

([2]) رواه الطبراني بسند حسن.

قال علي: فوالله، ما تركتهن منذ سمعت ذلك من رسول الله ﷺ فقال له رجل: أين الكوا ولا ليلة صفين، فقال: قاتلكم الله ولا ليلة صفين[1] .

وعن ثوبان ــ رضي الله عنه ــ قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر آخر عهده بإنسان من أهله فاطمة، وأول من يدخل عليه إذا قدم فاطمة، فقدم من غزاة له، فأتاها، فإذا هو بمسح على بابها، ورأى على الحسن والحسين قلبين من فضة، فرجع، ولم يدخل لها، فلما رأت ذلك فاطمة ظنت أنه لم يدخل عليها من أجل ما رأى، فهتكت الستر، ونزعت القلبين من الصبيين، فقطعتهما، فبكى الصبيان، فقسمته بينهما، فانطلقا إلى رسول الله ﷺ، وهما يبكيان، فأخذه ﷺ، فقال: (يا ثوبان، اذهب بهذا إلى بني فلان أهل بيت بالمدينة، واشتر لفاطمة قلادة من عصب وسوارا من عاج)، ثم قال:(هؤلاء أهل بيتي، ولا أحب أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا)[2]

وعن عمران بن حصين ــ رضي الله عنه ــ قال: إني لجالس عند النبي ﷺ إذ أقبلت فاطمة، فقامت بحذاء النبي ﷺ مقابلة فقال:(ادني يا فاطمة)، فدنت دنوة، ثم قال:(ادني يا فاطمة)، فدنت دنوة، ثم قال:(ادني يا فاطمة)، فدنت دنوة حتى قامت بين يديه قال عمران: فرأيت صفرة قد ظهرت على وجهها، وذهب الدم، فبسط رسول الله ﷺ بين أصابعه ثم وضع كفه بين ترائبها، فرفع رأسه قال:(اللهم، مشبع الجوعة، وقاضي الحاجة، ورافع الوضعة، لا تجع فاطمة بنت محمد)، فرأيت صفرة الجوع قد ذهبت عن وجهها وظهر الدم، ثم سألتها بعد ذلك فقالت: ما جعت بعد ذلك[3] .

وعن جابر ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ أقام أياما لم يطعم طعاما حتى شق عليه، فطاف في منازل أزواجه فلم يصب عند واحدة منهن شيئا، فأتى فاطمة فقال: يا بنية، هل عندك أكلة، فإني جائع فقالت: لا والله، بأبي أنت وأمي، فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم فأخذته منها فوضعته في جفنة لها، وغطت عليها، قالت: والله، لاوثرن بهذا رسول الله ﷺ على نفسي ومن عندي، وكانوا جميعا محتاجين إلى شعبة طعام، فبعثت حسنا أو حسينا إلى رسول الله ﷺ فرجع إليها فقالت له: بأبي أنت وأمي قد أتى الله بشيء فخبأته لك قال:(هلمي)، فأتته فكشفت عن الجفنة فإذا هي مملوءة خبزا ولحما، فلما نظرت إليها بهتت، وعرفت أنها بركة من الله، فحمدت الله وصلت على نبيه وقدمته إلى النبي ﷺ، فلما رآه حمد الله وقال:(من أين لك هذا يا بنية؟)، فقالت: يا أبت، هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فبعث رسول الله ﷺ إلى علي، ثم أكل رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة وحسن وحسين وجميع أزواج النبي ﷺ وأهل بيته جميعا حتى شبعوا وبقيت الجفنة كما هي، قالت: فأوسعت ببقيتها على جميع جيرانها، وجعل الله فيه بركة وخيرا كثيرا[4] .

([1]) رواه أحمد بسند جيد.

([2]) رواه أحمد، والبيهقي في الشعب.

([3]) رواه الطبراني برجال ثقات إلا عتبة بن حميد وثقه ابن حبان وضعفه جماعة.

([4]) رواه أبو يعلي.

٢ ــ العطاء

التفت الحكيم إلى جيري فالويل، وقال: أظن أن ما ذكرته من زهد النبي ﷺ في أموال الناس وعفافه عنها ما يكفي لصرفك عن ذلك الوسواس الذي دعاك إلى اتهامه ﷺ بالاستغلال والحرص والجشع.

إن النفس التي كان لها كل ذلك الصبر والتحمل مع عظم المشاق التي كانت تحملها يستحيل عليها أن تعرف الاستغلال..

ثم التفت إلى الجماعة، وقال: ومع ذلك.. ومع كل تلك الأحوال الشديدة التي كان يعيشها رسول الله ﷺ، والتي كانت تستدعي قبض اليد، والشح عما فيها إلا أنه ﷺ كان كالريح المرسلة لا يكاد يقع في يده شيء حتى يخرجه منها كرما وجودا وعطاء لا يمكن أن يقدر على مثله بشر.

سأذكر لكم بعض ما ذكرت الأسانيد من ذلك لتحكموا بأنفسكم، ولتروا هل يمكن لمن يملك هذه الصفات أن يكون له جشع المستغل وحرصه.

لقد حدث رسول الله ﷺ عن تلك النفس الممتلئة كرما وجودا، وكأنه يدعو كل محتاج لأن يمد يده إليه لينال من جوده، فقال (ألا أخبركم عن الأجود؟ الله الأجود، وأنا أجود ولد آدم، وأجودهم من بعدي رجل تعلم علما فنشر علمه، يبعث يوم القيامة أمة وحده، ورجل جاهد في سبيل الله حتى يقتل)[1]

وقال، وقد التفت إلى أحد: (والذي نفسي بيده ما يسرني أن أحدا يحول لآل محمد ذهبا، أنفقه في سبيل الله، أموت يوم أموت ما أدع منه دينارين، إلا دينارين أعدهما لدين إن كان)[2]

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال: (لو عندي مثل أحد ذهبا ما سرني أن يأتي علي ثلاث ليال، وعندي منه شئ إلا شيئا أرصده لدين)[3]

وقد كان أصحابه والمقربون إليه يعرفون هذه الصفة فيه، ويصفونه بها:

عن علي ــ رضي الله عنه ــ أنه كان إذا نعت رسول الله ﷺ قال: كان أجود الناس كفا[4] .

وعن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس[5] .

وكان من الصفات التي عرفه من خلالها الكل هو أنه كان أبعد الناس عن رد أي سائل يسأله، مؤتمرا في ذلك بما أمره الله تعالى به، قال تعالى:﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ (الضحى:١٠)

لقد كانت الصفة التي عرف بها النبي ﷺ.. عرفه بها جميع الناس.. أنه لا يسأل شيئا إلا أعطاه.

قال أنس ــ رضي الله عنه ــ: ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئا إلا أعطاه[6].

---

(1) رواه بقي بن مخلد وأبو يعلى.
(2) رواه أحمد.
(3) رواه البيهقي، وابن عساكر.
(4) رواه ابن أبي خيثمة.
(5) رواه ابن أبي شيبة.
(6) رواه مسلم.

وقد ذكر نموذجا لذلك، فقال: فسأله رجل غنما بين جبلين فأعطاه إياها، فأتى قومه فقال: يا قوم أسلموا، فوالله إن محمدا ليعطى عطاء من لا يخاف الفقر[1].

قال أنس: وإن كان الرجل ليجئ إلى رسول الله ﷺ وما يريد بذلك إلا الدنيا، فما يمسي حتى يكون دينه أحب إليه من الدنيا وما بينها[2] .

وعن علي ـــ رضي الله عنه ـــ قال: كان رسول الله ﷺ إذا سئل عن شئ، فأراد أن يفعله قال: (نعم) وإن أراد ألا يفعله سكت، وكان لا يقول لشئ لا[3] .

عن سهل بن سعد ـــ رضي الله عنه ـــ قال: كان رسول الله ﷺ حييا لا يسأل شيئا إلا أعطى[4] .

وعن سهل بن سعد ـــ رضي الله عنه ـــ أن امرأة جاءت النبي ﷺ ببردة منسوجة فيها حاشيتها، قال سهل: أتدرون ما البردة؟ قالوا: الشملة، قال: نعم، قالت: نسجتها بيدي لأكسوكها فخذها، فأخذها النبي ﷺ محتاجا إليها، فخرج إلينا وإنها لإزاره فقال الأعرابي: يا رسول الله بأبي أنت وأمي هبها لي، فقال: (نعم)، فجلس ما شاء الله في المجلس، ثم رجع فطواها فأرسل بها إليه، ثم سأله، وعلم أنه لا يسأل شيئا فيمنعه، قال: والله إني ما سألته لألبسها، إنما سألته لتكون كفني، رجوت بركتها حين لبسها رسول الله ﷺ، قال سهل: فكانت كفنه[5].

وعن هارون بن أبان قال: قدم للنبي ﷺ سبعون ألف درهم، وهو أكثر مال أتي به قط، فوضع على حصير من المسجد، ثم قام بنفسه، فما رد سائلا، حتى فرغ منه[6] .

وعن أنس ـــ رضي الله عنه ـــ قال: أتي رسول الله ﷺ بمال من البحرين، فقال: انظروا يعني صبوه في المسجد، وكان أكثر مال أتى به ﷺ، فخرج رسول الله ﷺ من المسجد، و لم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحدا إلا أعطى إلى أن جاء العباس، فقال: يا رسول الله أعطني، فإني فاديت نفسي، وفاديت عقيلا، فقال: (خذ) فحثا في ثوبه، ثم ذهب يقله فلم يستطع، فقال: يا رسول الله مر بعضهم يرفعه إلي قال: (لا)، قال: فارفعه أنت، قال: (لا أستطيع)، ثم نثر منه، ثم ذهب يقله فلم يستطع، فقال: يا رسول الله: مر بعضهم يرفعه علي، قال: (لا)، قال: فارفعه أنت)، قال: (لا) ثم نثر منه فاحتمله، فألقاه على كاهله، فانطلق

([1]) رواه مسلم.

([2]) رواه مسلم.

([3]) رواه الخرائطي، والطبراني، و المراد من عدم قوله:(لا) ما يفهم منها عدم الإعطاء مع القدرة عليه، أما إذا كانت من باب الاعتذار، فلا حرج في ذلك، وقد قالها ﷺ، ففي القرآن الكريم حكاية عن النبي ﷺ:﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (التوبة:٩٢)، وهو نظير ما في حديث أبي موسى الأشعري ـــ رضي الله عنه ـــ لما سأله الأشعريون الحملان فقالَ ﷺ: (ما عندي ما أحملكم)

([4]) رواه الدارمي.

([5]) رواه البخاري، وابن ماجه، وابن سعد، والطبراني، والإسماعيلي والنسائي، زاد الطبراني: وأمر النبي ﷺ أن يصنع له غيرها، فمات قبل أن تترع.

([6]) رواه الدارمي.

فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خفي علينا، عجبا منه، فما قام رسول الله ﷺ، وثم منها درهم[1] .

وكان البعض يستغل هذه الخصلة العظيمة في رسول الله ﷺ، فيروح يسأل من غير حاجة، وكان النبي ﷺ يجيبهم بما أعطاه الله مع علمه بذلك منهم:

عن أبي سعيد ــ رضي الله عنه ــ قال: دخل رجلان على رسول الله ﷺ يسألانه عن ثمن بعير فأعطاهما بدينارين، فخرجا من عنده، فلقيا عمر بن الخطاب، فأثنيا خيرا، وقالا معروفا، وشكرا ما صنع رسول الله ﷺ بهما، فدخل عمر على النبي ﷺ فأخبره بما قالا، فقال رسول الله ﷺ: (لكن فلانا أعطيته ما بين العشرة والمائة فلم يقل ذلك، إن أحدهم يسألني، فينطلق بمسألته يتأبطها، وما هي إلا نار)، فقال عمر: يا رسول الله، فلم تعطهم ما هو نار؟ فقال: (يأبون إلا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل)[2]

وعنه ــ رضي الله عنه ــ أن ناسا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوهم فأعطاهم، وقال: (ما يكون عندي من خير، فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء هو خير، وأوسع من الصبر)[3]

وعن جبير بن مطعم ــ رضي الله عنه ــ أنه بينما هو مع رسول الله ﷺ، ومعه الناس، مقبلا من حنين علقت برسول الله ﷺ الأعراب يسألونه، حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه، فوقف رسول الله ﷺ فقال: (أعطوني ردائي، فلو كان لي عدد هذه العضاة نعما لقسمته عليكم لا بخيلا، ولا كذابا، ولا جبانا)[4]

وعن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ قال: قسم رسول الله ﷺ قسما لأناس، فقلت: يا رسول الله لغير هؤلاء كانوا أحق بهذا القسم، فقال: (إنهم خيروني أن يسألوني بالفحش، أو يبخلوني، ولست بباخل)[5]

وعن أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ عام حنين سأله الناس، فأعطاهم من البقر والغنم والإبل، حتى لم يبق من ذلك شئ فقال رسول الله ﷺ: (ماذا تريدون؟ أتريدون أن تبخلوني؟ فوالله ما أنا ببخيل، ولا جبان، ولا كذوب)، فجذبوا ثوبه حتى بدت رقبته، فكأنما أنظر ــ حين مد يدا من منكبه ــ شقة القمر من بياضه)[6]

وعن عبد الله بن عمر ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال: (لو أن لي مثل جبال تهامة ذهبا لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني كذوبا ولا بخيلا)[7]

وعن سهل بن سعد الساعدي ــ رضي الله عنه ــ قال: حكيت لرسول الله ﷺ حلة أنمار صوف أسود، فجعل حاشيتها بيضاء، وقام فيها إلى أصحابه، فضرب بيده إلى فخذه فقال: (ألا ترون إلى هذه ما أحسنها!)

([1]) رواه البخاري
([2]) رواه ابن أبي الدنيا وغيره.
([3]) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.
([4]) رواه البخاري.
([5]) رواه مسلم.
([6]) رواه ابن الأعرابي.
([7]) رواه ابن عدي.

فقال أعرابي: يا رسول الله بأبي أنت وأمي هبها لي، وكان رسول الله ﷺ لا يسأل شيئا أبدا فيقول: لا، فقال: (نعم)، فأعطاه الجبة[1].

هذا كله إذا وجد، فإذا لم يجد تكلف كل السبل ليرضي من سأله، فلا يذهب إلا راضيا:

عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: ما عندي شئ أعطيك، ولكن استقرض، حتى يأتينا شئ فنعطيك، فقال عمر: ما كلفك الله هذا، أعطيت ما عندك، فإذا لم يكن عندك فلا تكلف، قال: فكره رسول الله ﷺ قول عمر، حتى عرف في وجهه، فقال الرجل: يا رسول الله، بأبي وأمي أنت، فأعط، ولا تخش من ذي العرش إقلالا، فتبسم وجه رسول الله ﷺ وقال: (بهذا أمرت)[2]

وعن أبي عامر عبد الله قال: لقيت بلالا مؤذن النبي ﷺ بحلب، فقلت: حدثني كيف كانت نفقة النبي ﷺ، فقال: ما كان له شئ من ذلك، إلا أني الذي كنت آتي ذلك منه منذ بعثه الله تعالى، إلى أن توفي، فكان إذا أتاه الإنسان، فرآه عاريا يأمرني فأنطلق، فأستقرض، فأشتري البردة، والشئ، فأكسوه وأطعمه، حتى اعترضني رجل من المشركين، فقال: يا بلال إن عندي سعة، فلا تستقرض من أحد إلا مني، ففعلت، فلما كان ذات يوم توضأت، ثم قمت لأؤذن بالصلاة، فإذا المشرك في عصابة من التجار، فلما رآني قال: يا حبشي قلت: لبيك، فتجهمني، وقال قولا غليظا، فقال: ألا ترى كم بينك وبين الشهر؟ قلت: قريب، قال: إنما بينك وبينه أربع ليال، فآخذك بالذي عليك، فإني لم أعطك الذي أعطيتك من كرامتك، ولا من كرامة صاحبك، ولكن أعطيتك لتصير لي عبدا، فأذرك ترعى الغنم، كما كنت قبل ذلك، فأخذ في نفسي ما يأخذ في أنفس الناس، فانطلقت، ثم أذنت بالصلاة، حتى إذا صليت العتمة، رجع رسول الله ﷺ إلى أهله، فاستأذنت عليه، فأذن لي، فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، إن المشرك الذي قلت لك إني كنت أتدين منه قد قال كذا وكذا، وليس عندك ما تقضي عني، ولا عندي، وهو فاضحني، فأذن لي أن آتي بعض هؤلاء الأحياء الذين أسلموا حتى يرزق الله تعالى رسوله ما يقضي عني، فخرجت حتى أتيت مترلي فحملت سيفي وجرابي ورمحي، ونعلي عند رأسي، واستقبلت بوجهي الأفق، فكلما نمت انتبهت، فإذا رأيت علي ليلا نمت، حتى انشق عمود الصبح الأول، فأردت أن أنطلق، فإذا إنسان يسعى يدعو: يا بلال أجب رسول الله ﷺ، فانطلقت، حتى أتيت رسول الله ﷺ، فإذا أربع ركائب عليهن أحمالهن، فأتيت رسول الله ﷺ، فاستأذنت، فقال النبي ﷺ: (أبشر يا بلال، فقد جاءك الله تعالى بقضائك، فحمدت الله تعالى)، فقال: ألم تمر على الركائب المناخات الأربع؟ قال: فقلت: بلى؟ قال: فإن لك رقابهن، وما عليهن، فإذا عليهن كسوة، وطعام، أهداهن له عظيم فدك قال: فاقبضهن إليك، ثم اقض دينك، قال: ففعلت، فحططت عنهن أحمالهن، ثم عقلتهن، ثم عدت إلى تأذين صلاة الصبح، حتى إذا صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح، خرجت إلى البقيع، فجعلت أصبعي في أذني، فناديت، وقلت: من كان يطلب من رسول الله ﷺ دينا فليحضر، فما زلت أبيع وأقضي حتى لم يبق على رسول الله ﷺ دين في الأرض، حتى فضل عندي أوقيتان، أو أوقية ونصف، ثم انطلقت إلى المسجد وقد ذهب عامة النهار، فإذا رسول الله ﷺ قاعد في

([1]) رواه الطبري.
([2]) رواه الترمذي والخرائطي.

المسجد وحده، فسلمت عليه، فقال لي: (ما فعل ما قبلك؟) قلت: قضى الله كل شئ كان على رسول الله ﷺ، فلم يبق شيء، فقال: (فضل شئ؟) قلت: نعم، قال: (انظر أن تريحني منها، فلست بداخل على أحد من أهلي حتى تريحني منها، فلم يأتنا أحد)، فبات في المسجد، حتى أصبح، وظل في المسجد اليوم الثاني، حتى إذا كان في آخر النهار جاء راكبان، فانطلقت بهما فكسوتهما وأطعمتهما، حتى إذا صلى العتمة دعاني، فقال: (ما فعل ما قبلك؟) قلت: قد أراحك الله منه، فكبر، وحمد الله شفقا من أن يدركه الموت وعنده ذلك، ثم تبعته حتى جاء أزواجه، فسلم على امرأة امرأة حتى أتى مبيته فهذا الذي سألتني عنه[1] .

فإذا لم يجد أي سبيل بحث عمن يعين السائل، فقد جاءه رجل مرة، فقال: إني مجهود، فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، فأرسل إلى أخرى، فقالت: مثل ذلك، حتى قال كلهن مثل ذلك، فقال رسول الله ﷺ: (من يضيف هذا الليلة رحمه الله تعالى؟) فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله ﷺ، فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ لا تدخري شيئا، قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي، فأطفئي السراج، ونطوي بطوننا الليلة لضيف رسول الله ﷺ ففعلت، ثم غدا الضيف على النبي ﷺ فقال:(لقد عجب الله من فلان وفلانة)[2]، وقد نزل في ذلك قوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الحشر:٩)

وكان ﷺ يفعل ذلك كله مع ما به من فاقة وحاجة، بل كان يقدم ــ مع تلك الفاقة والحاجة غيره، ليكون آخر مستفيد إن بقيت هناك بقية.

روي أن رسول الله ﷺ كان جالسا مع رجل من أصحابه، فغمز رسول الله ﷺ بطنه، فقال له الرجل: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أتشتكي بطنك؟ فقال: (لا، إنما هو جعار الجوع)، فقام الرجل ليدخل حيطان الأنصار، فرأى رجلا من الأنصار يسقي سقاية، فقال له: هل لك أن أسقي لك بكل سقاية تمرة جيدة؟ قال: نعم، قال: فوضع الرجل كساءه، ثم أخذ يسقي، وهو رجل قوي، فسقي مليا، حتى ابتهر وعيا، فجعل يتروح، ثم فتح حجره، وقال: عد لي تمري، قال: فعد له نحوا من المد، فجاء به، حتى نثره بين يدي رسول الله ﷺ، فقبض رسول الله ﷺ منه قبضة، ثم قال: اذهبوا بهذا إلى فلانة، واذهبوا بهذا إلى فلانة، فقال الرجل: يا رسول الله أراك تأخذ منه، ولا ينقص، فقال رسول الله ﷺ: (ألست تقرأ هذه الآية؟) قال: فقلت: أية آية يا رسول الله؟ قال: قول الله تعالى:﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)(ســبأ: من الآية٣٩)، قال: أشهد أنما هو من الله تعالى[3] .

([1]) رواه أبو داود والبيهقي.

([2]) رواه ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر والحاكم وابن مردويه البيهقي في الأسماء والصفات.

([3]) رواه أبو الحسن بن الضحاك.

وكان ﷺ يكافئ كل من يقدم له أي شيء، ولو كان بسيطا، بل حتى لو كان كلمة طيبة:

عن الربيع بن عفراء قال: أتيت رسول الله ﷺ بقناع من رطب، وجرو زغب، فأعطاني مل ء كفي حليا، أو ذهبا[١] .

عن أم سنبلة قالت: أتيت رسول الله ﷺ بهدية، فأبى أزواجه أن يقبلنها، فأمرهن رسول الله ﷺ، فأخذها، ثم أقطعها واديا[٢] .

وروي أنه في يوم حنين جاءت امرأة، فأنشدت شعرا تذكره أيام رضاعه في هوازن، فرد عليهم ما أخذ، وأعطاهم عطاء كثيرا، حتى قوم ما أعطاهم فكان خمسمائة ألف، قال ابن دحية: وهذا نهاية الجود الذي لم يسمع بمثله في الجود[٣] .

وعن جابر — رضي الله عنه — أنه كان يسير على جمل له قد أعيا، فمر النبي ﷺ فضربه، ودعا له، فسار سيرا لم يسر مثله، ثم قال: (بعنيه بوقية)، قلت: لا، ثم قال: (بعنيه بوقية)، فبعته واستثنيت حملانه إلى أهلي، فلما قدمنا المدينة أتيته بالجمل، ونقد لي ثمنه، ثم انصرفت، فأرسل إلي فقال: (ما كنت لآخذ جملك، هو لك)[٤]

وفي رواية قال ﷺ لجابر في سفر: (بعني جملك)، فقال: هو لك يا رسول الله، بأبي وأمي، فقال:(بعنيه) فباعه إياه، وأمر بلالا أن ينقده ثمنه، فأنقده، ثم قال ﷺ: (اذهب بالثمن والجمل بارك الله لك فيهما)[٥] ، فعل ذلك رسول الله ﷺ مكافأة لقوله: بل هو لك، فأعطاه الثمن، ورد عليه الجمل، وزاد الدعاء بالبركة.

وكان ﷺ فوق ذلك يكافي المحسن بالدعوات الطيبات المباركات المحابات:

قال ابن عباس ﷺ: كنت في بيت ميمونة فوضعت لرسول الله ﷺ طهوره، فقال:(من وضع لي هذا؟)، فقالت ميمونة: عبد الله، فقال ﷺ:(اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)

وفي حديث أبي قتادة ﷺ الطويل العظيم المشتمل على معجزاتٍ متعدّداتٍ لرسول اللّه ﷺ قال: فبينا رسولُ اللّه ﷺ يسيرُ حتى ابهارّ[٦] الليل وأنا إلى جنبه، فنَعَس رسولُ اللّه ﷺ فمالَ عن راحلته فأتيتُه فدعَّمتُه من غير أن أُوقظَه حتى اعتدل على راحلته، ثم سارَ حتى تهوَّر[٧] الليلُ مال عن راحلته، فدعَّمتُه من غير أن أوقظَة حتى اعتدل على راحلته، ثم سارَ حتى إذا كان من آخر السَّحَر مالَ ميلة هي أشدّ من الميلتين الأُولَيَيْن حتى كاد ينجفلُ[٨] ، فأتيتُه فدعَّمته، فرفعَ رأسَه فقال: (مَنْ هَذَا؟) قلتُ: أبو قتادة، قال:(مَتَى كان هَذَا مَسِيرَكَ مِنِّي؟) قلتُ: ما زال هذا مسيري منذ الليلة، قال:(حَفِظَكَ اللّه بما حَفِظْتَ بِهِ نَبِيّهُ) وذكر الحديث[٩] .

([١]) رواه الترمذي.
([٢]) رواه الطبراني.
([٣])ذكره ابن فارس في كتابه أسماء النبي ﷺ.
([٤]) رواه البخاري ومسلم.
([٥]) رواه البخاري.
([٦]) انتصف.
([٧]) أي ذهب معظمه.
([٨]) يسقط.
([٩]) رواه مسلم.

وفي حديث جرير بن عبد اللّه البَجَليّ ﷺ قال: كان في الجاهلية بيتٌ لخثعمَ يُقال له الكعبة اليمانية، ويُقال له ذو الخَلَصة، فقال لي رسولُ اللّه ﷺ:(هَلْ أَنْتَ مُرِيحِي مِنْ ذِي الخَلَصَةِ؟)، فنفرتُ إليه في مئة وخمسين فارساً من أحمسَ فكسَّرْنَا وقتلنَا مَن وجدنا عنده، فأتيناه فأخبرناه، فدعا لنا ولأحمس[1] .

وعن جابر ـــ رضي الله عنه ـــ قال: دخلت على رسول الله ﷺ ذات يوم فقال:(مرحبا يا جوير جزاكم الله يا معشر الأنصار خيرا، آويتموني إذ طردني الناس، ونصرتموني إذ خذلني الناس، فجزاكم الله معشر الأنصار خيرا)، فقلت:(بل جزاك الله عنا خيرا، بك هدانا الله إلى الإسلام، وأنقذنا من شفا حفرة من النار، وبك نرجو الدرجات العلى من الجنة)[2]

وقد أخبر ﷺ أن مقابلة المعروف بالدعاء من أعظم الجزاء على المعروف، ومن أفضل ما يقابل به الإحسان، قال ﷺ:(من صنع إليه معروف، فقال لفاعله جزاك الله خيرا فقد أبلغ في الثناء)[3] ، وفي رواية:(من أسدى إليه بمعروف فقال للذي أسداه: جزاك الله خيرا، فقد أبلغ في الثناء)

وقد روي عن عبد اللّه بن أبي ربيعة ﷺ قال: استقرضَ النبيُّ ﷺ منِّيَ أربعين ألفاً، فجاءَه مال فدفعَه إليَّ وقال:(بارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ ومَالِكَ، إنَّمَا جَزَاءُ السَّلَفِ الحَمْدُ والأداءُ)[4]

بل دعا ﷺ إلى كثرة الدعاء لمن عمل معروفا إلى أن يتيقن أنه قد أوفاه أجره، قال ﷺ:(من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن أتى إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه)[5] ، وفي رواية:(حتى تعلموا أنكم شكرتموه، فإن الله تعالى شاكر يحب الشاكرين)[6]

سكت قليلا، ثم راح يترنم بقول الشاعر الصالح ابن جابر:

يـــروى حـــديث النـــدى والبشـــر عـــن يـــده	ووجهـــــه بـــــين منـــــهل ومنســـــجم
مـــن وجـــه أحمـــد لي نـــدى ومـــن يـــده	بحـــــر ومـــــن فمـــــه در لمنـــــتظم
يمـــم نبيـــا يبـــاري الـــريح نافلـــة	والمـــزن مـــن كـــل هـــامي الـــورد خـــير همـــي
لـــو عامـــت الفلـــك فيمـــا فـــاض مـــن يـــده	لم تلـــق أعظـــم بحـــرا منـــه أن تعـــم
يحـــيط كفـــاه بـــالبحر المحـــيط فلـــذ	بـــه ودع كـــل طـــامي المـــوج ملـــتطم
لـــو لم تحـــط كفـــه بـــالبحر	مـــا شملـــت كـــل الأنـــام وروت قلـــب كـــل ظمـــي

وبقوله في القصيدة الأخرى:

---

[1] رواه البخاري ومسلم.
[2] رواه الترمذي والحاكم.
[3] رواه الترمذي وقال: حديث حسن.
[4] رواه النسائي وابن ماجه وابن السني.
[5] رواه أبو داود والنسائي واللفظ له وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.
[6] رواه الطبراني.

لقد كان فعل الخير قرة عينه   فليس له فيما سواه مجال
فلو سألوا من كفه رد سائل   أجاهم هذا السؤال محال
ولو عرف المحتاج قبل سؤاله   كفاه، وأغنى أن يكون سؤال
يبادر للحسنى ويبذل زاده   ولو بات مس الجوع منه ينال

***

بعد أن انتهى الحكيم من حديثه لم يجد جيري فالويل ما يقوله.. ولذا سار مطأطئ الرأس، متغير الوجه، خارج ميدان الحرية ليترك الجماعة ملتفة حول الحكيم تسأله ويجيبها..

التفت إلى أصحابنا المستغرقين في مشاهدة ما حصل في ساحة الحرية.. فرأيت وجوههم كالحة عابسة عليها غبرة ترهقها قترة.

أما أنا.. فقد تترلت علي حينها أنوار جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

خامسا ـــ خداع

في مساء اليوم الخامس.. وفي دار الندوة الجديدة.. دخل (فرانكلين جراهام)[1].. وقد كان هذا الرجل في بداية حياته لاعب سيرك، وكان يتقن من فنون السيرك ما أثر في حياته جميعا، فهو يتصور جميع حركات الحياة بمنظار حركات التشويش البصري التي يقوم بها البهلوان في ميدان السيرك.

بعد ذلك.. وبعد أن عجزت أعضاؤه أن تقوم بحركات البهلوان، انضم إلى حزب مغمور من الأحزاب السياسية.. ولكنه استطاع بفضل ما تعلمه في السيرك من فنون الحيل أن يجعل لحزبه صوتا محترما مسموعا.

لكن أعضاء حزبه الذين تعلموا منه فنون الخداع والحيلة ارتدوا عليه، فصار في ذيل الحزب بعد أن كان رأسه المدبر.. و لم يرضه هذا، فاستقال منه، وانصرف إلى الكنيسة.

ولكن الخصال التي تولدت عنده من طول صحبته لرجال السيرك عادت فسيطرت عليه من جديد، فأخذ يتقرب من رجال الساسة بما يحبون أن يتقرب به البشر إليهم.. فقربوه إليهم كما لم يقربوا قبله أي رجل دين.

وقد بدأت علاقة أخي به بسبب هذه الصحبة.. فكلاهما يحب المناصب الرفيعة.. وكلاهما ينبهر بالعروش.. سواء عروش السلطة الدنيوية، أو عروش السلطة الدينية.. وكلاهما يتقن من فنون التكتيك ما يستطيع أن يحقق به كل ما يشتهي من مآرب.

لكنه عاد في ذلك المساء بغير ما كانت الجماعة تتوقع منه.. فقد جاء على غير العادة كالح الوجه مصفر الشفتين.. وكأنه كان يخوض غمار حرب من غير أن يحمل معه أي سلاح.

([1]) أشير هنا إلى أشير به هنا إلى فرانكلين جراهام :Franklin Graham وهو ابن القسيس الأمريكي بيلي جراهام، وقد عمل والده قسيساً خاصاً للرؤساء الأمريكيين منذ عهد ريتشارد نيكسون، وحتى الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون.

وتولى ابنه فرانكلين جراهام نفس المهمة بعد تقاعد الأب، وقام بعمل الطقوس الدينية لتنصيب الرئيس الأمريكي جورج دبليوبوش.

وقد تولى جميع مسئوليات الكنيسة التي أنشأها أبوه، والتي تعد من أكبر الكنائس الأمريكية عدداً وتأثيراً، وقامت خلال السنوات الماضية بأكثر من ٤٥٠ حملة تنصير في جميع أنحاء العالم .

وقد أدلى فرانكلين جراهام بتصريحات إعلامية ذكر فيها أن الإرهاب جزء من التيار العام للإسلام، وأن القرآن (يحض على العنف) وكرر جراهام خلال برنامج (هانيتي وكولمز) المذاع على قناة فوكس نيوز الأمريكية في الخامس من أغسطس ٢٠٠٢م رفضه الاعتذار عن تصريحات أدلى بها بعد حوادث سبتمبر ٢٠٠١م وصف فيها الإسلام بأنه دين (شرير)، وفي كتاب جديد لفرانكلين جراهام يسمى (الاسم)The name ، يحتوي على نصوص تتسم بالسفه والخطة بهدف الإساءة إلى الإسلام ومنها قوله في صفحة ٧١:(الإسلام.. أُسّسَ بواسطة فرد بشري مقاتل يسمى محمد، وفي تعاليمه ترى تكتيك (نشر الإسلام من خلال التوسع العسكري)، ومن خلال العنف إذا كان ضرورياً، من الواضح أن هدف الإسلام النهائي هو السيطرة على العالم(

ويقول في صفحة ٧٢:(إن القرآن يحتوي على قصص أُخذت وحُرّفت عن العهدين القديم والجديد.. لم يكن للقرآن التأثير الواسع على الثقافتين الغربية والمتحضرة الذي كان للإنجيل، الاختلاف رقم واحد بين الإسلام والمسيحية أن إله الإسلام ليس إله الديانة المسيحية)

وبسبب أقواله هذه اخترناه لهذا الفصل، مع التنبيه إلى أن ما نسوقه من معلومات أو حوار لا علاقة لها أصلا بالمسمى الحقيقي، وإنما هو مجرد اسم..

ابتدرته الجماعة قائلة: ما الذي فعلت!؟.. ما نسبة نجاحك!؟.. هل هناك نتائج إيجابية!؟

تفرس في وجوههم ــ كعادته ــ قبل أن ينطق بأي كلمة، ثم قال: لا شك أنكم تسمعون بما يسمى الكر والفر.. فإن لم تكونوا قد سمعتم به من قبل، فهو أسلوب من أخطر أساليب الحروب وأكثرها نفعا.. وقد مارسه المسلمون في جميع حروبهم.

قال رجل منا: فهل مارست اليوم هذا الأسلوب؟

قال فرانكلين: أجل.. لقد مارسته كما لم أمارسه طول حياتي.. وهم الآن في كمين.. ويوشك أن ننتصر عليهم.

قال الرجل: ما دمت تحمل هذه البشرى.. فلم نراك ذابلا ممتلئا بالمخافة؟

قال فرانكلين: المعركة صعبة.. وأسلوب الكر والفر أصعب أنواعها..

قال رجل من الجماعة: لم أفهم بعد مرادك من هذا الأسلوب.

قال فرانكلين: هذا الأسلوب يعتمد على تظاهر المنتصر القوي بالهزيمة أمام خصمه.. فإذا ما اتبعه انقض عليه انقضاضا يقضي عليه.

قال الرجل: فقد تظاهرت اليوم بالهزيمة إذن؟

قال فرانكلين: هزيمة المنتصر.. لا هزيمة المنهزم.

قال الرجل: فهل انقضضت عليه بعد أن وضعته في كمينك؟

قال فرانكلين: إن ذلك يستدعي وقتا.. المهم أنهم الآن في الكمين..

ابتسم أخي، وقال مخاطبا الجماعة: لماذا نضيع وقتنا في كل هذا اللغو.. لقد سجلنا كل ما حصل.. ولنكتف بما وقع؟

ابتدر دون انتظار رد الجماعة، ووضع القرص في القارئ، وبدأ شريط الأحداث:

ظهر (فرانكلين جراهام) في ميدان الحرية كمهرج أكثر منه كرجل مرتبط بالكنيسة، وله مكانة عالية فيها..

لقد استعمل أسلوبا من أساليب الخداع التي تعلمها أثناء عمله مهرجا في السيرك، لقد أخرج منديلا.. وأراه للجماعة التي أحاطت به، وقال: ألا ترون هذا المنديل الأبيض؟..

أجابت الجماعة بالإيجاب، فقال: ألا تشكون في كونه منديلا؟

قالوا: لا نشك.

فقال: ألا تشكون في كونه أبيض؟

قالوا: لا نشك.

أدار المنديل بحركات بهلوانية، اختفى بعدها المنديل لتحل بدله حمامة حية ممتلئة حياة.

تعجبت الجماعة عجبا شديدا.. وفغرت فاهها لذاك، فقال: لا شك أن لكم من الذكاء ما يعتبر ما فعلته مجرد خدعة لها أصولها، وكيفيتها.. ولذلك لم تنخدعوا..

نعم.. أثار ذلك تعجبكم، ولكنكم في نفس الوقت تعلمون أن المنديل منديل.. هو هذا المختفي داخل كمي.. وأن الحمامة كنت أيضا أخفيها بطريقتي الخاصة.. وقد استطعت بما تعلمته من أساليب الخداع أن أحول في أبصاركم المنديل حمامة.

ولكن.. لو كان بينكم أغرار أو مغفلون أو صغار لم تنضج عقولهم، فإنهم سينخدعون.. أليس كذلك؟

قالت الجماعة: بلى.. فهات خدعة أخرى.. وعلمنا من أسرارها ما علمتنا من أسرار هذه الخدعة.

قال: هناك خدعة تحتاج منكم صبرا كثيرا لتعلمها.

قالوا: هاتها.

قال: لقد تعلمت هذه الخدعة من رجل ظهر في بلاد العرب قبل أكثر من أربعة عشر قرنا.. كان اسمه محمد..

تعجبت الجماعة، وقال بعض المسلمين منهم: أتقصد رسول الله.. ذلك الصادق الأمين الذي امتلأت الأرض رحمة وجمالا ونورا بمحياه.

التفت إليه فرانكلين، وقال: لاشك أنك من الأغرار الذين استطاع محمد أن يلعب بعقولهم.. فيحول من المنديل الأبيض الذي لا حياة فيه حمامة كتلك الحمامة التي أخرجتها لكم.

قال الرجل: ولكن محمدا رجل من أهل الله، أوحى الله إليه.. وكان ذلك الوحي هو النور الذي اهتدت به أجيال طويلة من الإنسانية.. بل لا تزال تهتدي.. بل إن الظمأ يصيبها أو يقتلها إن هي أعرضت عنه.

قال فرانكلين: لقد ذكرت لك أن محمدا لم يكن سوى مخادع أو ساحر لا يختلف خداعه وسحره عن الخداع والسحر الذي مارسته أمامكم الآن.

لقد أدرك قومه هذا.. فلهذا لم تنطل حيله على عقلاء قومه.. وقد ذكر قرآنه هذا.. ففيه:﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (النمل:١٣)، وفيه:﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الصافات:١٥)، وفيه:﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ (الزخرف:٣٠)، وفيه:﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الاحقاف:٧)، وفيه:﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ (القمر:٢)

قال الرجل: ولكنه أتى بقرآن معجز.. لا تزيده الأيام إلا إعجازا.

قال فرانكلين: لقد استطعت مع مجموعة من أصدقائي أن آتي بكتاب مثل القرآن.. نعم.. هو لم ينتشر بعد انتشار القرآن.. ولم يشتهر اشتهاره.. ولم يذب في الألسن ذوبانه.. ولكن الأيام وحدها كفيلة بأن تجعل له من القوة ما يبز به قرآن محمد[1].

([1]) أشير هنا إلى ما يسمى (الفرقان الحق) وهو الكتاب الذي يوزع في بعض بلادنا الإسلامية ويبث على عشرات المراقع على شبكة الإنترنت ويعرض على أنه القرآن البديل لقرآن المسلمين.

وهذا الكتاب لم يدع شيئا من الإسلام إلا ونال منه سواء على المستوى الديني أو السلوكي أو الاجتماعي.

وسُوَر هذا الفرقان كلها هجومٌ وفُحْش على سيد الأنبياء والمرسلين، وتسفيهٌ لكل شيء جاء به الإسلام من توحيدٍ ونعيمٍ أُخْرَوِيّ وصلاةٍ وصيامٍ وحجٍّ وجهادٍ وطهارةٍ وتشريعاتٍ أسريةٍ ...

وقد كتب هذا الكتاب مؤلف رمز لنفسه باسم (الصفي والمهدي)، وهو يَدعي إن وحيا نزل عليه لأجل إصدار هذا الكتاب.

وقد انكشفت أخيرا شخصية هذا الرجل الذي لقب نفسه بالمهدي المنتظر، واسمه: (الدكتور أنيس سورس)، وفي بعض الترجمات الأجنبية (أنيس شورشAnis Shorrosh، وقد صرح باسمه الحقيقي لأول مرة في موقع (أمازون) علي الإنترنت للترويج للكتاب.

وهذا الرجل، ولد بفلسطين، وهو من أصل عربي فلسطيني، ثم هاجر إلي الأردن، وواصل دراسته بجامعة ميسيسيي Mississippi colleg، وقبل حصوله علي الدكتوراة درس في جامعة Orleans Baptist new theological seminary حصل علي الدكتوراة مرتين من جامعة America Institute of Seminary Ministry Dayton Tennessee وجامعة International Luther Rice، وكان يعمل في الأرض المحتلة مع اليهود، ومن ذلك عمله في كنيسة أورشليم بابتس في القدس المحتلة.

عمل كقسيس لمدة (٤٠) سنة ما بين إسرائيل وأمريكا، وعمل مُنَصراً في بلدان إفريقيا: كينيا، كيبتاون، دوربان، جوهانسبرغ، في التسعينات وفي سنة ١٩٩٥م عمل في نيوزيلندا.. ثم انتقل إلى إنجلترا.. ثم إلى البرتغال.

ناظره الشيخ أحمد ديدات مرتين: المرة الأولى: سنة (١٩٨٠) في لندن والموضوع: هل عيسى إله؟ حضر المناظرة (٥٠٠٠) شخص، والمرة الثانية: في برمنجهام، والموضوع: القرآن والإنجيل: أيهما كلام الله؟ وحضرها (١٢٠٠٠) نفر.

وقد ألف كتابا بعد المناظرتين بعنوان: Islam revealed: A Christian Arabic's View Of Islam.، وذكر أن هذا الكتاب يوضح للناس أن الإسلام يقتل شخصا من كل خمسة أشخاص في العالم، وذكر فيه مناظرته مع الشيخ ديدات.

اتهم الإسلام بأنه يتضمن عقائد خاطئة.. وفيه الكثير من الأخطاء، وأنه دين الإرهاب، ويدعو إلى القتال وسفك الدماء، وأن المصدر الأول لهذا هو القرآن ؛ ولذا لا بد للمسلين أن يستبدلوا بالقرآن قرآنه الذي سماه (الفرقان الحق)، وقال عن قرآنه هذا:(قرآني أَجْود، كتبته باللغة العربية الجيدة وترجم إلى اللغة الإنجليزية الجيدة)

ولهذا الرجل باع طويل في مهاجمة الإسلام والمسلمين، ومن أمثلة ذلك أنه بعد يومين من أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م قام بإلقاء محاضرة حاقدة في جامعة (هيوستن) في الولايات المتحدة الأمريكية دعا فيها إلي إبادة المسلمين، لأن الإسلام دين إرهاب وسفك دماء على حد زعمه، وأن القرآن هو المصدر الأول للإرهاب، وأنه يجب القضاء علي هذا القرآن للقضاء علي الإرهاب! واقترح علي الحكومة الأمريكية طرد أي مسلم من أمريكا، وتجميع كل المسلمين في منطقة الشرق الأوسط، ثم إبادتهم بالقنابل النووية، وطلب الدعاء إلي الله كل ليلة سبت لإزالة الإسلام والقرآن.

وكانت محاضرته في الجامعة في غاية العنصرية والحقد، واحتوت علي العديد من البذاءات والشتائم ضد الإسلام مما اضطر رئيس الجامعة إلي الاعتذار عنها في اليوم التالي.

قام شورش بشراء أشهر قناة تلفزيونية في إندونيسيا وسلم إدارتها للمسيحيين الإندونيسيين.

ويعرف شورش نفسه من خلال كلمة خاطب بها المسلمين باللغة الإنجليزية مفسرا ذلك في عرفه أن كلمة (I Sincerely Love All Muslims) أي إنني أحب بكل الصدق والإخلاص كل المسلمين، وأن هذا هو السبب الحقيقي وراء إصدار هذا الكتاب الذي يصفه بأنه التتمة الهامة لكتابه السابق: كشف حقيقة الإسلام.

كما نشر له موقع (think – Israel) الصهيوني مقالا تحت عنوان (الإسلام يستهدف أمريكا في مخطط يمتد عشرين عاما)، ويتحدث فيه عن حقيقة تأليفه لكتاب (الفرقان الحق)، وكيف أنه جاء ليتحدى قرآن المسلمين في كل شيء في جوهره، وأسلوبه، ولغته، ومحتوياته، كما أنه يري أن المسلمين أعدوا خطة بعيدة المدى لغزو أمريكا مع حلول عام ٢٠٢٠م! في الوقت الذي يستغرق فيه الأمريكيون في النوم مثلما فعلوا عندما هاجمونا مع أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

ويواصل شورش التعريف بنفسه في هذا المقال علي أنه عضو هيئة التدريس في جامعة أوكسفورد، وقام بزيارة أكثر من (٧٦) دولة علي مستوي العالم، وهو كاتب متخصص في كشف حقيقة الإسلام، وتعريته أمام المجتمع العالمي، ومتحدث لبق في العديد من المحطات والقنوات التليفزيونية العالمية.

ويصف شورش كتابه بأنه الكتاب الذي يتحدى القرآن في مقتل، ويفند مزاعم المسلمين، وأنه كتاب خالد يتحدى أي مؤلف، وذلك من خلال الكتابة الشعرية والنثرية والمترجمة للغتين العربية والإنجليزية جنبا إلي جنب.

قال الرجل: فاقرأ علينا من قرآنك ما يملؤنا بالخشوع الذي ملأنا به قرآن محمد ﷺ.

استجمع فرانكلين كل ما تعلمه من فنون الخداع، وراح يمثل صورة الخاشع المتبتل، وبصوت ممتلئ بحشرجة الدموع راح يقرأ: (بسم الأب الكلمة الروح الإله الواحد الأوحد، مثلث التوحيد، موحد التثليث ما تعدد) (زعمتم بأننا قلنا: قاتلوا الذين لا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.. يا أهل الضلال من عبادنا: إنما دين الحق هو دين الإنجيل والفرقان الحق من بعده، فمن ابتغي غير ذلك دينا فلن يقبل منه فقد كفر بدين الحق كفر) (سورة الجزية: ١٢، ١٣)

ثم نظر للجمع، فلم ير دمعة واحدة تسقط من عيونهم.. فزاد من درجة خشوعه، وراح يقرأ:(ولقد أنزلنا الفرقان الحق وحياً، وألقيناه نوراً في قلب صفينا ليبلغه قولاً معجزاً بلسان عربي مبين، مصدقاً لما بين يديه من الإنجيل الحق صِنْواً فاروقاً محقاً للحق، ومزهقاً للباطل وبشيراً ونذيراً للكافرين)(التتريل ٤، ٥)

لم يلاحظ أي تأثر على وجوه الجمع المحيط به.. فضم إلى خشوعه ترتيلا كترتيل المسلمين للقرآن، وراح يقرأ:(واصطفيناه وشرحنا صدره للإيمان وجعلنا له عيناً تبصر وأذناً تسمع وقلباً يعقل، ولساناً ينطق، وأوحينا إليه بالفرقان الحق، فخطه في سبعة أيام وسبع ليال جليداً "(الشهيد:٢).. (لقد طوعت لكم أنفسكم قتل صفينا شاهدين على أنفسكم بالكفر، أفتقتلون نفساً زكية، وتطمعون برحمتنا وأنتم المجرمون، لا جرم أنكم في الدنيا والآخرة أنتم الأخسرون، وختمتم بدمه آية تُكْوى بها جباهكم وتشهد عليكم بأنكم كفرة مجرمون، وأنه الصفي الأمين، وأن الفرقان الحق هو كلمتنا وهو الحق اليقين، ولو كره الكافرون) (الشهيد: ٦: ٨).. (فرقان حق صنو الإنجيل الحق الذي كلمنا به آباءكم وذكري للمدكرين)(الإعجاز:٢).. (ونحن الله الرحمن الرحيم ثالوث فرد إله واحد لا شريك لنا في العالمين) (الثالوث:٦).. (إنما صلبوا عيسي المسيح ابن مريم جسدا بشرا سويا وقتلوه يقينا) (الصلب:١٠).. (إن أهل الضلال من عبادنا أشركوا بنا شركاً عظيماً فجعلونا تسعة وتسعين شريكاً بصفات متضاربة وأسماء للإنس والجان يدعونني بها وما أنزلنا بها من سلطان، وافتروا علينا كذباً بأنا الجبار المنتقم المهلك المتكبر المذل، وحاشا لنا أن نتصف بإفك المفترين ونزهنا عما يصفون) (الثالوث ٨:

ويضيف قائلا: إن المسلمين يزعمون أن القرآن جاء متحديا للعـــــالم كله منذ (١٤٠٠ سنة)، لذلك لم يستطع أحد تأليف كتاب مشابه له يناسب العصر ويجمع ما بين التوراة والإنجيل، ويقدم تفسيرا معاصرا لكل الأديان الثلاثة، إلا أن الفرقان الحق جاء ليدحض هذه المقولة.

ويضيف: لذلك جاء كتاب الفرقان الحق ليكون نقطة الضعف الجديدة للعرب والمسلمين التي يمكن اختراقهم من خلالها بعد أن نفينا أسطورة قرآنهم وتحديه للعالم منذ(١٤٠٠ سنة)، وليكون هذا الكتاب هو القرآن الحقيقي الذي يشرح معاني التوراة والإنجيل ورسالة المسيح في الأرض أيضا

ويقول: إن قرآن محمد نبي المسلمين استغرق(٢٣) سنة من الوحي، أما أنا فلم استغرق أكثر من (٧) سنوات لإصدار القرآن الجديد، ومكتوب باللغتين الإنجليزية والعربية، وليس العربية فقط حيث بدأت العمل به فعليا في (عام ١٩٩٩م)

وزعم أن القرآن الكريم احتوي علي أكثر من (١٠٠) خطأ لغوي في قواعد النحو، أما الفرقان الجديد فليس به أخطاء، كما زعم أن كتابه يحتوي علي الحقائق وليس علي مجرد نكات مثل القرآن.

وقد اشتمل هذا الكتاب على: المقدمة والبسملة والخاتمة ثم سبعا وسبعين سورة، وكل سورة تتكون من عدد من الآيات، وقد اشتملت هذه السور على موضوعات تكاد تكون مكررة في كل سورة بصورة مملة.

١٠).. (وقام منكم ناعٍ ينعق بنقمة الباطل على الحق، وحقد الكفر على الإيمان، ونصرة الشر على الخير، فكان لوحي الشيطان سميعا) (المسيح:١٥).. (والذين آمنوا بالإنجيل الحق وعملوا الصالحات، أولئك هم خير البرية، والذي كفروا وآمنوا بالشيطان ورسله أولئك هم شر البرية)(الإخاء:٨).. (يأيها الناس إنما تتلى عليكم آيات الشيطان مضللات، ليخرجكم من النور إلى الظلمات، فلا تتبعوا وحي الشيطان، واتخذوه عدواً لدوداً) (الإخاء:١٥)

التفت إلى الجمع، فلم ير أي تأثر، فقال: سأقرأ عليكم ما يقول قرآننا عن محمد.. لقد قال في (الأنبياء:١٨)،:(وحذرنا عبادنا المؤمنين من رسول أفاك تبينوه من بيِّنات الكفر، وعرفوه من ثمار أفعاله، وكشفوا إفكه وسحره المبين، فهو رسول شيطان رجيم لقوم كافرين) وفي (الأنبياء:١٦) (وما بشرنا بني إسرائيل برسول يأتي من بعد كلمتنا، وما عساه أن يقول بعد أن قلنا كلمة الحق، وأنزلنا سنة الكمال، وبشرنا الناس كافة بدين الحق، ولن يجدوا له نسخاً، ولا تبديلاً إلى يوم يبعثون)

بل إن قرآننا وصف محمدا بالطاغوت.. بل خصه بسورة (الطاغوت)، اتهمه فيها بإشعال الحروب، وإخراج الناس من النور إلى الظلمات، والسلب، والزنى، والكفر..

وقال قرآننا في سورة (الإعجاز٥: ٩):(وما نرسل من رسول إلا لخير عبادنا يريهم صراطنا المستقيم، وأما من أغواهم وأضلهم فهو رسول شيطان رجيم، فصراطه عِوج وإعجازه عجمة ونوره ظلمة فلا تتبعوه ولا تنصتوا له واتخذوه مهجورا، ولايزال الذين كفروا في مرية من الفرقان الحق حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب مقيم، ومن الناس من يجادل فيه بغير علم ولا هدي ولا كتاب منير)

وقال قرآننا في الشهادة التي يتسابق لها المسلمون:(يا أيها الذين ضلوا من عبادنا: إذا سئل أحدكم عن الروح قال: الروح من أمر ربي، فما أوتيتم من العلم كثيراً أو قليلاً وما سألتم أهل الذكر الذين بشروا بالروح قبل جاهلية ملتكم بمئات السنين، وإذا استشهدتم في سبيل جنة الزنى فقد نعم كفرة الروم قبلكم بجنة تجري من تحتها الأنهار يلبسون فيها ثياباً خضراً وحمراً متقابلين ومتكئين على الأرائك يطوف عليهم ولدان ونساء بخمور ولحم طير وما يشتهون وهم الكافرون، وبزت جنتهم جنتكم التي استشهدتم في سبيلها فرحين طمعاً بما وعدتم به من زنى وفجور)

التفت إلى الجمع، فلم ير أي تأثر، فقال: سأقرأ عليكم قرآنا آخر كتبه سلف صالح لنا[1] .. لقد قال فيه:(بسم الله الغفور الرحيم، أعارض قرآن مَنْ آخر اسمه الدال وأوله الميم، بلسان فصيح عربي مبين، لا يمنعني منه سيف ولا سكين، إذ قال لي بلسان الإلهام سيد المرسلين: قل المعجزة لا شريك فيها لرب العالمين وفي الفصاحة يشترك كثير كثيرين يغلب فيها أحيانًا الصالح الطالح والكافر المؤمنين، فليست الفصاحة ولو في النهاية آية ولا معجزة اللهم إلا عند الذين أوطاهم عشوة معلم مجنون حتى قالوا عنه خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، مع أنه

([1]) هو ريموند مارتيني (١٢٢٠ ــ ١٢٨٤ م) وهو راهب مبشر دومينيكاني إسباني، تبحر في دراسة القرآن، واجتهد في الجدل ضده، فألف كتابًا بعنوان (الخلاصة ضد القرآن)، وقد حاول معارضة القرآن، فوضع السورة المذكورة (عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص ٢١٣ ــ ٢١٥)

بإقراره في سورة الأحقاف لم يدر قط ما يُفْعل به ولا بتباعه أجمعين أكتعين، فقل يا من اسمه رمند ولقبه مرتين: آه، لقوم يقبل الباطل والخرافات والترهات كأنها اليقين، وإن كنتم في شك مما ألهمنا إليه عبدنا يا معاشر المسلمين فأتوا بحلٍّ هذه الحجة، وبمثل هذه السورة وادعوا لذلك إخوانكم من الجن إن كنتم مهتدين. فإن لم تقدروا، ولن تقدروا فقد زهق الباطل، وانتقام اليقين والحمد والشكر لله آمين، آمين)

بقي فرانكلين وقتا غير قليل يرطن بمثل هذه الركاكة إلى أن كاد الجمع أن ينفض عنه.. بل عزم بعضهم على ذلك إلى أن ارتفع صوت مهيب يخترق تلك الركاكات يرتل بخشوع ومهابة قوله تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣) أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦)﴾ (الأنعام)

ارتفعت العيون إلى صاحب الصوت المهيب، فإذا به الحكيم، فافترت ثغور المجتمعين على ابتسامة فرح وسرور، وانصرفت عن فرانكلين إلى الحكيم.

أراد فرانكلين أن يصرف إليه المستمعين، فقال: ما بكم؟.. هل غركم هذا الساحر عن أنفسكم.. أم أن سحره قد انطلى عليكم؟

قال الحكيم: الساحر لا يرى في حياته إلا السحر.. والمجنون لا يرى في حياته إلا الجنون.

قال فرانكلين: هل تراك تتهمني، أم تقذفني، أم تسبني؟

قال الحكيم: أنا لا أتهمك ولا أقذفك، وما علمنا نبينا أن نسب أحدا من الناس، ولكني أعرض عليك أن نبحث في الحقائق بعيون أهل الحقائق لا بعيون أهل الدجل.

قال فرانكلين: وما عيون أهل الدجل؟

قال الحكيم: تلك العيون التي رأى بها فرعون وملؤه ما جاءهم به موسى عليه السلام من الآيات، فقد رأوها سحرا لأنهم لم يروا في حياتهم إلا السحر، قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤)﴾ (غافر)، وقال تعالى:﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩)﴾ (الذاريات).. ألا ترى عمى هذا الأحمق عن الاحتمالات التي يتطلب العقل السليم النظر فيها.. فقد انحصر ما فعله موسى عليه السلام عنده في السحر أو في الجنون.

قال فرانكلين: فأنت تشبهني به إذن؟

قال الحكيم: بل أنت تشبه نفسك به.

قال فرانكلين: كيف تقول ذلك، ثم تدعي أن نبيكم لم يعلمكم أن تسبوا أحدا من الناس.

قال الحكيم: في إمكانك أن تصرف هذه المسبة عنك، وتلصقها بي.

قال فرانكلين: كيف ذلك؟.. وهل يمكن للمسبة أن تتجول لتبحث عمن تحل به؟

قال الحكيم: لقد أخبرنا نبينا ﷺ عن ذلك، فقال:(أيما امرئ قال لأخيه: كافر فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه)[1]، وقال ﷺ:(إذا قال الرجل لأخيه: أنت لي عدو فقد باء أحدهما بإثمه إن كان كذلك، وإلا رجعت على الأول)[2]

قال فرانكلين: فكيف أحولها إليك؟

قال الحكيم: هيا بنا نحتكم إلى ما احتكم إليه فرعون.

قال فرانكلين: وإلى ما احتكم فرعون؟

قال الحكيم: لقد قص القرآن علينا خبر ذلك، فقال:﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢)﴾ (الأعراف)

كان لقراءة الحكيم تأثيرها الكبير في نفوس المستمعين، بحيث كادوا ينحازون انحيازا كليا إليه، فخشي فرانكلين إن تصرف أي تصرف لا يقبله العقل أن يظهر بمظهر المنهزم، فقال: فاعتبرني موسى.. وتعال ألق بحبالك، لألقي بعصاي.

قال الحكيم: لا يمكن أن يعتبر أحدنا نفسه موسى.. فموسى هو النتيجة التي نصل إليها.. وموسى هو الحقيقة التي تقضي على الباطل..

قال فرانكلين: فلنعتبر أنفسنا جميعا سحرة ومخادعين.. ولنلق ما عندنا من حبال وعصي لنعرف من منا موسى، ومن منا غيره؟

قال الحكيم: أما كون ما كنت تقرؤه سحرا وخداعا، فلا أظنك تخالفني فيه.. أم أنك تخالفني فيه؟

قال فرانكلين: ماذا تقصد؟

قال الحكيم: لا شك أنك تعرف كاتب تلك الآيات التي كنت تقرؤها إن كان يصح أن تسمى آيات.

قال فرانكلين: أجل.. وبيني وبينه علاقة وثيقة.

قال الحكيم: فهل ادعى هذا الرجل النبوة، أم أنه لا يزال تابعا للمسيح، ولما يأمر به رجال السلطة

([1]) رواه مسلم.

([2]) رواه الخرائطي في مساوي الاخلاق.

الكنسية؟

قال فرانكلين: بل هو لا يزال مخلصا للمسيحية.. ولرجال الدين المعصومين فيها.

قال الحكيم: فما قرأته إذن من اعتباره صفيا مرسلا إليه كذب وخداع؟

سكت فرانكلين، فقال الحكيم: هل يزعم صاحبك هذا أن ما يقرؤه على الناس كلام الله موحى به إليه كما أوحيت الأسفار المقدسة للنبيين؟

قال فرانكلين: هو لا يزعم ذلك، وهو أكثر تواضعا من أن يزعم ذلك.

قال الحكيم: فقد كذب إذن في نسبة كلامه إلى الله..

قال فرانكلين: أنت لم تفهم هذا الغرض هذا الكتاب.

قال الحكيم: فوضح لي غرضه.

قال فرانكلين: إن غرضه أن يرد على التحدي الذي نطق به القرآن.. ألم يزعم القرآن أنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل القرآن لن يأتوا بمثله؟

قال الحكيم: أجل.. لقد قال تعالى في ذلك التحدي:﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآَنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾ (الإسراء)

قال فرانكلين: فقد رد صاحبي هذا على هذه الدعوى.

قال الحكيم: بل لم يرد عليها؟

قال فرانكلين: كيف ذلك، وأنت ترى آياته لا تختلف كثيرا عن آيات القرآن؟

قال الحكيم: إن ما تقوله يشبه ما رآه فرعون من عصا موسى u حين تصورها سحرا.. لأنه تصور أن كل خارق للعادة لن يكون إلا سحرا.

قال فرانكلين: فكيف تميز السحر عن غيره؟

قال الحكيم: بالاحتكام إلى أهل الاختصاص.. لقد احتكم فرعون إلى أهل الاختصاص من السحرة، فلم يملكوا إلا أن يسجدوا.

قال فرانكلين: فلمن نحتكم نحن الآن؟

قال الحكيم: لقد أثبتنا أن ما قرأته ليس كلاما من الله.. وأقررت بنفسك أن صاحبك هذا مجرد متلاعب، وليس صاحب رسالة كما تزعم كلماته.. وبذلك كانت حباله التي ألقاها مجرد سحر وخدعة بصرية كتلك الخدعة التي كنت تمارسها الآن بيننا.

قال فرانكلين: فالدور الآن إذن لمحمد.

قال الحكيم: أجل.. والعقل السليم يطلب منا أن ننظر فيما ألقاه محمد ﷺ، وفيما جاء به هل هو رسالة من الله إليه، أم هو مجرد خدعة لا تختلف عن خدعة صاحبك؟

قال فرانكلين: فكيف نعرف ذلك؟

قال الحكيم: إن المخادع يتميز بأربع صفات.. والخدعة لا يمكن أن تقوم إلا بأربعة أركان.. ولن ينجح

المخادع إلا إذا تحقق بها.. والعقل السليم يطلب منا تطبيق تلك المواصفات على ما جاء به محمد ﷺ لنميز بين كونه مخادعا أو صادقا.

قال فرانكلين: فما هي؟

قال الحكيم: أما الأولى، فهي الكاذب، فلا يمكن للمخادع أن يكون صادقا، وصاحبك قد علمت أنه كذب فيما ادعاه في كتابك من الوحي الذي أوحي به، وأنت كذلك كذبت على الجماعة حين أخبرتهم أن المنديل تحول إلى حمامة.

قال فرانكلين: والثانية؟

قال الحكيم: الغش..

قال فرانكلين: ما تريد به؟

قال الحكيم: الغش مضاد للنصيحة.. فالغاش لا يطلب إلا تحقيق مطلب شخصي بغض النظر عن مصلحة من يخاعه.

قال فرانكلين: قد أوافقك في أن أفعال السحرة تنطلق من الغش، لأنهم لا يرون إلا مكاسبهم، ولكنك لا يمكنك أن تتهم صاحبي بالغش.

قال الحكيم: المنطق يتهمه.. لأنه مثل من تصدق بعملة مزورة، سر بها الفقير، ليرتد سروره حزنا.

قال فرانكلين: فما الثالثة؟

قال الحكيم: الاحتيال؟

قال فرانكلين: أتتهمني صاحبي بالاحتيال؟

قال الحكيم: ما دمت قد أقررت بأن ما ذكره ليس وحيا موحى به إليه، فهو محتال، فالمحتال هو الذي يجعل الغاية مبررا للوسيلة.. فلو أن صاحبك طرق الأمر من بابه، ما اعتبر محتالا، ولكنه لما علا البيت من ظهره اعتبرته محتالا، بل هو نفسه يعتبر نفسه محتالا.

قال فرانكلين: فما الرابعة؟

قال الحكيم: الكسل.

ضحك فرانكلين، وقال: وما علاقة الكسل بالخداع؟

قال الحكيم: لأن المخادع لا يخادع إلا ليجني أرباحا من وراء خدعته.. وهو لذلك يتجنب الطرق المجهدة.. ويركن إلى الطرق السهلة.. وكل ذلك بسبب كسله.

قال فرانكلين: لم أفهم.

قال الحكيم: لاشك أنك ترى سلعا كثيرة مغشوشة تزاحم السلع الأصيلة.

قال فرانكلين: أجل.. أرى ذلك.

قال الحكيم: أيهما أكثر كلفة، وأعظم تعبا: السلع الأصيلة، أم السلع المغشوشة؟

قال فرانكلين: بل السلع المغشوشة.

قال الحكيم: فالكسل هو سبب غش السلع.. فالكسول الذي عجز عن الأصيل راح يخادع بالمغشوش.

قال فرانكلين: فكيف تطبق هذا على صاحبي؟

قال الحكيم: لقد عجز صاحبك أن يكون نبيا حقيقيا، فراح يدعي نبوة مغشوشة.

قال فرانكلين: سلمت لك بهذه الأصول التي تريد أن تطبقها على ما جاء به محمد.. ولكن هل يمكن لشخص في الدنيا أن يطبقها على محمد، وما جاء به محمد.

قال الحكيم: أجل.. وها أنا أمامك.. وسنعرض بعين العقل والمنطق هذه الأصول على محمد ﷺ وما جاء به محمد ﷺ.

١ ــ الكذب

قال فرانكلين: فلنبدأ بالكذب.. أنت تزعم أن محمدا في دعواه الرسالة لم يكن كاذبا.. وأن ما يقوله من وحي الله إليه صدق لاشك فيه.

قال الحكيم: أجل.. أقول ذلك، كما يقوله المسلمون في جميع أجيالهم.

قال فرانكلين: أليس الصدق هو مطابقة الأمر للواقع؟

قال الحكيم: أجل.

قال فرانكلين: لقد ذكر القرآن الجنة والنار والملائكة وأشياء كثيرة من عالم الغيب.. فكيف تستطيع أن تتأكد من صدق كل ذلك، وأنت لم تر شيئا من ذلك؟

قال الحكيم: ألست تقرأ الجرائد؟

قال فرانكلين: أجل.. وما علاقة ذلك بهذا؟

قال الحكيم: ألست تصدقها فيما تخبرك به من أخبار؟

قال فرانكلين: أجل..

قال الحكيم: حتى لو لم تر ما وصفوه لك من أخبار.

قال فرانكلين: أجل.. فلا يمكنني أن أرحل في كل لحظة لكل بقعة من بقاع العالم لأتأكد مما جرى فيها.

قال الحكيم: فأنت تثق في الموكلين بنقل الأخبار إليك؟

قال فرانكلين: أجل.. فالصحف المحترمة في العادة لا تختار إلا الثقاة.

قال الحكيم: فقد عرفت إذن بأن التأكد من الصدق لا يحتاج إلى أن نعرض كل مايقوله الصادق إلى الواقع، وإلا لم نحتج إلى الصادق للتعرف على الحقائق.

قال فرانكلين: ذلك صحيح.

قال الحكيم: ما تقوله في عالم الشهادة هو نفسه ما يجري في عالم الغيب، فالله تعالى بحكمته لم يجعل البشر جميعا رسلا، وإنما انتقى منهم ناسا ثقاة ليبلغوا رسالته للناس، وليخبروا الناس بما غاب عنهم من حقائق، قال تعالى:﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (الحج:٧٥)

قال فرانكلين: فكيف عرفت أن محمدا مصطفى كهؤلاء؟

قال الحكيم: ذلك علم طويل.. وأدلته لا يمكن استيفاؤها في هذا المحل وحده، وإن تك صادقا، فإن الله سيرسل لك من العقل ما تدرك به صدقه ونبوته.

قال فرانكلين: فكيف تثبت لنا صدق محمد فيما يدعيه؟

قال الحكيم: سأعرض لك ثلاث شهادات على صدقه، وأظن كل صاحب عقل سليم يكتفي بها.

قال فرانكلين: فما هي؟

قال الحكيم: شهادة أعدائه، وشهادة أتباعه، وشهادة الواقع.

الأعداء:

قال فرانكلين: كيف يشهد له أعداؤه بالصدق، وهم الذين بارزوه المحاربة؟

قال الحكيم: أحيانا تقف الشهوات أو الأمراض النفسية حائلا بين الإنسان، وبين العمل بما يقتضيه عقله.. ألا ترى أن السكير المدمن يعلم من أضرار الخمر ما يعلم، ولكنه مغلوب على أمره لا يستطيع أن ينفك عن شربها؟

قال فرانكلين: بلى.. فما السكر الذي حال بين قوم محمد، وبين اتباعه ما داموا يعلمون صدقه؟

قال الحكيم: لقد كان لأعدائه من السلطة في بلادهم، ومن المنعة، ولهم فوق ذلك من الأعراف، ما جعلهم ينفرون مما يطالب به محمد ﷺ وإن كانوا مستيقنين به.. لقد ذكر الله تعالى ذلك في معرض تسليته لنبيه ﷺ فقال:﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ (الأنعام)

لقد كان أعداؤهم يودون أن يكونوا نبيهم أحد كبرائهم كما قال تعالى:﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) (الزخرف:٣١)

وكانوا يودون من نبيهم أن ينصب عرشه بينهم، ثم يدعو كل واحد منهم ليحقق له مطالبه وشهواته كما قال تعالى:﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣)﴾ (الإسراء)

لكنه لما رفض نبيهم أن ينصاع لمطالب نفوسهم بارزوه المحاربة مع علمهم بصدقه.

قال فرانكلين: فلم لم يلب طلباتهم، ليقيم عليهم الحجة.

قال الحكيم: ألا تعلم أن وظيفة النبي تختلف عن وظيفة الكاهن المتنبئ الساحر.. النبي هاد وطبيب، ولا يمكن للطبيب أن يستسلم لطلبات مريضه، وإلا أضر به استسلامه له؟

قال فرانكلين: لقد ذكرت لي أن قومه شهدوا له بالصدق مع إعراضهم عنه في نفس الوقت.. فكيف عرفت ذلك؟

قال الحكيم: لقد وردت الأسانيد الكثيرة المتواترة تخبر بذلك، وسأذكر لك بعضها لتعلم مدى صدق ما ذكره القرآن الكريم من ذلك.

لقد روي في سبب نزول قوله تعالى:﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) (الأنعام:٣٣) أن أبا جهل لقي النبي ﷺ فقال: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب ما جئت به، فأنزل الله تعالى الآية[1].

([1]) رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، و لم يخرجاه.

وعن أبي يزيد المدني؛ أن النبي ﷺ لقي أبا جهل فصافحه، قال له رجل: ألا أراك تصافح هذا الصابئ؟! فقال: والله إني أعلم إنه لنبي، ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعا؟

وقد روي أن أبا جهل جاء يستمع قراءة النبي ﷺ من الليل، هو وأبو سفيان صَخْر بن حَرْب، والأخْنَس بن شرِيْق، ولا يشعر واحدٌ منهم بالآخر، فاستمعوها إلى الصباح، فلما هَجَم الصبح تَفرَّقوا، فجمعتهم الطريق، فقال كل منهم للآخر: ما جاء بك؟ فذكر له ما جاء له، ثم تعاهدوا ألا يعودوا، لما يخافون من علم شباب قريش بهم، لئلا يفتتنوا بمجيئهم، فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ظَنًا أن صاحبيه لا يجيئان، لما تقدم من العهود، فلما أجمعوا جمعتهم الطريق، فتلاوموا، ثم تعاهدوا ألا يعودوا. فلما كانت الليلة الثالثة جاءوا أيضا، فلما أصبحوا تعاهدوا ألا يعودوا لمثلها، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شَرِيق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حَنْظَلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعتُ أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به.

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه في بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، حملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تَجاثينا على الرُّكَب، وكنا كَفَرَسي رِهَان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء! فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه[1].

وروي أنه لما كان يوم بدر قال الأخنس بن شَرِيق لبني زهرة: يا بني زهرة، إن محمدًا ابن أختكم، فأنتم أحق من كف عنه، فإنه إن كان نبيًا لم تقاتلوه اليوم، وإن كان كاذبًا كنتم أحق من كف عن ابن أخته قفوا هاهنا حتى ألقى أبا الحكم، فإن غُلِبَ محمد رجعتم سالمين، وإن غَلَب محمد فإن قومكم لم يصنعوا بكم شيئا. فيومئذ سُمِّي الأخنس: وكان اسمه (أبيّ)، فالتقى الأخنس وأبو جهل، فخلا الأخنس بأبي جهل فقال: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد: أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا من قريش غيري وغيرك يسمع كلامنا. فقال أبو جهل: ويحك! والله إن محمدًا لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهبت بنو قُصيّ باللواء والسقاية والحجاب والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟)[2]

وعن المغيرة بن شعبة قال: إن أول يوم عرفت فيه رسول الله ﷺ أني أمشي أنا وأبو جهل في بعض أزقة مكة إذ لقينا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: يا أبا الحكم هلمَّ إلى الله ورسوله، أدعوك إلى الله. فقال أبو جهل: يا محمد هل أنت منتهٍ عن سبَ آلهتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلَّغت؟ فنحن نشهد أن قد بلَّغت، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حق لاتبعتك، فانصرف رسول الله ﷺ، وأقبل عليَّ فقال: والله إني لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعني شيء: أن بني قصي قالوا: فينا الحجابة، قلنا: نعم، ثم قالوا: فينا السقاية، قلنا: نعم، ثم قالوا: فينا الندوة، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا: نعم، ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكت

---

(1) رواه ابن إسحق وغيره.
(2) رواه ابن جرير.

الركب قالوا: منا نبي، والله لا أفعل[1].

وعن معاوية قال: خرج أبو سفيان إلى بادية له مردفاً هنداً، وخرجت أسير أمامهما وأنا غلام على حمارة لي، إذ سمعنا رسول الله ﷺ، فقال أبو سفيان: انزل يا معاوية حتى يركب محمد، فنزلت عن الحمارة وركبها رسول الله ﷺ، فسار أمامنا هنيهة، ثم التفت إلينا فقال: يا أبا سفيان بن حرب ويا هند بنت عتبة! والله لتموتن ثم لتبعثنَّ ثم ليدخلنَّ المحسنُ الجنة والمسيء النار، وأنا أقول لكم بحق، وإنكم لأول من أُنذرتم، ثم قرأ رسول الله ﷺ:﴿ حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾(فصلت)، فقال له أبو سفيان: أفرغت يا محمد؟ قال: نعم، ونزل رسول الله ﷺ عن الحمارة وركبتها، وأقبلت هند على أبي سفيان تقول: ألهذا الساحر أنزلت ابني؟ قال: لا والله ما هو بساحر ولا كذاب[2].

وعن ابن عباس ـــ رضي الله عنه ـــ أن أبا سفيان ابن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا ذهبوا إلى الشام، لأجل التجارة في المدة التي كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه بإيليا فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسبا بهذا الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسبا. فقال: أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل عن هذا الرجل فإن كذبني فكذبوه، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذبا لكذبت عليه، ثم كان أول ما سألني عنه أنه قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول أحد منكم قط قبله؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتد أحد منهم؛ سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه، قال: بماذا يأمركم؟ قلت: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة. فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب؟ فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا

---

(1) رواه البيهقي، وابن أبي شيبة بنحوه.

(2) رواه ابن عساكر والطبراني.

القول قبله قط؟ فذكرت أن لا، قلت: فلو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله، وسألتك هل كان في آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، قلت: لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بماذا يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج و لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه. ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به إليه مع دحية بن خليفة الكلبي فقرأه، قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب، وارتفعت الأصوات فأخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة؛ أنه ليخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام)[1]

وعنه قال: لما نزلت:﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤) صعد رسول الله ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، قال أبو لهب: تبّا لك يا محمد ألهذا جمعتنا فنزلت:﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد:١)[2]

وعن عبد الله بن سلام ـــ رضي الله عنه ـــ قال: (لما قدم النبي ﷺ المدينة كنت ممن انجفل، فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فسمعته يقول:(أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام)[3]

ومن الأعداء الذين شهدوا لرسول الله ﷺ رغم عداوتهم الشديدة النضر بن الحارث الذي خاطب قومه قائلا:(يا معشر قريش إنه والله قد نزل بكم أمر ما ابتليتم بمثله، ولقد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم عقلاً، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم قلتم: ساحراً! لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن! لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وحالهم، وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر! لا والله ما هو بشاعر، لقد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه وقريضه، وقلتم: مجنون! لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه، ثم قال لهم، يا معشر قريش، انظروا فى شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم)، فهذا كلام النضر

---

(1) رواه البخاري.
(2) رواه البخاري ومسلم.
(3) رواه أحمد والترمذي وغيرهما.

بن الحارث الذى كان شيطاناً من شياطين قريش، وممن كان يؤذى رسول الله ﷺ، وينصب له العداوة.. وهكذا قال سائر أعدائه كالوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وغيرهما.

و لم تكن هذه الشهادة خاصة بحياتة ﷺ بعد البعثة، بل إنه قبل البعثة اشتهر باسم الصادق الأمين، وقد ذكر شريكه في التجارة السائب المخزومي كيف كان ﷺ، فقال ـــ بعد أن لقيه يوم الفتح ـــ:(مرحبا بأخي وشريكي لا تداري ولا تماري)[1]، وفي لفظ أنه قال للنبي ﷺ:(كنت شريكي في الجاهلية فكنت خير شريك لا تداري ولا تماري)

ولما قامت قريش ببناء الكعبة قبل بعثة محمد ﷺ تنازعوا في رفع الحجر الأسود إلى مكانه، واتفقوا على تحكيم أول من يدخل عليهم الباب، فكان أول داخل رسول الله ﷺ ففرحوا جميعا، وقالوا: جاء الأمين، جاء محمد. وقد كانوا يلقبونه بلقب الأمين؛ لما يعلمونه من أمانته ﷺ.

التفت الحكيم إلى فرانكلين، وقال: ومما يدخل في هذا الباب إيمان من حاربوه من قبل واحداً فواحداً، طوعاً لا إكراهاً، أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعمر بن الخطاب وغيرهم.. لذلك لأنهم ما كانوا يشكون في أن محمداً صادق، ولكن فاجأهم بشيء لم يسمعوا به هم ولا آباؤهم فأنكروه، حتى إذا ذهب هول المفاجأة وحكّموا عقولهم التقى صدق الفكر بالثقة الأساسية بشخص محمد ﷺ فتولد عن ذلك إيمان.

قال فرانكلين: ولكن سبب هذا الإيمان قد يكون طلبا لمصالح لا اقتناعا بصدقه.

قال الحكيم: إن النبي ﷺ قضى أكثر حياته الدعوية وهو معدود من المستضعفين، فقد ظل في مكة ثلاث عشرة سنة أمضاها كلها في الاضطهاد والأذى هو وأصحابه، وأمضى في المدينة ثمان سنوات قبل فتح مكة، وهو معرض في كل لحظة للهجوم من كل الجهات.. بالإضافة إلى ذلك لم يكن لدى محمد ﷺ أي مصلحة من المصالح التي تطلبها النفوس.. بل لم يكن عنده إلا التضحية بالنفس والمال والوطن.. فأي مصالح يطلبها هؤلاء بإيمانهم؟

سكت فرانكلين، فقال الحكيم: سأقص عليك قصة لبعض من كان يعادي محمدا حتى أنه هم بقتله لتعرف من خلالها عظم التضحية التي بذلها هؤلاء.. وما كانوا ليبذلوها لولا يقينهم بصدقه ﷺ.

عن ابن عمر ـــ رضي الله عنه ـــ قال: لما أسلم عمر ـــ رضي الله عنه ـــ قال: أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي، فغدا عليه، قال عبد الله: وغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل ـــ وأنا غلام أعقل كل ما رأيت ـــ حتى جاءه، فقال له: أعلمت يا جميل أني أسلمت ودخلت في دين محمد ﷺ؟ قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه واتبعه عمر واتبعته أنا، حتى قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش ـــ وهم في أنديتهم حول الكعبة ـــ ألا إن ابن الخطاب قد صبأ. قال يقول عمر من خلفه: كذب، ولكني قد أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وثاروا إليه فما برح يقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، قال: وطلح فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاث مائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا، قال: فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش

---

[1] رواه أحمد.

عليه حلة حبرة وقميص موشى حتى وقف عليهم فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبأ عمر. قال: فمه، رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أترون بني عدي يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟ خلوا عن الرجل. قال: فوالله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه. قال فقلت لأبي ــ بعد أن هاجر إلى المدينة ــ: يا أبت! من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك؟ قال: ذاك ــ أي بني ــ العاص بن وائل السهمي[1].

التفت الحكيم إلى فرانكلين، وقال: هذه بعض شهادة خصوم محمد، بعضهم أسلم بعد خصومة شديدة، وبعضهم مات على كفره.. ولكن الجميع حتى في أشد حالات الخصومة كانوا مؤمنين أن محمداً ﷺ قد تمثلت فيه شخصية الصادق في أعلى مراتبها.

الأتباع:

قال فرانكلين: ربما تواضعت، فقبلت منك شهادة أعدائه وخصومه، ولكن كيف تعتبر شهادة الأتباع شهادة.. وهي تنطلق من ذاتية محضة.

قال الحكيم: قد يكون التابع تابعا عن غرض، وحينذاك تكون شهادته تابعة لغرضه، ولكن إن خلت الشهادة من الأغراض، وكانت نابعة من إخلاص عميق، فإن ذلك دليل على صدق صاحبها في شهادته.

بالإضافة إلى ذلك فإن الأتباع يرون ما لا يرى غيرهم، وبذلك يكون لشهادتهم من القيمة ما ليس لغيرهم.. لقد قال المستشرق الإنجليزى (هــ جى ويلز) يقرر هذا:(إن من أرفع الأدلة على صدق محمد كون أهله وأقرب الناس إليه يؤمنون به، فقد كانوا مطلعين على أسراره، ولو شكوا فى صدقه لما آمنوا به)[2]

ويقول هيجنس في كتابه (الاعتذار عن محمد والقرآن Appology for Md. And Quran): (إن أتباع عيسي ينبغي لهم أن يجعلوا علَى ذِكر منهم أن دعوة محمد أحدثت في نفوس أصحابه من الحميّة ما لم يحدُث مِثله في الأتباع الأولين لعيسى ومَن بحث عن مِثل ذلك لا يرجع إلَّا خائبًا؛ فقد هرب الحواريون، وانفضُّوا عن عيسى حين ذهب به أعداؤه ليصلبوه؛ فخذله أصحابه، وصَحُوا من سكرتهم الدينية، وأسلموا نبيهم لأعدائه يسقونه كأس الموت! أما أصحاب محمد؛ فالتفوا حول نبيِّهم المبغي عليه، ودافعوا عنه مخاطرين بأنفسهم إلَى أن تغلب بهم علَى أعدائه)

سكت قليلا، ثم قال: سأورد عليك بعض أخبار هؤلاء الأتباع لتعلم أنه لو لم يكتمل لمحمد ﷺ كل الصدق ما أخلصوا له ذلك الإخلاص.

عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: لمّا اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً ألَحَّ أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور فقال: يا أبا بكر إنا قليل، فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسول الله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين، فضربوا في

([1]) رواه ابن إسحاق.
([2])الإسلام والرسول فى نظر منصفى الشرق والغرب لأحمد بن حجر آل بوطامى ص١٣٢.

نواحي المسجد ضرباً شديداً، ووطئ أبو بكر وضرب ضرباً شديداً، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه.

وجاء بنو تيم يتعادون، فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد، وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه، ثم قاموا، وقالوا لأمه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه، فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله مالي علم بصاحبك، فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل، فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله، فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك، قالت: نعم، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دِنفاً، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت: والله إن قوماً نالوا منك هذا لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لكَ منهم. قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها. قالت: سالم صالح. قال: أين هو؟ قالت: في دار ابن الأرقم، قال: فإن لله علي أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله ﷺ، فأمهلتا حتى إذا هدأت الرِجْل وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ قال: فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله وأكب عليه المسلمون، ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة. فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله، ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة بولدها، وأنت مبارك فادعها إلى الله وادع الله لها، عسى الله أن يستنقذها بك من النار، قال: فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت[1].

وعن مسعود بن خراش ـــ رضي الله عنه ـــ قال: بينما نحن نطوف بين الصفا والمروة إذا أناس كثير يتبعون فتى شاباً موثقاً بيده في عنقه. قلت: ما شأنه؟ قالوا: هذا طلحة بن عبيد الله صبأ. وامرأة وراءه تدمدم وتسبه. قلت: من هذه؟ قالوا: الصعبة بنت الحضرمي أمه[2].

وعن سعيد بن المسيب ـــ رضي الله عنه ـــ: أن صهيباً ـــ رضي الله عنه ـــ أقبل مهاجراً نحو النبي ﷺ فتبعه نفر من قريش مشركون، فنزل فانتشل كنانته فقال: قد علمتم يا معشر قريش أني أرماكم رجلاً بسهر، وايم الله لا تصلون إلي حتى أرميكم بكل سهم في كنانتي ثم أضربكم بسيفي ما بقي في يدي منه، ثم شأنكم بعد ذلك وإن شئتم دللتكم على مالي بمكة وتخلوا سبيلي.. قالوا: نعم. فتعاهدوا على ذلك فدلهم، فأنزل الله على رسوله القرآن:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (البقرة:٢٠٧) فلما رأى النبي ﷺ صهيباً قال:(ربح البيع يا أبا يحيى، ربح البيع يا أبا يحيى)، وقرأ عليه القرآن[3].

وعن سليمان بن بلال ـــ رضي الله عنه ـــ: أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى بدر أراد سعد بن خثيمة وأبوه

---

(1) رواه أبو الحسن الطرابلسي.
(2) رواه البخاري في التاريخ.
(3) رواه البيهقي وابن سعد والحارث ابن المنذر وابن عساكر وابن أبي حاتم.

جميعاً الخروج معه، فذكر ذلك للنبي ﷺ فأمر أن يخرج أحدهما فاستهما، فقال خثيمة بن الحارث لابنه سعد ــ رضي الله عنهما ــ: إنه لا بد لأحدنا من أن يقيم، فأقم مع نسائك. فقال سعد: لو كان غير الجنة لآثرتك به إني أرجو الشهادة في وجهي هذا، فاستهما، فخرج سهم سعد، فخرج مع رسول الله ﷺ إلى بدر، فقتله عمرو بن عبد ود[1].

وعن ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ أن عمر قال يوم أحد لأخيه: خذ درعي يا أخي! قال: أريد من الشهادة مثل الذي تريد، فتركاها جميعاً[2].

وعن القاسم بن عبد الرحمن قال: انتهى أنس بن النضر ــ عم أنس بن مالك ــ إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار ــ رضي الله عنهم ــ وقد ألقوا ما بأيديهم، فاقل: فما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله ﷺ، ثم استقبل القوم، فقاتل حتى قُتل[3].

وعن زيد بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ قال: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد لطلب سعد بن الربيع ــ رضي الله عنه ــ وقال لي: إن رأيته فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟ قال: فجعلت أطوف بين القتلى، فأصبته وهو في آخر رمق، وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم. فقلت له: يا سعد، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام، ويقول لك: أخبرني كيف تجدك؟ قال: على رسول الله السلام، وعليك السلام، قل له: يا رسول الله أجدني أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن يخلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم شفر يطرف، قال: وفاضت نفسه[4].

وفي رواية: فقال سعد: أخبر رسول الله ﷺ أني من الأموات، وأقرئه السلام، وقل له: يقول سعد: جزاك الله عنا، وعن جميع الأمة خيراً.

وعن مالك بن عمير ــ رضي الله عنه ــ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني لقيت العدو ولقيت أبي فيهم، فسمعت لك منه مقالة قبيحة فلم أصبر حتى طعنته بالرمح — أو حتى قتلته ــ، فسكت عنه النبي ﷺ، ثم جاء آخر فقال: إني لقيت أبي فتركته وأحببت أن يليه غيري، فسكت[5].

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: مر رسول الله ﷺ بعبد الله بن أبي وهو في ظل أطم فقال: غبّر علينا ابن أبي كبشة، فقال ابنه عبد الله بن عبد الله ــ رضي الله عنه ــ: يا رسول الله والذي أكرمك لئن شئت لأتيتك برأسه! فقال: لا، ولكن بر أباك وأحسن صحبته [6]

وعن أبي عبيدة وغيره من أهل العلم بالمغازي أن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ قال لسعيد بن العاص وقربه: إني أراك تظن أني قتلت أباك، إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله، ولكني قتلت خالي العاص بن

([1]) رواه الحاكم.
([2]) رواه الطبراني، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.
([3]) رواه ابن إسحاق.
([4]) رواه الحاكم، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقال الذهبي: صحيح.
([5]) رواه البيهقي، وقال: وهذا مرسل جيد.
([6]) رواه البزار، قال الهيثمي: ورجاله ثقات.

هشام بن المغيرة، فأما أبوك فإني مررت به وهو يبحث بحث الثور بورقه، فحدت عنه وقصد له ابن عمه علي فقتله، فقال له سعيد بن العاص: لو قتلته لكنت على الحق وكان على الباطل. فأعجبه قوله[1].

وعن الزهري قال: لما قدم أبو سفيان بن الحر بالمدينة جاء إلى رسول الله ﷺ وهو يريد غزو مكة فكلّمه أن يزيد في هدنة الحديبية فلم يقبل رسول الله ﷺ فقام فدخل على ابنته أم حبيبة ــ رضي الله عنها ــ فلما ذهب ليجلس على فراش النبي ﷺ طوته دونه، فقال: يا بنية! أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس مشرك. فقال: يا بنية! لقد أصابك بعدي شر، فلم أحب أن تجلس على فراشه[2].

وعن أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ قال: لما كان يوم أحد حاص أهل المدينة حيصة، وقالوا: قُتل محمد حتى كثرت الصوارخ في ناحية المدينة، فخرجت امرأة من الأنصار محرمة فاستقبلت بأبيها وابنها وزوجها وأخيها ــ أي قتلى ــ لا أدري أيهم استقبلت به أولاً، كلما مرت على أحدهم قالت: من هذا؟ قالوا: أبوك، أخوك، زوجك، ابنك، تقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ يقولون: أمامك حتى دفعت إلى رسول الله ﷺ فأخذت بناحية ثوبه ثم قالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا أبالي إذ سلمتَ من عطب[3].

التفت الحكيم إلى فرانكلين، وقال: أرأيت كل هذا الإخلاص ... وهل ترى أنه يمكن أن يتوجه لإنسان مخادع كاذب.

إن هؤلاء الذين وقفوا هذه المواقف لم يكونوا أغراراً ولا مغفلين ولا منعزلين عن العالم، بل بعضهم من مكة التي كان العرب يقصدونها سنوياً للحج، وتسلم الجزيرة العربية كلها لأهلها بالفضل والزعامة، عدا عن صلات أهلها بواسطة التجارة مع اليمن ومع الشام حيث مراكز الحضارة، وبعض أصحابه من المدينة حيث الصلات الفكرية مع اليهود وما ينشأ عن ذلك من تفتح ذهني.

كما أن هؤلاء أثبتوا في حياة الرسول ﷺ وبعد مماته أنهم أرجح الناس عقولاً وأكثرهم دهاءً وحنكة ومعرفة بالرجال والشعوب وسياسة الأمم، بدليل أنهم نجحوا رغم محدودية وسائلهم في فتح أعظم الدول المتحضرة وقتذاك وإدارتها وكسب مودة شعوبها ودمجهم في الأمة الإسلامية.

لقد كانت هيئته ﷺ هي دليلهم الأول على مبلغ مكانته من الصدق، ودليلاً كافياً على صدق دعواه الرسالة، وعصمته فى كل ما يبلغه من وحى الله عز وجل، يعرفه بذلك كل من صفت فكرته، وتجرد عن الأنانية كما كان من الحبر عبد الله بن سلام ــ رضي الله عنه ــ الله عنه فإنه ما إن رآه عند مقدمة المدينة حتى استيقن صدقه كما قال: لما قدم النبى ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، وقيل قدم رسول الله ﷺ، قدم رسول الله ﷺ، قدم رسول الله ﷺ، فجئت فى الناس لأنظر إليه، فلما استبنت وجه رسول الله ﷺ، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شئ تكلم به أن قال:(أيها الناس: أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام،

---

(1) رواه ابن هشام.
(2) رواه ابن سعد.
(3) رواه الطبراني.

تدخلون الجنة بسلام)[1]

فلم يسعه بعد ذلك غير أن يعلن إسلامه، ويتبرأ من كيد يهود وعنادهم ففعل ذلك مقتنعاً مختاراً، وقد نزل فى فضله آيات من كتاب الله تعالى منها قوله تعالى:﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (الاحقاف:١٠)، وقوله:﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) (الرعد:٤٣)

وقد ذكر عبد الله بن رواحة ــ رضي الله عنه ــ هذا الشاهد، فقال:

لو لم تكن فيه آيات مبينة   لكان منظره ينبيك بالخبر

بل إن الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ كانوا يسمونه بالصادق المصدوق[2]، أى الصادق فى نفسه، المصدوق أى المعصوم فيما يجئ به عن ربه عز وجل، ويرون صدقه وعصمته ينبئ عنه مظهره وجواره، قبل أن تنبئ عنه أقواله.

الواقع:

قال فرانكلين: لا بأس.. سأسلم لك بجدوى هاتين الشهادتين.. ولكن كيف تعتبر الواقع شاهدا لنبيكم.. وقد ذكرت لك من قبل أنه لا أحد رأى ما يدعيه محمد من الملائكة، أو الجنة أو النار.. أو أي شيء من ذلك الغيب الذي يدعو له محمد؟

قال الحكيم: هل اجتزت في حياتك أي مسابقة علمية أو وظيفية؟

قال فرانكلين: أجل.. وأنا بسببها قد نلت أعلى الشهادات، وتبوأت أرقى المناصب.

قال الحكيم: فهل امتحنت في تلك المسابقات في كل ما درسته وطالعته وبحثت فيه؟

قال فرانكلين: لا يمكن ذلك.. فما طالعته وبحثت فيه وتعلمته أكبر بكثير من الأسئلة التي وجهت لي.

قال الحكيم: فكيف اكتفى واضعو الأسئلة بتلك الأسئلة.. وكيف جوزوا لأنفسهم أن يعطوك تلك الأوسمة من غير أن يمتحنوك في كل حرف تعلمته؟

قال فرانكلين: ذلك لا يمكن.. ثم إن الأسئلة التي سئلت عنها لا يمكن أن يجيب عنها إلا من اكتمل له حظ كبير من العلم.. وبهذا يستدل الممتحنون بما أجبت على ما لم أجب.

قال الحكيم: فطبق هذا المقياس على شهادة الواقع لنبينا ﷺ.

قال فرانكلين: كيف ذلك.. ونحن لم نر الملائكة ولا الجنة ولا النار.

قال الحكيم: لو رأيت كل ذلك لارتفع التكليف عنك.. لقد قال تعالى:﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا

([1]) رواه البخاري.

([2]) كما عبر عن ذلك ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ بقوله: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك... الحديث رواه أبو داود والترمذي.

بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢)﴾ (الفرقان)

قال فرانكلين: فكيف يشهد الواقع لمحمد إذن.. أم أنك تريد مني ثقة عمياء؟

قال الحكيم: استدل بما شهد له الواقع على ما لم يشهد.

قال فرانكلين: كيف ذلك؟

قال الحكيم: حينما استبعد المشركون بعقولهم الضيقة إمكانية البعث استدل الله لهم عن ذلك الغيب المكنون بالواقع المشهود، فقال:﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١)﴾ (يس)

لقد استدل الله لهذا الأحمق الذي استبعد أن يحيي الله العظام بأن الله هو الذي أنشأها أول مرة وهو الذي أنشأ كل شيء.. فكيف يستبعد منه أن يحيي الموتى.

قال فرانكلين: وما علاقة هذا بما نحن فيه؟

قال الحكيم: أنت تختصر ما جاء به محمد ﷺ في الغيب الذي لا يمكن أن نراه ما دمنا في هذه الدنيا.. وتريد من خلال ذلك أن تبين استحالة برهنة الواقع على صدق محمد ﷺ، وفي ذلك مغالطة عظمى..

قال فرانكلين: كيف تكون مغالطة.. وهي تعتمد منهجا عقليا محترما.

قال الحكيم: ولكنها تصور أن ما جاء به محمد ﷺ مقتصر على ذلك الغيب.. إن ما جاء به محمد ﷺ مما يتطلب شهادة الواقع موجود في الغيب وموجود في الشهادة، وليس من المنطق أن نبحث في شهادة الغيب المكنون ونترك شهادة الواقع المعلوم.

قال فرانكلين: ولكن الواقع يشهده كل الناس.

قال الحكيم: من الواقع من لا يشهده أحد من الناس، فيكون حكمه حكم الغيب إلى أن يظهر للوجود.

قال فرانكلين: فهل هناك غيب من هذا النوع نطق به محمد؟

قال الحكيم: كثير هو ذلك الغيب.. وهو ليس من نطق محمد ﷺ فقط، بل من نطق القرآن أيضا.. وأنا أتحدى كتابك الذي كنت تقرؤه أن ينطق بغيب محترم واحد.

قال فرانكلين: وهل نطق كتاب محمد بغيب من الغيب؟

قال الحكيم: بل نطق بكثير منه.. ولم تزد الأيام كتاب محمد ﷺ ولا ما قاله محمد ﷺ إلا صدقا وتصديقا[1].

سكت قليلا، ثم قال: لاشك أنك تعلم بأن آخر النظريات العلمية تنص على أن مبدأ الكون كان ما يسمى بالانفجار العظيم، وأن السماء بجميع ما فيها كانت مجتمعة في نقطة واحدة.

([1]) انظر التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في رسالتي (معجزات علمية)، و(معجزات حسية) من هذه السلسلة، وسنذكر هنا بعض النماذج باختصار من باب التمثيل، أما التفاصيل فموجودة في محالها من تينك الرسالتين.

قال فرانكلين: أجل.. وقد كشف قومي ذلك بما أوتوا من حنكة ومعرفة.

قال الحكيم: ألا يمكن أن يكون اليونان هم الذين اكتشفوا ذلك؟

قال فرانكلين: يستحيل ذلك.. فأين معارف اليونان وهذا.. إن هذه المعرفة لم تأت من فراغ.. إنه نتيجة لدراسات فلكية كثيرة.. بل هي لم تعتمد على الدراسات المجردة.. فهي اعتمدت على وسائل متطورة لا يمكن أن يملكها اليونان ولا غير اليونان.

قال الحكيم: فإذا نطق بها محمد ﷺ ونطق بها القرآن من غير أي وسيلة.. ولا أي دراسات سابقة.

قال فرانكلين: ذلك مستحيل.

قال الحكيم: فقد نطق القرآن بذلك.. قال تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ (الانبياء:٣٠)، وقال تعالى:﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الانبياء:١٠٤)

قال فرانكلين: ربما يكون ما قاله مجرد مصادفة.

قال الحكيم: المصادفة كما تكون في الصواب تكون في الخطأ.. أليس كذلك؟

قال فرانكلين: بلى.. ذلك صحيح.. بل إنها في الخطأ أكثر منها في الصواب.

قال الحكيم: ولكن القرآن الكريم، وكل ما قاله محمد ﷺ لم يقع فيه خطأ واحد[1].

([1]) انظر التفاصيل الكثيرة في الرسالتين اللتين سبق ذكرهما.

٢ ـــ الغش

قال رجل من الجمع: حدثتنا عن الكذب، وعرفنا أن محمدا أبعد الناس عنه، فحدثنا عن الغش.

قال الحكيم: الغش مضاد للنصيحة.. والغاش هو الذي يستهين بمصالح الناس، فهو يعبث بها ليخدم مصالحه.

قال فرانكلين: وهذا لن تستطيع أن تنقذ منه محمدا، ولا دين محمد.

قال الحكيم: لا ينبغي أن نتسرع في أحكامنا.. ولننظر للواقع، فالواقع هو وحده الكفيل بتمييز الناصح من الغاش.

قال فرانكلين: أجل.. فما هو الواقع الذي أنجزه محمد غير سفك الدماء؟

قال الحكيم: سفك الدماء موجود في كل واقع.. ولهذا لا ينبغي أن ننحجب بالدماء عن الحقائق.

قال فرانكلين: فمن الشهود الذين تريد أن تستقدمهم ليشهدوا لمحمد بالنصيحة، ويجنبوه عار الغش؟

قال الحكيم: سأكتفي بشاهدين كلاهما تسلم له العقول السليمة، وكلاهما تذعن له.

قال فرانكلين: من هما؟

قال الحكيم: الدين والواقع

قال فرانكلين: وكيف يحق لهذين أن يشهدا؟

قال الحكيم: الدين هو الأصول والفروع التي جاء بها محمد.. والواقع هو تأثير تلك الأصول والفروع في البيئة التي آمنت بها وطبقتها[1].

التفت إلى فرانكلين، وقال: إن شئت مثالا يدلك على هذا.. فاذهب إلى الصيدلي، واسأله عن الشهادات التي تثبت مصداقية أي دواء من الأدوية، فسيذكر لك أنهما اثنان: احتواء الدواء في نفسه على عناصر الشفاء.. وظهور النتائج الواقعية الدالة على جدواه.

الدين:

قال فرانكلين: فحدثني عن نصيحة الدين الذي جاء به محمد.

قال الحكيم: أنتم ـــ معشر المسيحيين ـــ تفخرون على الديانات جميعا بتلك الوصايا التي وردت في الكتاب المقدس، وتكادون تستدلون بها وحدها على صدق ما ورد في الكتاب المقدس، مع ما فيه من تشويه كثير.

قال فرانكلين: ومن لا يفخر بتلك المعاني الإنسانية السامية؟

قال الحكيم: ففي نصوص الإسلام المقدسة من الكتاب والسنة أضعاف تلك النصوص، وهي تحمل من

([1]) أكثر رسائل السلسلة تحاول البرهنة على هذا، وينظر بصفة خاصة لتأثير الإسلام في الواقع الإنساني رسالة (ثمار من شجرة النبوة)

المعاني أضعاف ما ورد في الكتاب المقدس، وهي ليست مجرد وصايا عارية عن طرق التنفيذ، بل هي وصايا لها من التشريعات ما يملأ بها النفس والوجدان.

وسأكتفي بقراءة بعض النصوص المقدسة لترى المعاني السامية التي كان يدعو إليها رسول الله ﷺ.. والتي تحيل أن يكون الداعي إليها إنسانا غاشا يكتفي باللهف على خدمة مصالحه.

قال تعالى:﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾ (البقرة)

قال تعالى:﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ (الأنعام)

وقال تعالى:﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (٢٢) وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَآَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (٣٩)﴾ (الإسراء)

وقال تعالى:﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)﴾ (آل

عمران)

وقال تعالى:﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)﴾ (الأعراف)

وقال تعالى:﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)﴾ (آل عمران)

التفت الحكيم إلى فرانكلين، وقال: في إمكانك أن تجري مقارنة بين المعاني السامية التي وردت في القرآن الكريم، وبين المعاني التي وردت في كتاب صديقك المقدس..

فإن لم تر كتاب صاحبك قادرا على ذلك، فارتفع لتجري مقارنة بين هذه المعاني وغيرها وبين المعاني التي وردت في الكتاب المقدس..

وأنا متيقن تماما أنك لن تجد في أي كتاب من كتب الدنيا مقدسة كانت أو غير مقدسة من القيم النبيلة ما في الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ.

فهل يمكن أن يكون أشرف كتاب في الدنيا، وأنبل كتاب فيها كتاب غش؟

وهل يمكن أن يكون من جاء بذلك الكتاب رجلا غاشا كاذبا لا حظ له من الصدق والنصح؟

وهل يمكن لمن دعا إلى تلك القيم النبيلة، وأخبر بالوعيد الشديد المرتبط لمن خالفها أن يكون كاذبا وغاشا.

هل يمكن لمن حذر من الكذب على الله بمثل هذه الصيغ المشددة أن يكون تحذيره هذا كذبا على الله..

اسمع لهذا الوعيد الشديد، قال تعالى:﴿ فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (آل عمران:٩٤)، وقال تعالى:﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (الأنعام:٢١)، وقال تعالى:﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الأنعام:٩٣)، وقال تعالى:﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(الأنعام: من الآية١٤٤)، وقال تعالى:﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (لأعراف:٣٧)، وقال تعالى:﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (يونس:١٧)، وقال تعالى:﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ

كَذِباً أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) (هود:١٨)، وقال تعالى:﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى) (طـــه:٦١)، وقال تعالى:﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ) (العنكبوت:٦٨)، وقال تعالى:﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) (الشورى:٢٤)، وقال تعالى:﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْأِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (الصف:٧)

الواقع:

أحس فرانكلين بثقل الآيات التي كان يقرؤها الحكيم، وكأنه كان يخاطبه بها، أو يخاطب صديقه الذي سولت له نفسه أن يتحدى كلام الله، فقال برعدة لم يستطع أن يحبسها: فلندع هذا.. وأخبرنا عن تأثير ما جاء به محمد في الواقع.. فإن هناك فرقا واسعا بين النظريات وتطبيقاتها.

قال الحكيم: أولا.. لا ينبغي أن يؤاخذ الأستاذ النصيح الذي لم يألو جهدا في نصيحة طلابه إن قصر بعضهم أو فرط.. ولذلك فتطبيق الدين في جميع مراحل التاريخ الإسلامي تم على مستويات مختلفة، لعل أدناها هو المستوى الذي نعيشه في هذا العصر.. ولذلك لا ينبغي أن نحكم على الإسلام من خلال سلوك المسلمين.

لقد قال تعالى يبين أن خلفاء الرسل مختلفين في مدى تمسكهم بدين أنبيائهم:﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) (فاطر:٣٢)

بل ذكر أن التفريط أغلب على هؤلاء من الاقتصاد أو السبق، فقال:﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ) (لأعراف:١٦٩)، وقال:﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً) (مريم:٥٩)

قال فرانكلين: فقد أخفقت دعوة محمد إذن في جانبها التطبيقي؟

قال الحكيم: بل لم تنجح دعوة في الدنيا كما نجحت دعوة محمد.. كل المبادئ بلت وانهارت وسقطت إلا المبادئ التي جاء بها محمد، فقد آتت أكلها في حياته، وهي لا تزال تؤتي أكلها كل حين.

لن أطيل عليك، بل سأكتفي بشهادة رجل كان يعيش في البيئة التي ولد فيها رسول الله ﷺ، بل هو ابن عمه، وهو يتحدث مع ملك من الملوك حول المبادئ السامة التي جاء بها محمد ﷺ، والتي تحولت بعد ذلك واقعا ملموسا لا زلنا نشهد آثاره إلى اليوم.

لقد سأله النجاشي ملك الحبشة: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم و لم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم؟

فقال جعفر: أيها الملك، إنا كنا قوما أهل جاهلية ؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع

الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع، ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمر بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، والدماء، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة، – فعدد عليه أمور الإسلام – فصدقناه وآمنا به واتبعناه.

التفت الحكيم إلى فرانكلين، وقال: ألا ترى العقل الذي يفكر به أتباع محمد ﷺ.. لقد استدلوا بما نصحهم به محمد ﷺ على صدقه.. فالنصيحة لا يمكن أن تخرج من غاش.. والصدق لا يمكن أن يخرج من فم كذوب.

قال فرانكلين: ولكن الشريعة المبثوثة في كتب الفقه تحوي مفاسد كثيرة، فكيف تزعم أن الأصول التي تستند إليها أصول صحيحة؟

قال الحكيم: فرق كبير بين كتب الفقه وبين الشريعة.. كتب الفقه تحاول أن تصف الشريعة التي جاء بها محمد ﷺ، وهي قد تفلح في ذلك، وقد تخفق.. وإخفاقها لا ينبغي أن يكون مبررا للهجوم على الشريعة.

لقد ذكر علماء المسلمين الراسخون في العلم أن الشريعة المستنبطة من النصوص المقدسة لا يمكن أن تخالطها أي مفسدة أو غش أو مضرة، لقد نص على ذلك بعضهم، فقال: (إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ﷺ أتم دلالة وأصدقها، وهي نوره الذي به أبصر المبصرون، وهداه الذي به اهتدى المهتدون، وشفاؤه التام الذي به دواء كل عليل، وطريقه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل، فهي قرة العيون، وحياة القلوب، ولذة الأرواح، فبها الحياة والغذاء والدواء والنور والشفاء والعصمة وكل خير في الوجود فإنما هو مستفاد منها وحاصل بها، وكل نقص في الوجود فسببه من إضاعتها، ولولا رسوم قد بقيت لخربت الدنيا وطوي العالم، وهي العصمة للناس، وقوام العالم، وبها يمسك الله السماوات والأرض أن تزولا، فإذا أراد الله سبحانه وتعالى خراب الدنيا وطي العالم رفع إليه ما بقي من رسومها، فالشريعة التي بعث الله بها رسوله هي عمود العالم وقطب الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة)[1]

([1]) إعلام الموقعين:٣/٣.

٣ ــ الاحتيال

لم يجد فرانكلين ما يجيب به الحكيم سوى أن قال: دعنا من هذا.. فلنسلم أن محمدا لم يكن يقصد غش من كان يدعوهم.. بل كان يقصد أن ينصحهم ويخرجهم من جاهليتهم إلى ما يسميه نور الإسلام.. ولكنه لم يجد وسيلة صالحة لذلك غير أن يدعي النبوة، فيحقق به ما تعجز سائر الوسائل عن تحقيقه[1].

لاشك أن محمدا كان يعرف الطبع العربي، ويعرف الأنفة التي جبل عليها، وهي أنفة تمنعه من أن يسلم إلا لصاحب زعامة دينية.. و لم يكن محمد يستطيع أن ينال هذه الزعامة من غير واسطة ادعاء النبوة، خاصة وأن الظروف قد ساعدته على ذلك، فالبيئة التي عايشها كانت كلها تزعم أن نبيا قد اقترب موعده، وأن بلده مكة ..[2]

ابتسم الحكيم، وقال: نعم.. فلنعتبر هذا احتمالا من الاحتمالات، ولا نستعجل في قبوله أو رفضه حتى نعرضه على حياة محمد وسلوكه، فالمحتال لا بد أن يترك ثغرة تعرف بحيلته..

لاشك أنك تعلم ــ على حسب ما ينص الكتاب المقدس ــ على أن الله تعالى بحكمته لا يترك للمحتال فرصة كافية للتمادي في احتياله.. وأن من يتحدث باسم الله كاذبا على الله لابد أن يأتي اليوم الذي تقع فيه فضيحته.. تقع في حياته قبل موته.

لقد نص الكتاب المقدس على هذا، ولاشك أنك تعلم ما قال غمالائيل معلم اليهود لليهود في حق الحواريين، لقد قال لهم ــ على حسب (سفر أعمال الرسل: ٥/٣٦-٣٩):(يا أيها الرجال الإسرائيليون احترزوا لأنفسكم من جهة هؤلاء الناس فيما أنتم مزمعون أن تفعلوا لأنه قبل هذه الأيام قام ثوداس قائلاً عن

([1])رد بعضهم على هذا الاحتمال بقوله:(نسبة محمد ﷺ القرآن إلى الله لا تكون احتيالا منه لبسط نفوذه، وإلا لم لم ينسب أقواله كلها إلى الله.

ولو أننا افترضناه افتراضا لما عرفنا له تعليلا معقولا ولا شبه معقول ، اللهم إلا شيئا واحدا قد يحيك في صدر الجاهل، وهو أن يكون هذا الزعيم قد رأى أن في (نسبته القرآن إلى الوحي الإلهي) ما يعينه على استصلاح الناس باستيجاب طاعته عليهم، ونفاذ أمره فيهم ؛ لأن تلك النسبة تجعل لقوله من الحرمة والتعظيم ما لا يكون له لو نسبه إلى نفسه، وهذا قياس فاسد في ذاته، فاسد في أساسه ؛ أما أنه فاسد في ذاته ، فلأن صاحب هذا القرآن قد صدر عنه الكلام المنسوب إلى نفسه والكلام المنسوب إلى الله تعالى فلم تكن نسبته ما نسبه إلى نفسه بناقصة من لزوم طاعته شيئا، ولا نسبة ما نسبه إلى ربه بزائدة فيها شيئا، بل استوجب على الناس طاعته فيهما على السواء، فكانت حرمتها في النفوس على سواء، وكانت طاعته من طاعة الله، ومعصيته من معصية الله، فهلا جعل كل أقواله من كلام الله تعالى لو كان الأمر كما يهجس به ذلك الوهم.

و أما فساد هذا القياس من أساسه ؛ فلأنه مبني على افتراض باطل، وهو تجويز أن يكون هذا الزعيم من أولئك الذين لا يأبون في الوصول إلى غاية إصلاحية أن يعبروا إليها على قنطرة من الكذب والتمويه ، وذلك أمر يأباه علينا الواقع التاريخي كل الإباء ، فإن من تتبع سيرته الشريفة في حركاته وسكناته، وعباراته وإشاراته، في رضاه وغضبه، في خلوته وجلوته لا يشك في أنه كان أبعد الناس عن المداجاة والمواربة، وأن ذلك كان أخص شمائله وأظهر صفاته قبل النبوة وبعدها كما شهد ويشهد به أصدقاؤه وأعداؤه إلى يومنا هذا:﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (يونس:١٦)(انظر: شبهات حول القرآن وتفنيدها، د.غازي عناية، ص:٢١)

([2]) انظر رسالة (معجزات حسية)، فصل (إرهاصات)

نفسه: أنه شيء الذي التصق به عدد من الرجال نحو أربعمائة، الذي قتل وجميع الذين انقادوا إليه تبددوا وصاروا لا شيء بعد هذا قام يهودا الجليلي في أيام الاكتتاب، وأزاغ وراءه شعباً غفيراً، فذاك أيضاً هلك وجميع الذين انقادوا إليه تشتتوا والآن أقول لكم تنحوا عن هؤلاء الناس واتركوهم لأنه إن كان هذا الرأي وهذا العمل من الناس فسوف ينتقض وإن كان من اللّه فلا تقدرون أن تنتقضوه لئلا توجدوا محاربين للّه أيضاً)

وقد ورد مثل هذا في العهد القديم، ففي الآية السابعة من الزبور الأول هكذا: (لأن الرب يعرف طريق الصديقين وطريق المنافقين تملك)، وفي الآية السادسة من الزبور الخامس هكذا: (وتملك كل الذين يتكلمون بالكذب، الرجل السافك الدماء والغاش يرذله الرب)، وفي الآية السادسة عشرة من الزبور الرابع والثلاثين هكذا: (وجه الرب على الذين يعملون المساوئ ليبيد من الأرض ذكرهم)، وفي الزبور السابع والثلاثين هكذا: (لأن سواعد الخطاة تنكر، والرب يعضد الصديقين الخطاة فيهلكون، وأعداء الرب جميعاً إذ يمجدون ويرتفعون، يبيدون، وكالدخان يفنون)

لقد نص القرآن الكريم على هذه السنة، ففيه هذا الخطاب الشديد على رسول الله ﷺ:﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ (الحاقة)

إن هذه الآيات الكريمة تخاطب المكذبين لمحمد ﷺ لتقول لهم: لو كان محمد مفتريا كما تزعمون، فزاد في الرسالة أو نقص منها، أو قال شيئا من عنده فنسبه إلينا، وليس كذلك، لعاجلناه بالعقوبة. و﴿ لأَخَذْنَا مِنْهُ بالْيَمِينِ ﴾[1] ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾[2]

ومثل ذلك ما نص عليه قوله تعالى:﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)﴾ (الإسراء)

إن هذه الآيات تهديد عظيم لرسول الله ﷺ إن هو افترى على الله ما لم يوح به إليه.

التفت الحكيم إلى الجمع، وقال: هل ترون مفتريا يمكن أن يقول عن نفسه هذا؟

سكت الجمع، فقال: سأبرهن لكم من خلال القرآن الكريم أن محمدا ﷺ كان أبعد الناس عن الاحتيال، وكان أبعد الناس عن ذلك الدهاء الشيطاني الذي يزعمه له المفترون، وسأكتفي بثلاث شهادات تدل على ذلك:

أما الشهادة الأولى، فظاهرة الوحي نفسه، وهي ظاهرة كان يلاحظها الناس في رسول الله ﷺ ويصفونها.

وأما الشهادة الثانية، فتأخر الوحي في الوقت الذي يكون فيه رسول الله ﷺ أحوج ما يكون إليه.

وأما الشهادة الثالثة، فنزول الوحي بالعتاب والتخطئة لرأي رآه رسول الله ﷺ أو سلوك سلكه.

فكل هذه الأمور يستحيل أن تصدر من محتال.

([1])قيل: معناه لانتقمنا منه باليمين؛ لأنها أشد في البطش، وقيل: لأخذنا منه بيمينه.

([2])قال ابن عباس: وهو نياط القلب، وهو العِرْقُ الذي القلب معلق فيه، وقال محمد بن كعب: هو القلب ومَرَاقُّه وما يليه.

شهادة الوحي:

قال فرانكلين: كيف تعتبر ما تسميه ظاهرة الوحي دليلا، ونحن نعتبر الوحي نفسه متهما، هل يحق عندك أن يشهد الخصم لنفسه؟

قال الحكيم: إذا كان الخصم صادقا، فإنه يصح أن يشهد على نفسه، بل إن شهادته تبز كل شهادة، أليس الإقرار ــ كما يقال ــ سيد الأدلة؟

قال فرانكلين: فمن السهل إذن أن يدعي أي شخص أنه يوحى إليه، فإذا طولب بالشهود اكتفى بشهادة نفسه.

قال الحكيم: نحن لم نقتصر من الشهود على شهادة الوحي.. بل اعتبرنا شهادة الوحي من الشهادات المعتبرة التي ينبغي أن نأخذها في الحسبان، وهي تؤيد بعد ذلك بآلاف من الشهود.

قال فرانكلين: ما دامت مؤيدة بآلاف من الشهود، فما الوجه لإضافة هذه الشهادة؟

قال الحكيم: لولا شهادة الوحي ما اعتبرنا ــ نحن المسلمين ــ كل أولئك الشهود..فالشاهد الأول على كون ما أنزل على رسول الله ﷺ وحيا من الله هو الله نفسه.. فالله سيد الشهود، ولا ينبغي أن تقدم شهادة أخرى عليه.

قال فرانكلين: أنا لا زلت عاجزا عن إدراك سر ضرورة هذه الشهادة.

قال الحكيم: سأقرب لك ذلك.. أنتم المسيحيون تختلفون في طبيعة المسيح.. وأكثركم إما يقول بتأليه المسيح أو أنه ذو طبيعة مزودجة؟

قال فرانكلين: ذلك صحيح.. وما علاقته بما نحن فيه؟

قال الحكيم: فهل لهؤلاء فيما قالوه شهود يشهدون لهم؟

قال فرانكلين: لهم آلاف الشهود التي تدلهم على هذا.

قال الحكيم: هي كلها من أقوال القديسين.. أو استنتاجات الأحبار والرهبان.. وليس فيها نص واحد عن المسيح.. أليس كذلك[1]؟

قال فرانكلين: لا.. هناك نصوص نطق بها المسيح.. ألم تقرأ ما ورد في الأناجيل من قوله ــ مثلا ــ:(أنا والآب واحد)

قال الحكيم: أنت تعلم أن هذا النص ليس المراد به ما يوهمه ظاهره.. وقد فسر المسيح عليه السلام المراد منه.. وبذلك يكون قد نفى أي وهم يطرق لكل نص يشبه هذا النص..

لن أطيل عليك.. بل يكفي لتفهم النص أن تقرأ نص المحاورة للرد على الاستدلال بهذا الدليل، لقد ورد نص المحاورة هكذا: قال لهم:(أنا والآب واحد)، فتناول الْيَهُودُ أيضاً حِجَارَةً لِيَرْجُمُوهُ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ:

([1]) انظر رسالة (الله جل جلاله) ففيها مناقشات مفصلة لكل النصوص التي يتصور المسيحيون أنها شهادات من المسيح بألوهيته أو بكونه أقنوما من الأقانيم.

أَرَيْتُكُمْ أَعْمَالاً صَالِحَةً كَثِيرَةً مِنْ عِنْدِ أَبِي، فَبِسَبَبِ أَيِّ عَمَلٍ مِنْهَا تَرْجُمُونَنِي؟ فأجابه اليهود قائلين: ليس من أجل الأعمال الحسنة نرجمك، ولكن لأجل التجديف، وإذ أنت إنسان تجعل نفسك إلها، فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ:(أَلَيْسَ مَكْتُوباً فِي شَرِيعَتِكُمْ: أَنَا قُلْتُ إِنَّكُمْ آلِهَةٌ؟ فَإِذَا كَانَتِ الشَّرِيعَةُ تَدْعُو أُولئِكَ الَّذِينَ نَزَلَتْ إِلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللهِ آلِهَةً وَالْكِتَابُ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يُنْقَضَ فَهَلْ تَقُولُونَ لِمَنْ قَدَّسَهُ الآبُ وَبَعَثَهُ إِلَى الْعَالَمِ: أَنْتَ تُجَدِّفُ، لأَنِّي قُلْتُ: أَنَا ابْنُ اللهِ؟)

التفت الحكيم إلى فرانكلين، وقال: لا شك أن معنى هذه المحاورة أن اليهود فهموا خطأ من قول المسيح:(أنا والآب واحد) أنه يدعي الألوهية، فأرادوا لذلك أن ينتقموا منه، ويرجموه، فرد عليهم المسيح خطأهم، وسوء فهمهم بأن هذه العبارة لا تستدعي ألوهيته، لأن (آساف) قديماً أطلق على القضاة أنهم آلهة بقوله الثابت في المزمور (٨٢: ٦):(أنا قلت: إنكم آلهة، وبنو العلي كلكم)

ولم يفهم أحد من هذه العبارة تأليه هؤلاء القضاة، ولكن المعنى المسوغ لإطلاق لفظ آلهة عليهم أنهم أعطوا سلطاناً أن يأمروا ويتحكموا ويقضوا باسم الله.

وبموجب هذا المنطق الذي شرحه المسيح لليهود ساغ للمسيح أن يعبر عن نفسه بمثل ما عبر به آساف عن أولئك القضاة الذين صارت إليهم كلمة الله.

ولا يقتضي كل من التعبرين أن في المسيح، أو أن في القضاة لاهوتاً حسبما فهمه اليهود خطأ.

قال فرانكلين: ألا يمكن أن يكون المسيح قد فعل ذلك بهم من باب المداراة؟

قال الحكيم: فأنت ترمي المسيح بما تريد أن ترمي به محمدا.. لا شك أنك تعلم أنه لو فعل ذلك لكان مغالطة منه وغشاً لا مداراة، وهذا لا يليق بالأنبياء الهادين إلى الحق، فكيف يليق بمن تزعمونه إلها؟

فإن كان المسيح هو رب العالمين الذي يجب أن يعبد، وقد صرفهم عن اعتقاد ذلك بضربه لهم ذلك المثل، فيكون بذلك قد أمرهم بعبادة غيره، وصرفهم عن عبادته.

قلت: فما تفهم أنت من هذا القول؟

قال: هذا القول يفهم على ضوء المحكمات، وعلى ضوء ما فسره المسيح ببساطة ويسر.. إن المسيح يريد أن يقول لهم:(إن قبولكم لأمري هو قبولكم لأمر الله).. هو تماما مثل قول رسول الرجل: أنا ومن أرسلني واحد.. وهو تماما مثل قول الوكيل: أنا ومن وكلني واحد.. لأنه يقوم فيما يؤديه مقامه، ويؤدي عنه ما أرسله به ويتكلم بحجته، ويطالب له بحقوقه.

أراد فرانكلين أن يغير مسار المناقشة، فقال: ما بالك استطردت كل هذا الاستطراد.. عد بنا إلى ما كنا فيه.

قال الحكيم: أنا لم أستطرد، ولكني أردت أن أبين لك أن أعظم شهادة هي شهادة الله.. وما دام الله لم يشهد للمسيح في الكتاب المقدس أنه إله أو ابن إله، فلا يحق لأحد في الدنيا أن يزيد على كلام الله ما لم يقله..

ولهذا، فإن العقلاء الحكماء يعتبرون أعظم شهادة على كون ما يوحى للنبي ﷺ وحي من الله هو نطق الوحي نفسه بأنه من الله.. خاصة إذا علمنا مدى صدق النبي ﷺ.. فهل يمكن لمن يتحرى الصدق كل ذلك

التحري أن يدع الكذب على الناس، ثم يكذب على الله.

سكت قليلا، ثم قال: سأقرأ عليك بعض النصوص، وحاول أن تتمعن فيها جيدا لترى هل يمكن لكاذب أن ينطق بها.

أخذ الحكيم يقرأ بصوت خاشع تندك له الجبال قوله تعالى:﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١)﴾ (ق)

التفت الحكيم إلى فرانكلين، وقال: هل يمكن لمحتال أن يدعي كل هذه الدعاوى العريضة؟

ثم راح يقرأ قوله تعالى:﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠)﴾ (النساء)

التفت الحكيم إلى فرانكلين، وقال: هل يمكن لمحتال أن يقول هذا؟.. وهل سمعت محتالا في الدنيا يستدعي الله ليشهد له على صدقه؟.. ثم كيف ترى الله يسكت على إشهاد محمد له هذه الشهادات ثم لا ينتقم منه؟

لم يجد فرانكلين ما يجيب به، فقال الحكيم: هذه شهادة واحدة من الشهادات.. والقرآن مليء بمثلها.. ولن أطيل عليك بقراءتها.. ولكني أنصحك أن تقرأ القرآن من أوله إلى آخره، وأنت متجرد من فكرة الاحتيال، فإنك لا بد أن تبصر الحقيقة أسطع من ضوء الشمس.

قال فرانكلين: فأنت تريد مني أن أقرأه وأنا أصدق أنه كلام الله.. أو تريد مني أن أعلن الشهادتين ثم أقرؤه؟

قال الحكيم: لا أطلب منك هذا ولا ذاك.. ولكني أطلب منك أن تسمع كلام المتهم وأنت تحمل في نفسك احتمالا بأن المتهم الواقف أمامك قد يكون بريئا مما ألصق به من تهم؟

قال فرانكلين: وما يجديه ذلك؟

قال الحكيم: بل يجديه ذلك كما يجديك ذلك.. فالحقيقة تتطلب منا موضوعة وحيادا.. والموضوعية والحياد كما تكون في القبول تكون في الرفض، فلا يحق لك أن تنطلق من رفض الحقائق لتصل إلى قبولها.

قال فرانكلين: أليس الشك مبدأ اليقين؟

قال الحكيم: ولكن الشك إن لبس لباس التهمة قد يسيء إلى الحقائق، ويضع الحجب دون فهمها.

سكت قليلا، ثم قال: دعنا نعود إلى استشهاد الوحي.. لنرى كيف بدأ الوحي لرسول الله ﷺ.. ونرى معه إمكانية ادعاء رجل في مثل صدق محمد مثل هذه الدعوى.

عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ــ وهو التعبد ــ الليالى ذوات العدد، قبل أن يترع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق، وهو فى غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذنى فغطنى[1] حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى الثالثة، ثم أرسلنى فقال:﴿ اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ (العلق)، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد ــ رضي الله عنها ــ فقال: زملونى زملونى فزملوه[2] حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: (لقد خشيت على نفسى. فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل[3] وتكسب المعدوم وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق)، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ــ ابن عم خديجة ــ وكان امرؤاً تنصر فى الجاهلية، فيكتب بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمى، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخى، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذى نزل الله على موسى، يا ليتنى فيها جذعاً[4] ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ :(أو مخرجى هم؟ قال نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك، أنصرك نصراً مؤزراً)، ثم لم ينشب ورقة أن توفى، وفتر الوحى[5].

التفت الحكيم إلى فرانكلين، وقال: إن هذا النص مليء بالشهادات الدالة على صدق محمد ﷺ..

قال فرانكلين: أنا لا أرى فيه أي شيء مما تدعي.

قال الحكيم: سننطلق من المسلمات التي أثبتناها.. والتي دلت عليها كل الأدلة: رجل في مثل سن محمد.. في الأربعين من عمره.. كان مشهورا بالصفاء والطهارة والصدق والترفع إلى درجة لا يمكن تصور مداها.. هذا الرجل يأتي فجأة، ومن دون أي مقدمات يرتجف، ويحكي لهم ما حصل له، ويقرأ عليهم من الكلام الغريب ما قيل له، وهو لا يدعي في ذلك شيئا.. بل يأتي خائفا وجلا يطلب أن يغطى من شدة الخوف والوجل..

---

(1) الغط: العصر الشديد، والكبس، ومنه الغط فى الماء، الغوص. النهاية: ٣/٣٣٥.

(2) أى: لفوه: يقال: تزمل بثوبه إذا التف فيه. النهاية ٢/٢٨٣.

(3) بالفتح: الثقل من كل ما يتكلف، والكل: العيال، والمراد: من يستقل بأمره، كما قال الله تعالى:﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ ﴾ (النحل: من الآية٧٦) النهاية: ٤/١٧٢.

(4) يعنى: شاباً قوياً، حتى أبالغ فى نصرتك وحمايتك، وأصل الجذع: من أسنان الدواب، وهو ما كان منها شاباً قوياً، وهو هنا استعارة. النهاية ١/٢٤٣.

(5) رواه البخارى ومسلم.

قال فرانكلين: قد يكون ذلك مجرد تمثيلية.

قال الحكيم: لو فعل ما فعل بولس لكان ذلك مجرد تمثيلية لا شك أنك تعلم ما فعل بولس.. ولا شك أنك تعلم ما ادعاه.. ولا شك أنك تعلم أثر كل تلك الدعاوى التي ادعاها[1].

سكت فرانكلين، فقال الحكيم: لو كان محمد مدعيا لمثل هذه المسرحية أمام قومه، لا أمام زوجته.. ولو كان مدعيا لكان له في الكلام الذي حرره باعتباره وحيا لله من أهواء البشرية ما فيه..

لقد زعم بولس أنه رأى المسيح بعد رفعه بسنوات، بينما هو ذاهب إلى دمشق في مهمة لرؤساء الكهنة تجلى له المسيح دون القافلة التي كان يسير معها، وفي ذلك التجلي منحه منصب الرسالة.. وكان مما قاله له بعد عتابه عما فعله بأتباعه من اضطهاد:(وَلَكِنْ قُمْ وَقِفْ عَلَى رِجْلَيْكَ لأَنِّي لِهَذَا ظَهَرْتُ لَكَ لأَنْتَخِبَكَ خَادِماً وَشَاهِداً بِمَا رَأَيْتَ وَبِمَا سَأَظْهَرُ لَكَ بِهِ مُنْقِذاً إِيَّاكَ مِنَ الشَّعْبِ وَمِنَ الْأُمَمِ الَّذِينَ أَنَا الآنَ أُرْسِلُكَ إِلَيْهِمْ لِتَفْتَحَ عُيُونَهُمْ كَيْ يَرْجِعُوا مِنْ ظُلُمَاتٍ إِلَى نُورٍ وَمِنْ سُلْطَانِ الشَّيْطَانِ إِلَى اللهِ حَتَّى يَنَالُوا بِالإِيمَانِ بِي غُفْرَانَ الْخَطَايَا وَنَصِيباً مَعَ الْمُقَدَّسِينَ) (اعمال ٢٦/١٦-١٨).. وهذا الكلام هو نفس ما قال السامري حين قال:﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (طه: ٩٦)

أما محمد ﷺ ففي أول وحي يوحى إليه أمر بالقراءة.. وبالقراءة باسم الله.. هذا أول الوحي، وليس فيه أي ذكر لمحمد، ولا للمناصب الرفيعة التي هيئت لمحمد ﷺ.

ثم بعد ذلك لم تجد زوجته الفاضلة إلا أن تذهب به إلى ابن عمها.. وقد وقف رسول الله ﷺ أمامه كما يقف التلميذ أمام الأستاذ، يسأله بتواضع عن المصير الذي ينتظره بعد هذا الوحي.

وقد كان ورقة حكيما، فأخبره بالبلاء الذي ينتظر كل من تسلم منصب النبوة، وهو بلاء عظيم يطرد فيه النبي من أرضه.. ولو كان محمد ﷺ محتالا لامتلأ مهابة من هذا المصير الشديد، ولتوقف عن الدعوى التي ادعاها في مهدها قبل أن يسمع به أحد من الناس.

التفت الحكيم إلى الجمع، وقال: ألا ترون من العجب أن يسأل محمد ﷺ ورقة تلك الأسئلة الدالة على جهله التام بمصير الأنبياء قبله.. ثم هو نفسه يذكر تفاصيل ما حصل للأنبياء ــ عليهم السلام ــ بأسمائهم وقراهم وما قالوا وما قيل لهم؟

ليس هذا فقط ما أريد أن أستشهد به.. لقد بقيت هذه الظاهرة الغريبة ثلاثا وعشرين سنة.. فهل يمكن لكاذب محتال أن يمارس كذبه واحتياله طول هذه المدة من غير أن يكشف؟

لقد وصف أصحابه ما كان يحصل له عند الوحي، وهي ظواهر غريبة لا عهد للبشر العاديين بمثلها، وهي ظواهر لم يكن يملك محمد ﷺ لها جلبا، ولا دفعا.

لقد حدث زيد بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ عن موقف من تلك المواقف، فقال: كنت أكتب الوحي لرسول الله ﷺ وكان إذا نزل عليه أخذته برحاء شديدة، وعرق عرقاً شديداً مثل الجمان ثم سرى عنه، وكنت أكتب وهو يملي علي، فما أفرغ حتى تكاد رجلي تنكسر من ثقل الوحي، حتى أقول:(لا أمشي على

---

[1] سنتحدث عن ذلك بتفصيل في رسالة (الله جل جلاله) من هذه السلسلة.

رجلي أبداً)

وعن عبد الله بن عمرو ــ رضي الله عنه ــ قال: سألت رسول الله ﷺ: هل تحس بالوحي؟ فقال: أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تقبض.

بالإضافة إلى هذا كله، فقد كان ﷺ حين يترل عليه القرآن في أول عهده بالوحي يتلقفه متعجلا ،فيحرك به لسانه وشفتيه طلبا لحفظه، وخشية ضياعه من صدره، ولم يكن ذلك معروفا من عادته في تحضير كلامه، لا قبل دعواه النبوة ولا بعدها، ولا كان ذلك من عادة العرب، إنما كانوا يزورون كلامهم في أنفسهم، فلو كان القرآن منبجسا من معين نفسه لجرى على سنة كلامه وكلامهم ولكان له من الروية والأناة الصامتة ما يكفل له حاجته ؛ من إنضاج الرأي ، وتمحيص الفكرة، ولكنه كان يرى نفسه أمام تعليم يفاجئه وقتيا ويلم به سريعا، بحيث لا تجدي الروية شيئا في اجتلابه لو طلب، ولا في تداركه واستذكاره لو ضاع منه شيء، وكان عليه أن يعيد كل ما يلقى إليه حرفيا، فكان لابد له في أول عهده بتلك الحال الجديدة التي لم يألفها من نفسه، أن يكون شديد الحرص على المتابعة الحرفية، حتى ضمن الله له حفظه وبيانه بقوله:﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ) (القيامة:١٦)، وقوله:﴿ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً)(طــه: من الآية١١٤)

التفت الحكيم إلى فرانكلين، وقال: أليس يكفي للحكم ببراءة الإنسان من عمل من الأعمال أن يقوم من الطبيعة شاهد بعجزه المادي عن إنتاج ذلك العمل؟

تأخر الوحي:

لم يجد فرانكلين ما يجيب به إلا أنه قال: كيف تعتبر تأخر ما تسميه بالوحي دليلا على صدق الوحي.. ألا يكون محمد هو الذي تسبب في تأخره.. أو أن قريحته لم تسمح له بالتأليف في ذلك الوقت؟

قال الحكيم: يمكنك أن تزعم أي شيء، ولكن الذي استطاع أن يحتال على العالم أجمع، بل استطاع أن يحتال على الله نفسه، فيزعم أنه يوحى إليه لن يعجز أن يضع لنفسه ما يخرجه من أي مأزق قد يقع فيه.. سأذكر لك أمثلة على بعض المواقف الحرجة التي كان فيها رسول الله ﷺ أحوج ما يكون إلى الوحي، ولكن الوحي تأخر عنه.

من ذلك ما حدث به ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ قال: بعثت قريش النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة ، فقالوا لهم:سلوهم عن محمد ، وصفوا لهما صفته ، وأخبروهم بقوله ؛ فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله وقالا: إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. قال: فقالوا لهم:سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإلا فرجل متقول فتروا فيه رأيكم؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم ، فإنهم قد كان لهم حديث عجب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه ، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش ،

فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور. فأخبروهم بها فجاءوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد أخبرنا فسألوه عما أمروهم به ، فقال لهم رسول الله ﷺ:(أخبركم غدا عما سألتم عنه)، و لم يستثن، فانصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة ، لا يحدث الله له في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة ، وقالوا: وعدنا محمد غدا ، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه،وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطواف ، وقول الله عز وجل:﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (الاسراء:٨٥)

التفت إلى فرانكلين، وقال: ألا ترى هذا الموقف المحرج الذي وقف فيه رسول الله ﷺ.. أرأيت لو كان محتالا كما زعمت يظل طول تلك المدة هدفا لحديث أعدائه.

قال فرانكلين: لعل المعلومات لم تكن تحضره ذلك الحين.

قال الحكيم: فكيف حضرته بعد خمسة عشر يوما.. إن المعلومات التي طلبها القرشيون معلومات لا علاقة لها بالفكر ولا بالنظر.. بل هي معلومات تحتاج إلى معلم خارجي، ومحمد لم يلتق في تلك المدة بأي معلم خارجي من المعلمين الذين تزعمونهم.

سكت فرانكلين، فقال الحكيم: سأذكر لك مثالا آخر في أمر أعظم من هذا.. وأشد إحراجا.. بل لا شيء أشد حرجا منه.. والمخرج منه بالنسبة للمحتال هين لا أهون منه.. ولكن النبي ﷺ مكث عنه الوحي، فلم يترل عليه في ذلك الأمر إلا بعد أن انتشرت الأراجيف والشائعات..

سأحكي لك القصة لتعرف من هو محمد ﷺ وأن الوحي شيء خارجي يأتيه لا يملك أن يجلبه بهواه، ولا يملك أن يدفعه بهواه.

لقد أرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجه عائشة ــ رضي الله عنها ــ وأبطأ الوحي، وطال الأمر والناس يخوضون، حتى بلغت القلوب الحناجر، وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس:(إني لا أعلم عنها إلا خيرا)، ثم إنه بعد بذل جهده في التحري والسؤال واستشارة الأصحاب، ومضى شهر بأكمله، والكل يقولون: ما علمنا عليها من سوء، لم يزد على أن قال لها آخر الأمر:(يا عائشة أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله)

هذا كلامه ﷺ بوحي ضميره، وهو كما ترى كلام البشر الذي لا يعلم الغيب، وكلام الصديق المتثبت الذي لا يظن ولا يقول ما ليس له به علم، على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة النور معلنا براءها، ومصدرا الحكم المبرم بشرفها وطهارها.

فماذا كان يمنعه ــ لو أن أمر القرآن إليه ــ أن يتقول هذه الكلمات الحاسمة من قبل؛ ليحمي بها عرضه ، ويذب بها عن عرينه ، وينسبها إلى الوحي السماوي ، لتنقطع ألسنة المتخرصين؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

سكت قليلا، ثم قال: مثال آخر يدلك على هذا.. والأمر فيه أيسر من الجميع:

لقد كان النبي ﷺ يتحرق شوقا إلى تحويل القبلة إلى الكعبة، وظل يقلب وجهه في السماء ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ، لعل الوحي يترل عليه بتحويل القبلة إلى البيت الحرام ، ولكن الله تعالى لم يترل في هذا التحويل قرآنا، على الرغم من تلهف رسوله الكريم إليه إلا بعد قرابة عام ونصف العام.

عن البراء بن عازب ــ رضي الله عنه ــ قال: كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا ، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يوجه إلى الكعبة،فأنزل الله تعالى:﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) (البقرة:١٤٤)

ولو كان الوحي من تأليف النبي ﷺ، لما تأخر كل هذه المدة لشيء يحبه ويشتهيه ويتشوف إليه ويتحرق شوقا له، ولكنه وحي الله ولا يترل إلا بأمر الله وإذنه.

التفت إلى فرانكلين، وقال: هل يمكن للمحتال أن لا يفهم ما يقوله بحيث ينتظر أن يشرح له، أو يفصل، أو يبين؟

سكت فرانكلين، فقال الحكيم: إن الذي استطاع أن يؤلف كل تلك المسرحية الطويلة التي تزعمها لا يستحيل عليه مثل هذا، ولكن النبي ﷺ لم يكن يدرك في بعض الأحيان بيان بعض ما يوحى إليه إلى أن يوحى إليه بتفسيره.

سأضرب لك أمثلة عن هذا:

عندما نزل قوله تعالى:﴿ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ) (البقرة: من الآية٢٨٤) انزعج الصحابة انزعاجا شديدا، وداخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها من شيء آخر ؛ لأنهم فهموا منها أنهم سيحاسبون على كل شيء حتى حركات القلوب وخطراتها؛ فقالوا: يارسول الله أنزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها، فقال لهم النبي ﷺ:(أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير)، فجعلوا يتضرعون بهذه الدعوات حتى أنزل الله بيانها بقوله:﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) (البقرة:٢٨٦)، وهناك علموا أنهم إنما يحاسبون على ما يطيقون من شأن القلوب ، وهو ما كان من النيات المكسوبة والعزائم المستقرة، لا من الخواطر والأماني الجارية على النفس بغير اختيار.

ومن أمثلة ذلك ما حصل في الحديبية.. لقد أذن الله للمؤمنين أن يقاتلوا من يعتدي عليهم أينما وجدوه، غير ألا يقاتلوا في الحرم من لم يقاتلهم فيه نفسه، فقال تعالى:﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (البقرة:١٩٠)، فلما أجمعوا زيارة البيت الحرام في ذلك العام وهو العام السادس من الهجرة أخذوا أسلحتهم حذرا أن يقاتلهم أحد فيدافعوا عن أنفسهم الدفاع المشروع.

فلما أشرفوا على حدود الحرم علموا أن قريشا قد جمعت جموعها على مقربة منهم، فلم يثن ذلك من عزمهم ؛ لأنهم كانوا على تمام الأهبة، بل زادهم ذلك استبسالا وصمموا على المضي إلى البيت ، فمن صدهم عنه قاتلوه، وكانت قريش قد نهكتها الحروب ، فكانت البواعث كلها متضافرة والفرصة سانحة للالتحام في موقعة فاصلة يتمكن فيها الحق من الباطل فيدمغه.

وإنهم لسائرون عند الحديبية إذ بركت راحلة النبي ﷺ وأخذ أصحابه يثيرونها إلى جهة الحرم فلا تثور، فقالوا: خلأت القصواء ـــ أي حرنت الناقة ـــ فقال النبي ﷺ:(ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل) يعني أن الله الذي اعتقل الفيل ومنع أصحابه من دخول مكة محاربين، هو الذي اعتقل هذه الناقة ومنع جيش المسلمين من دخولها الآن عنوة.

وهكذا أيقن أن الله تعالى لم يأذن لهم في هذا العام بدخول مكة مقاتلين، لا بادئين ولا مكافئين، وزجر الناقة فثارت إلى ناحية أخرى ، فترل بأصحابه في أقصى الحديبية، وعدل بهم عن متابعة السير امتثالا لهذه الإشارة الإلهية ، التي لا يعلم حكمتها، وأخذ يسعى لدخول مكة من طريق الصلح مع قريش قائلا:(والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها)، ولكن قريشا أبت أن يدخلها في هذا العام لا محاربا ولا مسالما، وأملت عليه شروطا قاسية بأن يرجع من عامه، وأن يرد كل رجل يجيئه من مكة مسالما، وألا ترد هي أحدا يجيئها من المدينة تاركا لدينه، فقبل تلك الشروط التي لم يكن ليمليها مثل قريش في ضعفها على مثل المؤمنين في قوتهم، وأمر أصحابه بالتحلل من عمرتهم وبالعودة من حيث جاءوا.

لقد كان لهذا الصلح وقع السيء في نفوس المسلمين، حتى إنهم لما جعلوا يحلقون بعضهم لبعض كاد يقتل بعضهم بعضا ذهولا وغما، وكادت تزيغ قلوب فريق من كبار الصحابة فأخذوا يتساءلون فيما بينهم ويراجعونه هو نفسه قائلين:(لم نعطي الدنية في ديننا؟) وهكذا كاد الجيش يتمرد على إمرة قائده ويفلت حبله من يده.

أفلم يكن من الطبيعي إذ ذاك لو كان هذا القائد هو الذي وضع هذه الخطة بنفسه أو اشترك في وضعها أو وقف على أسرارها أن يبين لكبار الصحابة حكمة هذه التصرفات التي فوق العقول، حتى يطفئ نار الفتنة قبل أن يتطاير شررها؟ ولكن انظر كيف كان جوابه حين راجعه عمر: (إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري) أي: إنما أنا عبد مأمور ليس لي من الأمر شيء إلا أن أنفذ أمر مولاي واثقا بنصره قريبا أو بعيدا، وهكذا ساروا راجعين وهم لا يدرون تأويل هذا الإشكال حتى نزلت سورة الفتح، فبينت لهم الحكم الباهرة والبشارات الصادقة، فإذا الذي ظنوه ضيما وإجحافا في بادئ الرأي كان هو النصر المبين والفتح الأكبر، قال تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ

اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧)﴾ (الفتح)

آيات العتاب:

قال رجل من الجمع: وعينا هذا، فحدثنا عن الشاهد الثالث.. وهو ما سميته (آيات العتاب)

قال الحكيم: إن أول غرض للمحتال أي محتال هو أن يبرز شخصيته ويثبت وجوده وقيمته عند من يريد أن يحتال عليهم.. لقد عرفنا ماذا قال بولس عندما أراد أن يظفر بتلك الزعامة بين المسيحيين.

قال فرانكلين: ومحمد فعل ذلك.. ألم يكن يقول:(أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، ولا فخر، بيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الارض ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر)[1]؟

قال الحكيم: أرأيت إن قال الطبيب عن نفسه لمرضاه: إنه طبيب، ليثقوا فيما يقول، وفيما يصف لهم، أيكون بذلك قاصدا الاستعلاء، أم أن المصلحة تطلبت منه ذلك؟

قال فرانكلين: بل المصلحة تطلبت منه ذلك.. ولكن هذا الطبيب الذي وصفته ذكر أنه طبيب، و لم يذكر أنه سيد الأطباء.

قال الحكيم: فإن حصل لطبيب من الأطباء أن اختير ليكون سيد الأطباء وعمدتهم بفضل ما تعلم من علوم وما حصل عليه من خبرة.. هل يكون إخباره بذلك لمرضاه ليزدادوا ثقة فيما يقول قاصدا الاستعلاء، أم قاصدا المصلحة؟

سكت فرانكلين، فقال الحكيم: لاشك أنك توافقني بأن مثل هذا لا علاقة له بالاستعلاء.. والنبي ﷺ كان أبعد الناس عن الاستعلاء.. وإنما كان يذكر ما يذكر من فضل الله عليه من باب تنفيذ ما أمره الله به في قوله تعالى:﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى:١١)، وقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد تعداد ما كان عليه رسول الله ﷺ من فاقة، وما من الله به عليه بعدها من فضل، قال تعالى:﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآَوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠)﴾ (الضحى)

أما الاستعلاء المجرد، والذي يحرص عليه المحتالون، فقد كان رسول الله ﷺ أبعد الناس عنه، وسأضرب لك مثالين يدلانك على ذلك:

لقد روي أن الشمس انكسفت يوم مات إبراهيم، فقال الناس: انكسفت لموت إبراهيم، جريا على عادة الجاهلية في أن الشمس تنكسف لموت العظماء، وقد كان في قدرة محمد ﷺ أن يستغل هذه الفرصة ليثبت من الاستعلاء ما يحرص عليه المحتالون، لكن النبي ﷺ قام خطيبا في أصحابه يحذر من هذه المقولة، ويقول:(إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموها فادعوا الله وصلوا حتى

([1]) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة.

ينجلي)[1]

وفي رواية:(إن أهل الجاهلية كانوا يقولون: إن الشمس والقمر لا ينخسفان إلا لموت عظيم من عظماء أهل الارض، وإن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما خليقتان من خلقه، يحدث الله في خلقه ما شاء، فأيهما انخسف فصلوا حتى تنجلي أو يحدث الله أمرا)[2]

التفت إلى فرانكلين، وقال: أترى أن مثل هذاالتصرف بمكن أن يفعله محتال؟

سكت فرانكلين، فقال الحكيم: لقد كان هذا التصرف مثار إعجاب المستشرق المعرفو (إميل درمنغم)[3] الذي قال:(ولد لمحمد ابنه إبراهيم فمات طفلا، فحزن عليه كثيرا ولحده بيده، ووافق موتُه كسوف الشمس، فقال المسلمون:إنما انكسفت لموت إبراهيم، ولكن محمدا كان من سمو النفس ما رأى به رد ذلك، فقال:(إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته..)؛ فقول مثل هذا لا يصدر عن كاذب دجال)[4]

وأما المثال الثاني، فهو ما حدث به أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ قال: كان أهل بيت من الأنصار، لهم جمل يسنون عليه، وإن الجمل استصعب عليهم، فمنعهم ظهره، وإن الأنصار جاءوا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: إنه كان لنا جمل نسني عليه، وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره، وقد عطش الزرع والنخل، فقال رسول الله ﷺ ل لأصحابه: قوموا، فقاموا، فدخل الحائط، والجمل في ناحية، فمشى النبي ﷺ نحوه، فقالت الأنصار: يا رسول الله، إنه قد صار مثل الكلب الكلب، وإنا نخاف عليك صولته، فقال: ليس علي منه بأس، فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ، أقبل نحوه، حتى خر ساجدا بين يديه، فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته، أذل ما كانت قط، حتى أدخله في العمل، فقال له أصحابه: يا رسول الله، هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك، ونحن نعقل، فنحن أحق أن نسجد لك، فقال: لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر)[5]

فالنبي ﷺ لم يستغل هذا.. و لم يستغل طلبهم منه السجود له، فيأذن لهم فيه..

بل إنه ﷺ كان يحذرهم من المبالغة في حقه، وكان يقول:(لا تطروني كما أطرى الناصري عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله)[6]، وقال:(لا ترفعوني فوق حقي)[7]، وفي لفظ:(قدري أن الله تعالى اتخذني عبدا قبل أن يتخذني نبيا)

وروي أن رجلا قال: يا محمد يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا، وابن خيرنا، فقال رسول الله ﷺ:(أيها

---

(1) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(2) رواه النسائي.

(3) مستشرق فرنسي، عمل مديرا لمكتبة الجزائر، من آثاره: (حياة محمد) في باريس عام (١٩٢٩)، وهو من أدق ما صنفه مستشرق عن النبي ﷺ، و(محمد والسنة الإسلامية) ألفه في باريس(١٩٥٥)..وقد تحدثنا عن موقفه من الإسلام في رسالة (قلوب مع محمد)

(4)حياة محمد (ص:٣١٨).

(5) رواه أحمد والنسائي في الكبرى.

(6) رواه البخاري ومسلم.

(7) رواه أبو نعيم عن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنه مرسلا.

الناس، قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم)[1]

وعن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا، لما يعلمون من كراهته لذلك)[2]

التفت إلى فرانكلين، وقال: فإن شككت في بعض هذا، فاذهب إلى القرآن واقرأ حديثه عن محمدا.. إن الإنجيل يبدأ بذكر نسب المسيح.. والحديث عن أم المسيح، وبيئة المسيح.. ويسمي أصحاب المسيح واحدا واحدا.. وهكذا العهد القديم في حديثه عن الأنبياء.. أما القرآن الكريم فيخلو من كل ذلك، فالحديث عن محمد ﷺ خطاب توجيهي لمحمد ﷺ إما باسمه غير مقرون بأي وصف من الأوصاف التي يحرص المحتالون على الاتصاف بها.. بل إن من المواضع القليلة التي ورد فيها اسم محمد ﷺ نجد هذه الآية:﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) (آل عمران:١٤٤)، وهي آية تدعو المسلمين إلى الاهتمام بالمبادئ التي دعا إليها رسول الله ﷺ والحرص عليها ولا يهمهم بعد ذلك هل مات رسول الله أو حيا.

وفي آية أخرى:﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) (محمد:٢) ترى ذكر محمد ﷺ حافيا ليس مسبوقا بأي وصف يحرص عليه المحتالون.. وهكذا في كل القرآن.

بل إن القرآن الكريم يصف رسول الله ﷺ في أشرف المواضع بالعبودية، فيقول:﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الاسراء:١)، وقال تعالى:﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً) (الجـــن:١٩)

التفت الحكيم إلى فرانكلين، وقال: أظن أن ما ذكرته كاف ليبن لك أن محمدا ﷺ كان أبعد الناس عن الاستعلاء..

قال فرانكلين: بل هو غير كاف.. ففي القرآن ثناء على محمد.. ألم تقرأ هذه الآية:﴿ إِنَّكَ لَعَلَى هُدىً مُسْتَقِيم)(الحج: من الآية٦٧)، وهذه الآية:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم:٤)، وهذه الآية:﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦)﴾ (الأحزاب)؟

قال الحكيم: هذه الآيات تصف ما كان عليه محمد ﷺ، وتصف الوظيفة التي كلف بها.. وليس فيها من المبالغة في حقه ما ذكرت.. لأن المبالغة هي أن تذكر الشيء على غير ما هو عليه، والآية لم تذكر إلا صفة رسول الله ﷺ التي يعرفه بها جميع الناس.. وهي من خلالها تدعو إلى التأسي به والتحلي بالخلال التي كان عليها، كما قال تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً) (الأحزاب:٢١)، وهذه الآية مثل ما ورد في الحث على التأسي بإبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى:﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا

([1]) رواه أحمد، والنسائي وأبو القاسم البغوي.

([2]) رواه أحمد، والبخاري في الأدب، والترمذي، وصححه.

بكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا باللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (الممتحنة:٤)، ومثل قوله تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (الممتحنة:٦)

قال رجل من الجمع: وعينا كل هذا.. فحدثنا عن آيات العتاب، ووجه الاستشهاد بها في رد شبهة الاحتيال عن محمد.

قال الحكيم: في الآيات التي عاتب الله فيها نبيه ﷺ حجة كافية لدى العقلاء في أن مصدر القرآن خارج ذات محمد، لأنه يستحيل أن يعاتب الإنسان نفسه ذلك العتاب الشديد، وعلى الملأ، خاصة إذا كان ذلك المعاتب زعيما يخشى في كل حين أن يرتد الناس عنه، وخاصة إذا كانت زعامته دينية تقتضي منه البحث عن مواطن العصمة والطهارة.

نظر إلى الجمع، وقال: سأكتفي من القرآن الكريم بخمسة شواهد أظنها تكفي أمثلة لهذا النوع من الشهادات:

١ ـــ الشاهد الأول:

أما **الأول**: فما نص عليه قوله تعالى:﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨)﴾ (الأنفال)

ففي هاتين الآيتين عتاب شديد لرسول الله ﷺ يستحيل أن يكتبه عن نفسه محتال.

سأذكر لك القصة لتعلم ما فيها من دلائل صدق النبي ﷺ.. لقد حدث المؤرخون العدول أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه بعد غزوة بدر:(ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟)

فقال أبو بكر: يا رسول الله أهلك وقومك، قد أعطاك الله الظفر ونصرك عليهم، هؤلاء بنو العم والعشيرة والاخوان استبقهم، وإني أرى أن تأخذ الفداء منهم، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم بك، فيكونوا لك عضدا.

فقال رسول الله ﷺ:(ما تقول يا بن الخطاب؟)

فقال عمر: يا رسول الله قد كذبوك وأخرجوك وقاتلوك، ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكني من فلان قريب لعمر، فأضرب عنقه، وتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه حتى يضرب عنقه، حتى ليعلم الله تعالى أنه ليست في قلوبنا مودة للمشركين، هؤلاء صناديد قريش وأئمتهم وقادتهم فاضرب أعناقهم، ما أرى أن يكون لك أسرى، فإنما نحن راعون مؤلفون.

وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، انظر واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم نارا.

فدخل رسول الله ﷺ البيت، فقال أناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال أناس: يأخذ بقول عمر، وقال أناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، ثم خرج فقال:(إن الله تعالى ليلين قلوب أقوام فيه حتى تكون ألين من اللبن،

وإن الله تعالى ليشد قلوب أقوام فيه حتى تكون أشد من الحجارة، مثلك يا أبا بكر في الملائكة مثل ميكائيل يترل بالرحمة، ومثلك في الأنبياء مثل إبراهيم قال:﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(ابراهيم: من الآية٣٦)، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى بن مريم إذ قال:﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (المائدة:١١٨)، ومثلك يا عمر في الملائكة مثل جبريل يترل بالشدة والبأس والنقمة على أعداء الله تعالى، ومثلك في الأنبياء مثل نوح إذ قال:﴿ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً)(نوح: من الآية٢٦)، ومثلك في الأنبياء مثل موسى، إذ قال:﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)(يونس: من الآية٨٨)، لو اتفقتما ما خالفتكما، أنتم عالة فلا يفلتن منكم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق)

فقال عبد الله بن مسعود: يا رسول الله إلا سهيل ابن بيضاء، فإني سمعته يذكر الاسلام، فسكت رسول الله ﷺ فقال عبد الله: فما رأيتني في يوم أخاف أن تقع علي الحجارة من السماء مني في ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ:(إلا سهيل بن بيضاء)

فلما كان من الغد غدا عمر إلى رسول الله ﷺ، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر، وهما يبكيان، فقال: يارسول الله ما يبكيكما؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإلا تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ:(إن كاد ليمسنا في خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم، ولو نزل العذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب، لقد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة) لشجرة قريبة منه، وأنزل الله تعالى:﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (لأنفال:٦٧)[1]

التفت الحكيم إلى فرانكلين، وقال: هل ترى في هذا الموقف ما يدلك عن أن في محمد ﷺ من الاحتيال ما يستطيع به أن يقرع نفسه كل هذا التقريع.. ثم يجلس يبكي على العذاب الذي توعده الله به.

إن أعظم ممثل في الدنيا لن يستطيع أن يمثل مثل هذا، فكيف بالصادق الأمين.

شيء آخر في تلك الآيات يحيل ما تدعيه من الدعاوى..

إن تلك الآيات لم تترل إلا بعد إطلاق أسارى بدر وقبول الفداء منهم، وقد بدئت بالتخطئة والاستنكار لهذه الفعلة، ثم لم تلبث أن ختمت بإقرارها وتطييب النفوس بها، كما قال تعالى:﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾ (الأنفال)

بل صارت هذه السابقة التي وقع التأنيب عليها هي القاعدة لما جاء بعدها.. فهل الحال النفسية التي يصدر

([1]) هذا نص مرويات مختلفة رواها أحمد عن أنس، وابن مردويه عن أبي هريرة، وابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه، وابن المنذر، والطبراني، وغيرهم، عن ابن مسعود، وابن مردويه، عن ابن عباس، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم، عن ابن عمر.

وانظر تفاصيل موقف الإسلام من الأسرى، وسلوك رسول الله ﷺ نحوهم في فصل (حروب) من هذه الرسالة.

عنها أول الكلام ــ لو كان عن النفس مصدره ــ يمكن أن يصدر عنها آخره ، ولما تمض بينهما فترة تفصل بين زمجرة الغضب والندم وبين ابتسامة الرضا والاستحسان؟

إن هذين الخاطرين لو فرض صدورهما عن النفس متعاقبين، لكان الثاني منهما إضرابا عن الأول ماحيا له، ولرجع آخر الفكر وفقا لما جرى به العمل.. فأي داع دعا إلى تصوير ذلك الخاطر الممحو وتسجيله على ما فيه من تقريع علني بغير حق، وتنغيص لهذه الطعمة التي يراد جعلها حلالا طيبا؟

إن الذي يفهمه كل عاقل من من قراءة الآيات أن هاهنا شخصيتين منفصلتين، وأن هذا صوت سيد يقول لعبده:(لقد أسأت ولكني عفوت عنك وأذنت لك)

إن هذه الآية مثل قوله تعالى:﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (التوبة:٤٣)

٢ ــ الشاهد الثاني:

وأما الثاني، فما نص عليه قوله تعالى:﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ (الأحزاب:٣٧)

قام فرانكلين، والفرحة تغمر وجهه، وكأنه قد ظفر بفريسته، وقال: كيف تعتبر هذه الآية شاهدا لمحمد، ونحن نعتبرها من أكبر ما يدينه.

ابتسم الحكيم، وقال: لأنكم تقرؤونها بنفوسكم لا بعقولكم.. ولو قرأتموها بعقولكم لفهمتم منها ما فهمت عائشة ــ رضي الله عنها ــ فقد كانت من أوفر الناس عقلا.

قال فرانكلين: وما فهمت عائشة؟

قال الحكيم: لقد حدث مسروق قال: كنت متكئا عند عائشة فسألت عائشة: هل رأى محمد ﷺ ربه؟

فقالت عائشة: ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت: وما هن؟ قالت: من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، قال: وكنت متكئا فجلست فقلت: يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجلي علي ألم يقل الله:﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ (التكوير:٢٣)، ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ (لنجم:١٣)، فقالت: أنا أول هذه الامة سأل عن هذا رسول الله ﷺ، فقال ﷺ:(جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين رأيته منهبطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض) قالت: أو لم تسمع الله عز وجل يقول:﴿ لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام:١٠٣)، أو لم تسمع الله يقول:﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الشورى:٥١)

ثم قالت:(ومن زعم أن محمدا كتم شيئا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية والله جل ذكره يقول:﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا

يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (المائدة:٦٧)، ولو كان محمد كاتما شيئا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية:﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً) (الأحزاب:٣٧)

ثم قالت:(ومن زعم أنه يخبر الناس بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول:﴿ قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) (النمل:٦٥)[1]

التفت الحكيم إلى فرانكلين، وقال: إن هذه الآية الكريمة من أعظم دلائل صدق محمد ﷺ.. فالنبي ﷺ لو كان محتالا ــ كما تزعم ــ لم يكن بحاجة لأن يترل على نفسه مثل هذه الآية التي ستكون محل شبهة كبيرة لجيله ولغير جيله.

قال فرانكلين: كيف تقول هذا، وقد روي أن محمدا أعْجِب بزوجة متبناه (زيد بن حارثة)، فطلقها منه وتزوجها.

ابتسم الحكيم، وقال: فلنفرض ذلك.. هل كان محمد ﷺ بحاجة لأن يكتب آيات في ذلك تظل الأجيال تتناقلها؟

وقبل ذلك: ألم تكن زينب بنت جحش هى بنت عمة الرسول ﷺ، وقد رآها كثيراً قبل فرض الحجاب، فقد كان النساء فى المجتمع الجاهلى غير محجبات، فما كان يمنعه من أن يتزوجها من البداية؟

وما الذي جعله يزوجها لمولاه (زيد)، فلو كانت به رغبة فيها لاختارها لنفسه؟

قال فرانكلين: فما تقصد هذه الآية من إخفاء محمد شيئا أراد الله أن يبديه؟

قال الحكيم: هذا ما يدلك على أن مصدر القرآن الكريم مصدر خارجي.. فمحمد ﷺ يشتهي شيئا، والله تعالى يخالفه فيما يشتهي.. ولا يمكن أن يصدر ذلك من ذات واحدة لها من العقل والحكمة ما لمحمد ﷺ منهما.

سكت قليلا، ثم قال: إن حياة محمد ﷺ كلها حياة تعليم وتربية وأسوة.. فلذلك اختار الله محمدا ﷺ لكسر عادة مستحكمة في الجاهلية لم يكن هناك بد من استعمال رسول الله ﷺ لكسرها.

لقد كان زيد ــ رضي الله عنه ــ أحب الناس إلى رسول الله ﷺ فزوجه من ابنة عمته زينب بنت جحش ــ رضي الله عنها ــ بالرغم من أن العرف العربي في ذلك الحين كان يرفض هذا النوع من الزواج.. باعتبار زيد أدنى درجة من زينب.. وقد كان من أغراض هذا الزواج القضاء على هذه العادة.

وقد كان من عادات الجاهلية بالإضافة إلى هذا أنهم يكرهون أن يتزوج المتبني مطلقة متبناه، فأراد الله سبحانه إبطال هذه العادة، كما أبطل نسبة الولد إلى غير أبيه، فأخبر رسوله ﷺ أنه سيزوجه من زينب بعد أن يطلقها زيد لتكون هذه السنة مبطلة لتلك العادة، ولكن النبي ﷺ أخفى في نفسه ما أخبره به الله.

وكان كلما شكا إليه زيد تعذر الحياة مع زينب قال له ــ كما نص القرآن ـــ:﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ)(الأحزاب: من الآية٣٧) مراعياً في هذا كراهية القوم لزواجه منها حين يطلقها زيد.

---

(1) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

التفت إلى فرانكلين، وقال: هل يمكن لرجل في الدنيا يحب امرأة حبا شديدا، ثم لا يتمنى طلاقها من زوجها ليتزوجها هو بدله؟

سكت فرانكلين، فقال الحكيم: لقد ظل رسول الله ﷺ يخفي ما قدر الله إظهاره حتى طلقها زيد.. فأنزل الله في هذا قرآناً، يكشف عما جال في خاطر الرسول ﷺ ويقرر القواعد التي أراد الله أن يقوم تشريعه في هذه المسألة عليها.

وهكذا أنفذ الله شريعته وأحكمها، وكشف ما خالج خاطر رسول الله ﷺ من كراهية القوم لزواجه من مطلقة دعيه.

إن شئت أن تتأكد مما ذكرت لك، فاقرأ ما ورد في شأنها في القرآن الكريم من المقدمات السوابق، والمتممات اللواحق، والتي تجعل من هذه الحادثة مادة تربوية وتشريعية عميقة.. لقد قال الله تعالى في بداية السورة التي وردت فيها حاثا النبي ﷺ على أن يجعل طاعته خالصة لله وحده لا يؤثر فيها مؤثر آخر مهما كانت درجته:﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣)﴾(الأحزاب)، وفي نفس السورة نجد هذه الآية التي تحث على اقتصار المؤمن على مراعاة جانب الله قبل أي جانب آخر قال تعالى:﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩)﴾ (الأحزاب)

وقدم لذلك أيضا بنفي الأسس التي تقوم عليها تصورات الجاهلية المتعلقة بالمتبنين، قال تعالى:﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥)﴾ (الأحزاب)، وفي نفس السورة ينفي الله تعالى أن يكون محمد أبا لأحد من الناس غير ما رزقه الله من أولاد، قال تعالى:﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠)﴾ (الأحزاب)

التفت الحكيم إلى فرانكلين، وقال: ألستم تراعون السياق في نقدكم للنصوص، وتعاملكم معها، فخذوا بهذا المقياس هنا، لتنفوا من الوساوس ما تريد الشياطين أن تمررها عبركم؟

٣ ـــ الشاهد الثالث:

قال رجل من الجمع: فحدثنا عن **الشاهد الثالث**.

قال الحكيم: هو ما نص عليه قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ

وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥)﴾ (التحريم)

قال فرانكلين: إن لهذه الآيات عندنا شأنا.. ألا ترى كيف يتجرأ محمد على معارضة الأحكام التي يدعي أنها تترل عليها لأجل مرضاة أزواجه؟

قال الحكيم: قبل أن أجيبك على هذا الاعتراض ألا ترى أن في كتابة رجل محتال مثل هذه الآيات التي هي مثار شبهة في عصره، وفي كل العصور ما يبين أن الأمر أعظم من أن يكون مجرد حيلة.

قال فرانكلين: وما هو إذن؟

قال الحكيم: أن يكون هناك مؤدب خارجي يأمرا محمدا ﷺ، وينهاه، ويصحح تصرفاته؟

إن هذا هو الأليق بمثل هذا الكلام.. فمحمد ﷺ الذي عرفنا صدقه وأمانته ومدى وفور عقله لا يستطيع أن يترل، فيفضح نفسه بكلام قد يساء فهمه.

قال فرانكلين: فلنسلم بأن هذا كلام من مصدر خارجي يؤدبه.. فما تقول في الاعتراض الذي اعترضت به عليك؟

قال الحكيم: أنتم تزعمون أن محمدا ﷺ أهان المرأة واحتقرها، وأنزلها دون مترلة الإنسان؟

قال فرانكلين: ولا زلنا نقول ذلك؟

قال الحكيم: ألا ترى أن هناك تعارضا بين هذه الدعوى، وبين ما تذكره الآن؟

سكت فرانكلين، فقال الحكيم: فهذه الآيات إذن تقضي على هاتين الشبهتين، وتبرئ رسول الله ﷺ منهما.

قال فرانكلين: لا بأس، فلأسلم لذلك.. فما تقول في الاعتراض الذي اعترضت به عليك؟

قال الحكيم: سأقص عليك ما ورد في سبب نزول هذه الآيات لتقضي من خلالها على شبه جديدة تملأ رأسك.. ربما لا تكون لدي معرفة بها.. وربما لم تستطع التعبير عنها.

لقد حدثت عائشة ــ رضي الله عنها ــ وهي إحدى المرأتين التي نزلت بسببهما تلك الآيات، فقالت: كان رسول الله ﷺ يحب الْحَلْواء والعسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه، يمكث عند زينب بنت جحش، فيشرب عندها عسلاً، فتواطأتُ أنا وحفصة أنَّ أيّتنا دخل النبي ﷺ عليها، فلتقل له: إني أجد منك ريح مَغَافير، أكلتَ مغافير، فقال: لا، بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش، ولن أعود إليه، وقد حلفتُ، لا تخبري بذلك أحداً[1].

التفت الحكيم إلى فرانكلين، وقال: ألا ترى أن هذه الآيات تشير إلى أمر حدث في بيت النبي ﷺ حين عاتبه نساؤه وتظاهرن عليه بدوافع الغيرة المعروفة عن النساء عامة إذ كان ﷺ قد دخل عند إحداهن وأكل عندها طعامًا لا يوجد في بيوقمن، فأسر إلى إحداهن بالأمر فأخبرت به أخريات فعاتبنه فحرّم ﷺ تناول هذا

([1]) رواه البخاري ومسلم، وهذا سبب من أسباب نزول الآيات، وقد أشرنا إلى السبب الآخر في موضع آخر من هذه الرسالة.

الطعام على نفسه ابتغاء مرضاتهن.

والواقعة صحيحة لكن اتهام الرسول بأنه يحرّم ما أحل الله هو تصيّد للعبارة وحمل لها على ما لم ترد له..

فمطلع الآية ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ هو فقط من باب (المشاكلة) لما قاله النبي لنسائه ترضية لهن؛ والنداء القرآني ليس اتهامًا له ﷺ بتحريم ما أحل الله ؛ ولكنه من باب العتاب له من ربه سبحانه الذي يعلم تبارك وتعالى أنه ﷺ يستحيل عليه أن يحرّم شيئًا أو أمرًا أو عملاً أحلّه الله ؛ ولكنه يشدد على نفسه لصالح مرضاة زوجاته من خلقه العالي الكريم.

التفت الحكيم إلى فرانكلين، وقال: فتحريم النبي ﷺ على نفسه ذلك الأكل قاصر عليه لا على الأمة جميعا.. وهو يشبه ما يقع فيه الإنسان عادة حين يصيبه من أكل معين مضرة ما، فيحرمه على نفسه تحريما طبعيا لا تحريما شرعيا.

قال فرانكلين: فما فائدة أن ينشر هذا، ويترل فيه قرآن يكون محل شبهة بعد ذلك؟

قال الحكيم: ما تراه أنت شبهة يراه غيرك خلقا عظيما وسماحة عظيمة من رسول الله ﷺ تجعله يتأسى بها..

بالإضافة إلى أن الحادثة أفادت الأمة حكما تشريعيا مهما له صلة عظيمة بحياة كل إنسان، وهو أنه يستطيع أن يكفر بسهولة على ما عزم عليه من تحريم ما أحل الله له، كما قال تعالى:﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) (التحريم:٢)

٤ ــ الشاهد الرابع:

قال رجل من الجمع: فحدثنا عن **الشاهد الرابع**.

قال الحكيم: هو ما نص عليه قوله تعالى:﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠)﴾ (عبس)[1]

لقد أقر باعتبار هذا الشاهد المستشرق (ليتنر)[2] حيث قال:(مرة أوحى الله إلى النبي وحيا شديد المؤاخذة ؛ لأنه أدار وجهه عن رجل فقير أعمى ، ليخاطب رجلا غنيا من ذوي النفوذ، وقد نشر ذاك الوحي، فلو كان محمد كاذبا ــ كما يقول أغبياء النصارى بحقه ــ لما كان لذلك الوحي من وجود)[3]

التفت الحكيم إلى فرانكلين، وقال: وأظن أنه ينبغي أن تتواضع قليلا، وتشارك هذا المستشرق الفاضل ملاحظته.. فهل يمكن لمحتال أن يلوم نفسه كل ذلك اللوم، ويعاتبها كل ذلك العتاب من أجل رجل أعمى أراد أن يقطع حديثه المهم المرتبط بمصلحة دعوته.

سكت فرانكلين، فأضاف الحكيم: ليس ذلك فقط.. بل إن المحتالين عادة يختارون أيسر الطرق.. فلهذا

([1]) تحدثنا بتفصيل عن هذا الشاهد في فصل (استكبار) من هذه الرسالة.

([2]) هو باحث انجليزي حصل على أكثر من شهادة دكتوراة في الشريعة والفلسفة واللاهوت، زار الأستانة عام ١٨٥٤م.

([3])دين الإسلام، للايتنر، ترجمة عبدالوهاب سليم (ص:١٣٢)

يقصدون الأكابر.. فمن ظفر بالأكابر سهل عليه أن يتبعه البسطاء.. ولكن الآيات الكريمة تحذر محمدا ﷺ أن ينشغل بالمستكبرين عن المستضعفين..

٥ ــ الشاهد الخامس:

قال رجل من الجمع: فحدثنا عن **الشاهد الخامس**.

قال الحكيم: هو ما نص عليه قوله تعالى:﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) (التوبة:١١٣)، وقوله تعالى:﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (التوبة:٨٠)، وقوله تعالى:﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤)﴾ (التوبة)

فهذه الآيات تنهى رسول الله ﷺ أن ينساق وراء ما تمليه عليه الرحمة التي جبله الله عليها، والتي جعلته يخاف أن ينال أي أحد عذاب الله حتى لو كان كافرا، فلذلك كان يستغفر الله لهم ويصلي عليهم إلى أن هي عن ذلك.

لقد توفي عبد الله بن أبي كبير المنافقين، والذي ملأ حياته بالإيذاء لرسول الله ﷺ بكل صنوف الإيذاء، لكن النبي ﷺ كفنه في ثوبه، وأراد أن يستغفر له ويصلي عليه، فقال عمر ــ رضي الله عنه ــ: أتصلي عليه وقد نهاك ربك؟ فقال ﷺ:(إنما خيرني ربي فقال:﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (التوبة:٨٠)، وسأزيده على السبعين، وصلى عليه، فأنزل الله تعالى:﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ) (التوبة:٨٤)، فترك الصلاة عليهم[١].

التفت الحكيم إلى فرانكلين، وقال: أرأيت سموا مثل هذا السمو.. إن هذه القصة تمثل لك نفس هذا العبد الخاضع ، وقد اتخذ من القرآن دستورا يستملي أحكامه من نصوصه الحرفية، وتمثل لك قلب هذا البشر الرحيم وقد آنس من ظاهر النص الأول تخييرا له بين طريقين، فسرعان ما سلك أقربهما إلى الكرم والرحمة ، ولم يلجأ إلى الطريق الآخر إلا بعد ما جاءه النص الصريح بالمنع.

وهكذا كلما درست مواقف الرسول من القرآن في هذه المواطن أو غيرها ، تجلى لك فيه معنى العبودية الخاضعة ، ومعنى البشرية الرحيمة الرقيقة ؛ وتجلى لك في مقابل ذلك من جانب القرآن معنى القوة التي لا تتحكم فيها البواعث والأغراض ، بل تصدع بالبيان فرقانا بين الحق والباطل، وميزانا للخبيث والطيب، أحب الناس أم كرهوا، رضوا أم سخطوا، آمنوا أم كفروا، إذ لا تزيدها طاعة الطائعين ولا تنقصها معصية العاصين، فترى بين المقامين ما بينهما، وشتان ما بين سيد ومسود، وعابد ومعبود[٢].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) النبأ العظيم، ص:٢٨-٣٠.

٤ ــ الكسل

قال رجل من الجمع: حدثتنا عن الكذب والغش والاحتيال، وعرفنا أن محمدا أبعد الناس عنها، فحدثنا عن الكسل وعلاقته بالاحتيال.

قال الحكيم: من أكبر دواعي الاحتيال الكسل.. فالمحتال عجز أن يأتي الأمور من أبوابها، فراح يحتال على الدخول عليها من نوافذها.

قال فرانكلين: وهل رأيت محمدا حتى تستطيع تتريهه عن هذا؟

قال الحكيم: من عرف سيرة محمد ﷺ التي ذكرت فيها أدق التفاصيل لا يعجز أن يتره محمدا عن هذا.

قال فرانكلين: لا أرى من تفاصيل محمد إلا أن له زوجات كثيرات، وكان يتردد بين بيوتهن.. وهذا هو الكسل بعينه، فكيف تتره محمدا عنه.

قال الحكيم: ألستم تتهمون محمدا بأنه خاض حروبا كثيرة؟

قال فرانكلين: أجل.. لقد كانت كل حياته في المدينة حروبا وغزوات لم يستقر فيها لحظة واحدة.

قال الحكيم: ألا ترى أنك متناقض فيما تقول؟.. لقد كنت تزعم أن محمدا ﷺ لا هم له إلا الطواف على بيوت زوجاته، ثم أنت الآن تذكر أنه لا يستقر به المقام دون خوض الحروب[1].

سكت فرانكلين، فقال الحكيم: لا بأس.. سأكتفي بذكر أربعة شواهد تدلك على أن محمدا ﷺ كان أبعد الناس عن الكسل، وما يمليه الاحتيال من الكسل.

الشاهد الأول:

قال رجل من الجمع: حدثنا عن الشاهد الأول.

قال الحكيم: في أول دعوة رسول الله ﷺ، وبعد أن أحس المشركون خطرها عرض الملأ من قريش عروضا كثيرة على رسول الله ﷺ، وكلها تيسر عليه ــ في ظاهرها النجاح فيما يصبو إليه من مكاسب دون بذل جهد كبير.. ولكن النبي ﷺ أعرض عنها، وظل مع أسلوبه الذي أمره الله به.. وهو أسلوب ممتلئ بالكد والجهد والشدة، ولو كان محتالا مخادعا كما تتصور لقبل ما عرض عليه من حلول، ثم احتال عليهم بعد ذلك بما طبع عليه من حيلة ليحولهم إلى طريقه واحدا واحدا.

ساضرب لك مثالا على ذلك ذكره العلماء عند تفسير (سورة الكافرون).. ذكر ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ويزوّجوه ما أراد من النساء، فقالوا: هذا لك يا محمد وكف عن شتم آلهتنا ولا تذكر آلهتنا بسوء، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح، قال: ما هي؟ قالوا: تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فقال ﷺ:(حتى أنظر ما يأتيني

([1]) للأسف نجد مثل هذه التناقضات الكثيرة في الحاقدين على رسول الله ﷺ، فهم يصفون بأوصاف مختلفة متناقضة يدرك أي عقل تناقضها.

من ربي)، فجاء الوحي من عند الله:﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ (الكافرون)، وأنزل الله:﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦)﴾ (الزمر)[1]

وفي حديث آخر عن سعيد بن ميناء مولى أبي البختري قال: لقي الوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل، والأسود بن المطلب وأمية بن خلف رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد هلم فلتعبد ما نعبد ونعبد ما تعبد، ولنشترك نحن وأنت في أمرنا كله، فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه كنت قد أخذت منه حظاً، وإن كان الذي أنت عليه أصح من الذي نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظاً فأنزل الله:﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ حتى انقضت السورة [2].

وفي حديث آخر عن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ أن قريشاً قالت: لو استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك فأنزل الله:﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ السورة كلها[3].

التفت الحكيم إلى فرانكلين، وقال: ألا ترى أن ما عرضه عليه المشركون فرصة عظيمة كان يمكنه استثمارها ليحولهم إلى صفه، فإن تحولوا فبها ونعمت، وإن لم يتحولوا عاد إلى أسلوبه الطبيعي الذي بدأ به؟

سكت فرانكلين، فقال الحكيم: لقد اختار محمد ﷺ أن يسير في دعوته بحسب ما سن الله له من أسلوب حتى يحافظ على صفاء الدعوة، وحتى لا تصبح الغاية مبررا للوسيلة.

ولذلك، فإن محمدا ﷺ في جميع مراحل حياته الدعوية لم يجر وراء أي مكسب سريع وهين إذا كان وراءه تفريطا في جزء بسيط من الرسالة التي كلف بها.

وحسبك ما ذكرته لك من آيات العتاب التي عاتب الله فيها نبيه ﷺ حين انصرف إلى المستكبرين يدعوهم طمعا في أن يفتح الله على البسطاء بسببهم، فنهي عن ذلك، وأمر بالعودة للمستضعفين.

الشاهد الثاني:

قال رجل من الجمع: وعينا هذا الشاهد واقتنعنا به، فحدثنا عن الشاهد الثاني.

قال الحكيم: لقد نص الله تعالى على هذا الشاهد في قوله:﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩)﴾ (المزمل)

إن هذه الآيات التي تأمر بقيام الليل من أول ما نزل من القرآن الكريم، وقد ظل ﷺ طول حياته يمارس ما أمر به فيها من أوامر إلى أن توفاه الله تعالى.

---

(1) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني.
(2) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف.
(3) رواه عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه.

عن سعد بن هشام قال: قلت لعائشة: أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ قالت: ألست تقرأ هذه السورة ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ قلت: بلى قالت: فإن الله قد افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهراً[1]، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة[2]، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة[3].

وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: نزل القرآن:﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢)﴾ (المزمل) حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق، فمكثوا بذلك ثمانية أشهر، فرأى الله ما يبتغون من رضوانه فرحمهم وردهم إلى الفريضة وترك قيام الليل[4].

ومما يدلك على أن النبي ﷺ ظل هذا مع نزول التخفيف ما رواه جبير بن نفير قال: سألت عائشة عن قيام رسول الله ﷺ بالليل فقالت: ألست تقرأ:﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١)﴾ (المزمل) قلت: بلى. قالت: هو قيامه [5].

وعنها قالت: كان النبي ﷺ قلما ينام من الليل لما قال الله له:﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) ﴾ (المزمل)[6]

التفت الحكيم إلى فرانكلين، وقال: هل ترى من الممكن أن يظل محتال مخادع في مثل الجو الحرج الذي عاش فيه رسول الله ﷺ كل تلك المدة لا ينام من الليل إلا قليلا؟

سكت فرانكين، فقال الحكيم: سأروي لك بعض الشهادات التي تبين كيف كان رسول الله ﷺ حريصا بصدق على عبادة ربه.. مما لا يطيق مثله، بل قريبا منه، بل ما دون ذلك بكثير أحد من الناس:

عن علقمة، قال: سألت عائشة ــ رضي الله عنها ــ: أكان رسول الله ﷺ يخص شيئاً من الأيام؟ قالت: لا، كان عمله ديمةً، وأيكم يطيق ماكان رسول الله ﷺ يطيق[7]؟

وعن كُريب أن ابن عباس أخبره أنه بات عند خالته ميمونة زوج النبي ﷺ قال: فاضطجعت في عرض الوسادة، واضطجع رسول الله ﷺ وأهله في طولها، فنام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعد بقليل، استيقظ رسول الله ﷺ فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده، ثم قرأ العشْر الأياتِ الخواتم من سورة آل

---

(1) وقد روي ما هو أكثر من ذلك، فقد روى عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت:﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢)﴾ (المزمل) مكث النبي ﷺ على هذه الحال عشر سنين يقوم الليل كما أمره الله، وكانت طائفة من أصحابه يقومون معه، فأنزل الله بعد عشر سنين :﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ ﴾ فخفف الله عنهم بعد عشر سنين..

(2) وهو ما نص عليه قوله تعالى:﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠)﴾ (المزمل)

(3) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة والبيهقي في سننه.

(4) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

(5) رواه محمد بن نصر في كتاب الصلاة والحاكم وصححه.

(6) رواه عبدالله بن أحمد في زوائد الزهد ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة.

(7) رواه البخاري ومسلم.

عمران، ثم قام إلى شَنّ معلقة فتوضأ منها فأحسن وضُوءه ثم قام يصلي.

قال ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ: فقمت فصنعت مثل ما صنع، ثم ذهبت فقمت إلى جنبه فوضع رسول الله ﷺ يده اليمنى على رأسي، وأخذ بأذني اليمنى يفتلها فصلى ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم أوتر، ثم اضطجع حتى جاءه المؤذن فقام فصلى ركعتين خفيفتين، ثم خرج فصلى الصبح[1].

وعن عبد الله بن شَقيق، قال: سألت عائشة ــ رضي الله عنها ــ عن صلاة رسول الله ﷺ من التطوع، فقالت: كان يصلي قبل الظهر أربعاً في بيتي، ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يرجع إلى بيتي فيصلي ركعتين، وكان يصلي بالناس المغرب، ثم يرجع إلى بيتي فيصلي ركعتين، وكان يصلي بهم العشاء ثم يدخل بيتي فيصلي ركعتين وكان يصلي من الليل تسع ركعات فيهن الوتر، وكان يصلي ليلاً طويلاً قائماً، وليلاً طويلاً جالساً، فإذا قرأ وهو قائم ركع وسجد وهو قائم وإذا قرأ وهو قاعد ركع وسجد وهو قاعد، وكان إذا طلع الفجر صلى ركعتين ثم يخرج فيصلي بالناس صلاة الفجر[2].

وعن حُميد، قال: سئل أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ عن صلاة رسول الله ﷺ من الليل، فقال: ما كنا نشاء من الليل أن نراه مصلياً إلا رأيناه، وما كنا نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه وكان يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر شيئاً[3].

وعن عبد الله، قال: صليّت مع النبي ﷺ ذات ليلة فلم يزل قائماً حتى هممت بأمر سوءٍ. قلنا: ما هممت؟ قال: هممت أن أجلس وأدعه[4].

وعن حذيفة، قال: صليّت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة فقلت: يركع عند المائة. قال: ثُمّ مضى فقلت: يصلي بها في ركعة فمضى، فقلت: يركع بها ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مر بتعوّذ تعوَّذ، ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده، ثم قام طويلاً قريباً مما ركع، ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلى، فكان سجوده قريباً من قيامه[5].

وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطّر رجلاه، قالت عائشة: يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً[6]؟

التفت الحكيم إلى فرانكلين، وقال: هل زرت الصحراء، وعاينت بنفسك شدة حرها؟

---

(1) رواه البخاري ومسلم.
(2) رواه مسلم.
(3) رواه البخاري ومسلم.
(4) رواه البخاري ومسلم.
(5) رواه مسلم، وسورة النساء في هذا الحديث مقدمة على آل عمران، وكذلك هي في مصحف ابن مسعود.
(6) رواه البخاري ومسلم.

قال فرانكلين: أجل.. ولكن قومي تغلبوا على حرها بما أبدعوا من مكيفات؟

قال الحكيم: لقد كان محمد ﷺ ــ كما تعلم ــ يعيش في صحراء شديدة الحر.. و لم يكن له مكيفات.. وكان في ذلك الجو الشديد حريصا على الصوم حرصا لا يقل عن حرصه على الصلاة، بل كان ﷺ فوق ذلك لا يسارع إلى الإفطار إذا حل وقته كما يسارع الناس، بل كان يواصل.. أي يصل في صومه ليله بنهاره..

فعن أنس ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ قال:(لا تواصلوا)، قالوا: إنك تواصل، قال :(لست كأحد منكم، إني أطعم وأسقى، أو إني أبيت أطعم وأسقى)

وفي رواية: أن رسول الله ﷺ قال: لا تواصلوا. قالوا: إنك تواصل. قال: إنكم لستم في ذلك مثلي، إني أظل، أو قال: أبيت، أطعم وأسقى[1].

وفي حديث آخر عن أنس ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ واصل في آخر الشهر، فواصل ناس من الناس، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: لو مد لنا الشهر، لواصلت وصالا يدع المتعمقون تعمقهم، إني لست مثلكم، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني[2].

التفت الحكيم إلى فرانكلين، وقال: هل يمكن لرجل أن يجمع كل هذا الجهد والنشاط الذي لا نظير له، بل لا يطيقه غيره، ثم يكون فوق ذلك محتالا.

الشاهد الثالث:

قال رجل من الجمع: فحدثنا عن الشاهد الثالث.

قال الحكيم: هو ما نص عليه قوله تعالى:﴿ وَلا تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) (طــه:١٣١)

هنا انتفض فرانكلين، وكأنه وجد فريسة يريد الانقضاض عليها، وقال: كيف تقول هذا.. ومحمد كان يتزوج من النساء ما يشاء.. بل أبيح له أن يتزوج أكثر مما يتزوج سائر المسلمين[3].

قال الحكيم: أجبني وكن صادقا في جوابك.. وأرجو أن لا تعتصم بالصمت.

قال فرانكلين: سأجيبك فاسأل ما بدا لك.

قال الحكيم: أرأيت لو أن الله رزقك امرأة شابة جميلة يمتلئ قلبك محبة لها، وتمتلئ هي محبة لك.. ثم تكلف بعد ذلك بأن تتزوج معها امرأة عجوزا مسنة، ثم تقسم لكليهما بعدل لا نظير له.. أتطيق ذلك؟

قال فرانكلين: من الصعب على المرء أن يفعل ذلك.

قال الحكيم: فقد كلف محمد ﷺ بأن يفعل ذلك.. وكلف معها أن يعيش حياة بسيطة لا تختلف عن حياة أبسط الفقراء.. وكلف فوق ذلك أن يعيش مع البسطاء من الناس، وأن يصبر معهم، كما قال تعالى:﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا

---

(1) رواه أحمد والبخاري.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) سنرد على الشبهة المرتبطة بالزواج في فصل (زوجات) من هذه الرسالة.

تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ (الكهف:٢٨)، وقال تعالى:﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام:٥٢)

وقد قام رسول الله ﷺ بما اقتضته هذه الأوامر من واجبات خير قيام، فكان ينهض لكل مسكين، ويقوم لكل محتاج.. وأنت تعلم كثرة المساكين، وكثرة الحاجات.

وقد قال العباس ــ رضي الله عنه ــ لرسول الله ﷺ بعد أن رأى الجهد الذي يصيبه جراء ذلك: يا رسول الله إني أراهم قد آذوك، وآذاك غبارهم، فلو اتخذت عريشا تكلمهم فيه، فقال رسول الله ﷺ:(لا أزال بين أظهرهم يطئون عقبي وينازعوني ثوبي، ويؤذيني غبارهم، حتى يكون الله هو الذي يرحمني منهم)[1]

التفت الحكيم إلى فرانكلين، وقال: هل يمكن لمحتال مخادع كسول أن يفعل هذا؟

قال فرانكلين: هناك من يفعله.

قال الحكيم: هناك من يفعله أياما أو أشهرا أو أسابيع.. ولكن ليس هناك زعيم في الدنيا يستطيع أن يصبر على البقاء طول عمره يعيش المسكنة، ويعيش مع المساكين في الوقت الذي يستطيع فيه أن يتنعم بأرفه عيش، وأمتع حياة.

الشاهد الرابع:

قال رجل من الجمع: فحدثنا عن الشاهد الرابع.

قال الحكيم: هو ما نص عليه قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة:٦٧)

قال فرانكلين: فما في هذا الشاهد إن الآية تأمر محمد بالبلاغ.. وهي تعتبر تقصيره فيه تقصير في أمر الله؟

قال الحكيم: إن هذه الآية تحمل أخطر الأوامر الإلهية وأكثرها ثقلا[2].. فالبلاغ والدعوة بين قوموا ألفوا ما هم فيه من حياة شيء لا يطيقه إلى الكبار من الناس..

قال فرانكلين: فهل أدى محمد هذا الواجب كما أمر به؟

قال الحكيم: لو اجتمعت البشرية جميعا على أن تقوم بما قام به ﷺ، فإنها لا تطيق.. لقد قام رسول الله ﷺ بما تعجز الجبال عنه..

وقد تحمل ﷺ في سبيل ذلك أذى المشركين والمنافقين واليهود ومن في حكمهم بالصبر تارة وبالجهاد معهم تارة أخرى طيلة ربع قرن من الزمن تقريبًا.

لقد أقام ﷺ في مكة بعد بدء التبليغ عشر سنين، يدعو إلى أصول الإيمان وكليات الدين، من التوحيد الخالص، والعمل الصالح، وتزكية النفس بتطهيرها من أدران الرذائل، وتحليتها بأحاسن الأخلاق وعقائل

---

(1) رواه ابن إسحاق الزجاجي في تاريخه.

(2) انظر التفاصيل المرتبطة بقيام رسول الله ﷺ بالدعوة إلى الله بأساليبها المختلفة في رسالة (النبي الهادي) من هذه السلسلة.

الفضائل، واستعمال نعم الله تعالى من بدنية وعقلية، وسماوية وأرضية، فيما تظهر به حكمه ونشاهد آياته في الخلق، وتتسع بها العلوم التي يعرف بها الحق وتكثر موارد الرزق، صابرًا مع السابقين من المؤمنين، على الاضطهاد والأذى من المشركين.

وقد عرضوا عليه حينها الملك والمال والدثر، على أن يترك هذا الأمر، ولو كان خرج لطلب الرياسة لآثرها على الضعف والفقر.

ثم هاجر ﷺ إلى المدينة، وفيها ازدادت جهوده، وضم إليها الجهاد في سبيل الله لحماية الدعوة، وحماية مكتبساتها.. فكاد ﷺ داعية معلما مجاهدا لا يهدأ أبدا، ولا يسكن إلى راحة.

وقد أثمرت هذه الجهود العظيم من الثمار ما لا يزال الناس ينعمون به إلى اليوم، لقد قال الندوي إعجابه بذلك:(لقد كان الانقلاب الذي أحدثه ﷺ في نفوس المسلمين وبواسطتهم في المجتمع الإنساني أغرب ما في تاريخ البشر، وقد كان هذا الانقلاب غريبًا في كل شيء، كان غريبًا في سرعته، وكان غريبًا في عمقه، وكان غريبًا في سمعته وشموله، وكان غريبًا في وضوحه وقربه إلى الفهم. فلم يكن غامضًا ككثير من الحوادث الخارقة للعادة و لم يكن لغزًا من الألغاز)

وقد شهد له ﷺ بنجاحه في تلك الوظيفة التي كلف بها الجموع الكثيرة من الناس، سواء كانوا من صحابته أو من غيرهم[1] في حجة الوداع حينما قال لهم أثناء خطبته بوادي عرنة في يوم عرفة: أنتم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا:(نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت)، فقال بأصبعه السبابة ــ يرفعها إلى السماء وينكبها إلى الناس ــ:(اللهم اشهد اللهم اشهد، ثلاث مرات)[2]

***

بعد أن انتهى الحكيم من حديثه لم يجد (فرانكلين جراهام) ما يقوله.. ولذا سار مطأطئ الرأس، متغير الوجه، خارج ميدان الحرية ليترك الجماعة ملتفة حول الحكيم تسأله ويجيبها..

التفت إلى أصحابنا المستغرقين في مشاهدة ما حصل في ساحة الحرية.. فرأيت وجوههم كالحة عابسة

([1]) للمؤلف رأي في هذا، وهو أن المراد بالصحابة ــ رضي الله عنهم ــ من تربى على يده ﷺ بحيث أصبح ممثلا للدين الذي جاء به ﷺ أما من عداهم كالطلقاء وغيرهم، أو من لم يظفروا بمثل هذا، فلا دليل من النصوص على اعتبارهم صحابة.

أما القول المتداول بأن الصحابي هو كل من رأى رسول الله ﷺ، فهو اجتهاد لا دليل عليه، بل هو يضر رسول الله ﷺ، ويضر سنته، فلا نستطيع أن ننسب ما فعله معاوية من الحكم الاستبدادي الوراثي إلى صاحب لرسول الله ﷺ، لأن ذلك يجعل مما فعله سنة معتبرة، وربما يكون المدافع عن معاوية ــ شعر أو لم يشعر ــ مدافعا عن سنة الاستبداد.

وإنما ذكرنا هذا هنا حتى لا نحمل رسول الله ﷺ ما لا يحتمل.. فقد بلغ رسول الله ﷺ عن ربه، وهو ليس مسؤولا بعد ذلك هل التزم الناس أو لم يلتزموا، وقد ورد في الحديث الصحيح قوله ﷺ:(ترد على أمتي الحوض وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله، قالوا: يا نبي الله! تعرفنا؟ قال: نعم لكم سيماء ليست لاحد غيركم، تردون على غرا محجلين من آثار الوضوء، وليصدن عني طائفة منكم فلا يصلون فأقول: يا رب! هؤلاء من أصحابي، فيجيبني ملك فيقول وهل تدري ما أحدثوا بعدك؟) رواه مسلم، وفي حديث آخر:(ليردن على ناس من أصحابي الحوض حتى إذا رأيتهم وعرفتهم اختلجوا دوني فأقول: يا رب! أصيحابي أصيحابي! فيقال لي إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك) رواه البخاري ومسلم.

([2]) رواه مسلم وأبو داود.

عليها غبرة ترهقها قترة.

أما أنا.. فقد تترلت علي حينها أنوار جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

سادسا ــ أمراض

في مساء اليوم السادس.. وفي دار الندوة الجديدة.. دخل (جيري فايتر)[1].. الطبيب النفسي.. بوجه لم يصعب علي أن أتبين ما فيه من تغير.

لقد خرج في الصباح يحمل حقيبته الطبية بثقة عظيمة.. فهو ــ نتيجة غلوه في الدراسات النفسية ــ صارت له قدرة عجيبة على أن يلصق أي مرض نفسي أو عصبي بمن يشاء.. ولهذا كان المرشحون في الحملات الانتخابية يحضرونه ليدرس خصومهم، لا لينتفعوا بما يذكره عنهم للعلاج، وإنما ليجعلوا تلك القوائم العريضة من الأمراض وسيلة للإشهار بخصومهم.

وهو ــ لسبب لا أعرفه ــ لا يهتم إلا بالمشاهير، أو من أنجزوا إنجازات ضخمة، بل إنه بقدر عظمة المنجزات تكون في تصوره كثرة الأمراض.. ولهذا لا يسلم شخص من همه إلا إذا كان مغمورا خاملا لا علاقة له بالحياة، ولا علاقة للحياة به.

عندما دخل ذلك المساء بذلك الوجه المتغير.. ابتدرته الجماعة قائلة: ما الذي فعلت!؟.. ما نسبة نجاحك!؟.. هل هناك نتائج إيجابية!؟

صاح فيهم مثلما يصيح المجانين: لقد بعثتموني إلا مارستان مجانين، ولم تبعثوني إلى ساحة الحرية.. إن كل من فيها مريض.. ويستحيل على جميع أطباء الدنيا أن يشخصوا أدواء أولئك المرضى.. فكيف أستطيع أنا لوحدي علاجهم؟

قال ذلك، ثم وضع كلتا يديه على رأسه، لا يسمع لما نحدثه به، أو لا يهتم بجوابنا.. ابتدر أخي.. ووضع القرص في القارئ.. وبدأ شريط الأحداث:

رأينا جيري فايتر يجتمع إلى نفر من الناس في ميدان الحرية، ثم يخاطبهم قائلا: أنا طبيب نفسي.. ولدي إلمام كبير بكل ما يرتبط بالأمراض النفسية والعصبية.. ولذلك سأحاول أن أخدمكم في هذا الجانب.

ثم ابتسم ابتسامة عريضة، وقال: لا تخافوا.. لن أسلب من أموالكم فلسا واحدا.. فخدماتي التي أقدمها هنا خدمات مجانية.

سكت قليلا، وكأنه يعطيهم الفرصة للحديث، لكنه ما إن رأى الأفواه تبادر إلى سؤاله حتى قطعها قائلا: لا بأس.. ما دمتم لم تسألوا فسأفيدكم أنا من واقع اختصاصي.. بل سأعطيكم جرعة تقيكم كل مخاطر الأمراض النفسية والعصبية.

---

[1] أشير به إلى (جيري فايتر) راعي كنيسة في (جاكسونفيل فلوريدا) والتي يصل عدد أتباعها إلى ٢٥ ألف شخص، وهو من أبرز المتحدثين في المؤتمر السنوي للكنائس المعمدانية الجنوبية، والذي يعد أكبر مؤتمر ديني يعقد في كل عام، وقد قام كلينتون وبوش الابن بمدح هذا القسيس وعده من المتحدثين بصدق عن دينهم، ومن أقواله التي جعلتنا نختاره لهذا الفصل قوله عن رسول الله ﷺ ــ في الاجتماع السنوي للكنيسة المعمدانية الذي عقد في سانت لويس في ميسوري الأمريكية ــ:(.. شاذ يميل للأطفال، ويتملكه الشيطان)

ظهر السرور على الجماعة المحيطة به، فابتدر ذلك السرور قائلا: أتعلمون أن في الأرض أكثر من مليار.. بل من مليار ونصف من السكان مصابون بأخطر الأمراض النفسية من غير أن يشعروا؟

ظهر العجب على الجماعة، فاستحثه ذلك ليقول: لا شك أنكم لستم منهم.. فأنتم في بقعة من العالم لم يصبها ذلك الداء الذي أصابهم..

تنفست الجماعة الصعداء، فقال: ولكن مع ذلك.. فإن عدوى هذا الداء قد تصيب جميع أركان العالم..

عاد الخوف للجماعة المحيطة به.. فاستغل ذلك الخوف ليقول: لم تسألوني عن البلاد التي تستوطن بها هذه الأدواء النفسية الخطيرة.

سأله رجل من الجماعة، فقال: لم نسمع ببلاد تختص بأمراض نفسية دون غيرها من البلاد!؟

قال جيري فايتر: لك الحق في أنك لم تسمع.. ذلك أن أكثر الأطباء بخلاء، ولا يهمهم إلا ما يدخل في جيوبهم من أموال، فلذلك لا ينصحون المرضى، ولا يهتمون بصحتهم.

قال آخر: لقد أخفتنا.. فحدثنا حديثا صريحا من دون مقدمات.

قال جيري فايتر: شكرا على هذه الملاحظة.. هل تعرفون البلاد التي يسكنها المسلمون؟

قالوا: وكيف لا نعرفها؟.. نحن على أرض واحد، وتظللنا سماء واحدة.

قال جيري فايتر: فتلك البلاد هي موطن أخطر الأمراض النفسية.

قالوا: لم؟

قال جيري فايتر: لقد عرفت من خلال خبرتي الطويلة مع المرضى أن كل من يصدق مريضا نفسيا أو يعجب به يصاب بنفس أمراضه.. فعدوى الأمراض النفسية تختلف عن عدوى الأمراض العضوية، فتلك تنتقل بالجراثيم والفيروسات، وهذه تنتقل بالمحبة والتأثر والميلان والذوبان..

قالوا: فمن هذ الذي أحبوه حتى مرضوا بحبه؟

قال جيري فايتر: ومن غير محمد؟

قالوا: إنا نسمع أحاديث طيبة عن محمد.. ولم نسمع أن به مرضا نفسيا..

قال جيري فايتر: مرض نفسي واحد!؟.. بل إن كل أمراض الدنيا النفسية والعصبية اجتمعت فيه..

هنا ظهر الحكيم بنوره المشرق، وصاح في جيري فايتر: هل دخل محمد عيادتك في يوم من الأيام؟

ضحك جيري فايتر ضحكا شديدا، وقال: لا شك أن معلومات هذا الرجل المسكين في التاريخ معلومات هزيلة.

قال الحكيم: وما علاقة التاريخ بالطب؟

قال جيري فايتر: كيف يدخل محمد عيادتي، وقد مات منذ مئات السنين؟

قال الحكيم: فكيف عرفت أنه مريض، وأنه اجتمعت فيه جميع الأمراض النفسية، بل والعصبية؟

قال جيري فايتر: ذلك ليس صعبا لمن هو في مثل اختصاصي، فمن السهل أن تدرس سلوك أي كان لتحكم عليه بعد ذلك بالصحة أو المرض.

قال الحكيم: فهل عرفت من خلال سلوك محمد ﷺ وحياته ما أصيب به من أمراض نفسية؟

قال جيري فايتر: أجل.. وقد اعتمدت في ذلك على أدق الدراسات، وأكثرها موضوعية.. لاشك أنك تعرف ذلك العلامة الباحث المدقق جولد تسيهر[1].. لقد كانت أبحاثه القيمة أهم مراجعي، لقد قال في كتابه (العقيدة والشريعة فى الإسلام) عن محمد:(وفى خلال النصف الأول من حياته اضطرته مشاغله إلى الاتصال بأوساط استقى منها أفكاراً أخذ يجتريها فى قرارة نفسه، وهو منطو فى تأملاته أثناء عزلته، ولميل إدراكه وشعوره للتأملات المجردة، والتي يلمح فيها أثر حالته المرضية، نراه ينساق ضد العقلية الدينية والأخلاقية لقومه الأقربين والأبعدين)[2]

قال الحكيم: فما هي الأمرض التي استخلصتها من خلال دراستك لمحمد ﷺ من هذه المراجع؟

قال جيري فايتر: قائمة طويلة من الأمراض منها ما سبقت إلى معرفته، ومنها ما كان لي براءة اكتشافه..

أما ما سبقت إليه، فقد سبقني شبرنجر[3] وجوستاف فايل[4] وغيرهم إلى أنه كان مصاباً بحالات من الصرع، يغيب فيها عن الناس وعما حوله، ويظل ملقى على أثرها بين الجبال لمدة طويلة، يسمع له على إثرها غطيط كغطيط النائم، ويتصبب عرقاً، ويثقل جسمه، وتعتريه التشنجات، وتخرج منه الرغوة، فإذا أفاق ذكر أنه أوحى إليه، وتلا على أتباعه ما يزعم أنه وحى من الله[5].

وسبقني بعضهم إلى اعتبار حالته حالة هستيريا، وتهيج عصبي، يظهر عليه أثرها فى مزاجه العصبى القلق، ونفسه كثيرة العواصف بشكل غامض، حتى كان يصل به الأمر أن لا يفرق بين تعاقب الليل والنهار، وقد هزل على إثرها جسمه، وشحب لونه، وخارت قواه[6].

وسبقني آهرون إلى أن به نوعا من الهوس.. لقد قال بعضهم معبرا عن ذلك:(ونرى محمداً الثاقب النظر من الناحية العلمية من ذوى الهوس، كما هو شأن أكثر مؤسسى الديانات)[7]

قال الحكيم: فما الذي أضفت أنت إلى ما ذكروه؟

قال جيري فايتر: لقد نسيت أن أخبركم بأني ــ بالإضافة إلى تخصصي الطبي ــ رجل دين.. لا تستغربوا

([1]) مستشرق مجرى يهودى، رحل إلى سورية وفلسطين ومصر، ولازم بعض علماء الأزهر، له تصانيف باللغات الألمانية، والإنجليزية، والفرنسية، ترجم بعضها إلى العربية، قال الدكتور السباعى: عرف بعدائه للإسلام، وبخطورة كتاباته عنه، وهو من محررى دائرة المعارف الإسلامية، كتب عن القرآن والحديث، ومن كتبه: تاريخ مذاهب التفسير الإسلامى، والعقيدة والشريعة فى الإسلام، وغير ذلك مات سنة ١٩٢١م.

([2]) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص١١٢.

([3]) هو ابن كرستوفر شبرنجر، مستشرق نمسوى، يجيد كثيراً من اللغات، له إلمام بالأدب الشرقى مات سنة ١٨٩٣م، من آثاره: حياة محمد، وقد نشر بعض الكتب العربية مثل: الإصابة فى تمييز الصحابة، والإتقان فى علوم القرآن.

([4]) مستشرق ألماني، له كتاب مدخل تاريخى نقدى إلى القرآن، مات سنة ١٨٨٩م. ينظر: آراء المستشرقين حول القرآن وتفسيره ٢٢٩/١.

([5]) الإسلام والمستشرقين لنخبة من العلماء ص٢٠٢.

([6]) مقدمة القرآن لمونتجمرى وات ص١٧، ١٨، ومقدمة القرآن لبل ص٢٩، ٣.

([7]) الوحى القرآني فى المنظور الاستشراقى ونقده للدكتور محمود ماضى ص١٠٩، ١٢٣.

ذلك.. ففي المسيحية يمكنك أن تجمع بين كونك عالما وبين كونك رجل دين..

قال الحكيم: فما الذي أفادك كونك رجل دين في التعرف على أمراض محمد ﷺ؟

قال جيري فايتر: بفضل كوني رجل دين عرفت السر الذي تاه فيه الناس والذي يفسر جميع أمراض محمد.

قال الحكيم: فما هو؟

قال جيري فايتر: الشيطان.. إن محمدا مصاب بأمراض شيطانية.. البعض يسميها أمراض روحانية، وأنا أسميها أمراضا شيطانية.

قال الحكيم: فهذه هي قائمة الأمراض التي نسبتها لمحمد؟

قال جيري فايتر: وهل تستهين بكل هذه القائمة؟

قال الحكيم: لا.. ولكني أردت فقط أن أحصيها.

قال جيري فايتر: فهذه هي الأمراض.. ويمكنك أن تحصرها في ثلاثة أنواع من الأمراض: أمراض عصبية.. وأمراض نفسية.. وأمراض روحانية.

قال الحكيم: لقد سمعت لتحاليلك.. فهل تأذن لي في أن أجيبك؟

قال جيري فايتر: عم تجيبني؟

قال الحكيم: أنتم ـــ معاشر الأطباء ـــ تختلفون أحيانا في وصف مريض ببعض الأمراض، أو عدم وصفه؟

قال جيري فايتر: ذلك صحيح.

قال الحكيم: فلذلك سأستعرض من خلال حياة محمد ﷺ ما يبين وجه الحق فيما ذكرته.. فنعرف إن كان حقيقة مريضا أم لا.

قال جيري فايتر: قل ما تشاء.. فلي صدر أوسع من المحيط.

١ ـــ أمراض عصبية

قال الحكيم: فلنبدأ بالأمراض العصبية.. فقد ذكرت بأن هناك من اعتبر النبي ﷺ مصابا بالصرع[1]..

قال جيري فايتر: ذلك صحيح.. ولقوله الدلائل الكثيرة في حياة محمد.

قال الحكيم: قبل أن أجيبك بما يقتضيه المنطق أجيبك بما ذكره بعض قومك، اسمع لما يقول المستشرق الطبيب ماكس مايرهوف[2] الذي قال ردا على من نسب هذا المرض لمحمد ﷺ:(أراد بعضهم أن يرى فى محمد رجلاً مصاباً بمرض عصبى أو بداء الصرع، ولكن تاريخ حياته من أوله إلى آخره، ليس فيه شئ يدل على هذا، كما أن ما قام به فيما بعد من التشريع والإدارة يناقض هذا القول)[3]

ومثله قال (بودلي) في كتابه (الرسول حياة محمد) مفندا هذا الزعم:(لا يصاب بالصرع من كان في مثل الصحة التي كان يتمتع بها محمد حتى قبل وفاته بأسبوع واحد[4]، وإن كان ممن تنتابه حالات الصرع كان يعتبر مجنونا، ولو كان هناك من يوصف بالعقل ورجاحته، فهو محمد)

بعد هذا أجبني.. هل كان قوم محمد حريصين على تتبع كل ثغرة يمكنهم من خلالها نشر الفضائح التي تشوه محمدا ﷺ؟

قال جيري فايتر: أجل.. ذلك صحيح.. وأنا لا أعتبرها فضائح، بل أعتبرها حقائق.

قال الحكيم: فهل سجل التاريخ أنهم رموه بهذا الداء الذي كان معروفا عندهم[5]، كما كان معروفا عند جميع شعوب العالم؟

قال جيري فايتر: لكنهم رموه بالجنون؟

---

(1) الصرع مرض عضوي عصبي يظهر على هيئة نوبات تصيب الشخص، وفيها يفقد الوعي ويسقط أرضاً ثم تظهر لدية حركات تشنجية منتظمة في أجزاء مختلفة من جسمه أو أعراض أخرى.

وللصرع أسباب متعددة منها التغيرات التي تظهر على شكل إفرازات كهربائية غير طبيعية في المخ، والعوامل الوراثية، ووجود عيوب خلقية بالمخ، وقد تؤدي إصابات الرأس والتهابات المخ إلى الصرع في جميع الأعمار.

(2)مستشرق ألماني، من كبار أطباء العيون العالميين، وفى طليعة مؤرخى الطب العربى، تعد اكتشافاته فيه، وكتابته عنه، بالفرنسية والإنجليزية والألمانية، مرجعاً دقيقاً وافياً، سكن مصر، وانتخب نائباً لرئيس المعهد المصرى، والجمعية الطبية المصرية. توفى بالقاهرة سنة ١٩٤٥م. انظر: الأعلام للزركلى ٢٥٦/٥، ٢٥٧.

(3) الإسلام والرسول فى نظر منصفى الشرق والغرب، أحمد بوطامى ص١٦٢.

(4)كان النبي ﷺ أصح الناس بدنا وأقواهم جسما، وأوصافه التي تناقلها الرواة تدل على البطولة الجسمانية. وقد بلغ من قوته أنه صارع ركانة بن عبد يزيد فصرعه، وكان ركانة هذا مصارعا ماهرا، ما قدر أحد أن يأتي بجانبه إلى الأرض، ولما عرض عليه النبي ﷺ الدعوة قال: صارعني فإن أنت غلبتني آمنت أنك رسول الله، فصارعه الرسول فغلبه، فقيل إنه أسلم عقب ذلك(التاريخ الكبير رقم ١١٤٦) والمصاب بالصرع لا يكون على هذه القوة.

(5) من الأدلة المثبتة لمعرفتهم به ما ورد في الحديث عن عطاء بن أبي رباح قال قال لى ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة قلت بلى. قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ قالت إنى أصرع وإنى أتكشف فادع الله لى. قال إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله أن يعافيك. قالت أصبر. قالت فإنى أتكشف فادع الله أن لا أتكشف. فدعا لها (رواه البخاري ومسلم)

قال الحكيم: الرمي بالجنون مختلف عن الرمي بالصرع.. وأنت وهم وجميع العالم تعلمون أن تصرفات محمد ﷺ أبعد التصرفات عن تصرفات المجانين.

لعلك سمعت بالوليد بن المغيرة.

قال جيري فايتر: وكيف لا أسمع به، وقد كان من العقلاء الذي رفعوا ألوية المعارضة ضد محمد؟

قال الحكيم: ما دمت قد أقررت بعقله، فاسمع لشهادته، لقد حدث ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ أن الوليد ابن المغيرة اجتمع ونفر من قريش وكان ذا سن فيهم وقد حضر الموسم فقال: إن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فاجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويرد قول بعضكم بعضا، فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل، وأقم لنا رأيا نقوم به، فقال: بل أنتم فقولوا لأسمع فقالوا: نقول كاهن فقال: ما هو بكاهن لقد رأيت الكهان فما هو بزمزمة الكاهن وسحره فقالوا: نقول مجنون فقال: وما هو بمجنون ولقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته قال: فنقول شاعر قال: فما هو بشاعر قد عرفنا الشعر برجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر قال: فنقول: ساحر قال: فما هو ساحر قد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثه ولا عقده فقالوا: ما تقول يا ابا عبد شمس قال: والله ان لقوله لحلاوة وان أصله لمعذق وأن فرعه لجنى فما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل وأن أقرب القول لأن تقولوا ساحر فتقولوا هذا ساحر يفرق بين المرء وبين أبيه وبين المرء وبين أخيه وبين المرء وبين زوجته وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عند ذلك، فجعلوا يجلسون للناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره[1].

التفت إلى جيري فايتر، وقال: أنت ترى قومه قد احتاروا فيما ينسبوه إليه مما يصرف الناس عنه، فلو علموا أنه كان يصرع ويصيبه المصروع من تخبط يسكتون عن هذا.. خاصة وأنهم كانوا يعتبرون الصرع من الأمراض الشيطانية المنفرة؟

قال جيري فايتر: لعل قومه لم تكن لديهم معرفة مفصلة بالصرع، فلذلك توقفوا عن رميه به.

قال الحكيم: ولكنهم كانوا يعرفونه؟

قال جيري فايتر: ربما كانوا يعرفون نوعا واحدا.. فللصرع أنواع كثيرة.

قال الحكيم: فصفها لي لنرى مدى انطباقها على محمد ﷺ.

قال جيري فايتر: منها الصرع الأصغر، ومن أعراضه: السرحان.. وفقدان الذاكرة.. وفقدان الكلام، أو الكلام غير المفهوم.. وتوقف الجسم عن أي حركة تليها رمشات في العينين.. و+فقدان النشاط العادي.

ومنها الصرع الأكبر، ومن أعراضه تصلب في الجسم.. واحتقان في الوجه.. وهزات متكررة في الجسم كله.. ولعاب كثيف في الفم.. وعض للسان.

ومنها الصرع البؤري، ويكون المريض فيه في كامل وعيه، وقد يتذكر ما حصل له خلال النوبة، ومن أعراضه تشنجات حركية.. وتشنجات حسية.. وتخيلات مرئية أو سمعية أو شميه (هلاوس).. وإحساس داخلي

---

[1] رواه ابن اسحاق والبيهقي.

بالخوف.

قال الحكيم: أرى أن المنهج العلمي يستدعي أن نبحث من خلال ما ورد في حياة النبي ﷺ عما ينطبق على ما ذكرت من أعراض.

قال جيري فايتز: وذلك ما نفعله نحن.

الصرع الأصغر:

قال الحكيم: فلنبدأ بالصرع الأصغر، فقد ذكرت من أعراضه السرحان.. وفقدان الذاكرة.. وفقدان الكلام، أو الكلام غير المفهوم.. وتوقف الجسم عن أي حركة تليها رمشات في العينين.. وفقدان النشاط العادي.

قال جيري فايتز: ذلك صحيح.

قال الحكيم: فهل يمكن لرجل يتسم بكل هذا الضعف أن يؤسس أمة لا يزال لها وجود إلى اليوم؟

وهل يمكن لمن كان عاجزا عن الكلام، أو كان كلامه غير مفهوم أن يترك من التعاليم الممتلئة بالحكمة ما لم تزده الأيام إلا إثباتا؟

وهل يمكن لمن كان شارد الذهن أن تحمل حياته.. بل دقائق حياته وثوانيها.. من الأحمال ما تنوء به الجبال؟

إن الذي ذكرت لا ينجح في حياته البسيطة العادية، فكيف برجل حمل كل الأثقال، وتحمل كل المتاعب والمشاق، ولم تكن له في حياته لحظة من السكون والراحة.

لقد قال ربه يأمره بالتفرغ إليه في حال الراحة:﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)﴾ (الشرح)

وقال يخبره عن ليله:﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ)(المزمل: من الآية٢٠)

وقال يخبر عن عظم الأمانة التي تحملها:﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ (المزمل:٥)

فهل يمكن لمن حمل كل هذه الأثقال، فحملها خير حمل أن يكون بذلك الضعف والقصور؟

الصرع الأكبر:

سكت جيري فايتز، فقال الحكيم: أرى أن قومك ممن يرمون محمدا بالصرع يقصدون الصرع الأكبر، الذي ذكرت من أعراضه تصلب الجسم.. واحتقان الوجه.. وهزات متكررة في الجسم كله.. ولعاب كثيف في الفم.. وعض للسان.

قال جيري فايتز: أجل.. وأدل دليل على ذلك ما تسمونه بالوحي.. فما الوحي في نظرنا ــ معشر الأطباء ــ سوى نوبة من نوبات الصرع الأكبر.

قال الحكيم: إن هذا يستدعي النظر في هيئة الوحي الذي كان يعرض للنبي ﷺ، ومقارنة ذلك بما وصفت من أعراض الصرع الأكبر.

قال جيري فايتر: ذلك صحيح.

قال الحكيم: لقد ورد في النصوص ذكر أربعة أنواع من الوحي، وسنرى مدى علاقة هذه الأنواع بما ذكرت من أعراض.

قال جيري فايتر: فما **النوع الأول؟**

قال الحكيم: الرؤيا الصادقة، فقد روي ألها كانت مبدأ وحيه ﷺ، فعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت:(أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح)[1]

وواضح من قولها ــ رضي الله عنها ــ:(أول أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى) أن الرؤيا الصالحة كيفية من كيفيات الوحى.

بل قد ورد التصريح بذلك، ففي الحديث عن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ :(رؤيا الأنبياء وحى)[2]

بل قد نص القرآن على هذا عند ذكره لرؤيا إبراهيم عليه السلام فى المنام من ذبح ولده إسماعيل عليه السلام، قال تعالى:﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢)﴾ (الصافات)

ومن الرؤى التي رآها رسول الله ﷺ، وقص علينا القرآن الكريم قصتها ما نص عليه قوله تعالى:﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (لأنفال:٤٣)، ففى غزوة بدر واجه المسلمون المشركين فى أول واقعة حربية حاسمة، وكان المشركون ضعف عدد المسلمين، وقد وقعت رؤيا لرسول الله ﷺ شاهد فيها المشركين قلة قليلة، فأخبر أصحابه يومئذ بذلك، فكان ذلك تثبيتاً لهم.

ومن الرؤى التي قصها القرآن الكريم ما نص عليه قوله تعالى:﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ (الفتح:٢٧)، فقد أخبر الرسول ﷺ صحابته فى العام السادس للهجرة بأنه رأى المسلمين داخلين المسجد الحرام فى أمن تام مؤدين المناسك.

ولما سار المسلمون، ووصلوا إلى الحديبية لم يشك جماعة منهم أن الرؤيا النبوية تتحقق عامهم ذلك، وحين وقع ما وقع من صلح الحديبية تساءل عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتى

([1]) رواه البخاري.

([2]) رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره مرفوعا، ورواه موقوفاً على ابن عباس، الحاكم فى المستدرك، وقال صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبى، ورواه الطبرانى بإسناد رجاله ثقات سوى شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبى مريم فهو ضعيف كما قال الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٧٦/٧.

البيت فنطوف به؟ قال ﷺ: بلى، أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قال قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به[1].

وقد حصل تحقيق هذه الرؤية فى العام السابع، ففى ذى القعدة أدى الرسول ﷺ والمسلمون عمرة القضاء، ودخلوا مكة معتمرين.

التفت إلى جيري فايتر، وقال: هل ترى في هذا النوع من الوحي أي عرض من أعراض الصرع؟

سكت جيري فايتر، فقال: لا.. ولا يمكنك إلا أن تقول ذلك، وإلا لكان كل الخلق مصابين بالصرع..

قال رجل من القوم: فحدثنا عن النوع الثاني.

قال الحكيم: **النوع الثاني** من الوحي هو الإلهام والقذف فى القلب من غير رؤية ملك، وذلك بأن يلقى الله أو الملك الموكل بالوحى فى قلب النبي ﷺ ما يريد، مع تيقنه ﷺ أن ما ألقى إليه وحي من قبل الله تعالى.

وقد أشار إلى هذه الكيفية قوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً ﴾ (الشورى: من الآية٥١)

ومن الوحي المتنزل بهذه الصورة ما نص عليه قوله ﷺ:(ليس من عمل يقرب إلى الجنة إلا أمرتكم به، ولا عمل يقرب إلى النار إلا قد نهيتكم عنه، ولا يستبطئن أحد منكم رزقه، إن جبريل عليه السلام ألقى فى روعى أن أحداً منكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه فاتقوا الله أيها الناس، وأجملوا فى الطلب، فإن استبطأ أحد منكم رزقه فلا يطلبه بمعصية الله، فإن الله لا ينال فضله بمعصية)[2]

التفت إلى جيري فايتر، وقال: هل ترى في هذا النوع من الوحي أي عرض من أعراض الصرع؟

سكت جيري فايتر، فقال: لا.. ولا يمكنك إلا أن تقول ذلك، فكل إنسان يجد في ذهنه ــ أحيانا كثيرة ــ من الخواطر والأفكار ما لم يكن يخطر له على بال.

قال جيري فايتر: ولكني لا أسلم أن ذلك وحي من الله.

قال الحكيم: لا يهمني أن تسلم أو لا تسلم.. فتلك مسألة أخرى.. وهي تستدعي بحثا آخر.. فنحن الآن نناقش علاقة أنواع الوحي بالصرع الذي تذكره.

قال رجل من القوم: فحدثنا عن النوع الثالث.

قال الحكيم: **النوع الثالث** هو تكليم الله نبيه بما يريد من وراء حجاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ (الشورى:٥١)

وهو نفس الوحي الذي حصل لموسى ﷺ كما قال تعالى:﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً)(النساء: من الآية١٦٤)

وقد حصل هذا النوع من الوحي لنبينا محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج[3]، حيث كلمه ربه كفاحاً،

([1]) رواه البخاري ومسلم.

([2]) رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، ورواه الشافعى فى الرسالة وأبو نعيم فى الحلية.

([3]) ذكر بعضهم هنا التكليم في المنام، واستدل له بحديث معاذ ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ تأخر عنهم ذات غداة، فخرج عليهم وصلى وتجاوز فى صلاته، فلما سلم قال:(كما أنتم على مصافكم)، ثم أقبل إلينا فقال:(إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة، إني قمت من الليل فصليت ما قدر لي، فنعست في صلاتي حتى استيقظت فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة،

وفرض عليه الصلاة، وقد دل على هذا قوله تعالى:﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ (لنجم:١٠)

التفت الحكيم إلى جيري فايتر، وقال: هل ترى في هذا النوع من الوحي عرضا من أعراض الصرع؟

قال جيري فايتر: نعم.. فقد يرى المصروع أشياء قبل حصول صرعه.

قال الحكيم: فقد كان ما حصل لموسى ﷺ إذن نوع من الصرع.. فقد ورد حديث الله مع موسى ﷺ في التوراة.. سأقرأ عليك ما ورد من ذلك، فأنت كما ذكرت تؤمن بالكتاب المقدس، وتجمع بين الطب والدين في ذلك.

أخرج الحكيم الكتاب المقدس من جيبه، وراح يقرأ من (سفر الخروج: ٣/١-١٤):(وكانَ موسى يرعى غنَمَ يَترونَ حَميِّهِ كاهنِ مِديانَ، فساقَ الغنَمَ إلى ما وراءَ البرِّيَّةِ حتى وصَلَ إلى جبَلِ اللهِ حوريبَ. فتَراءى لَه مَلاكُ الرّبِّ في لَهيبِ نارٍ مِنْ وسَطِ العُلَّيقَةِ. ورأى موسى العُلَّيقَةَ تتوقَّدُ بالنَّارِ وهيَ لا تحتَرِقُ. فقالَ في نفْسِه: (أميلُ وأنظرُ هذا المَشهَدَ العظيمَ. ما بالُ العُلَّيقَةِ لا تحتَرقُ؟) ورَأى الرّبُّ أنَّهُ مالَ لِيَنظُرَ، فناداهُ مِنْ وسَطِ العُلَّيقَةِ: (مُوسى، مُوسى). فقالَ: (نعم). قالَ: (لا تقتَربْ إلى هُنا. إخلَعْ حِذاءَكَ مِنْ رِجلَيكَ، لأنَّ المَوضِعَ الَّذي أنتَ واقِفٌ علَيهِ أرضٌ مُقَدَّسَةٌ)، وقالَ: (أنا إلهُ آبائِكَ. إلهُ إبراهيمَ وإسحَقَ ويعقوبَ). فستَرَ موسى وجهَهُ خوفًا مِنْ أنْ يَنظُرَ إلى اللهِ. فقالَ لَه الرّبُّ: (نَظَرْتُ إلى مُعاناةِ شعبي الذينَ في مِصْرَ، وسَمِعْتُ صُراخهُم مِنْ ظُلْمِ مُسَخريهِم وعَلِمتُ بعَذابهِم، فنَزَلْتُ لأُنقِذَهُم مِنْ أيدي المِصْرِّيِّينَ وأُخرِجهُم مِنْ تِلكَ الأرضِ إلى أرضٍ رَحْبةٍ تَدرُّ لَبَنًا وعسَلاً، إلى موَطِنِ الكنعانيِّينَ والحِثِّيِّينَ والأمُوريِّينَ والفَرزِّيِّينَ والحِوِّيِّينَ واليَبوسيِّينَ. والآنَ ها صُراخ بَني إسرائيلَ وصَلَ إليَ ورأيتُ كيفَ يَجورُ المِصْرِيُّونَ علَيهِم، فتَعالَ أُرسِلُكَ إلى فِرعَونَ لِتُخرج شعبي بَني إسرائيلَ مِنْ مِصْرَ). فقالَ موسى للهِ: (مَنْ أنا حتى أذهبَ إلى فِرعَونَ وأُخرج بَني إسرائيلَ مِنْ مِصْرَ؟) قالَ: (أنا أكونُ معَكَ، وهذِهِ علامَةٌ لكَ على أنّي أنا أرسَلْتُكَ: إذا أخرَجتَ الشَّعبَ مِنْ مِصْرَ، فاعبُدوا اللهَ على هذا الجبَلِ) فقالَ موسى للهِ: (إذا ذهَبْتُ إلى بَني إسرائيلَ وقلتُ لهُم: إلهُ آبائِكُم أرسلَني إليكُم، فإنْ سألوني ما اَسمُهُ؟ فماذا أُجيبُهُم؟) فقالَ اللهُ لِموسى: (أنا هوَ الذي هوَ. هكذا تُجيبُ بَني إسرائيلَ: هوَ الذي هوَ أرسلَني إليكُم)

التفت إلى جيري فايتر، وقال: فهل تعتبر ما حصل لموسى ﷺ نوبة من نوبات الصرع؟

سكت جيري فايتر، فقال الحكيم: إن لم تعتبره من الصرع، فلا يحق لك أن تعتبر ما حصل لنبينا ﷺ من الصرع.

قال جيري فايتر: ولكن موسى كان نبيا.

قال الحكيم: ونحن نعتبر محمدا ﷺ كذلك نبيا..

سكت جيري فايتر، فقال الحكيم: لننتقل إلى **النوع الرابع** من أنواع الوحي، وهو نزول الملك وتكلمه مع

فقال: يا محمد أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى، قلت: لا أدرى يا رب... الحديث(رواه أحمد والترمذى وقال: حسن صحيح، سألت البخاري عن هذا الحديث، فقال: هذا حديث حسن صحيح)

وهذا النوع يدخل فيما ذكرناه من الوحي عن طريق الرؤى المنامية.

أما الحديث الذي استدلوا به، فنرى التوقف في صحته، فلم نر نصا واحدا صحيحا يثبت ما أثبته هذا النص من التشبيه، فإما أن يكون الحديث صحيحا تصرف الرواة في ألفاظه، وإما أن لا يكون صحيحا أصلا.. والله أعلم.

رسول الله ﷺ..

وفي هذه الحالة إما أن يتمثل له الملك في صورة رجل، فيكلمه كما يكلم البشر بعضهم بعضا، كما حصل للأنبياء قبله ﷺ، فقد ذكر الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أن الملائكة قدموا عليه، فقدم لهم عجلاً حنيذاً، ولم يعرف أنهم ملائكة إلا حين أفصحوا له عن حقيقة أمرهم، قال تعالى:﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨)﴾ (الذاريات)

وأخبر تعالى أن الملائكة ـــ عليهم السلام ـــ أتوا لوطا عليه السلام في صورة شباب حسان، قال تعالى:﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (هود:٧٧)

وأخبر تعالى أن الله أرسل إلى مريم البتول ـــ عليها السلام ـــ جبريل عليه السلام في صورة بشر سوى يبشرها باصطفائها واصطفاء وليدها، قال تعالى:﴿ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾ (مريم:١٧)

وعلى هذا الأسلوب من أساليب الوحي كان جبريل عليه السلام يتنزل على محمد ﷺ متخذا صورة رجل، بحيث يراه النبي ﷺ وحده ويكلمه بما أراد فيعي عنه ما يقول، ويدل على ذلك قوله ﷺ، لما سئل كيف يأتيك الوحي؟ قال:(وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول)[1]

وقد يظهر الملك المتشكل في صورة رجل للعيان، فيراه الناس ويسمعون كلامه للنبي ﷺ، كما ورد في الحديث أن جبريل عليه السلام جاء للنبي ﷺ، وسأله عن الإيمان والإسلام والإحسان والساعة، وفي نهايته قال ﷺ :(يا عمر! أتدرى من السائل؟) قلت: الله ورسوله أعلم. قال:(فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)[2]

ومن الأحوال النادرة لهذا النوع من الوحي أن يأتي جبريل عليه السلام للنبي ﷺ في صورته التي خلقه الله عليها، وقد ورد في النصوص ذكر مرتين فقط لهذه الحالة[3].. والتي رأى فيها النبي ﷺ جبريل عليه السلام على صورته الملائكية التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح، كل جناح قد سد الأفق. مرتين:

أما المرة الأولى، فكانت في الأرض، كما روي في الحديث عن جابر بن عبد الله ـــ رضي الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ قال ـــ عند حديثه عن فترة الوحي ـــ:(بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت، فقلت: دثروني، وصبوا على ماء بارد، وأنزل الله على:﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢)﴾ (المدثر)

وقد أشار إلى هذه الصورة قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ (التكوير:٢٣)

أما المرة الثانية، فقد حصلت في السماء عند سدرة المنتهى ليلة المعراج، وقد نص عليها قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ

([1]) رواه البخاري ومسلم.

([2]) رواه البخاري ومسلم.

([3]) وهاتان الحالتان لم تذكرا بصيغة الحصر، ولهذا لا نرى مانعا من أن يكون النبي ﷺ قد رأى جبريل عليه السلام غير هاتين المرتين، وما روي عن عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ مرفوعاً:(لم أره على صورته التي خلق عليها إلا مرتين)، فهي إخبار منه ﷺ عن عدد المرات وقت حديثه بالحديث.

رَآَهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧)﴾(النجم)

أما الحالة الثالثة المرتبطة بهذا النوع من الوحي، فهي أن يأتى جبريل عليه السلام على صورته الملائكية من غير أن يرى، أى أنه يأتى خفية فيتلبس بالنبى ﷺ ويتغشاه.

ويصحب مجيئه في هذه الحالة شدة يراها كل من حضر الوحي، ويكون مجئ الملك بصوت يشبه صلصلة الجرس، فيوحى إليه بما شاء الله وحيه، وقد دل على ذلك قوله ﷺ لما سئل كيف يأتيك الوحى؟ قال:(أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده على فيفصم عنى، وقد وعيت عنه ما قال)[1]

وفى رواية: سئل ﷺ هل تحس بالوحى؟ فقال:(أسمع صلاصل، ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسى تقبض)[2]

ووصفت عائشة ــ رضي الله عنها ــ حاله عند نزول الوحي، فقالت:(ولقد رأيته يترل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً)[3]

التفت الحكيم إلى جيري فايتر، وقال: أظن أن هذا هو ما كنت تبحث عنه.

قال جيري فايتر: أجل.. فهذه الحالة لا أتصور إلا أنها صورة من صور الصرع، أو عرض من أعراضه.

قال الحكيم: قبل أن أناقشك في هذا اسمح لي أن أقرأ عليك ما ورد في الإنجيل عن المسيح عليه السلام.. فقد جاء فيه:(ثُمَّ انْطَلَقَ وَذَهَبَ كَعَادَتِهِ إِلَى جَبَلِ الزَّيْتُونِ، وَتَبِعَهُ التَّلاَمِيذُ أَيْضاً. وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الْمَكَانِ، قَالَ لَهُمْ: صَلُّوا لِكَيْ لاَ تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ وَابْتَعَدَ عَنْهُمْ مَسَافَةً تُقَارِبُ رَمْيَةَ حَجَرٍ، وَرَكَعَ يُصَلِّي قَائِلاً: يَاأَبِي، إِنْ شِئْتَ أَبْعِدْ عَنِّي هَذِهِ الْكَأْسَ. وَلكِنْ، لِتَكُنْ لاَ مَشِيئَتِي بَلْ مَشِيئَتُكَ. وَظَهَرَ لَهُ مَلاَكٌ مِنَ السَّمَاءِ ليقويه. وَإِذْ كَانَ فِي صِرَاعٍ، أَخَذَ يُصَلِّي بِأَشَدِّ إِلْحَاحٍ؛ حَتَّى إِنَّ عَرَقَهُ صَارَ كَقَطَرَاتِ دَمٍ نَازِلَةٍ عَلَى الأَرْضِ) (لوقا ٢٢: ٤٣)

أنت ترى في هذا النص المسيح عليه السلام يظهر له الملاك، وأن عرقه صار يترل كقطرات الدم.. ألا ترى أن هذا وصف مقارب للوحي الذي كان يترل على رسول الله ﷺ؟

سكت جيري فايتر، فقال الحكيم: لن أحدثك كرجل دين.. بل سأحدثك كطبيب، فأجبني.. أليست الحمى عرضا من أعراض التهاب اللوزتين؟

قال جيري فايتر: بلى.. ما تقوله صحيح.

قال الحكيم: أرأيت لو أن طبيبا كسولا راح يقيس حرارة كل من يأتي إليه من المرضى، فإذا وجد حرارة أي مريض مرتفعة اعتبره مريضا بالتهاب اللوزتين.. ووصف له دواء ذلك؟

قال جيري فايتر: هذا طبيب جاهل.. فالحمى عرض لأمراض كثيرة.. ولا يمكن أن يعرف أحد نوع المرض إلا بعد التشخيص الدقيق.

---

(1) رواه البخاري ومسلم.
(2) رواه أحمد.
(3)رواه البخاري ومسلم.

قال الحكيم: فأخبر جميع الأطباء الذين نسبوا لرسول الله ﷺ ما نسبوا من الأمراض عن جهلهم.. فقد استدلوا بالعرض وحده من غير أن يقوموا بأي تشخيص.

قال جيري فايتر: أنى لهم أن يقوموا بالتشخيص.. ومحمد ليس بينهم.

قال قال الحكيم: فكيف حكموا عليه إذن.. أم أنكم تعالجون في بلادكم المرضى غيابيا.

سكت جيري فايتر، فقال الحكيم: لا بأس.. فلنعتبر كل ما تذكره صحيحا، ولنحاول أن ننظر فيما يصدر من المصروعين.. وندرسه دراسة متأنية، ونقارنه بما جاء به محمد ﷺ.. هل ترى هذا المنهج صحيحا؟

قال جيري فايتر: نعم.. هذا منهج صحيح.. ونحن نمارسه في كل بحوثنا ودراساتنا.

قال الحكيم: ألست تعلم أن المريض في حالة الصرع تمر بذهنه ذكريات أو أحلام مرئية أو الاثنان معا.

قال جيري فايتر: أجل، ونحن نسميها بالهلاوس.

قال الحكيم: ألم يثبت الطب أن الذكريات التي تمر بالمريض لابد أن يكون قد عاش فيها المريض نفسه حتما.

قال جيري فايتر: أجل.. فالنوبة الصرعية ما هي إلا تنبيه لصورة أو صوت مر بالإنسان ثم احتفظ به في ثنايا المخ، وقد أمكن طبيا أجراء عملية التنبيه هذه بوساطة تيار كهربائي صناعي سلط على جزء خاص في المخ، فشعر المريض بنفس الهلاوس التي تنتابه في أثناء نوبة الصرع، وكلما تكررت نوبة الصرع تكررت نفس الذكريات أو الهلاوس فهذا مريض يسمع أغنية أو قطعة من شعر، أو حديثا من أي نوع كان في نوبة صرعه، ويتكرر سماعه لها في كل نوبة، ولابد أن يكون ما سمعه في النوبة قد سمعه يوما في طفولته. أو شبابه، أو قبل مرضه، وكذلك إذا كانت النوبة تثير منظرا لابد أن يكون قد مر عليه.

قال الحكيم: بتطبيق ما ذكرته مما توصل إليه الطب الحديث في حقائق الصرع على ما يعتري النبي ﷺ نجده يردد آيات لا يمكن إطلاقا أن يكون قد سمعها من قبل في حياته.

فهل رأيت مصروعا في الدنيا نطق ــ في حال صرع ــ بما نطق به محمد من الكلام الذي لا زالت الدنيا محتارة في أسرار إعجازه؟

سكت جيري فايتر، فقال الحكيم: أنت تعلم أن كل مصروع ينسى ما حدث له أثناء النوبة [1]..

قال جيري فايتر: وقد يذكره.

قال الحكيم: إذا ذكره، فإنه يتألم لذكره.. ويتمنى لو شفي من حالته.. بل يبذل أمواله من أجل ذلك [2]..

([1]) ورد في كتاب (الموسوعة العربية الميسرة) أن مريض الصرع يمكن أن يرى شبحاً، ويسمع صوتاً أو يشم رائحة ويعقب ذلك وقوع المريض صارخاً على الأرض، وفاقداً وعيه ثم تتملكه رعدة تشنجية تتصلب فيها العضلات، وقد يتوقف فيها التنفس مؤقتاً... ويعقب النوبة خور فى القوى، واستغراق فى النوم يصحو منه المريض خالى الذهن من تذكر ما حدث له (الموسوعة العربية الميسرة ليوسف إلياس سركيس)

([2]) يصاب مريض الصرع بآلام حادة في كافة أعضاء جسمه يحس بها إذا ما انتهت نوبة الصرع، ويظل حزينا كاسف البال بسببها، وكثيرا ما يحاول مرضى الصرع الانتحار من قسوة ما يعانون من آلام في النوبات فلو كان ما يعتري النبي ﷺ عند الوحي صرعا لأسف لذلك وحزن لوقوعه ولسعد بانقطاع هذه الحالة عنه، ولكن الأمر كان على خلاف ذلك.

أما محمد ﷺ، فكان أحب الأشياء إليه رؤية ملاك الوحي، وقد روي أن رسول الله ﷺ قال لجبريل عليه السلام:(ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟)، فترل قوله تعالى:﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ (مريم:٦٤)

الصرع البؤري:

سكت جيري فايتر، فقال الحكيم: أرى أن هذا النوع من الصرع كان أبعد الأمراض عن محمد ﷺ.. وكان ﷺ أبعد الناس عنه.. فلننتقل إلى النوع الثالث من أنواع الصرع.. والذي سميته الصرع البؤري، وذكرت أن المريض فيه يكون في كامل وعيه، وقد يتذكر ما حصل له خلال النوبة، ومن أعراضه تشنجات حركية.. وتشنجات حسية.. وتخيلات مرئية أو سمعية أو شميه (هلاوس).. وإحساس داخلي بالخوف.

والرد على هذا مثل الرد على ما سبق.. فهذه حالة مرضية، أما ما كان يعرض للنبي ﷺ، فقد كان من أعلى مظاهر الصحة والكمال.. فقد كان ﷺ أكمل البشر عقلاً، وأشدهم فطنة، وأصوبهم قولاً، وأحكمهم فعلاً، وقد تحدى الله المشركين الذين عرفوه وعايشوه وخبروا حاله أن يثبتوا عليه جنوناً أو اختلال عقل، فلم يفعلوا، ولو وجدوا ما سكتوا قال تعالى:﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (سـبأ:٤٦)

فهذه الآية الكريمة تقول لجميع أعداء محمد ﷺ في جميع فترات التاريخ:(ها هو ذا تاريخ محمد ﷺ وأحاديثه، وسننه، وآدابه، وأخلاقه، وشريعته، تحت أنظاركم فانظروا وتفكروا من غير هوى ولا عصبية فى جوانب ذلك كله، واستخرجوا منه ـ ولن تستطيعوا ـ ما يقيم عوج دعاواكم، وأفك أباطيلكم، ولكنكم علمتم أن محمداً ﷺ معصوم بعصمة الله عز وجل، الذى أرسله ليقوض بنيان الكفر والنفاق، ويهدم صرح الإلحاد)[1]

لقد فتر الوحي عن الرسول مدة فحزن لذلك حزنا شديدا، وكان يذهب إلى غار حراء وقمم الجبال عسى أن يعثر على الملك الذي جاء بحراء وبقي محزون النفس من هذه الحالة حتى سرى عنه ربه يوصل ما أنفصم من الوحي.

([1]) محاسن التأويل للقاسمى.

٢ ــ أمراض نفسية

قال رجل من القوم: لقد أجبته عن شبهة الأمراض العصبية، فأجبه عن شبهة الأمراض النفسية.

قال جيري فايتر: أجل.. فإن سهل عليك أن تجيب عن ذلك النوع من الأمراض، فإنه يستحيل عليك أن تجيب عن هذا النوع منها.

فإن طلبت الدليل، فلن يعز علي طلب الدليل.. لقد قال المستشرق بروكلمان[١] ــ وهو الخبير العارف بالتاريخ ــ عن علاقة محمد بهذا النوع من الأمراض:(بينما كان بعض معاصرى النبى، كأمية بن أبى الصلت[٢]، شاعر الطائف، وهى بلدة بحذاء مكة، يكتفون بوحدانية عامة، كان محمد يأخذ بأسباب التحنث والتنسك، ويسترسل فى تأملاته حول خلاصة الروحى، ليالى بطولها فى غار حراء قرب مكة، لقد تحقق عنده أن عقيدة مواطنيه الوثنية فاسدة فارغة، فكان يضج فى نفسه هذا السؤال، إلى متى يمدهم الله فى ضلالهم، مادام هو عز وجل قد تجلى، آخر الأمر، للشعوب الأخرى بواسطة أنبيائه؟ وهكذا نضجت فى نفسه الفكرة أنه مدعو إلى أداء هذه الرسالة، رسالة النبوة، ولكن حياءه الفطرى حال بينه وبين إعلان نبوته فترة غير قصيرة، ولم تتبد شكوكه إلا بعد أن خضع لإحدى الخبرات الخارقة فى غار حراء، ذلك بأن طائفاً تجلى له هنالك يوماً، هو الملك جبريل، على ما تمثله محمد فى ما بعد، فأوحى إليه أن الله قد اختاره لهداية الأمة، وآمنت زوجه فى الحال برسالته المقدسة، وتحرر هو نفسه من آخر شكوكه بعد أن تكررت الحالات التى ناداه فيها الصوت الإلهى وتكاثرت، ولم تكد هذه الحالات تنقضى حتى أعلن ما ظن أنه قد سمعه كوحى من عند الله) [٣]

ابتسم الحكيم، وقال: إن ما ذكره هذا المؤرخ لا يختلف كثيرا عما رمى به القرشيون محمدا ﷺ.. فقد اعتبروا النبى ﷺ رجلاً ذا خيال واسع وإحساس عميق، فهو إذن شاعر، ثم زادوا فجعلوا وجدانه يطغى كثيراً على حواسه، حتى يخيل إليه أنه يرى ويسمع شخصاً يكلمه؛ وما ذاك الذى يراه ويسمعه إلا صورة أخليته ووجد آناته، فهو إذن الجنون أو أضغاث الأحلام.

قال جيري فايتر: إن ما تقوله لا يزيد ما قاله بروكلمان وإخوانه المستشرقون إلا تأكيدا.

قال الحكيم: إن هذا الاعتراض يمكن أن يوجه لأي نبي من الأنبياء الذي تؤمن بنبوتهم.. فموسى عليه السلام كان رجلا يحلم بإنقاذ قومه.. فلذلك تخيل ذلك الوحي.. ثم انطلق منه ليدعي النبوة، ويصبح نبيا لبني إسرائيل.

والمسيح كان يسمع في الأحياء اليهودية اسم المسيح يردد صباح مساء.. فحلم بأن يصير مسيحا، فصار مسيحا..

---

(١) هو مستشرق ألماني، تعلم اللغة العربية، وكان عالماً بتاريخ الأدب العربي، وعضو المجمع العربي. مات سنة ١٩٥٦م من آثاره: تاريخ الأدب العربي، وتاريخ الشعوب الإسلامية، وغيرها.

(٢) هو أمية بن عبد الله بن أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفى، شاعر جاهلى من أهل الطائف، فى شعره حكم، اطلع على الكتب القديمة، وقد لقى النبى ﷺ، ولم يؤمن به، مات سنة ٥هــ على خلاف فى ذلك.

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية ص٣٦.

قال جيري فايتر: ولكن من ذكرتهم أيدوا بمعجزات خارقة دلت على صدق دعواهم.

قال الحكيم: ومحمد ﷺ أيد بأضعاف ما أيدوا به.. بل لا تزال الدلائل الدالة عليه حية ناضجة بالحياة..

قال جيري فايتر: فلنفرض أني تخليت عن المسيح وموسى وسائر الأنبياء.. فخاطبني كطبيب لا كرجل دين.

قال الحكيم: هل رأيت في حياتك.. أو في حياة البشر جميعا.. رجلا أميا في بيئة أمية حلم بأن يصير عالما يبز كل العلماء بعلمه، فتحقق له حلمه من غير أي سبب اكتسبه، ولا حيلة احتالها؟

قال جيري فايتر: لم يحدث ذلك..

قال الحكيم: فقد اشتمل الوحى الإلهى الذى بلغه رسول الله ﷺ ــ سواء كان قرآناً أو سنة ــ على أسرار فى الكون والأنفس والآفاق، ما كانت تخطر على بال بشر قط و لم يظهر تأويلها إلا بعد تقدم العلوم والمعارف فى العصر الأخير، فكيف تكون هذه الأسرار من داخل نفس النبى ﷺ، وهى لم تخطر له على بال[1].

ثم.. هل كان الدين الذى جاء به محمد ﷺ بعقائده وتشريعاته فى العبادات والمعاملات، والحدود، والجنايات، والاقتصاد، والسياسة، والأخلاق والآداب، وأحوال السلم والحرب، مركوزاً فى نفسه ﷺ كل تلك المدة لم يبح به حتى بلغ تلك السن.. مع العلم أن كل ما جاء به ﷺ وما بلغه من وحى الله من المعارف يعتبر مناقضاً لكل ما كان سائداً فى العالم حينئذ، من عقائد، كالوثنية، والمجوسية، والتأليه، والتثليث، والصلب، وإنكار البعث، واليوم الآخر.

ثم.. هل يمكن للأحلام النفسية أن تصنع التاريخ.. وهل يمكن لأحد أن يقول: إن التاريخ يمكن وضعه بإعمال الفكر، ودقة الفراسة؟.. أم أنك ترى أن محمداً قد عاصر تلك الأمم الخالية، وتنقل فيها قرناً قرناً، فشهد هذه الوقائع مع أهلها شهادة عيان أو أنه ورث كتب الأولين، فعكف على دراستها حتى أصبح من الراسخين فى علم دقائقها؟

سكت قليلا، ثم قال: لقد رد القرآن الكريم على هذه الشبهة، فبين أن الوحي ليس نابعاً من نفس النبي ﷺ، بل هو أمانة حملها جبريل عليه السلام من عند الله إليه، قال تعالى:﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥)﴾(الشعراء)، وقال تعالى:﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآَهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨)﴾ (التكوير)

التفت إلى جيري فايتر، وقال: إن هذه الآيات الكريمة تخاطبكم بكل الدلائل، فهي تذكر أن ما رآه محمد ﷺ ملاك حقيقي أرسله الله إليه ليبلغ وحيه..

حلل تلك النصوص بما شئت من صنوف التحليل، فلن تجد فيها إلا الصدق والحقيقة.

قال جيري فايتر: وما أدرانا.. ونحن لم نر و لم نسمع.

([1]) المدخل لدراسة القرآن للدكتور محمد أبو شهبة.. وانظر رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

قال الحكيم: إنك بهذا المنطق تقضي على كل المعارف والعلوم.. أليس مبدأ التعامل في كل شيء هو الثقة.. أليس الذي ذهب إلى القمر، ووطئت قدماه على القمر ثلة محدودة من الناس.. ولكنا نصدقهم في كل ما ذكروه ابتداء من صعودهم وانتهاء بمشاهداتهم.

قال جيري فايتر: ولكن الصور التي قدموا بها أكبر دليل على صدقهم.

قال الحكيم: أنت ترى أن مصانع الفنون تبدع من الصور ما يحيل الخيال حقيقة.. فهل تصدق كل ما ذكرته تلك المصانع.

قال جيري فايتر: ولكن تلك المصانع لم تدع أن ما صنعته حقائق.. بل هي تحذر من اعتبارها حقائق.

قال الحكيم: فلم اعتبرت ما ذكره رواد الفضاء حقائق، وما ذكره صانعو الأفلام خيالا؟

قال جيري فايتر: لقد صدقت كليها فيما ذكره عن نفسه.

قال الحكيم: فقد رجع الأمر إذن إلى أنك وثقت في الطرفين؟

قال جيري فايتر: ذلك صحيح.

قال الحكيم: فاستعمل نفس الأسلوب مع نبينا محمد ﷺ..

قال جيري فايتر: ولكنه لم يأت بأي صور.

قال الحكيم: لقد أتانا بحقائق أعظم بكثير من الصور.. وهي حقائق لا يمكن لأي ذكي في الدنيا أن يجتنيها بذكائه، ولا لأي محتال أن يقتنصها بحيلته.

سكت جيري فايتر، فقال الحكيم: ومن الردود التي رد بها القرآن الكريم على هذه الشبهة ذكره لعدم استشراف النبي ﷺ للنبوة.. فالنبي ﷺ لم يكن يستشرف للنبوة، وما كان يرجوها، ولم يطمع فى حصولها له، بل لم يرد فى الأخبار الصحيحة أنه ﷺ يرجو أن يكون هو النبى المنتظر الذى يتحدث عنه علماء اليهود والنصارى قبل البعثة، ولو ثبت ذلك عنه لما ترك المحدثون تدوينه، وقد دونوا ذلك عن أمية بن أبى الصلت، لما كان يتوقع أن يكون نبياً.

قال تعالى مقررا هذه الحقيقة:﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ) (القصص:٨٦)، فما كان ﷺ يظن أن الوحي قبل إنزاله عليه، يترل عليه، وإنما أنزله الله رحمة به وبالعباد، فهو نعمة من الله وفضل.

قال جيري فايتر: واختلاؤه بغار حراء؟

قال الحكيم: ذلك شيء آخر.. وذلك شيء لا يمكن لأحد في الدنيا أن يعرف سره.. فالله تعالى أعد نبيه إعدادا خاصا لهذه الوظيفة العظيمة التي تنوء بحملها الجبال.

ألا ترى كيف مهد الله لتربية نبيه موسى u بأن فر بنفسه، ورعى الغنم، وحصل له من البلاء ما حصل.. ليكون كل ذلك زادا يعينه في الوظيفة التي أعد لها؟

لم يجد جيري فايتر ما يجيب به، فأخرج ورقة صغيرة من جيبه، طالعها بسرعة، ثم قال: نعم.. نعم.. لقد نسيت أن أذكر لك الدليل الذي ينهار أمامه كل ما ذكرت من أدلة..

إن الثابت علميا أن المنتحر لا ينتحر إلا بعد تعرضه لمرض نفسي خطير كالاكتئاب ونحوه.. وبما أن محمدا حاول الانتحار مرات عديدة، فهذا دليل على أنه مصاب بمرض نفسي.

ابتسم الحكيم، وقال: ومن أين عرفت أنه حاول الانتحار، ومن تدخل لينقذه من محاولة انتحاره؟

قال جيري فايتز: لقد روي هذا عن محمد.. لقد حدث الزهرى بلاغاً عن فترة الوحي، فقال: وفتر الوحى فترة حتى حزن النبى ﷺ ــ فيما بلغنا ــ حزناً غدا منه مراراً، كى يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل، لكى يلقى منه نفسه، تبدى له جبريل فقال: يا محمد، إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحى غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له: مثل ذلك[1].

ابتسم الحكيم، وقال: ليس كل ما يروى في التاريخ يصح قبوله.

قال جيري فايتز: وليس كل ما يروى في التاريخ يمكن رفضه.

قال الحكيم: فلنحتكم إلى أهل التاريخ أنفسهم لنرى مدى صدق هذه الرواية.

إن راوي هذه الرواية يقول:(حزن النبى ﷺ، فيما بلغنا)، والقائل (فيما بلغنا) هو الإمام الزهرى.. و لم يكن من أصحاب النبي ﷺ.. وإنما كان يتلقى حديثه ممن صحبوه أو من التابعين، وقد قال فيه يحيى بن سعيد القطان: مرسل الزهرى شر من مرسل غيره، لأنه حافظ، وكلما قدر أن يسمى سمى! وإنما يترك من لا يستجيز أن يسميه.. وهذه الزيادة من هذه القبيل، حيث أنها منقطعة قد رواها الزهرى بلاغاً، وهو من صغار التابعين، وجل روايته عن كبار التابعين، وأقلها عن صغار الصحابة، فكيف بالكبار منهم، لاسيما من شهدوا بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ.

وبناء على ذلك، فلا سند يعتمد عليه، ولعل البخارى وغيره ممن أخرج هذه الزيادة أرادوا بذلك التنبيه إلى مخالفتها لما صح من حديث بدء الوحى الذى لم تذكر فيه هذه الزيادة، وخصوصاً أن البخارى لم يذكر هذه الزيادة فى بدء الوحى، ولا التفسير، وإنما ذكرها فى التعبير.

ويؤيد ما سبق، أن الأئمة الحفاظ يذكرون عقب هذه الزيادة حديث جابر الصحيح فى فترة الوحى إلى الزهرى بنفس السند الذى يروونه عنه فى حديث عائشة الأول، ويفهم من صنيعهم ذلك: أن الزهرى نفسه كان يحدث بحديث جابر عقب حديث عائشة.

ففى مصنف عبد الرزاق بعد فراغه من حديث عائشة: قال معمر، قال الزهرى، فأخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ، وهو يحدث عن فترة الوحى، فقال فى حديثه: (بينما أنا أمشى سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسى، فإذا الذى جاءنى بحراء جالساً على كرسى بين السماء والأرض، فجُئِثْتُ[2] منه رعباً، ثم رجعت، فقلت: زملونى، زملونى، ودثرونى، فأنزل الله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ

---

(1) رواه عبد الرزاق.

(2)فى بعض الروايات (فجثثت) بمثلثة بدل الهمزة، ومعناهما: فزعت منه، وخفت، وذعرت، وقيل: معناه: قلعت من مكانى. النهاية: ١/٢٣١، ٢٢٥.

(١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧)﴾ (المدثر)

وكذلك البخارى ذكر حديث عائشة فى بدء الوحى عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة إلى قولها: ثم لم ينشب ورقة أن توفى، وفتر الوحى، ثم قال عقبة: قال ابن شهاب: وأخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصارى قال... فذكر الحديث بنحو رواية عبد الرزاق، غير أنه زاد فى آخره: (فحمى الوحى وتتابع)[1]

وقد علق الحافظ ابن حجر على هذا بقوله: (قال ابن شهاب: وأخبرنى أبو سلمة) إنما أتى بحرق العطف، ليعلم أنه معطوف على ما سبق، كأنه قال: أخبرنى عروة بكذا، وأخبرنى أبو سلمة بكذا، وأخطأ من زعم أن هذا معلق، وإن كانت صورته صورة التعليق، ولو لم يكن فى ذلك إلا ثبوت الواو العاطفة، فإنها دالة على تقديم شئ عطفته ــ وهو حديث عائشة المتقدم ــ ثم قال ابن شهاب ــ أى بالسند المذكور ــ وأخبرنى أبو سلمة بخبر آخر، وهو حديث جابر عن فترة الوحى)[2]

وكذلك فعل أحمد فى مسنده، مع أنه قد جمع فى مسنده مرويات كل صحابى على حده، دون الالتزام بالوحدة الموضوعية للأحاديث، لكنه لما روى حديث عائشة المتقدم عن عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى، قال: فذكر حديثاً لعله يشير إلى حديث جابر الذى أخرجه قبل ذلك فى المسند[3].

وكذلك صنع مسلم، وابن حبان فى صحيحيهما عقب إخراجهما لحديث عائشة ــ رضي الله عنها ــ فدل هذا كله، على أن ابن شهاب الزهرى كان يحدث بالحديثين معاً، كما روى عنه غير واحد مما سبق بيانه، وأن الصواب فى رواية حديث عائشة بدون تلك الزيادة، كما أخرجه مسلم، والبخارى فى بعض مواضعه، وغيرهما.

قال جيري فايتز: فلنسلم بما ذكرت من حديث الزهري، فهو تابعي قد لا يكون الحديث بلغه بصورة صحيحة.. فما تقول فيما روى عن ابن عباس من قوله:(مكث النبى ﷺ أياماً بعد مجئ الوحى لا يرى جبريل، فحزن حزناً شديداً حتى كان يغدو إلى ثبير مرة، وإلى حراء أخرى، يريد أن يلقى نفسه)

قال الحكيم: هذا الحديث غير مسلم تاريخيا مثل ذاك.

قال جيري فايتز: أتشكك في كون ابن عباس صحابيا؟.. لو سمعك الغلاة في الصحابة لطعنوك بسيوفهم.

قال الحكيم: أنا لا أشكك في صحبة ابن عباس، فهو حبر هذه الأمة وعالمها، ولكني أشكك فيمن روى عن ابن عباس.. فالحديث الذي ذكرته من رواية الواقدى[4]، وهو معروف بالضعف، لا يقبل الجهابذة من

([1]) رواه البخاري.

([2]) فتح البارى: ١/٣٧.

([3]) انظر: المسند: ٣/٢٣٢، ٢٣٣.

([4]) هو: محمد بن عمر بن واقد الواقدى، قاضى العراق، رغم دقته فى المغازى وإمامته فيها إلا أنهم ضعفوه فى الحديث، قال الذهبى: الواقدى وإن كان لا نزاع فى ضعفه، فهو صادق اللسان، كبير القدر، وقال: ابن حجر: متروك مع سعة علمه، من أشهر مؤلفاته: المغازى، والردة، مات سنة ٢٠٧هــ له ترجمة فى: لسان الميزان ٩/٥٣١.

المحدثين روايته إلا إذا اعتضدت بروايات الثقات.

قال جيري فايتز: فلنسلم بما ذكرت من ضعف الرواية عن ابن عباس، ولكن ما تقول في القرآن.. وما تقول في هذه الآية التي تخبر عن محاولة محمد الانتحار بسبب تكذيب قومه له.. لقد جاء فيها:﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (الشعراء:٣)، وفي آية أخرى:﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً) (الكهف:٦)؟

ابتسم الحكيم، وقال: هاتان الآيتان لا تشيران أبداً إلى معنى الانتحار، بل هما تعبير أدبي عن شدة حزن النبي ﷺ بسبب صدود قومه عن الإسلام، وإعراضهم عن الإيمان؛ وهما تبينان كيف كان اهتمام الرسول الكريم ﷺ بدعوة الناس إلى الله، وحرصه الشديد على إخراج الكافرين من الظلمات إلى النور.

وهذا خاطر طبيعي للنبي الإنسان البشر الذي يعلن القرآن على لسانه ﷺ اعترافه بأنه بشر في قوله ــ رداً على ما طلبه منه بعض المشركين ــ:﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣)﴾(الإسراء)

انظر.. لقد أمر النبي ﷺ بأن يرد عليهم متعجبا مما طلبوه ومؤكداً أنه بشرٌ لا يملك تنفيذ مطلبهم:﴿ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾

٣ ـــ أمراض روحانية

قال رجل من القوم: لقد أجبته عن شبهة الأمراض العصبية والنفسية، فأجبه عن شبهة الأمراض الروحانية.

قال جيري فايتر: أجل.. فإن سهل عليك أن تجيب عن ذلك النوع من الأمراض، فإنه يستحيل عليك أن تجيب عن هذا النوع منها.

فإن طلبت الدليل، فلن يعز علي طلب الدليل.. ولن أستشهد هنا بما قال المستشرقون.. لا بروكلمان.. ولا غير بروكلمان.. بل سأستشهد بتاريخ محمد نفسه.. التاريخ الذي روي في كتب التفسير.

الشيطان:

لقد روى المفسرون أنه بعد نزول:﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى) (لنجم:١٩) ألقى الشيطان في قلب محمد ـــ نتيجة تمنيه ألا يترل عليه ما يغضب قومه من قريش، لأنه كان يطمع بإسلام بعض وجهائهم ـــ بعض الكلمات، فاعتقد أنها من الوحى، فطلب من كتبه الوحى تسجيلها وكتابتها فى نص القرآن، وكانت تلك الكلمات هي:(أفرأيتم اللات والعزى، تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى)[1]

وقد روى هؤلاء المفسرون أن القرشيين من المشركين سروا بذلك، وسجدوا مع محمد فى الصلاة، ولكن بعد فترة نزل جبريل، وعاتب الرسول، وصحح الآية، ناسخاً ما ألقى الشيطان.

ومما يدلك على صدق هذه الرواية ما ورد في القرآن من نهي محمد عن الوقوع في الشرك الذي تسلط الشيطان به عليه.. ففي القرآن:﴿ وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (القصص:٨٧)، وفيه:﴿ وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ) (يونس:١٠٦)، وفيه:﴿ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (القصص:٨٨

وهذا ليس خاصا بهذه الحادثة.. فقد ذكر القرآن أن الشيطان يمكن أن يتسلط على الأنبياء.. ففيه:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(الحج:٥٢)

قال الحكيم: هذه قصة مكذوبة على نبينا.. ولا يصح لباحث عن الحقيقة أن يعتمد على الأكاذيب في التعرف عليها.

قال جيري فايتر: وما يثبت لنا كذبها؟

قال الحكيم: أمور كثيرة تثبت كذبها.. وأولها القرآن الكريم نفسه.. فهو أكبر دليل على بطلانها.

([1]) سنرى المصادر التي روت هذه الرواية بتفصيل عند مناقشتنا لسندها، وننبه إلى أنا كنا قد رددنا بإجمال على هذه الشبهة في (الكلمات المقدسة) فصل (الربانية)

قال جيري فايتز: ليس من المنهج العلمي أن تبرهن على بطلانها من القرآن.

قال الحكيم: بل هو عين المنهج العلمي.. فالمنهج العلمي القديم والحديث يعتمد على تحليل الوثائق المختلفة ليتبين من خلالها المواقف المختلفة.

قال جيري فايتز: ولكن الشخص قد يقول اليوم قولا، ثم يتراجع عنه غدا.

قال الحكيم: ولذلك سأكتفي بقراءة السورة التي نزل فيها ما توهمته من آيات.. تلك السورة هي سورة النجم.. وهي تبدأ ببيان عصمة رسول الله ﷺ من الهوى ومن الغواية، وأنه لذلك يستحيل أن يصل الشيطان إليه لينطق على لسانه بما يخالف الحقيقة التي كلف بتبليغها.

اسمع معي الآيات التي وردت قبل ما ذكرت من قصة الغرانيق، قال تعالى:﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨)﴾ (النجم)

إن كل حرف من هذه الآيات يشير إلى عصمة رسول الله ﷺ، وأنه يستحيل عليه أن يكذب في رؤاه أو في سمعه أو في قوله، فكيف ينتظم هذا مع نطقه في نفس السورة عن الهوى.. بل وترديده ما يلقيه إليه الشيطان، على أنه آيات قرآنية إلهية.

ثم إنه ورد في نفس السورة قوله تعالى ــ بعد الموضع الذى زعموا أنه ذكرت فيه تلك الفرية العظيمة ــ:﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣)﴾ (النجم)

فلو كانت القصة صحيحة لما كان هناك أي تناسب بينها، وبين ما قبلها وما بعدها، ولكان النظم بذلك مفككاً، والكلام متناقضاً.. وكيف يطمئن إلى هذا التناقض السامعون، وهم أهل اللسان والفصاحة، وأصحاب عقول لا يخفى عليها مثل هذا، ولاسيما أعداؤه الذين يلتمسون له العثرات والزلات.

فلو أن ما روى كان واقعاً لشغب عليه المعادون له، ولارتد الضعفاء من المؤمنين، ولثارت ثائرة مكة، ولاتخذ منه اليهود بعد الهجرة متكئاً يستندون إليه فى الطعن على النبى ﷺ، والتشكيك فى عصمته، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن.

بل إن القرآن الكريم ينص على الوعيد الشديد المتعلق بالنبي ﷺ إذا ما فكر في إضافة حرف واحد لم يتزل عليه، قال تعالى في سورة الحاقة، وهي سورة نزلت بعد سورة النجم:﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾(الحاقة)

قال جيري فايتز: ولكن آية من القرآن تشير إلى أن محمدا قد تعرض لفتنة.. وأنه كاد يقع فيها في حبائل المشركين.

قال الحكيم: تقصد قوله تعالى:﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)﴾ (الإسراء)

قال جيري فايتز: أجل.. ألا ترى أن فيها إشارة واضحة لتلك الحادثة؟

قال الحكيم: لا.. بل أرى فيها دليلا من أدلة تفنيد تلك الحادثة.. فالله تعالى في هذه الآيات يخبر عن تأييد رسوله ﷺ وتثبيته، وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه، في مشارق الأرض ومغاربها[1].

ثم إن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه، ولولا أن ثبته لكاد يركن إليهم، وذلك يدل على أن الفتنة لم تقع، وأن الله عصمه وثبته حتى لم يكن يركن إليهم، فقد انتفى قرب الركون فضلاً عن الركون.. فالأسلوب القرآني جاء على أبلغ ما يكون فى تتريه ساحته ﷺ عن ذلك، فكيف ينسجم هذا مع مدح آلهتهم؟

قال جيري فايتز: إن كل ما ذكرته من استنادك للقرآن مجرد استنتاجات.. والعبرة في التاريخ بالأحداث لا بالاستنتاجات.

قال الحكيم: صدقت.. وسنحتكم للتاريخ.. لا للاستنتاجات.

قال جيري فايتز: فالتاريخ يؤيد ما ذكرت.

قال الحكيم: أرأيت لو أن مؤرخا جاء بتاريخ مخالف لجميع المؤرخين.. فذكر ــ مثلا ــ أن دولتنا هذه ألمانيا، والتي لا يجهل أحد منا تاريخها.. وفي سنة ٢٠٠٠.. قامت بحرب حقيقية مع جيرانها.. فهل يمكن لأحد أن يقبل هذه الحادثة بحجة أن راويها مؤرخ؟

قال جيري فايتز: لا.. لا يمكن ذلك.. ومثل هذا لا يقبل مؤرخا.. ولن يسمع كلامه أحد من الناس.

قال الحكيم: فلماذا تسمعون كلام كل من يتفوه بكلمة ترضيكم إذا تعلق الأمر بمحمد ﷺ، بل وتعتبرونه مؤرخا، ولو خالف جميع المؤرخين.. بل خالف العقل والنقل.

قال جيري فايتز: ولكن كلامه مؤيد بإسناد.

قال الحكيم: من السهل على أي أفاك أن يضع ألف إسناد من أجل نشر أي إفك يريد نشره.. فهل ترى من الحكمة أن نتيح له الفرصة؟

قال جيري فايتز: لا..

قال الحكيم: وهذا ما مارسه المؤرخون المسلمون الذين وضعوا منهجا علميا يميز الصادق من الكاذب ليحموا دينهم مما تعرضت له سائر الأديان من ألوان التحريف.

قال جيري فايتز: فما قال هؤلاء في هذه الحادثة؟

قال الحكيم: لقد اتفقوا على تكذيبها.. لا بالأسلوب الذي كذبناها به، وإنما بأسلوب المؤرخين المعتمد

([1]) ابن كثير: ٥/١٠٠.

على نقد الأسانيد وتمحيصها.

سكت قليلا، ثم قال: سأذكر لك بعض نقدهم للحادثة لتعلم علم اليقين أنه يستحيل على محمد ﷺ أن يصل إليه الشيطان.. وتعلم قبل ذلك أن الله الرحيم بعباده يستحيل أن يترك الشيطان يعبث بمن جعله شمسا لهداية عباده.

من أكبر ما يبين لك عظم المغالطة التي وقع فيها من وضع هذه القصة هو أن تاريخ السيرة العطرة يؤكد أن المعراج وقع بعد السنة العاشرة من البعثة باتفاق، أما قصة الغرانيق هذه فإن رواياتها تبين أنها كانت في السنة الخامسة للبعثة، إبان الهجرة الأولى للحبشة، وفي رمضان منها؛ وهذا مما يؤكد بطلان تلك المرويات.

قال جيري فايتر: وما علاقة المعراج بسورة النجم التي نزلت فيها تلك الآيات؟

قال الحكيم: لأن سورة النجم تحمل الحديث عن المعراج، وتصل ما حصل ليلة المعراج من أحداث..

أضف إلى ذلك ما ذكرته السيرة العطرة من أن الرسول ﷺ قبل إسلام عمر ـــ رضي الله عنه ـــ ما كان يصلى عند الكعبة جهاراً نهاراً آمناً أذى المشركين له، حتى كانوا ربما مدوا أيديهم إليه، وإنما كان يصلى إذا خلا المسجد منهم.

قال جيري فايتر: فمتى أسلم عمر هذا؟

قال الحكيم: لقد ذكر المؤرخون الذين تعتمد عليهم أنه أسلم في السنة السادسة، بينما الحادثة ـــ كما رواها من ذكرت من المؤرخين ـــ وقعت في الخامسة[1].

قال جيري فايتر: لا يكفي كل هذا لتفنيد الحادثة.

قال الحكيم: مع أنك تخالف المنهج العلمي بقولك هذا إلا أني سأذكر لك ما قال المحدثون في نقدهم لهذه الحادثة [2] ..

لقد ذهب جماهير العلماء من المحدثين، ومن المحققين إلى إنكار القصة، والجزم بوضعها واختلاقها:

قال القاضي عياض:(إن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون، المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم... ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين التابعين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق

---

(1) انظر: الفصول الزكية في سيرة خير البرية للدكتور عبد الموجود عبد اللطيف ص٢٨٤، ٢٨٥.

(2) الحادثة رواها الطبرى فى تفسيره: ١٨٦/١٧، وابن أبي حاتم فى تفسيره ٢٥/٨ وابن المنذر، ثلاثتهم من طرق عن سعيد بن جبير مرسلاً، ووصلها البزار فى مسنده، وكذا الطبراني، وابن مردويه، والضياء فى المختارة من طريق آخر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وقال ابن جبير: فيما أحسب، شك فى أن القصة بمكة، وأخرجه النحاس بسند فيه الواقدى عن ابن عباس، وابن مردويه من طريق الكلبى عن أبي صالح عن ابن عباس، وابن جرير فى تفسيره: ١٨٦/١٧ من طريق العوفى عنه، وعن محمد بن كعب القرظى، ومحمد بن قيس، وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وأبي العاليه، وكلها مرسلة، وابن أبي حاتم فى تفسيره ٢٥٠٢/٨ رقم ١٤..٣٠، عن السدى، وموسى بن عقبة فى المغازى عن الزهرى، ومن طريق موسى بن عقبة أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة ٢٨٥/٢، ورواها الطبرانى مرسلة عن عروة بن الزبير، وفى سنده ابن لهيعة، ولا يحتمل هذا منه، كما قال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧٢/٧. وينظر: ٣٢/٦ – ٣٤، والمعنى فى الروايات السابقة كلها للقصة واحد، كما قال الحافظ فى فتح البارى كتاب التفسير، باب سورة الحج ٢٩٣/٨، انظر: مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفا للسيوطى ص٢٢١.

عنهم فيها، ضعيفة واهية، والمرفوع فيه حديث ابن عباس، وضعفه الأئمة أيضاً)[1]

وقال الحافظ البزار:(هذا الحديث ــ أى فرية الغرانيق ــ لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره إلا بهذا الإسناد وهو: (يوسف بن حماد، عن أمية بن خالد، عن شعبة، عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال ابن جبير: فيما أحسبه)، وقد ضعفه الإمام البزار بما يلى:

١. تفرد أمية بن خالد بنقل هذا الحديث مسنداً عن شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وغير أمية بن خالد يرويه مرسلاً عن سعيد بن جبير عن النبى ﷺ، ومن غير ذكر ابن عباس.

٢. وقوع الشك فى حديث شعبة، فسعيد بن جبير، وإن كان معتمداً لكن تردد أن النبى ﷺ كان بمكة فى هذه القضية، أو بغيرها.

٣. رواية الكلبى لهذا الحديث عن أبى صالح عن ابن عباس، مضعفة أيضاً بأن الكلبى غير ثقة، وأن أبا صالح لم يسمع من ابن عباس، ففيها انقطاع، والمنقطع من أقسام الضعيف، فلا يحتج به [2].

وقال القاضى بكر بن العلاء المالكى:(لقد بلى الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير، وتعلق بذلك الملحدون، مع ضعف نقلته واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته: فقائل يقول إنه فى الصلاة، وآخر يقول: قالها فى نادى قومه، حيث أنزلت عليه السورة؛ وآخر يقول: قالها وقد أصابته سنة، وآخر يقول: بل حدث نفسه فسها، وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسانه، وأن النبى ﷺ لما عرضها على جبريل قال: ما هكذا أقرأتك؛ وآخر يقول: بل أعلمهم الشيطان أن النبى ﷺ قرأها؛ فلما بلغ النبى ﷺ ذلك قال: والله ما هكذا نزلت؛ إلى غير ذلك من اختلاف الرواة)[3]

وقال ابن حزم:(وأما الحديث الذى فيه (وإنهن الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى) فكذب بحت موضوع، لأنه لم يصح قط من طريق النقل، فلا معنى للاشتغال به، إذ وضع الكذب لا يعجز عنه أحد)[4]

وقال الإمام الرازى:(أهل التحقيق قالوا: هذه الرواية باطلة موضوعة، ونقل عن الحافظ ابن خزيمة، أنه سئل عن هذه القصة فقال: هذا وضع من الزنادقة، وصنف فيه كتاباً، كما حكى عن الإمام البيهقى قوله: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، ثم أخذ يتكلم فى أن رواة هذه القصة مطعون فيهم)[5]

وقال الشوكانى:(و لم يصح شئ من هذا،ولا ثبت بوجه من الوجوه)[6]

ومن المعاصرين قال الشيخ محمد الصادق عرجون بعد أن فند الروايات التى ذكرها الإمام السيوطى فى تفسيره:(ليس فى روايات فرية الغرانيق، رواية قط متصلة الإسناد على وجه الصحة، ولم يذكر فى جميع الروايات صحابى قط على وجه موثق، وما ذكر فيه باسم ابن عباس، فكلها ضعيفة واهية خلا رواية سعيد بن

([1]) الشفا: ١٢٥/٢، ١٢٦.
([2]) انظر: نسيم الرياض فى شرح الشفا للخفاجى ٨٧/٤، والشفا ١٢٦/٢.
([3]) انظر: الشفا: ١٢٥/١.
([4])الفصل فى الملل والنحل ٣٠٨/٢، ٣٠٩، ٣١١.
([5]) التفسير الكبير ٥١/١٢.
([6]) فتح القدير ٤٦١/٣.

جبير على الشك في إسنادها إلى الحبر ابن عباس، والشك يوهيها)[1]

سكت قليلا، ثم قال: بالإضافة إلى هذا كله كيف يغفل المحدثون الكبار عن رواية هذه القصة مع أهميتها.. إن مثلها يحتاج ــ على الأقل ــ إلى إسناد التواتر، خاصة وأنه ارتبط بها حادث تاريخي هام هو عودة المسلمين من الحبشة.

قال جيري فايتر: ولكن الحديث رواه البخاري.. أم أنك لم تقرأ البخاري؟

قال الحكيم: إن راوية البخاري للحادثة تبين وجه الحق فيها.. ففيه عن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ قرأ النجم وهو بمكة، فسجد معه المسلمون والمشركون، والجن، والإنس.. وفي رواية للبخارى عن ابن مسعود قال:(أول سورة أنزلت فيها سجدة (والنجم)، قال: فسجد رسول الله ﷺ، وسجد من خلفه، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً، وهو أمية بن خلف)[2]

فأنت ترى أن البخارى اقتصر على هذا الجزء الصحيح من القصة، وليس فيه فرية الغرانيق.

قال جيري فايتر: فكيف سجد المشركون مع أنهم يرفضون السجود لله.. لقد ذكر القرآن مدى نفورهم من السجود، فقال:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾ (الفرقان:٦٠)؟

قال الحكيم: أحيانا تغفل نفس الإنسان عن نفسها، أو يغفل الشيطان عن النفوس فلا تملك إلا أن تسجد.. ألم تسمع قصة السحرة مع موسى ؑ الذين لم يملكوا إلا أن يسجدوا؟

قال جيري فايتر: أولئك لاحظوا العصا.. والمعجزات التي تحملها؟

قال الحكيم: وهؤلاء لاحظوا القرآن.. والقرآن كلام الله.. وهو لمن تأمله وعاشه يحمل من المعجزات أضعاف ما تحمله العصا.

قال جيري فايتر: ولكن السحرة ثبتوا على سجودهم إلى أن ماتوا في سبيله؟

قال الحكيم: وهؤلاء عادوا إلى عنادهم الذي اعتادوه..

قال جيري فايتر: فقد وقع الفرق بينهما إذن؟

قال الحكيم: لا.. ليس هذا فرقا.. فقد يقر المجرم بإجرامه، ثم يتراجع عنه.

قال جيري فايتر: دعنا من هذا.. فلن أصل معك فيه إلى أي نتيجة.. وهلم بنا إلى الأسانيد التي زعمت أنها أسانيد واهية.. فإن كنت استدللت بمن استدللت به على ضعفها، فإن معي من يقويها[3].. لقد قال ابن حجر، وهو العالم المتبحر المحقق في الصناعة الحديثية:(لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً، مع أن لها طريقين

([1]) محمد رسول الله ﷺ ٦٩/٢.

([2]) رواه البخاري.

([3])للأسف فإن القصة مع الدلائل الكثيرة على وضعها ومنافاتها للنبوة ظهر من العلماء من يؤيدها أو يسكت على الأقل عن ذكر وضعها، ومن هؤلاء: ابن تيمية (فى كتابه الفتاوى ١٧٠/١٠ – ١٧٢) حيث عمم الكلام فى إثبات القصة دون تحقيق منه.

ومنهم السيوطى فى الدر المنثور ٦٥/٦، ومناهل الصفا ص٢٢١، والقسطلانى فى المواهب اللدنية، والزرقانى فى شرحه على المواهب ١٩/٢ – ٢٦، وذلك فى نهاية كلامهما، بعد أن كانا فى فاتحته مع ما قاله القاضى عياض من رد القصة وإبطالها.

آخرين مرسلين رجالهما على شرط الصحيحين، أحدهما: ما أخرجه الطبرى عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، والثاني: عن أبي العالية)

وقال:(وقد تجرأ أبو بكر بن العربى كعادته فقال: ذكر الطبرى فى ذلك روايات كثيرة باطلة لا أصل لها، وهو إطلاق مردود عليه)

وقال:(وجميع ذلك لا يتمشى على القواعد، فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دل ذلك على أن لها أصلاً، وقد ذكرت أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح، وهى مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل، وكذا من لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض، وإذا تقرر ذلك تعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر، وهو قوله:(ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى)، فإن ذلك لا يجوز حمله على ظاهره لأنه يستحيل عليه ﷺ، أن يزيد فى القرآن عمداً ما ليس منه، وكذا سهواً، إذا كان مغايراً لما جاء به من التوحيد لمكان عصمته)[1]

قال الحكيم: فقد رجع كلام الحافظ ابن حجر إلى ما ذكرنا، وهو أن القصة في أصلها صحيحة.. ومن أكبر دلائل صحتها أن البخاري رواها..

قاطعه جيري فايتر قائلا: فلم تناقشني كل تلك المناقشات في صحتها؟

قال الحكيم: أنا لا أناقشك في صحة الحادثة.. ولكني أناقشك فيما التصق بها من الإفك والبهتان على رسول الله ﷺ .. ذلك أن الكاذب لا يكذب من فراغ، وإنما يعتمد على أصل صحيح ليبني عليه كذبه [2]..

بالإضافة إلى هذا.. فإن كلام ابن حجر لا يقبل على علاته.. فقاعدة (الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دلت على أن موضوع الروايات له أصل) ليست على عمومها، ففى باب العقائد لا يقبل إلا النص الصحيح المقطوع بصحته، وفى غير أبواب العقائد من الأحكام الفرعية، فإن هذه القاعدة مقيدة، كما قال المحدثون. بالضعف الذى يزيله ما يجبره، وذلك إذا كان الضعف ناشئاً عن ضعف حفظ الراوى، أما الضعف الذى لا يزول لقوته، وتقاعد الجابر عن جبره ومقاومته فلا وزن له، ولو جاء من سبعين طريقاً متباينة المخارج، وذلك كالضعف الذى ينشأ من كون الراوى متهماً بالكذب ـــ كما فى بعض روايات أقصوصة الغرانيق التى جاءت من طريق الكلبى، وهو كذوب ولا تجوز الرواية عنه ـــ ومثل ذلك كون الحديث شاذاً.

أما ذكره للاحتجاج بالمراسيل، فلا يسلم له.. لأن الخلاف فى الاحتجاج بالمرسل إنما هو فى أحكام الفروع، ولا يمكن أن يكون جارياً فى أصول العقائد، لأنها لا تثبت إلا بدليل صحيح، والمرسل ضعيف عند

([1]) فتح البارى، كتاب التفسير، باب سورة الحج ٢٩٣/٨.

([2]) ويشير إلى هذا قوله ﷺ:(ذا قضى الله تعالى الامر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع في قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: للذي قال: الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترقوا السمع ومسترقوا السمع هكذا واحد فوق آخر فربما لم أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذى يليه إلى الذي هو أسفل منه حتى يلقوها إلى الارض فتلقي على فم الساحر فيكذب معها مائة كذبة فيصدق، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقا للكلمة التي سمعت من السماء) رواه البخاري والترمذي عن أبي هريرة.

جمهور المحدثين كما قال مسلم:(إن المرسل من الروايات فى أصل قولنا، وقول أهل العلم بالأخبار ليس بحجة)[1]

وقال ابن الصلاح:(ثم اعلم أن حكم المرسل حكم الحديث الضعيف، إلا أن يصح مخرجه من وجه آخر، وما ذكرناه من سقوط الاحتجاج بالمرسل، والحكم بضعفه هو المذهب الذى استقر عليه آراء جماهير حفاظ الحديث، ونقاد الأثر)[2]

قاطع جيري فايتر الحكيم قائلا: دعنا من كل هذا.. واذكر لي ما تقول في الآية التي تقول:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الحج:٥٢)

قال الحكيم: أولا.. هذه الآية الكريمة من سورة الحج.. وسورة الحج مدنية باتفاق العلماء.. ولا يمكنك أن تجادلني في ذلك، فقد ورد فيها الأمر بالأذان فى الناس بالحج، والأمر بالقتال، والأمر بالجهاد، وذكر فيها الصد عن المسجد الحرام، وكل ذلك إنما كان بعد الهجرة، وبعضه أتى بعدها بعدة سنوات، وهذا يعنى أن هذه الآية قد نزلت بعد الغرانيق بسنوات عديدة، لأن قصة الغرانيق ــ كما يذكر من أرخها ــ قد حصلت فى السنة الخامسة من البعثة، فكيف أخر الله تسلية وتهدئة خاطر الرسول ﷺ هذه السنين الطويلة.

ثم إن هذه الآية بعد ذلك ليس فيها دلالة على شئ من فرية الغرانيق.. فالتمنى هو تشهى حصول أمر محبوب ومرغوب فيه، فالرسول ﷺ كان يتشهى ويتمنى ما يتناسب مع وظيفته كرسول، وهى ظهور الحق والهدى، وطمس الباطل والضلال، فيلقى الشيطان بغوايته للناس ما يشوش هذه الأمنية، ويكون فتنة للذين فى قلوبهم مرض، كما ألقى فيما بين أمة موسى من الغواية ما ألقى، فينسخ الله بنور الهدى غواية الشيطان، ويظهر الحق للعقول السليمة.

قال جيري فايتر: ولكن العلماء ذكروا أن المراد بالتمنى هو القراءة والتلاوة.

قال الحكيم: ذلك معنى غريب، يخالف ظاهر اللفظ، والأصل في الألفاظ دلالتها على ظواهرها.. ومع ذلك، فإن معنى الآية لو فسرنا التمني بالقراءة لا ينسجم مع الفرية التي ذكرتها..

فالآية ــ حينذاك ــ إعلام من الله تعالى لرسوله ﷺ بأن من أرسل قبله من الرسل كان إذا تلا ما يؤديه إلى قومه، حرفوا عليه، وزادوا فيما يقوله ونقصوا، كما فعلت اليهود فى الكذب على أنبيائهم قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة:٤١)، وقال تعالى:﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾

([1])مقدمة صحيح مسلم، باب صحة الاحتجاج بالحديث المعنعن ١٦٣/١.

([2])علوم الحديث ص٤٩.

(النساء:٤٦)، وقال تعالى:﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (البقرة:٧٥)، وقال تعالى:﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (البقرة:١٠٢)

لقد ذكر أبو حيان للآية تفسيرا حسنا قال فيه:(ذكر الله تعالى مسلاة لنبيه، باعتبار من مضى من الرسل والأنبياء، وهو أنهم كانوا حريصين على إيمان قومهم، متمنين لذلك، مثابرين عليه، وأنه ما منهم أحد إلا وكان الشيطان يراغمه بتزيين الكفر لقومه، وبث ذلك إليهم، وإلقائه فى نفوسهم، كما أنه ﷺ كان من أحرص الناس على هدى قومه، وكان فيهم شياطين كالنضر بن الحارث، يلقون لقومه، وللوافدين عليه شبهات يثبطون بها عن الإسلام، ولذلك جاء قبل هذه الآية:﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) (الحج:٥١)، وسعيهم بإلقاء الشبه فى قلوب من استمالوه، ونسب ذلك إلى الشيطان؛ لأنه هو المغوى والمحرك شياطين الإنس للإغواء لما قال:﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)(صّ: من الآية٨٢) ومعنى:﴿ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ)(الحج: من الآية٥٢) يزيل تلك الشبه شيئاً فشيئاً حتى يسلم الناس كما قال:﴿) رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً) (النصر:٢) ﴿ ثم يحكم الله آياته ﴾ معجزاته يظهرها محكمة لا لبس فيها ﴿ ليجعل ما يلقى الشيطان ﴾ من تلك الشبه وزخارف القول ﴿ فتنة ﴾ لمريض القلب ولقاسية، وليعلم من أوتى العلم أن ما تمنى الرسول والنبى من هداية قومه، وإيمانهم هو الحق. وهذه الآية ليس فيها إسناد شئ إلى رسول الله ﷺ، إنما تضمنت حالة من كان قبله من الرسل والأنبياء إذا تمنوا)[1]

السحر:

قال جيري فايتر: لا بأس.. فلنسلم بأن تلك الحادثة حادثة مزورة مكذوبة.. ولكن.. ما تقول فيما روي من سحر نبيكم؟.. لا يمكنك أن ترد هذا فقد روي في الصحيح.. بل رواه البخارى ومسلم جميعا.

قال الحكيم: أجل.. فقد حدثنا عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: سحر رسول الله ﷺ يهودى من يهود بنى زُريق، يقال له: لبيد بن الأعصم، قالت: حتى كان رسول الله ﷺ، يخيل إليه أنه يفعل الشئ وما يفعله، حتى إذا كان ذات يوم، أو ذات ليلة، دعا رسول الله ﷺ، ثم دعا، ثم دعا، ثم قال: يا عائشة أَشَعَرْتِ أن الله أفتانى فيما استفتيته فيه؟ جاءنى رجلان[2] فقعد أحدهما عند رأسى، والآخر عند رجلى، فقال الذى عند رأسى، للذى عند رجلى، أو الذى عند رجلى، للذى عند رأسى: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب[3] قال: من

([1])البحر المحيط ٣٨١/٦.
([2]) أى ملكان فى صورة رجلين، دل على ذلك ما جاء فى مسند أحمد ٦٣/٦:(أتانى ملكان)، وكان ذلك مناماً.
([3]) أى مسحور،كنو بالطب عن السحر،تفاؤلاً بالبرء، كما كنوا بالسليم عن اللديغ. النهاية ١٠١/٣.

طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم قال: في أي شيء؟ قال: في مشط[1] ومشاطة[2] وجب[3] طلعة ذكر، قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذي أروان[4] قالت: فأتاها رسول الله ﷺ في أناس من أصحابه، ثم قال: يا عائشة! والله! لكأن ماءها نقاعة الحناء، ولكأن نخلها رءوس الشياطين، قالت: فقلت: يا رسول الله! أفلا أحرقته؟ قال: لا. أما أنا فقد عافاني الله، وكرهت أن أثير على الناس شراً، فأمرت بها فدفنت[5].

قال جيري فايتر: فها أنت تقر بالحديث ولا تنكره كما أنكره من أنكره[6].

---

[1] بضم الميم، ويجوز كسرها، هو الآلة المعروفة التي يسرح بها شعر الرأس واللحية.

[2] هي: الشعر الذي يسقط من الرأس واللحية عند التسريح بالمشط. النهاية ٤/٢٨٤.

[3] بالجيم والباء، وفي رواية: بالجيم والفاء، وهما بمعنى واحد، وهو الوعاء الذي يكون فيه ثمرة النخلة، سواء النخلة الذكر أو الأنثى، ولهذا قيده في الحديث بأنه كان من نخلة ذكر، وهو الذي يكون فيه اللقاح. النهاية ١/٢٢٧.

[4] وهي بئر بالمدينة في بستان بني زريق. النهاية ٢/١٤٨.

[5] رواه البخاري ومسلم.

[6] وقف بعض العلماء موقف الإنكار لهذا الحديث بعلة منافاته للعصمة، ومنهم محمد عبده الذي قال في معرض إنكاره للحديث:(نعلم أن البخاري أصدق كتاب بعد كتاب الله، وأنا لا أشك أن البخاري سمع هذا من أساتذته، والبخاري يشترط في أحاديثه المعاصرة واللقاء، إلا أنني أرى أن هذا لم يحدث مع النبي ﷺ، وإن كان قد دس من الإسرائيليات إلى مشايخ البخاري الذين أخذ منهم، وإلا فإننا إن قد صدقنا أن النبي ﷺ، قد سحر فقد صدقنا كلام الظالمين الذي حكاه القرآن عنهم:﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً)(الفرقان: من الآية٨)، وإن صدقنا أن النبي ﷺ قد سحر، فقد كذبنا الله سبحانه وتعالى القائل في كتابه الحكيم:﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ (الشعراء:٢١٢)، وقال عز وجل:﴿ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً)(الجـــن: من الآية٩)

ثم قال:(وأما الحديث على فرض صحته فهو آحاد، والآحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد، وعصمة النبي من تأثير السحر في عقله عقيدة من العقائد، لا يؤخذ في نفيها عنه إلا باليقين، ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن المظنون على أي حال، فلنا بل علينا أن نفوض الأمر في الحديث، ولا نحكمه في عقيدتنا، ونأخذ بنص الكتاب، وبدليل العقل، فإنه إذا خولط النبي ﷺ في عقله ـــ كما زعموا ـــ جاز عليه أن يظن أنه بلغ شيئاً، وهو لم يبلغه، أو أن شيئاً نزل عليه، وهو لم ينزل عليه، والأمر هنا ظاهر لا يحتاج إلى بيان.

ثم ختم كلامه قائلاً:(أحب أن أكذب البخاري، من أن أنسب إلى رسول الله ﷺ أنه سحر) (تفسير جزء عم، ص١٨٠ ـ ١٨٣، ومجلة المنار: ١٢/٦٩٧، و٢٩/١٠٤)

ومنهم سيد قطب، فقد قال في تفسير سورة الفلق بعد إيراده لهذا الحديث:« ولكن هذه الروايات تخالف أصل العصمة النبوية في الفعل والتبليغ، ولا تستقيم مع الاعتقاد بأن كل فعل من أفعاله – صلى الله عليه وسلم – وكل قول من أقواله سنة وشريعة، كما أنها تصطدم بنفي القرآن عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أنه مسحور، وتكذيب المشركين فيما كانوا يدعونه من هذا الإفك. ومن ثم تستبعد هذه الروايات.. وأحاديث الآحاد لا يؤخذ بها في أمر العقيدة. والمرجع هو القرآن. والتواتر شرط للأخذ بالأحاديث في أصول الاعتقاد. وهذه الروايات ليست من المتواتر. فضلا على أن نزول هاتين السورتين في مكة هو الراجح. مما يوهن أساس الروايات الأخرى » الظلال: ٦/٤٠٠٨.

ولم يكن الأنكار قاصرا على المتأخرين.. بل ذهب إليه كثير من المتقدمين كما أشار إلى ذلك النووي في قوله:(وقد أنكر بعد المبتدعة هذا الحديث بسبب أنه يحط من مقام النبوة وشرفها، ويشكك فيها، وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع) (المنهاج شرح مسلم ٧/٤٣)

ونحن لا نسلم للنووي ـــ رحمه الله ـــ رميه لمن ذهب إلى هذا بأنه من المبتدعة وإلا لما استثنينا من البدعة عالما من العلماء بدءا بالأئمة الأربعة فمن بعدهم، فليس منهم أحد إلا وأنكر بعض نصوص الآحاد أو لم ير العمل بها.

قال الحكيم: أقر بالحديث.. ولكني لا أقر بفهمك له.

قال جيري فايتر: فأنت تقر بأن اليهود تمكنوا من سحر نبيكم؟

قال الحكيم: وأنت تقر بأن اليهود تمكنوا من صلب نبيكم؟

قال جيري فايتر: فرق كبير بينهما.. فالصلب تضحية وفداء وكفارة للخطايا، وأما السحر فنوع من الجنون.

قال الحكيم: لقد كان ما حصل للنبي ﷺ من السحر نوع من التضحية..

قال جيري فايتر: كيف ذلك؟

قال الحكيم: لقد كان الناس في ذلك الحين كما في كل الحين يبالغون في شأن السحر، ويعظمونه، ويخافون منه، وقد جاء القرآن مبينا أن السحر لا يعدو خيالات سرعان ما تنهار أمام حقائق الذكر والاستعاذة والقرآن.

قال جيري فايتر: فلم لم يكتف القرآن بهذا.. ولم وضع نبيكم في التجربة؟

قال الحكيم: لا.. نبينا لم يوضع في التجربة.. بل انتدب ليقضي بنفسه على أسطوة السحر المرعبة كما قضى على أسطورة التبني.

قال جيري فايتر: كيف هذا؟

قال الحكيم: لقد كان التبني شائعا إلى درجة أن الناس بقي في نفوسهم شيء من الزواج بزوجة المتبنى حتى لو ذكرت لهم إباحته، فلذلك انتدب ﷺ ليقضي على هذا النوع من الورع الذي لا مبرر له.

قال جيري فايتر: أكذلك الأمر بالنسبة للسحر؟

قال الحكيم: أجل.. فالسحر في كل الشعوب من الأمور الشائعة.. والتي لها آثار النفسية والاجتماعية الخطيرة، فلذلك انتدب ﷺ ليرد بسلوكه على هذا.

قال جيري فايتر: فكيف يرد عليه؟

قال الحكيم: لقد أنزل الله برحمته المعوذتين، وقد ذكر أن هذا هو سبب نزلهما، فكانا بذلك رحمة تكفيان الأمة عن كل تعويذة، وعن اللجوء لأي راق.

قال جيري فايتر: ولكن.. ألا يمكن أن يكون من القرآن الذي تقرأونه بعض آثار ذلك السحر؟

قال الحكيم: يستحيل ذلك.. فالسحر الذي تعرض له النبي ﷺ ــ في حالة صحة الحادثة ــ لم يكن يعدوا بعض الخيالات المرتبطة بالدنيا مما لا علاقة له بالرسالة ولا بحياته ﷺ [1].

زيادة على أن المضرة من المبالغين في رواية مثل هذه الأحاديث ونشرها بين العامة من دون تفسير للحقيقة المرادة منها أخطر بكثير من أنكارها.. وإلى هؤلاء يشير قوله ﷺ:(كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع)، بل ورد في روية أخرى:(كفى بالمرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع) رواهما مسلم.

([1]) نقل ابن حجر عن بعضهم أن المراد بالحديث أنه كان ﷺ يخيل إليه أنه وطئ زوجاته ولم يكن وطأهن، وهذا كثير ما يقع تخيله للإنسان في المنام فلا يبعد أن يخيل إليه في اليقظة. انظر: فتح الباري: ١٠ / ٢٢٧.

إن يشبه كثيرا ما حصل لموسى عليه السلام من تأثير سحر سحرة فرعون، فقد قال الله تعالى عنه:﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ (طـه:٦٦)

بل إن القرآن الكريم ذكر أن الخوف دب إلى موسى عليه السلام بسبب سحرهم، قال تعالى:﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ (طـه:٦٧)

***

بعد أن انتهى الحكيم من حديثه لم يجد (جيري فايتز) ما يقوله.. ولذا سار مطأطئ الرأس، متغير الوجه، خارج ميدان الحرية ليترك الجماعة ملتفة حول الحكيم تسأله ويجيبها..

التفت إلى أصحابنا المستغرقين في مشاهدة ما حصل في ساحة الحرية.. فرأيت وجوههم كالحة عابسة عليها غبرة ترهقها قترة.

أما أنا، فقد تترلت علي حينها أنوار جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

وقال القاضى عياض:(وقد جاءت راويات هذا الحديث مبينة أن السحر إنما تسلط على جسده، وظواهر جوارحه، لا على عقله وقلبه واعتقاده، ويكون معنى قوله فى الحديث:(حتى يظن أنه يأتى أهله ولا يأتيهن)، ويروى:(يخيل إليه) بالمضارع كلها، أى يظهر له من نشاطه ومتقدم عادته القدرة عليهن، فإذا دنا منهن أخذته أخذة السحر فلم يأتهن، ولم يتمكن من ذلك كما يعترى المسحور.

وقال:(وكل ما جاء فى الروايات من أنه يخيل إليه فعل الشئ ولم يفعله ونحوه، فمحمول على التخيل بالبصر، لا لخلل تطرق إلى العقل، وليس فى ذلك ما يدخل لبساً على تبليغه أو شريعته، أو يقدح فى صدقه لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا، فلا مطعن لأهل الضلالة)(الشفا ٢/ ١٨٠)

سابعا ــ انطواء

في مساء اليوم السابع.. وفي دار الندوة الجديدة.. دخل (نيقتاس البيزنطي)[1] ..

قاطعت البابا قائلا ــ وقد كاد يغلبني الضحك ــ: نيقتاس البيزنطي..!؟

التفت إلي البابا مبتسما، وقال: أجل.. هذا اسمه الذي سماه به أبوه.. وهو حريص عليه أكثر من حرصه على كل شيء.. بل إنه يرفض أن يجيب من يناديه (نيقتاس) إلا بعد أن يضم إليه (البيزنطي)

قلت: فما سر هذا الاسم، وما سر حرصه عليه؟

قال: أنت تعلم أن هذا اسم للكاتب البيزنطي المعروف الذي أعلن عداوته للإسلام في الوقت الذي أسر بها غيره.

قلت: أجل.. ومن لا يعرفه.. وهو الذي سن تلك السنن التي لا نزال نرى آثارها إلى اليوم.

قال: فهذا نسخة من ذاك.. ولو كنت أؤمن بتناسخ الأرواح لقلت بأن هذا هو ذاك..

لقد كان يعيش شخصية (نيقتاس البيزنطي) بكل أبعادها.. كان يلبس لباسه، ويحيا حياته، ويلوي لسانه ليتحدث بلهجته، والتاريخ يتوقف عنده بوفاة نيقتاس، والجغرافية تنتهي عنده عند حدود بيزنطة.

قلت: فهو من نسله إذن؟

([1]) أشير به إلى (نيقتاس البيزنطي)، وهو من الكُتّاب البيزنطيين الذين عاشوا في القرن الثالث الهجري ــ التاسع الميلادي.

وقد كتب كتاباً زعم أنه دحضٌ للقرآن الكريم، ذلك أن الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثالث (٢٢٧ ــ ٢٥٤ / ٨٤٢ ــ ٨٦٧) تلقى مقالتين من بعض العلماء المسلمين تفندان مقولة الأقانيم الثلاثة.

فكلّفَ الإمبراطور نيقتاس بالرد عليهما، فقام نيقتاس بتأليف رده الذي وصفه بأنه (دحض لكتاب محمد المزوَّر)، ولم يكن نيقتاس متضلعاً في اللغة العربية، فقام باستعراض سور القرآن من سورة البقرة إلى سورة الكهف، وكل سورة يسميها الأسطورة المحمدية رقم كذا ــ مثلما هو رقمها في القرآن ــ ثم يذكر اسمها.

وأصدر حكمه الباطل بأن القرآن يصوّر الله ــ جل وعلا ــ على شكل كروي كامل، أو على شكل مطرقة معدنية مطروقة في السماء.

ثم أخذ يسخر من المسلمين على مناصرتهم لهذا التصور المادي ــ بزعمه ــ وقال بأن محمداً قاد المسلمين ليعبدوا في مكة وثناً مصنوعاً على غرار أفروديت ــ معبودة الحب والجمال عند الإغريق ــ وأنه جعل الشيطان رباً للخلق، وظل يؤكد على أن دين محمد ﷺ دين وثني وأن أتباعه مجرد جماعة من الوثنيين.

وكان في كل سورة يتحدث عنها يوجه السب والشتم إلى النبي ﷺ زاعماً أنه هو الذي وضع القرآن وشحنه بالأساطير، وأنه أمر أتباعه بقتل من يجعل شريكاً في جانب الله، ولذلك وقع معظم ذلك القتل على المسيحيين الذين يعبدون المسيح ابن الله ــ بزعمه ــ

وأخذ نيقتاس يحاول تفنيد بعض نصوص القرآن وقصصه عن طريق مقارنتها بنصوص العهدين القديم والجديد.

وقد كان لبعض آراء نيقتاس الزائفة أثرها في الدولة البيزنطية حتى أن أحد رجال الدين ألف رسالة في زمن الإمبراطور مانويل كومنين (٥٤٩ــ٥٨٥هــ/ ١١٤٣ــ١١٨٠م) يشجب فيها الدين الإسلامي وفيها يلعن مصنفها (الرب الذي يعبده محمد ﷺ) وقدَّم تلك الرسالة للإمبراطور الذي أراد شطب هذه العبارة المقيتة محتجاً بأن الرب الذي يعبده محمد ﷺ إنما هو الأب الذي يعبده النصارى فأصَرَّ رجال الدين على أن الذي يعبده محمد ﷺ إنما هو إله غير إله المسيحيين، وقد بقيت هذه العقيدة الزائفة حية حتى اعتنقها وقال بها فرانكلين جراهام وجيري فاين وغيرهما.

قال: إن شئت قلت: هو من نسل روحه.. لا من نسل طينه.. فلا أعرف أن نيقتاس التاريخي قد تزوج حتى يخلف ولدا.

قلت: فحدثني حديثه معكم.

قال: عندما دخل علينا دار الندوة، ابتدرته الجماعة قائلة: ما الذي فعلت!؟.. ما نسبة نجاحك!؟.. هل هناك نتائج إيجابية!؟

نظر إليهم بنظرته التي تذكرك بالقرون السوالف، ثم قال: منذ متى كان لغير البيزنطيين منطق يفكرون به.. لقد أرسلتموني إلى قوم بدائيين لا يعرفون قوانين أرسطو.. ولا فلسفة أفلاطون.. ولا جدليات نيقتاس البيزنطي.

قالو: نعرف ذلك.. ماذا فعلت أنت.. هل أفلحت فيما أرسلناك له؟

قال: إن لم يفلح نيقتاس البيزنطي، فلن يفلح أي أحد في الدنيا.

قالوا: فهل تأذن لنا في الاطلاع على ما جرى في ميدان الحرية؟

قال بصوت مملوء بالاستعلاء: كما يحلو لكم.. ولو أني لا أثق كثيرا في هذه الوسائل المعاصرة.

ابتدر أخي، فوضع القرص في القارئ، وبدأ شريط الأحداث:

ظهر نيقتاس في ساحة الحرية كدبابة مصفحة لا يمكن لأي رصاص في الدنيا أن يخترقها، ثم صاح في الجموع بلهجة لا تذكر بأحد في الدنيا كما تذكر بنيقتاس البيزنطي، قائلا: هلموا إلي أيها الناس.. فإن نيقتاس البيزنطي يريد أن يعلن بينكم أمرا هو في غاية النفع لكم.. بل لن تنتفعوا بغيره إن لم تنتفعوا به.

دبت إليه جموع كثيرة، كل تركوا مجالسهم ليسمعوا لهذا الذي خرج من التاريخ، ليدخل واقعهم، ويصيح فيه.

لما اجتمعت الجموع، قال بصوت جهوري: هل تعلمون أخطر أسطورة في الدنيا؟

حسبت الجموع أنه سيقص عليها أساطير الأدويسة والإلياذة.. ففتحت آذانها، وأخذت تنتظر منه أن يجيبها على ما سأله.

انتظر برهة، فلما لم يجبه أحد قال: محمد.. محمد..

قالوا: ما به؟.. ومن تقصد؟

قال نيقتاس: ذلك الذي ادعى النبوة، ليؤسس بدعواه أخطر أسطورة في الدنيا.

قال رجل من الجمع: نحن لا نسمع عن محمد إلا كلاما طيبا، فما الذي حوله إلى أسطورة خطيرة؟

قال نيقتاس: ما تسمعونه من السمعة الطيبة عنه أثر من آثار تلك الأساطير التي نشرها في تلك الأيام المشؤومة، ولا يزال أتباعه الأغبياء ينشرونها.. وأخاف أن يكون من بينكم من عدي بعدواها.

قال رجل من الجمع: صدقت في هذا.. ففي هذا الجمع من أحب محمدا واتبعه، وفيهم من أحبه، ولكن حبه لم يرق به إلى أن يتبعه.. فلذلك يكتفي بالثناء عليه واحترامه.

قال نيقتاس: كلاهما عندي سواء من اتبعه أو من لم يتبعه.. ما دام يحبه فإن أثر عدواه ستنتقل إليه.

قال رجل من الجمع: ولكن عن أي عدوى تتحدث.. لا نحسب أن في أتباع محمد مرضا معديا خاصا بهم.

قال نيقتاس: ليس مرضا واحدا.. بل أمراض كثيرة.. أو قل مرض اجتمعت فيه جميع الأمراض.

قالوا: لقد ملأت قلوبنا مخافة، فحدثنا عنه، وعن سر إصابتهم به.

قال نيقتاس: الانطواء.. لا شك أنكم تعرفون هذا المرض النفسي الخطير.

قالوا: أجل.. ولكنا نرى أتباع محمد أبعد الناس عنه.

قال نيقتاس: لقد كان الناس يسمعون بأن الانطواء انطواء أفراد.. ولكن محمدا حول منه انطواء مجتمع، بل انطواء أمة.

قالوا: لا نكاد نفهم ما تريد.

قال نيقتاس: سأضرب لكم مثالا يقرب لكم هذا، وفي نفس الوقت يبرهن عليه.

أصاخت الجماعة بأسماعها، فراح يقول: أتعرفون العهد القديم؟

قالوا: أجل.. وهو ركن من أركان الكتاب المقدس.

قال نيقتاس: أليس هو في أصله كتاب اليهود المقدس؟

قالوا: أجل..

قال نيقتاس: ولكنه كتاب المسيحيين أيضا.. فالمسيحيون يقبلون الآخر، ويحترمونه، ويستفيدون منه.

سكت قليلا، ثم قال: ليس ذلك فقط.. إن المسيحية استفادت من كل الديانات والفلسفات التي وجدت في العهود الأولى للمسيحية.. ولم تكن لتستفيد منها لو لم تكن تعترف بها.

قالوا: كل ما ذكرت صحيح.. ونحن نؤمن به.

قال نيقتاس: فقارنوا بين هذه المواقف المتفتحة وموقف الإسلام من الآخر.. افتحوا القرآن لتجدوا هذه الآية:﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْأِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران:٨٥)، إن هذه الآية تعتبر كل دين غير دين الإسلام لغو.. وأن الله لن يقبل من عباده إلا الإسلام.

ليس ذلك فقط.. فالقرآن يسمي غير المسلمين كفارا، وهو يأمر محمد بالتميز التام عنهم.. اقرأوا سورة تسمى (سورة الكافرون).. سأقرأها عليكم .. لتروا موقف المسلمين من غيرهم..:﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ (الكافرون)

أخرج الكتاب المقدس من جيبه، وقال: فتشوا هذا الكتاب سفرا سفرا، فلن تجدوا فيه سفرا يسمى (سفر الكافرين)

لكن القرآن مليء بتوعد الكفار ــ كما يسميهم ــ وتهديدهم بالنار التي يخلدون فيها أبد الآباد.. اسمعوا هذه الطلقات النارية التي أطلقها القرآن في وجوه المؤمنين ليعبسوا في وجوه الكافرين..:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً﴾ (النساء:١٤٤).. ﴿ يَا

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (المائدة:٥١).. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (المائدة:٥٧).. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) (الممتحنة:١)

بل إن القرآن ينهى عن موالاة الأب لابنه والابن لأبيه إن كان كافرا.. اسمعوا.. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْأِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (التوبة:٢٣)

أما محمد الذي تأدب بآداب القرآن كما يزعم، فقد كان أكبر شخصية انطوائية في التاريخ.. لقد وقف كالجدار الصلب أمام كل المحاولات التي بذلها قومه ليقيموا حلا وسطا تحقن فيه الدماء، وتحفظ لكل واحد من الفريقين حرمته.. لكنه رفض كل ذلك، وأصر على ذلك التميز الذي جعل من دينه دينا مغلقا لا يمكن لأحد أن يخترقه، وجعل من أتباعه ناسا انطوائيين لا يمكن لأحد أن يسمعهم صوته..

لقد روي أن صاحبه عمر جاءه يوما، فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخ لي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟

قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ، قال عبد الله بن ثابت: فقلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، قال: فسري عن رسول الله ﷺ وقال:(والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين)[1]

وفي رواية أنه قال له:(أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذى نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شئ فيخبروكم بحق فتكذبونه وبباطل فتصدقونه، والذى نفسي بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني)[2]

وفي حديث آخر قال:(لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق، وإنه ــ والله ــ لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني)[3]

وفي حديث آخر قال:(لا تسألوا اهل الكتاب عن شيء، فإني أخاف أن يخبروكم بالصدق فتكذبوهم أو يخبروكم بالكذب فتصدقوهم عليكم بالقرآن فان فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وفصل ما بينكم)[4]

([1]) رواه أحمد، قال الهيثمي في المجمع (١٧٣/١): رجاله رجال الصحيح إلا أن فيه جابرا الجعفي.

([2]) رواه أحمد وابن ماجة.

([3]) رواه أحمد والبزار والدارمي.

([4]) رواه ابن عساكر.

وفي حديث آخر قال:(لا تحملوا دينكم على مساءلة أهل الكتاب فإنهم قد ضلوا وأضلوا من كان قبلكم ضلالا مبينا)[1]

نظر إليهم كما ينظر الأباطرة إلى رعاياهم، وقال: أظن أن ما ذكرته يكفي لتعرفوا من هو محمد.. وأظن أن ما ذكرته يكفي لتدركوا عظم الخطر الذي تحمله أسطورة محمد.

هنا ظهر الحكيم، وصاح في نيقتاس قائلا: لقد طرحت دعواك، فهل تسمح لي، وهل يسمح لي هذا الجمع أن أجيبك عنها؟

لاحظت تغيرا شديدا بدا على ملامح نيقتاس، لكنه لم يملك إلا أن يقول: إن شئت.. فنحن لسنا محمديين حتى ننطوي على أنفسنا، ونغلق آذاننا عن سماع غيرنا..

قال ذلك، ثم التفت إلى الجمع، وقال: هيا نستمع جميعا.. أنا نيقتاس البيزنطي.. وأنتم جميعا.. فلنتواضع كما علمنا المسيح لنسمع بعض هرطقات هذا المحمدي.

قال الحكيم: أرى أن كل ما ذكرته في كلامك هذا يدور حول اتهام محمد ﷺ ودينه بالانطواء..

قال نيقتاس: إن كنت تقصد بالانطواء انغلاق محمد ودينه على نفسيهما، وعدم انفتاحها على الآخر، أو عدم اعترافهما بالآخر، فذلك ما أقصده.

قال الحكيم: وهذا ما أقصده أنا أيضا.. وقد بحثت في هذه المسألة في تاريخ الأديان والمذاهب والأفكار المختلفة التي تحكم سلوك البشرية ومواقفها، فوجدت انحصار الانغلاق في أمرين: انغلاق مرتبط بالأفكار والمذاهب والأديان.. وانغلاق مرتبط بالأعراق والسلالات المختلفة.

وقد رحت انطلاقا من هذا أبحث في تاريخ البشرية الطويل، فلم أجد دينا أكثر انفتاحا من الإسلام، و لم أجد بشرا أكثر انفتاحا على الإنسانية جميعا، بل على الكون جميعا مثل محمد ﷺ.

قال نيقتاس: من السهل أن تدعي.. ومن الصعب أن تثبت.

([1]) رواه ابن عساكر.

١ ــ الانفتاح الديني

قال الحكيم: فاسمع لي لأثبت لك ما أقول.. وسأكتفي بالنماذج والأمثلة.. وسأدع لك الفرصة لتناقشني فيما تشاء.. فقد علمنا ديننا أن نحاور المخالف بالتي هي أحسن، قال تعالى:﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت:٤٦)

انتفض نيقتاس، وقال: لا.. ليس إلهنا وإلهكم واحد[1].. لنا إلهنا الخاص، ولكم إلهكم الخاص.. إن إلهكم ــ كما ذكره نيقتاس البيزنطي ــ ذو شكل كروي كامل، أو على شكل مطرقة معدنية مطروقة في السماء[2].

ابتسم الحكيم، وقال: أرى أن نيقتاس قد نال منك كل منال، فلست تسمع لغيره، ولست تروي لغيره.. ألا تعتبر ذلك انطواء؟

قال نيقتاس: ما دام نيقتاس يقول الحقيقة، فلا حرج علي في أن أنطوي في ظله.

قال الحكيم: فلم تلوم إذن المسلمين إذا انطووا في ظل نبيهم؟.. و لم تعتبرهم منغلقين بذلك الانطواء؟

قال نيقتاس: لأن المسلمين ألغوا غيرهم، و لم يعترفوا لهم بوجود.

قال الحكيم: لا.. إن المسلمين هم الأمة الوحيدة في الأرض التي تعترف بغيرها، وتحترم غيرها.. وتحترم مقدسات غيرها..

ألا ترى نيقتاس البيزنطي، وإخوانه يفترون على نبينا ما شاءت لهم نفوسهم أن تفترى، بل يسبونه علنا، بل يتسابقون فيمن هو أطولهم لسانا على نبينا بينما كل المسلمين بجميع مذاهبهم يحترمون كل الأنبياء.. بل كل الشخصيات المقدسة في جميع الأديان.. لقد قرأت قوله تعالى:﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْأِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران:٨٥)، ونسيت أن تقرأ قبلها هذه الآيات التي تفسرها وتبين المراد منها.. سأقرؤها عليك.. قال تعالى:﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)﴾ (آل عمران)

ألا ترى أن المسلمين يحترمون كل الأشياء، ويعتبرونها تلهج بتسبيح الله وحمده كل حين.. ألا ترى كيف تقدس هذه الآيات الأنبياء؟

قال نيقتاس: أجل.. وهم لذلك يقتلون كل من يسخر من نبيهم.

قال الحكيم: كما يقتل كل مجرم يسخر بأي نبي من الأنبياء.. إنهم لا يفرقون بين أنبياء الله ورسله.. هكذا

---

(١) ذكرنا عند تعريفنا لنيقتاس أنه يذهب إلى هذا، وأن هذا هو رأي الكثير من الحاقدين على الإسلام من أمثال فرانكلين جراهام وجيري فايتر وغيرهما.

(٢) سنرى الرد المفصل على الشبه المرتبطة بتصور المسلمين للألوهية في رسالة (الله جل جلاله) من هذه السلسلة.

أمرهم ربهم.. قال تعالى:﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (البقرة:١٣٦)، وقال تعالى:﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (البقرة:٢٨٥)، وقال تعالى:﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (آل عمران:٨٤)

التفت إلى نيقتاس، ثم قال: لقد كنت تتصور بأن النبي ﷺ يحتقر موسى عليه السلام حين نهى عمر عن صحائف التوراة.. لم يكن النبي ﷺ ليفعل ذلك.

قال نيقتاس: لقد صحت النصوص بذلك.

قال الحكيم: ولكن أي توراة هذه التي نهى النبي ﷺ عمر عنها.. إنها التوراة التي تمتلئ بالأحقاد والعنصرية والسخرية من الأنبياء..

أما عن موقف النبي ﷺ من موسى عليه السلام فهو كل التعظيم والاحترام.. لقد كان النبي ﷺ كلما أصابه الأذى يقول:(رحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر)[1]

وعندما أراد الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ تزيين مسجد رسول الله ﷺ، نهاهم، واعتل لذلك بعدم مخالفته لما كان عليه موسى عليه السلام، عن عبادة بن الصامت ــ رضي الله عنه ــ قال قالت الأنصار: إلى متى يصلي رسول الله ﷺ إلى هذا الجريد، فجمعوا له دنانير، فأتوا بها النبي ﷺ، فقالوا: نصلح هذا المسجد ونزينه، فقال: ليس لي رغبة عن أخي موسى، عريش كعريش موسى)[2]

بل إن النبي ﷺ كان يدعو الله بما دعا به موسى عليه السلام، عن أسماء بنت عميس قال: رأيت رسول الله ﷺ بإزاء ثبير وهو يقول:(أشرق ثبير، أشرق ثبير، اللهم إني أسألك بما سألك أخي موسى أن تشرح لي صدري، وأن تيسر لي أمري، وأن تحل عقدة من لساني يفقهوا قولي، واجعل لي وزيرا من أهلي هرون أخي أشدد به أزري، وأشركه في أمري، كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا)[3]

التفت إلى نيقتاس، وقال: هذا ليس خاصا بموسى عليه السلام فقط.. بل كل الأنبياء لهم حرمة ومكانة عظيمة في نفس رسول الله ﷺ، وفي نفس كل مؤمن.. بل إن النبي ﷺ أمر بالاقتداء بهم والاهتداء بهديهم، قال تعالى:﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ)(الأنعام: من الآية٩٠)

ولذلك لن تجد أي مسلم يحمل تلك التصورات المشوهة التي يحملها قومك عن الأنبياء.. ولن تجد أي مسلم يستطيع أن يتخيل أن نبيا من الأنبياء يمكن أن يقع في المعصية.

سكت قليلا، ثم قال: ليس هذا خاصا بالأنبياء المذكورين في القرآن الكريم، والذين اقتصر القرآن الكريم

---

(1) رواه البخاري.

(2) رواه الطبراني في الكبير، وفيه عيسى بن سنان ضعفه أحمد وغيره ووثقه العجلي وابن حبان وابن خراش في رواية.

(3) رواه ابن مردويه والخطيب وابن عساكر.

على ذكرهم باعتبارهم نماذج فاضلة عن القضايا التي يدعو إليها، وإنما كل الأنبياء.. من نعرفهم ومن لا نعرفهم.. لهم هذه الحرمة في نفس المؤمن.. قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)(غافر: من الآية٧٨)

بل إن القرآن الكريم أخبرنا بأن كل الأمم لها حظها من الأنبياء والرسل، و لم يستثن من ذلك أمة من الأمم، قال تعالى:﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر:٢٤)

ولهذا، فإن المسلمين الذين وعوا هذه النصوص ينظرون بكل مهابة لكل الشخصيات المقدسة عند جميع الأمم خشية أن تكون تلك الشخصيات من الأنبياء الذين لم تذكر أسماؤهم في القرآن الكريم.

قال نيقتاس: ولكن لم يعتبرون أتباع هؤلاء الأنبياء كفارا.. ويخبرون أنهم في جهنم؟

قال الحكيم: بالنسبة لجهنم.. المسلمون لا يجزمون لأحد بأنه من أهل جهنم إلا لمن جزمت لهم النصوص المقدسة بذلك.. أما من عداهم، فكل مسلم متورع يتورع من إطلاق ذلك [1]..

لقد قال رسول الله ﷺ ذاكرا صعوبة الحكم في مثل هذه المسائل التي هي من اختصاص الله:(إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل اهل الجنة ثم يختم له بعمل اهل النار وأن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل اهل النار ثم يختم عمله بعمل اهل الجنة)[2]

لقد قطع هذا الحديث وغيره الألسن من أن تتدخل في دور الجزاء التي أعدها الله لعباده، كما قال تعالى:﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الاحقاف:٩)

بالإضافة إلى ذلك، فإن التكاليف الإسلامية لا يؤاخذ بها إلى من بلغته عبر طرق صحيحة، ثم جحدها، أما من عداهم ممن لم تبلغهم الدعوة أو بلغتهم عبر طرق مشوهة، فإنهم لا يؤاخذون[3].. لقد قال تعالى ينص على هذا:﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الاسراء:١٥)

قال نيقتاس: وعقيدة الولاء والبراء التي تمتلئ بها حناجر المسلمين وكتبهم؟

قال الحكيم: لا توجد أمة في الدنيا لها خصوصيتها إلا وتحمل هذه العقيدة.. ولكن ليس هناك أمة في الدنيا تحملها بمثل الطهر الذي تحمله أمة محمد ﷺ..

([1])عبر الشعراني عن وصايا رسول الله ﷺ المرتبطة بهذا، فقال: (أخذ علينا العهد العام من رسول الله ﷺ أن لا نحتقر مسلما ولو بلغ في الفسق ما بلغ لجهلنا بخاتمته وإنما نأمره وننهاه من غير احتقار وربما يكون أحسن حالا منا فكيف نحتقر من نحن أسوأ حالا منه؟ وإيضاح ذلك أن السبب الموجب لوقوعنا في احتقاره إنما هو حسن الظن بأنفسنا وسوء الظن بغيرنا والواجب العكس كما قالوا من حكمة العارف بالله أن يوسع على الناس ويضيق على نفسه، ويرى أن الله تعالى سامح الخلق ويؤاخذه هو) (العهود المحمدية)

وما ذكره الشيخ الشعراني ــ حسبما تدل النصوص ــ ليس خاصا بالمسلم.. فالمسلم لا يحتقر غير المسلمين حين يدعوهم الله.. بل هو لا يدعوهم إلا انطلاقا من احترامه لهم، ولو لم يكن يحترمهم لما أعارهم أي اهتمام.

([2]) رواه مسلم.

([3]) انظر التفاصيل المرتبطة بهذه المسألة، وعلاقتها بالعدل الإلهي في رسالة (أسرار الأقدار) من (رسائل السلام)

إن عقيدة (الولاء والبراء) لا تعني عند المسلم إلا ما يعنيه اختيار المريض الذي اختلف الأطباء في تشخيص دائه وصفة من الوصفات وترك ما عداها.

ألا ترى أن ذلك المريض يستحيل عليه أن يجمع كل الوصفات؟

قال نيقتاس: بل يمكن أن يجمع بينها، وبذلك يحقق أكبر احتمال بشفائه.

قال الحكيم: لكن الأدوية قد تتعارض فيما بينها، فيتحقق الموت بدل الشفاء..

قال نيقتاس: ذلك في الدواء.

قال الحكيم: ومثله في الأديان.. سأضرب لك مثالا يقرب لك ذلك.. ألا ترى أن مبنى دين الإسلام على وحدانية الله التي تنفي الشريك مطلقا مهم كانت صورته، وهي لذلك تعتبر المسيح ﷺ بشرا كسائر البشر، له حظه من ولاية الله، ومن تكريم الله.. ولكن ذلك الحظ لا يرقى به إلى المرتبة التي تزعمونها له.

قال نيقتاس: بل هي مترلته الحقيقية التي غفلتهم عنها، كما غفل عنها غيركم.

قال الحكيم: ولكن.. هل تستيطع أن تجمع بين هذين المتناقضين، فتعتقد بأن المسيح ﷺ بشر، وأنه يستحيل أن يكون إلها، أو أقنوما من إله.. ثم تعتقد في نفس الوقت بأنه إله أو أقنوم من إله.

سكت نيقتاس، فقال الحكيم: ولهذا.. فإن المسلم ككل متدين في العالم يحرص على اتباع ما اقتنع به، واعتقد صدقه.. وهذا الاقتناع والإذعان هو الذي يسمى ولاء.

قال نيقتاس: والبراء؟

قال الحكيم: من والى شيئا تبرأ من ضده.. ومن أحب شيئا أبغض عدوه.

قال نيقتاس: وبغضه هو الذي يجره إلى الانطواء.

قال الحكيم: في ديننا لا نعرف شيئا اسمه البغض..

قال نيقتاس: والبغض في الله.. أم تراك لم تسمع به.. فإن لم تسمع به، فقد اعتبره نبيكم من علامات كمال الإيمان، فقال:(لا يحق العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله فإذا أحب لله تبارك وتعالى وأبغض لله فقد استحق الولاية من الله إن أوليائي من عبادي وأحبائي من خلقي الذين يذكرون بذكري وأذكر بذكرهم)[1]

قال الحكيم: قبل أن أبين لك معاني المحبة التي ينطوي عليها هذا النوع من البغض أذكر لك كلاما منطقيا لبعض علمائنا لترى من خلالها مدى منطقية هذا النوع من البغض..

لقد قال الغزالي:(إن كل من يحب في الله لا بد أن يبغض في الله، فإنك إن أحببت إنساناً لأنه مطيع لله ومحبوب عند الله فإن عصاه فلا بد أن تبغضه لأنه عاص لله وممقوت عند الله، ومن أحب بسبب فبالضرورة يبغض لضده، وهذان متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر، وهو مطرد في الحب والبغض في العادات)

فالحب والبغض شعوران كل منهما يتطلب الآخر، فكل من أحب لا بد أن يبغض ما يتضاد مع حبه، وكل من أبغض لا بد أن يحب ما يتضاد مع بغضه.

([1]) رواه أحمد وفيه رشدين بن سعد وهو منقطع ضعيف.

وهذان الشعوران الدفينان في سويداء الصدور يترشحان (بظهور أفعال المحبـــين والمبغضين في المقاربة والمباعدة وفي المخالطة والموافقة فإذا ظهر في الفعل سمي موالاة ومعاداة)

ولهذا جمع القرآن الكريم بين الأمر بموالاة المؤمنين مع الأمر بعدم موالاة أعدائهم، فلا يمكن للقلب أن يجمع بين الحبين، حب الحبيب وحب عدوه، قال تعالى:﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (آل عمران:٢٨)

فالآية الكريمة تنفي أي مكانة لمن يوالي الكافرين دون المؤمنين، وتعقب ذلك بالتحذير الشديد الذي يدل على خطر موالاة أعداء الله.

بل إن القرآن الكريم يجعل مولى القوم منهم، فمولى اليهود والنصارى لا يختلف عن اليهود والنصارى، قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (المائدة:٥١)

قال نيقتاس: فهاهو البغض إذن أصل من أصول دينكم، فكيف تزعم أنه لا مكان للبغض فيه؟

قال الحكيم: أرأيت لو أن الله ابتلاك بداء منفر.. نفرت نفسك منه.. أو نفرت نفوس الناس منه.. هل تراك تحب ذلك الداء؟

قال نيقتاس: ليس هناك من يحب أي داء منفرا كان أو غير منفر.

قال الحكيم: ولكنك لا تبغض جسدك الذي حل به هذا الداء؟

قال نيقتاس: لولا حبي له ما أبغضت الداء الذي أصابه.. بل إني.. وأقولها بكل صراحة.. أفرح بكل داء يصيب أعدائي.. بل إني أمتلئ بحب ذلك الداء الذي أصابهم.. ولو أن في إمكاني أن أقدم جائزة له لفعلت.

قال الحكيم: فبغض المسلمين وحبهم من هذا الباب.. فهم لا يبغضون المرء لذاته، وإنما يبغضونه لأجل الله.. ولهذا قال ﷺ:(ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يوقد له نار فيقذف فيها)[1]

فقد أخبر ﷺ أن أساس الحب وسببه هو حب الله.. وهو فوق ذلك حب في الله.

وهكذا ما سميناه بغضا.. فهو لله لا لأي اعتبار آخر.

قال نيقتاس: فما معنى كونه لله؟

قال الحكيم: أي أنه بغض غير ناشئ عن حقد، ولا عن مصالح شخصية، وإنما هو بغض مرتبط بطاعة الله ومعصيته.. ولذلك فإن المؤمن سرعان ما يمتلئ محبة لهذا الذي أبغضه في الله إن هو تخلص من انحرافه.

بل هو في أثناء بغضه له في الله يحبه كل المحبة.

قال نيقتاس: أنت تكاد تخبلني بقولك هذا.

([1]) رواه البخاري ومسلم.

قال الحكيم: أرأيت الأب الذي يحزن لمرض ولده.. وهو في نفس الوقت يمتلئ بغضا لذلك الداء الذي أصابه.. هل يمكن أن يكون هذا الأب حقودا على ولده؟

قال نيقتاس: يستحيل ذلك.. بل إن حزنه دليل على محبته.

قال الحكيم: ما دمت وعيت هذا.. فاسمع ما يقول الله تعالى مخبرا عما كان يملأ النبي ﷺ نحو الذين واجهوه بالمحاربة، قال تعالى:﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ (الكهف:٦)، وقال تعالى:﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:٣).. أتدري ما معنى (باخع)؟

قال نيقتاس: أعرف أنها (قاتل)

قال الحكيم: فقد كاد الحزن يقتل النبي ﷺ على أعدائه.. ولهذا نهي عن ذلك، قال تعالى:﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (فاطر:٨)

ونهي عن الحزن عليهم، فقال:﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (النحل:١٢٧)

التفت الحكيم إلى نيقتاس، وقال: هل ترى رجلا مثل هذا يمكن أن يحمل البغض الذي يحمله الحاقدون؟

قال نيقتاس: ولكن ما علاقة ذلك كله بالانفتاح الديني الذي تزعمه؟

قال الحكيم: هذا هو أساس الانفتاح وقلبه ومحركه.. فالانفتاح ليس صورة أو طلاء، وإنما هو حقائق تملأ النفوس طهرا، والسلوك أدبا.

ولهذا، فإن المسلم ــ خارج الإطار الديني المحض ــ مطالب بالإحسان والأدب مع كل الناس مسلمهم وكافرهم، لقد قال الله تعالى يحث على رعاية الوالدين الكافرين والإحسان إليهما:﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان:١٥)

ففي هذه الآية نهي المسلمون أن يطيعوا آباءهم فيما يأمرونهم به من الكفر، ولكنهم نهوا في نفس الوقت أن يسيئوا إليهم أو يقصروا في الإحسان إليهم.

وقد ضرب الله تعالى للمؤمنين مثلا لذلك بإبراهيم عليه السلام الذي كان برا بأبيه مع كفره بالله، قال تعالى مخبرا عنه:﴿ قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾ (مريم:٤٧)

وقد جاءت أسماء بنت أبي بكر ــ رضي الله عنها ــ إلى رسول الله ﷺ، فقالت: قدمت علي أمي، وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ، قلت: قدمت علي أمي، وهي راغبة[1] أفأصل أمي، قال:(نعم، صلي أمك)[2]

---

(1) أي طامعة فيما عندي تسألني الإحسان إليها.

(2) رواه البخاري ومسلم وأبو داود ولفظه قالت: قدمت علي أمي راغبة في عهد قريب وهي راغمة مشركة، فقلت: يا رسول الله، إن أمي قدمت علي وهي راغمة مشركة، أفأصلها قال: نعم صلي أمك.

أرأيت إن رسول الله ﷺ أمرها أن تصل أمها وتحسن إليها مع كونها مشركة.

إن الود الذي نهي عنه المسلمون هو الود الذي يضحي بود الله من أجل ود ذلك القريب.. كما قال تعالى:﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة:٢٤).. هذا هو الود المنهي عنه.. وهو ود يجعل هم صاحبه أن يرضي من وده على حساب حبه لله.

ولهذا ما نهي المسلمون عن الموادة التي لا تضحي بمودة الله، قال تعالى:﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٨)

ثم بين موضع العداوة، فقال:﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة:٩)

ولهذا، فإن رسول الله ﷺ لما أمر بإنذار أهله في قوله تعالى:﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤) جمع الأقربين من أهله، فخص وعم، فقال:(يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم من الله، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم من الله ضرًا ولا نفعًا، ولا أغني عنكم من الله شيئًا.

يا بني كعب بن لؤى، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًا ولا نفعًا.

يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا معشر بني قصى، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًا ولا نفعًا.

يا معشر بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم من الله ضرًا ولا نفعًا، ولا أغني عنكم من الله شيئًا.

يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا معشر بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًا ولا نفعًا، ولا أغني عنكم من الله شيئًا، سلوني من مالي ماشئتم، لا أملك لكم من الله شيئًا.

يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئًا.

يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئًا.

يا فاطمة بنت محمد رسول الله، سليني ما شئت من مالي، أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لك ضرًا ولا نفعًا، ولا أغني عنك من الله شيئًا.

غير أن لكم رحمًا سأبُلّها ببلالها)[1] أي أصلها حسب حقها.

فالنبي ﷺ في هذا البيان ذكر علاقة المسلم بالمخالفين، فهو ينصحهم ويدعوهم ويكل أمرهم إلى الله، وفي

([1]) رواه البخاري ومسلم وغيرهما بألفاظ مختلفة.

نفس الوقت يصلهم ويحسن إليهم ما دام الإحسان إليهم لا يضر بدينهم ولا بدينه.

قال نيقتاس: كيف يضر الإحسان.. وهل يمكن أن يضر الإحسان أحدا من الناس؟

قال الحكيم: أجل.. يمكن أن يضر الإحسان.. ألا ترى أن الشفقة على الصبي المريض بعدم إعطائه الدواء المر مضرة له.

قال نيقتاس: أجل.. ذلك صحيح.

قال الحكيم: ولهذا، فإن الإحسان بصورة من الصور إذا جر إلى مضرة كان الأولى تركه إلى صورة أخرى من الإحسان.. قد تكون قاسية ولكن منفعتها أعظم.

قال نيقتاس: فأنت تبرر إذن بعض القسوة التي قد يتعامل بها المسلم مع المخالف؟

قال الحكيم: هي قسوة منطلقة من رحمة.. وهو بغض مدده محبة.

٢ ــ الانفتاح الإنساني

قال رجل من الجمع: لقد عرفنا مدى انفتاح المسلمين الديني.. وعرفنا أن ذلك ميراث ورثوه من نبيهم.. فحدثنا عن الانفتاح الإنساني.

قال الحكيم: قبل أن أحدثكم عن الانفتاح الإنساني أطلب من السيد الفاضل نيقتاس البيزنطي أن يقرأ لنا ما ذكرته الأناجيل من خبر المرأة الكنعانية مع المسيح.

قال نيقتاس: أحفظ ذلك النص عن ظهر قلب.. ويسرني أن تستمع له لترى رحمة المسيح، وتفتحه على كل شعوب الأرض حتى ولو لم يكونوا من بني إسرائيل.

استجمع نيقتاس كل ما لديه من مشاعر ومن قدرات تأثيرية، وراح يقرأ بخشوع:(ثم غادر يسوع تلك المنطقة، وذهب إلى نواحي صور وصيدا، فإذا امرأة كنعانية من تلك النواحي، قد تقدمت إليه صارخة: (ارحمني ياسيد، ياابن داود! ابنتي معذبة جدا، يسكنها شيطان) لكنه لم يجبها بكلمة، فجاء تلاميذه يلحون عليه قائلين:(اقض لها حاجتها. فهي تصرخ في إثرنا!)، فأجاب: (ما أرسلت إلا إلى الخراف الضالة، إلى بيت إسرائيل!)، ولكن المرأة اقتربت إليه، وسجدت له، وقالت: (أعني ياسيد!)، فأجاب: (ليس من الصواب أن يؤخذ خبز البنين ويطرح لجراء الكلاب!)، فقالت: (صحيح ياسيد؛ ولكن جراء الكلاب تأكل من الفتات الذي يسقط من موائد أصحابها!)(متى ١٥: ٢٣ ــ ٢٧)

لاحظ نيقتاس بعض التقزز في نفوس الجمع، فقال: اصبروا.. ولا تستعجلوا، فإن المشهد لم يتوقف هنا.. لقد ورد في (متى: ٢٨):(فأجابها يسوع: أيتها المرأة، عظيم إيمانك! فليكن لك ما تطلبين! فشفيت ابنتها من تلك الساعة)

ابتسم ابتسامة عريضة، وقال: هل رأيتم إنسانية أعظم من هذه الإنسانية؟.. وهل رأيتم تفتحا أعظم من هذا التفتح؟

ابتسم الحكيم، وقال: أرأيت لو أن شخصا لم يلب طلبك البسيط بالنسبة له إلا بعد أن يهين كرامتك، ويحتقرك، بل يسميك كلبا، ثم لا يلبه إلا بعد إلحاح شديد، بل بعد سجودك له.. أتعتبر مثل هذا إنسانا محترما لا يحمل أي عنصرية؟

سكت نيقتاس، فقال الحكيم: إن العنصرية والانطواء العرقي تفوح من جميع الكتاب المقدس، لا من هذا النص وحده.. ولو قلت لك بأنه لا يوجد كتاب في الدنيا يفوق ما فيه من عنصرية ما في الكتاب المقدس منها، فلن أكون كاذبا.

التفت إلى نيقتاس، وقال: لن أكلفك أن تقرأ لي نصوصا من الكتاب المقدس.. بل سأقرؤها بنفسي.. وأدع لك مهمة التصحيح.. أنا مثلك أحفظ الكتاب المقدس عن ظهر قلب..

أخذا يقرأ من إنجيل يوحنا:(ورأى يسوع نثنائيل قادما نحوه فقال عنه: هذا إسرائيلي أصيل لا شك فيه!)(يوحنا:ا/٤٧)

التتف الحكيم إلى نيقتاس، وقال: هذا نص مملوء بالعنصرية المقيتة.. إن الإنسان في تصورنا نحن المسلمين يكرم لتقواه ولدينه لا لأصله ونسبه.

لن أكتفي بهذا النص.. هناك نصوص أخرى كثيرة سأقرؤها من دون أي تعليق:

لقد جاء في (صموئيل: ١/ ٤٣):(فقال الفلسطيني لداود: (ألعلي كلب حتى تأتي لمحاربتي بعصي؟)

وجاء في (مزامير: ٨/٦٠):(موآب مرحضتي، وعلى أدوم ألقي حذائي)

وجاء في (تثنية ٢٠/ ١٠ــ ١٥):(وحين تتقدمون لمحاربة مدينة فادعوها للصلح أولا. فإن أجابتكم إلى الصلح واستسلمت لكم، فكل الشعب الساكن فيها يصبح عبيدا لكم. وإن أبت الصلح وحاربتكم فحاصروها فإذا أسقطها الرب إلهكم في أيديكم، فاقتلوا جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم، وكل ما في المدينة من أسلاب، فاغنموها لأنفسكم، وتمتعوا بغنائم أعدائكم التي وهبها الرب إلهكم لكم. هكذا تفعلون بكل المدن النائية عنكم التي ليست من مدن الأمم القاطنة هنا)

وجاء في (صموئيل ١/ ١٥: ٣):(فاذهب الآن وهاجم عماليق.. لا تعف عن أحد منهم بل اقتلهم جميعا رجالا ونساء، وأطفالا ورضعا)

وجاء في (إشعياء ٦١/ ٥ ــ ٦):(ويقوم الغرباء على رعاية قطعانكم، وأبناء الأجانب يكونون لكم حراثا وكرامين. أما أنتم فتدعون كهنة الرب،.. فتأكلون ثروة الأمم وتتعظمون بغناهم)

أما سفر يشوع.. فأنت تعرف ما فيه.. إنه السفر الذي يفوح بروائح العنصرية التي لا تقل عن عنصرية هتلر.. بل تزيد عليها.. سأقرأ لك شيئا لعلك قرأته من غير أن تتدبر معناه:

بدأ يقرأ:(ودمروا المدينة وقضوا بحد السيف على كل من فيها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ حتى البقر والغنم والحمير. ثم أحرق الإسرائيليون المدينة بالنار بكل ما فيها واستحيا يشوع راحاب الزانية)(يشوع: ٦/ ٢١)

وورد فيه:(رجع المحاربون الإسرائيليون إلى عاي وقتلوا كل من فيها فكان جميع من قتل في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفا، وهم جميع أهل عاي حتى تم القضاء على جميع أهل عاي)(يشوع: ٨/ ٢٤)

وورد فيه:(وقتل بالسيف ملكها وكل نفس فيها. لم يفلت منها ناج. فدمرها وقتل كل نفس فيها بحد السيف فلم يفلت منها ناج.. فاستولوا عليها.. ودمروها وقتلوا كل نفس فيها بحد السيف.. ودمروها، وقضوا على كل نفس فيها بحد السيف.. واستولوا عليها ودمروها.. وقتلوا ملكها وكل نفس فيها بحد السيف فلم يفلت منها ناج.. وهكذا قضوا على كل نفس فيها.. وقتل ملكها وكل نفس فيها بحد السيف فلم يفلت منها ناج.. بل قضى على كل حي)(يشوع: ١٠/ ٢٨)

وورد فيه:(وقضوا فيها على كل نسمة بحد السيف، فلم يبق فيها حي، وأحرقوها بالنار.. أما الرجال فقتلوهم بحد السيف فلم يبق منهم حي.. ليدمرهم الإسرائيليون ويفنوهم من غير رأفة.. وهاجم يشوع العناقيين أيضا وأبادهم من الجبل.. ومن سائر جبل يهوذا ومن جبال إسرائيل، فقضى عليهم ودمر مدنهم.. فلم يبق منهم أحد في أرض بني إسرائيل سوى قلة)(يشوع: ١١/ ١١)

سكت قليلا، ثم قال: لقد انتقد القرآن الكريم كثيرا تلك العنصرية المقيتة التي يمتلئ بها الكتاب المقدس، والتي أوحت لكل قارئ له بأن إسرائيل هم شعب الله المختار، وأن غيرهم مجرد قطعان لا يختلفون عن قطعان الماشية.

قال تعالى:﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (المائدة:١٨)

وقال تعالى:﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٨٠)، وقال:﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (آل عمران:٢٤)

وقد رد عليهم وعلى كل من يتصور أن لعرقه من الخصائص ما يرفع العقوبة عنه، فقال:﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾ (النساء:١٢٣)

التفت الحكيم إلى نيقتاس، وقال: أأزيدك أم تكتفي بهذا؟

سكت نيقتاس، فقال الحكيم: دعنا من عنصرية الكتاب المقدس، ولننتقل إلى عنصرية الحضارة التي تفخرون بها على الإسلام.. حضارة الرجل الأبيض.

لا شك أنك تعلم أن من أهم الأفكار التي شاعت في الحضارة الغربية[1] منذ بدايتها ما يمكن تسميته (الفكر العنصري) أو العرْقي، وهو فكر ينطلق من أن البشر جميعاً مادة، ولذا فالاختلافات بينهم مادية، كامنة في خصائصهم العرْقية والتشريحية، وأن البشر مادة بشرية يمكن أن تُوظَّف فتكون نافعة ويمكن أن لا يكون لها نفع.

ومن هنا تَبرُز ــ في تصورهم ــ أهمية الاختلافات العرْقية (لون الجلد ــ حجم الرأس.. وغيرها) كمعيار للتفرقة بين البشر، والخصائص الحضارية ورقي شعب ما وتَخلُّفه هو نتيجة صفاته العرْقية والتشريحية، ومن ثم فتقدُّم أو تَخلُّف شعب مسألة عرْقية متوارثة.

وانطلاقا من هذا التصور العنصري طَبَّق منظروا العرْقية هذه النظريات على شعوب أوربا وأقلياتها، فاتجه الألمان إلى وضع الآريين، وخصوصاً التيوتون، على رأس الهرم، كما نجد الإنجليز يضعون العنصر الأنجلو ساكسوني (الإنجليزي الأمريكي) عند هذه القمة، ومن السلاف من فعل ذلك.. وعلى أية حال، فإن الشعوب البيضاء (الشقراء) في الشمال تجيء على القمة، أما الشعوب الداكنة في الجنوب (الإيطاليون واليونانيون) فكانت توضع في منتصف الهرم، وفي قاعدة الهرم كان يوضع الغجر واليهود.

هذا داخل أوروبا.. أما خارجها، فالشعوب الملونة خارج أوربا هي شعوب متخلفة حضارياً وعرْقياً، على حين أن الرجل الأبيض متقدم متحضر، الأمر الذي يضع على الإنسان الأبيض عبئاً ثقيلاً ويفرض عليه أن يغزو بقية العالم ويهزم شعوبها ويبيد أعداداً منهم حتى يتم إدخال الحضارة عليهم.

التفت الحكيم إلى الجمع، وقال: هذه هي الرؤى الفلسفية التي تملأ البيوت البيضاء والسوداء التي تحكم العالم.. وعلى أساس هذه الفلسفة سالت الدماء الكثيرة التي لم يكن هناك من مبرر لسيلانها سوى هذه

([1]) انظر: الموسوعة اليهودية للمسيري.

العنصرية المقيتة..

سكت قليلا، ثم قال: لن أحدثك عن فكر هتلر، ولا عن سلوكه العنصري.. فالكل يعلم ذلك.. ولكني سأحدثك عن الأمة التي تتصور أنها شعب الله المختار في العصر الحديث، وأنه يحق لها لأجل ذلك أن تفرض ما تشاء على من تشاء، وتصنف من تشاء كما تشاء.

سأحدثك عن أمريكا، وعن بيتها الأبيض المبني على جثث الهنود الحمر[1] ..

إن المراقب للتاريخ الأمريكي منذ بدأ التاريخ الأمريكي تصدمه وقائع الطريقة التي تعامل بها الأمريكيون مع شعوب العالم الأخرى؛ إذ سرعان ما يكتشف المرء أنه لا يوجد فرق كبير بين نظرة اليهود إلى (الجوييم)[2] أو الأمميين العوام المستباحي الأرواح والدماء والأعراض، وبين نظرة الأنجلوساكسون إليهم، فكلا النظرتين تنطلقان من مقولة أن هناك جنساً متفوقاً لا بد أن تخضع له الشعوب وتركع تحت رجليه الأمم بحيث لا تكون لحياتها قيمة إلا بقدر ما تخدم (الشعب المختار)، ولا تكون لأرضها أهمية إلا بقدر ما تمد ذلك الشعب بالخيرات، أما إذا تعارضت حياة أولئك (الأغيار) مع المصالح العليا للشعب المختار، فلا ضرورة لهذه الحياة أصلاً، وأما إذا ما تجرأ أحد منهم على تهديد حياة أحد من أبناء الشعب المختار، فإن قيامته لا بد أن تُعجَّل بإحراق أو إغراق أو استرقاق أو أي وسيلة من وسائل الإزهاق.

التفت الحكيم إلى الجماعة المحيطة به، وقال بنبرة حزينة: إن عقدة الدم الأنجلوساكسوني الأمريكي لا تختلف عن عقدة الدم اليهودي.. فكلاهما شديد الاستهانة بدماء (الأغيار)، وكلاهما شديد الحرص على دماء (الشعب المختار)

في عام ١٦٦٤، صدر كتاب بعنوان: (العملاق) كتبه (يوردجاك) تضمن نصائح للقيادات الأنجلو ساكسونية المتزعمة للمهاجرين البروتستانت إلى القارة الأمريكية الجديدة، جاء فيه:(إن إبادة الهنود الحمر والخلاص منهم أرخص بكثير من أي محاولة لتنصيرهم أو تمدينهم ؛ فهم همج، برابرة، عراة، وهذا يجعل تمدينهم صعباً)

وجاء فيه:(إن النصر عليهم سهل، أما محاولة تمدينهم فسوف تأخذ وقتاً طويلاً، وأما الإبادة فإنها تختصر هذا الوقت، ووسائل تحقيق الانتصار عليهم كثيرة: بالقوة، بالمفاجأة، بالتجويع، بحرق المحاصيل، بتدمير القوارب والبيوت، بتمزيق شباك الصيد، وفي المرحلة الأخيرة: المطاردة بالجياد السريعة والكلاب المدربة التي تخيفهم ؛ لأنها تنهش أجسادهم العارية)

وفي عام ١٧٣٠ م، أصدرت الجمعية التشريعية (البرلمان) لمن يسمون أنفسهم (البروتستانت الأطهار) تشريعاً يقنن عملية الإبادة لمن تبقى من الهنود الحمر، فأصدرت قراراً بتقديم مكافأة مقدارها ٤٠ جنيهاً مقابل كل فروة مسلوخة من رأس هندي أحمر، و٤٠ جنيهاً مقابل أسر كل واحد منهم، وبعد خمسة عشر عاماً

([1])انظر هذه التفاصيل وغيرها في: أمريكا واسرائيل وعقدة الدم، د. عبد العزيز بن مصطفى كامل، وقد كنا أشرنا إلى بعضها من قبل في رسالة (ثمار من شجرة النبوة)

([2]) يقصد بها الأغيار في المفهوم الصهيوني.

ارتفعت المكافأة إلى ١٠٠ جنيه! ثم وضع البرلمان البروتستانتي (تسعيرة) جديدة بعد عشرين عاماً من صدور القرارات الأولى: فروة رأس ذكر عمره ١٢ عاماً فما فوق: ١٠٠ جنيه، أسير من الرجال: ١٠٥ جنيهات، أسيرة من النساء أو طفل: ٥٥ جنيهاً، فروة رأس امرأة أو فروة رأس طفل: ٥٠ جنيهاً.

وفي عام ١٧٦٣ م أمر القائد الأمريكي (جفري آهرست) برمي بطانيات كانت تستخدم في مصحات علاج الجدري في أماكن تجمعات الهنود الحمر، لنقل مرض الجدري إليهم بهدف نشر المرض بينهم ؛ مما أدى إلى انتشار الوباء الذي نتج عنه موت عشرات الألوف منهم.

وبعد عقود قليلة انتهى أمر السكان الأصليين في القارة الأمريكية إلى ما يشبه الفناء، بعد الإبادة المنظمة لهم على أيدي المبشرين بالمحبة، والسلام للبشرية جمعاء!

التفت الحكيم إلى الجمع المحيط به، وقال بحزن، وكأنه يقص عليهم قصة من قصص البدائيين: بعد فراغ القارة الأمريكية من العبيد (الحمر) قرر الأمريكيون استيراد عدة ملايين من العبيد (السمر) لخدمة (الشعب المختار) فتحول رعاة البقر إلى بحارة يجوبون السواحل الإفريقية لاصطياد (العبيد)، وحشرهم في سفن الشحن، في عمليات إجرام أخرى يعالجون بها آثار الجريمة الأولى في حق الهنود الحمر، حيث لم يبق لديهم ما يكفي من الأيدي العاملة لبناء صرح الحضارة الجديدة.

وقد جلب الأوربيون والأمريكيون في أول الأمر ما لا يقل عن ١٢ مليوناً من الأفارقة المسترقين، جاءوا بأفواجهم في الأصفاد، وكانت البرتغال أكثر الدول الأوروبية توسعاً في جلب هؤلاء إلى أراضي العالم الجديد في أمريكا، دون توفير أدنى الضمانات لتلك (المخلوقات) الإفريقية التي لم يَرْقَ التعامل معهم إلى مستوى التعامل مع فئران المعامل ؛ فقد صدر عن منظمة اليونسكو عام ١٩٧٨تقرير يحكي فضاعة ما حصل للأفارقة وهول الكارثة الإنسانية التي حلت بهم لهم من أجل تعمير أمريكا ؛ فقد جاء فيه:(إن إفريقيا فقدت من أبنائها في تجارة الرقيق نحو ٢١٠ ملايين نسمة، وذكرت التقارير أن ما لا يقل عن خمسة وعشرين مليوناً من الأفارقة الذين تم شحنهم من أنحاء القارة في أفواج من (جزيرة جور) الواقعة في مواجهة العاصمة السنغالية (داكار) ؛ قد هلك أكثرهم قبل أن يصلوا إلى العالم الجديد مما لقوا في رحلات العذاب داخل سفن شحن المواشي)

التفت إلى نيقتاس، وقال: لا شك أنك تعلم أن أمريكا هي التي أحبطت في مؤتمر (دوربان) عام ٢٠٠٠م مطالب الأفارقة بالتعويض عما حدث لهم، بل رفضت أن يقدم لهم مجرد اعتذار، ومع كل هذا لا يزال كثير من المغفلين أو المغرضين يرفعون عقيرتهم قائلين: إن أمريكا محررة العبيد!

لقد بقي الأمريكيون مشغولين عن التدخل في شؤون العالم ثلاثة قرون، تاركين ذلك للجزء الأصلي من الشعب الساكسوني المختار (بريطانيا) ثم قرروا بعد نشوب الحرب العالمية الثانية أن ينفتحوا على العالم، وكانت بداية ذلك الانفتاح دموية قاتلة.

بالرغم من أن الحرب العالمية الثانية أفقدت العالم ما لا يقل عن خمسين مليوناً من البشر فإن خسارة الأمريكيين لخمسة آلاف جندي، بعد الهجمات اليابانية بطائرات (الكاميكازا) على (ميناء هاربر) الأمريكي عام ١٩٤٥م أفقدت الأمريكيين عقلهم؛ فلأول مرة يخسر الشعب الأمريكي (المختار) هذا الكم الهائل من

الدماء في معركة واحدة، فكان لا بد أن يكون الرد حقداً يصب على رؤوس اليابانيين المدنيين منهم قبل العسكريين، وهذا ما حدث؛ فمقابل دماء الخمسة آلاف جندي أمريكي، أقبل الأمريكيون الأنجلو ساكسون على الانتقام المجنون، فأمر الجنرال (جورج مارشال) رئيس الأركان الأمريكي في ذلك الوقت بتنفيذ عمليات قصف تدميري واسع النطاق للمدن اليابانية الكثيفة السكان، فتم إطلاق ٣٣٤ طائرة أمريكية لإلقاء القنابل الحارقة لتدمر ما مساحته ١٦ ميلاً مربعاً، ولتقتل في ساعات نحو ١٠٠ ألف شخص، وتشرد نحو مليون آخرين، في عمليات جحيم مستعر شمل طوكيو و٦٤ مدينة يابانية أخرى، ثم ختم ذلك المشهد الدموي، بمشهد آخر أكثر دموية لم يكن للبشرية به عهد قبل مجيء العهد الأمريكي؛ فقد أقدم الأمريكيون وهم القوة المتظاهرة اليوم بالدعوة إلى التعقل في استعمال أسلحة الدمار الشامل إلى استعمال هذا السلاح، وكانوا أسبق البشر إلى استعماله عندما أسقطوا قنبلتين نوويتين فوق مدينتي هيروشيما وناجازاكي، حصدت بسببها عشرات الآلاف من الأرواح بلا أدنى تفريق بين مدني وعسكري، أو رجل وامرأة وطفل.

سقطت دموع حارة من عيون الجمع، فقال الحكيم: اعذروني.. لم أكن أقصد أن أسيء إليكم.. ولست أقصد بما ذكرت أي أمة من الأمم، ففي كل أمة يختلط الطيبون بالخبيثين.. وفي أمريكا بالذات طيبون كثيرون يستحقون من كل مسلم كل الاحترام.. وفي الإسلام لا يؤاخذ الابن بما فعل أباه، قال تعالى:﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (فاطر:١٨)

ولذلك لم أقصد أن أهين أي أحد من الناس.. لا اليهود ولا الأمريكيين.. ولا أي أحد.. أنا أذكر الحقائق التي برهن عليها التاريخ لنقيم من خلالها مقارناتنا بين هؤلاء الذين يتيهون على الإسلام وعلى نبي الإسلام في نفس الوقت الذي يفخرون به بآبائهم وأجدادهم وأنفسهم متناسين كل جرائمهم..

أقول لهم ذلك لأذكرهم بما قال المسيح ﷷ لأحبار اليهود الملطخين بالخطايا:(من كان منكم بلا خطيئة، فليرمها بحجارة)

قال رجل من الجمع: حدثنا عن انغلاقنا فحدثنا عن انفتاح الإسلام، وانفتاح نبي الإسلام.

قال الحكيم: إن القرآن الكريم الذي هو ميثاق المسلمين ودستورهم.. والذي هو مؤدب رسول الله ﷺ الأول.. ينص على أن البشر جميعا إخوة.. وأنهم كلهم لآدم، وأن الله نوع أعراقهم وألوانهم وألسنتهم كما نوع كل شيء لتكتمل الحياة بذلك التنوع، قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣)

وقد خطب رسول الله في أكبر تجمع عرفه في حياته.. وفي خطبة تسمى خطبة الوداع.. بسبب كونها وصيته الخاتمة لأمته جميعا.. لقد في تلك الخطبة:(يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات:١٣)، ألا هل بلغت؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال:(فليبلغ الشاهد

الغائب)[1]

وقد أخبر ﷺ عن مصير الأعراق التي يتفانى البشر في اعتبارها، فقال:(إذا كان يوم القيامة أمر الله مناديا ينادي: ألا إني جعلت نسبا وجعلتم نسبا، فجعلت أكرمكم أتقاكم، فأبيتم إلا أن تقولوا فلان ابن فلان خير من فلان بن فلان، فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم، أين المتقون؟)[2]

ولهذا، فإنك لن تجد في القرآن.. في كل القرآن خطابا لقبيلة من القبائل.. لا العرب ولا غيرهم.. فالله تعالى يخاطب الناس باعتبارهم بشرا.. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة:٢١).. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) (البقرة:١٦٨).. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً) (النساء:١).. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً) (النساء:١٧٤).. وغيرها من الآيات الكثيرة التي يتوجه الخطاب فيها للبشر جميعا باعتبارهم أناسي لا باعتبارهم أعراقا.

وهو يخاطب المتبعين للإسلام باعتبارهم مؤمنين.. لا باعتبارهم من أي عرق من الأعراق.. وهو حين يصنفهم يصنفهم بحسب مراتبهم من الإيمان.. لا بحسب أسباطهم أو أعراقهم أو سلالاتهم.. فالمؤمنون ليسوا بني لاوي أو بني يهوذا، وإنما هم المقربون أو أهل اليمين أو المخبتون أو عباد الرحمن.. أو هؤلاء الذين ذكرهم الله فقال:﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ) (آل عمران:١٧).. أو هؤلاء الذين ذكرهم، فقال:﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً) (الأحزاب:٣٥)

وكل ذلك يجعل المؤمن يسعى ليبحث عن وصف كسبي يناله بجهد يقربه من الله، ومن جميع خلق الله.. لا وصفا ماديا عرقيا لا علاقة له بكسب ولا بجهد.

لقد كانت البيئة التي ولد فيها رسول الله ﷺ ككل بيئات البشر منغلقة على نفسها، بل كل قبيلة منغلقة انغلاقا كليا على نفسها، لقد كان شاعرهم يقول:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

والفرد في القبيلة تبع للجماعة، وقد بلغ من اعتزازهم برأي الجماعة أنه قد تذوب شخصيته في شخصيتها، قال دريد بن الصمة:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد

لقد كان لكل قبيلة من القبائل العربية شخصيتها السياسية، وهي بهذه الشخصية كانت تعقد الأحلاف

---

(1) رواه الطبراني في الكبير.

(2) رواه الطبراني في الأوسط والصغير والبيهقي مرفوعا وموقوفا وقال: المحفوظ الموقوف.

مع القبائل الأخرى.. وبهذه الشخصية كانت تشن الحرب عليها.

في هذا الجو الذي يفوح بروائح العنصرية المقيتة ولد رسول الله ﷺ.. فلم يفخر بما فخروا، ولا زها بما زهوا به، ولا دعا لما دعوا إليه.. بل اعتبر ذلك كله من الجاهلية، قال ﷺ:(إن الله عز وجل أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، الناس بنو آدم وآدم من تراب مؤمن تقي وفاجر شقي، لينتهين أقوام يفتخرون برجال إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع النتن بأنفها)[1]

وقال ﷺ:(لا تفخروا بآبائكم الذين ماتوا في الجاهلية فوالذي نفسي بيده لما يدحرج الجعل بأنفه خير من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية)[2]

وقال ﷺ:(أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحدكم، كلكم بنو آدم ليس لأحد على أحد فضل الا بالدين أو تقوى، وكفى بالرجل أن يكون بذيا فاحشا بخيلا)[3]

وقال ﷺ:(من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه)[4]

وعندما سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ فقال أكرمهم عند الله أتقاهم، قالوا ليس عن هذا نسألك، قال فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله بن خليل الله، قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: فعن معادن العرب تسألوني؟ قالوا: نعم، قال: فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا[5].

التفت إلى نيقتاس، وقال: لقد أثرت هذه التعاليم السامية في نفوس المؤمنين، فلم يتميز أهل أي بيت عن أي بيت آخر..

سأحدثك عن أشرف بيت في المسلمين.. بيت آل بيت رسول الله ﷺ.. عن الفضيل بن مرزوق قال: سمعت الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ــ عليهم السلام ــ يقول لرجل ممن يغلو فيهم: ويحكم أحبونا لله، فإن أطعنا الله فأحبونا، وإن عصينا الله فأبغضونا، فقال له الرجل: إنكم ذوو قرابة رسول الله ﷺ وأهل بيته، فقال: ويحكم لو كان الله نافعاً بقرابة من رسول الله ﷺ بغير عمل بطاعته، لنفع بذلك من هو أقرب إليه منا أباه وأمه[6]، وإني أخاف أن يضاعف للعاصي منا العذاب ضعفين، ووالله إني لأرجو إن يؤتى المحسن منا أجره مرتين[7].

وقد شاعت بين المسلمين هذه المفاهيم.. فراحت تعارض ما قاله شاعر الجاهلية بمثل هذه الأبيات التي تحمل معاني الانفتاح السامية، قال الشاعر:

([1]) رواه أحمد والبيهقي.
([2]) رواه أبو داود الطيالسي والبيهقي.
([3]) رواه أحمد والبيهقي.
([4]) رواه مسلم.
([5]) رواه البخاري.
([6]) تحدثنا بتفصيل عن جواب الشبه التي يثيرها بعض المتطرفين عن أبوي رسول الله ﷺ في رسالة (أسرار الأقدار) من (رسائل السلام)
([7]) رواه الطائي في أواخر الحديث الرابع من أربعينه.

لعمـــــــرك مـــــــا الإنســـــــان إلا بدينـــــــه فـــلا تتـــرك التقـــوى اتكـــالاً علـــى النســـب
لقـــــد رفـــــع الإســـــلام ســـــلمان فـــارس و قـــــد وضـــــع الشـــــرك الشـــقي أبـــا لهـــب
فمـــــا الحســـــب المـــــوروث إن در دره لمحتســـــب إلا بـــــآخر مكتســـــب
إذا الغصـــــن لم يثمـــــر وإن كـــــان شـــــعبة مـــــن المثمـــــرات اعتـــــده النـــــاس في الحطـــب

وقال الآخر:

العلـــــم زيـــــن وتشـــــريف لصـــــاحبه فاطلـــب هـــديت فنـــون العلـــم والأدبـــا
لا خـــير فـــيمن لـــه أصـــل بـــلا أدب حـــتى يكـــون علـــى مـــا زانـــه حـــدبا
كـــم مـــن كـــريم أخـــي عـــيٍّ وطمطمـــة فـــدم لـــدى الصـــوم معـــروفٍ إذا نســـبا
في بيـــت مكرمـــة آبـــاؤه نجـــب كـــانوا الـــرؤوس فأمســـى بعـــدهم ذنبـــا

سكت الحكيم قليلا، وقال: لقد كان لهذه المفاهيم الحضارية تأثيرها الكبير في حضارة المسلمين.. فهي الحضارة الوحيدة التي ساهمت فيها جميع الأعراق والألوان واللغات.. وهي الحضارة الوحيدة التي وجهت كل إبداع مهما اختلف العرق الذي انطلق منه وجهة إنسانية رفيعة لا مكان فيها للعرقية ولا للعنصرية ولا للانطواء على الذات..

وقد بدأ ذلك من عهد رسول الله ﷺ.. فرسول الله ﷺ كان متفتحا على كل شعوب الأرض في خطابه لها، أو في استفادته منها، أو في تعامله معها.

***

بعد أن انتهى الحكيم من حديثه لم يجد (فرانكلين جراهام) ما يقوله.. ولذا سار مطأطئ الرأس، متغير الوجه، خارج ميدان الحرية ليترك الجماعة ملتفة حول الحكيم تسأله ويجيبها..

التفت إلى أصحابنا المستغرقين في مشاهدة ما حصل في ساحة الحرية.. فرأيت وجوههم كالحة عابسة عليها غبرة ترهقها قترة.

أما أنا.. فقد تنزلت علي حينها أنوار جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

ثامنا ــ تطرف

في مساء اليوم الثامن.. وفي دار الندوة الجديدة.. دخل (بات روبرتسون)[1].. وهو في أصله قسيس إنجيلي يمتلئ بغضا لمحمد ﷺ من أخمص قدمه إلى مفرق رأسه، وكأن بغض كل من يبغض محمدا ﷺ قد عجن عجنا محكما، ثم شكل منه قالبه.. ولكنه جاء في ذلك المساء بوجه غير الذي ذهب به.

لقد كنت أعرف هذا الرجل من قبل.. وهو مع كونه قسيسا إلا أنه كان متفتحا إلى درجة التطرف في تفتحه.. فهو يريد أن لا ينضبط بأي ضابط، أو يلتزم بأي قانون، ولكنه يقع تحت ضغط قوانين كثيرة تفرض عليه فرضا.. ثم يحاول أن ينقلب عليها، ولكنه يقع في انقلاب على نفسه وعلى من يحيط به، فلهذا كان مشوشا غاية التشويش.. ولهذا كان يبدو كمن يسبح عكس التيار، فتتقلب به الأمواج كما يحلو لها.

في بدء حياته لم تكن له علاقة بالدين ولا بالكنيسة.. بل كان يبغض كل ما يرتبط بالدين من وصايا وتشريعات معتبرا أنها من قوانين الكبت التي أراد بها الإنسان أن يضيق بها على حياته.

ولكنه.. وبسبب دراسة كلف بها في حياته الجامعية عن (بولس وأثره في المسيحية) تأثر ببولس تأثرا شديدا.. وانخرط في الكنيسة بسبب ذلك التأثر.

ولكن اهتمامه بالمسيح لا يعدل اهتمامه ببولس.. ولعل حبه لبولس يفوق حبه للمسيح.. فهو يعتبره المصحح الأول للمسيحية.. بل يكاد يعتبر المؤسس لها.. وهو يتصور أن أكبر ما جعل للمسيحية كل ذلك التأثير هو ما وصمه بها بولس من تفتح.. ويتصور في نفس الوقت أن أكبر ما حال بين سائر الأديان وبين الوصول للدرجات التي وصلت لها المسيحية هو عدم وجود (بولس) فيها.

بمجرد دخوله ابتدرته الجماعة قائلة: ما الذي فعلت!؟.. ما نسبة نجاحك!؟.. هل هناك نتائج إيجابية!؟

نظر إليهم بغضب شديد، وقال: لا يمكن لأولئك الصعاليك أن يفهموني، أو يفهموا المنطق الذي أفكر به.. ولهذا من المستحيل أن تكون هناك نتائج إيجابية مع أمثال هؤلاء..

ثم توجه إلى الجماعة قائلا: إنكم في تعاملكم معهم كمن يريد أن يبني قصورا على رمال شاطئ عظيم الأمواج.

ثم التفت إلى الجماعة، وقال: لا أرى أن تضيعوا وقتكم بسماع شريط الأحداث، فلن يرضيكم ما وقع

---

[1] أشير هنا إلى قسيس إنجيلي يُدعى (بات روبرتسون)، وهو معروف باهتماماته السياسية، وتأييده المطلق لإسرائيل، وهو يمتلك عددا من المؤسسات الإعلامية، من بينها (نادي الــ ٧٠٠) وهو برنامج تلفزيوني يصل إلى عشرات الملايين في الولايات المتحدة، إضافة إلى محطة (البث النصراني) الفضائية التي تصل إلى ٩٠ دولة في العالم بأكثر من ٥٠ لغة، ومنها إذاعة الشرق الأوسط المتخصصة في التنصير في منطقة العالم العربي، وقد سعى إلى الترشيح لمنصب الرئيس الأمريكي عام ١٩٨٨م، ويقف خلف إنشاء أقوى تحالف سياسي ديني في الحزب الجمهوري وهو التحالف النصراني، وهو يملك جامعة أصولية هي جامعة (بجينت pegent) وقد ألقى كلاما قبيحا في برنامج (هانتي وكولمز hannity & colmes) والذي بثته قناة (FOX NEWS) حيث قال:(كان ــ أي محمد ــ مجرد متطرف ذو عيون متوحشة تتحرك عبثا من الجنون)

وقوله هذا هو الذي جعلنا نختاره لهذا الفصل.

من أحداث.

قال رجل من الجماعة: لا يهمنا أن نرضى أو لا نرضى، المهم هو أن نعرف الأسلوب الذي يفكر به هؤلاء.. فلا يمكن أن نواجه خصما لا نعرفه.

قال بات روبرتسون: ولكنكم قد تحترقون.. أو قد يجرفكم تيارهم.. فالسباحة في وجههم خطيرة..

ثم قال بينه وبين نفسه: سلوني أنا.. أنا الذي رفضت الكل، ولم يستطع أحد أن يستوعبني كاد هؤلاء الصعاليك أن يجرفوني إلى مستنقعاتهم.

لم تلتفت الجماعة إلى قوله.. بل ابتدر أخي.. ووضع القرص في القارئ.. وبدأ شريط الأحداث:

رأينا بات روبرتسون يجتمع إلى نفر من الناس في ميدان الحرية، ثم يخاطبهم قائلا: هل تعرفون محمدا؟

قال رجل من الجمع: إن كان لديك حديث عنه، فحدثنا به.. فما أحلى الحديث عن محمد.

قال بات روبرتسون: نعم.. صدقت.. فكلكم تحبون التطرف.. فلذلك تحبون الحديث عن أعظم متطرف في الدنيا.

قال رجل من الجماعة: أمحمد متطرف؟

قال بات روبرتسون: إن لم يكن محمد متطرفا، فليس هناك متطرف في الدنيا.

ثم أضاف يقول: لم يكن محمد إلا مجرد متطرف.. ذو عيون متوحشة تتحرك عبثا من الجنون.

هنا ظهر الحكيم كما يظهر شعاع الشمس مخترقا الظلمات، وصاح: ما الذي تقصد بالتطرف، فلعل لك تصورا للتطرف قد نوافقك عليه، وقد نتفق معك بسببه في كون محمد ﷺ متطرفا؟.. وحينذاك سيكون التطرف معنى جميلا.. لأنا لا نعرف خلقا تخلق به محمد ﷺ إلا كان خلقا جميلا.

قال بات روبرتسون: التطرف هو التطرف.. وليس للتطرف معنى غير التطرف.

قال الحكيم: أراك تفسر الماء بالماء.. فهلا عدلت إلى كلام واضح مفهوم؟

قال بات روبرتسون: كلامي واضح مفهوم، وأحسب الجميع يفهمه.

قال الحكيم: ما دام الأمر كذلك، فوضح لنا سر تطرف محمد، أو بين لنا دلائل تطرف محمد.. فلا يمكن أن نلقي الدعاوى من غير بينات تدل عليها.

قال بات روبرتسون: أكبر دليل على تطرف محمد هو هؤلاء المتطرفون من أتباع محمد.. والذين يملؤون الدنيا.. أم أنك لا تراهم؟

قال الحكيم: فإذا كان الاستدلال بهذا الشكل، فلا شك أن المسيح عليه السلام والذي نقدره غاية التقدير، ونحترمه غاية الاحترام، ونستغفر الله من كل إساء تمسه كان قاتلا وإرهابيا وظالما وفاحشا ومتفحشا.

غضب بات روبرتسون، وصاح: كيف ترمي قمة النبل والسلام والعفة والطهارة بهذا.. أم أنك لم تقرأ الإنجيل؟

قال الحكيم: لقد اتبعت منهجك في الاستدلال.. فأنت استدللت على تطرف محمد بوجود المتطرفين من أتباعه، فرحت أطبق هذا المنهج على المسيح وأتباع المسيح.. ولن تجد في العالم.. ولن تجد في جميع دفاتر

المؤرخين قوما أساءوا إلى نبيهم كما أساء أتباع المسيح إلى المسيح.. فهم الإرهابيون الذين استعمروا العالم.. وهم اللصوص الذين استولوا على خيراته.. وهم الذين نشروا الرذيلة بكل معانيها، وبكل أصنافها.. فهل تستدل بهؤلاء على المسيح؟

قال بات روبرتسون: المسيح نعرفه من خلال الإنجيل.. لا من خلال من يردد اسم المسيح.. والمسيح منه بريء.

قال الحكيم: ومحمد ﷺ نعرفه من خلال سيرته وسنته والكتاب الذي جاء به..

سكت بات روبرتسون، فقال الحكيم: أرى أنك صاحب شبهة تريد أن تبحث عن الحقيقة المرتبطة بها.

قال بات روبرتسون: وما الشبهة التي تراها علقت بعقلي؟

قال الحكيم: لقد رأيت سلوك المسلمين، فرحت تتصور أن هذا السلوك لم يستفده هؤلاء إلا من محمد ﷺ.

قال بات روبرتسون: نعم.. كما نتعرف على الأستاذ من خلال تلاميذه، نتعرف على محمد من خلال أتباعه.. من خلال من يذكرون أنهم في حياتهم جميعا يمارسون سنته، ويتبعون هديه.

قال الحكيم: ولكن التلاميذ قد ينحرفون عن منهج أستاذهم، أو قد يفهمون أستاذهم خطأ.. فلذلك نحتاج إلى الرجوع إلى الأستاذ نفسه.

قال بات روبرتسون: وكيف نرجع إلى محمد، وقد طواه الثرى[1]؟

قال الحكيم: لقد كان لمحمد ﷺ أتباع أوفياء لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة من حياته إلا سجلوها.. فلذلك ـــ نحن المسلمين ـــ لا نرى محمدا إلا كما يرى بعضنا بعضا، فهو حي بيننا نعيش معه، ونسمع كلامه، ونتنعم بهديه.

قال بات روبرتسون: ولذلك حكمت على نبيكم من خلالكم.

قال الحكيم: ذلك خطأ، فنحن مع حبنا لنبينا وتعظيمنا له لا نرقى لأن نمثله.. محمد ﷺ لا يمثله إلا محمد ﷺ.

سكت الحكيم قليلا، ثم قال: دعنا من هذا الجدل.. ولنعتبر ما ذكرته صحيحا.. ولا نريد منك إلا أن تثبته.

قال بات روبرتسون: لن يكلفني عنتا إثباتي لما ادعيته، فكل شيء يدل عليه.. يكفيك فقط أن تقارن بين المسيحية وبين الإسلام لترى التطرف في الإسلام وفي محمد في أرقى درجاته.

ففي الفكر والعقيدة ترى المسيحية دين المحبة.. تبشر بإله محب أرسل ابنه الوحيد ليفدي البشرية من

([1]) ذكرنا هذا مراعاة للجانب الفني، أما الحقيقة، فهي أن أجساد الأنبياء ـــ عليهم السلام ـــ لا يأكلها التراب، وقد ورد في الحديث الصحيح قوله ﷺ:(إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي، فقال رجل: يا رسول الله، كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ ـــ يعني بليت ـــ فقال: إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء) رواه أحمد والدارمي وابن ماجة والنسائي.. وغيرهم.

الخطيئة.. بينما محمد يبشر بإله منتقم جبار يكوي كل من خالفه بكل نيران الألم.

وفي السلوك نرى المسيحية دينا بسيطا لا يكلفك إلا بالإيمان، بينما نرى الإسلام دين تكاليف شديدة تبدأ من استيقاظك المبكر مع غسق الفجر.. وتنتهي بليل طويل من القيام، ونهار طويل من الصيام.. وحياة منضبطة بقوانين كثيرة تخنقها حنقا.

وفي المواقف نرى المسيحية تدع ما لقيصر لقيصر وما لله.. بينما نرى الإسلام ينازع الساسة والاقتصاديين وعلماء الاجتماع وعلماء النفس.. وكل شيء، ليطبعه بطابعه الخاص.

وفي الحياة، نرى المسيحية مع الحياة، فلا تحرم أي متعة من متع الحياة.. بينما نرى الإسلام يملأ حياة الناس بالضيق، فلا يتمنون إلا الموت.

التفت إلى الجمع، وقال: ألا يكفي كل هذا ليجعل الإسلام دين التطرف الأكبر في العالم، ويجعل محمدا الذي جاء بهذا الدين أكبر متطرف في العالم.. بل على مدار التاريخ.

قال الحكيم: هل انتهيت من حديثك.. أم لك مزيد أدلة؟

قال بات روبرتسون: ألا يكفي كل ما ذكرته!؟

قال الحكيم: فدعني أجيبك إذن.

قال بات روبرتسون: لا يمكنك أن تجيبني.. فما ذكرته حقائق لا تقبل الجدل.

قال الحكيم: فأنت متطرف إذن من حيث لا تشعر.. إن التطرف هو أن تشعر بأنك وحدك على الحق، وأن الحق وحده معك.. فإن كنت تشعر بهذا، فلا يمكنني أن أناقشك.

قال بات روبرتسون: لا.. بل أنا متفتح غاية التفتح.

قالت الجماعة: ما دمت كذلك، فدعه يدافع عن نبيه وعن دينه.

قال بات روبرتسون: قل ما شئت.. وأنا أعلم أنك في كل ما تذكره لن تستطيع أن تفند هذه الحقائق.. فالحقائق لا يمكن أن تفند.

قال الحكيم: لقد ذكرت أربعة نواح.. وأحسنت في ذكرها.. فهي الأسواق التي تعرض فيها بضاعة التطرف.. وقد ذكرت لي بضاعة المسيحية، وما أسأت فهمه من بضاعة الإسلام.. ولهذا سأصحح لك الحقائق التي يعرضها الإسلام في تلك الأسواق.

١ ـــ العقيدة

التفت الحكيم إلى الأشجار الجميلة التي كانت تزين ساحة الحرية، ثم قال: أرأيت لو طلبت من رسام مبدع أن يرسم هذه الأشجار، أو من أديب بليغ أن يصفها، فقام كلاهما بكل ما أوتيا من قوة إبداعية، فرسم الأول، ووصف الثاني.. هل يمكن أحد من الناس أن ينتقدهما، فيقول لهما: أنتما متطرفان بدائيان.. لأنكما رسمتما أشجارا، و لم ترسما ناطحات سحاب، أو سيارات أو طائرات؟

قال بات روبرتسون: لن يقول ذلك أحد إلا إذا كان مسلما متطرفا، فيمكن أن يقوله.

قال الحكيم: ولكنك تقول ذلك الآن.

قال بات روبرتسون: أنا لست مسلما، فكيف عرفت أني أقوله؟

قال الحكيم: لقد زعمت بأن العقيدة التي جاء بها محمد ﷺ عقيدة متطرفة.. واعتبرت أن سبب تطرفها هو كونها لا تتحدث عن الله الذي أرسل ابنه الوحيد ليصلب من أجل خطايا البشرية.

قال بات روبرتسون: فما الغرابة في هذا؟

قال الحكيم: لأن العقيدة التي جاء بها الإسلام عقيدة منطقية تصف الكون وحقائق الكون، والأشجار التي يحويها الكون كما هي.. ولكن عقيدتكم التي تفخر بها علينا لا تحوي أي منطق، ولا يدل عليها أي دليل، فأنتم تفرضونها على الكون فرضا[1].

قال بات روبرتسون: لم أفهم ما الذي تقصده؟

قال الحكيم: أرأيت النار.. والأشواك.. والزلازل.. والبراكين.. والآلام.. والأمراض.. والموت..

قال بات روبرتسون: ومن لم ير كل ذلك.. إلا إذا كان مسلما متطرفا؟

قال الحكيم: فمن خلق كل ذلك؟

قال بات روبرتسون: الله.. الله هو الذي خلق كل ذلك.

قال الحكيم: فالله إذن خلق الأزهار الجميلة، والطيور المغردة.. وخلق بجانبها البراكين والزلازل.. لنعرفه معرفة شاملة كاملة.. فنرجو خيره، ونخاف الآلام التي قد تصيبنا من عقوبته.. فرحتم أنتم تختصرون الله فيما تحبون، أو فيما تملي عليكم شهواتكم.

وأنتم تشبهون في ذلك مجرما أخذ صورة مشوهة عن القاضي.. فقيل له: إنه قاض رحيم محب ودود.. لا يلقي المجرمين إلا بابتسامته العريضة وجنانه الفسيحة.. فراح ذلك المجرم يتطرف في جرائمه لا يقف في وجهه شيء..

قال بات روبرتسون: فهل فعلنا نحن ذلك؟

قال الحكيم: بل لم تفعلوا إلا ذلك.. أنتم تشجعون على الرذيلة والانحراف، وتسمون كل ذلك محبة..

بينما الإسلام يتعامل مع الحقائق كما هي.. ويصف الله بما وصف به نفسه، فهو رحيم ودود.. وهو

---

(1) سنرى التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في الرسائل الثلاثة الأخيرة من هذه السلسلة.

كذلك شديد العقاب، قال تعالى:﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)﴾ (الحجر)

قال بات روبرتسون: فأنت تقر بأن ربكم يعذب.

قال الحكيم: لست أنا الذي يقر بذلك.. بل كل شيء يقر بذلك.. ولكنه عذاب رحيم لا عذاب منتقم..

امتلأ بات روبرتسون ضحكا، ثم قال: وهل رأيت رحيما يعذب؟

قال الحكيم: أرأيت لو أن أحدهم أراد أن يضرب ما تعارف عليه الناس من قوانين الأكل والشرب عرض الحائط.. فراح يأكل المعادن والزجاج.. وراح يشرب أنواع السوائل التي لا تنسجم مع جسم الإنسان.

قال بات روبرتسون: فمصير هذا الموت المؤكد.

قال الحكيم: فإن ظفر بطبيب حكيم أجرى له عملية جراحية تطهر بطنه من الأوزار التي سببها له فمه.. هل تعتبر ذلك الطبيب قاسيا بإجرائه لتلك العملية؟

قال بات روبرتسون: كلا.. بل هو طبيب رحيم أنقذه من الموت المؤكد؟

قال الحكيم: فهذا هو تصورنا نحن المسلمين لإلهنا، فهو إن عاقب لا يعاقب طلبا للعقوبة.. وإنما يعاقب من منطلق الرحمة[1].. إن قرآننا يقول:﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)(لأعراف: من الآية١٥٦)

ولهذا يربط القرآن الكريم بين ملك الله الذي يعني تدبير الله للأشياء وبين رحمته تعالى، كما قال تعالى:﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً﴾ (الفرقان:٢٦)

ولذلك ورد في القرآن الكريم الإخبار عن سعة الرحمة الإلهية وشمولها باعتبار الكون مؤسسا عليها إنشاء وتدبيرا، قال تعالى:﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾(الأعراف:من: ١٥٦)، وقال تعالى:﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأنعام:١٤٧)

فالآيتان الكريمتان صريحتان في سعة الرحمة الإلهية وشمولها لكل شيء، ولم يرد في القرآن الكريم اقتران السعة بشيء من صفات الله إلا في صفتي الرحمة والعلم.

قال بات روبرتسون: ولكنا نسمع بأن لإلهكم نارا عظيمة يعذب بها.. فهل ترى تلك النار أتون رحمة؟

([1]) ولهذا يرد في القرآن الكريم ارتباط العذاب باسم الرحمن.. كما قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام:﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً﴾ (مريم:٤٥)

فقد ذكر إبراهيم عليه السلام الرحمن، ولم يقل الجبار ولا القهار، للدلالة على أن العذاب لا يتنافى مع الرحمة الإلهية، كما لا يتنافى الكي أو الحقنة أو الدواء المر إذا وضعت في مواضعها التي تقتضيها حكمة الجسم مع رحمة الطبيب.

ولذلك قال تعالى: ﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ﴾ (يّـس:٢٣)، فقد نسب إرادة الضر إلى الرحمن ليدل على أن هذا الضرر في حقيقته رحمة، اقتضاه التدبير الإلهي.

ومثل ذلك قوله تعالى:﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً﴾ (مريم:٦٩)، وقال تعالى:﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً﴾ (مريم:٧٥)

انظر التفاصيل الدالة على هذا في رسالة (أسرار الأقدار) من مجموعة (عيون الحقائق) من (رسائل السلام)

قال الحكيم: أتسمح لسلاطينك ووزرائك أن يتخذوا سجونا، ثم لا ترى من حق الله أن يتخذ سجنا..

ثم أضاف: أرأيت إلى تعابيرك عن الله.. إنك تتصور بأن معارفنا هي التي تنتج الحقائق.. لا الحقائق الموجودة على أرض الواقع هي التي تنتج المعرفة.

قال بات روبرتسون: لم أفهم..

قال الحكيم: العقيدة علم بما في الكون من حقائق واقعية.. ولذلك لا ينبغي أن نحتال على تشويهها بأي صورة من صور التشويه، حتى بما نتصوره تشويها يحسنها.. فهو في حقيقته تشويه يسيء إليها[1].

([1]) أرجأنا الكلام عن التفاصيل المرتبطة بتطرف العقائد غير الإسلامية لنتحدث عنه في الأجزاء الثلاثة الأخيرة من هذه السلسلة.

٢ ـــ السلوك

التفت الحكيم إلى الطريق، وأشار إلى علامة مرور، مكتوب عليها (قف)، وقال: هل ترى هذه العلامة؟

قال بات روبرتسون: وكيف لا أراها.. إلا إذا كنت متطرفا مسلما؟

قال الحكيم: فقد كتب عليها (قف).. فما تعني هذه الكلمة؟

قال بات روبرتسون: هي تأمر السيارات المارة بأن تقف في هذا المحل.

قال الحكيم: ألا ترى بأنها تحد بذلك من حرية المارة؟

قال بات روبرتسون: لا.. بل هي تنظم سير المارة.. ولولا هذه اللافتة التي أبدعتها حضارتنا المستلهمة من تعاليم المسيح لاختلطت الطريق بأهلها.

قال الحكيم: ما دمتم لم تعتبروا أنفسكم متطرفين، وأنتم تحدون من حرية المارة بمثل هذه اللافتات، فلم تعتبرون اللافتات الربانية التي تنظم السير إلى الله من التطرف؟.. أم أنكم تريدون أن تختلط الطريق إلى الله بالمشعوذين والخرافيين والدجالين والمهووسين.

قال بات روبرتسون: ما علاقة ما تقوله بما نحن فيه؟

قال الحكيم: لقد فخرت على محمد بالمسيح.. وزعمت أن محمدا ضيق حياة الناس بما وضع من قوانين السلوك.. بينما لم يفعل المسيح شيئا من ذلك.

قال بات روبرتسون: ذلك صحيح.. ففي المسيحية يكفيك الإيمان.

قال الحكيم: لقد ولد ذلك وجود طوائف كثيرة ممتلئة بالتطرف.. لاشك أنك تعرف الرهبان الذين وضعوا من قوانين السلوك ما صارعوا به الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

لقد روى المؤرخون من ذلك العجائب[1]..

لقد حدثوا عن الراهب ماكاريوس أنه نام ستة أشهر في مستنقع ليقرض جسمه العاري ذباب سام، وكان يحمل دائما نحو قنطار من حديد.

وكان صاحبه الراهب يوسيبيس يحمل نحو قنطارين من حديد.. وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر نزح ...

ورووا أن الراهب يوحنا عبد ثلاث سنين قائما على رجل واحدة، و لم ينم و لم يقعد طوال هذه المدة، فإذا تعب جداً أسند ظهره إلى صخرة.

وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائما، وإنما يتسترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام.. وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر ويأكل كثير منهم الكلأ والحشيش.

وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتأثمون من غسل الأعضاء، وأزهد الناس عندهم وأنقاهم

([1]) انظر: قصة الحضارة ١٤: ٣٦٥.

أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم في النجاسات والدنس، وقد حدث الراهب اثمينس أن الراهب أنتونى لم يقترف إثم غسل الرجلين طوال عمره، وكان الراهب أبرا هام لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين عاماً، وقد قال الراهب الإسكندري بعد زمان متلهفاً: وأسفاه، لقد كنا في زمن نعد غسل الوجه حراماً، فإذا بنا الآن ندخل الحمامات.

أما القديس كولمبان فقد (كانت السناجب تجثم على كتفيه فتدخل في قلنسوته وتخرج منها، وهو ساكن)

وفوق هذا كله.. فقد كان الرهبان يتجولون في البلاد ويختطفون الأطفال ويهبوهم إلى الصحراء والأديار، وينتزعون الصبيان من حجور أمهاتهم ويربوهم تربية رهبانية، والحكومة لا تملك من الأمر شيئا، والجمهور والدهماء يؤيدوهم ويحبذون الذين يهجرون آباءهم وأمهاتهم ويختارون الرهبانية ويهتفون باسمها، وعرف كبار الرهبان ومشاهير التاريخ النصراني بالمهارة في التهريب، حتى روي أن الأمهات كن يسترن أولادهن في البيوت إذا رأين الراهب (أمبروز) وأصبح الآباء والأولياء لا يملكون من أولادهم شيئا، وانتقل نفوذهم وولايتهم إلى الرهبان والقسوس.

فكان الرهبان الذين تفيض قلوبهم حنانا ورحمة، وعيوهم من الدمع، تقسو قلوبهم وتجمد عيوهم على الآباء والأمهات والأولاد، فيخلفون الأمهات ثكالى، والأزواج أيامى، والأولاد يتامى، عالة يتكففون الناس، ويتوجهون قاصدين الصحراء، همهم الوحيد أن ينقذوا أنفسهم في الآخرة، لا يبالون ماتوا أو عاشوا، وحكي (ليكي) من ذلك حكايات تدمع العين وتحزن القلب.

التفت الحكيم إلى بات روبرتسون، وقال: هل حدث ذلك في التاريخ فعلا؟

سكت بات روبرتسون، فأجاب الحكيم نفسه: نعم.. ولا يمكنك إلا أن تقول:(نعم).. فلندع هؤلاء الذين طواهم التاريخ.. ولنذهب إلى المسلمين في جميع مراحل التاريخ.. ولننظر أثر علامة (قف).. و(سر) التي تركها محمد ﷺ.

لقد ولدت تلك العلامات التي سماها العلماء أحكاما شرعية حياة منضبطة منظمة صالحة صحية لا يمكنك أن تقارنها بأي حياة لأي متدين في أي دين.

أخرج سواكا من جيبه، ثم قال: في الوقت الذي كان الرهبان فيه يتبارون في الهرب من كل ما تتطلبه النظافة من متطلبات أمرنا نبينا بهذه الآلة العجيبة التي تجمع بين كونها فرشاة أسنان، كأنعم ما تكون الفرشاة.. وبين أحسن معجون للأسنان لم ير العالم مثله بعد في عالم الصناعة[1].

([1]) فالسواك من السنن التي وردت بها النصوص الكثيرة، بل ربطه ﷺ بالعبادات، فقال:(لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة)(البخاري ومسلم)، وفي رواية:« عند كل وضوء »

بل كان ﷺ (لا يرقد من ليل ولا نهار فيستيقظ إلا تسوك قبل أن يتوضأ)(أبو داود)، وكان ﷺ (إذا دخل بيته بدأ بالسواك)(مسلم)، و(كان إذا قام من الليل يشوص فمه بالسواك)(البخاري ومسلم)

وهذه المشروعية تشمل الصائم والمفطر، فعن عبد الرحمن بن غنم قال: سألت معاذ بن جبل: أتسوك وأنا صائم؟ قال: نعم! قلت: أي النهار؟ قال: غدوة أو عشية! قلت: إن الناس يكرهونه ويقولون إن رسول الله ﷺ قال: لخلوف فم الصائم أطيب عند

فهل ترى متطرفا ذلك الذي يحض أتباعه على النظافة والطهارة والجمال؟

قال بات روبرتسون: ولكن تعاليم الإسلام تعاليم شديدة حتى ما تعتبره طهارة منها فيه شدة وتكلف وتطرف.

قال الحكيم: إن جميع تعاليم الإسلام محكومة بضابطين كلاهما يحرسانها من التطرف، وسأحدثك عنهما باختصار، وإلا فإن التفاصيل التي ترتبط بهما لا يمكن استيعابها في هذا المجلس.

قال رجل من القوم: فما هما؟

قال الحكيم: اليسر والمقاصدية، وقد أشار إليهما مجتمعين قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (المائدة:٦)

ففي هذه الآية الكريمة ذكر الله رفع الحرج عن عباده، وهو يدل على التيسير، ثم علل السر في تلك التكاليف التي قدر يراها البعض تكاليف شاقة، بأنها تكاليف ذات مقاصد شريفة تصب في مصلحة الإنسان، وهو ما يرفع المشقة في فعلها، لأن أي إنسان يسترخص أي جهد يبذله إذا ما كان فيه مصلحة له.

وقد جمع كلتا الناحيتين قوله ﷺ في تعليل النهي عن الصلاة وقت النعاس:(إذا نعس أحدكم وهو يصلي، فليرقد حتى يذهب عنه النوم، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعسٌ لا يدري لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه)[1]

اليسر:

قال رجل من القوم: فحدثنا عن الضابط الأول؟

قال الحكيم: جميع الشرائع التي جاء بها نبينا ﷺ تتصف باليسر.. بل إنه إذا وقع العسر في أمر من الأوامر، أو نهي من النواهي رفع التكليف به.. وفي ذلك قال العلماء (إذا ضاق الأمر اتسع)[2]، و(المشقة تجلب التيسير)

الله من ريح المسك؟ قال: سبحان الله! لقد أمرهم بالسواك، وما كان بالذي يأمرهم أن ينتنوا أفواههم عمداً! ما في ذلك من الخير شيء، بل فيه شر(لطبراني، قال الحافظ في التلخيص: إسناده جيد)

([1]) رواه البخاري ومسلم.

([2]) أصل هذه القاعدة من عبارات الإمام الشافعي الرشيقة، وقد أجاب بها في ثلاثة مواضع:

(أحدها) فيما إذا فقدت المرأة وليها في سفر فولت أمرها رجلا يجوز، قال يونس فقلت له كيف هذا؟ قال إذا ضاق الأمر اتسع.

(الثاني) في أواني الخزف المعمولة بالسرجين أيجوز الوضوء منها؟ فقال: إذا ضاق الأمر اتسع.

(الثالث) حكى (بعض شراح المختصر) أن الشافعي سأل عن الذباب يجلس على غائط ثم يقع على الثوب فقال إن كان في طيرانه ما يجف فيه رجلاه، وإلا فالشيء إذا ضاق اتسع ووضح.

ولهم عكس هذه القاعدة (إذا اتسع الأمر ضاق) ومثال ذلك أن قليل العمل في الصلاة لما اضطر إليه سومح به وكثيره لما لم يكن به حاجة لم يسامح به، وكذلك قليل البراغيث وكثيره.

وقد جمع الغزالي بين القاعدتين بقوله: كل ما تجاوز عن حده انعكس إلى ضده.

ضحك بات روبرتسون، وقال: المشقة تجلب التيسير!؟.. ما هذا؟

قال الحكيم: هذه القاعدة الأصولية تنص على أن الأحكام التي ينشأ عن تطبيقها حرج على المكلف ومشقة في نفسه أو ماله، فإن الشرع قد أجاز له عدم القيام بها.

قال بات روبرتسون: فهي من وضع الفقهاء إذن لا من إرشاد نبيكم وتعليمه!؟

قال الحكيم: ما كان لفقهائنا أن يتجرأوا، فيضيفوا إلى الدين حرفا من غير أن يجدوا له دليلا من النصوص..

نعم.. هم ليسوا معصومين في استنباطاتهم، ولكنهم مع هذه القاعدة على الخصوص، ومع القواعد التي تشبهها معصومون في هذا الاستنباط، لأنهم يستندون فيه إلى الدلائل القطعية التي لا يرقى إليها شك..

لقد قال الله تعالى يقرر هذه القاعدة:﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)(البقرة: من الآية١٨٥)، وقال:﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ)(المائدة: من الآية٦)، وقال:﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) (الحج:٧٨)

ومثل ذلك ما ورد في الأحاديث، مثل قوله ﷺ:(بعثت بالحنيفية السمحة)[1]

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ قال: قيل: يا رسول الله، أي الأديان أحب إلى الله؟ فقال ﷺ:(الحنيفية السمحة)[2]، وقال ﷺ:(إن أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة)[3]، وقال ﷺ:(إن الله شرع الدين فجعله سهلا سمحا واسعا و لم يجعله ضيقا)[4]، وقال ﷺ:(إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره)[5]، وقال ﷺ:(إن الله إنما أراد بهذه الأمة اليسر و لم يرد بهم العسر)[6]

وقد مارس رسول الله ﷺ ــ الذي تنسبه إلى التطرف ــ هذا السلوك في أوسع مجالاته، وفي كل مجالاته، فعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت:(ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين، إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثما)[7]

التفت إلى الجمع، وقال: سأسرد لكم بعض الأحداث التي وقعت في عهده ﷺ، والتي تدل على مدى تيسيره ﷺ على أمته، ومدى حرصه على رفع الحرج عنها.

قال أبو هريرة ــ رضي الله عنه ــ: (بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله

ونظير هاتين القاعدتين في التعاكس قولهم: يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء. (انظر: المنثور في القواعد الفقهية للزركشي: ١/١٢٠)

(1) رواه أحمد والديلمي.
(2) رواه أحمد والطبراني والبزار وغيرهما.
(3) رواه الطبراني في الأوسط.
(4) رواه الطبراني.
(5) رواه أحمد.
(6) رواه ابن مردويه.
(7) رواه البخاري ومسلم.

هلكت، قال: ما لك؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم، فقال رسول الله ﷺ: هل تجد رقبة تعتقها؟ قال: لا، قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال: لا، فقال: فهل تجد إطعام ستين مسكينا؟ قال: لا، قال: فمكث النبي ﷺ، فبينا نحن على ذلك أتي النبي ﷺ بعرق فيها تمر ــ والعرق: المكتل ــ قال: أين السائل؟ فقال: أنا، قال: خذها فتصدَّق بها فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابتيها ــ يريد الحرتين ــ أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه ثم قال:(أطعمه أهلك)[1]

وحدث أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ قال: كان رسول الله ﷺ جالسا في المسجد، وأصحابه معه، إذ جاء أعرابي، فبال في المسجد، فقال أصحابه: مه، مه، فقال رسول الله ﷺ:(لا تزرموه، دعوه)، ثم دعاه، فقال له:(إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من القذر والبول والخلاء ــ أو كما قال رسول الله ﷺ ــ إنما هي لقراءة القرآن، وذكر الله، والصلاة)، ثم قال رسول الله ﷺ لرجل من القوم:(قم فائتنا بدلو من ماء)، فشنه عليه، فأتاه بدلو من ماء، فشنه عليه[2].

التفت إلى الجمع، وقال: هل رأيتم مثل هذه البساطة والتيسير والرفق.. رجل يبول في مسجده المقدس الذي هو من أشرف مساجد الدنيا، فلا يزيد على أن يعلمه ويوجهه من غير أن يعنفه أو يوبخه.

وحدث جابر بن سمرة ــ رضي الله عنه ــ قال: كنت أصلي مع النبي ﷺ الصلوات، فكانت صلاته قصداً[3]وخطبته قصداً[4].

وحدث الحكم بن حزن الكلفي قال: قدمت على عهد رسول الله ﷺ سابع سبعة، أو تاسع تسعة، فأذن لنا، فدخلنا، فقلنا: يا رسول الله أتيناك لتدعو لنا بخير، فدعا لنا بخير، وأمر بنا فأنزلنا، وأمر لنا بشئ من تمر والشان إذ ذاك دون، فلبثنا بها أياما شهدنا بها الجمعة مع النبي ﷺ، فقام متوكئا على قوس أو عصا، فحمد الله، وأثنى عليه كلمات خفيفات طيبات مباركات، ثم قال:(أيها الناس إنكم لن تطيقوا، ولن تفعلوا، كل ما أمرتم ولكن سددوا وأبشروا)[5]

ولهذا كان ﷺ يتشدد مع المتشددين، بل يخبر بهلاكهم في تشددهم، قال ﷺ:(هلك المتنطعون[6])، قالها ثلاثاً[7].

وشبه ﷺ هؤلاء المتنطعين المتشددين بالمنبت[8]، فقال:(إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، فان المنبت لا

([1]) رواه البخاري ومسلم.
([2]) رواه مسلم.
([3])أي بين الطول والقصر.
([4])رواه مسلم.
([5]) رواه أبو نعيم وأبو يعلى وابن عساكر.
([6])المتنطعون: المتعمقون المشددون في غير موضع التشديد.
([7]) رواه مسلم.
([8]) يقال للرجل إذا انقطع به في سفره وعطبت راحلته: قد انبت، من البت: القطع، وهو مطاوع بت يقال: بته وأبته. (النهاية: ٩٢/١)

أرضا قطع ولاظهرا أبقى)[1]

وبما أن الحماسة كانت تتقد في قلوب أصحابه ﷺ، فتدفعهم إلى المبالغة في الأعمال والتشدد فيها حرصا على مرضاة الله تعالى، فقد كان النبي ﷺ يصحح لهم ذلك، ويأمرهم بالتوسط والاعتدال، ويخبرهم بأن الله يحب أن تؤتى رخصه بقدر ما يحب أن تؤتى عزائمه[2].

ومما يروى في ذلك ما روي أن أن معاذا ــ رضي الله عنه ــ أم قومه ليلة في صلاة العشاء بعد ما صلاها مع النبي ﷺ، فافتتح سورة البقرة، فتنحى رجل من خلفه وصلى وحده، فقال له: نافقت، ثم ذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال الرجل: يا رسول الله إنك أخرت العشاء، وإن معاذا صلى معك ثم أمنا، وافتتح سورة البقرة، وإنما نحن أصحاب نواضح نعمل بأيدينا، فلما رأيت ذلك تأخرت وصليت، فقال ﷺ:(أفتان أنت يا معاذ؟ اقرأ سورة كذا، اقرأ سورة كذا)[3]

وحدثت عائشة ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ دخل عليها، وعندها امرأةٌ، فقال: من هذه؟ قالت: هذه فلانة تذكر من صلاتها، قال:(مه عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله[4] حتى تملوا، وكان أحب الدين إليه ما داوم صاحبه عليه)[5]

وذكر أنس ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ دخل المسجد، فإذا حبلٌ ممدودٌ بين الساريتين فقال: ما هذا الحبل؟، قالوا: هذا حبلٌ لزينب، فإذا فترت تعلقت به، فقال النبي ﷺ:(حلوه، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد)[6]

وحدث بريدة الأسلمي ــ رضي الله عنه ــ قال: خرجت ذات يوم لحاجة، وإذا أنا بالنبي ﷺ يمشي بين يدي، فأخذ بيدي، فانطلقنا نمشي جميعاً، فإذا نحن برجل يصلي يكثر الركوع والسجود فقال النبي ﷺ:(أتراه يرائي؟)، فقلت: الله ورسوله أعلم، فترك يده من يدي، ثم جمع يديه، فجعل يصوبهما ويرفعهما ويقول:(عليكم هدياً قاصداً عليكم هدياً قاصداً عليكم هدياً قاصداً، فإنه من يشاد هذا الدين يغلبه)[7]

وفي رواية عنه أن النبي ﷺ سمع رجلا يصلي يقرأ، فقال لبريدة: أتعرف هذا؟ قلت: نعم يا رسول الله، هذا

---

(1) رواه البزار، وفي رواية عن عبد الله بن عمرو قال ﷺ:(إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق، ولا تبغضوا إلى أنفسكم عبادة الله، فان المنبت لا بلغ بعدا، ولا أبقى ظهرا، واعمل عمل امرئ يظن أن لا يموت إلا هرما، واحذر حذر امرئ يحسب أنه يموت غدا) رواها ابن عساكر.

(2) وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ:(إن الله يحب أن يؤخذ برخصه، كما يحب أن يؤخذ بعزائمه، إن الله بعثني بالحنيفية السمحة دين ابراهيم، ثم قرأ:﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾(الحج: من الآية٧٨)) رواه الحاكم.

(3) رواه البخاري ومسلم، وفي رواية:(اقرأ والشمس وضحاها، والضحى، والليل إذا يغشى، وسبح اسم ربك الأعلى)

(4) ومعنى لا يمل الله أي: لا يقطع ثوابه عنكم وجزاء أعمالكم، ويعاملكم معاملة المال حتى تملوا فتتركوا، فينبغي لكم أن تأخذوا ما تطيقون الدوام عليه ليدوم ثوابه لكم وفضله عليكم.

(5) رواه البخاري ومسلم.

(6) رواه البخاري ومسلم.

(7) رواه أحمد ورجاله موثقون.

أكثر أهل المدينة صلاة، فقال النبي ﷺ:(لا تسمعه فيهلك، إنكم أمة أريد بكم اليسر)[1]

وحدث جعدة بن هبيرة قال: ذكر للنبي ﷺ مولى لبني عبد المطلب يصلي ولا ينام، ويصوم ولا يفطر، فقال:(أنا أصلى، وأنام، وأصوم وأفطر، ولكل عمل شرة ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى السنة فقد اهتدى، ومن تكن إلى غير ذلك فقد ضل)

وروي أن ثلاثة رهطٍ جاءوا إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال: أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر، ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال:(انتم الذين قلتم كذا وكذا؟! أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)[2]

وحدث ابن عباسٍ ــ رضي الله عنه ــ قال: بينما النبي ﷺ يخطب إذا هو برجلٍ قائمٍ، فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعد، ولا يستظل ولا يتكلم، ويصوم، فقال النبي ﷺ:(مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه)[3]

وحدث عبد الله بن عمرو بن العاص ــ رضي الله عنه ــ عن نفسه قال: أخبر النبي ﷺ أني أقول: والله لأصومن النهار، ولأقومن الليل ما عشت، فقال رسول الله ﷺ: أنت الذي تقول ذلك؟ فقلت له: قد قلته بأبي أنت وأمي يا رسول الله. قال: فإنك لا تستطيع ذلك؛ فصم وأفطر، ونم وقم، وصم من الشهر ثلاثة أيامٍ فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر، قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك، قال: فصم يوماً وأفطر يومين، قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك، قال: فصم يوماً وأفطر يوماً، فذلك صيام داود ﷺ، وهو أعدل الصيام ــ وفي رواية: هو أفضل الصيام ــ فقلت: فإني أطيق أفضل من ذلك. فقال رسول الله ﷺ: لا أفضل من ذلك، قال عبد الله: ولأن أكون قبلت الثلاثة الأيام التي قال رسول الله ﷺ أحب إلي من أهلي ومالي[4].

وفي روايةٍ: ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟، قلت: بلى يا رسول الله، قال: فلا تفعل: صم وأفطر، ونم وقم فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينيك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لزورك عليك حقاً، وإن بحسبك أن تصوم في كل شهرٍ ثلاثة أيامٍ، فإن لك بكل حسنةٍ عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر، فشددت فشدد علي، قلت: يا رسولَ الله إني أجد قوةً، قال: صم صيام نبي الله داود ولا تزد عليه، قلت: وما كان صيام داود؟ قال: نصف الدهر فكان عبد الله يقول بعدما كبر: يا ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ.

وحدث حنظلة بن الربيع الأسيدي ــ رضي الله عنه ــ عن نفسه، فقال: لقيني أبو بكرٍ، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قلت: نافق حنظلة! قال: سبحان الله ما تقول؟! قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة

([1]) رواه ابن جرير، وسنده صحيح.
([2]) رواه البخاري ومسلم.
([3]) رواه البخاري.
([4])رواه البخاري ومسلم.

والنار كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً. قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ فقلت: نافق حنظلة يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: وما ذاك؟، قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً. فقال رسول الله ﷺ:(والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعةً وساعةً ثلاث مرات)[1]

وقد فقه الصحابة ـــ رضي الله عنهم ـــ هذه الدروس التربوية، فصار يربي بعضهم بعضا على معانيها، ومما يروى في ذلك ما حدث به أبو جحيفة وهب بن عبد الله ـــ رضي الله عنه ـــ قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلةً فقال: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجةٌ في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً، فقال له: كل فإني صائمٌ، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم فقال له: نم فنام، ثم ذهب يقوم فقال له: نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا جميعاً، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حقٍ حقه، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ:(صدق سلمان)[2]

المقاصدية:

قال رجل من القوم: فحدثنا عن الضابط الثاني.

قال الحكيم: جميع الشرائع التي جاء بها نبينا ﷺ تتصف بالمقاصدية.

أرسل بات روبرتسون ضحكة عالية، ثم قال: المقاصدية!؟.. ما المقاصدية؟

قال الحكيم: إن الله الحكيم الذي لم يخلق العبث لم يشرع العبث.. ولذلك فإن من مزايا الشريعة أن كل شيئ فيها مفهوم الغاية واضح المقصد، يفهمه كل ذي عقل ببساطة ويسر، فيستحيل أن يقول العقل شيئا، ويقول الشرع خلافه.

قال بات روبرتسون: أتتيه علي بشريعتكم.. كل دين يقول أهله هذا.

قال الحكيم: فأنبئني عن الحكمة من الشرائع التي وردت في العهد القديم، والتي تختص بالمرأة الحائض.. لاشك أنك تعرفها، ولا شك أنك تعرف كثرتها.

سكت بات روبرتسون، فقال الحكيم: سأقرأ عليك بعض النصوص التي تدل عليها.. لقد جاء في (سفر اللاويين:١٥: ١٩ -٢٧) هذ النص.. واسمح لي أن أقرأه لك بطوله.. (وإذا حاضت المرأة فسبعة أيام تكون في طمثها، وكل من يلمسها يكون نجسا إلى المساء. كل ما تنام عليه في أثناء حيضها أو تجلس عليه يكون نجسا،

([1]) رواه مسلم.

([2])رواه البخاري.

وكل من يلمس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا إلى المساء. وكل من مس متاعا تجلس عليه، يغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجسا إلى المساء. وكل من يلمس شيئا كان موجودا على الفراش أو على المتاع الذي تجلس عليه يكون نجسا إلى المساء. وإن عاشرها رجل وأصابه شيء من طمثها، يكون نجسا سبعة أيام. وكل فراش ينام عليه يصبح نجسا. إذا نزف دم امرأة فترة طويلة في غير أوان طمثها، أو استمر الحيض بعد موعده، تكون كل أيام نزفها نجسة كما في أثناء طمثها. كل ما تنام عليه في أثناء نزفها يكون نجسا كفراش طمثها، وكل ما تجلس عليه من متاع يكون نجسا كنجاسة طمثها. وأي شخص يلمسهن يكون نجسا، فيغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجسا إلى المساء)

التفت الحكيم إلى بات روبرتسون، وقال: أرأيت هذه التفاصيل المشددة التي تجعل المرأة الحائض كالكلب العقور يخشى الكل من الاقتراب منه.. تخيل المرأة يأتيها الطمث لمدة سبعة أيام تكون فيها نجسة ومنبوذة من الآخرين، ثم تستمر بعد فترة نجاستها أسبوعا آخر، أى نصف شهر، وهذا يعنى نصف سنة.. أي أنها ستظل نصف عمرها نجسة منبوذة.

ليس هذا فقط هو كل شريعة التوراة المرتبطة بالحائض.. هناك تكاليف أخطر.. اسمع..:« وفي اليوم الثامن تأخذ لنفسها يمامتين أو فرخي حمام وتأتي بهما الى الكاهن الى باب خيمة الاجتماع. فيعمل الكاهن الواحد ذبيحة خطية والآخر محرقة ويكفر عنها الكاهن أمام الرب من سيل نجاستها »(اللاويين (١٥: ٢٩ –٣٠)

هل ترى هذا حكما معقولا.. إن المرأة في العادة تستحي من علم أي أحد بحيضها، فكيف تفعل هذا أمام الناس، وأمام الكاهن.. ثم ما جريمتها حتى تصبح نجسة.. ولماذا ترتبط أكثر أحكام التوراة بالحمام والكباش والشواء!؟

ومثل ذلك أحكام النفاس في الكتاب المقدس.. اسمع:« إذا حملت امرأة وولدت ذكرا، تظل الأم في حالة نجاسة سبعة أيام، كما في أيام فترة الحيض... وعلى المرأة أن تبقى ثلاثة وثلاثين يوما أخرى إلى أن تطهر من نزيفها، فلا تمس أي شيء مقدس، ولا تحضر إلى المقدس، إلى أن تتم أيام تطهيرها. وإن ولدت أنثى فإنها تظل في حالة نجاسة مدة أسبوعين كما في فترة الحيض، وتبقى ستة وستين يوما حتى تتطهر من نزيفها »(اللاويين: ١٢: ١ –٥)

ألا ترى الجور الذي تحمله هذه النصوص على الإناث؟.. ألا ترى كيف تجعل مدة طهارة المرأة في حال كون المولود أنثى ضعف طهارة كون المولود ذكرا!؟

التفت الحكيم إلى الجمع، وقال: إن هذه التعاليم جميعا تخلو منها شريعة محمد ﷺ لسبب بسيط، وهو أن هذه الشريعة شريعة مقاصدية تلاحظ علل الأحكام وأغراضها، ولهذا ذكر تعالى حكم الحائض وعلته بقوله:﴿ وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة:٢٢٢)

انظر.. الآية الكريمة تكتفي بتحريم إتيان الحائض، وتعلل ذلك بعلة معقولة لم تزدها الأيام إلا قوة[1].. لقد

([1]) أثبت العلم الحديث الأذى الذي يلحق كلا من الرجل والمرأة عند المعاشرة الجنسية حال الحيض.

اعتبرت الأذى مقصورا على محله، و لم تتعداه إلى غيره.

لقد ورد في الحديث عن أنس ــ رضي الله عنه ــ أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها و لم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ فأنزل الله تعالى الآية السابقة، فقال رسول الله ﷺ:(اصنعوا كل شيء إلا النكاح)، فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه[1].

التفت الحكيم إلى بات روبرتسون، وقال: هذا مجرد نموذج عن المفارقة الكبرى بين تشريعات الإسلام، وتشريعات اليهودية والمسيحية.. ومثلها سائر الديانات..

الإسلام ينطلق في كل تشريع من المقاصد التي تجتمع جميعا بتفاصيلها وفروعها لتخدم الإنسان فردا ومجتمعا وفق نظام دقيق وتشريعات محكمة..

حتى ما يظهر أنه جوانب تعبدية محضة فإن الشريعة تربطها بالمقاصد التي تخدم الإنسان، وتخدم الإنسانية، لقد قال الله تعالى في الصلاة مبينا دورها التربوي النفسي:﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت:٤٥)، وقال:﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة:٤٥)

وأما خدمتها للإنسانية، فقد شرع الله للمسلمين أن يصلوا جماعة في المسجد ليؤلف ذلك بين قلوبهم ويزيد المودة بينهم، قال تعالى:﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)﴾

فالغشاء المبطن للرحم يقذف أثناء الحيض، وبفحص دم الحيض تحت المجهر نجد بالإضافة إلى كرات الدم الحمراء و البيضاء قطعاً من الغشاء المبطن للرحم. ويكون الرحم متقرحاً نتيجة لذلك.فهو معرض للعدوى البكتيرية.

و تقل مقاومة الرحم للميكروبات الغازية، ويصبح دخول الميكروبات الموجودة على سطح القضيب يشكل خطراً داهما على الرحم.. وتكون مقاومة المهبل لغزو البكتيريا في أدنى مستواها أثناء الحيض.. إذ يقل إفراز المهبل الحامض الذي يقتل الميكروبات، ويصبح الإفراز أقل حموضة إن لم يكن قلوي التفاعل...

كما تقل المواد المطهرة الموجودة بالمهبل أثناء الحيض إلى أدنى مستوى لها.. ليس ذلك فحسب ولكن جدار المهبل الذي يتألف من عدة طبقات يقل أثناء الحيض إلى أدنى مستوى لها.

وبالإضافة إلى هذا تزيد شراسة الميكروبات أثناء الحيض في دم الحيض وخاصة ميكروبات السيلان، وتنتقل الميكروبات من قناة الرحم إلى مجرى البول البروستات والمثانة.

والتهاب البروستات سرعان ما يزمن لكثرة قنواتها الضيقة الملتفة والتي نادراً ما يتمكن الدواء ــ بكمية كافية ــ من قتل الميكروبات المختفية في تلافيفها..فإذا ما أزمن التهاب البروستاتا فإن الميكروبات سرعان ما تغزوا بقية الجهاز البولي التناسلي فتنتقل إلى الحالبين ثم إلى الكلى.. و هو العذاب المستمر..حتى نهاية الأجل...

وقد ينتقل الميكروب من البروستاتا إلى الحويصلات المنوية فالحبل المنوي فالبربخ فالخصيتين.. و قد يسبب ذلك عقماً بسبب انسداد قناة المني.

وتصاب الغدد بالتغير فتقل أفرازاتها، ويبطئ النبض وينخفض ضغط الدم فيسبب الشعور بالدوخة و الفتور و الكسل.

ولا يقتصر الأذى على الحائض بل ينتقل الأذى إلى الرجل الذي وطئها أيضاً. انظر: خلق الإنسان بين الطب و القرآن، د. محمد علي البار.

([1]) رواه مسلم.

(النور)

وهكذا الأمر بالنسبة للصيام، فقد قال تعالى معللا الحكمة منه:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٨٣)

وهكذا الأمر بالنسبة للتشريعات المرتبطة بالطهارة، قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (المائدة:٦)

أما في جوانب المعاملات المختلفة، فإن الشريعة تنطلق فيها من رعاية المصالح التي تحفظ الحقوق، وترعى الحرمات، وتسد كل منافذ الخلل التي قد يتسرب منها الجور، أو تنتشر منها القسوة.. فالشريعة رحمة كلها عدالة كلها.

٣ ـــ المواقف

التفت الحكيم إلى الطريق، وأشار إلى شرطي كان يقف في الطريق، وقال: أرأيت إلى هذا الشرطي الهادئ الوديع المسالم؟

قال بات روبرتسون: وكيف لا أراه.. إلا إذا كنت متطرفا مسلما؟

قال الحكيم: فهل ستراه يظل على هدوئه ووداعته ومسالمته إن رأى من يخالف القانون أو يعتدي على المارة؟

قال بات روبرتسون: لا.. بل سينقلب حينها وحشا كاسرا.

قال الحكيم: تقصد أنه عند ملاقاته للصوص والمجرمين ينقلب من الاعتدال إلى التطرف.

قال بات روبرتسون: لا.. بل يظل معتدلا.. بل إنه لو بقي في مكانه لم يحرك ساكنا إن رأى المجرمين كان شريكا لهم في جرائمهم.

قال الحكيم: فإن اضطره ذلك السلوك العنيف إلى استعمال السلاح.

قال بات روبرتسون: لا حرج عليه في استعماله ما دام أعداء السلام يستعملونه.

قال الحكيم: فقد أقررت إذن بجميع القوانين التي تحكم على المواقف بكونها معتدلة أو متطرفة.

قال بات روبرتسون: لم أفهم ما الذي تقصده؟

قال الحكيم: لقد فخرت على محمد ﷺ بمقولة المسيح:(دع ما لقيصر لقيصر)..

قال بات روبرتسون: أجل فعلت ذلك.. ولا أزال مصرا عليه.

قال الحكيم: فإذا قال هذا الشرطي (دع ما للص للص).. و(دع ما للمجرم للمجرم) هل تقبل منه ذلك؟

قال بات روبرتسون: الحكيم ذكر قيصرا و لم يذكر المجرمين.

قال الحكيم: فإذا تحول المجرمون إلى قياصرة.. أو تحول القياصرة إلى مجرمين..

قال بات روبرتسون: فأنت تزعم بأن محمدا وأتباعه شرطة.. أو يمارسون وظائف الشرطة.

قال الحكيم: إن كانت وظيفة الشرطة هي حفظ الأمن والسلام والحريات من أن تنتهك أو تخترق، فإن محمدا ﷺ وجميع أمته كلفوا بأن يكونوا شرطة يحفظون السلام في العالم لحفظ المستضعفين من بطش المستكبرين.. لقد ذكر الله تعالى ذلك، وسماه شهادة، فقال:﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (البقرة: من الآية١٤٣)

فمن معاني الشهادة هذه الوظيفة الخطيرة التي انتدب لها كل مؤمن، بل كل حر في العالم.. فلا يمكن للحر أن يرى اللصوص ثم يسكت عليهم، أو يرى المجرمين، ثم يغض الطرف عنهم.

قال بات روبرتسون: فهذا هو الذي جعل الإسلام دين سيف إذن؟

قال الحكيم: الأصل في استعمال السيف في الإسلام الحرمة.. فالمسلم لا يسل سيفه إلا للضرورة القصوى التي استدعت ذلك.

قال بات روبرتسون: فلماذا سل الإسلام سيفه إذن على الأمم؟

قال الحكيم: الإسلام لم يسل سيفه على أي أمة من الأمم.

قال بات روبرتسون: فأنت لا تقرأ التاريخ إذن.

قال الحكيم: لقد سل الإسلام سيفه على أولئك الأباطرة الذين وقفوا سدا بين الشعوب والحرية التي أتاحها الله لهم.

سكت قليلا، ثم قال: ما دمت قد قارنت بين المسيحية والإسلام.. فسأضرب لك مثلين عن شعبين، وكيف تعامل معهم قومك، وكيف تعامل معهم قومي.

أما أولهما، فمصر.. لقد قال نبينا ﷺ يوصينا بمصر، وبأهل مصر:(إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا)[1]، وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ:(ستفتحون أرضًا يذكر فيها القيراط[2]، فاستوصوا بأهلها خيرًا فإن لهم ذمة ورحمًا)[3]

ومنذ أوصى النبي ﷺ بهذه الوصية، وأهل مصر ينعمون بسماحة الإسلام ورحمة الإسلام، فلم تمتد إليهم يد تؤذيهم، ولا لسان يجرحهم، بل تحول المصريون إلى حماة للإسلام، ومدافعين عنه، بل أصبحت مصر بعد فترة وجيزة عاصمة الإسلام.

قارن هذا بما فعله أهل دينك بالمصريين الذين لم يفرحوا بشيء كفرحهم بالفتح الإسلامي.

قال رجل من القوم: هذا هو النموذج الأول.. ونحسب كل الأدلة معك فيه، فلا يزال الأقباط المصريون أكبر شاهد على مدى تسامح الإسلام مع المصريين في جميع فترات تاريخه، فحدثنا عن النموذج الثاني.

قال الحكيم: النموذج الثاني هم اليهود..

هنا انتفض بات روبرتسون انتفاضة شديدة، فقد كان يحن لليهود أكبر من حنينه للمسيح نفسه، وقال: أتذكر اليهود.. وتنسى ما فعل نبيكم باليهود[4].

قال الحكيم: لن أتحدث عن موقف قومك من اليهود، فأنت أدرى الناس به.. ولكني سأحدثك عن موقف نبينا ﷺ..

ولو تأملت المعاهدات التي صدرت عن النبي ﷺ لوجدتها عين التسامح والموادعة والمساواة، ومن هذه المعاهدات إعلان دستور المدينة الذي اشتمل على سبع وأربعين فقرة، ومما ورد فيها من الحديث عن اليهود: (إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين).. و(وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه[5]وأهل بيته).. و(إن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر

([1]) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

([2])القيراط جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما ، وكان أهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به (شرح مسلم ١٦ / ٩٧)

([3]) رواه مسلم.

([4]) سنرى التفاصيل المرتبطة باليهود وعلاقة النبي ﷺ بهم في فصل (حروب) من هذه الرسالة.

([5])لا يهلك غيرها.

على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم)[1] .. و(إذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصلحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين).. و(إن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره).. و(إنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ)[2]

وقد حافظ رسول الله ﷺ على ما اقتضته هذه المعاهدة إلى أن خانوها بأنفسهم، فلقوا إثم خيانتها[3]..

لقد كانت أفواه اليهود في ذلك الوقت تلقي بسمومها على رسول الله ﷺ والمسلمين.. ومع ذلك لم يكن المسلمون ولا رسول الله ﷺ يقابلونهم إلا بالجدال بالتي هي أحسن، أو غض الطرف عما يقولون.

حدث أنس ــ رضي الله عنه ــ فذكر (أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم، لم يؤاكلوها و لم يجامعوهن في البيوت[4]، فسأل أصحاب النبيِّ ﷺ النبيَّ ﷺ فأنزل الله تعالى:﴿ وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (البقرة:٢٢٢)، فقال رسول الله ﷺ:(اصنعوا كل شيء إلا النكاح)، فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله! إن اليهود تقول: كذا وكذا، فلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله صل حتى ظننا أن قد وجد عليهما، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى النبي ﷺ، فأرسل في آثارهما، فسقاهما، فعرفا أن لم يجد عليهما[5].

([1])هذه النفقة في الحرب خاصة، شرط عليهم المعاونة له على عدوه، ولهذا كان ﷺ يسهم لليهود إذا غزوا مع المسلمين لهذا الشرط الذي شرط عليهم من النفقة، ولولا هذا لم يكن لهم في غنائم المسلمين سهم.

([2]) هذه المعاهدة ورد ذكرها في كتاب الأموال لأبي عبيد ص ٢٩٢ – ٢٩٥ والأموال لابن زنجويه ٢ / ٤٦٦ – ٤٧٠ وسيرة ابن هشام ٢ / ٩٢ والروض الأنف ٤ / ٢٩٣ ومجموعة الوثائق السياسية من ص ٤١ – ٥٠.

([3]) انظر تفاصيل الخيانة وآثارها في فصل (حروب) من هذه الرسالة.

([4]) لم يجتمعوا بهن، ولا تزال التعاليم المشددة المتعلقة بالحائض موجودة في العهد القديم، ففيه:(وإذا حاضت المرأة فسبعة أيام تكون في طمثها، وكل من يلمسها يكون نجسا إلى المساء. كل ما تنام عليه في أثناء حيضها أو تجلس عليه يكون نجسا، وكل من يلمس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا إلى المساء. وكل من مس متاعا تجلس عليه، يغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجسا إلى المساء. وكل من يلمس شيئا كان موجودا على الفراش أو على المتاع الذي تجلس عليه يكون نجسا إلى المساء. وإن عاشرها رجل وأصابه شيء من طمثها، يكون نجسا سبعة أيام. وكل فراش ينام عليه يصبح نجسا. إذا نزف دم امرأة فترة طويلة في غير أوان طمثها، أو استمر الحيض بعد موعده، تكون كل أيام نزفها نجسة كما في أثناء طمثها. كل ما تنام عليه في أثناء نزفها يكون نجسا كفراش طمثها، وكل ما تجلس عليه من متاع يكون نجسا كنجاسة طمثها. وأي شخص يلمسهن يكون نجسا، فيغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجسا إلى المساء »(سفر اللاويين:١٥: ١٩ –٢٧)

بل إن هذه التعاليم القاسية تظل تلاحق المرأة حتى بعد انتهاء حيضتها:(وفي اليوم الثامن تأخذ لنفسها يمامتين أو فرخي حمام وتأتي بهما الى الكاهن الى باب خيمة الاجتماع. فيعمل الكاهن الواحد ذبيحة خطية والآخر محرقة ويكفر عنها الكاهن أمام الرب من سيل نجاستها) (اللاويين (١٥: ٢٩ –٣٠)

([5]) رواه مسلم.

وعند ما قتل أحد الصحابة في أحد أحياء اليهود في خيبر رضي ﷺ وقبل يمين اليهود إذ أقسموا أنهم لم يقتلوه و لم يعلموا قاتله، فعن بشير بن يسار قال: (زعم أن رجلًا من الأنصار يقال له سهل بن أبي حثمة أخبره أن نفرًا من قومه انطلقوا إلى خيبر، فتفرقوا فيها فوجدوا قتيلًا، وقالوا للذي وجد فيهم: قد قتلتم صاحبنا، قالوا: ما قتلنا وما علمنا قاتلًا، فانطلقوا إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله انطلقنا إلى خيبر فوجدنا أحدنا قتيلًا، قال: الكُبرَ الكبرَ، فقال لهم: تأتون البينة على من قتله؟ قالوا: ما لنا بينة، قال: فيحلفون، قالوا: لا نرضى بأيمان اليهود، فكره رسول الله ﷺ أن يُطَلَّ دمه، فوداه مائة من إبل الصدقة[1].

التفت إلى بات روبرتسون، وقال: هل رأيت نبلا كهذا النبل، أو كرما كهذا الكرم[2].. لقد فعل ذلك مع كونه في موضع قوة، يستطيع أن يفرض بها ما يشاء على من **يشاء**.

سكت الحكيم قليلا، ثم قال: وهذه المواقف المملوءة بالتسامح والرحمة واللطف كانت هي القاسم المشترك في جميع معاملات النبي ﷺ مع جميع أصناف الخلق.

حدث عبد الله بن مغفل المزني، قال: كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله، وكأني بغصن من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ، فرفعته عن ظهره، وعلي بن أبي طالب وسهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ: (اكتب بسم الله الرحمن الرحيم)، فأخذ سهيل يده فقال: ما نعرف الرحمن الرحيم، اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال:(اكتب باسمك اللهم، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة)، فأمسك بيده فقال: لقد ظلمناك إن كنت رسولًا، اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال:(اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وأنا رسول الله)، قال فكتب، فبينما نحن كذلك، إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم النبي ﷺ، فأخذ الله بأبصارهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال لهم رسول الله ﷺ:(هل جئتم في عهد أحد، أو هل جعل لكم أحد أمانًا)، فقالوا: لا، فخلى سبيلهم، فأنزل الله تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ (الفتح:٢٤)[3]

التفت إلى بات روبرتسون، وقال: لقد كان بإمكان رسول الله ﷺ أن يأسرهم أو أن يقتلهم، ولكن سماحته أبت عليه ذلك.

وعندما أظفر الله نبيه ﷺ على أعدائه الذين استعملوا كل الأساليب القذرة لحربه ماذا قال لهم؟

([1]) رواه البخاري.

([2])قال القرطبي في المفهم: فعل ﷺ ذلك على مقتضى كرمه وحسن سياسته وجلبًا للمصلحة ودرءًا للمفسدة على سبيل التأليف، ولا سيما عند تعذر الوصول إلى استيفاء الحق، وقال القاضي عياض: هذا الحديث أصل من أصول الشرع وقاعدة من قواعد الأحكام وركن من أركان مصالح العباد، وبه أخذ جميع الأئمة والسلف من الصحابة والتابعين وعلماء الأمة وفقهاء الأمصار من الحجازيين والشاميين والكوفيين وإن اختلفوا في صور الأخذ به.

قال النووي عند شرحه لهذا الحديث: وفي هذا دليل لصحة يمين الكافر والفاسق واليهودي (انظر: شرح مسلم ١١ / ١٤٧)

([3]) رواه أحمد والحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٦ / ١٤٥)، وقد رواه مسلم بنحوه مختصرًا.

سكت الجمع، فقال: لقد قال لهم : (يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟)، قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: (فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته:﴿ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ ﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء)

قال بات روبرتسون: ولكن الإسلام الذي تزعم أنه أبدى تسامحا عجيبا في معاملة غير المسلمين كان شديد القسوة على المسلمين العصاة.. قارن ما وضع الإسلام من حدود شديدة بما حصل من المسيح مع تلك المرأة الخاطئة[1].

قال الحكيم: إن الحدود في الإسلام ليست إلا نوعا من الرواد ع التي تحفظ المجتمع من السقوط في حمأة الرذيلة، أوحمأة اللاأمن.. وهي مجرد إجراء من الإجراء لا أنها كل الشريعة كما يتوهم المتوهمون..

إن جميع العقوبات التي وضعها الإسلام للردع عن الجريمة لا تعدو سبع عقوبات، وكلها تمس طهارة المجتمع الذي جاءت تشريعات الإسلام لتحافظ على طهارته، وهي الحرابة (قطع الطريق)، والردة، والبغي، والزنا، والقذف، والسرقة، وشرب الخمر.

وكل هذه الحدود لا تنفذ إلا بعد شروط شديدة، ومن السهل رفعها بأي شبهة من الشبهات.

سأضرب لك مثالا على ذلك بحد الزنا.. هذا الحد الذي شرعه الله لتطهير المجتمع من الانحراف.

فهذا الحد في الشريعة لم يأمر به الإسلام إلا بعد أن امتلأ المجتمع نظافة وطهارة، ثم لم يأمر بتنفيذه إلا في ظل ضوابط شديدة تكاد تحيل وقوعه إلا بالنسبة لجريء على قيم المجتمع غير مبال بتخريبها.

لقد قال تعالى يذكر البينة التي على أساسها يقوم الحد:﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (النور:٤)

إن البينة التي ذكرتها هذه الآية الكريمة لا يمكن تحققها إلا في إنسان وقح لا يراعي لنفسه، ولا للمجتمع أي حرمة.

ولهذا يندر أن يقع مثل هذا.. بل لم يثبت مثل هذا، فلم نسمع في تاريخ المسلمين أن أُقيم حد الزنا بتوافر أربعة شهود.

سكت قليلا، ثم قال: سأضرب لك مثالا كان رسول الله ﷺ يعلم فيه بأن امرأة وقعت في الزنا، وهي محصنة، ومع ذلك لم يقم عليها رسول الله ﷺ الحد، و لم يعمل علمه في إقامة الحد عليها، روي أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سمحاء، فقال النبي ﷺ:(البينة أو حدٌّ في ظهرك)، فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البيّنة؟ فجعل النبي ﷺ يقول:(البيّنة وإلا حد في ظهرك)، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، فليترلن الله ما يبرئ ظهري من الحد، فترل جبريل وأنزل عليه قوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) ﴾ (النور)، فانصرف النبي ﷺ فأرسل إليها فجاء هلال فشهد، والنبي ﷺ يقول:(إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل

([1]) سنرى التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في سائر الرسائل، وخاصة (رحمة للعالمين)

منكما تائب؟)، ثم قامت فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقفوها، وقالوا: إنها موجبة، قال ابن عباس: فتلكّأت، ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فمضت، فقال النبي ﷺ:(أبصروها، فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الإليتين خدلّج الساقين فهو لشريك بن سمحاء)، فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ:(لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن)[1]

قال بات روبرتسون: ولكن محمدا أقام الحد على ماعز.

قال الحكيم: لم يقمه النبي ﷺ إلا بعد إلحاح شديد من ماعز بأن يقيم عليه الحد ليطهره من إثمه.. سأحكي لك القصة.. فمن خلال الأحداث وحدها تعرف روح التسامح التي كان يتعامل بها محمد ﷺ مع المذنبين.

لقد روي أن ماعز بن مالك جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، طهرني، فقال: ويحك، ارجع فاستغفر الله وتب إليه، قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء، فقال: يا رسول الله، طهرني، فقال رسول الله ﷺ: ويحك، ارجع فاستغفر الله وتب إليه، قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء، فقال: يا رسول الله، طهرني، فقال النبي ﷺ مثل ذلك، حتى إذا كانت الرابعة، قال له رسول الله ﷺ: فيم أطهرك؟ فقال: من الزنا، فسأل رسول الله ﷺ: أبه جنون؟ فأخبر أنه ليس بمجنون، فقال: أشرب خمرا؟ فقام رجل فاستنكهه، فلم يجد منه ريح خمر، قال: فقال رسول الله ﷺ: أزنيت[2]؟ فقال: نعم، فأمر به فرجم، فكان الناس فيه فرقتين، قائل يقول: لقد هلك، لقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز، أنه جاء إلى النبي ﷺ، فوضع يده في يده، ثم قال: اقتلني بالحجارة، قال: فلبثوا بذلك يومين، أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس، فسلم، ثم جلس، فقال: استغفروا لماعز ابن مالك، قال: فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك، قال: فقال رسول الله ﷺ:(لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم)[3]

التفت إلى بات روبرتسون، وقال: ألا ترى حرص رسول الله ﷺ على عدم إقامة الحد على الرجل، والاكتفاء بتوبته.. ولكن الرجل أصر، ولولا أنه أصر لما أقام عليه النبي ﷺ الحد[4].

قال بات روبرتسون: أتقصد بأن ماعزا لو لم يأت ليقر بذنبه ما أرسل محمد شرطته ليبحثوا عنه، ويستجوبوه؟

قال الحكيم: أجل.. فالمسلم لا يتتبع عورات الناس، ليفضحهم.. ولهذا فإن المذنب الذي يكتفي بستر الله له، ثم يتوب إلى الله من غير أن يقام عليه حد، فإن الله يتوب عليه إلا إذا استوجب ذنبه حقا من الحقوق، فإن يجب عليه إرجاعه.

([1]) رواه البخاري.

([2]) هذه هي الرواية الصحيحة التي تتناسب مع جلال النبوة، أما ما يروى من تلفظه ﷺ بلفظ فاحش ليتأكد من كونه زنا حقيقة، فلا نرى صحته، بل هو من تزيدات الرواة ــ وما أكثرها ــ ونعجب من حرص البعض على تلك الصيغة، وتركهم لسائر الصيغ، بل رواية تلك الصيغة في المجالس مع ما فيها من خدش الحياء.

([3]) رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

([4])روي عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه، قال: كنا، أصحاب رسول الله ﷺ نتحدث، أن الغامدية وماعز بن مالك، لو رجعا بعد اعترافهما، أو قال: لو لم يرجعا بعد اعترافهما، لم يطلبهما، وإنما رجمهما عند الرابعة.(رواه أبو داود والنسائي في الكبرى)

لقد ذكر ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ بعد أن أقام الحد على ماعز الأسلمي، قام فقال: (اجتنبوا هذه القاذورة التي نهى الله عنها، فمن ألمّ في شيء منها فليستتر)[1]

بل قد روي أن النبي ﷺ عاتب هزالا ــ وهو الرجل الذي دفع ماعزاً للاعتراف عند النبي ﷺ ــ وقال له:(لو سترته لكان خيراً لك)

وقد فقه الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ هذه الدروس، فلهذا كانوا أبعد الناس عن تتبع عورات الناس، عن عبد الرحمن بن عوف: أنه حرس ليلة مع عر بالمدينة، فبينما هم يمشون شب لهم سراج في بيت، فانطلقوا يؤمونه حتى إذا دنوا منه، إذا باب مجاف (أي مغلق) على قوم، لهم فيه أصوات مرتفعة، فقال عمر ــ وأخذ بيد عبد لرحمن ــ: أتدري بيت من هذا؟ قال: لا، قال: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف، وهم الآن شرب (أي يشربون الخمر) فما ترى؟ قال عبد الرحمن: أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه: نهانا الله عز وجل، فقال: (ولا تجسسوا)، فقد تحسسنا! فانصرف عمر عنهم وتركهم)[2]

ويروى أن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ فقد رجلا من أصحابه، فقال لابن عوف: انطلق بنا إلى منزل فلان فننظر، فأتيا منزله، فوجدا بابه مفتوحا، وهو جالس ومرأته تصب له في الاناء فتناوله إياه، فقال عمر لابن عوف: هذا الذي شغله عنا، فقال ابن عوف لعمر: وما يدريك ما في الاناء؟ فقال عمر: أتخاف أن يكون هذا التجسس؟ قال: بل هو التجسس، قال: وما التوبة من هذا؟ قال: لا تعلمه بما اطلعت عليه من أمره، ولا يكونن في نفسك إلا خير، ثم انصرفا[3].

بل إن المذنبين ــ من فرط تسامح الولاة معهم ــ صاروا يتبجحون عليهم، وينتقدون من يبحث عن عوراتهم، حدث الحسن قال: أتى عمر رجل فقال: إن فلانا لا يصحو فدخل عليه عمر، فقال: إني لأجد ريح شراب يا فلان أية أية هذا؟ فقال الرجل: يا ابن الخطاب، وأية أية هذا ألم ينهك الله أن تجسس؟ فعرفه عمر فانطلق وتركه[4].

وعن ثور الكندي أن عمر بن الخطاب كان يعس بالمدينة من الليل، فسمع صوت رجل في بيت يتغنى، فتسور عليه، فقال: يا عدو الله أظننت أن الله يسترك وأنت في معصيته؟ فقال: وأنت يا أمير المؤمنين لا تعجل علي، إن أكن عصيت الله واحدة فقد عصيت الله في ثلاث، قال:﴿ وَلا تَجَسَّسُوا)(الحجرات: من الآية١٢)، وقد تجسست، وقال:﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا)(البقرة: من الآية١٨٩)، وقد تسورت علي، وقد دخلت علي بغير إذن وقال الله تعالى:﴿ لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا)(النور: من الآية٢٧)، قال عمر: فهل عندك من خير إن عفوت عنك؟ قال: نعم، فعفا عنه، وخرج وتركه[5].

وعن زيد بن وهب، قال: أتى رجل ابن مسعود، فقال: هل لك في الوليد بن عقبة، ولحيته تقطر خمراً؟!

---

[1] رواه عبد الرزاق في المصنف.
[2] رواه الحاكم.
[3] رواه ابن المنذر.
[4] رواه ابن المنذر.
[5] رواه الخرائطي في مكارم الاخلاق.

فقال: إن رسول الله ﷺ نهانا من التجسس، إن يظهر لنا نأخذه[1].

سكت قليلا، ثم قال: بل إن النبي ﷺ كان يحث على الستر، وعلى عدم تتبع عورات المسلمين، ويخبر عن الجزاء العظيم المعد لذلك، وذلك ما يمنع من استيفاء الأركان التي يقام بها الحد.. فالحد لا يقام إلا بالشهود، قال ﷺ:(من ستر أخاه المسلم في الدنيا، ستره الله في الدنيا والآخرة)[2]، وقال ﷺ:(من رأى عورة فسترها، كان كمن استحيا موؤودة من قبرها)[3]، وقال ﷺ:(من ستر عورة أخيه المسلم ستر الله عورته يوم القيامة، ومن كشف عورة أخيه المسلم كشف الله عورته حتى يفضحه بها في بيته)[4]

سكت قليلا، ثم قال: أتدري.. لقد روي أن ماعز بن مالك فرّ حين وجد مسّ الحجارة ومسّ الموت فقال رسول الله ﷺ:(هلا تركتموه؟)[5]

وفي رواية: وجد مسّ الحجارة صرخ بنا: يا قوم ردوني إلى رسول الله ﷺ فإن قومي قتلوني وغروني من نفسي، وأخبروني أن رسول الله ﷺ غير قاتلي، فلم نترع عنه حتى قتلناه، فلما رجعنا إلى رسول الله ﷺ وأخبرناه، قال: فهلا تركتموه وجئتموني به[6].

قال بات روبرتسون: فأنت بهذه النصوص التي تنقلها تكاد تلغي أهم ما يطلبه أولئك المتطرفون الذين يريدون تطبيق الشريعة.

قال الحكيم: إن كان تطبيق الشريعة في تصورهم هو مجرد تطبيق الحدود، فقد أساءوا فهم الشريعة.. فالحدود في الشريعة زواجر لا انتقام.. وهي في ذلك كأسلحة الردع التي تخزنها الدول في مخازنها، لا لتنتقم بها، وإنما لتحافظ بها على سلطتها ومهابتها.

ولهذا ورد في الحديث (تعافوا الحدود بينكم، فما بلغني من حد فقد وجب)[7]

وقد ذكر ابن مسعود هيئة رسول الله ﷺ عند إقامة بعض الحدود، فقال: (إني لأذكر أول رجل قطعه رسول الله ﷺ أتى بسارق، فأمر بقطعه، وكأنما أسف[8]وجه رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، كأنك كرهت قطعه؟ قال: (وما يمنعني؟ لا تكونوا أعواناً للشيطان على أخيكم! إنه لا ينبغي للإمام إذا انتهى إليه حد إلا أن يقيمه، إن الله عفو يحب العفو:﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(النور: من الآية٢٢)

بل كان الرجل يأتي إلى النبي ﷺ، فيعترف بأنه أتى ما يوجب الحد، فلا يسأله عن هذا الحد: ما هو؟

([1]) رواه أبو داود والحاكم.
([2]) رواه أحمد.
([3]) رواه البخاري في الأدب، وأبو داود والحاكم.
([4]) رواه ابن ماجة.
([5]) رواه أحمد وابن ماجه والترمذي وحسنه.
([6]) رواه ابن إسحق.
([7]) رواه أبو داود والحاكم والنسائي.
([8])أي بدا عليه الأسى.

وكيف اقترفه؟ بل يعتبر اعترافه هذا ـــ الذي قد يعرضه للعقوبة ـــ توبة من ذنبه، وندماً على ما فرط منه، فهو كفارة له، فقد روى أبو داود في باب (في الرجل يعترف بحد ولا يسميه) عن أبي أمامة: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أصبت حداً فأقمه علي. قال: (توضأت حين أقبلت)؟ قال: نعم. قال: (هل صليت معنا حين صلينا)؟ قال: نعم. قال: (اذهب، فإن الله تعالى قد عفا عنك)[1]

ولأجل هذا ذهب العلماء إلى أن من حق الإمام أو القاضي أن يسقط الحد بالتوبة إذا ظهرت أماراتها.

سكت قليلا، ثم قال: ليس ذلك فقط.. بل إن النصوص المقدسة تأمرنا بالإحسان إلى المذنبين.. ونسيان ما بدر منهم من إساءة إلينا، لقد ورد في سبب نزول قوله تعالى:﴿ وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور:٢٢) أن الآية نزلت في الصدِّيق، حين حلف ألا ينفع مِسْطَح بن أثاثة بنافعة بعدما قال في عائشة ما قال، وعندما نزلت الآية قال الصديق: بلى، والله إنا نحب يا ربنا أن تغفر لنا، ثم رَجَع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا، في مقابلة ما كان قال: والله لا أنفعه بنافعة أبدًا.

تصور.. هذا الدين الذي ملأ قلوب أهله بالسماحة حتى صار الرجل الذي هو وزير النبي ﷺ وصاحبه يحسن إلى من قذف ابنته في عرضها.. وابنته هذه هي زوجة رسول الله ﷺ..

فهل ترى في جميع حياة الزعماء والقادة مثل هذا الموقف!؟

([1]) رواه أبو داود.

٤ ـــ الحياة

التفت الحكيم إلى الحاضرين، وقال لبات روبرتسون: أترى هؤلاء الحاضرين؟

قال الحكيم: أعمى أنا.. أو متطرف أنا.. إن لم أكن أراهم.

قال الحكيم: أنت ترى بأن لكل واحد من هؤلاء حياته الخاصة، وأسلوب تفكيره، وما يحب، وما يبغض.. وكل هؤلاء لا يحب أحد أن يتدخل في خصوصياته.

قال بات روبرتسون: نعم.. ما علاقة هذا بما نحن فيه؟

قال الحكيم: ألست ترى بأن أخطر تطرف هو أن نفرض على الناس أسلوبا معينا في الحياة؟

قال بات روبرتسون: أجل.. وذلك ما فعله الإسلام.

قال الحكيم: بل ذلك ما يريد قومك أن يفرضوه بكل الطرق، ثم يعتبرون من يقع أسيرا للأنماط التي يريدون فرضها للحياة وللأحياء حرا.. ويعتبرون المتحرر منها متطرفا.

قال بات روبرتسون: لم أفهم ما الذي تقصده؟

قال الحكيم: لقد سمى النبي ﷺ العصر الذي نحن فيه عصر استبداد، فقال:(تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا عضوضا فتكون ما شاء الله، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم ملكا جبرية ثم تكون خلافة على منهاج النبوة)[1]

أتدري ما الفرق بين الملك العضوض، والملك الجبرية؟

قال بات روبرتسون: لا.. هذه المصلطحات لم تدخل دوائر معارفنا بعد.

قال الحكيم: هذه المصظلحات هي التي جاء بها نبينا ﷺ لينبه العامة والخاصة في كل الأحقاب إلى البحث عن الحياة الحرة التي لا يتسلط عليها أهل الملك العضوض، ولا أهل الملك الجبري.

قال بات روبرتسون: فمن هما؟

قال الحكيم: أهل الملك العضوض هم الذين ابتليت بهم البشرية في أكثر عهودها، وهو ملك يقوم على الجباية.. ودور الحاكم فيه أن يسلب أموال رعيته، فإن لم يكن لها أموال عضها ليمص بعض دمائها.

وأما أهل الملك الجبري، فهم الذين لا يكتفون بسلب الرعية أموالها، وإنما يسلبون منها حريتها، فيفرضون عليها كيف تفكر، وكيف تعيش، وما تأكل، وما تلبس.

قال بات روبرتسون: فأي بشر هم الذين ابتلوا بهذا النوع من الحكم؟

قال الحكيم: قومي وقومك.. قومي ببعدهم عن الإسلام، وقومك بانحرافهم عن الفهم الصحيح لحقيقة الإنسان، وما تتطلبه حياة الإنسان.

طأطأ بات روبرتسون، وقال: في هذه الناحية أنت محق.. أنا أشعر بأن ساسة قومي متطرفون في سلوكهم

---

(1) رواه أحمد.

مع الرعية.. ولكن هل تسمي ذلك استبدادا؟.. أنا لا أفهم الاستبداد إلا بقوانين الطوارئ التي تفرض عليكم كل حين.

قال الحكيم: أخطر استبداد أن لا يترك لك المستبد إلا خيارا واحدا هو الخيار الذي يختاره لك.. وقومك يمارسون هذا.. ولعلك أنت أيضا تمارسه من حيث تشعر، ومن حيث لا تشعر.

قال بات روبرتسون: لم أفهم..

قال الحكيم: ربما تكون لك.. أو كانت لك قناة إعلامية.. فرحت تملؤها بالإشهارات عن أصناف المأكولات والمشمومات والملبوسات.. وأنت لا يهمك ما يحويه ذلك من مضار ومنافع.. ولكن يهمك الكسب الذي ينال قناتك لتظل تؤدي رسالتها.

سكت قليلا، ثم قال: ليس هذا فقط.. بل لعلك كنت تشهر لأصناف السجائر..

قاطعه بات روبرتسون، وقال: فلنفرض حصول ذلك.. ألسنا نضع أسفل الإشهار عبارة (مضر بالصحة)

ابتسم الحكيم، وقال: وما تجدي تلك العبارة..

قال بات روبرتسون: يراها ناس فينفرون من السجائر.. فيحقق الإشهار عكس هدفه.

قال الحكيم: فضعوا نفس الإعلان في كل ما تشهرونه.. فأنت تشهرون كل شيء حتى الخنا والفجور تدعون إليه صباح مساء.. لتجعلوا حياة الناس موضوعة في قالب حديدي ختم عليه الشيطان لا يستطيعون منه فكاكا.

قال بات روبرتسون: ولكن الإسلام حين يقيد الناس بتلك التوجيهات يملؤها بالضيق.

قال الحكيم: لقد ذكرت لك أن الإسلام يتيح لكل إنسانه حياته الحرة النظيفة.. فهو لا يتدخل في كل ما يستجم به الناس من أصناف اللهو واللعب بشرط واحد، وهو أن لا تكون مضرة بهم أو بمجتمعهم أو بحقيقتهم الإنسانية ووظيفتهم التي أرسلوا للأرض من أجلها.

سكت قليلا، ثم قال: لعل السبب في حكمك على الرسول ﷺ بالتطرف هو ما تراه من بعض المسلمين من عبوس وتجهم، ويعتبرون ذلك دينا.

قال بات روبرتسون: ذلك صحيح.. ألا تعتبر ذلك كافيا في الحكم بالتطرف؟

قال الحكيم: لقد ذكرت لك أنه لا يحكم على أحد إلا من خلال تصرفاته.. ولذلك، فلنرجع إلى رسول الله ﷺ وما تنص عليه كتب السنة والسيرة لنرى مدى صدق ارتباط ذلك برسول الله ﷺ.

لقد حدث زيد بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ وقد طُلب إليه أن يحدثهم عن حال رسول الله ﷺ، فقال: كنت جاره، فكان إذا نزل عليه الوحي بعث إليّ فكتبته له، فكان إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا، قال:(فكل هذا أحدثكم عن رسول الله ﷺ؟)[1]

فقد كانت حياة رسول الله ﷺ ــ بحسب هذا الحديث ــ لا يختلف عن حياة سائر الناس، فلا تكلف فيها ولا تطرف.

([1]) البيهقي.

وقالت عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ تذكر موقفا من المواقف التي عاشتها مع رسول الله ﷺ: كان عندي رسول الله ﷺ وسودة بنت زمعة فصنعت حريرة، وهي دقيق يطبخ بلبن أو دسم، وجئت به، فقلت لسودة: كلي، فقالت: لا أحبه، فقلت: والله لتأكلن أو لألطخن به وجهك، فقالت: ما أنا بذائقته، فأخذت بيدي من الصحفة شيئاً منه فلطخت به وجهها، ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها، فخفض لها رسول الله ﷺ ركبتيه لتستقيد مني، فتناولت من الصفحة شيئاً فمسحت به وجهي! وجعل رسول الله ﷺ يضحك[1].

وكان ﷺ يمازح أصحابه، ويتطلف معهم في مزاحه، ومما روي في ذلك أن عجوزا قصدته، فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال لها ﷺ :(يا أم فلان، إنّ الجنة لا يدخلها عجوز!)، فبكت المرأة، لأنها أخذت الكلام على ظاهره، فأفهمها ﷺ أنها حين تدخل الجنة لن تدخلها عجوزاً، بل شابة حسناء، وتلا عليها قول الله تعالى في نساء الجنة:﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُباً أتراباً ﴾ (الواقعة: ٣٥ ـــ٣٧)[2]

وجاء رجل يسأله أن يحمله على بعير، فقال له ﷺ:(لا أحملك إلا على ولد الناقة!) فقال: يا رسول الله، وماذا أصنع بولد الناقة؟! ـــ انصرف ذهنه إلى الحُوار الصغير ـــ فقال ﷺ:(وهل تلد الإبل إلا النوق؟)[3]

ويروى أن أم أيمن جاءت إلى النبي ﷺ، فقالت: إن زوجي يدعوك، فقال ﷺ:(ومن هو ؟.. أهوالذي بعينه بياض[4]؟)، قالت: والله ما بعينه بياض! فقال ﷺ:(بلى إنّ بعينه بياضاً)، فقالت: لا، والله، فقال ﷺ:(ما من أحد إلا بعينه بياض)[5]

وقد عُرف بعض الصحابة بالضحك في حياته ﷺ، وأقرهم ﷺ عليه، ومنهم النعيمان بن عمر الأنصاري ـــ رضي الله عنه ـــ وهو ممن شهد العقبة الأخيرة، وشهد بدراً وأحداً، والخندق، والمشاهد كلها معه ﷺ.

ومن أحاديثه أنه كان لا يدخل المدينة طُرفة إلا اشترى منها، ثم جاء بها إلى النبي ﷺ، فيقول: هذا أهديته لك، فإذا جاء صاحبها يطلب نعيمان بثمنها، أحضره إلى النبي ﷺ قائلاً: أعط هذا ثمن متاعه، فيقول ﷺ:(أو لم تهده لي؟) فيقول:(إنه والله لم يكن عندي ثمنه، ولقد أحببت أن تأكله!) فيضحك، ويأمر ﷺ لصاحبه بثمنه.

ومن نوادره أنه دخل أعرابي على النبي ﷺ، وأناخ ناقته بفنائه، فقال بعض الصحابة للنعيمان الأنصاري: لوعقرتها فأكلناها، فإنّا قد قرمنا إلى اللحم؟ ففعل، فخرج الأعرابي وصاح: واعقراه يا محمد! فخرج النبي ﷺ فقال:(من فعل هذا؟) فقالوا: النعيمان، فاتبعه يسأل عنه حتى وجده قد دخل دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب، واستخفى تحت سرب لها فوقه جريد، فأشار رجل إلى النبي ﷺ حيث هو فأخرجه فقال له:(ما حملك على ما صنعت؟) قال: الذين دلوك عليّ يا رسول الله هم الذين أمروني بذلك قال: فجعل يمسح التراب عن وجهه ويضحك، ثم غرمها للأعرابي.

ومما يروى عنه أن أبا بكر الصديق ـــ رضي الله عنه ـــ خرج في تجارة إلى بصرى قبل موت النبي ﷺ

---

(1) أبو يعلى.
(2) الترمذي.
(3) الترمذي.
(4) أراد به البياض المحيط بالحدقة.
(5) ابن أبي الدنيا.

بعام، ومعه نعيمان وسويبط بن حرملة، وكانا قد شهدا بدراً، وكان نعيمان على الزاد، فقال له سويبط ــ وكان رجلاً مزّاحاً ــ:(أطعمني)، فقال:(لا، حتى يجيء أبوبكر)، فقال: أما والله لأغيظنك، فمروا بقوم فقال لهم سويبط: تشترون مني عبداً؟ قالوا: نعم، قال: إنه عبد له كلام، وهوقائل لكم: إني حر، فإن كنتم إذا قال لكم هذه المقالة تركتموه، فلا تفسدوا عليّ عبدي، قالوا: بل نشتريه منك، قال: فاشتروه منه بعشر قلائص، قال: فجاؤوا فوضعوا في عنقه عمامة أو حبلاً، فقال نعيمان: إن هذا يستهزىء بكم، وإني حر، لست بعبد، قالوا: قد أخبرنا خبرك، فانطلقوا به، فجاء أبوبكر ﷺ، فأخبره سويبط فأتبعهم، فرد عليهم القلائص وأخذه، فلما قدموا على النبي ﷺ أخبروه قال: فضحك النبي ﷺ وأصحابه منها حولاً.

قال بات روبرتسون: ولكن الإسلام مع ذلك يحرم الغناء.. مع أن النفس الشريفة ترغب فيه.

قال بات روبرتسون: النفس الشريفة والنفس الخبيثة ترغب فيه.. فلذلك أباح الإسلام ما تطلبه النفس الطيبة، ونهى عما تطلبه النفس الخبيثة.

لقد تعامل الإسلام مع الغناء كما تعامل مع الطعام والشراب وكل شيء [1].. فأباح الطيبات وحرم الخبائث.. وهو لم يحرمها لأجل ما فيها من متعة، وإنما حرمها لأجل ما فيها من ضرر.. فالإسلام لا يضاد الرغبات التي لا تعقب ألما..

لقد نص الله تعالى على قاعدة هذا، فقال:﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (لأعراف:٣٢)

ومما يروى في هذا من سيرة رسول الله ﷺ ما حدثت به عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: لقد رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا الذي أسأمه[2].

ويروى أنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تدففان وتضربان والنبي ﷺ متغش بثوبه، فانتهرهما أبو بكر ــ رضي الله عنه ــ فكشف النبي ﷺ عن وجهه وقال:(دَعْهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّها أَيَّامُ عِيدٍ)

وقالت عائشة رضي الله عنها: رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد فزجرهم عمر ــ رضي الله عنه ــ فقال النبي ﷺ:(أَمناً يَا بَنِي أَرْفِدَةَ)، يعني من الأمن، ومن حديث عمرو بن الحارث عن ابن شهاب نحوه وفيه: تغنيان وتضربان.

وفي حديث أبي طاهر عن ابن وهب: والله لقد رأيت رسول الله ﷺ يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون بحرابهم في مسجد رسول الله ﷺ وهو يسترني بثوبه ــ أو بردائه ــ لكي أنظر إلى لعبهم ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا الذي أنصرف.

وقالت عائشة رضي الله عنها: دخل عليّ رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث فاضطجع على الفراش وحول وجهه، فدخل أبو بكر رضي الله عنه فانتهرني وقال: مزمار الشيطان عند رسول الله ﷺ

([1]) انظر تفاصيل الأقوال والأدلة المرتبطة بها في (المقدمات الشرعية للزواج) من سلسلة (فقه الأسرة برؤية مقاصدية)

([2]) انظر الحديث برواياته المختلفة في: البخاري: ٣٣٥/١، ١٢٩٨/٣، مسلم: ٦٠٩/٢، ابن حبان: ١٨٠/١٣، مجمع الزوائد: ٢٠٤/٢، البيهقي: ٩٢/٧، المجتبى: ١٩٥/٣، أحمد: ٥٦/٦.

فأقبل عليه رسول الله ﷺ وقال:(دَعْهُما)، فلما غفل غمزهما، فخرجتا. وكان يوم عيد يلعب فيه السودان بالدرق والحراب فإما سألت رسول الله ﷺ وإما قال:(تَشْتَهِينَ تَنْظُرِينَ) فقلت: نعم، فأقامني وراءه وخدّي على خده ويقول:(دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفِدَةَ) حتى إذا مللت قال:(حَسْبُكِ) قلت: نعم، قال:(فَاذْهَبِي)

التفت إلى بات روبرتسون، وقال: فهذه الأحاديث كلها في الصحيحين وهو نص صريح في أن الغناء واللعب ليس بحرام، وفيها دلالة على أنواع من الاستجمام المباح: ففيها إباحة اللعب، ولا يخفى عادة الحبشة في الرقص واللعب، بل إن النبي ﷺ قال لهم:(دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفِدَةَ)، وهذا أمر باللعب والتماس له.. وفيها فعل ذلك في المسجد.. وفيها منعه لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما عن الإنكار والتغيير وتعليله بأنه يوم عيد أي هو وقت سرور.. وفيها وقوفه طويلاً في مشاهدة ذلك وسماعه.. وفيها قوله ﷺ ابتداء لعائشة:(أَتَشْتَهِينَ أَنْ تَنْظُرِي؟).. وفيها أن رسول الله ﷺ كان يقرع سمعه صوت الجاريتين وهو مضطجع، فدل هذا على أن صوت النساء غير محرم، بل إنما يحرم عند خوف الفتنة.

قال بات روبرتسون: ولكن الفقهاء يخالفونك في كل ذلك؟

قال الحكيم: ديننا نأخذه من نبينا قبل أن نأخذه من أقوال الفقهاء.. بل إن أقوال الفقهاء نحاكمها إلى أحاديث نبينا، فإن وافقته قبلناها، وإلا رفضناها.

وما دمت قد ذكرت الفقهاء، فسأحكي لك قصة فقيه من كبار الفقهاء الأمة لترى الفرق بينه وبين المتنطعين المتشددين.

قال إبراهيم الحراني: حججت مع أمير المؤمنين الرشيد فدخلت مسجد رسول الله ﷺ ؛ فبينا أنا بين القبر والمنبر إذ أنا برجل حسن الهيئة خاضب، ومعه رجل في مثل حاله؛ فحانت مني التفاتة فإذا هو يقوس حاجبه ويفتح فاه، ويلوي عنقه ويشير بعينه، فتجوزت في صلاتي ثم سلمت فقلت: أفي مسجد رسول الله ﷺ تتغنى؟! فقال: قنعك الله خزية، ما أجهلك! أما في الجنة غناء؟ قلت: بلى لعمري فيها ما تشتهي النفس وتلذ الأعين، قال: أما نحن في روضة من رياض الجنة؟ قلت: لا! قال: واحرباه! أترد علي رسول الله ﷺ قوله: بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة! فنحن في تلك الروضة. قلت: قبح الله شيخاً ما أسفهه! قال: بالقبر والمنبر لما أنصت إلي؟ فتخوفت ألا أنصت؛ فاندفع يغني بصوت يخفيه:

فليست عشيات الحمى برواجعٍ إليك، ولكن خلّ عينيك تدمعا
بكت عيني اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

فوالله إن قمت إلى الصلاة لما دخل قلبي؛ فلما رأى ما نزل بي قال: يا بن أم، أرى نفسك قد استجابت وطابت، فهل لك في زيادة؟ قلت: ويحك! في مسجد رسول الله ﷺ قال: أنا والله أعرف بالله ورسوله منك، فدعنا من جهلك؛ ثم تغنى:

فلو كان واشٍ بالمدينة داره وداري بأقصى حضرموت اهتدى ليا
وماذا لهم لا أحسن اللّه حفظهم من الشأن في تصريم ليلى حباليا

فقال له صاحبه: يا بن أم؛ أحسنت والله، وعتق أهلك، لو كان أمير المؤمنين الرشيد في هذا الموضع لخلع

عليك ثيابه طرباً. قال: فقمت وهما لا يعلمان من أنا، فدخلت على أمير المؤمنين فأعلمته الخبر؛ فقال: أدركهما لا يفوتانك.

فوجهت من جاء بهما، فلما دخلا عليه دخلا بوجوه قد ذهب ماؤها، وأنا قائم على رأسه، فقال: يا إبراهيم؛ هذان هما؟ قلت: نعم، فنظر إلي المغني منهما وقال: سعاية في جوار رسول الله ﷺ؟ فسري عن أمير المؤمنين بعض غضبه، وتبسم فقال: ما كنتما فيه؟ قالا: في خير قال: فماذا الخير؟ فسكتا. فقال للمغني منهما: من أنت؟ فابتدره جماعة فقالوا: يا أمير المؤمنين، هذا ابن جريج فقيه مكة، فقال: فقيه مكة يتغنى في مسجد رسول الله ﷺ، قال: يا أمير المؤمنين؛ لم يكن ذلك مني بالقصد للغناء، ولكني كنت أسمعت هذا المخزومي يعني صاحبه صوتين، فلم يزالا في قلبي حتى التقينا، فأحببت أن يأخذهما عني، فأخذهما، وحلف أني قد أحسنت، وأنه لو كان في الموضع أمير المؤمنين لخلع علي وسكت.

فقال الرشيد: تركت من الحديث شيئاً؟ قال: ما تركت شيئاً يا أمير المؤمنين. قال: والله لتقولن. قال: يا أمير المؤمنين، زعم أنك لو كنت في موضعه لخلعت علي ثياباً مشقوقةً طرباً.

فتبسم وقال: أما هذا فلا، ولكن نخلعها عليك صحيحةً فهي خير لك، ثم دعا بثياب فلبسها ونبذ ثيابه، وأمر له بعشرين ألف درهم ولصاحبه بعشرة آلاف درهم. وقال: لا تعودن لهذا. فقال صاحبه: إلا أن يحج أمير المؤمنين ثانية، فضحك وقال: ألحقوه بصاحبه في الجائزة.

***

بعد أن انتهى الحكيم من حديثه لم يجد (نيقتاس البيزنطي) ما يقوله.. ولذا سار مطأطئ الرأس، متغير الوجه، خارج ميدان الحرية ليترك الجماعة ملتفة حول الحكيم تسأله ويجيبها..

التفت إلى أصحابنا المستغرقين في مشاهدة ما حصل في ساحة الحرية.. فرأيت وجوههم كالحة عابسة عليها غبرة ترهقها قترة.

أما أنا.. فقد تنزلت علي حينها أنوار جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

تاسعا ــ حروب

في مساء اليوم التاسع.. وفي دار الندوة الجديدة.. دخل دوج مارلت[1].. الرسام.. بوجه لم يصعب علي أن أتبين ما فيه من تغير.

ابتدرته الجماعة قائلة: ما الذي فعلت!؟.. ما نسبة نجاحك!؟.. هل هناك نتائج إيجابية!؟

لم يجبهم بشيء.. بل ألقى بين أيديهم القرص الذي سجل فيه حواره التجريبي، ثم قال: هو ذا التسجيل بين أيديكم.. وهو سيجيبكم أفضل مني.. فأنا إلى الآن لا أكاد أعرف شيئا.

ابتدر أخي.. ووضع القرص في القارئ.. وبدأ شريط الأحداث:

رأينا دوج يجتمع إلى نفر من الناس في ميدان الحرية، ثم يخاطبهم قائلا: هل تعرفون محمدا؟

قال أحدهم: ومن لا يعرف محمدا، وهو الشمس التي نستقي من دفئها، ونتنور من نورها.. ولولاها ما كانت للكون ألوانه التي نراها[2].. ولا كان لنا السكينة التي نحياها.

قال آخر: ومن لا يعرف محمدا.. وهو النبيل المتسامح الرحيم اللطيف الودود..

وقال غيرهما أوصافا مثل هذه..

لم يجبهم دوج بشيء.. بل نزع ــ في ثقة عجيبة ــ الغلاف عن لوحة كبيرة كان يحملها، وهي تحمل صورة رجل يحمل سيوفا كثيرة يقتل بها كل شيء يجده أمامه، ثم قال: هذا هو محمد.. إن هذه الصورة تمثل الإرهاب [3] الذي كان يمارسه محمد.. ألا ترون كثرة السيوف التي تمتلئ بها هذه اللوحة.. إن كل سيف منها

([1]) أشير به إلى رسام أمريكي معروف بهذا الاسم، توزع رسوماته على مئات الجرائد في أمريكا والعالم، وقد سبق له النشر في عدد من أكبر الجرائد الأمريكية مثل (واشنطن بوست) و(نيويورك تايمز)، وقد نشر في ٢٣ / ١٢ / ٢٠٠٢م رسما يسخر من الرسول ﷺ، حيث صور رجلا يرتدي ثيابا عربية اسمه محمد، يقود شاحنة محملة صواريخ نووية، من نوع الشاحنة التي استخدمها توماس ما كفاي مفجر مبنى التجارة الفيدرالي في أوكلاهوما سيتي عام ١٩٩٥م وكتب تحت الرسمة عنوان (ماذا يقول محمد..؟)

كما رسم في إحدى الصحف الفرنسية رسما يمثل النبي ﷺ وزوجاته الطاهرات بطريقة حقيرة وقبيحة، وقد كت أعلى الرسم (بار محمد) وفي أسفل الرسم (انتخاب ملكة جمال البطاطس عند محمد)

كما يرسم في مجلة موجهة للأطفال وعامة الناس، تصدر في مدينة لا فيجاس الأمريكة بعنوان (المحمدية صدقها وإلا...) يوجد بداخلها سخرية بشخص الرسول ﷺ ونبوته، واستهزاء بالأحاديث والتعاليم النبوية بطريقة وحقيرة، تغرس في أذهان الأطفال وعامة الناس التنفير من الإسلام ونبيه ﷺ، وتصور المسلم في صورة العربي البدائي الإرهابي.

(٢) يسيء البعض فهم مثل هذه التعابير، فيرمي قائلها بالشرك، لأنه لا يتصور في العبارة إلا وجها واحدا، وهو أن محمدا ﷺ هو خالق ألوان الكون، أو الكون، ولكن مرادنا ــ وهو مراد جميع أولياء الله ــ من أمثال هذه التعبيرات هو أن الحقائق التي جاء بها محمد ﷺ هي التي طبعت الكون في أذهان المؤمنين بها بالصورة الجميلة التي يروها بها، قال الإمام بديع الزمان:(ان حياة محمد ﷺ – المادية والمعنوية – بشهادة آثارها حياة لحياة الكون، والرسالة المحمدية شعور لشعور الكون ونور له. والوحي القرآني بشهادة حقائقه الحيوية روح لحياة الكون وعقل لشعوره.. أجل.. أجل.. أجل.

فاذا ما فارق نور الرسالة المحمدية الكون وغادره، مات الكون وتوفيت الكائنات، واذا ما غاب القرآن وفارق الكون، جنّ جنونه وفقدت الكرة الأرضية صوابها، وزلزل عقلها، وظلت بلا شعور، وأصطدمت باحدى سيارات الفـــضاء، وقامت القيامة)

(٣) من التعاريف التي عرف بها الإرهاب: بث الرعب الذي يثير الرعب في الجسم والعقل، أي الطريقة التي تحاول بها جماعة منظمة أو حزب أن يحقق أهدافه عن طريق استخدام العنف (معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، ص ٣٨٢٨)

يمثل معركة من المعارك الكبرى التي خاضها محمد إما بنفسه.. أو بالمرتزقة الذين أغراهم بالجنة ليقوموا بأشنع المعارك في تاريخ الإنسانية.

قال ذلك، ثم أشار إلى سيف من السيوف، وقال: هذا السيف ـــ مثلا ـــ يمثل غزوة سيف البحر.. لاشك أنكم لم تسمعوا بها.. إنها من المعارك الكبرى التي خاضها محمد مع المرتزقة الذين صاحبوه.

أشار إلى سيف آخر، ثم قال: وهذه غزوة رابغ.. وهذه بواط العشيرة.. وهذه سفوان وتسمى غزوة بدر الأولى.. وهذه غزوة بدر الكبرى.. وهي من الحروب الكبرى التي خاضها محمد.. وهذه غزوة بني سليم.. وهذه غزوة بني قينقاع.. وهذه غزوة السويق.. وهذه غزوة قرقرة الكدر.. وهذه غزوة غطفان.. وهذه غزوة بحران بالحجاز.. وهذه غزوة أحد.. وهذه غزوة حمراء الأسد.. وهذه غزوة بني النضير.. وهذه غزوة ذات الرقاع.. وهذه غزوة بدر الأخيرة وهي غزوة بدر الموعد.. وهذه غزوة دومة الجندل.. وهذه غزوة بني المصطلق.. وهذه غزوة الخندق.. وهذه غزوة بني قريظة.. وهذه غزوة بني لحيان.. وهذه غزوة الحديبية.. وهذه غزوة ذي قُرُد.. وهذه غزوة خيبر.. وهذه غزوة وادي القرى.. وهذه غزوة عمرة القضاء.. وهذه غزوة فتح مكة.. وهذه غزوة حنين.. وهذه الطائف.. وهذه غزوة تبوك.

لقد بلغت غزوات محمد التي غزا فيها بنفسه تسعاً وعشرين غزوة.. أما سراياه.. أي الغزوات التي لم يقُدها بنفسه، بل أرسل إليها بعض أصحابه، فعددها تسع وأربعون. وقيل إنها تزيد على سبعين[1]..

وعرفته دائرة المعارف البريطانية للإرهاب بأنه:الاستخدام المنظم للعنف لإحداث حالة من الرعب المزمن لدى شعبٍ ما تكون كافية لتفعيل تغيير سياسي.

ومن التعاريف ما ورد في التقرير الصادر عن وزارة الخارجية الأمريكية في أكتوبر سنة ٢٠٠١ م من أن الإرهاب يعني: (العنف المتعمد ذا الدوافع السياسية، والذي يرتكب ضد غير المقاتلين وعادة بغية التأثير في الجمهور، حيث إن غير المقاتلين هم المدنيون، إلى جانب العسكريين غير المسلحين، أو الذين هم في غير مهماتهم وقت تعرضهم للحادثة الإرهابية أو في الأوقات التي لا توجد فيها حالة حرب أو عداء)

وعرفت وكالة التحقيقات العدلية الأمريكية (FBI) الإرهاب بأنه: استعمال – أو التهديد باستعمال – غير مشروع للعنف ضد أشخاص أو ممتلكات لتخويف أو إجبار حكومة أو المدنيين كلهم أو بعضهم لتحقيق أهداف سياسية أو اجتماعية.

وفي قاموس أكسفورد نجد كلمة إرهاب (Terrorism) تعني سياسة، أو أسلوباً يعد لإرهاب وإفزاع المناوئين أو المعارضين لحكومة ما. فالإرهابي (Terrorist)هو الشخص الذين يحاول أن يدعم آراءه بالإكراه أو التهديد أو الترويع.

أما الإرهاب عند الأمم المتحدة فيعني: (أعمال العنف الخطيرة التي تصدر من فرد أو جماعة بقصد تهديد الأشخاص أو التسبب في إصابتهم أو موتهم، وسواء كان يعمل بمفرده أو بالاشتراك مع أفراد آخرين ويوجه ضد الأشخاص أو المنظمات أو المواقع السكنية أو الحكومية أو الدبلوماسية أو وسائل النقل والمواصلات وضد أفراد الجمهور العام دون تمييز أو الممتلكات أو تدمير وسائل النقل والمواصلات بهدف إفساد علاقات الود والصداقة بين الدول أو بين مواطني الدول المختلفة أو ابتزاز أو تنازلات معينة من الدول في أي صورة كانت. لذلك فإن التآمر على ارتكاب أو محاولة ارتكاب أو الاشتراك في الارتكاب أو التحريض على ارتكاب الجرائم يشكل جريمة من جرائم الإرهاب الدولي)

وتتفق هذه التعاريف على أن الإرهاب هو الاستعمال المطلق للعنف والقوة تجاه المدنيين أو الأهداف المدنية، أو العسكريين، أو الأهداف العسكرية في غير حال الحرب المعلنة بين طرفين بهدف بث الرعب بدون إنذار سابق.

(١) عدد غزوات رسول الله ﷺ التي غزاها بنفسه بناء على ما ذكره ابن إسحاق ٢٧ غزوة وبعوثه وسراياه ٣٨، قال الطبري: وكانت غزواته بنفسه ستاً وعشرين غزوة.

هل يمكن لنبي أن يفعل هذا.. هل يمكن لنبي أن يخوض كل هذه الحروب..!؟

تأملوا حياة المسيح المتسامح.. وقارنوها بحياة هذا النبي المقاتل.. بل الذي لا يهدأ عن الحرب.

عودوا إلى الكتاب المقدس ذلك الكتاب المملوء بالسلام .. وأحرقوا تلك المصاحف التي كتبها لكم محمد، ليأمركم من خلالها أن تقاتلوا الناس كافة.

قام بعض الجمع غاضبا، وهو لا يكاد يسمع صوت الحكيم الذي أمرهم بالهدوء، فقام دوج يحتمي بالحكيم، ويقول: إن ما تفعلونه هو الإرهاب.. فمحمد الذي تتبعونه.. وتركتم له عقولكم هو الذي جعلكم إرهابيين تريدون أن تقمعو الفن النبيل بالسلاح الذي لم يعلمكم محمد غيره.. لأنه لم يكن لديه إلا السلاح.. و لم يكن يمارس في حياته غير الإرهاب.

قال الحكيم: مهلا ــ يا أخي ــ لا ينبغي أن تصب الزيت في النار، فتحرقهم، وتحرق نفسك.

قال دوج: بل ينبغي أن أصبها حتى أحرق ذلك الذوبان في محمد.. والذي جعلهم يمارسون الإرهاب بكل أصنافه.

قال الحكيم: ألا ترى أن ما تمارسه الآن نوع أخطر من الإرهاب نفسه؟

قال دوج: لا.. أنا فنان مبدع.. وقد استطعت بريشتي أن أصور الحقيقة التي عجزت جميع أسفار الدنيا أن تصورها.

قال الحكيم: إنك تصور ما توهمته حقيقة.. ونحن لا نعتب عليك وهمك.. ولكن نعتب عليك إصرارك عليه.

نحن وإياك نشبه مدعيا ومتهمين.. فأنت المدعي ونحن المتهمون.. فهل ترى من العقل والأدب أن تتهم شخصا، ثم لا تسمح له أن يغضب لأنك تتهمه من دون بينة.. ثم لا تعطي له بعد ذلك الفرصة لأن يدافع عن نفسه، ويدفع التهم التي تكلها له؟

سكت دوج، فقال الحكيم: هذا نوع من الإرهاب.. إنك ــ يا أخي ــ تقيم بتصرفك هذا محاكمة عسكرية، ليس فيها شهود ولا محامون..

قال: ولكن محمدا مات.. ولا حرج علي أن أرسمه بأي صورة أشاء.

قال الحكيم: أرأيت لو أن رساما لا يقل عنك إبداعا انتظر حتى تموت أمك، ثم رسمها بصورة مومس بغي.. هل تقبل ذلك؟.. أم هل تعتبر ذلك من الحرية؟

قال دوج: لا شك أني لا أقبل.. ولكن هي أمي..

قال الحكيم: وهذا محمد.. وهو بالنسبة لكل مسلم أعظم حرمة من أبيه وأمه وأخيه وزوجه وولده.. إنه

وقد علل بعضهم هذا الخلاف، بأن من قال هي ست وعشرون جعل غزوة النبي ﷺ من خيبر إلى وادي القرى غزوة واحدة، لأنه لم يرجع من خيبر حين فرغ من أهلها إلى منزله، ولكنه مضى منها إلى وادي القرى، فجعل ذلك غزوة واحدة، ومن قال هي سبع وعشرون غزوة جعل غزوة خيبر غزوة، وغزوة وادي القرى غزوة أخرى، فيجعل العدد سبعاً وعشرين.

والكلام المثبت في الأصل بناء على المزاعم التي يزعمها المسيحيون في كتبهم ومواقعهم.

بالنسبة للمسلمين أحب إليهم من أنفسهم.. إنه بالنسبة لهم العين التي بها يبصرون.. والأذن التي بها يسمعون.. والروح التي بها يحيون..

وأنا أقول لك بكل صراحة.. لو أنك رسمت هذه الصورة.. وقلت للناس: هذه صورة فلان من الناس من المسلمين.. ربما لو قلت ذلك لن يهتم أحد.. ولن يبالي أحد حتى من رسمته لا يبالي.. أما محمد.. فهو القداسة بعينها.. ولا ينبغي للقداسة ان تلطخ.

قال دوج: ولكني ذكرت لكم أدلتي.. ألم تر كل تلك السيوف.. إن كل سيف منها دليل قائم بذاته.. إن كل سيف منها لم يضعه محمد حتى ملأه دماء.

انتفضت الجماعة غاضبة، فقال الحكيم: مهلا ــ يا جماعة ــ إن هذا الرجل ــ على ما يبدو ــ طالب حق.. وقد ذكر لنا من خلال صورته هذه الشبه التي تحيك في نفسه، وتحول بينه وبين محمد ﷺ.. والأدب الذي أدبنا رسول الله ﷺ يدعونا لأن نحل له الإشكالات التي وقع فيها، ونجيبه عن الشبه التي جعلته يعتقد في نبينا هذا.

قال دوج: لا.. أنا لست واقعا في أي شبهة.. بل أنا متأكد من كل ما فعلته مصر عليه غاية الإصرار.

قال الحكيم: لا بأس.. ولكن المنطق العلمي يدعوك لأن تسمع لنا، ثم تجيبنا بعد ذلك بما تشاء أن تجيبنا به.

قال دوج: وهل لأمثالكم منطق علمي حتى يمكن أن نسمع له؟

قال الحكيم: لا بأس.. سنعرض عليك ما عندنا.. ولك الحرية بعد ذلك أن تقبله أو أن ترده.

قال دوج: أنا فنان مبدع.. وليس للفنان المبدع أن يضيع وقته مع أمثالكم.

قال الحكيم: لا بأس.. اعتبرنا مادة لفنك.. اسمع لنا.. ثم صور ما تشاء مما نقوله بما تشاء من ألوانك.

سكت دوج، فقال الحكيم: إن ما ذكرته من شبه يستدعي البحث العلمي في ثلاثة أمور:

أما أولها.. فهو في شرعية الحرب من خلال مصادركم ومن خلال مصادرنا، باعتبار المصادر هي الأساس الذي نتلقى منه أفكارنا وسلوكنا وحياتنا.

وأما الثاني.. فهو النظر في أسباب الحروب التي مارسها رسول الله ﷺ.. ونقارنها بالحروب التي مارسها رجال الكتاب المقدس وغيرهم على امتداد تاريخ البشرية.

وأما الثالث.. فهو النظر في الأخلاق التي صاحبت حروب محمد.. والتي صاحبت حروبكم.

نظر إلى الجماعة، وقال: أظن أن هذه الأمور الثلاثة التي نقارن فيها بيننا وبين الآخر تكفي للدلالة على حقيقة الحروب التي مارسها محمد ﷺ.

قال دوج: لا بأس.. سأستمع لك.. ولكن ذلك لا يعني أنني أوافقك.

قال الحكيم: أنا لا يهمني أن توافقني أو تخالفني.. بل يهمني شيء واحد هو أن أذكر لك ما عندي من الحقائق، وترد عليك بما لديك منها لنصل إلى الحقيقة.. فليس لنا من هدف في هذه الحياة إلا الوصول إلى الحقيقة.

١ ــ شرعية الحرب

قال رجل من الجمع: فلنبدأ من الأول.. من شرعية الحرب من خلال مصادرهم، ومن خلال مصادرنا.

قال الحكيم: أما مصادرهم، فكثيرة، منها ما يرجع إلى فلسفاتهم ومذاهبهم وتصوراتهم للحياة.. وهذه لا يمكن أن نجد فيها إلا استباحة سفك الدماء لأي سبب من الأسباب.. ولذلك سنستبعد هذه المصادر.

وسنكتفي بأنظف مصادرهم وأقدسها.. وهي المصادر التي فخر علينا بها هذا الفنان الآن.. وهي أسفار الكتاب المقدس.

الكتاب المقدس:

أخرج من محفظته نسخة من الكتاب المقدس، ثم قال: لدي نسخة من الكتاب المقدس.. أنا لا أكف عن مطالعتها.. وسأذكر لكم منها موقف هذا الكتاب من الحروب.. ثم نقارن هذا الموقف بما تقوله مصادرنا.. لنرى من خلال هذه المقارنة مدى شرعية الحرب بين مصاردهم ومصادرنا.

سنكتفي من الكتاب المقدس بهذه الأسفار: التكوين ــ العدد ــ التثنية ــ يوشع ــ القضاة ــ صموئيل الأول ــ الملوك الثاني ــ حزقيال.

أما في سفر العدد، فنرى موسى بعد خروجه بقومه من مصر يرسل رسلا يتحسسون أمر أرض كنعان ــ فلسطين ــ ليستقروا فيها.. ففيه:(فساروا حتى أتوا موسى وهارون وكل جماعة بني إسرائيل إلى برية فاران إلى قادش، وردوا إليهما خبرًا وإلى كل الجماعة، وأروهم ثمر الأرض وأخبروه، وقالوا: قد ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها، وحقا إنها تفيض لبناً وعسلاً وهذا ثمرها غير أن الشعب الساكن في الأرض معتز والمدن حصينة عظيمة جداً وأيضا قد رأينا بني عناق هناك) (العدد: ١٣ / ٢٦-٢٩)

وجاء في سفر صموئيل الأول:(فأجاب نابال عبيد داود وقال: من هو داود ومن هو ابن يسى قد كثر اليوم العبيد الذين يقحصون كل واحد من أمام سيده، آآخذ خبزي ومائي وذبيحي الذي ذبحت لجاري وأعطيه لقوم لا أعلم من أين هم؟ فتحول غلمان داود إلى طريقهم ورجعوا وجاءوا وأخبروه حسب كل هذا الكلام، فقال داود لرجاله: ليتقلد كل واحد منكم سيفه وتقلد داود سيفه وصعد وراء داود نحو أربعمائة رجل ومكث مائتان مع الأمتعة) (صموئيل الأول: ٢٥/١٠-١٤)

وفي سفر الملوك الثاني:(وكان ميشع ملك موآب الثاني صاحب مواش، فأدى لملك إسرائيل مائة ألف خروف ومائة ألف كبش بصوفها، وعند موت آخاب عصى ملك موآب على ملك إسرائيل وخرج الملك يهورام في ذلك اليوم من السامرة وعد كل إسرائيل وذهب وأرسل إلى يهو شافاط ملك يهوذا يقول: قد عصى علي ملك موآب، فهل تذهب معي إلى موآب للحرب؟)(الملوك الثاني: ٣/٤ – ٨)

وفي سفر حزقيال:(وكان إلى كلام الرب قائلا: يا ابن آدم اجعل وجهك نحو أورشليم وتكلم على المقادس وتنبأ على أرض إسرائيل وقل لأرض إسرائيل هكذا قال الرب هأنذا عليك وأستل سيفي من غمده

فأقطع منه الصديق والشرير من حيث إنى أقطع منك الصديق والشرير فلذلك يخرج سيفى من غمده على كل بشر من الجنوب إلى الشمال فيعلم كل بشر أنى أنا الرب سللت سيفى من غمده لا يرجع أيضاً) (حزقيال:٢١/ ١ - ٥)

وفى سفر يوشع:(وأنتم قد رأيتم كل ما عمل الرب إلهكم هو المحارب عنكم انظروا: قد قسمت لكم بالقرعة هؤلاء الشعوب الباقين ملكاً حسب أسباطكم من الأردن وجميع الشعوب التى قرضتها والبحر العظيم نحو غروب الشمس والرب إلهكم هو ينفيهم من أمامكم ويطردهم من قدامكم فتملكون أرضهم كما كلمكم الرب إلهكم) (يوشع: ٢٣/٣-٥)

وفى سفر القضاة:(وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوا بحد السيف وأشعلوا المدينة بالنار وبعد ذلك نزل بنو يهوذا لمحاربة الكنعانيين سكان الجبل وسكان الجنوب والسهل) (القضاة: ١٨/٢٧-٣٠)

وفيه:(فأما هم فقد أخذوا ما صنع ميخاً والكاهن الذى له وجاءوا إلى لايش إلى شعب مستريح مطمئن فضربوهم بحد السيف وأحرقوا المدينة بالنار ولم يكن مَنْ ينقذ لأنها بعيدة عن صيدون ولم يكن لهم أمر مع إنسان وهى فى الوادى الذى لبيت رحوب فبنوا المدينة وسكنوا بها ودعوا اسم المدينة دان باسم دان أبيهم الذى ولد لإسرائيل ولكن اسم المدينة أولا: لايش)

وفى سفر صموئيل الأول:(وخرج إسرائيل للقاء الفلسطينيين للحرب ونزلوا عند حجر المعونة، وأما الفلسطينيون فنزلوا فى أفيق واصطف الفلسطينيون للقاء إسرائيل واشتبكت الحرب فانكسر إسرائيل أمام الفلسطينيين وضربوا من الصف فى الحقل نحو أربعة آلاف رجل) (صموئيل الأول: ٤/١-٤)

وفى سفر التكوين:(فحدث فى اليوم الثالث إذ كانوا متوجعين أن ابنى يعقوب شمعون ولاوى أخوى دينة أخذ كل واحد منهما سيفه وأتيا على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر وقتلا حمور وشكيم ابنه بحد السيف لأنهم بخسوا أختهم، غنمهم وبقرهم وكل ما فى المدينة وما فى الحقل أخذوه وسبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما فى البيوت) (التكوين: ٣٤/٢٥-٢٩)

وفى سفر التكوين:(فلما سمع إبرام أن أخاه سبى جر غلمانه المتمرنين ولدان بيته ثلاثمائة وثمانية عشر وتبعهم إلى دان وانقسم عليهم ليلاً هو وعبيده فكسرهم وتبعهم إلى حوبة التى من شمال دمشق واسترجع كل الأملاك واسترجع لوطاً أخاه أيضاً وأملاكه والنساء أيضاً والشعب) (التكوين: ١٤/١٤ — ١٦)

وفى سفر العدد:(فقال الرب لموسى لا تخف منه لأنى قد دفعته إلى يدك مع جميع قومه وأرضه فتفعل به كما فعلت بسيحون ملك الأموريين الساكن فى حبشون فضربوه وبنيه وجميع قومه حتى لم يبق لهم شارد وملكوا أرضه) (العدد: ٢١/٣٤-٣٥)

وفى سفر العدد:(ثم كلم الرب موسى قائلا ضايقوا المديانيين واضربوهم لأنهم ضايقوكم بمكايدهم التى كادوكم بها) (العدد: ٢٥/١٦)

وفيه نرى نرى أن الله قد أمر موسى ــ عليه السلام ــ أن يشن حرباً على أقوام قد عبدوا غير الله.. ففيه:(وكلم الرب موسى فى عربات مو آب على أردن أريحا قائلا: كلم بنى إسرائيل وقل لهم: إنكم عابرون

الأردن إلى أرض كنعان فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم وتمحون جميع تصاويرهم وتبيدون كل أصنامهم المسبوكة وتخربون جميع مرتفعاتهم) (العدد: ٣٣/ ٥٠-٥٣)

ومثل ذلك ما ورد فى سفر صموئيل:(فقال داود للفلسطيني: أنت تأتى إلى بسيف وبرمح وبترس، وأنا آتى إليك باسم رب الجنود إله صفوف إسرائيل الذين عيرتهم.. فتعلم كل الأرض أنه يوجد إله لإسرائيل) (صموئيل:٤٥ – ٤٧)

وفى سفر صموئيل الأول:(فذهب داود ورجاله إلى قعيلة وحارب الفلسطينيين وساق مواشيهم وضربهم ضربة عظيمة وخلص داود سكان قعيلة)(صموئيل الأول: ٢٣/٦)

وفى سفر المزامير:(يسبح داود الرب ويمجده لأنه يعطيه القوة على محاربة أعدائه: الذى يعلم يدى القتال فتحنى بذراعى قوس من نحاس.. أتبع أعدائى فأدركهم ولا أرجع حتى أفنيهم أسحقهم فلا يستطيعون القيام، يسقطون تحت رجلى تمنطقنى بقوة للقتال تصرع تحتى القائمين على وتعطينى أقفية أعدائى ومبغضى أفنيهم) (المزامير: ١٨/٣٥-٤١)

هذه بعض النصوص التي تدل على مشروعية الحرب والقتال، فالحرب ــ حسب هذه النصوص ليست شيئا مكروها.. بل هي دائما تتم بمباركة الرب ومعونته، وكأن الرب ــ حسب تعبير التوراة ــ قد استل سيفه من غمده فلا يرجع، كما في سفر (حزقيال:٢١/٥)

قال دوج: أنت ترجع للعهد القديم.. ولكن العهد الجديد يقول:(من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر)

قال الحكيم: وهو يقول كذلك:(لا تظنوا أنى جئت لأرسى سلاماً على الأرض، ما جئت لأرسى سلاماً، بل سيفاً، فإنى جئت لأجعل الإنسان على خلاف مع أبيه، والبنت مع أمها والكنة مع حماتها، وهكذا يصير أعداء الإنسان أهل بيته) (إنجيل متى: ١٠/٣٤-٣٦)

القرآن الكريم:

قال رجل من القوم: فحدثنا عن موقف القرآن من الحرب.

قال الحكيم: لنعرف موقف القرآن الكريم من الحرب لا بد أن نقرأ القرآن الكريم جميعا لنرى فيه مدى حرمة الإنسان.. حرمة الإنسان بكل ما يرتبط به من نفس ومال وعرض وحرية.. وغيرها.

لقد ذكر القرآن من الأمور المنكرة التي ذكرتها الملائكة متعجبة منها (سفك الدماء)، قال تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٣٠)

وذكر القرآن الكريم قصة ابني آدم، وأثنى كل الثناء على الابن الذي تعفف عن قتل أخيه، فقال تعالى:﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ

لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)﴾ (المائدة)

وذكر الله تعالى قصة قتل موسى للقبطي، وكيف ندم على ذلك، مع كونه لم يقتله متعمدا، فقال:﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦)﴾ (القصص)

أرأيتم ندم موسى ــ عليه السلام ــ على قتله، مع كونه كان ظالما.. بل اعتبر ذلك من عمل الشيطان.. ثم استغفر الله.. واعتبر نفسه ظالما بفعله ذلك!؟

قارنوا هذا بما ورد في التوراة من نفس الحادث.. حيث لا يبدي فيه موسى أي ندم على فعله.. لتروا مدى ما يحمله الكتاب المقدس من مشروعية لسفك الدماء.

قال دوج: أنت تنتقي من القرآن ما يحلو لك.. لماذا لا تقرأ الآيات القرآنية الكثيرة التي تحتوي على كلمة (قتال)..

لقد قرأت كتب العالم المقدسة.. فلم أجد لفظا مستعملا بهذه الكثرة التي استعمل بها القرآن كلمة (القتال) وما في معناها.. إنها تزاحم كلمة الصلاة.. بل تكاد تفوق عليها.

قال الحكيم: صدقت.. لقد وردت كلمة القتال في القرآن كثيرا.. ولكن العبرة ليس بكثرتها، وإنما بنوع الأوامر المرتبطة بها.

قال دوج، وهو يضحك بصوت عال: القتل هو القتل.. ولا يفوح من هذه المادة إلا روائح الدماء.

قال الحكيم: دعنا من هذا الأسلوب.. ولنتحدث حديث العقلاء.. إن المنطق العلمي يستدعي النظر في كل جملة أو آية وردت فيها كلمة القتال في القرآن لنحلل المراد منها.. ثم نرى بعد ذلك ما نوع القتال الذي يطلب القرآن من المسلمين القيام به.. هل هو قتال إرهابيين ظلمة.. أم هو قتال أهل الحق دفاعا عن حقهم.

التفتت الجماعة إلى دوج، وقالت: صدق الرجل.. وقد ألزمك الحجة.. ولا مناص لك من أن تذكر له هذه المواضع التي ورد فيها لفظ القتال لنرى المراد منها.

قال دوج: أول ما يصادفك في القرآن هذه الآية التي نسخت جميع ما ورد في القرآن من الأمر بالسلام:﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾(التوبة: من الآية٣٦)[1]

قال الحكيم: أنت تقص الآية، وتقطعها عن سياقها.. فالآية لا تأمر إلا بقتال المقاتلين.. لقد جاء فيها:﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾(التوبة: من الآية٣٦)

ثم إن الله تعالى لم يأمر المؤمنين بالقتال كافة إلا بعد أن أمرهم بالدخول في السلم كافة، فقال:﴿ يَا أَيُّهَا

---

(١) هذا ما يفعله المسيحيون في كتبهم ومواقعهم من وجوه التلاعب بالقرآن.. بل إنهم أحيانا يمزجون بين آيات مختلفة ليستدلوا بها على ما يريدون.

الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) (البقرة:٢٠٨)

وليس في القرآن ناسخ ومنسوخ.. كل ما في القرآن محكم.. فكلام الله:﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت:٤٢)

ثم لماذا تعتبر الآية منسوخة، ولا تعتبرها ناسخة؟

قال دوج: هذا ما ذكره المفسرون.

قال الحكيم: أنت تنتقي من المفسرين من تشاء، كما تنتقي من القرآن ما تشاء.. وهو منهج لا علاقة له بالعلم ولا بالمنطق.

قال دوج: فإذا عزلنا المفسرين، فمن يعبر عن القرآن؟

قال الحكيم: القرآن .. القرآن هو الوحيد الذي له الحق في التعبير عن نفسه.. ألا ترى أني حينما أذكر لك الكتاب المقدس لا أذكر لك قول أي شارح ولا أي مفسر؟

قالت الجماعة: نعم.. لاحظنا ذلك.. فالمسلمون في حوارهم لا يستخدمون إلا النصوص المقدسة.

قال الحكيم: لأنه لا يحق لأحد أن يملي على الله ما يقصد.. ثم إن الله الذي علم كل شيء كيف ينطق وكيف يفهم غيره لا يعجز عن أن يفهمنا مراده من غير حاجة إلى من يعقب عليه[1].

قال دوج: لا بأس.. لن أذكر لك كلام أحد من المفسرين.. سأقتصر على القرآن.. إن معي مصحفا.. وسأقرأ عليكم منه ما يفند ما يدعيه هذا الرجل.

قال الحكيم: كل القرآن حديث عن السلام.. حتى الآيات التي توهمتها تدعوا للحرب هي في أصلها تنطلق من حب السلام.. ومن البحث عن السلام..

اقرأ علي ما شئت منها لتعرف من خلالها أن القرآن لم يأذن بالقتال إلا للضرورة القصوى التي استدعت ذلك وفي حدود ضيقة جدا.. ولولا ذلك لظلت الحرب، وظل معها سفك الدماء جريمة من الجرائم الكبرى التي تتنافى مع وظيفة الخلافة التي أنيطت بالإنسان في الأرض.

فتح دوج المصحف، وقد وضع فيه علامات محددة على المواضع التي يريد قراءتها، ثم قال: لقد ورد في القرآن.. في (البقرة:١٩٠):﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

قال الحكيم: واصل قراءة الآية، فهي تجيبك.

واصل دوج:﴿.. الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة:١٩٠)

قال الحكيم: أرأيت.. لقد حددت الآية الصنف الذي تجب مقاتلته، وهو من يقاتلهم دون من عداهم.. ومع ذلك لم تكتف بذلك.. بل نهت عن الاعتداء بأبلغ الصيغ.. وهي الإخبار بأن الله لا يحب المعتدين.. وهذه الكلمة تمثل عند المؤمنين الصادقين قمة أنواع الزجر.. لأن كل مؤمن صادق لا يهتم في حياته بشيء كاهتمامه

---

(١) ذكرنا في مواضع كثيرة أنه ليس من المنهج العلمي اعتبار التفاسير القرآنية أو شروح الحديث أو كلام أي كان من العلماء حجة يحتج بها على الإسلام.. فالإسلام لا يمثله إلا مصادره الأصلية المقدسة التي ثبتت عن طريق القطع.. وما عدا ذلك يمكن قبوله ورفضه، ولذلك لا يستطيع أي كان أن يناظر بمثل تلك النقول.

بحب الله له، ورضاه عنه.. فإذا علم أن الله لا يحب من تصرف تصرفا أو سلك سلوكا معينا كان أبعد الناس عنه.

نظر إلى دوج، ثم قال: هل ترى سلاما أعظم من السلام الذي دعت له هذه الآية؟

قال دوج: ولكنها أمرت بالقتال!؟

قال الحكيم: وهل ترى من الحكمة والعقل والسلام أن يسلم أهل الحق رقابهم لأعدائهم ليستأصلوها كما يشاءون!؟ .. هل هذا هو السلام!؟

سكت دوج، فقال الحكيم: لو كان هذا هو السلام لما بقي على وجه الأرض إلا المجرمون.

فتح دوج المصحف على موضع آخر، وراح يقرأ:﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ (البقرة: من الآية١٩١)

قال الحكيم: واصل قراءة الآية.. ما بالك تقطعها.

واصل دوج:﴿ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ) (البقرة:١٩١)

قال الحكيم: ألا ترى أن الآية الكريم تدعو إلى معاملة المعتدين بالمثل.. ثم تعلل ذلك للنفوس المؤمنة الكارهة لسفك الدماء بأن الفتنة التي يوقعها هؤلاء المجرمون أعظم من القتل.

فتح دوج المصحف، وراح يقرأ:﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) (البقرة:١٩٣).. ألا ترون أن هذه الآية تأمر بالقتال لأجل نشر الدين؟

قال الحكيم: لا.. إنها لا تأمر بالقتال لنشر الدين.. وإنما تأمر به لحفظ الدين.

قال دوج: كلاهما سواء.

قال الحكيم: لا.. بل هما مختلفان.. فالقتال لنشر الدين إكراه.. وقد حرم الإكراه، وقد قال تعالى:﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)(البقرة: من الآية٢٥٦).. أما القتال لحفظ الدين، فهو قتال ضد الذين توجهوا برماحهم وسيوفهم للدين ليستأصلوه.

لقد ذكر القرآن ذلك، فقال تعالى مبينا علة الإذن بالقتال:﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)﴾ (الحج)

ومع ذلك.. فقد جعل القرآن لذلك القتال المضطر إليه غاية ينتهي إليها، وهي انتهاء المعتدين عن عدوانهم، فقال تعالى:﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ وقد وضعت الآية بذلك شعار المؤمنين في قتالهم.. وهو أنهم لا يقاتلهم إلا الظالمين.. أما من عداهم، فلا يجوز بحال من الأحوال سفك دمائهم.

قرأ دوج قوله تعالى:﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) (البقرة:٢١٦)، ثم قال: ألا ترون هذه الآية كيف تحض على القتال؟

قال الحكيم: في قوله تعالى:﴿ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾ دليل على أن الإسلام لم يحضهم على القتال إلا للضرورة..ومع ذلك، فإن المسلم لا يقاتل من يقاتله حبا في سفك الدماء، وإنما لأنه لا يمكن أن يدافع عن نفسه وعن دينه إلا بذلك.

قرأ دوج قوله تعالى:﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:١٩٤)

قال الحكيم: أنت ترى الآية تأمر بالمعاقبة بالمثل.. وعدم تجاوز المثل.

قال دوج: وهذه نقطة الاختلاف الكبرى بين المسيحية والإسلام.. فالمسيح أمرنا بالتسامح وبمحبة أعدائنا لا بمجازاتهم بالمثل.

قال الحكيم: لكل شيء ميزانه المحدد.. فقد يصلح التسامح في أحوال معينة، ومع بعض الناس.. ولكنه لا يصلح في كل الأحوال، ولا مع كل الناس.

ولهذا، فإن القرآن بالنسبة للأفراد، وفي الأحول الخاصة التي لا ترتبط بها المصالح العامة يحض على العفو والحلم ومقابلة الإساءة بالإحسان، كما قال تعالى:﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:٣٤)

ولكن مع ذلك، فإن المعاملة بالمثل حق من الحقوق لا يلام فاعله، قال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)

هذا كله في المصالح الخاصة.. أما المصالح العامة فإن التشدد في الحفاظ عليها شريعة عادلة لا يختلف العقلاء في اعتبارها.

قال دوج: التسامح لا يتجزأ.

قال الحكيم: ولكنك إن تسامحت مع المجرم أخذت حق البريء.. وإن تسامحت مع القاتل ظلمت المقتول.. وإن تسامحت مع المتكبر اعتديت على المستضعف.

قال دوج: كيف ذلك؟

قال الحكيم: أرأيت لو أن قانون العقوبات نص في بلد من البلدان على تكريم اللصوص، وعدم عقوبتهم..ماذا سيحصل؟

لم يجب دوج، فنطق أحد الحاضرين، وقال: حينها ستصبح كل البلدة لصوصا.

قال الحكيم: فهذا ما يطلبه هذا الفنان المبدع من الإسلام.. إنه يطلب أن يستسلم أهل الحق لأهل الباطل، ويدعوا لهم البلاد والعباد، ليتصرف المستكبرون بما تهواه نفوسهم، وكل ذلك من أجل شيء واحد، وهو أن لا يصفهم المستكبرون بالإرهاب..

إنه يطلب من جهة المستضعفين أن تلقي أسلحتها، بينما لا يتجاسر أن يقول كلمة واحدة لأولئك

المستكبرين الذين ملأوا الأرض أسلحة ودمارا.

لم يجب دوج بشيء، بل فتح المصحف، وراح يقرأ:﴿ يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:٢١٧)

ثم قال: ألا ترون القرآن كيف يحض على القتال في الأشهر الحرم.. وهي الأشهر التي اتفق العرب على ألا قتال فيها؟

قال الحكيم: إن القرآن يكره النفاق، ويكره أساليب المنافقين.

قال دوج: وما علاقة هذا بالنفاق؟

قال الحكيم: إن هؤلاء المشركين يشبهون أولئك المستعمرين الجشعين الذين يقتلون العباد، وينهبون البلاد، ثم يسنوا بعد ذلك من القوانين ما شاءوا، فإن خالفها بعضهم رموه بما شاءت لهم أهواؤهم أن يرموه به.

إن هؤلاء المشركين الذين بدا لهم أن يعظموا الأشهر الحرم نسوا أن يعظموا الحرم نفسه.. الحرم الذي عذبوا فيه المؤمنين.. بل الحرم الذي أرادوا أن يقتلوا فيه رسول الله ﷺ.

ولهذا، فإن القرآن يذكر المبررات التي تبيح استعمال السلاح في هذه المواقف، وهي مبررات لا يمكن لعقل سليم أن يرفضها.

قرأ دوج قوله تعالى:﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٦)

ثم قال: ألا ترون القرآن كيف يعتبر القتال سنة من سنن الأنبياء والصالحين؟

قال الحكيم: لولا الأسلحة التي ووجه بها الصالحون ما اضطروا للقتال.. وفي الآية دليل على شدة العناء الذي لاقاه هؤلاء من أعدائهم.

قرأ دوج قوله تعالى:﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)﴾ (آل عمران).. وفي القرآن:﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:١١١)

ثم قال: ألا ترون هذا الإغراء الذي يغري به القرآن من قاتل في سبيل الله؟

قال الحكيم: إن تقييد القرآن للقتل بهذه الكلمة العظيمة:﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ دليل على شرف هذا القتال وشرف القضية التي يحملها.. فهؤلاء لم يقاتلوا من أجل مصالحهم المحدودة، بل قاتلوا من أجل الحق الذي وهبوا أنفسهم له.

قال دوج: وهو نشر الإسلام.

قال الحكيم: لقد ذكرت لك أن الإسلام لا يمكن أن ينشر بالسيف.. لأن الإسلام هو تسليم النفس لله.. وتسليم النفس لله لا يكون إلا عن طواعية مطلقة.

قال دوج: فلم يقاتلون إذن؟

قال الحكيم: لنصرة المستضعفين وإزالة الحواجز التي تقف بينهم وبين حريتهم.. وسترى في الآيات التي ستقرؤها هذا المقصد القرآني الشريف الذي يميز الجهاد في الإسلام عن كل قتال في الدنيا.

قرأ دوج قوله تعالى:﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (آل عمران:١٩٥)

قال الحكيم: أنت ترى في هذه الآية الكريمة كيف ذكر الله تعالى عذر هؤلاء المقاتلين الذي دفعهم للقتال.. فقد أخرجوا من ديارهم، وأوذوا في سبيل الله.

ولو أن أعداءهم لم يفعلوا هذا بهم ما قاتلوهم ولا قتلوهم ولا عرضوا أنفسهم للقتل بسبب ذلك.

قرأ دوج قوله تعالى:﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ (النساء:٧٤)

ثم قال: ألا ترون في هذه الآية كيف يأمر القرآن بقتل من يهتمون بالحياة الدنيا ويعمروها؟

قال الحكيم: أخطأت في فهمك لكلام الله.. فهؤلاء الذين يشرون الحياة الدنيا الذين أمر المؤمنون بقتالهم إنما يشروها بالظلم والاستبداد والاستعمار.. ولو أنهم اشتروها بالطرق المشروعة لما عرض لهم أحد.

قرأ دوج قوله تعالى:﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾ (النساء:٧٥)

قال الحكيم: هذه الآية هي سيدة آي الباب.. وهي الحكم الذي يرجع إليه في فهم كل ما يرتبط بالقرآن الكريم من آيات القتال والجهاد.

قال دوج: ولكن مثل هذا الأمر بالقتال لا نجده في المسيحية.

قال الحكيم: لأن المسيحية لم تكن في يوم من الأيام.. هي ولا سائر الأديان.. دين الخلاص..

غضب دوج، وقال: كيف تقول ذلك.. والمسيحية هي دين الخلاص؟

قال الحكيم: الخلاص بمفهومه الشامل الذي يعني الحياة بجميع أركانها لم يكتمل إلا في الإسلام.. فإن كان المسيحي ومثله كل متدين بأي دين من الأديان، يسعى لخلاص نفسه.. فإن المسلم مطالب بأن يخلص كل المستضعفين.. ولهذا فإن الجهاد في الإسلام لا ينسخ أبدا ما دام هناك من يكتوي بنيران الظلم والعبودية والقهر.

فإن وجد من يريد أن ينسخ الجهاد فعليه أن يخلص الأرض من المستكبرين المستبدين الظالمين.. وحينذاك، فلن يرفع مسلم سلاحا في وجه أحد.. فإن رفعه قتل به.

قرأ دوج قوله تعالى:﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ

يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً) (النساء:٩٠)

قال الحكيم: هذه الآية كذلك مرجع من المراجع الكبرى التي يفهم بها معنى الجهاد.. فالقتال لا يوجه إلا للمقاتلين.. فإن اعتزل الظالمون أو طلبوا السلام وجب على المسلمين أن يجيبوهم له.

وقد صرحت بذلك آية أخرى يقول فيها الله تعالى:﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (لأنفال:٦١)

انتفض دوج، وقال: أين تجد هذا في واقع المسلمين.. وأعداؤهم يطلبون منهم السلام، وهم يأبون إلا الحرب؟

ابتسم الحكيم، وقال: أرأيت لو أن رجلا غصب أرضك، واستولى على أملاكك، فإن غضبت وثرت، أرسل لك بكبرياء من يطالبك بالسلام، فإن شرطت عليه أن يرجع لك حقوقك أولا رفض، وقال: ليس عندي إلا السلام.

فهل تراك تقبل؟

سكت دوج، فقال الحكيم: هذا ما حصل مع المسلمين في كل معاركهم مع أعدائهم.. استعمروا أرضهم، ونهبوا ثرواتهم.. فإذا ما قام أحد منهم يطالب بحقه اعتبر إرهابيا، واعتبر المعتدي مسالما.

قرأ دوج قوله تعالى:﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (لأنفال:١٧)

ثم قال: ألا ترون كيف يحرض إله المسلمين المسلمين على القتال؟

قال الحكيم: القتال من أجل الحق شرف.. لأن السكوت عن الظلم والهوان والذلة مهانة وذلة وضعف.. والله لا يعين أمثال هؤلاء.

قرأ دوج قوله تعالى:﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (لأنفال:٣٩)

قال الحكيم: لقد علل الأمر بالقتال في هذه الآية بسد ذرائع الفتنة، والفتنة هي الصد عن سبيل الله وقهر المستضعفين والاستيلاء على حقوقهم.

قرأ دوج قوله تعالى:﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ(٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٤٨)﴾ (الأنفال)

قال الحكيم: هذه الآية تبين جنس الذين يقوم المؤمنون بقتالهم.. فهم قوم مستكبرون طاغون ظالمون.. لا يحترمون الإنسان ولا يبالون بسفك الدماء.. وهم فوق ذلك حلفاء للشياطين.

قرأ دوج قوله تعالى:﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ

وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ (التوبة: من الآية٥)

قال الحكيم: واصل قراءة الآية والآيات التي بعدها.. فلا يمكن أن تفهم أي كلام بتقطيعه كما تشتهي.

نظر دوج إلى الحكيم، ثم راح يقول: سأقرأ ما تشتهي إلى أن توقفني.. ولكنك لن تشم في هذه الآيات إلا روائح الدماء.

أخذ يقرأ:﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآَيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣)﴾(التوبة)

أوقفه الحكيم، وقال: هل هناك كتاب في الدنيا يتكلم عن أعدائه ـــ الذين استعملوا كل الأساليب الخسيسة لاستئصاله ـــ بهذا الأسلوب!؟

إنه يتحدث عن حقوق أعدائه الكثيرة.. ويطلب من المسلمين الذين أصابهم ما أصابهم من أعدائهم أن يوفوهم بها في لحظات نصرهم.

إنه يطلب من المسلمين أن يجيروا المشركين الذين لم يكن لهم إلا شعار واحد هو استئصال المؤمنين.

وهو عندما يأمر بالقتال يقصره على أئمة الإجرام دون غيرهم من العامة والبسطاء.

ثم هو يأمر المرة بعد المرة بالتسامح مع هؤلاء وقبولهم إخوانا في الله إن تابوا عن سلوكهم الذي كانوا يسلكونه.

هنا انتفض دوج، وقال: هذا هو الإكراه بعينه.

قال الحكيم: لا.. ليس هذا إكراها.. لقد جاء الإسلام في بيئة جاهلية وثنية تمتلئ بالكهانة والسحر ووأد البنات وظلم المرأة والعبيد.. فلذلك لم يرض من هؤلاء إلا الإسلام، بعد أن أتاح لهم فرصة التفكير فيه.

أما غيرهم من أهل الكتاب، فلم يتعرض لهم عربا كانوا أو غير عرب.

قال دوج: أليس هذا إكراها؟

قال الحكيم: وهل فرض الدولة للقيم الحضارية على الشعب إكراه .. هل إذا أمرته بالنظافة والنظام والحفاظ على حقوق الآخرين ظلم وإكراه.

قال دوج: ولكن الإسلام ليس هذا فقط؟

قال الحكيم: بل هذا هو الإسلام.. الإسلام هو القيم النبيلة التي لو بحثت في جميع أسفار العالم المقدسة

وغير المقدسة.. فلن تجد أنبل منها ولا أكرم منها ولا أشرف منها.

قال دوج: هكذا أنتم ــ معشر المسلمين ــ لا تعرفون غير الفخر.

قال الحكيم: المسلمون لا يفخرون بأنفسهم.. بل يعترفون بقصورهم عن تمثيل الإسلام في صورته المثلى.. ولكنهم يعتقدون أن الله الذي خلق هذا الكون ووفر له جميع أسباب الهداية لم يضيع هذا البشر.. بل أرسل له من أنوار الهداية ما يرفع عنه كل ظلمة، ويملؤه بكل حقيقة.

قال دوج: دعنا من هذا.. وأجبني: ألم يحو القرآن كلمة الإرهاب؟

ابتسم الحكيم، وقال: أجل.. لقد وردت مادة (رهب) ومشتقاتها في القرآن الكريم في اثني عشر موضعا..

انتفض فرحا، وهو يقول: أرأيتم.. لقد ذكرت لكم بأن القرآن هو كتاب الإرهاب.. إنه يذكر الإرهاب اثني عشر مرة.

التفت الجمع إلى الحكيم، وفي عيونهم تساؤلات كثيرة، فقال: سأقرؤها عليكم واحدة واحده:

أما الأولى.. فهي قوله تعالى:﴿ يَا بَنِي إِسْرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) (البقرة:٤٠)[1]، والرهبة هنا تعني الخوف من الله.. فالخوف هو السوط الذي يكسر نوازع الشر في الإنسان.

وأما الثانية، فقوله تعالى:﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ) (المائدة:٨٢)[2]، فالرهبان الصادقون هم الذين حملهم الخوف من الله إلى اعتزال كل ما يبعدهم عنه أو ما يغضبه عليهم.

وأما الثالثة، فقوله تعالى حكاية عن السحرة:﴿ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ) (لأعراف:١١٦)[3]، فالسحرة استعملوا سلاح سحرهم للتاثير في بث الرعب في الحاضرين.

وأما الرابعة، فقوله تعالى:﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ

---

(١) ومثل هذا قوله ﷻ:﴿ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) (النحل:٥١)، وقوله ﷻ:﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) (الانبياء:٩٠)

(٢) ومثل هذا قوله ﷻ:﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (التوبة:٣١)، وقوله ﷻ:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (التوبة:٣٤)، وقوله ﷻ:﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْأِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) (الحديد:٢٧)

(٣) وقريب من هذا قوله ﷻ لموسى ــ عليه السلام ــ:﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ) (القصص:٣٢)، فهو من الخوف العادي الذي يعتري أي إنسان.

لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ) (لأعراف:١٥٤)، وهي تتحدث عن تأثير مخافة الله في السلوك الصالح.

وأما الخامسة، فقوله تعالى:﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ) (لأنفال:٦٠)

انتفض دوج قائلا: هذه هي الآية التي أريدها.. إنها الآية التي تشرع الإرهاب، وتأمر المؤمنين به.

ابتسم الحكيم، وقال: بل هذه آية السلام.. فهي تشرع للسلام.. وتأمر المؤمنين بالإعداد له.

قال دوج: كيف ذلك، وهي تنص صراحة على إرهاب الأعداء؟

قال الحكيم: ألم تفهم من الآيات السابقة أن الخوف جند من جند الله التي يقمع بها الله نوازع الشر في الإنسان؟

قام رجل من الجمع، وقال: هذا صحيح.. وأنا عالم نفس.. وأعلم أن الخوف الذي يستعمل استعمالا صحيحا له تأثير كبير في حياة صاحبه..

ولهذا، فإن المتهور ــ الذي نزع الخوف من نفسه ــ قد يقع في المهالك التي لا يقع فيها من تسلح بسلاح الخوف.

قال الحكيم: تصور لو أن دولة من الدول رفعت كل ما يملؤها بالهيبة في نفوس أعدائها.. فلم يكن لها جيش ولا شرطة ولا أمن يحفظ شوارعها وحدودها.. هل يمكن لهذه الدولة في عالم يمتلئ بالذئاب أن يبقى لها وجود؟

قالت الجماعة: لا.. بل ستصبح هذه الدولة ورعيتها مطمعا لكل طامع.

قال الحكيم: فلذا كان في تسلحها بأنواع القوة ردعا لأعدائها، فلا يفكر أحد ــ مجرد تفكير ــ في المساس بها.

قالت الجماعة: ذلك صحيح.

قال الحكيم: وبذلك يكون الإرهاب هو السلام.. فالقوة لا تداويها إلا القوة، ولهذا فإن الله تعالى قال في بيان الحكمة من تشريع القصاص:﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة:١٧٩).. فبالقصاص تتحقق الحياة.

قال دوج: ولكن لم اعتبر القرآن إعداد العدة هو وسيلة السلام؟

قال الحكيم: لأن من البشر من لا يخاف إلا السلاح.. فهو لا يخاف الله.. ولذلك يحتاج إلى سلاح يردعه.. لقد ذكر القرآن ذلك، فقال:﴿ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ﴾ (الحشر:١٣)

٢ ـــ أسباب الحرب

أغلق دوج المصحف، وقال: لا طاقة لي بجدالك في هذا.. فالقرآن قد وضع لكم المخارج التي تجادلون بها عنه.. ولهذا سأنزل بك إلى الواقع.. وسأقتصر منه على واقع محمد.. ذلك الواقع الذي لم يكن فيه إلا القتال.

لقد قرأت سير المصلحين والأنبياء.. فلم أجد واحدا منهم حمل من السيوف ما حمل محمد..

أشار إلى اللوحة، وقال: لقد سجلت في هذه اللوحة تلك المعارك الكثيرة التي خاضها محمد، والتي لازال المسلمون يتباهون بها إلى اليوم.

قال الحكيم: وحق لهم أن يتباهوا.. فليس هناك حرب في الدنيا أنظف من الحرب التي خاضها المسلمون..

لقد كانوا ثلة قليلة مستضعفة سامها أعداؤها الخسف.. ولكن الله من عليها، وأعطاها من القوة بحيث استطاعت أن تنتصر على جميع أعدائها وفي مرحلة وجيزة هي أقرب إلى الإعجاز منها إلى الواقع.

ألم يزل الأوروبيون يرددون ـــ ومثلهم كل البشر ـــ يرددون بافتخار ما حصل في تاريخهم من انتصاراتهم؟

سكت دوج، فقال: فأنتم تفخرون بانتصارات وهمية كان أكثرها لمصالح محدودة، ثم تريدون من المسلمين أن يستحوا من المعارك التي انتصر فيها الحق على الباطل، والقيم النبيلة على الجاهلية..

قال دوج: فأنت تقر بأن دعوة محمد كانت دعوة قتال لا دعوة سلام؟

قال الحكيم: السلام الشامل يستدعي أن تقهر المعتدين وتردهم إلى صوابهم.. إنه مثل العملية الجراحية التي تستأصل بها الأدواء.. فلا يمكن للجسم أن يظل سليما مسالما، وتلك الأدواء تنهشه، وتقتله.

توجه دوج إلى الجمع، وقال: ولكن ألا ترون من العجب أن يخوض نبي من الأنبياء في فترة وجيزة كل تلك الحروب!؟

انظروا هذه السيوف الكثيرة التي تمتلئ بها هذه اللوحة.

ابتسم الحكيم، وقال: إنك تكاد تحول من لوحتك وثيقة تاريخية..

ثم توجه إلى الجمع، وقال: فلنسكت عن الكلام المجرد.. ولنبحث في حقائق التاريخ عن هذه الغزوات لنرى حقيقتها وأسبابها ودوافعها وما نتج عنها لنحكم بعد ذلك.

قال دوج: إن التاريخ ينقضي دون الانتهاء من ذكر هذه التفاصيل التي تريد أن نذكرها.

قال الحكيم: لا مناص لطالب الحق أن يعرف التفاصيل.. وقد كان من علامات صدق المسلمين أن سجلوا تاريخهم حرفا حرفا وكلمة كلمة.. وبسطوا حياة نبيهم بجميع تفاصيلها ليرى الكل مدى الصفاء والطهر والقداسة التي كان يسلكها محمد ﷺ في حياته.

قال دوج: كيف تقول ذلك.. وقد قام بكل تلك الحروب؟

قال الحكيم: قبل أن أحدثك عن بعض تفاصيل تلك الحروب أريد أن أضع بين يديك عدد القتلى الذين سقطوا في تلك الحروب جميعا.. ثم قارنها بعد ذلك بما شئت من حروب الدنيا.

لقد ذكر المؤرخون أن عدد القتلى الذين سقطوا في جميع الحروب التي مارسها المسلمون في عهد رسول الله ﷺ ــ سواء كانت غزوات أو سرايا أو مناوشات ــ والتى ابتدأت فى السنة الثانية للهجرة ودامت حتى السنة التاسعة ــ أى ما يقرب من ثمان سنوات ــ لم يزد عدد المقتولين من الفريقين ــ المسلم وغير المسلم ــ على ألف وثمانية عشر نفساً (١٠١٨).. المسلمون منهم ٢٥٩ شهيداً.. وغير المسلمين ٧٥٩ قتيلاً.

قارن هذا العدد بما سقط في الحرب العالمية الأولى من قتلى.. فبين سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ م بلغ عدد القتلى سبعة ملايين، والمصابون واحد وعشرون مليون نفس.

أما الحرب في العالمية الثانية، سنة ١٩٣٩م، فعدد المصابين لا يقل عددهم عن خمسين مليون نفساً.

لاشك أنكم نيستم هذه الحروب العالمية التي خضتموها.. ونسيتك تلك القنابل التي دككتم بها البيوت على أهليها.. و لم تذكروا إلا دفاع محمد ﷺ عن نفسه، وعن القيم النبيلة التي أرسله الله ليقيمها.

بالإضافة إلى هذا.. فإن حروب محمد حروب صاحب رسالة ومبدأ.. أما الحروب العالمية التي خضتموها، فلم تكن تحمل إلا نفسا جشعة بشعة حريصة سفاكة للدماء..

التفت للجمع، وقال: سننظر في هذه المعارك التي خاضها رسول الله ﷺ معركة معركة.. ولننظر حقيقتها وأسبابها.. لنكتشف الحقيقة من الواقع بعد أن عرفناها من خلالها مصدرها المقدس [1].

سرية سيف البحر:

التفت إلى دوج، وقال: أرني أول سيف من السيوف التي سلها محمد على أعدائه.

أشار دوج إلى سيف من السيوف، وقال: هذا.. إنه يرمز إلى سرية (سيف البحر)

قال الحكيم: لقد وقعت هذه السرية في رمضان من سنة الأولى للهجرة (الموافق مارس سنة ٦٢٣م)، وقد أمر رسول الله ﷺ على هذه السرية حمزة بن عبد المطلب، وبعثه في ثلاثين رجلاً من المهاجرين يعترضون عيراً لقريش جاءت من الشام، وفيها أبو جهل في ثلاثمائة رجل، فلبغوا سيف البحر من ناحية العيص، فالتقوا واصطفوا للقتال، فمشى مجدي بن عمرو الجني ــ وكان حليفاً للفريقين جميعاً ــ بين هؤلاء وهؤلاء حتى حجز بينهم فلم يقتتلوا.

التفت إلى دوج، وقال: ما تنقم على هذه السرية.. وأنت ترى أنه لم يسفك فيه دم؟

قال دوج: أنقم على إرسالها.. فكيف يرسل نبي سرية لتعترض قافلة؟.. إن هذا سلوك قاطع طريق لا سلوك نبي.

قال الحكيم: لا ينبغي للعاقل ان يستعجل في إرسال أحكامه.. فلنسأل التاريخ عن دوافع هذه السرية..

---

(١) اضطررنا لذكر بعض التفاصيل هنا من باب الرد العلمي على ما يذكر في كتب المبشرين من أنواع الشبهات الكثيرة المثارة حول هذه الغزوات، والتي قد يشكل الجهل بها درعا لمرورها.

بالإضافة إلى أن من مقاصدنا في هذه الأجزاء الثلاثة الخاصة بالنبي ﷺ هي عرض سيرته وشمائله وما يرتبط به ﷺ مما تمس الحاجة إليه.. فلا يمكن التعرف على النبي ﷺ من غير هذه الأبواب.

وقد رجعنا في هذا إلى مصادر السيرة المعتمدة قديما وحديثا.. وهي من الكثرة والاتفاق بحيث لا نحتاج أن نوثق كل مرة لها.

ولك أن تقارن بعد ذلك موقف محمد ﷺ بأي موقف تصفه بالنبل أو الحضارة.

أولا.. أنت تعلم أن محمدا ﷺ خرج من مكة المكرمة مكرها بعد أن كاد له أعداؤه كل المكايد لقتله..

ومثل ذلك خرج أصحابه من غير أن يأخذوا معهم دينارا ولا درهما..

لا شك أنك تعرف قصة صهيب.. لقد حدث ابن عباس، وأنس وغيرهما في قوله تعالى:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (البقرة:٢٠٧) قالوا: نزلت في صُهيب بن سنَان الرومي، وذلك أنَّه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله، وإنْ أحب أن يتجرّد منه ويهاجر، فَعَل، فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرّة. فقالوا: رَبح البيع، فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبروه أنّ الله أنزل فيه هذه الآية. ويروى أن رسول الله ﷺ قال له: (ربح البيع صهيب، ربح البيع صهيب)[1]

هذا مثال واحد عن رجل من المسلمين.. وقس به سائر المسلمين الذين استولى المشركون على أموالهم وبيوهم وكل ما يملكون.

ومع ذلك، فإن المسلمين لم يحركوا ساكنا في مواجهة أعدائهم إلا بعد أن جاءهم الإذن الإلهي بحقهم في استرداد حقوقهم.. قال تعالى:﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ(٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٤٠)(الحج)

التفت للجمع، وقال: هل ترون نبلا أعظم من هذا النبل الذي تحمله هذه الآيات..

وهل يمكن لقاطع طريق أن يكون دافعه ما تدعو إليه هذه الآيات!؟

التفت إلى دوج، وقال: ومع ذلك.. لم يكن هذا هو الدافع الوحيد..

اقرأ التاريخ.. وستجد فيه تلك المكايد التي ظل المشركون يدبروها للمسلمين غير مكتفين بما سلبوهم من أموال، وما مارسوه قبل ذلك هم من أنواع الأذى.

لقد ذكر المؤرخون بأسانيد كثيرة لا تقل عن الأسانيد التي نقلت بها أحداث المعارك التي ترمون بها محمدا ﷺ تلك المؤامرات الدنيئة التي كانت تدبر لرسول الله ﷺ.

ومن ذلك أهم كتبوا إلى عبد الله بن أبي سلول، بصفته رئيس الأنصار قبل الهجرة، يقولون له:(إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم)

وبمجرد بلوغ هذا الكتاب قام عبد الله بن أبي ليمتثل أوامر المشركين من أهل مكة، وقد كان يحقد على النبي ﷺ لما يراه أنه استبله ملكه.

يقول عبد الرحمن بن كعب: فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (٢/٢٢٧)، ورواه ابن سعد في الطبقات (٢/٢٢٨) وأبو نعيم في الحلية (١/١٥١) من طريق علي بن زيد عن سعيد بن المسيب، فذكر نحو القصة.

رسول الله ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم، فقال: (لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر ما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقالوا أبناءكم وإخوانكم)، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا[1].

لقد امتنع عبد الله بن أبي بن سلول عن القتال إذ ذلك، لما رأى خوراً أو رشداً في أصحابه، ولكن يبدو من تصرفاته أنه كان متواطئاً مع قريش، فكان لا يجد فرصة إلا وينتهزها لإيقاع الشر بين المسلمين والمشركين، وكان يضم معه اليهود، ليعينوه على ذلك.

ومع ذلك، فإن النبي ﷺ ــ وقد بلغته كل هذه الأنباء ــ لم يدبر أي مؤامرة لقتل هؤلاء مع أنهم كانوا معه في المدينة، وكان من السهل استئصالهم.

ليس هذا فقط.. بل إن قريشاً كانت تعتزم على شر أشد من هذا، وتفكر في القيام بنفسها للقضاء على المسلمين .

وقد فطن لهذا الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ فلذلك كانوا يحرسون رسول الله ﷺ، ويبالغون في حراسته، فعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة فقال: (ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة)، قالت: فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح، فقال: (من هذا ؟) قال: سعد بن أبي وقاص، فقال له رسول الله ﷺ : (ما جاء بك؟) فقال: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ، فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ، ثم نام[2].

و لم تكن هذه الحراسة مختصة ببعض الليالي، بل كان ذلك أمراً مستمراً، فقد روى عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: كان رسول الله ﷺ يحرس ليلاً حتى نزل قوله تعالى:﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (المائدة: من الآية٦٧)، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، فقال: (يا أيها الناس، انصرفوا عني فقد عصمني الله عز وجل)[3]

و لم يكن الخطر مقتصراً على رسول الله ﷺ، بل كان يحدق بالمسلمين كافة، فقد روى أبي بن كعب، قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه.

التفت إلى الجمع، وقال: لم يمارس المشركون هذه المكايد فقط.. بل راحوا يحرمون سكان المدينة التي آوت رسول الله ﷺ من حقهم في زيارة الكعبة التي كانت مباحة للعرب جميعا..

فقد روي أن سعد بن معاذ انطلق إلى مكة معتمراً، فترل على أمية بن خلف بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف البيت، فخرج به قريباً من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان،

---

(١) سنن أبي داود (٢١٣/٣)

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه الترمذي، وقال: وهذا حديث غريب، ورواه ابن جرير والحاكم في مستدركه، وقال الحاكم: صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد آويتم الصباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم، وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً، فقال له سعد ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعك ما هو أشد عليكم منه: طريقك على أهل المدينة.

التفت إلى دوج، وقال: قارن هذا بما يحدث في العالم من أنواع المظالم بسبب الحفاظ على الأمن القومي..

قارن هذا بما فعله الأمريكان الذين تعتبرونهم مثلكم الأعلى بالمستضعفين في العالم بسبب شيء بسيط حصل لهم.

قال دوج: كيف تسميه بسيطا.. وقد قتل فيه الآلاف؟

قال الحكيم: ولكن المجرمين انتقموا لهم بمئات الآلاف.. لقد دمرت لهم بناية واحده.. لسنا ندري من دمرها إلى الآن.. فراح المجرمون ــ بما امتلأوا به من إجرام ــ يدمرون بلادا كاملة.. بلادا آوت الحضارة لآلاف السنين..

راح المجرمون الذين يلبسون لباس الحضارة يمحونها بجرة قلم، ثم يسبون محمدا والقيم النبيلة التي جاء بها محمد.

سرية رابغ:

طأطأ الجمع رأسه أسفا، لكن دوج حاول أن يبدل الموضوع، فأشار إلى سيف من السيوف، وقال: هذا سيف يشير إلى سرية رابغ.

قال الحكيم: لقد وقعت هذه السرية في شوال سنة ١ من الهجرة (الموافق أبريل سنة ٦٣٢م)[١]، وقد بعث لها رسول الله ﷺ عبيدة بن الحارث بن المطلب في ستين رجلاً من المهاجرين، فلقى أبا سفيان – وهو في مائتين – على بطن رابغ، وقد ترامي الفريقان بالنبل، و لم يقع قتال [٢] .

وفي هذه السرية انضم رجلان من جيش مكة إلى المسلمين، وهما المقداد بن عمرو البهراني، وعتبه بن غزوان المازني، وكانا مسلمين خرجا مع الكفار ليكون ذلك وسيلة للوصول إلى المسلمين، وكان لواء عبيدة أبيض، وحامله مسطح بن أثاثة.

التفت الحكيم إلى دوج، وقال: أنت ترى أن هذا السيف الثاني الذي عددته من جملة السيوف لم يقتل أحدا.. وفي عصرنا لا يعتبر مثل هذا حربا.. ولا تعتبر مثل هذه المعركة معركة.. إنها لا تختلف عن أي دورية بسيطة يقوم بها بعض الجنود لحماية الثغور.. ولكنكم لا تريدون إلا أن تهولوا، فتعتبروا كل حركة يقوم بها النبي

---

(١) هكذا ذكر غير واحد من أهل السير، وذكر أبو الاسود في مغازيه، ووصله ابن عائذ عن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ لما وصل إلى الابواء بعث عبيدة بن الحارث في ستين رجلا، فذكر القصة، فتكون في السنة الثانية، وصرح به بعض أهل السير.

(٢) إلا أن سعد بن أبي وقاص ــ رضي الله عنه ــ رمي بسهم في سبيل الله فكان أول سهم رمي به في الاسلام، فنثر كنانته وتقدم أمام اصحابه وقد ترسوا عنه، فرمي بما في كنانته وكان فيها عشرون سهما ما منها سهم إلا ويجرح انسانا أو دابة.. ولم يكن بينهم يومئذ الا هذا، ثم انصرف الفريقان على حاميتهم.

ﷺ ليؤمن الجو لدعوته، ولمجتمع دعوته معارك لا تقل عن المعارك التي تمارسونها بما جبلتم عليه من حب للصراع.

سرية الخرار:

سكت دوج، فأشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: هذا يشير إلى سرية الخرار.. وقد وقعت في ذي العقدة سنة ١ هـ، (الموافق مايو سنة ٦٢٣م)، وقد بعث لها رسول اللهﷺ سعد بن أبي وقاص في عشرين رجلا يعترضون عيراً لقريش، وعهد إليه ألا يجاوز الخرار، فخرجوا مشاة يكمنون بالنهار، ويسيرون بالليل، حتى بلغوا الخرار صبيحة خمس، فوجدوا العير قد مرت بالأمس.

التفت إلى دوج، وقال: هذهلا تختلف عن سابقتها.. إنما دورية تفقدية، وليست معركة.

غزة الأبواء:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: هذا يشير إلى غزة الأبواء.. وقد وقعت في صفر سنة ٢ هـ، (الموافق أغسطس سنة ٦٢٣م).. وقد خرج رسول الله ﷺ فيها بنفسه في سبعين رجلاً من المهاجرين خاصة يعترض عيراً لقريش، حتى بلغ ودان، فلم يلق كيداً، واستخلف فيها على المدينة سعد بن عبادة رضى الله عنه.

وفي هذه الغزوة عقد معاهدة حلف مع عمرو بن مخشى الضمري، وكان سيد بنى ضمرة في زمانه، وهذا نص المعاهدة: (هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمره، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله، ما بل بحر صوفة، وأن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه).

وهذه أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة.

قال دوج: ألا تعجبون من نبي يغزو؟

قال الحكيم: إن هذا من دلائل كمال النبي ﷺ وصدقه.. فهو لم يكن يجلس في برج عاج يرمي الأوامر لأصحابه، وهو بمعزل عنها، بل كان يخوض معهم المعارك، ويتعرض معهم لجميع الأخطار التي يتعرضون لها.

غزوة بواط:

سكت دوج، فأشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: هذا يشير إلى غزوة بواط، وقد وقعت في شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ (الموافق سبتمبر سنة ٦٢٣م)، وقد خرج فيها رسول الله ﷺ في مائتين من أصحابه، يعترض عيراً لقريش فيها أمية بن خلف الجمحي ومائة رجل من قريش، وألفان وخمسمئة بعير، فبلغ بواطا من ناحية رضوى، و لم يلق كيدا.

غزوة سفوان:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: هذا يشير إلى غزوة سفوان.. وقد وقعت في شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ، (الموافق سبتمبر سنة ٦٢٣م)، وسببها أن كرز بن جابر الفهري أغار في قوات خفيفة من المشركين على مراعي المدينة، ونهب بعض المواشي فخرج رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً من أصحابه لمطاردته، حتى بلغ وادياً

يقال له: سفوان من ناحية بدر، ولكنه لم يدرك كرزاً وأصحابه، فرجع من دون حرب، وهذه الغزوة تسمى بغزوة بدر الأولى.

التفت إلى دوج، وقال: ألا ترى الأذى الذي كان يتعرض له المسلمون، مع أن أعينهم لم تكن تنام، فكيف لو تركوا سيوفهم!؟

إنهم ــ حينها ــ يصبحون لقمة سائغة لأعدائهم الذين كانوا يتحينون أي فرصة للانقضاض عليهم.

لقد ذكر القرآن الكريم ذلك الجو المخيف الذي كان يعيش فيه المؤمنون، فقال:﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ (النساء: من الآية١٠٢).. أفتريدون من المسلمين أصحاب الرسالة المقدسة المخلصة أن يختبئوا كما اختبأ الحواريون، أو تريد منهم أن يسلموا محمدا للصلب كما سلم المسيح[1] حتى تعتبروه صاحب سلام!؟

غزوة ذي العشيرة:

سكت دوج، فأشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: هذا سيف يشير به هذا الفنان المبدع إلى غزوة ذي العشيرة، وقد وقعت في جمادى الأولى، وجمادى الآخرة سنة ٢ هـــ، (الموافق نوفمبر وديسمبر سنة ٦٢٣هـــ)، وقد خرج فيها رسول الله ﷺ في خمسين ومائة ــ ويقال: في مائتين ــ من المهاجرين، ولم يكره أحداً على الخروج، وخرجوا على ثلاثين بعيراً يعتقبونها، يعترضون عيراً لقريش، ذاهبة إلى الشام، وقد جاء الخبر بفصولها من مكة، فيها أموال لقريش فبلغ ذا العشيرة، فوجد العير قد فاتته بأيام، وهذه هي العير التي خرج في طلبها حين رجعت من الشام، فصارت سبباً لغزوة بدر الكبرى.

وفي هذه الغزوة عقد رسول الله ﷺ معاهدة عدم اعتداء مع بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة.

سرية نخلة:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: هذا سيف يشير إلى سرية نخلة، وقد وقعت في رجب سنة ٢ هـــ، (الموافق يناير سنة ٦٢٤م)، وقد بعث فيها رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش، وكتب له كتاباً، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه،. فسار عبد الله، ثم قرأ الكتاب بعد يومين، فإذا فيه: (إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكلة والطائف، فترصد بها عير قريش، وتعلم لنا من أخبارهم)

فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال: سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى بطن نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتيه منها بخبر، وقد نهى أن استكره أحداً منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها، فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأنا ماض لأمر رسول الله ﷺ.

فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف أحد منهم، فسلك الطريق على الحجاز حتى إذا كان ببعض الطريق ضل بعير لسعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان، فتخلفا عن رهط عبد الله بن جحش ليبحثا عن البعير ومضى الستة الباقون.

---

(١) بحسب زعم المسيحيين.

حتى إذا كانت السرية ببطن نخلة مرت عير لقريش تحمل تجارة، فيها عمرو بن الحضرمي وثلاثة آخرون، فقتلت السرية عمراً ابن الحضرمي وأسرت اثنين وفر الرابع وغنمت العير، وكانت تحسب أنها في اليوم الأخير من جمادى الآخرة، فإذا هي في اليوم الأول من رجب ــ وقد دخلت الأشهر الحرم ــ التي تعظمها العرب، وقد عظمها الإسلام وأقر حرمتها.

هنا انتفض دوج، وكأنه قد ظفر بضالته التي ظل يبحث عنها، وقال: أرأيتم كيف يحطم المسلمون شعائر السلام.. فيقاتلون في الأشهر الحرام[1]؟

ابتسم الحكيم، وقال: ما شاء الله.. إنك تردد كلمات أبي سفيان وأبي جهل وعبد الله بن أبي.. أولئك الذين لا يعرفون الحرمات إلا عندما ترتبط بمصالحهم.

إنك الآن تكرر نفس موقف المشركين.. فإن قريشا قالت حينها: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال.

وقد استغلت اليهود هذه الفرصة، فراحت تقول: عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله.. عمرو عمرت الحرب.. والحضرمي: حضرت الحرب.. وواقد بن عبد الله: وقدت الحرب.

أتدري.. لقد كانت هذه الغزوة لمن تأمل فيها دليلا على السلام العظيم الذي كان يحمله رسول الله ﷺ ويحمله معه أصحابه الطاهرون.

لقد روى المؤرخون أنه لما قدمت السرية بالعير والأسيرين على رسول الله ﷺ قال:(ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام)، ووقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً.

وهو نفس موقف سائر المسلمين..

هل ترى هذا موقف مسالمين، أم مواقف محاربين!؟

قال دوج: ولكنهم قبلوا الغنيمة بعد ذلك.

قال الحكيم: لقد كان من سماحة رسول الله ﷺ أن أطلق سراح الأسيرين.. و لم يكتف بذلك، بل أدى دية المقتول إلى أوليائه.

قال دوج: ولكن القرآن برر ما فعله المؤمنون.. وفي ذلك خطر عظيم.

قال الحكيم: بل في ذلك صدق عظيم.. وتربية عظيمة.. فالسلام لا يعني البلاهة والخمود والرضوخ.. بل يعني المقاومة والحياة والبقاء..

ولهذا فإن القرآن الكريم اعتبر ما يفعله المشركون من حرب الحق وأهل الحق أعظم من القتل الذي استنكروه على المسلمين.

لقد نزل في ذلك الموقف الحرج قوله تعالى:﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ

---

(١) نرى في كتب المسيحيين ومواقعهم حملة شديدة على هذه السرية، وهو أمر لا يستغرب من نفوس حاقدة تستغل كل ما يقوله أعداء الإسلام مهما كان نوعهم.

﴿ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة:٢١٧)

وقد فند هذه الآية كل قول، وفصلت في الموقف بالحق، فقد صرحت بأن الضجة التي افتعلها المشركون لإثارة الريبة في سيرة المقاتلين المسلمين لا مساغ لها، فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها في محاربة الإسلام، واضطهاد أهله.

ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر سلب أموالهم وقتل نبيهم؟ فما الذي أعاد لهذه الحرمات قداستها فجأة، فأصبح انتهاكها معرة وشناعة؟

ثم إن المسلمين لم يبدأوا القتال، و لم يبدأوا العدوان.. بل إن المشركين هم الذين وقع منهم الصد عن سبيل الله، والكفر به وبالمسجد الحرام.. لقد صنعوا كل كبيرة لصد الناس عن سبيل الله:

لقد كفروا بالله وجعلوا الناس يكفرون، وقد كفروا بالمسجد الحرام، وانتهكوا حرمته؛ فآذوا المسلمين فيه، وفتنوهم عن دينهم طوال ثلاثة عشر عاماً قبل الهجرة، وأخرجوا أهله منه، وهو الحرم الذي جعله الله آمناً، فلم يأخذوا بحرمته و لم يحترموا قدسيته.

وإخراج أهله منه أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام.. وفتنة الناس عن دينهم أكبر عند الله من القتل.. وقد ارتكب المشركون هاتين الكبيرتين فسقطت حجتهم في التحرز بحرمة البيت الحرام وحرمة الشهر الحرام.

ووضح موقف المسلمين في دفع هؤلاء المعتدين على الحرمات؛ الذين يتخذون منها ستاراً حين يريدون، وينتهكون قداستها حين يريدون! وكان على المسلمين أن يقاتلوهم أنى وجدوهم، لأنهم عادون باغون أشرار، لا يرقبون حرمة، ولا يتحرجون أمام قداسة، وكان على المسلمين ألا يدعوهم يحتمون بستار زائف من الحرمات التي لا احترام لها في نفوسهم ولا قداسة!

لقد كانت كلمة حق يراد بها باطل. وكان التلويح بحرمة الشهر الحرام مجرد ستار يحتمون خلفه، لتشويه موقف الجماعة المسلمة، وإظهارها بمظهر المعتدي.. وهم المعتدون ابتداء، وهم الذين انتهكوا حرمة البيت ابتداء [1].

قال دوج: ولكن.. ألم تكن هناك حلول أخرى؟

قال الحكيم: بلى.. لقد كانت هناك حلول كثيرة.

قال دوج: فلماذا لم يستعملها محمد.. واستعمل السيف بدلها.

قال الحكيم: لقد استعمل محمد طيلة ثلاثة عشر سنة كل الحلول مع قومه.. لكنهم أبوا.. فتركهم وطلب منهم أن يتركوه، فأبوا.. وظلوا لا يكتفون بالإباء، بل يأبون وينهون.. ولا يكتفون بالنهي، بل يشرعون جميع أسلحتهم ضده.

فهل من الحكمة أن يستسلم لهم أم يواجههم؟

---

(١) انظر: في ظلال القرآن، بتصرف.

فإذا استسلم لهم يموت دينه وتموت دعوته.. أو يقوم بين أصحابه من يمثل دور بولس ليصبح الخلاص الذي جاء به محمد خلاصا كهنوتيا أقرب إلى الأسطورة منه إلى الواقع.

أم يواجههم.. وهذا الذي اختاره محمد ﷺ..

إن الإسلام يرعى حرمات من يرعون الحرمات، ويشدد في هذا المبدأ ويصونه، ولكنه لا يسمح بأن تتخذ الحرمات متاريس لمن ينتهكون الحرمات، ويؤذون الطيبين، ويقتلون الصالحين، ويفتنون المؤمنين، ويرتكبون كل منكر وهم في منجاة من القصاص تحت ستار الحرمات التي يجب أن تصان!

وهو يمضي في هذا المبدأ على اطراد.. إنه يحرم الغيبة.. ولكن لا غيبة لفاسق.. فالفاسق الذي يشتهر بفسقه لا حرمة له يعف عنها الذين يكتوون بفسقه.

وهو يحرم الجهر بالسوء من القول، ولكنه يستثني إلا من ظلم.. فله أن يجهر في حق ظالمه بالسوء من القول، لأنه حق، ولأن السكوت عن الجهر به يطمع الظالم في الاحتماء بالمبدأ الكريم الذي لا يستحقه!

ومع هذا يبقى الإسلام في مستواه الرفيع لا يتدنى إلا مستوى الأشرار البغاة، ولا إلى أسلحتهم الخبيثة ووسائلهم الخسيسة.. إنه فقط يدفع المسلمين إلى الضرب على أيديهم، وإلى قتالهم وقتلهم، وإلى تطهير جو الحياة منهم.

وحين تكون القيادة في الأيدي النظيفة الطيبة المؤمنة المستقيمة، وحين يتطهر وجه الأرض ممن ينتهكون الحرمات ويدوسون المقدسات.. حينئذ تصان للمقدسات حرمتها كاملة، كما أرادها الله[1].

سكت دوج، فقال الحكيم: لقد كان من رحمة الله أن آتت تلك السرايا التي أرسلها رسول الله ﷺ أكلها..

فقد علمت قريش، ومعها كل من كان يتربص بالمسلمين الدوائر أن للمسلمين من اليقظة ما يجعل أعداءهم أبعد الناس عن الطمع فيهم.

وبعد سرية عبد الله بن جحش ــ على الخصوص ــ تحقق خوف المشركين وتجسد أمامهم الخطر الحقيقي، ووقعوا فيما كانوا يخشون الوقوع فيه، وعلموا أن المدينة في غاية من التيقظ والتربص، تترقب كل حركة من حركاتهم التجارية، وأن المسلمين يستطيعون أن يزحفوا إلى ثلاثمائة ميل تقريباً، ثم يقلتوا ويأسروا رجالهم، ويأخذوا أموالهم، ويرجعوا سالمين غانمين، وشعر هؤلاء المشركون بأن تجارتهم إلى الشام أمام خطر دائم، لكنهم بدل أن يفيقوا عن غيهم، ويأخذوا طريق الصلاح والموادعة ــ كما فعلت جهينة وبنو ضمرة ــ ازدادوا حقداً وغيظاً، وصمم صناديدهم وكبراؤهم على ما كانوا يوعدون ويهددون به من قبل من إبادة المسلمين في عقر دارهم.

وفي تلك الأيام الشديدة التي قرر فيها الأعداء هذه القرارات الخطيرة خرج حكم الجهاد من الإذن الذي يدل على الإباحة إلى الوجوب الذي يجعله لا يختلف عن الصلاة وغيرها من شعائر الدين..

هنا انتفض دوج، وقال: أرأيتم.. ها هو محمد يحول الإرهاب إلى ركن من أركان الدين كالصلاة.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن، بتصرف.

قال الحكيم: وهل يمكن لشخص من الناس أن يقيم الصلاة، وهو لا يأمن على نفسه وأهله ودينه.. إن المسلم عندما يحمل سيفه ليجاهد به يحمله لأشرف غرض يمكن أن يحمل من أجله سيف.

إنه يحمله من أجل حماية التوجه لله بالعبودية.. حتى لا تتسلط الشياطين على هذه الأرض، ليحولوها ماخورا من مواخير الرذيلة.

التفت إلى دوج، وقال: أخبرني عن جنود الحضارة.. ماذا فعلوا بسيوفهم وبنادقهم ومدافعهم وأسلحتهم التي تنشر الدمار في كل مكان!؟

إن كنت لا تعرف الإجابة، فاذهب إلى كل مكان وطئه الاستعمار لترى الإرهاب الحقيقي..

أمن المنطق أن تعتبر الذي يحمل السلاح ليدافع به عن نفسه وعن حريته وعن دينه وعن المستضعفين إرهابيا، ولا تعتبر المعتدي الظالم إرهابيا.. إن هذا المنطق لا يمكن أن يحمله إنسان يحترم عقله وإنسانيته.

سكت دوج، فقال الحكيم: لقد أنزل الله تعالى في ذلك الظرف الخطير قوله:﴿ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة:١٩٠: ١٩٣)

لقد نزلت هذه الآيات بعد وقعة سرية عبد الله بن جحش في شهر شعبان سنة ٢ هـــ..

قاطعه دوج، وقال: أرأيتم.. ها هو الإسلام يتبدل كما تتبدل الحرباء.. ففي مكة حاول أن يظهر بمظهر المسالم اللطيف.. وحاول محمد حينها أن يتقمص شخص المسيح.. ولكنه ما إن وجد العصابة التي تلتف حوله حتى راح يتخلى عن جميع مبادئه، ليظهر بصورته الحقيقية[1].

ابتسم الحكيم، وتوجه له قائلا: هل ترى من العقل أن تلبس معطف الشتوي الذي يلبسه أهل القطب الشمالي في الصيف.. وفي صحراء إفريقيا.

ضحكت الجماعة، فقال الحكيم: لو فعلت ذلك أو فعله أحد من الناس لا شك أنه يرمى بالجنون..

قال دوج: ما الذي تقصد بهذا؟

قال الحكيم: لا شك أن كل عقل يلبس لكل حالة لبوسها.. فما يصح لبسه في الصيف لا يصح لبسه في الشتاء.. وما يصح في ألاسكا لا يصح في الكاميرون.

قال دوج: فهمت.. أنت تريد أن المدينة ليس مكة.

قال الحكيم: المدينة ومكة كلها بلاد الله.. ولكن الظروف المختلفة.. والعقول المختلفة هي التي تملي على العاقل التصرفات المناسبة..

هل ترى من الحكمة أن يزج محمد بكل من يتبعه بصدق في الهاوية!؟

---

(١) من المؤسف أن نجد مثل هذه الشبهة مما يملأ الكتب والمواقع التبشيرية، بل يقوله ناس لهم حظ كبير من القداسة في مجتمعاتهم.. ولسنا ندري بأي عقل يفكر هؤلاء.

وهل ترى من العقل أن يقبل محمد أن يوضع أتباعه في مثل تلك الأخاديد التي وضع فيها المسيحيون الذي صدقوا في اتباعهم للمسيح!؟

إن الإسلام لو قبل ذلك لكان دين موت لا دين حياة.. فلذلك أمر أتباعه بأن يحملوا السلاح.. ولكن يحملوه بحقه.. وحقه أن لا يعتدوا به على الناس.. بل يكتفوا بتوجيهه لمن يريد أن يقضي عليهم أو يقضي على دينهم أو يقضي على حقوق المستضعفين الذين وكل المسلمون بحمايتهم.

غزوة بدر:

سكت دوج، فقالت الجماعة: حدثنا عن سيف آخر.. من السيوف التي استعملها محمد ضد أعدائه.

أشار الحكيم ــ ساخرا ــ إلى سيف من السيوف، وقال: لست أدري.. ربما كان أخونا.. هذا الفنان المبدع.. يريد بهذا السيف غزوة بدر.. فإن كان يريدها.. فسأحدثكم عنها.. فإن في أحاديثها ما ينسخ تلك الوساوس التي تملأ بها الشياطين عقول من ألغوا عقولهم.

أما سبب هذه الغزوة، فقد ذكرنا في حديثنا عن غزوة ذي العشيرة أن عيراً لقريش أفلتت من النبي ﷺ في ذهابها من مكة إلى الشام، فلما قرب رجوعها من الشام إلى مكة بعث رسول الله ﷺ طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى الشمال ليقوما باكتشاف خبرها، فوصلا إلى الحوراء، ومكثا حتى مر بهما أبو سفيان بالعير، فأسرعا إلى المدينة وأخبرا رسول الله ﷺ الخبر.

التفت دوج إلى الجمع ضاحكا، وقال: هذا عقل محارب.. وتفكير محارب.. لا تفكير نبي!؟

قال الحكيم: صدقت في الأولى.. ولم تصدق في الثانية.. لقد كان لمحمد ﷺ من العبقرية في القيادة ما يدل على أنه ليس بشرا عاديا.. ولكن ذلك ــ عند العقلاء ــ لا يلغي دعوى النبوة، بل يؤيدها ويقويها..

إن السبب الذي جعلكم لا تقبلون هذا النوع من التفكير هو تصوركم الحقير للدين ولرب الدين وللمتدين.. فأنتم لا ترونه إلا بصورة المتماوت الميت الذي لا يفعل في حياته إلا أن يدير خده الأيسر لمن يضربه على خده الأيمن..

أما المفهوم الذي جاءنا به الإسلام، فهو يختلف عن ذلك تماما..

الإسلام جاءنا بالقوة بجميع معانيها.. قوة النفس، وقوة الروح، وقوة الاتصال بالله، وقوة الحفاظ على حقوق عباد الله.. وغيرها من القوى القوى الكثيرة التي تجعل المؤمن إنسانا إيجابيا لا سلبيا.. فاعلا لا مفعولا.. صانعا للظروف لا خاضعا لها.

سكت دوج، فقالت الجماعة: عد بنا إلى بدر.. فإنك قد شوقتنا إليها.

قال الحكيم: لقد كانت تلك العير التي أراد المسلمون أن يلاقوها تحمل ثروات طائلة لكبار أهل مكة ورؤسائها.. فهي تحمل ألف بعير موقرة بأموال لا تقل عن خمسين ألف دينار ذهبي.. ولم يكن معها من رجال الحرب إلا نحو أربعين رجلا.

لقد كانت هذه فرصة ذهبية للمسلمين، ليستردوا بعض حقوقهم التي سلبهم إياها أهل مكة.. وهي كذلك فرصة ذهبية للمسلمين ليفرضوا بها وجودهم في تلك الغابة التي تمتلئ بالذئاب.

في ذلك الحين نادى رسول الله ﷺ في أصحابه قائلا: (هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها)

وقد ترك رسول الله ﷺ لهم مطلق الحرية في الخروج.. فلم يعزم على أحد بالخروج، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة، وذلك لأنه لم يكن يتوقع عند هذا الانتداب أنه سيصطدم بجيش مكة ـــ بدل العير ـــ ذلك الاصطدام العنيف في بدر[1].

ولذلك تخلف كثير من الصحابة في المدينة، وهم يحسبون أن مضى رسول الله ﷺ في هذا الوجه لن يعدو ما ألفوه في السرايا والغزوات الماضية؛ ولذلك لم ينكر رسول الله ﷺ على أحد تخلفه في هذه الغروة.

واستعد رسول الله ﷺ للخروج ومعه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً[2].. ولم يحتفلوا لهذا الخروج احتفالا بليغا، ولا اتخذوا أهبتهم كاملة، فلم يكن معهم إلا فرس أو فرسان[3]، وكان معهم سبعون بعيرا يعتقب الرجلان والثلاثة على بعير واحد، وكان رسول الله ﷺ وعلي ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيراً واحد[4].

---

(١) عندما بلغ أبا سفيان خبر مسير النبي ﷺ بأصحابه من المدينة بقصد اعتراض قافلته واحتوائها، بادر إلى تحول مسارها إلى طريق الساحل، وفي نفس الوقت أرسل عمرو بن ضمضم الغفاري إلى قريش يستنفرها لإنقاذ قافلتها وأموالها، فقد كان أبو سفيان يقظًا حذرًا، يتلقط أخبار المسلمين ويسأل عن تحركاتهم، بل يتحسس أخبارهم بنفسه، فقد تقدم إلى بدر بنفسه، وسأل من كان هناك: (هل رأيتم من أحد؟) قالوا: لا. إلا رجلين قال: (أروني مناخ ركابهما، فأروه، فأخذ البعر ففته فإذا هو فيه النوى، فقال: هذا والله علائف يثرب)

وقد كان وقع خبر القافلة شديدًا على قريش، التي اشتاط زعماؤها غضبًا لما يرونه من امتهان للكرامة، وتعريض للمصالح الاقتصادية للأخطار إلى جانب ما ينجم عن ذلك من انحطاط لمكانة قريش بين القبائل العربية الأخرى؛ ولذلك فقد سعوا إلى الخروج لمجابهة الأمر بأقصى طاقاتهم القتالية.

وقد جاءهم عمرو بن ضمضم الغفاري بصورة مثيرة جدًا يتأثر بها كل من رآها، أو سمع بها، إذ جاءهم وقد حول رحله وجدع أنف بعيره، وشق قميصه من قُبُل ومن دُبُر، ودخل مكة وهو ينادي بأعلى صوته: يا معشر قريش: اللطيمة، اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث.

وعندما أمن أبو سفيان على سلامة القافلة أرسل إلى زعماء قريش وهو بالجحفة برسالة أخبرهم فيها بنجاته والقافلة، وطلب منهم العودة إلى مكة، وذلك ما أدى إلى حصول انقسام حاد في آراء زعماء قريش، فقد أصر أغلبهم على التقدم نحو بدر من أجل تأديب المسلمين وتأمين سلامة طريق التجارة القرشية، وإشعار القبائل العربية الأخرى بمدى قوة قريش وسلطانها، وقد انشق بنو زهرة، وتخلف في الأصل بنو عدي. فعاد بنو زهرة إلى مكة، أما غالبية قوات قريش وأحلافهم فقد تقدمت حتى وصلت بدرًا (انظر تفاصيل هذا في: السيرة النبوية لابن هشام:٢/٢٢١)

(٢) حصل خلاف بين المصادر الصحيحة حول عدد الصحابة الذين رافقوا النبي ﷺ في غزوته هذه إلى بدر، ففي حين جعلهم البخاري «بضعة عشر وثلاثمائة» يذكر مسلم بأنهم ثلاثمائة وتسعة عشرة رجلا، في حين ذكرت المصادر أسماء ثلاثمائة وأربعين من الصحابة البدريين، وكانت قوات المسلمين في بدر لا تمثل القدرة العسكرية القصوى للدولة الإسلامية، ذلك أنهم إنما خرجوا لاعتراض قافلة واحتوائها..

(٣) فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقداد بن الأسود الكندي.

(٤) استخلف رسول الله ﷺ على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم، فلما كان بالروحاء رد أبا لبابة ابن عبد المنذر، واستعمله على المدينة.

ودفع رسول الله ﷺ لواء القيادة العامة إلى مصعب بن عمير القرشي العبدري، وكان هذا اللواء أبيض.

وقسم جيشه إلى كتيبتين:

أما الكتيبة الأولى فكتيبة المهاجرين، وأعطى رايتها علي بن أبي طالب، ويقال لها: العقاب.

في طريقهم إلى بدر.. وبعد أن علم المسلمون ما ينتظرهم من بأس قريش.. التحق أحد المشركين راغبًا بالقتال مع قومه، فرده الرسول ﷺ، وقال: (ارجع فلن أستعين بمشرك)، وكرر الرجل المحاولة، فرفض الرسول ﷺ مع حاجته الشديدة، حتى أسلم الرجل والتحق بالمسلمين.

قال دوج: أليست هذه عنصرية؟

قال الحكيم: لا.. هذا من حرص رسول الله على صفاء الدين.. فلم يكن يهمه الانتصار بقدر ما يهمه نوع الانتصار.

قال دوج: وهل للانتصار أنواع؟

قال الحكيم: لقد علمنا ديننا أن كل انتصار لا يكون شريفا هزيمة.. ولذلك، فإن هذا المشرك قد يشوه صورة انتصار المسلمين حين يتخلق في الحرب بأخلاق المشركين لا بأخلاق المسلمين.

قال دوج: وما علاقة الأخلاق بالحرب؟

قال الحكيم: كل شيء في ديننا له علاقة بالخلق، بل إن الخلق هو روحه التي يستمد منها حقيقته والجزاء المعد له.

قالت الجماعة: عد بنا إلى ما كنا فيه.

قال الحكيم: لقد مثل رسول الله ﷺ في هذه الغزوة مثال القائد الصادق المتواضع ليكون عبرة لكل قائد مسلم يسير على طريقه.. ومن ذلك ما رواه ابن مسعود قال: كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير، كان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله ﷺ قال: وكانت عقبة رسول الله، قال: فقالا: نحن نمشي عنك. فقال:(ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما)

ومن أخلاق القائد العظيمة التي تجلت في هذه الغزوة في رسول الله ﷺ كثرة استشارته لأصحابه [1]..

ومن ذلك أنه لما بلغ النبيَّ ﷺ نجاةُ القافلة وإصرار زعماء مكة على قتال النبي ﷺ استشار أصحابه في الأمر، فأبدى بعض الصحابة عدم ارتياحهم للمواجهة الحربية مع قريش، حيث إنهم لم يتوقعوا المواجهة و لم يستعدوا لها، ولذلك حاولوا إقناع الرسول ﷺ بوجهة نظرهم، وقد صور القرآن الكريم، موقفهم وأحوال الفئة المؤمنة في ذلك الحين، فقال:﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨)﴾ (الأنفال)

هنا انتفض دوج، وقال: أرأيتم.. كيف يزعم هذا الرجل أن محمدا محب للسلام، وها هو يختار القتال..

وأما الكتيبة الثانية، فكتيبة الأنصار، وأعطى رايتها سعد بن معاذ.

وجعل على قيادة الميمنة الزبير بن العوام، وعلى الميسرة المقداد بن عمرو– وكانا هما الفارسين الوحيدين في الجيش – كما سبق – وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة، وظلت القيادة العامة في يده ﷺكقائد أعلى للجيش.

(١) انظر فصل (استبداد) من هذا الجزء.

بل هو قرآنه يأتي ليأمر بالقتال؟

ابتسم الحكيم، وقال: أرأيت لو أن هذا الموقف وقفه أي زعيم من زعماء العالم الغيورين على أقوامهم.. ماذا ستراه يفعل؟

سكت دوج، فالتفت الحكيم إلى الجمع، وقال: فلنفرض أن عدوا من الأعداء داهم بلادنا هذه.. وفي نيته أن يستأصلنا من جذورنا.. ماذا سترى لزعيمنا المخلص أن يفعل.. هل يسلم بلاده ورقاب رعيته، أم أنه يحضهم على المقاومة؟

قال الجمع: خائن هو إن لم يدعهم إلى المقاومة.. وجبناء هم إن انتظروا حتى يأمرهم.

قال الحكيم: وهذا ما حصل مع المسلمين.. فالصادقون من المسلمين وأهل السبق منهم خصوصا لم يرتابوا في ضرورة مواجهة العدو..

وقد كان للمقداد بن الأسود في ذلك الموقف موقف لا ينساه له التاريخ.. لقد قال عبد الله بن مسعود عنه: شهدت من المقداد بن الأسود مشهدًا لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عُدلَ به.. أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى:﴿ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة: من الآية٢٤)، ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك. فرأيت الرسول ﷺ أشرق وجهه وسرَّه[١].

لكن الرسول ﷺ لم يكتف بقوله ذلك.. بل راح يقول:(أشيروا عليَّ أيها الناس).. وقد كان يقصد الأنصار بذلك؛ لأنهم غالبية جنده، ولأن بيعة العقبة الثانية لم تكن في ظاهرها ملزمة لهم بحماية الرسول ﷺ خارج المدينة.

وقد أدرك سعد بن معاذ، وهو حامل لواء الأنصار، مقصد النبي ﷺ من ذلك فنهض قائلاً: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟.. فقال ﷺ:(أجل)، فقال سعد: (لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله)[٢]

فلما قال سعد ذلك سُرَّ النبي ﷺ، وقال:(سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم)

بعد أن رأى النبي ﷺ مدى استعداد جنده للمقاومة والجهاد نظمهم كما ينظم كل قائد جنوده، وعقد اللواء الأبيض وسلَّمه إلى مصعب بن عمير، وأعطى رايتين سوداوين إلى سعد بن معاذ، وعلي بن أبي طالب، وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة.

ثم قام ومعه أبو بكر يستكشف أحوال جيش المشركين، وبينما هما يتجولان في تلك المنطقة لقيا شيخا من

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه مسلم.

العرب، فسأله رسول الله ﷺ عن جيش قريش، وعن محمد وأصحابه، وما بلغه ﷺ من أخبارهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما، فقال له رسول الله ﷺ:(إذا أخبرتنا أخبرناك)، فقال: أو ذاك بذاك؟ قال: نعم، فقال الشيخ: فإنه بلغني أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به جيش المسلمين، وبلغني أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي فيه جيش المشركين فعلاً، ثم قال الشيخ: لقد أخبرتكما عما أردتما، فأخبراني ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ:(نحن من ماء)، ثم انصرف النبي ﷺ وأبو بكر عن الشيخ، وبقي هذا الشيخ يقول: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟

ضحكت الجماعة، فاغتاظ دوج، وقال: ألا تعجبون من نبي يخادع؟

التفت له الحكيم، وقال: وهل تريد من محمد ﷺ أن ينشر إعلانا للمشركين عن جيشه وخطته ليضربوه كما يحلو لهم!؟.. إن أي حرب في الدنيا تستدعي أمرين كلاهما حرص عليه رسول الله ﷺ في كل غزواته:

تستدعي أولا التكتم الشديد حرصا على حياة الجيش وتحقيق الانتصار، وقد أرشد القرآن الكريم المسلمين إلى أهمية هذا، فقال:﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً) (النساء:٨٣)، وقد تحلى رسول الله ﷺ بصفة الكتمان في عامة غزواته، فعن كعب بن مالك قال: (ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها..)[1]

وتستدعي ثانيا التعرف على قدرات الخصم.. ليخطط للمعركة بحسبها، فقد كان من هدي النبي ﷺ في غزواته حرصه على معرفة جيش العدو والوقوف على أهدافه ومقاصده؛ لأن ذلك يعينه على رسم الخطط الحربية المناسبة لمجابهته وصد عدوانه [2].

لا أرى أن أحدا من العقلاء ينكر مثل هذا السلوك.. فإن أنكره فإن عقله ليس عقل محارب.. ولا ينبغي لمثل هذا أن يقود أمة تكتنفها أعداؤها.. فغن قادها لم يقدها إلا إلى حتفها.

التفت إلى الجمع، وقال: ومع ذلك، فإن رسول الله ﷺ في ذلك الموقف الذي يجوز فيه الكذب حرصا

---

(١) البخاري (٢/٢٩٤٧)

(٢) وقد تجلى هذا في غزوة بدر عبر مظاهر كثيرة منها:

١. سؤاله ﷺ الشيخ الذي لقيه في بدر عن محمد وجيشه، وعن قريش وجيشها.

٢. تورية الرسول ﷺ في إجابته عن سؤال الشيخ ممن أنتما؟ بقوله ﷺ: (نحن من ماء)، وهو جواب يقتضيه المقام، فقد أراد به ﷺ كتمان أخبار جيش المسلمين عن قريش.

٣. في انصرافه فور استجوابه نوع من الكتمان، وهو دليل على ما يتمتع به رسول الله ﷺ من الحكمة، فلو أنه أجاب هذا الشيخ ثم وقف عنده لكان هذا سببًا في طلب الشيخ بيان المقصود من قوله ﷺ: (من ماء)

٤. أمره ﷺ بقطع الأجراس من الإبل يوم بدر، فعن عائشة –رضي الله عنها– أن رسول الله ﷺ أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر.

٥– كتمانه ﷺ خبر الجهة التي يقصدها عندما أراد الخروج إلى بدر، حيث قال ﷺ: (.. إن لنا طلبةً فمن كان ظهره حاضرًا فليركب معنا..) رواه مسلم.

على مصلحة الجيش.. ولا أحد في جواز هذا النوع من الكذب.. ومع ذلك فإن رسول الله ﷺ اكتفى بالتعريض عن الكذب.. فالنبي يستحيل أن يكذب.

قالت الجماعة: عد بنا إلى ما كنا فيه.

قال الحكيم: في مساء ذلك اليوم الذي خرج فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر، أرسل ﷺ علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يتسقطون له الأخبار عن جيش قريش، فوجدوا غلامين يستقيان لجيش المشركين فأتوا بهما إلى رسول الله ﷺ، فقال لهما: (أخبراني عن جيش قريش) فقالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، فقال لهما رسول الله ﷺ: (كم القوم؟) قالا: كثير، قال: (ما عدتهم؟) قالا: لا ندري، قال الرسول ﷺ: (كم ينحرون كل يوم؟) قالا: يومًا تسعًا ويومًا عشرًا، فقال رسول الله ﷺ:(القوم ما بين التسعمائة والألف)، ثم قال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش؟ فذكرا عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا جهل وأمية بن خلف في آخرين من صناديد قريش، فأقبل رسول الله ﷺ إلى أصحابه قائلا: (هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها)[1]

قال رجل من الجماعة: إن سلوك هذا النبي يستدعي الإعجاب..

قال آخر: لكأن القيادة لم تخلق إلا له.

قال الحكيم: بعد أن جمع رسول الله ﷺ ما احتاج إليه من معلومات عن قوات قريش سار مسرعًا، ومعه أصحابه إلى بدر ليسبقوا المشركين إلى ماء بدر، ليَحُولوا بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل عند أدنى ماء من مياه بدر مكتفيا بذلك.

لكن بعض الصحابة.. هو الحباب بن المنذر.. رأى أن هناك مكانا آخر أهم من ذلك المكان، فذهب.. وهو الجندي البسيط.. إلى رسول الله ﷺ، وقال بأدب: يا رسول الله.. أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال ﷺ: (بل هو الرأي والحرب والمكيدة)، فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض يا رسول الله بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم ـــ أي جيش المشركين ـــ فننزله ونغور ـــ نخرب ـــ ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضًا، فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون.

فأعجب النبي ﷺ هذا الاقتراح، ونهض بالجيش إلى أقرب ماء من العدو فنزل عليه، ثم صنعوا الحياض وغوروا ما عداها من الآبار.

انتفض دوج، وقال: أليست هذه دناءة.. كيف يمنع المقاتلون من الماء؟

ابتسم الحكيم، وقال: حتى يصير الماء سببا لحياتهم.. وحياة المسلمين.. وسببا لتحقيق السلام الذي جاءوا لتهديمه.

قال دوج: كيف ذلك؟

قال الحكيم: أليسوا هم الذين قدموا للقتال عازمين على استئصال المسلمين؟

---

(١) ابن هشام (٢/٢٢٩)

قال دوج: بلى..

قال الحكيم: ففي إمكانهم أن يرجعوا إذن.. وفي عطشهم ما قد يجعلهم يرجعون، فيحفظوا حياتهم وحياة المسلمين.

قال دوج: ولكنهم لم يرجعوا.. أفيحرمون من الماء؟

قال الحكيم: أفتريد من رسول الله ﷺ أن يحضر لهم الطعام إذا جاعوا.. ثم يضمد جراحهم إذا جرحوا..

ضحك الجمع، فقال الحكيم: هذه حرب.. ومع أن الأخلاق هي التي تحكم حروب المسلمين.. فإن العاقل لا يرى في هذا أي مساس بالخلق النبيل العالي.. فهؤلاء الذين استفزهم الشيطان بما استفزهم به ينبغي أن يصرفوا بأي وسيلة.. ولو بتعريضهم للعطش.

نظر الحكيم إلى دوج، وقال: أتدري كيف كان هؤلاء الذين تدافع عنهم.. لقد وصف القرآن الكريم كيفية خروجهم، فقال:﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (لأنفال:٤٧)

ووصف المؤرخون بعض ذلك، فذكروا أن أبا جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر لنصرة العير، خرجوا بالقيان والمغنيات والمعازف، فلما وردوا الجحفة بعث خُفاف الكناني، وكان صديقا لأبي جهل، بهدايا إليه مع ابن عم له، وقال: إن شئت أمددتك بالرجال، وإن شئت أمددتك بنفسي مع ما خف من قومي، فقال أبو جهل: إنا كنا نقاتل الله كما يزعم محمد، فوالله ما لنا بالله من طاقة، وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة، والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدرًا فنشرب فيها الخمور، وتعزف علينا القيان، فإن بدرًا موسم من مواسم العرب، وسوق من أسواقهم، حتى تسمع العرب بمخرجنا؛ فتهابنا آخر الأبد[1].

وقد وصف القرآن الإصرار العظيم الذي قدم به المشركون لحرب رسول الله ﷺ متعصبين لما هم فيه من الباطل، فقال تعالى:﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ) (لأنفال:١٩)

ذكر عبد الله بن ثعلبة ـــ في تفسير هذه الآية ـــ أن أبا جهل قال حين التقى القوم في بدر:(اللهم أقطعُنا للرحم، وآتانا بما لا يعرف، فأحنه ـــ أي أهلكه ـــ الغداة، فكان المستفتح)[2]

وفي ذلك الجمع المستكبر لم يكن هناك بعض العقلاء.. ولكنهم غلبوا على أمرهم، فاستسلموا للطائشين من قومهم.. والذين أوردوهم المهالك.

حدث ابن عباس قال: (لما نزل المسلمون وأقبل المشركون، نظر رسول الله ﷺ إلى عتبة بن ربيعة وهو على جمل أحمر، فقال: (إن يكن عند أحد من القوم خير فهو عند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا) وهو يقول: يا قوم أطيعوني في هؤلاء القوم فإنكم إن فعلتم لن يزال ذلك في قلوبكم، ينظر كل رجل إلى قاتل أخيه وقاتل أبيه، فاجعلوا حقها برأسي وارجعوا، فقال أبو جهل: انتفخ والله سحره، حين رأى محمدًا وأصحابه، إنما

---

(١)انظر: تفسير القرطبي (٢٥/٨)

(٢) رواه أحمد.

محمد وأصحابه أكلة جزور لو قد التقينا. فقال عتبة: ستعلم من الجبان المفسد لقومه، أما والله إني لأرى قومًا يضربونكم ضربًا، أما ترون كأن رؤوسهم الأفاعي وكأن وجههم السيوف..)[1]

وقد حدث حكيم بن حزام عن يوم بدر، وكان في صفوف المشركين قبل إسلامه، فقال: خرجنا حتى نزلنا العدوة التي ذكرها الله عز وجل، فجئت عتبة بن ربيعة، فقلت: يا أبا الوليد، هل لك أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت؟

قال: أفعل ماذا؟ قلت: إنكم لا تطلبون من محمد إلا دم ابن الحضرمي[2]، وهو حليفك فتحمل ديته وترجع بالناس، فقال: أنت وذاك وأنا أتحمل ديته، واذهب إلى ابن الحنظلية ــ يعني أبا جهل ــ فقل له: هل لك أن ترجع اليوم بمن معك عن ابن عمك؟ فجئته فإذا هو في جماعة من بين يديه ومن ورائه، وإذا ابن الحضرمي واقف على رأسه وهو يقول: قد فسخت عقدي من عبد شمس، وعقدي إلى بني مخزوم، فقلت له: يقول لك عتبة بن ربيعة: هل لك أن ترجع اليوم عن ابن عمك بمن معك؟ قال: أما وجد رسولا غيرك؟ قلت: لا، ولم أكن لأكون رسولاً لغيره.

قال حكيم: فخرجت مبادرًا إلى عتبة، لئلا يفوتني من الخبر شيء، فهذا عتبة بن ربيعة وهو في القيادة من قريش لا يرى داعيًا لقتال محمد، وقد دعا قريش بترك محمد فإن كان صادقًا فيما يدعو إليه فعزه عز قريش وملكه ملكها، وستكون أسعد الناس به، وإن كان كاذبًا فسيذوب في العرب وتنهيه.

ولكن كبرياء الجاهلية حالت بينهم وبين اتخاذ القرار السليم مع أن كل واحد منهم كان يشعر في قرارة نفسه بمدى القدرة التي يحملها محمد ﷺ وأصحابه.

فهذا عمير بن وهب الجمحي أرسلته قريش ليحرز لهم أصحاب محمد، فاستجال حول العسكر، ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون، ولكن أمهلوني أنظر أللقوم كمين أو مدد، قال: فضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئًا، ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك، فُروا رأيكم.

وهذا أمية بن خلف رفض الخروج من مكة ابتداء خوفًا من الموت، فأتاه أبو جهل فقال: يا أبا صفوان إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك، فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذا غلبتني، فوالله لأشترين أجود بعير بمكة، ثم قال أمية: يا أم صفوان جهزيني. فقالت له: أبا صفوان وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟ تقصد سعد بن معاذ عندما قال له: سمعت رسول الله يقول: إنهم لقاتلوك، قال: لا، ما أريد أن أجوز معهم إلا قريبًا، فلما خرج أمية أخذ لا يترك منزلاً إلا عقل بعيره، فلم يزل بذلك حتى قتل ببدر.

قالت الجماعة: لقد شوقتنا.. فحدثتنا عن المعركة.. كيف بدأت، وإلام انتهت؟

قال الحكيم: بعد نزول النبي ﷺ والمسلمين معه على أدنى ماء بدر من المشركين ــ كما أشار الحباب ــ

---

(١) مجمع الزوائد (٦/٧٦) وقال: رواه البزار ورجاله ثقات.

(٢) وهو القتيل المذكور في سرية عبد الله بن جحش.

اقترح بعض الصحابة، وهو سعد بن معاذ على رسول الله ﷺ بناء عريش له يكون مقرًا لقيادته ويأمن فيه من العدو، وكان مما قاله في اقتراحه: (يا نبي الله ألا نبني لك عريشًا تكون فيه ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام، يا نبي الله، ما نحن بأشد لك حبًا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، ويناصحونك، ويجاهدون معك) فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له بخير، ثم بنى المسلمون العريش لرسول الله ﷺ على تل مشرف على ساحة القتال، وكان معه فيه أبو بكر، وكانت ثلة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ يحرسون عريش رسول الله [1]ﷺ.

قال دوج: ألا ترون إلى هذا الرجل كيف يتناقض فيما بينه وبين نفسه.. لقد زعم الساعة بأن محمدا لم يتميز في شيء عن أصحابه.. ولكنا نراه هنا يتميز بذلك العريش الذي خص به من دونهم.. فهم يخوضون المعركة بينما هو في عريشه.

قال الحكيم: لا ينبغي أن يتكلم في مثل هذه المسائل إلا من لهم علاقة بالقيادة والمعارك..

قال دوج: وهل لك علاقة بذلك؟

قال الحكيم: لا أزعم لنفسي ذلك.. ولكني أعلم أني إذا ما رأيت رأسي معرضا للأذى حميته بيدي.. فتجرح دونه.

قال دوج: كلنا نفعل ذلك.. فما فيه مما نحن فيه؟

قال الحكيم: إن القائد في المعركة هو رأس الجيش المفكر والمدبر والمنظم والآمر والناهي.. بالحفاظ عليه يحفظ الجيش، وبالتفريط فيه يتضرر جميع الجيش..

ولهذا قبل النبي ﷺ بالعريش.. وهو لم يقترحه ابتداء.. ولكنه رأى المصلحة فيه.

وهي مصلحة لا ترتبط بشخصه.. بل لا ترتبط بذلك الجيش فقط.. بل ترتبط بالدعوة الإسلامية جميعا..

بالإضافة إلى شيء هام قد لا تفطن له أنت.. وهو مكان رسول الله ﷺ من قلوب الصحابة وقلوب جميع محبيه.. فلذلك كان لحياته بينهم ونظره إليهم أثره العميق في انتصارهم..

ولذلك عمد المشركون في غزوة أحد إلى بث إشاعة مقتل رسول الله ﷺ ليؤثروا في أصحابة.

سكت قليلا، ثم قال: سأقص عليك من واقع هذه الغزوة قد تدلك على العاطفة العظيمة التي كانت تربط هذا القائد العظيم بجنده:

كان ﷺ في بدر يعدل الصفوف، ويقوم بتسويتها، وكان بيده سهم لا ريش له يعدل به الصف، فرأى رجلاً اسمه سواد بن غزية، وقد خرج من الصف، فطعنه ﷺ في بطنه، وقال له:(استوِ يا سواد) فقال: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال: (استقد) فاعتنقه فقبل بطنه، فقال: (ما حملك على هذا يا سواد) قال: يا رسول الله حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

---

(1) انظر: سيرة ابن هشام:٢/٢٣٣

قالت الجماعة: لا نشك فيما ذكرت.. وليس هناك قائد عاقل يرمي نفسه في أتون المعركة.. لأنه لا مصلحة له ولا لجيشه في ذلك.

قال الحكيم: ومع ذلك.. فقد كان رسول الله ﷺ يشارك في المعارك بكل ما أوتي من قوة.

قالت الجماعة: فحدثنا كيف بدأت المعركة.. وإلام انتهت [1]؟

قال الحكيم: لقد ابتكر الرسول ﷺ في قتاله مع المشركين يوم بدر أسلوبًا مهما في مقاتلة المعتدين يسمى بـ (نظام الصفوف)[2]

وهو تطبيق لقوله تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ (الصف:٤)

وصفة هذا الأسلوب: أن يكون المقاتلون على هيئة صفوف الصلاة، وتقل هذه الصفوف أو تكثر تبعًا لقلة المقاتلين أو كثرتهم.. فتكون الصفوف الأولى من أصحاب الرماح لصد هجمات الفرسان، وتكون الصفوف التي خلفها من أصحاب النبال، لتسديدها من المهاجمين على الأعداء.

وقد كان لهذا الأسلوب ثماره العظيمة.. فقد أثر في إرهاب الأعداء الذين هالهم ذلك النظام العجيب الذي لم يتعودوه.

بالإضافة إلى هذا، فقد جعل في يد رسول الله ﷺ قوة احتياطية عالج بها المواقف المفاجئة في صد هجوم معاكس، أو ضرب كمين غير متوقع، واستفاد منه في حماية الأجنحة من خطر المشاة والفرسان.

ويعد تطبيق هذا الأسلوب لأول مرة في غزوة بدر سبقًا عسكريًا تميزت به المدرسة العسكرية الإسلامية على غيرها[3].

وليس عنصر المفاجأة خاصا ببدر.. بل إن النبي ﷺ كان يباغت خصومه كل مرة بأسلوب قتالي جديد.. ليحقق الانتصار بأقل عدد من الخسائر.

قال رجل من القوم: أنا رجل لي علاقة بهذا الموضوع.. وما ذكرته صحيح.. بل إن ما ذكرته يجعلني ممتلئا بالإعجاب بشخص نبيكم..

أنا مسيحي.. نعم.. ولا أنكر ذلك.. ولكني في هذا المجال أسلم لمحمد أكثر من تسليمي للمسيح.. فلا ينبغي للقائد إلا أن يكون جندي ميدانه.. فيعرف كيف يحمي جنده والمبادئ التي يحملها جنده.. وإلا كان خائنا لهم.

قال الحكيم: بورك فيك.. وقد ذكر المؤرخون من أساليب رسول الله ﷺ في قيادة المعركة ما يدل على براعته العسكرية:

ومن ذلك أن رسول الله ﷺ اتبع أسلوب الدفاع، و لم يهاجم قوة قريش.. بل كانت توجيهاته التكتيكية التي نفذها جنوده بكل دقة سببًا في زعزعة مركز العدو، وإضعاف نفسيته، وبذلك تحقق النصر الحاسم بتوفيق

---

(١) ذكرنا في رسالة (معجزات حسية) ما يرتبط بهذه الغزوة وغيرها من الغزوات من الإمداد الإلهي، فصل (انتصارات)

(٢) القيادة العسكرية، د. محمد الرشيد ص٤٠١.

(٣) الرسول القائد، خطاب، ص١١١، ١١٦، ١١٧.

الله على العدو برغم تفوقه.

وكان ﷺ يتصرف في كل موقف حسب ما تدعو إليه المصلحة؛ وذلك لاختلاف مقتضيات الأحوال والظروف، وقد طبق الرسول ﷺ في الجانب العسكري أسلوب القيادة التوجيهية في مكانها الصحيح.

ومن ذلك أمره ﷺ الصحابة برمي الأعداء إذا اقتربوا منهم، فقال:(إن دنا القوم منكم فانضحوهم بالنبل).. وسر ذلك هو أن الرمي يكون أقرب إلى الإصابة في هذه الحالة.

ومن ذلك نهيه ﷺ عن سل السيوف إلى أن تتداخل الصفوف، قال ﷺ: (ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم)

ومن ذلك أمره ﷺ الصحابة بالاقتصاد في الرمي، قال ﷺ:(واسْتَبْقُوا نَبْلَكم)[1]

بالإضافة إلى ذلك كله، فإن النبي ﷺ لم يضيع أي فرصة يمكنه الاستفادة منها في كسب المعركة، فهو ﷺ لم يهمل حتى فرصة الاستفادة من الظروف الطبيعية أثناء قتال العدو، ومن ذلك ما فعله ﷺ قبل بدء القتال يوم بدر، يقول المقريزي: وأصبح ﷺ ببدر قبل أن تنزل قريش، فطلعت الشمس وهو يصفهم فاستقبل المغرب وجعل الشمس خلفه فاستقبلوا الشمس.

وهذا يدل على حسن تدبيره ﷺ واستفادته حتى من الظروف الطبيعية لما يحقق المصلحة لجيشه، وإنما فعل ذلك لأن الشمس إذا كانت في وجه المقاتل تسبب له عَشا البصر، فتقل مقاومته ومجابهته لعدوه.

قال دوج: لقد تخلى محمد إذن عن ربانيته ونبوته في هذه الغزوة ليلبس لباس القائد العسكري.

قال الحكيم: إن كل لباس يلبسه محمد ﷺ هو لباس ناتج عن نبوته.. فالنبوة لا تعني ما تتصوره من السلبية أو الأسطورية أو الارتباط المجرد بعالم الغيب.. النبوة أكمل من ذلك بكثير..

فالنبي هو الإنسان الذي أهله الله لأن يصير نموذجا للإنسان الكامل الذي يريده الله[2].

وبما أن من البشر قادة وجنودا.. فالله تعالى بحكمته يعرض النبي لهذه المواقف جميعا حتى يكون نموذجا تطبيقيا للكمال في هذه الجوانب.

سأذكر لك ما يدل على ربانية النبي وصدقه في ذلك الموقف العظيم..

لما قام رسول الله ﷺ بما يقوم به كل قائد من تنظيم الجيش، وإعطاء الأوامر، والتحريض على القتال، رجع إلى العريش يدعو ربه، ويناشده النصر الذي وعده، ويقول في دعائه: (اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تُعبد في الأرض أبدًا)

وبقي رسول الله ﷺ يدعو ويستغيث حتى سقط رداؤه، فأخذه أبو بكر ورده على منكبيه، وهو يقول: يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه منجز لك ما وعدك[3]، فأنزل الله تعالى في ذلك الموقف قوله:﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾(لأنفال: من الآية٩)

---

(١) رواه البخاري.

(٢) انظر التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في رسالة (النبي الإنسان) من هذه السلسلة.

(٣) رواه مسلم.

وفي رواية: قال النبي ﷺ يوم بدر: (اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد) فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك الله، فخرج ﷺ وهو يقول:﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (القمر:٤٥)[1]

وفي حديث آخر أنه ﷺ قال: (اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني)[2]

وبعد أن دعا ﷺ ربه في العريش، واستغاث به خرج من العريش، فأخذ قبضة من التراب، وحصَبَ بها وجوه المشركين وقال: (شاهت الوجوه)، ثم أمر ﷺ أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها، ففعلوا، فأوصل الله تعالى تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبقَ أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله.

لقد سجل القرآن الكريم تلك الرمية المباركة، فقال:﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾(لأنفال: من الآية١٧)

قال الجمع: لقد ملأت نفوسنا شوقا إلى أحاديث هذه الغزوة.. فأخبرنا كيف بدأت.. عسى لصاحبنا من الشبهات ما يريد إثارته عنها؟

سكت دوج، فقال الحكيم: لقد بدأت المعركة.. كما كانت تبدأ المعارك في ذلك الحين.. وقد كان البادئ في بدايتها هم المشركون.. ليخرس ذلك كل لسان يزعم أن محمدا ﷺ كان هو المعتدي..

لقد ذكر المؤرخون بأسانيدهم التي لا ترد أن أفرادا من جيش المشركين هم عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة، وابنه الوليد قاموا في وجه المسلمين يطلبون منهم المبارزة.

التفت إلى دوج، وقال: ما رأيك في هذا الموقف الذي بدأت هذه الغزوة التي تتخذونها سخريا.. هل ترون من الحكمة أو من العقل أو من السلام أن يجبن المسلمون، ويستسلموا لعدوهم ليملوا عليهم بعد ذلك من شروط.. أو ترون من الحكمة أن يخرجوا لهم؟

سكت دوج، فقالت الجماعة: إن هذا لا يجادل فيه عاقل.. فحدثنا ماذا فعل المسلمون؟

قال الحكيم: حين قال المشركون ذلك يتحدون المسلمين خرج إليهم ثلاثة من الأنصار.. لكن الرسول ﷺ أرجعهم؛ لأنه أحب أن يبارزهم بعض أهله وذوي قرباه، ليكون أول المضحين عن هذه الدعوة قرابة رسول الله ﷺ وآل بيته.. لقد أشار رسول الله ﷺ إلى بعض أهله، فقال: (قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي)

فبارز حمزة شيبة فقتله، وبارز علي الوليد وقتله، وبارز عبيدة بن الحارث عتبة فضرب كل واحد منهما الآخر بضربة موجعة، فكر حمزة وعليٌّ على عتبة فقتلاه، وحملا عبيدة وأتيا به إلى رسول الله ﷺ، ولكن ما لبث أن استُشهد متأثرا من جراحته وقد قال عنه ﷺ: (أشهد أنك شهيد)

وبذلك يكون أول شهيد في هذه المعركة من أهل رسول الله وقرابته حتى يخرس كل لسان..

لقد نزل في هؤلاء الستة قرآن جاء فيه:﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه ابن إسحق.

ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢)﴾ (الحج)

هذه بداية المعركة.. وأنتم ترون أنها انطلقت من جيش المشركين..

وهكذا استمرت.. فعندما شاهد المشركون قتل الثلاثة الذين خرجوا للمبارزة استشاطوا غضبًا وهجموا على المسلمين هجومًا عامًا، صمد له المسلمون، وهم واقفون موقف الدفاع، يكتفون برميهم بالنبل كما أمرهم النبي ﷺ، وكان شعار المسلمين: أَحَد أَحَد.

ثم أمرهم النبي ﷺ بالهجوم المضاد محرضًا لهم على القتال وقائلا لهم: (شدوا) وواعدًا من يقتل صابرًا محتسبًا بأن له الجنة.

قال الجمع: هذه بداية المعركة.. فكيف كانت نهايتها؟

قال الحكيم: لقد أنجز الله وعده، فغلبت الفئة القليلة المستضعفة الفئة الكثيرة المستكبرة.. وكان قتلى المشركين سبعين رجلا، وأسر منهم سبعون، وكان أكثرهم من قادة قريش وزعمائهم، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا، منهم ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار.

ولما تم الفتح وانهزم المشركون أرسل ﷺ عبد الله بن رواحة وزيدا بن حارثة ليبشرا المسلمين في المدينة بنصر الله للمسلمين وهزيمة المشركين.

وكان من حكمة رسول الله ﷺ في هذه المعركة كحكمته في سائر المعارك أنه بقي في موقع المعركة ثلاثة أيام، فعن أنس أنه ﷺ كان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال.

وفي ذلك الموقف قام رسول الله ﷺ بدفن قتلى المشركين، ثم وقف يخاطبهم، ويقول: (بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس)

ثم خاطبهم يسميهم قائلا: (يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا فلان، ويا فلان، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا فإني وجدت ما وعدني ربي حقًا)، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله! ما تخاطب من أقوام قد جيفوا؟ فقال: (والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون الجواب)[1]

غزوة بني سليم:

التفت الحكيم إلى دوج، وقال: هذا هو سيف بدر الذي ملأتم الدنيا بسببه ضجيجا.. هل يملك أحد في تاريخه معركة أشرف من هذه المعركة؟.. وهل يملك أحد من الأسباب أشرف من تلك الأسباب التي خاض بها المسلمون هذه المعركة؟

سكت دوج، فأشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: سننتقل إلى سيف آخر.. وهو سيف يسميه المؤرخون (غزوة بني سُلَيم)

قال دوج: ألم يكتف محمد بانتصاره.. وبالهيبة التي كان يبحث عنها.. حتى يعود إلى إشهار سيفه من

---

(١) رواه البخاري.

جديد؟

قال الحكيم: ما كان لنبي أن يدع سيفه قبل أن يأمره الله بذلك.. إن النبي صاحب رسالة.. وصاحب مبدأ.. ولا راحة له إلا بتأدية ما كلف به.

ولذلك، فإن النبي ﷺ.. وهو رسول الله المعصوم.. لم يغتر بالنصر الذي نصره الله به.. فلذلك بقي يرسل استخباراته لتخبره ما يكيد له الأعداء..

وكان أول ما نقلت استخبارات المدينة إلى النبي ﷺ بعد بدر أن بني سليم وبني غَطَفَان تحشد قواها لغزو المدينة، فلذلك استفاد ﷺ من عنصر المفاجأة، فباغتهم في مائتي راكب في عقر دراهم، وبلغ إلى منازلهم في موضع، يقال له: الكُدْر. ففر بنو سليم، وتركوا في الوادي خمسمائة بعير استولى عليها جيش المدينة، وقسمها رسول الله ﷺ بعد إخراج الخمس، فأصاب كل رجل بعيرين، وأصاب غلاما يقال له: (يسار) فأعتقه.

وأقام النبي ﷺفي ديارهم ثلاثة أيام، ثم رجع إلى المدينة.

وكانت هذه الغزوة في شوال سنة ٢ هـ بعد الرجوع من بدر بسبعة أيام.

قال دوج: إن هؤلاء بدو.. وليسوا من أعدائه من قريش.. فما الذي جعله يلتفت لهم!؟

قال الحكيم: التفافهم له هو الذي جعله يلتفت لهم.. ومكايدهم له هي التي جعلته يكيد لهم..

لقد كانت معركة بدر أول لقاء مسلح بين المسلمين والمشركين، وكانت معركة فاصلة أكسبت المسلمين نصراً حاسماً شهد له العرب قاطبة.. ولكنها كانت في نفس الوقت مثار سخط من كثيرين:

أولهم المشركون الذين منوا بخسائر فادحة مباشرة.. ويليهم اليهود الذين كانوا يرون عزة المسلمين وغلبتهم ضرباً قاصماً على كيانهم الديني والاقتصادي.. ويليهم المنافقون الذين اشتد خوفهم من انتصار هذا الدين الذي يمتلئون له بغضا.

وكان رابع هؤلاء البدو الضاربون حول المدينة، والذين ورد ذكرهم في قوله تعالى:﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ) (التوبة:١٠١).. وهؤلاء كانوا أصحاب سلب ونهب، فاستبد بهم القلق، واضطربوا لهذا الانتصار، وخافوا أن تقوم في المدينة دولة قوية تحول بينهم وبين اكتساب قوتهم عن طريق السلب والنهب، فجعلوا يحقدون على المسلمين .

أنت ترى أن الانتصار في بدر كما كان سبباً لشوكة المسلمين وعزهم وكرامتهم كان سبباً لحقد جهات متعددة، وكان للحكيم العاقل أن يلبس لكل حالة لبوسها.

غزوة السويق:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: هذا سيف يشير إلى غزوة السويق.. ويسرني أن أحدثكم.. فليس في حياة نبينا ما يستحيا من ذكره.

كان سبب هذه الغزوة أن أبا سفيان قدم بمائتي فرس من مكة، وسلك طريق النجدية حتى نزلوا حي بني النضير، وهم من اليهود ليلا، واستقبلهم سلام بن مشكم سيد بني النضير، فأطعمهم وسقاهم، وكشف لهم عن

أسرار المسلمين، وتدارس معهم إحدى الطرق لإيقاع الأذى بالمسلمين.

و لم يكن ذلك وحده ما فعله أبو سفيان.. بل قام بمهاجمة ناحية العُريض، وهو وادٍ بالمدينة في طرف حرة واقم، فقتل رجلين وأحرق نخلاً وفر عائدًا إلى مكة.

وأنت تعلم أن رسول الله ﷺ يشعر بمسؤوليته على الرعية التي وكلت إليه حمايتها، فلذلك تعقبه رسول الله ﷺ في مائتي رجل من المهاجرين والأنصار.

لكنه لم يتمكن من إدراكهم؛ لأن أبا سفيان ورجاله قد جدوا في الهرب، وجعلوا يتخففون من أثقالهم، ويلقون السويق[1] التي كان يحملونها لغذائهم، وكان المسلمون يمرون بهذه الجرب فيأخذونها، حتى رجعوا بسويق كثير، لذا سميت هذه الغزوة بغزوة السويق، وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أن غاب عنها خمسة أيام دون أن يلقى حربا[2].

قهقه دوج بصوت عال، وقال: ألم يكفهم ما غنموه من السويق؟

قال الحكيم: ومع ذلك لا يستحي قومك.. فيضعون هذه الغزوة التي سد فيها المسلمون بعض جوعهم في نفس الخانة التي يضعون فيها حروبهم الطاحنة التي تقتل العباد، وتحرق البلاد.

غزوة ذي أمر:

سكت دوج، فنظر الحكيم إلى سيف آخر، وقال: هذا سيف يشير به فناننا المبدع إلى غزوة ذي أمر.. وما أدراك ما غزوة ذي أمر[3]؟

قالوا: فحدثنا عنها..

قال الحكيم: لقد جاءت الأخبار من قِبَل الرجال الذين جعلهم رسول الله ﷺ عيونا تحفظ المدينة.. بأن رجال قبيلتي ثعلبة ومحارب تجمعوا بذي أمر بقيادة دُعثور بن الحارث المحاربي، يريدون حرب رسول الله ﷺ، والإغارة على المدينة، فاستعمل النبي ﷺ على المدينة عثمان بن عفان، وخرج في أربعمائة وخمسين من المسلمين بين راكب وراجل، فأصابوا رجلا بذي القصة يقال له جبار من بني ثعلبة، كان يحمل أخبارًا عن قومه أسرَّ بها إلى رسول الله ﷺ، وقد دخل في الإسلام وانضم إلى بلال ليتفقه في الدين.

أما المشركون من بني ثعلبة ومحارب، فما لبثوا أن فروا إلى رؤوس الجبال عند سماعهم بمسير المسلمين، وبقي رسول الله ﷺ في نجد مدة تقارب الشهر دون أن يلقى كيدًا من أحد وعاد بعدها إلى المدينة.

وفي هذه الغزوة أسلم دعثور بن الحارث الذي كان سيدًا مطاعًا بعد أن حدثت له معجزة على يدي رسول الله ﷺ، فقد أصاب المسلمين في هذه الغزوة مطرٌ كثيرٌ فابتلت ثياب رسول الله ﷺ فنزل تحت شجرة ونشر ثيابه لتجف، واستطاع دُعثور أن ينفرد برسول الله ﷺ بسيفه، فقال: يا محمد من يمنعك مني اليوم؟ قال:

---

(١) السويق: هو أن تحمص الحنطة والشعير ثم يطحن باللبن والعسل والسمن.

(٢) انظر: السيرة لابن هشام (٥١/٣)

(٣) وهي أكبر حملة عسكرية قادها رسول الله ﷺقبل معركة أحد، قادها في المحرم سنة ٣ هـــ.

(الله)، ودفع جبريل في صدره فوقع السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ فقال: (من يمنعك مني) قال: لا أحد، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والله لا أكثر عليك جمعًا أبدًا، فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه، فلما رجع إلى أصحابه فقالوا: ويلك، ما لك؟ فقال: نظرت إلى رجل طويل فدفع صدري فوقعت لظهري، فعرفت أنه ملك، وشهدت أن محمدًا رسول الله، والله لا أكثر عليه جمعًا، وجعل يدعو قومه إلى الإسلام[1].

وقد نزل في شأن هذه الغزوة قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (المائدة:١١)

التفت الحكيم إلى دوج، وقال: ألا ترى كيف كان للرعب تأثيره النفسي في حفظ هذه القبيلة التي قصدها رسول الله ﷺ.. فلولا انتصارات رسول الله ﷺ السابقة لغامر هؤلاء بأنفسهم.. ولكن القوة التي تمتع بها المسلمون هي التي حفظتهم.

ثم ألا ترى في موقف رسول الله ﷺ من هذا الذي يريد قتلك ما يدلك على نبوته.

تغيرت لهجة الحكيم فجأة، وقال مخاطبا دوج بقوة: هل ترى أن هذا الرجل الذي حصل منه كل هذا بشرا عاديا!؟

هل ترى من هذا الرجل العظيم الذي يهب عند كل حاجة ليحمي المسلمين بنفسه رجلا ظالما قاتلا مستبدا إرهابيا؟

سكت دوج، فقال الحكيم: لو بحثت في جميع قادة الدنيا.. فلن تجد قائدا له هذه الروح.. وهذه الأخلاق.. وهذا الإيمان.

غزوة بحران:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: هذا السيف يشير به فناننا المبدع إلى غزوة بحران.. وقد وقعت هذه الغزوة في شهر جمادى الأولى من السنة الثالثة للهجرة، وقد خرج النبي ﷺ في ثلاثمائة من المسلمين حتى بلغ بحران بين مكة والمدينة يريد قتال بني سليم، فوجدهم قد تفرقوا، فانصرف عنهم، وعاد إلى المدينة بعد أن أمضى خارجها عشر ليال.

قال دوج: أنا لا أرى سببا لهذه الغزوة، ولهذا فهي نوع من الإرهاب.

قال الحكيم: إذا أردت بالإرهاب بث الرعب في الظالم حتى لا يظلم، وفي السارق حتى لا يسرق، وفي المعتدي حتى لا تحترق نفسه، ويحرق غيره بنيران العداوة، فذلك صحيح.. فإن محمدا ﷺ كان بين قوم ممتلئين بقيم الاعتداء.. ولم يكن يردعهم إلا قوة تردهم إلى رشدهم.

سرية القُردة:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل فناننا المبدع يشير بهذا السيف إلى سرية القردة..

وسبب هذه الغزوة أن قريشا لما تيقنت أن طريق الشام من جهة المدينة قد أُغلق في وجه تجارتها، ولا

---

(١) انظر هذه القصة وغيرها مما يشبهها من حماية الله لنبيه ﷺ في رسالة (معجزات حسية) من هذه السلسلة.

يمكنهم الصبر عنها لأن بها حياتهم، أرسلوا عِيراً إلى الشام من طريق العراق، وكان فيها جمع من قريش منهم أبو سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزى، فجاءت أخبارهم لرسول الله ﷺ، فأرسل لهم زيدبن حارثة في مائة راكب يترقبونهم، وكان ذلك في جمادى الآخرة، فسارت السرية حتى لقيت العِير على ماء اسمه القَرْدَة بناحية نجد، فأخذت العِير وما فيها، وهرب الرجال، وقد خمَّس الرسول ﷺ هذه الغنائم ـــ التي بلغت قيمتها مائة ألف درهم ـــ حينما وصلت له.

التفت إلى الحكيم، وقال: أنت ترى أن أكثر هذه الغزوات يمر بدون أي ضحايا، فكيف تشير إليها بالسيوف.

قال دوج:ولكنها نهبت أموالا.

قال الحكيم: لقد كانت تلك الأموال أحد أمرين: إما حقوق مضاعة من حقوق المسلمين أكلها المشركون، فهم يدعونها عبر هذه السرايا.

وإما ردع للمشركين عن عدوانهم.

ثم أضيف لك شيئا مهما قد تكون غفلت عنه.. كما غفل عنه الكثير، وهو أن المشركين كان في إمكانهم أن يوقفوا هذه السرايا، وأن يأمنوا على نفوسهم وقوافلهم لو أرادوا.. ولكنهم لم يريدوا.

قال دوج: تقصد إسلامهم!؟

قال الحكيم: بل أقصد إقامتهم لهدنة أو صلح بينهم وبين المسلمين.. لقد كان في إمكانهم ذلك.. وسيجدون رسول الله ﷺ يقبل ذلك .. ولكنهم لم يفعلوا.. فكانوا بذلك هم المعتدين.

قال دوج: ومن أخبرك بأن محمدا سيقبل لو عرضوا عليه ذلك؟

قال الحكيم: لقد عرضوا عليه ذلك.. وبشروط مجحفة.. وفي وقت كان فيه أقوى من هذه الفترة.. ومع ذلك قبل رسول الله ﷺ حرصا على السلام.

غزوة بني قينقاع:

التفت الحكيم إلى دوج مشيرا إلى سيف من السيوف، وقال: ألست تقصد بهذا السيف غزوة بني قينقاع..!؟

لم ينتظر أن يجيبه، بل قال: نعم.. لا أظنك إلا تقصدها.. فإن كنت تقصدها، فهي أول غزوة ترتبط باليهود .. قتلة الأنبياء.. الذين امتلأتم لهم حبا واحتضانا مع اعتقادكم بأنهم قتلوا المسيح.. وليس ذلك إلا لسبب وحيد هو أنهم من أشد الناس لنا بغضا.. وكم يقرب البغض من أباعد.

قال الجمع: حدثنا عن هذه الغزوة.

قال الحكيم: ربما سمعتم ببنود المعاهدة[1] التي عقدها رسول الله ﷺ مع اليهود في أول مقدمه للمدينة، وقد

---

(١) هذه هي بنود المعاهد التي كانت بمثابة الدستور الذي نظم المجتمع الإسلامي الأول في المدينة المنورة، وسنعرض لتفاصيلها في محالها الخاصة بها من هذه السلسلة.

هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش (وأهل يثرب)، ومن تبعهم فَلَحق بهم وجاهد معهم.

إنهم أمة واحدة من دون الناس.
المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
وبنو الحارث (بن الخزرج) على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.
وبنو جُشَم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.
وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.
وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.
بنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.
وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.
وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحا بينهم أن يعطوه بالمعروف من فداء أو عقل، أن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.
وإن المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم.
ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن.
وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.
وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم.
وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم.
وإن كل غازية غزت يعقب على بعضها بعضا.
وإن المؤمنين يبيء(١) بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.
وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش، ولا نفساً ولا يحول دون على مؤمن.
وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول (بالعقل)، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.
وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يُؤويه، وإن من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.
وإنه مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد صلى الله عليه وسلم.
وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأَثِم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.
إن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.
وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.
وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.
وإن ليهود بن جُشَم مثل ما ليهود بني عوف.
وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.
وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يتوتغ إلا نفسه وأهل بيته.
وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.
وإن لبني الشُّطَيبة مثل ما ليهود بني عوف وإن البر دون الإثم.
وإن موالي ثعلبة كأنفسهم.
وإن بطانة يهود كأنفسهم.
وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم.

كان رسول الله ﷺ حريصاً فيها كل الحرص على تنفيذ ما جاء في هذه المعاهدة.

و لم يأت من المسلمين ما يخالف هذه المعاهدة في حرف من حروفها.. ولكن اليهود الذين ملأوا تاريخهم بالغدر والخيانة ونكث العهود، لم يلبثوا أن تمشوا مع طبائعهم القديمة، وأخذوا في طريق الدس والمؤامرة والتحريش وإثارة القلق والاضطراب في صفوف المسلمين.

ومن الأمثلة على ذلك أن شاس بن قيس ـــ وكان شيخاً يهودياً قد عسا، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم ـــ مر على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم، يتحدثون، فغاظه ما رأي من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قَيْلَةَ بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً من يهود كان معه، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بُعَاث وما كان من قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جَذَعَة ـــ يعني الاستعداد لإحياء الحرب الأهلية التي كانت بينهم ـــ وغضب الفريقان جميعاً، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة ـــ والظاهرة: الحَرَّة ـــ السلاح السلاح، فخرجوا إليها، وكادت تنشب الحرب.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال: (يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوي الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم)

وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه وإن النصر للمظلوم.

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.

وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مردَّه إلى الله، وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

وإن بينهم النصر على من دهم يثرب. [وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها]

وإذا دعوا إلى الصلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه أو يلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين.

ب–على كل أناس حقهم من جانبهم الذى قبلهم.

وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسبٌ إلا على نفسه، وإن الله على ما أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، إنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ.

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس.

ومن ذلك أنهم كانوا يبثون الدعايات الكاذبة، ويؤمنون وجه النهار، ثم يكفرون آخره؛ ليزرعوا بذور الشك في قلوب الضعفاء.

وكانوا يضيقون سبل المعيشة على من آمن إن كان لهم به ارتباط مالي، فإن كان لهم عليه يتقاضونه صباح مساء، وإن كان له عليهم يأكلونــه بالباطل، ويمتنعون عن أدائه، وكانوا يقولون: إنما كان علينا قرضك حينما كنت على دين آبائك، فأما إذ صبوت، فليس لك علينا من سبيل.

كانوا يفعلون كل ذلك قبل بدر على رغم المعاهدة التي عقدوها مع رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺوأصحابه يصبرون على كل ذلك؛ حرصاً على رشدهم، وعلى بسط الأمن والسلام في المنطقة.

لكنهم لما رأوا أن الله قد نصر المؤمنين نصراً مؤزراً في بدر، وأنهم قد صارت لهم عزة وشوكة وهيبة في قلوب الناس تميزت قدر غيظهم، وكاشفوا بالشر والعداوة، وجاهروا بالبغي والأذى.

وكان أعظمهم حقداً كعب بن الأشرف[1].. كما أن شر طائفة من طوائفهم الثلاث هم يهود بني قينقاع، كانوا يسكنون داخل المدينة ـــ في حي باسمهم ـــ وكانوا صاغة وحدادين وصناع الظروف والأواني، ولأجل هذه الحرف كانت قد توفرت لكل رجل منهم آلات الحرب، وكان عدد المقاتلين فيهم سبعمائة، وكانوا أشجع يهود المدينة، وكانوا أول من نكث العهد والميثاق من اليهود.

فلما فتح الله للمسلمين في بدر اشتد طغيانهم، وتوسعوا في تحرشاتهم واستفزازاتهم، فكانوا يثيرون الشغب، ويتعرضون بالسخرية، ويواجهون بالأذى كل من ورد سوقهم من المسلمين حتى أخذوا يتعرضون بنسائهم.

وعندما تفاقم أمرهم واشتد بغيهم، جمعهم رسول الله ﷺ، فوعظهم ودعاهم إلى الرشد والهدي، وحـــذرهم مغـــبة البغـــي والـــعدوان، ولكن ذلك لم يزدهم إلا شرا.

وقد صبر رسول الله ﷺ والمؤمنون إلى أن حصل منهم ما لا يمكن أن يصبر مؤمن عليه:

لقد حدث المؤرخون أن أن امرأة من العرب قدمت بجَلَب لها، فباعته في سوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فَعَمَد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ـــ وهي غافلة ـــ فلما قامت انكشفت، فضحكوا بها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ـــ وكان يهودياً ـــ فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع.

ولما وصل الأمر إلى هذه الدرجة خرج رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوه تحصنوا في حصونهم، فحاصرهم أشد الحصار، وكان ذلك يوم السبت للنصف من شوال سنة ٢ هـــ، ودام الحصار خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ في رقابهم وأموالهم ونسائهم وذريتهم، فأمر بهم رسول الله ﷺ فكتفوا.

(١) انظر قصته في فصل (استبداد) من هذه الرسالة.

وحينئذ قام عبد الله بن أبي بن سلول ــ وقد كان رسول الله ﷺ يعلم نفاقه ــ فألح على رسول الله ﷺ أن يصدر عنهم العفو، فقال: يا محمد، أحسن فـي موإلي ــ وكـان بنـو قينـقاع حلفـاء الخزرج ــ فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فكرر ابن أبي مقالته فأعرض عنه، فأدخل يده في جيب درعه، فقال له رسول اللّه ﷺ :(أرسلني)، وغضب حتى رأوا لوجهه ظُللاً، ثم قال: (ويحك، أرسلني)، ولكن المنافق مضى على إصراره وقال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة ؟ إني والله امرؤ أخشي الدوائر.

وعامل رسول الله ﷺ هذا المنافق ــ الذي لم يكن مضي على إظهار إسلامه إلا نحو شهر واحد فحسب ــ بالحسنى، فوهبهم له، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أذْرُعَات الشام.

وبهذه العقوبة الرادعة لاذت القبائل اليهودية بالصمت والهدوء فترة من الزمن..

قال دوج: ألا تعتبر هذا إرهابا؟

قال الحكيم: لا.. بل فعل بهم رسول الله عين العدل والحكمة والرحمة..

قال دوج: أي عدل وأي حكمة وأي رحمة هذه التي تتحدث عنها؟

قال الحكيم: أما العدل.. فإن كل مجرم لابد أن ينال عقوبته ليستتب الأمن.. وهؤلاء الذين لم يرحموا امرأة يمكن أن يصدر منهم أي شيء بعد ذلك.

قال دوج: والحكمة!؟

قال الحكيم: لولا أن رسول الله ﷺ تعامل بحزم مع هذه الأمور وأمثالها لما استطاع أن يؤسس ذلك المجتمع الفاضل الذي أسسه.. ولا استطاع أن ينشر تلك القيم الرفيعة التي نشرها.. فالحكمة تقتضي تقديم المصالح العليا على كل شيء.

قال دوج: والرحمة!؟

قال الحكيم: لقد رحمهم رسول الله ﷺ، فاكتفى بإخراجهم.. وكان يمكنه أن يفعل أكثر من ذلك.

غزوة أحد:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل فناننا المبدع يشير بهذا السيف إلى (غزوة أحد)

انتفض دوج فرحا، وقال: أجل.. تلك هي الغزوة التي انتقم الله فيها من محمد وأصحاب محمد.

ابتسم الحكيم، وقال: بل هي تلك الغزوة التي نصر الله فيها محمدا وأصحاب محمد[1]..

قال دوج: كيف تقول ذلك.. والكل يتفق على أن محمدا مني فيها بهزيمة أسقطت هيبته، وجعلته عرضة

([1]) نقل في السيرة الشامية عن القاضي عياض وغيره قولهم: إن من زعم أن النبي ﷺ هزم يستتاب، فإن تاب، وإلا قتل، ولا يجوز ذلك عليه، إذ هو على بصيرة من أمره، ويقين من عصمته، وفرقوا بينه وبين من قال: إنه جرح أو أوذي بأن الإخبار عن الأذى نقص لا يحسب عليه والإخبار بالانهزام نقص له ﷺ لأنه فعله، كما أن الأذى فعل المؤذي. (انظر: سبل الهدى: ٤٧/٧)

ونحن لم نذكر هذا ــ هنا ــ من باب الحكم الفقهي، فلا نرى صحة مثل هذا الحكم المشدد ــ ولكنا نقلناه من باب اتفاق علماء المسلمين المستبصرين على ما في غزوة أحد من النصر الذي كتبه الله لنبيه ﷺ.

لكل طامع!؟

قال الحكيم: وذلك بعض النصر الذي تحقق بهذه الغزوة.

قال دوج: إنك تحيرني.. أو أنك تتناقض مع نفسك..كيف يتحول طمع الأعداء فيك إلى نصر؟

قال الحكيم: عندما تتوفر لأعدائك الفرص لأن يظهروا طمعهم فيك.. ثم ينصرك الله عليهم يكون سبب نصرك الأول عليهم هو طمعهم فيك.. فلولا طمعهم ما تحقق نصرك.

قال دوج: لم أفهم ما الذي تقصد بالضبط.

قال الحكيم: بالنسبة لرسول الله ﷺ تحول ما يتصوره الناس هزيمة إلى نصر.. فالحكيم العاقل لا تتصرف فيه الظروف، بل هو الذي يتصرف فيها، وهو الذي يحولها بعد ذلك كما شاء[1].

قال دوج: لا أزال أنتظر دليلا على ذلك.

قال الحكيم: لا يمكنني أن أذكر لك ذلك إلا بعد أن يعرف الجمع أحداث هذه الغزوة وما تلاها ليستنتجوا بعد ذلك ما ذكرته لك من تحول الهزيمة إلى نصر.

قال الجمع: نعم.. ذلك صحيح.. فنحن نسمع بهذه الغزوة.. ولكنا لم نتشرف بعد بمعرفة تفاصيلها.

قال الحكيم: لقد كانت هذه الغزوة إفرازا من إفرازات الأحقاد التي كانت تمتلئ بها قلوب المشركين من قريش منذ أعلن رسول الله ﷺ دعوته فيهم، فقد قابلوا الإسلام منذ ابتدأ بالمواجهة.. لقد كانوا ينفقون أموالهم في الصد عن سبيل الله، وإقامة العقبات أمام الدعوة الإسلامية، ومنع الناس في الدخول في الإسلام، ثم بعد ذلك سعوا إلى القضاء على الإسلام والمسلمين ودولتهم الناشئة.

قال تعالى يصور جهودهم المتواصلة لاستئصال الإسلام:﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ) (لأنفال:٣٦)

وقد ازدادت هذه الأحقاد بعد هزيمتهم في غزوة بدر، ولذلك شرعوا في جمع المال لحرب رسول الله ﷺ بمجرد عودتهم من بدر، قال ابن إسحاق: (لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب، ورجع فُلهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بعيرهم فأوقفها بدار الندوة، وكذلك كانوا يصنعون، فلم يحركها ولا فرقها، فطابت أنفس أشرافهم أن يجهزوا منها جيشا لقتال رسول الله ﷺ، فمشى عبد الله بن ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام، وحويطب بن عبد العزى، وصفوان بن أمية في رجال ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان ومن كانت له في تلك العير تجارة من قريش، فقالوا: إن محمدًا قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منها، فقال أبو سفيان: أنا أول من أجاب إلى ذلك.

وبعد أن استكملت قريش قواها في شوال من السنة الثالثة من الهجرة، عبأت جيشها المكون من ثلاثة آلاف مقاتل، ومعها من تبعها من القبائل العربية المجاورة، خرجت لحرب رسول الله ﷺ مصطحبين معهم

---

(١) سنرى التفاصيل المرتبطة بهذا في رسالة (النبي الإنسان)من هذه السلسلة.. ونحن نحاول في إثبات نوع النصر في أحد الرد على الشبه الكثيرة المرتبطة بهذا والتي تمتلئ بها مواقع المبشرين.. والتي تستدل بالهزيمة على عدم صحة دعوى النبوة.

النساء والعبيد.

وقد سبقت هذه التعبئة حملة إعلامية ضخمة تولى كبرها أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي، وعمرو بن العاص، وهبيرة المخزومي، وابن الزِّبَعْرَى وقد حققت نتائج كبيرة، وبلغت النفقات الحربية لجيش قريش خمسين ألف دينار ذهبًا.

وقد علم رسول الله ﷺ بما تفعله قريش من استعدادها لحرب المسلمين.. وقد علم بذلك عن طريق عمه العباس الذي كان يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة إلى النبي ﷺ، ضمنها جميع تفاصيل الجيش،، وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة وجد في السير، حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة، التي تبلغ مساحتها خمسمائة كيلومتر، في ثلاثة أيام وسلم الرسالة إلى النبي ﷺ وهو في مسجد قباء.

لقد كان النبي ﷺ يتابع أخبار قريش بدقة بواسطة عمه العباس، قال ابن عبد البر: (وكان العباس يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ، وكان المسلمون يتقوون به بمكة، وكان يحب أن يقدم على رسول الله فكتب إليه رسول الله ﷺ: أن مقامك في مكة خير)[1]

وقد كانت المعلومات التي قدمها العباس لرسول الله ﷺ في غاية الدقة، فقد جاء في رسالته: (أن قريشًا قد أجمعت المسير إليك، فما كنت صانعًا إذا حلوا بك فاصنعه، وقد توجهوا إليك وهم ثلاثة آلاف وقادوا مائتي فرس وفيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير، وأوعبوا من السلاح)

ومع ذلك، فإن النبي ﷺ لم يكتف بمعلومات المخابرات المكية، بل حرص على أن تكون معلوماته عن هذا العدو متجددة مع تلاحق الزمن، ولذلك أرسل الحباب بن المنذر إلى قريش يستطلع الخبر، فدخل بين جيش مكة وحزر عَدَده وعُدَده ورجع، فسأله رسول الله ﷺ: (ما رأيت؟)، قال: رأيت ـــ أي رسول الله ـــ عددًا، حزرتهم ثلاثة آلاف يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا، والخيل مائتي فرس، ورأيت دروعًا ظاهرة حزرتها سبعمائة درع، قال:(هل رأيت ظعنًا؟) قال: رأيت النساء معهن الدفاف والأكبار[2].

فلما أخبره بذلك قال رسول الله ﷺ:(أردن أن يحرضن القوم ويذكرونهم قتلى بدر، هكذا جاءني خبرهم لا تذكر من شأنهم حرفًا، حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم بك أجول وبك أصول)[3]

كما أرسل ﷺ أنسًا ومؤنسًا ابني فضالة يتنصتان أخبار قريش، فألفياها قد قاربت المدينة، وأرسلت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها، وعادا فأخبراه بخبر القوم.

وبعد أن تأكد من المعلومات التي وصلته عن استعداد قريش وخروجها لحربه حرص ﷺ على حصر تلك المعلومات على المستوى القيادي، خوفًا من أن يؤثر هذا الخبر على معنويات المسلمين قبل إعداد العدة، ولذلك حين قرأ أبي بن كعب رسالة العباس أمره ﷺ بكتمان الأمر، وعاد مسرعًا إلى المدينة.

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٨١٢/٢).
(٢) الأكبار: جمع كبر: والكبر هو: الطبل الذي له وجه واحد.
(٣) مغازي الواقدي (٢٠٧/١، ٢٠٨)

وبعد أن جمع ﷺ المعلومات الكاملة عن جيش كفار قريش جمع أصحابه وشاورهم في البقاء في المدينة والتحصن فيها أو الخروج لملاقاة المشركين، وكان رأي النبي ﷺ البقاء في المدينة، وقال:(إنا في جنة حصينة)، فإن رأيتم أن تقيموا وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها[1]، وكان رأي عبد الله بن أبي ابن سلول مع رأي رسول الله ﷺ إلا أن رجالاً من المسلمين ممن كان فاته بدر، قالوا: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا[2].

قال ابن إسحاق: فلم يزل الناس برسول الله ﷺ الذي كان من أمرهم حب لقاء القوم، حتى دخل رسول الله ﷺ بيته، فلبس لأمته، فتلاوم القوم فقالوا: عرض نبي الله ﷺ بأمر وعرضتم بغيره، فاذهب يا حمزة فقل لنبي الله ﷺ: (أمرنا لأمرك تبع) فأتى حمزة فقال له: (يا نبي الله إن القوم تلاوموا، فقالوا: أمرنا لأمرك تبع)، فقال رسول الله ﷺ: (إنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل)

قال دوج: كيف يفعل محمد هذا.. ألم يكن له من الحكمة ما يجعله يعمل رأيه ما دام قد أرى بأنه الصواب؟

قال الحكيم: لقد أراد رسول الله ﷺ من هذا أمرين:

الأول: أن يعلمنا أن المستشير ينبغي أن يحترم رأي من يستشيره، فيعمله إذا اقتضى المقام ذلك.

والثاني: أن رسول الله ﷺ عندما عزم على الخروج بسبب إلحاحهم، ثم عادوا فاعتذروا إليه، أراد أن يعلمهم درسًا آخر ــ هو من أهم صفات القيادة الناجحة ــ وهو عدم التردد بعد العزيمة والشروع في التنفيذ، لأن من آثار ذلك أنه يزعزع الثقة بها ويغرس الفوضى بين الأتباع.

سكت الحكيم، فقالت الجماعة: ثم ماذا؟

قال الحكيم: لقد اشتد رسول الله ﷺ في تلك الأيام في التجهيز للقتال وحراسة المدينة.. فصار كل واحد

---

(١) من الأسباب التي جعلت رسول الله ﷺ يختار البقاء في المدينة على الخروج إليهم أن جيش مكة لم يكن موحد العناصر، وبذلك يستحيل على هذا الجيش البقاء زمنًا طويلاً إذ لا بد من ظهور الخلاف بينهم إن عاجلاً أو آجلاً.

ومنها أن مهاجمة المدن المصممة على الدفاع عن حياضها وقلاعها وبيضتها أمر بعيد المنال، وخصوصا إذا تشابه السلاح عند كلا الجيشين، وقد كان يوم أحد متشابهًا.

ومنها أن المدافعين إذا كانوا بين أهليهم، فإنهم يستبسلون في الدفاع عن أبنائهم وحماية نسائهم وبناتهم وأعراضهم.

ومنها مشاركة النساء والأبناء في القتال وبذلك يتضاعف عدد المقاتلين.

ومنها أنه يمكن للمدافعين أن يستخدموا أسلحة لها أثر في صفوف الأعداء مثل الأحجار، وغيرها، وتكون إصابة المهاجمين في متناولهم (انظر: القيادة العسكرية للرشيد، ص٣٧٤)

(٢) من الأسباب التي جعلت هؤلاء يختارون الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة أن الأنصار قد تعاهدوا في بيعة العقبة الثانية على نصرة الرسول ﷺ، فكان أغلبهم يرى أن المكوث داخل المدينة تقاعس عن الوفاء بهذا العهد.

ومنها أن الأقلية من المهاجرين كانت ترى أنها أحق من الأنصار في الدفاع عن المدينة ومهاجمة قريش وصدها عن زروع الأنصار.

ومنها أن الذين فاتتهم غزوة بدر كانوا يتحرقون شوقًا من أجل ملاقاة الأعداء طمعًا في حصول الشهادة في سبيل الله.

ومنها أن الأكثرين كانوا يرون أن في محاصرة قريش للمدينة ظفرًا يجب ألا تحلم به، كما توقعوا أن وقت الحصار سيطول أمده، فيصبح المسلمون مهددين بقطع المؤن عنهم (انظر: غزوة أحد، أحمد عز الدين، ص٥١، ٥٢)

من الصحابة يصحب سلاحه ولا يفارقه، حتى عند نومه، وأمر ﷺ بحراسة المدينة، واختار خمسين من أشداء المسلمين ومحاربيهم بقيادة محمد بن مسلمة.

واهتم الصحابة بحراسة رسول الله ﷺ، فبات سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير وسعد بن عبادة في عدة من الصحابة ليلة الجمعة مدججين بالسلاح في باب المسجد يحرسون رسول الله ﷺ.

وقد اختار رسول الله ﷺ لخروجه الوقت المناسب، فقد تحرك بعد منتصف الليل، حيث يكون الجو هادئًا، والحركة قليلة، وفي هذا الوقت بالذات يكون الأعداء، غالبا، في نوم عميق لأن الإعياء ومشقة السفر قد أخذا منهم مجهودًا كبيرًا.

قال الواقدي: ونام رسول الله ﷺ حتى أدلج، فلما كان في السحر قال:(أين الأدلاء؟)

ثم إنه ﷺ اختار الطريق المناسب الذي يسلكه حتى يصل إلى أرض المعركة، وذكر صفة ينبغي أن تتوافر في هذا الطريق وهي السرية، حتى لا يرى الأعداء جيش المسلمين، فقال ﷺ لأصحابه: (من رجل يخرج بنا على القوم من طريق لا يمر بنا عليهم؟)، فأبدى أبو خيثمة استعداده قائلا: أنا يا رسول الله، فنفذ به في حرة بني حارثة وبين أموالهم، حتى سلك به في مال لربعي بن قيظي، وكان رجلاً منافقًا ضرير البصر، فلما أحس برسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، قام يحثو في وجوههم التراب، وهو يقول: إن كنت رسول الله فلا أحل لك أن تدخل حائطي، وقد ذكر أنه أخذ حفنة من تراب بيده، ثم قال: والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد، لضربت بها وجهك، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال لهم: لا تقتلوه، فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر، وقد بدر إليه سعد بن زيد أخو بني الأشهل قبل نهي رسول الله ﷺ عنه، فضربه بالقوس في رأسه فشجه.

قال رجل من الجمع: إن جسارة رجل في هذا الموقف الشديد على سب محمد.. وترك محمد له من غير عقوبة.. لا يدل إلا على حلم عظيم، وسعة لا يمكن أن تكون في صدر إرهابي أو مستبد.

قال الحكيم: لم يكتف المنافقون بذلك فقط.. بل إنهم ـــ كموقفهم في جميع الغزوات ـــ لم يكن لهم دور إلا التثبيط، ومع ذلك فإن النبي ﷺ لم يمس أحدا منهم بسوء.

في ذلك اليوم الشديد..وعندما وصل جيش المسلمين الشواط ـــ وهو اسم بستان بين المدينة وأحد ـــ انسحب المنافق ابن سلول بثلاثمائة من المنافقين، وهم ثلث الجيش، بحجة أنه لن يقع قتال مع المشركين، ومعترضًا على قرار القتال خارج المدينة قائلا: (أطاع الولدان ومن لا رأي له، أطاعهم وعصاني، علام نقتل أنفسنا)

لقد كان هدف المنافقين من هذا بث الهزيمة النفسية في قلوب المؤمنين وتحطيم معنوياتهم.. ولكن الله علمهم أن من رحمة الله بهم أن لا يدخل هؤلاء ساحة المعركة.

لقد اقتضت حكمة الله أن يمحص الله الجيش ليظهر الخبيث من الطيب، حتى لا يختلط المخلص بالمغرض، والمؤمن بالمنافق، قال تعالى:﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)﴾ (آل عمران)

في ذلك الموقف الشديد تميز المخلصون من المنافقين.. في ذلك الموقف حاول عبد الله بن حرام إقناع المنافقين بالعودة فأبوا، فقال: يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أن يكون قتال، فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم قال: أبعدكم الله، أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه.

وفي هؤلاء المنخذلين نزل قول الله تعالى:﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)﴾ (آل عمران)

قال رجل من الجمع: إن ما تذكره من عدم حصول نزاع داخلي بين المسلمين مع توفر جميع دواعيه يدل على أن كل النزاعات التي تحصل الآن بين المسلمين ليس لها أصل في الإسلام.

قال الحكيم: أجل.. فإن المسلمين في ذلك الحين كانوا يسمعون المنافقين بل كانوا يرون منهم ما لو حصل بين بعض هذه الجماعات الآن لاعتبروه من مبررات سفك الدماء.. ولكن المسلمين الذين رباهم رسول الله ﷺ على حرمة الدماء كانوا أوسع صدرا من أن يقعوا في هذا.

قال دوج: ولكن أمر الرجوع لم يخص ابن أبي ابن سلول وحده.. بل إني أعلم أن بني سلمة، وبني حارثة قررتا أن ترجعا.. وفي ذلك دليل على تضعضع المسلمين.

قال الحكيم: لقد حصل بعض ما ذكرت.. لا كل ما ذكرت.. فقد ثبت الله هاتين القبيلتين وعصمهما، ونزل في ذلك قوله تعالى:﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)﴾ (آل عمران)

وهذا لا يفهم منه ما استنتجت.. وإنما يفهم منه شيء واحد هو ما تسمونه أنتم الآن بالديمقراطية..

لقد وفر ﷺ لأصحابه ورعيته من الحرية ما لم يوفرها زعيم من زعماء الدنيا.. فهل ترى زعيما من الزعماء يترك طائفة من جيشه، وهو أحوج ما يكون إليها؟

ألا تعتبرون ذلك في عرفكم خيانة عظمى ليس لها من عقوبة إلا القتل؟.. ولكن رسول الله ﷺ لم يقتل أحدا بهذا السبب وكان في إمكانه أن يفعل؟

قالت الجماعة: حدثنا عن المعركة.. كيف بدأت؟.. وإلام انتهت؟.. وكيف زعمت انتصار المسلمين فيها؟

قال الحكيم: لما تجمع المسلمون للخروج، رأى الرسول جماعة من اليهود يريدون أن يخرجوا مع عبد الله بن أبي بن سلول ــ قبل انسحابه بجيشه ــ للخروج مع المسلمين، فقال الرسول: (أو قد أسلموا؟) قالوا: لا يا رسول الله، قال: (مروهم فليرجعوا؛ فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين)

قال دوج: فهي حرب دينية إذن.

ابتسم الحكيم، وقال: إن أردت بالدينية أنها تحكم القيم الدينية، فذلك صحيح، فقيم الحرب الدينية في الإسلام تختلف عنها في اليهودية ... أما إن أردت بالدينية الحرب التي تسعى لنشر الدين، فأنت تعلم، وكل الناس يعلمون أن النبي ﷺ في هذه الغزوة لم يخرج إلا مكرها للدفاع عن المجتمع الذي أسسه.

سكت قليلا، ثم التفت إلى الجمع، وراح يواصل حديثه عن أحداث غزوة أحد، قال: في منتصف الطريق انخذل عن المسلمين عبد الله بن أبي بن سلول ومعه ثلاثمائة من المنافقين ــ كما ذكرت لكم ذلك من قبل ــ فبقي عدد المسلمين سبعمائة رجل فحسب، ثم مضى الرسول ﷺ حتى وصل إلى ساحة أحد، فجعل ظهره للجبل ووجهه للمشركين، وصف الجيش، وجعل على كل فرقة منه قائدا، واختار خمسين من الرماة، على رأسهم عبد الله بن جبير الأنصاري ليحموا ظهر المسلمين من التفاف المشركين وراءهم، وقال لهم: (احموا ظهورنا، لا يأتونا من خلفنا، وارشقوهم بالنبل؛ فإن الخيل لا تقوم على النبل، إنا لا نزال غالبين ماثبتم مكانكم، اللهم إني أشهدك عليهم)

وقال لهم في رواية أخرى: (إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم أو ظاهرناهم وهم قتلى، فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم)

ثم ابتدأ القتال، وكان النصر الكامل حليف المسلمين في البداية.. حيث قتل المسلمون عددا من الكفار، حتى اضطروا إلى أن يولوا الأدبار.

لكن بعض المسلمين اغتروا بذلك، فراحوا ينغمسون في أخذ الغنائم التي وجدوها في معسكر المشركين، ورأى ذلك من وراءهم من الرماة، والذين كلفوا بحماية ظهر المسلمين، فقالوا: ماذا نفعل وقد نصر الله رسوله؟ ثم فكروا في ترك أمكنتهم لينالهم نصيب من الغنائم، فذكرهم رئيسهم عبد الله بن جبير بوصية الرسول ﷺ، فأجابوا بأن الحرب قد انتهت، ولا حاجة للبقاء حيث هم، فأبى عبد الله ومعه عشرة آخرون أن يغادروا أمكنتهم.

قال دوج مقاطعا الحكيم: أرأيتم المسلمين، وشوقهم للغنائم؟

قال الحكيم: المسلمون بشر.. وفيهم من شهوات البشر وحرصهم ما فيه، ودور الدين هو أن يضبطهم ويربيهم لا أن يقمعهم أو يقمع ما جبلوا عليه من فطرة.

وقد كان هذا الحدث على الخصوص من تقدير الله الذي يرتبط بتربية المسلمين في كل الأجيال عبر تربيته لذلك الجيل.

لقد رأى خالد بن الوليد، وكان قائد ميمنة المشركين خلو ظهر المسلمين من الرماة، فكرَّ عليهم من خلفهم، فما شعر المسلمون إلا والسيوف تناوشهم من هنا وهناك، فاضطرب حبلهم، واختلفوا فرقا بحسب ما لكل منهم من نضج في الإيمان والسلوك، فقد كانت هذه الغزوة ــ بتقدير الله محكا لذلك ــ:

فمنهم طائفة لم تهمها إلا نفسها، حيث أخذت طريق الفرار، وتركت ساحة القتال، وهي لا تدري ماذا وراءها، وفر من هذه الطائفة بعضهم إلى المدينة حتى دخلها، وانطلق بعضهم إلى ما فوق الجبل.

ومنهم طائفة اختلطت بالمشركين، والتبس العسكران فلم يتميزا، فوقع القتل في المسلمين بعضهم من

بعض.. وقد حدثت عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: لما كان يوم أحد هزم المشركون هزيمة بينة، فصاح إبليس: أي عباد الله أخراكم ــ أي احترزوا من ورائكم ــ فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم، فبصر حذيفة، فإذا هو بأبيه اليمان، فقال: أي عباد الله أبي أبي. قالت: فوالله ما احتجزوا عنه حتى قتلوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم. قال عروة: فوالله ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله[1].

وهذه الطائفة حدث داخل صفوفها ارتباك شديد، وعمتها الفوضى، وتاه منها الكثيرون؛لا يدرون أين يتوجهون، وبينما هم كذلك إذ سمعوا صائحاً يصيح: إن محمداً قد قتل، فطارت بقية صوابهم، وانهارت الروح المعنوية أو كادت تنهار في نفوس كثير من أفرادها، فتوقف من توقف منهم عن القتال، وألقي بأسلحته مستكيناً، وفكر آخرون في الاتصال بعبد الله بن أبي ــ رأس المنافقين ــ ليأخذ لهم الأمان من أبي سفيان.

قال دوج، والفرح باد على وجهه: هكذا تكون الهزيمة، وإلا فلا.

قال الحكيم: بل هكذا يكون النصر، وإلا فلا.

قال دوج: ماذا تقصد؟

قال الحكيم: عندما انتصر المسلمون في بدر ظهر كثير من المغرضين.. لاشك أنك تعرفهم.. فإن لم تكن تعرفهم فإن أصحاب المبادئ من رؤساء الأحزاب يعرفونهم.

فقد يبدأ رئيس الحزب حزبه بطائفة من المبادئ الفاضلة، فلا يستجيب له إلا نفر قليل، فإذا ما أرى المغرضون نجاحه في بعض الانتخابات انضموا إليه بما نفوسهم من أغراض خسيسة قد تسيء إلى المبادئ التي انطلق منها ذلك الزعيم.

وفي ذلك الحين يكون الفشل في الانتخابات انتصارا للمبادئ في وجه المغرضين.

قال دوج: ربما أفهم هذا.. ولكن ما علاقته بالنصر؟

قال الحكيم: لقد كان المسلمون في تلك المرحلة مقبلون على انتصارات كثيرة، وعلى تأسيس جميع مؤسسات المجتمع الإسلامي، وكان لابد أن يمحص الناس حتى يظهر الصادقون المضحون الثابتون من غيرهم.. وكانت هذه الغزوة سببا لذلك.

قالت الجماعة: ثم ماذا حصل؟

قال الحكيم: لقد أشيع أن الرسول قد قتل، ففر بعضهم عائدا إلى المدينة، واستطاع المشركون أن يصلوا إلى الرسول، فأصابته حجارتهم حتى وقع[2]وأغمي عليه، ودخلت حلقتان من المغفر في وجنته ﷺ وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، ورموه بالحجارة حتى سقط لشقه في حفرة

وفي ذلك الموقف الشديد احتضنه طلحة بن عبيد الله، حتى استوى قائماً، وانتزع أبو عبيدة عامر بن الجراح الحلقتين اللتين كانتا غاصتا في وجنته ﷺ وعض عليهما حتى سقطت ثنيتاه، فكان ساقط الثنيتين،

---

(١) رواه البخاري.

(٢) وكان سبب وقوع رسول الله ﷺ أن ابن قمئة علاه بالسيف فلم يؤثر السيف فيه إلا أن ثقل السيف أثر في عاتقه فشكا ﷺ منه شهراً وقُذف رسول الله بالحجارة حتى وقع لشقه.

وامتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته ﷺ ثم ازدرده.

ولما أصيب رسول الله ﷺ قالوا: لو دعوت عليهم، فقال: (إني لم أبعث لعاناً ولكن بعثت داعياً ورحمة، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون) فاعتذر عنهم وتضرع إلى الله أن يمهلهم حتى يكون منهم أو من ذريتهم من يؤمن وهذا غاية الحلم.

قال دوج: ألا تعجبون من رجل يدعي أن الملائكة تتنزل بنصره، وقد حصل له من الهوان في هذا المحل ما حصل؟

قال الحكيم: والعجب منكم أكثر، فأنتم تزعمون أن المسيح.. وهو ابن الله في تصوركم.. لم يكتف أعداؤه بجرحه.. بل صلبوه وأهانوه إهانة عظيمة.

قال دوج: ذلك ليفدي البشر من الخطيئة.

قال الحكيم: وهذا ليعلم كل قائد كيف يكون القائد الحقيقي.. فالقائد في المفهوم الإسلامي هو الذي يصيبه ما يصيب جنوده من أنواع الأذى.. لا الذي يقبع في قصره يلقي الأوامر، وينتظر النياشين.

قال دوج: لقد زعمت بأن المسلمين انتصروا.. وها نحن نرى محمدا نفسه يكاد يقتل.

قال الحكيم: إن عدم قتله مع توفر الدواعي لذلك أكبر انتصار..

قالت الجماعة: فهل ثبت محمد في ذلك الموقف الشديد؟

قال الحكيم: أجل.. ومن يثبت إن لم يثبت محمد ﷺ بأبي هو وأمي.. لقد ثبت وثبت معه رجال لا تزال الأمة تسبح بالثناء عليهم.. فهم قدوة كل جيل في التضحية والفداء والإيثار..

منهم أبو دجانة، الذي تترس على الرسول ﷺ ليحميه من نبال المشركين، فكان النبل يقع على ظهره.

ومنهم سعد بن أبي وقاص الذي رمى يومئذ نحو ألف سهم.

ومنهم نسيبة أم عمارة الأنصارية، التي تركت سقاء الجرحى، وأخذت تقاتل بالسيف، وترمي بالنبل، دفاعا عن رسول الله ﷺ حتى أصابها في عنقها، فجرحت جرحا عميقا، وكان معها زوجها وابناها، فقال لهم الرسول ﷺ: (بارك الله عليكم أهل بيت) فقالت له نسيبة: ادع الله أن نرافقك في الجنة، فقال: (اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة) فقالت ــ رضي الله عنها ــ بعد ذلك: (ما أبالي ما أصابني من أمر الدنيا) وقد قال ﷺ في حقها: (ما التفت يمينا وشمالا يوم أحد، إلا ورأيتها تقاتل دوني) وقد جرحت يومئذ اثني عشر جرحا، ما بين طعنة برمح وضربة بسيف.

التفت الحكيم إلى دوج، وقال: إن بروز مثل هذه النماذج.. والتي لو لم يحصل ذلك الموقف ما ظهرت.. دليل على أن النصر الذي تحقق في أحد نصر لا يمكن تصور حدوده.. لقد ظلت هذه المواقف وغيرها درسا يستفيد كل من يقدم روحه في سبيل الله لنصرة الحق والدفاع عن المستضعفين.

قالت الجماعة: فماذا فعل محمد؟

في ذلك الموقف الشديد، أعطى رسول الله ﷺ اللواء لعلى بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ بعد مقتل حامله مصعب بن عمير ــ رضي الله عنه ــ

ثم استطاع رسول الله ﷺ أن يشق الطريق إلى جيشه الذي طوقه المشركون من كل جانب، فأقبل إليهم فعرفه كعب بن مالك ــ وكان أول من عرفه ــ فنادي بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله ﷺ، فأشار إليه ﷺ أن يصمت حتى لا يعرف موضعه المشركون.. لكن ذلك الصوت بلغ إلى آذان المسلمين، فأسرعوا إليه حتى تجمع حوله حوالى ثلاثين رجلاً من الصحابة.

وبعد هذا التجمع أخذ رسول الله ﷺ في الانسحاب المنظم إلى شعب الجبل، وهو يشق الطريق بين المشركين المهاجمين، واشتد المشركون في هجومهم لعرقلة الانسحاب إلا أن بسالة المسلمين لم تمكنهم من ذلك.

في ذلك الموقف الحرج تقدم عثمان بن عبد الله بن المغيرة، وهو أحد فرسان المشركين إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: لا نجوت إن نجا، وقام رسول الله ﷺ لمواجهته، إلا أن الفرس عثرت في بعض الحفر، فنازله الحارث بن الصِّمَّة، فضرب على رجله فأقعده، ثم ذَفَّفَ عليه وأخذ سلاحه، والتحق برسول الله ﷺ .

وعطف عبد الله بن جابر، وهو فارس من فرسان مكة على الحارث بن الصِّمَّة، فضرب بالسيف على عاتقه فجرحه حتى حمله المسلمون ولكن انقض أبو دجانة على عبد الله بن جابر فضربه بالسيف ضربة أطارت رأسه.

وهكذا.. إلى أن بلغت هذه الكتيبة إلى شعب الجبل، وشق لبقية الجيش طريقاً إلى هذا المقام المأمون، فتلاحق به في الجبل.

في ذلك الموقف جاء أبي بن خلف مسرعا نحو رسول الله ﷺ وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا، فقال القوم: يا رسول الله، أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ :(دعوه)، فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة، فلما أخذها منه انتفض انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله وأبصر تَرْقُوَتَه من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة، فطعنه فيها طعنة تدحرج منها عن فرسه مراراً.

فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشاً غير كبير، فاحتقن الدم، قال: قتلني والله محمد، قالوا له: ذهب والله فؤادك، والله إن بك من بأس، قال: إنه قد كان قال لي بمكة:(أنا أقتلك، فوالله لو بصق على لقتلني)[1]، فمات بسَرِف وهم قافلون به إلى مكة.

نظر دوج إلى الجماعة وقال متهكما: ألا تعجبون من نبي يفعل هذا؟

التفت الحكيم إلى دوج، وقال: وكيف لا يفعله؟.. وهل ترى من الحكمة في ذلك الموقف أن يسلم محمد ﷺ نفسه للقتل أم يدافع عن نفسه؟

سكت دوج، فقال الحكيم: فأخبر قومك أن هذا الرجل من المشركين هو الوحيد الذي قتله رسول الله ﷺ في جميع حياته.. ولا تنس أن تخبرهم عن سبب قتله..

قال رجل مسلم من الجماعة: فهل ظل المسلمون في تماسكهم في ذلك الموقف الشديد؟.. ألم يحاول

---

(١)وفي رواية أبي الأسود عن عروة، وكذا في رواية سعيد بن المسيب عن أبيه: أنه كان يخور خوار الثور، ويقول: والذي نفسي بيده، لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا جميعاً.

المشركون احتراقهم؟

قال الحكيم: بلى.. لقد كان هدف المشركين هو القضاء على الإسلام.. ولم يكن هدفهم ذلك النصر المحدود.. لذلك استمروا في تتبعهم لرسول الله ﷺ والمؤمنين، وقاموا بآخر هجوم حاولوا به النيل من المسلمين يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد، فقال رسول الله ﷺ: (اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا)

ثم كلف أصحابه بأن يقفوا في وجه هذا الهجوم..

وكان منهم عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين ــ رضي الله عنهم ــ حتى أهبطوهم من الجبل.

وكان منهم سعد بن أبي وقاص ــ رضي الله عنه ــ فقد قال له رسول الله ﷺ حينها:(اجْنُبْهُمْ)[1]، فقال: كيف أجْنُبُهُمْ وحدي ؟ فقال ذلك ثلاثاً، فأخذ سعد سهماً من كنانته، فرمي به رجلاً فقتله، قال: ثم أخذت سهمي أعرفه، فرميت به آخر، فقتلته، ثم أخذته أعرفه فرميت به آخر فقتلته، فهبطوا من مكانهم، فقلت: هذا سهم مبارك، فجعلته في كنانتي، فكان عند سعد حتى مات، ثم كان عند بنيه.

ولما يئس المشركون من مواصلة المعركة وتحقيق الهزيمة الكاسحة بالمسلمين لجأوا إلى الشهداء يمثلون بهم، ويقطعون الآذان والأنوف ويبقرون البطون.. وبقرت هند بنت عتبة كبد حمزة فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها، واتخذت من الآذان والأنوف خَدَماً ــ خلاخيل ــ وقلائد.

في ذلك الموقف الشديد كان نساء المؤمنين يقفون موقفا مختلفا تماما، قال أنس: لقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم، وإنهما لمشمرتان ــ أري خَدَم سوقهما ــ تَنْقُزَانِ القِرَبَ على متونهما، تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم . وقال عمر: كانت أم سَلِيط ــ من نساء الأنصار ــ تزفر لنا القرب يوم أحد .

وكان في هؤلاء النسوة المجاهدة البطلة أم أيمن، لما رأت طوائف المنهزمين من المسلمين أخذت تحثو التراب في وجوههم، وتقول لهم:هاك المغزل، وهلم سيفك.. ثم سارعت إلى ساحة القتال، فأخذت تسقي الجرحي، فرماها بعض المشركين بسهم، فوقعت وتكشفت، فأغرق المشرك في الضحك، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، فدفع إلى سعد بن بي وقاص سهماً لا نصل له، وقال:(ارم به)، فرمي به سعد، فوقع السهم في نحر حبان، فوقع مستلقياً حتى تكشف، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال:(استقاد لها سعد، أجاب الله دعوته) .

ولما استقر رسول الله ﷺ في مقره من الشِّعب خرج على بن أبي طالب حتى ملأ دَرَقَته ماء من المِهْرَاس[2] فجاء به إلى رسول الله ﷺ ليشرب منه، فوجد له ريحاً فعافه، فلم يشرب منه، وغسل عن وجهه الدم، وصب على رأسه وهو يقول: (اشتد غضب الله على من دَمَّى وجه نبيه)

وقال سهل: والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ، ومن كان يسكب الماء، وبما دُووِي ؟ كانت فاطمة ابنته تغسله، وعلى بن أبي طالب يسكب الماء بالمِجَنِّ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير، فأحرقتها، فألصقتها فاستمسك الدم.

---

(١) أي: ارددهم.

(٢) قيل: هو صخرة منقورة تسع كثيراً. وقيل: اسم ماء بأحد.

وجاء محمد بن مسلمة بماء عذب سائغ، فشرب منه النبي ﷺ ودعا له بخير، وصلى الظهر قاعداً من أثر الجراح، وصلى المسلمون خلفه قعوداً.

وفي آخر المعركة، وعندما يئس المشركون من القضاء على المسلمين أشـــرف أبو سفـــيان على الجبل، فـــنادي أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه.. فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه.. فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه ـــ وكان النبي ﷺ منعهم من الإجابة ـــ فقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يملك عمر نفسه أن قال: يا عدو الله، إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقي الله ما يسوءك، فقال: قد كان فيكم مثلة لم آمر بها و لم تسؤني.

ثم قال: أعْلِ هُبَل.

فقال النبي ﷺ : (ألا تجيبونه؟) فقالوا:فما نقول؟ قال: (قولوا: الله أعلى وأجل).

ثم قال: لنا العُزَّى ولا عزى لكم.

فقال النبي ﷺ : (ألا تجيبونه؟) قالوا: ما نقول؟ قال: (قولوا:الله مولانا، ولا مولي لكم).

ثم قال أبو سفيان: أنْعَمْتَ فَعَال، يوم بيوم بدر، والحرب سِجَال.

فأجابه عمر، وقال: لاسواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار.

ثم قال أبو سفيان: هلم إلي يا عمر، فقال رسول الله ﷺ : (ائته فانظر ما شأنه؟) فجاءه، فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً؟ قال عمر: اللهم لا، وإنه ليستمع كلامك الآن. قال: أنت أصدق عندي من ابن قَمِئَة وأبر.

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادي: إن موعدكم بدر العام القابل، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: (قل: نعم، هو بيننا وبينك موعد).

ثم بعث رسول الله ﷺ على بن أبي طالب، فقال: (اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون؟ وما يريدون؟ فإن كانوا قد جَنَبُوا الخيل، وامْتَطُوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن كانوا قد ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده، لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزنهم)، قال على: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل، ووَجَّهُوا إلى مكة.

التفت الحكيم إلى دوج، وقال: أنت تبحث عن سر نصر أحد.. فهذا سر من أسراره..

لقد جاء المشركون ليقضوا على الإسلام، وليدخلوا المدينة وينهبوها.. ولكنه لم يحصل شيء من ذلك..

كل ما حصل هو أن عدد شهداء المسلمين كان أكبر من عدد شهداء المشركين[1].. وليس ذلك هو مقياس

---

(١) اتفقت جل الروايات على أن قتلي المسلمين كانوا سبعين، وكانت الأغلبية الساحقة من الأنصار؛ فقد قتل منهم خمسة وستون رجلاً، واحد وأربعون من الخزرج، وأربعة وعشرون من الأوس، وقتل رجل من اليهود. وأما شهداء المهاجرين فكانوا أربعة فقط.

وأما قتلي المشركين فقد ذكر ابن إسحاق أنهم اثنان وعشرون قتيلاً، ولكن الإحصاء الدقيق ـــ بعد تعميق النظر في جميع تفاصيل المعركة التي ذكرها أهل المغازي والسير، والتي تتضمن ذكر قتلي المشركين في مختلف مراحل القتال ـــ يفيد أن عدد قتلي المشركين سبعة وثلاثون، لا اثنان وعشرون، والله أعلم . انظر: الرحيق المختوم.

النصر أو الهزيمة.. فمقياس النصر والهزيمة هو تحقيق أحد الطرفين للغاية التي دخل بها المعركة.

وقد دخل النبي ﷺ المعركة بنية الحفاظ على كلمة الله أن تظل عليا.. ودخل المشركون بنية القضاء على الإسلام.. و لم يتحقق شيء مما قصده المشركون.. وتحقق كل شيء قصده رسول الله ﷺ..

لقد قال المستشرق جيورجيو ــ مناقشاً آراء المؤرخين الإسلاميين كباحث عسكري، انطلاقاً من مفهوم النصر والخسارة في الحرب ــ:(يذكر المؤرخون الإسلاميون أن المسلمين خسروا في معركة أحد، وهذا الرأي يحتاج إلى مناقشة. ولو أننا تحدثنا مع متخصص حربي في مسألة خسارة المعركة، وسألناه: ما هي علامة الخسارة الحربية؟، لأجاب إن كان جيش الخصم المنتصر احتل البلاد، وأزال جيش العدو، عد عندئذ منتصراً، أما أن احتل دولة ما و لم يتمكن من أبادة جيشها فلا تعتبر الدولة خاسرة. فألمانيا في الحرب العالمية احتلت روسيا كلها، ووصلت جيوشها حتى شواطيء نهر الفولغا، ولأنها لم تستطع دحر جيش روسيا دحراً كاملاً فإن ألمانيا لم تعتبر منتصرة تماماً. فالدولة تعتبر ظافرة بشرطين: أولهما احتلال الدولة المغلوبة، وثانيهما إخماد حركة الجيش.

والمشركون في معركة أحد لم يستطيعوا احتلال المدينة، كما لم يوفقوا إلى إفناء جيش محمد، فمع أنهم شتتوا جيش المسلمين، فإن فلوله عادت فتجمعت في اليوم الثاني، فعندما عاد محمد إلى مدينه (كما سنذكر) كان تحت سيادته جيش منظم. فعن وجهة نظر محارب متخصص – برأيي– لم يخسر المسلمون في معركة أحد، إنما وقعوا في تجربة مفاجئة وحسب، لأن جيش مكة لم يفن جيش المسلمين، كما لم يحتل المدينة)[1]

وفوق ذلك.. فإن الشهداء الذين تصور المشركون أنهم بقتلهم انتصروا لم تكن دماؤهم إلا رايات لنصر عظيم ظل يتشرف به المسلمون كل حين..

اسمعوا ــ أيها الجمع ــ إلى هذا الانتصار الذي رسمه سعد بن الربيع بدمائه الزكية، قال زيد بن ثابت: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع. فقال لي: (إن رأيته فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ : كيف تجدك؟) قال: فجعلت أطوف بين القتلي، فأتيته وهو بآخر رمق، فيه سبعون ضربة ؛ ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت: يا سعد، إن رسول الله يقرأ عليك السلام، ويقول لك: أخبرني كيف تجدك؟ فقال: وعلى رسول الله ﷺ السلام، قل له، يا رسول الله، أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف، وفاضت نفسه من وقته.

أرأيتم النصر العظيم الذي رسمه هذا الرجل العظيم بشهادته..

التفت إلى دوج، وقال: لا شك أنك توافقني في أن هذه الميتة الشريفة نصر عظيم.. إنها لا تقل عن ذلك الموقف الثابت الذي نسبتموه للمسيح وهو على خشبة الصليب.

سكت قليلا، ثم قال: لم يكن ذلك هو الموقف الوحيد.. كان ذلك اليوم كله مواقف لا يزال يتزين بها التاريخ.. ولا زالت تملأ قلوب الأحرار..

عندما كان المسلمون يتفقدون الجرحي وجدوا الأُصَيرِم ــ عمرو بن ثابت ــ وبه رمق يسير، وكانوا من

---

(١) ك. جيورجيو: نظرة جديدة في سيرة رسول الله، ص٢٦٧.

قبل يعرضون عليه الإسلام فيأباه، فقالوا: إن هذا الأصيرم ما جاء به؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الأمر، ثم سألوه: ما الذي جاء بك، أحَدَبٌ على قومك، أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام، آمنت بالله ورسوله، ثم قاتلت مع رسول الله ﷺ حتى أصابني ما ترون، ومات من وقته، فذكروه لرسول الله ﷺ، فقال: (هو من أهل الجنة). قال أبو هريرة: و لم يُصَلِّ لله صلاة قط .

وكان في القتلى رجل من يهود بني ثعلبة، قال لقومه: يا معشر يهود، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم حق،.قالوا:إن اليوم يوم السبت. قال:لا سبت لكم.. فأخذ سيفه وعدته، وقال: إن أصبت فمإلى لمحمد، يصنع فيه ما شاء، ثم غدا فقاتل حتى قتل.فقال رسول الله ﷺ : (مُخَيريق خير يهود)

بعد هذه المواقف النبيلة من الجرحى والشهداء أشرف رسول الله ﷺ على الشهداء فقال: (أنا شهيد على هؤلاء، إنه ما من جريح يُجْرَح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة، يَدْمَي جُرْحُه، اللون لون الدم، والريح ريح المِسْك)

سكت قليلا، ثم قال: بعد كل هذه المواقف النبيلة انصرف رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة، وفي الطريق مر بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها بأحد، فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا: خيراً يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير إليها حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جَلَلٌ.

وجاءت إليه أم سعد بن معاذ تعدو، وسعد آخذ بلجام فرسه، فقال: يا رسول الله، أمي، فقال: (مرحباً بها)، ووقف لها، فلما دنت عزاها بابنها عمرو بن معاذ، فقالت: أما إذ رأيتك سالماً فقد اشتويت المصيبة ــ أي استقللتها ــ ثم دعا لأهل من قتل بأحد، وقال: (يا أم سعد، أبشري وبشري أهلهم أن قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعاً، وقد شفعوا في أهلهم جميعاً). قالت: رضينا يا رسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا؟ ثم قالت: يا رسول الله، ادع لمن خلفوا منهم، فقال: (اللهم أذهب حزن قلوبهم، واجبر مصيبتهم، وأحسن الخَلفَ على من خُلِّفُوا)

وعندما عاد رسول الله ﷺ في مساء ذلك اليوم ــ يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣هــ ــ إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة، فقال: (اغسلي عن هذا دمه يا بنية، فوالله لقد صدقني اليوم)، وناولها علي بن أبي طالب سيفه، فقال: وهذا أيضاً فاغسلي عنه دمه، فوالله لقد صدقني اليوم، فقال رسول الله ﷺ : (لئن كنت صدقت القتال، لقد صدق معك سهل بن حُنَيف وأبو دُجَانة)

في تلك الليلة بات المسلمون في المدينة يحرسون أنقاب المدينة ومداخلها، ولكن المشركين اكتفوا بما حققوه، و لم يطمعوا في المزيد.

غزوة حمراء الأسد:

التفت الحكيم إلى دوج، وقال: هذا هو سيف أحد.. وهو السيف الذي ملأ نفوسكم سرورا، وملأتم الدنيا بعدها ضجيجا.. ولكنكم لو فطنتم إلى بذور النصر التي كان يحملها هذا السيف لما تجرأتم على قول كلمة واحدة.

سكت دوج، فأشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: سننتقل إلى سيف آخر.. وهو سيف يسميه المؤرخون (غزوة حمراء الأسد)، وهي دليل آخر.. بل هي من أكبر الأدلة على أن أحدا يوم من أيام نصر الله لرسوله، لا يوم من أيام الهزيمة.

لقد حدثت هذه الغزوة مباشرة بعد أحد، إذ وقعت غزوة أُحد يوم السبت، وهذه الغزوة وقعت يوم الأحد.. وقد وقعت في حمراء الأسد، وهي موضع على ثمانية أميال من المدينة.

لقد حدثنا الواقدي عن سببها وأحداثها، فقال: باتت وجوه الأنصار على بابه ﷺ فلما طلع الفجر وأذن بلال بالصلاة جاء عبد الله بن عمرو المزني، فأخبر النبي ﷺ أنه أقبل من عند أهله بملل[1] ــ إذا قريش قد نزلوا ــ فسمعهم يقولون: ما صنعتم شيئاً، أصبتم شوكة القوم وحدهم ثم تركتموهم و لم تبيدوهم، قد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم، فارجعوا نستأصل من بقي، وصفوان بن أمية يأبى ذلك عليهم ويقول: لا تفعلوا فإن القوم قد غضبوا وأخاف أن يجتمع عليكم من تخلف من الخزرج، فارجعوا والدولة لكم فإني لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم، فقال ﷺ:(أرشدهم صفوان وما كان برشيد، والذي نفسي بيده لقد سوّمت لهم الحجارة ولو رجعوا لكانوا كالأمس الذاهب)

ولما صلى رسول الله ﷺ الصبح ندب الناس وأذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج، وأمر ألا يخرج أحد إلا من حضر غزوة أحد[2]، تعظيما لمن شهد أحدا، ورفعا لمعنوياتهم.

وكعادة رسول الله ﷺ، فقد بعث ثلاثة نفر من أسلم طليعة في آثار القوم، فلحق اثنان منهم القوم بحمراء الأسد، فبصروا بالرجلين فقتلوهما، ومضى رسول الله ﷺ ودليله ثابت بن الضحاك بن ثعلبة بن الخزرج حتى عسكر بحمراء الأسد، فوجد الرجلين فدفنهما، وكان رسول الله ﷺ مجروحاً، وفي وجهه الحلقتين فقال رسول الله ﷺ لطلحة: (يا طلحة لن ينالوا منا مثلها حتى يفتح الله علينا مكة)، وقال لعمر بن الخطاب: (يا ابن الخطاب إن قريشاً لن ينالوا منا مثل هذا حتى نستلم الركن)

وفي ذلك المحل أقام رسول الله ﷺ الاثنين والثلاثاء والأربعاء، وكان المسلمون يوقدون تلك الليالي خمسمائة نار حتى تُرى من المكان البعيد، وذهب صوت معسكرهم ونيراهم في كل وجه فكبت الله بذلك عدوهم.

عن ابن عباس قال: إن الله قذف في قلب أبي سفيان الرعب بعد الذي كان منه يوم أُحد، فرجع إلى مكة.

وقد روي أن ركبا من عبد القيس يريد المدينة مر بأبي سفيان، وهو فار بجيشه إلى مكة، فقال: هل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة، وأوقر لكم راحلتكم هذه زبيبًا بعكاظ إذا أتيتم إلى مكة؟

قالوا: نعم.

---

(١) اسم موضع قرب المدينة.

(٢) لم يشهد هذه الغزوة إلا من شهد أُحداً عدا جابر بن عبدالله فإنه قال لرسول الله ﷺ:(إن أبي خلفني يوم أُحد على أخوات لي سبع فلم أشهد الحرب فأذن لي أن أسير معك)، فأذن له رسول الله ﷺ فلم يخرج معه أحد لم يشهد القتال غيره.

قال: فأبلغوا محمداً أنا قد أجمعنا الكرة ؛ لنستأصله ونستأصل أصحابه.

فمر الركب برسول الله ﷺ وأصحابه، وهم بحمراء الأسد، فأخبرهم بالذي قال له أبو سفيان، وقالوا:﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾(آل عمران: من الآية١٧٣)، وقد أخبر الله تعالى عن موقف المؤمنين من هذا التحذير، فقال:﴿ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(آل عمران: من الآية١٧٣)، ثم ذكر ما من الله به عليهم بعد هذا الموقف، فقال:﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (آل عمران:١٧٤)

وفي هذه الغزوة ظفر ﷺ بأبي عزة الشاعر الذي أسر ببدر، وقد منّ عليه رسول الله ﷺ حينها من غير فداء لأجل بناته وأخذ عليه عهداً ألا يقاتله ولا يكثر عليه جمعاً ولا يظاهر عليه أحداً، فنقض العهد وخرج مع قريش لأُحد وصار يستنفر الناس ويحرّضهم على قتاله ﷺ بأشعاره، فدعا رسول الله ﷺ ألا يفلت فأسر فقال: يا محمد أقلني وامنن عليّ ودعني لبناتي وأعطيك عهداً ألا أعود لمثل ما فعلت، فقال رسول الله ﷺ:(لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تجلس بالحجر تقول خدعت محمداً، اضرب يا زيد عنقه لا يلدغ المؤمن جحر مرتين)، فضرب عنقه وحمل رأسه إلى المدينة وهذا المثل الذي ضربه رسول الله ﷺ لم يسمع من غيره.

ثم رجع رسول الله ﷺ بأصحابه ووصلوا المدينة يوم الجمعة، وقد غاب خمساً وظفر ﷺ عند رجوعه إلى المدينة بجاسوس من جواسيس مكة، وهو معاوية بن المغيرة بن أبي العاص؛ وذلك أنه لما رجع المشركون يوم أحد جاء معاوية هذا إلى ابن عمه عثمان بن عفان فاستأمن له عثمان رسول الله ﷺ، فأمنه على أنه إن وجد بعد ثلاث قتله، فلما خلت المدينة من الجيش الإسلامي أقام فيها أكثر من ثلاث يتجسس لحساب قريش، فلما رجع الجيش خرج معاوية هارباً، فأمر رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وعمار بن ياسر، فتعقباه حتى قتلاه .

انتفض دوج، وقال: ما أسهل أن يأمر نبيكم بالقتل؟

قال الحكيم: لقد كان من سنة رسول الله ﷺ في التعامل مع أعدائه هو القضاء على رؤوس الكفر الذين لا يكتفون بأن يبقوا على كفرهم، بل يضموا إليه التحريض والقتال واستعمال كل الوسائل للصد عن الدين، لأنه إذا قضي على هؤلاء أتيح للأذناب أن يتبصروا الحق، ويتبعوه.. وفي ذلك كل المصلحة وكل السلام.

لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا، كما أشار إليه الكتاب المقدس، فقد قال تعالى:﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾(البقرة: من الآية٢٥١)، فقتل داود جالوت ــ الذي هو رأس العدو ــ هزيمة كبرى للعدو قدمت للانتصار الذي حققته الثلة المؤمنة.

سرية أبي سلمة:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، ثم قال: لعل صديقنا الفنان يشير بهذا السيف إلى سرية أبي سلمة..

سكت دوج، فقال الحكيم: لقد كان من آثار النصر الخفي الذي وهبه الله للمؤمنين في أحد أن أبرز الحاقدون للإسلام عن أنيابهم.. وكان منهم بنو أسد بن خزيمة.. وكان لذلك إرسال هذه السرية.

لقد نقلت استخبارات المدينة لرسول الله ﷺ أن طلحة وسلمة ابني خويلد يدعون بني أسد بن خزيمة إلى حرب رسول الله ﷺ.

فسارع رسول الله ﷺ إلى بعث سرية قوامها مائة وخمسون مقاتلاً من المهاجرين والأنصار، وأمر عليهم أبا سلمة، وعقد له لواء، فباغت أبو سلمة بني أسد بن خزيمة في ديارهم قبل أن يقوموا بغارتهم، فتشتتوا في الأمر، وأصاب المسلمون إبلا وشاء لهم فاستاقوها، وعادوا إلى المدينة سالمين غانمين لم يلقوا حرباً.

قال دوج: فقد عاد المسلمون إلى النهب.

قال الحكيم: هذا ليس نهبا.. بل هو من الغنائم المشروعة في الحروب.. وليس الغرض منها إلا ردع الوساوس التي قد لا يردعها إلا حرصها على الحياة والمال.

بعث عبد الله بن أُنَيس:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل هذا السيف يشير إلى بعث عبد الله بن أُنَيس.. لا أظن إلا أنه يشير إليه..

وفي اليوم الخامس من المحرم سنة ٤ هـ أخبر رسول الله ﷺ بأن خالد بن سفيان الهذلي يحشد الجموع لحرب المسلمين، فأرسل إليه النبي ﷺ عبد الله ابن أنيس ليقضي عليه.

وظل عبد الله بن أنيس غائباً عن المدينة ثماني عشرة ليلة، ثم قدم يوم السبت لسبع بقين من المحرم، وقد قتل خالداً وجاء برأسه، فوضعه بين يدي النبي ﷺ فأعطاه عصا وقال: (هذه آية بيني وبينك يوم القيامة)، فلما حضرته الوفاة أوصي أن تجعل معه في أكفانه.

بعث الرَّجِيع:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل هذا السيف يشير إلى بعث الرجيع .. لا أظن إلا أنه يشير إليه..

إن هذا البعث دليل على الخيار الصعب الذي اختاره رسول الله ﷺ..

لقد كان بين قوم لا يرعون حرمة، ولا يوفون بعهد.. بل يستعملون كل الوسائل لتحقيق المآرب التي يصبون إليها.

في شهر صفر من السنة الرابعة من الهجرة قدم على رسول الله ﷺ قوم من عَضَل وقَارَة، وذكروا أن فيهم إسلاماً، وسألوا أن يبعث معهم من يعلمهم الدين، ويقرئهم القرآن، فبعث معهم نفرا من أصحابه[1]، وأمر عليهم مَرْثَد بن أبي مَرْثَد الغَنَوي أو عاصم بن ثابت، فذهبوا معهم، فلما كانوا بالرجيع[2] غدروا بهم واستصرخوا عليهم هذيلاً ليعينوهم على قتلهم، فلم يرع القوم وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف، فأخذ عاصم ومن معه أسيافهم ليقاتلوا القوم، فقالوا: إنا والله لا نريد قتلكم، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم، وقالوا ذلك لأنهم يريدون أن يسلموهم لكفار قريش، ويأخذوا في مقابلتهم أجراً لعلمهم أنه لا شيء أحب إلى قريش من أن يأتوا بأحد من أصحاب محمد ﷺ يمثلون به ويقتلونه بمن قُتل منهم ببدر وأُحد، فأبوا أن يقبلوا منهم.

فأما مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً، وقاتلوا حتى قُتلوا.

---

(١) ستة نفر في قول ابن إسحاق، وفي رواية البخاري أنهم كانوا عشرة.

(٢) وهو ماء لهُذَيلٍ بناحية الحجاز بين رَابِغ وجُدَّة.

وأما زيد وخبيب وعبد الله بن طارق فلانوا ورقوا، فأعطوا بأيديهم فأسروهم، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها حتى إذا كانوا بالظهران انتزع عبد الله بن طارق، ثم أخذ واستأخر عنه القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه، وأما خبيب بن عدي وزيد بن عدي وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة فباعوهما.

وكان شراؤهما في ذي القعدة، فحبسوهما حتى خرجت الأشهر الحرام، فقتلوا زيداً، وأما خبيب فقد مكث أسيراً حتى خرجت الأشهر الحرام ثم أجمعوا على قتله، وكانوا في أول الأمر أساءوا إليه في حبسه فقال لهم: ما يصنع القوم الكرام هكذا بأسيرهم، فأحسنوا إليه بعد ذلك وجعلوه عند امرأة تحرسه وهي ماوية مولاة حجير، وقد قالت ماوية: كان خبيب يتهجد بالقرآن فإذا سمعه النساء بكين ورققن عليه، فقلت له: هل لك من حاجة؟ قال: لا إلا أن تسقيني العذب ولا تطعميني ما ذُبح على النصب وتخبريني إذا أرادوا قتلي، فلما أرادوا ذلك أخبرته فوالله ما اكترث بذلك.

ولما خرجوا بخبيب من الحرم ليقتلوه قال: ذروني أصلِّ ركعتين، فتركوه فصلى ركعتين، ثم قال خبيب: لولا أن يقولوا جزعَ لزدت، وما أبالي على أي شِقِّي كان لله مصرعي ثم قال:

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم أخذ يدعو عليهم قائلا:(اللهم أحصهم عدداً وخذهم بدداً)، ثم خرج به أبو سروعة بن الحارث فضربه فقتله ــ رضي الله عنه ــ

وعن عروة بن الزبير ــ رضي الله عنه ــ قال: لما أرادوا قتل خبيب ووضعوا فيه السلاح والرماح والحراب وهو مصلوب نادوه وناشدوه: أتحبّ أنّ محمداً مكانك؟ قال: والله ما أحب أن يفديني بشوكة في قدمه، وقيل: إن زيد بن الدثنة قالوا له ذلك أيضاً عند قتله فأجابهم بمثل ذلك، فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمداً محمداً.

وقد كانت هذيل حين قتل عاصم بن ثابت قد أرادوا رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنها يوم أُحد لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن في قحف رأسه الخمر فمنعه الزنابير، فلما حالت بينهم وبينه قالوا: دعوه حتى يمسي فتذهب عنه فنأخذه فبعث الله سيلاً، فاحتمل عاصماً فذهب به، وكان عاصم قد أعطى الله عهداً ألا يمسه مشرك أبداً ولا يمس مشركاً أبداً تنجساً منه، فكان عمر بن الخطاب يقول حين بلغه أن الدبر منعته:(عجباً لحفظ الله العبد المؤمن.. كان عاصم نذر ألا يمسه مشرك ولا يمس مشركاً أبداً في حياته، فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع منه في حياته)

بئر مَعُونة:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى ما حصل في بئر معونة.. فإن كان يقصده، فهو من أكبر الأدلة على نجاعة الأسلوب الذي اختار رسول الله ﷺ أن يتعامل به مع أولئك الأجلاف الغلاظ.

في ذلك الشهر نفسه الذي وقعت فيه مأساة الرَّجِيع وقعت مأساة بئر مَعُونة.. وهي مأساة أشد وأفظع من الأولى.

وقد بدأت هذه المأساة عندما قدم أبا براء عامر بن مالك المدعو بمُلاَعِب الأسِنَّة على رسول الله ﷺ المدينة، فدعاه إلى الإسلام، فلم يسلم، و لم يبعد، فقال : يا رسول الله، لو بعثت أصحابك إلى أهل نَجْد يدعوهم إلى دينك لرجوت أن يجيبوهم، فقال: (إني أخاف عليهم أهل نجد)، فقال أبو بَرَاء : أنا جَارٌ لهم، فبعث معه نفرا كثيرا من أصحابه[1]، وأمر عليهم المنذر بن عمرو أحد بني ساعدة، وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وساداتهم وقرائهم، فساروا يحتطبون بالنهار، يشترون به الطعام لأهل الصفة، ويتدارسون القرآن ويصلون بالليل، حتى نزلوا بئر معونة، فنزلوا هناك، ثم بعثوا حرام بن مِلْحَان أخا أم سليم بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطُّفَيْل، فلم ينظر فيه، وأمر رجلاً فطعنه بالحربة من خلفه، فلما أنفذها فيه ورأى الدم، قال حرام : الله أكبر، فُزْتُ ورب الكعبة.

ثم استنفر هذا الرجل الماكر لفوره بني عامر إلى قتال الباقين، فلم يجيبوه لأجل جوار أبي براء، فاستنفر بني سليم، فأجابته عُصَيَّة ورِعْل وذَكَوان، فجاءوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد بن النجار، فإنه ارْتُثَّ من بين القتلى، فعاش حتى قتل يوم الخندق.

وكان عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن عقبة بن عامر في سرح المسلمين فرأيا الطير تحوم على موضع الوقعة، فنزل المنذر، فقاتل المشركين حتى قتل مع أصحابه، وأسر عمرو بن أمية الضمري، فلما أخبر أنه من مُضَرَ جَزَّ عامر ناصيته، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه.

ورجع عمرو بن أمية الضمري إلى النبي ﷺ حاملاً معه أنباء المصاب الفادح، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين.

وقد تألم النبي ﷺ لأجل هذا الغدر ألما شديدا حتى دعا على هذه القبائل التي قامت بالغدر والفتك في أصحابه، فعن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال : دعا النبي ﷺ على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحاً، يدعو في صلاة الفجر على رِعْل وذَكْوَان ولَحْيَان وعُصَيَة، ويقول:(عُصَية عَصَتْ الله ورسوله)

غزوة بني النضير:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل هذا السيف يشير إلى غزوة بني النضير.. فإن كان يشير إليه، فسأحدثكم عنها.

هذه مواجهة أخرى بين رسول الله ﷺ وبين اليهود..

لاشك أنكم تعلمون مقدار الحقد الذي كان يحمله اليهود للمسلمين.. ولكنهم لضعفهم لم يكن لهم وسيلة يحققون بها أحقادهم سوى المؤامرات والدسائس..

وشاء الله أن يكون ما حصل في أحد سببا من أسباب طمعهم في المسلمين.. وشاء الله كذلك أن لا يبقى في جوار رسول الله ﷺ هؤلاء الخادعون.

بدأت قصة هذه الغزوة عندما خرج إليهم رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، طالبا منهم أن يعينوه في دية

---

(١)كانوا أربعين رجلاً في قول ابن إسحاق، وفي الصحيح أنهم كانوا سبعين.

الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضَّمْرِي [1] ـــ وكان ذلك واجبا عليهم حسب بنود المعاهدة ـــ فقالوا : نفعل يا أبا القاسم، اجلس ها هنا حتى نقضي حاجتك.

فجلس رسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعدوا، وجلس معه أبو بكر وعمر وعلي وطائفة من أصحابه.

وخلا اليهود بعضهم إلى بعض، فتآمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحي، ويصعد فيلقيها على رأسه يشدخه بها؟ فقال عمرو بن جحاش: أنا، فقال لهم سَلاَّم بن مِشْكَم: لا تفعلوا، فوالله ليخبرن بما هممتم به، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه.. ولكنهم أبوا إلا أن ينفذوا ما عزموا عليه.

وفي ذلك الوقت أخبر الله تعالى رسوله ﷺ بما هموا به، فنهض مسرعاً وتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه، فقالوا : نهضت و لم نشعر بك، فأخبرهم بما هَمَّتْ به يهود [2].

وما لبث رسول الله ﷺ أن بعث محمد بن مسلمة إلى بني النضير يقول لهم : (اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم عشراً، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه)

و لم يجد يهود مناصاً من الخروج، فأقاموا أياماً يتجهزون للرحيل، بيد أن رئيس المنافقين عبد الله بن أبي بعث إليهم أن اثبتوا وتَمَنَّعُوا، ولا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونك،م وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان..

---

(١) وسبب ذلك أنه لما كان عمرو بن أمية في الطريق بالقَرْقَرَة من صدر قناة، نزل في ظل شجرة، وجاء رجلان من بني كلاب فنزلا معه، فلما ناما فتك بهما عمرو، وهو يري أنه قد أصاب ثأر أصحابه الذين قتلوا في بئر معونة، وإذا معهما عهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به، فلما قدم أخبر رسول الله ﷺ بما فعل، فقال :(لقد قتلت قتيلين لأدِيَنَّهما)، وانشغل بجمع ديتهما من المسلمين ومن حلفائهم اليهود، وهذا الذي صار سبباً لغزوة بني النضير.

(٢) هذه خلاصة ما رواه ابن إسحاق وعامة أهل السير حول هذه الغزوة. وقد روي أبو داود وعبد الرزاق وغيرهما سبباً آخر حول هذه الغزوة، وهو أنه لما كانت وقعة بدر فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود : إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خَدَم نسائكم شيء ـــ وهو الخلاخيل ـــ فلما بلغ كتابهم اليهود أجمعت بنو النضير على الغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ: اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، ولنخرج في ثلاثين حبراً، حتى نلتقي في مكان كذا، نَصَفٌ بيننا وبينكم، فيسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا، فخرج النبي ﷺ في ثلاثين من أصحابه، وخرج إليه ثلاثون حبراً من يهود، حتى إذا برزوا في براز من الأرض قال بعض اليهود لبعض : كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه، كلهم يحب أن يموت قبله، فأرسلوا إليه : كيف تفهم ونفهم ونحن ستون رجلاً؟ اخرج في ثلاثة من أصحابك ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا، فليسمعوا منك، فإن آمنوا بك آمنا كلنا وصدقناك، فخرج النبي ﷺ في ثلاثة نفر من أصحابه واشتملوا [أي اليهود] على الخناجر، وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ، فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى بني أخيها، وهو رجل مسلم من الأنصار، فأخبرته خبر ما أرادت بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ، فأقبل أخوها سريعاً حتى أدرك النبي ﷺ، فساره بخبرهم قبل أن يصل النبي ﷺ إليهم، فرجع النبي ﷺ، فلما كان من الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحاصرهم، وقال لهم : (إنكم لاتأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه)، فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك هو والمسلمون، ثم غدا الغد على بني قريظة بالخيل والكتائب، وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم، وغدا إلى بني النضير بالكتائب، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا الحَلْقة ـــ والحَلْقة: السلاح ـــ فجاءت بنو النضير واحتملوا ما أقلت إبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها، فكانوا يخربون بيوتهم فيهدمونها، فيحملون ما وافقهم من خشبها، وكان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام .

وقد نص القرآن الكريم على مقولته، فقال:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(الحشر:١١)

وهناك عادت لليهود ثقتهم، واستقر رأيهم على المناوأة، وطمع رئيسهم حيي بن أخطب فيما قاله رأس المنافقين، فبعث إلى رسول الله ﷺ يقول : إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك.

لقد كان الموقف شديد الحرج للمسلمين بعد أن تبنى أعداؤهم هذا الأسلوب الخطير أسلوب الاغتيال والخداع..

ولذلك لم يجد رسول الله ﷺ بدا من الخروج إليهم.. فلذلك ما إن وصله جواب حيي بن أخطب حتى كبر وكبر أصحابه، ثم نهض لمناجزة القوم، فاستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وسار إليهم، وعلى بن أبي طالب يحمل اللواء، فلما انتهي إليهم فرض عليهم الحصار.

والتجأ بنو النضير إلى حصونهم، فأقاموا عليها يرمون بالنبل والحجارة، وكانت نخيلهم وبساتينهم عوناً لهم في ذلك، فأمر ﷺ بقطعها وتحريقها، وفي ذلك أنزل الله تعالى قوله:﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ) (الحشر:٥)

وبعد خمسة عشر يوما، وبعد أن اعتزلتهم قريظة فلم تُعنهم، وخذلهم ابن أُبي وحلفاؤهم من غطفان، فأيسوا من نصرهم، قالوا: نخرج عن بلادك، فقال: لا أقبله اليوم، ثم قال لهم: أخرجوا منها، ولكن دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة، فرضوا بذلك ونزلوا عليه.

فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عما استحسن من خشبه كبابه وكنجاف به، فيضعه على ظهر بعيره، فينطلق به فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام.

ولما أيقن بنو النضير بالجلاء حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم، فجعلوا يخربوها من داخل وقد كانوا ينظرون إلى الخشبة في منازلهم مما يستحسنونه أو الباب فيهدمون بيوتهم ويترعوها ويحملوها على الإبل[1].

غزوة ذات الرّقاع:

(١) نقل الشيخ محمد رشيد رضا عن الدكتور إسرائيل ولفنسون في رسالته (تاريخ اليهود في بلاد العرب) معللا ما فعله اليهود من تخريب بيوتهم قوله: «إن هدم البيوت لم يكن القصد منه التخريب وأخذ الأخشاب، بل إن هدم نجاف البيوت يتعلق بعقيدة تلمودية معروفة وهي أن كل يهودي على نجاف بيته صحيفة تشتمل على وصية موسى لبني إسرائيل أن يحتفظوا بالإيمان بإله واحد ولا يبدلوه ولو عُذبوا وقُتلوا، فاليهود حين يترحون من منازلهم يأخذوها معهم وهي عادة متبعة عند اليهود إلى يومنا هذا، قال: ويظهر أن يهود بلاد العرب كانوا يضمون تلك الصحيفة في داخل النجاف خوفاً من إتلاف الهواء أو مسّ الأيدي فلما رحلوا عن ديارهم هدموا نجاف البيوت وأخذوها».

وقد عقب عليه الشيخ بقوله:(وإنا نسلم أن هذه عادة اليهود ولا ننازعه في أنهم أخذوا تلك الصحائف المقدسة مع ما أخذوا، لكن أخذ الصحائف فقط لا يستدعي هدم البيوت وإلا كان الواحد منهم إذا انتقل من بيت إلى آخر هدم البيت الأول لاستخراج صحيفته وهذا محال، وعبارة ابن إسحاق صريحة في أن الرجل منهم كان يهدم بيته عن نجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق، والنجاف الذي يُقال له الدوارة وهو الذي يستقبل الباب من أعلى الأسكفة، وفي السيرة الحلبية صاروا ينقضون العُمُد والسقوف وينزعون الخشب حتى الأوتاد، وينقضون الجدران حتى لا يسكنها المسلمون حسداً وبغضاً)

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى غزوة ذات الرِّقَاع[1].. فإن كان يشير إليها، فهي من الغزوات التي توجه بها ﷺ إلى أولئك الأعراب القساة الضاربين في فيافي نجد، والذين ما زالوا يقومون بأعمال النهب والسلب بين آونة وأخرى.

ولما كان هؤلاء البدو لا تجمعهم بلدة أو مدينة، و لم يكونوا يقطنون الحصون والقلاع، كانت الصعوبة في فرض السيطرة عليهم وإخماد نار شرهم تمامًا تزداد بكثير عما كانت بالنسبة إلى أهل مكة وخيبر؛ ولذلك لم تكن تجدي فيهم إلا حملات التأديب ولهذا قام المسلمون بمثل هذه الحملات مرة بعد أخرى.

ومن ذلك هذه الغزوة التي قصد بها رسول الله ﷺ فض اجتماع البدو الذين كانوا يتحشدون للإغارة على أطراف المدينة، وقد خشي رسول الله ﷺ أن ينقضوا على المدينة بعد خروجه لبدر الثانية.

قال ابن إسحاق: (ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد غزوة بني النضير[2] شهري ربيع وبعض شهر جمادى، ثم غزا نجداً يريد بني محارب وبني ثعلبة من غَطَفَان نخل وهي ذات الرقاع، فلقي بها جمعاً من غطفان فتقارب الناس و لم يكن بينهم حرب وقد خاف الناس بعضهم بعضاً حتى صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف ثم انصرف المسلمون، وكانت أول صلاة للخوف صلاها رسول الله)

وقد حدث جابر ـــ رضي الله عنه ـــ عن بعض ما حصل في هذه الغزوة، فقال:: كنا مع النبي ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ، فترل رسول الله ﷺ فتفرق الناس في العضاة، يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه. قال جابر: فنمنا نومة، فجاء رجل من المشركين: فاخترط سيف رسول الله ﷺ، فقال: أتخافني؟ قال: (لا)، قال: فمن يمنعك مني؟ قال: (الله). قال جابر: فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئنا، فإذا عنده أعرابي جالس. فقال رسول الله ﷺ : (إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صَلْتًا. فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله، فها هو ذا جالس)، ثم لم يعاتبه رسول الله ﷺ

وفي رواية: فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ، فقال: (من يمنعك مني؟) قال: كـــن خـــير آخـــذ، قال: (تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟) قال الأعرابي: أعاهدك على ألا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، قال: فخلي سبيله، فجاء إلى قومه، فقال: جئتكم من عند خير الناس.

---

(١)اختلف في سبب تسمية هذه الغزوة بذات الرقاع، قيل: هي اسم شجرة في موضع الغزوة سُميت بها، وقيل: لأن أقدامهم نقبت من المشي فلفوا عليها الخرق، وقيل: بل سُميت برقاع كانت في ألويتهم، وقيل: ذات الرقاع جبل فيه سواد وبياض وحمرة فكأنها رقاع في الجبل فسُميت الغزوة بذلك الجبل، وقيل: إنه موضع لقول دُعثور: حتى إذا كنا بذات الرقاع.

(٢) وقد خالف بعض الباحثين في وقوع غزوة ذات الرقاع في هذا الوقت بالذات، ذلك أن هذه الغزوة قادها الرسول ﷺ فى ربيع الآخر أو جمادى الأولى سنة ٤ هـــ مع أن ذات الرقاع شهدها أبو هريرة وأبو موسى الأشعرى رضي الله عنهما، وكان إسلام أبي هريرة قبل غزوة خيبر بأيام، وكذلك أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه، وافى النبى ﷺ بخيبر. وإذن فغزوة ذات الرقاع بعد خيبر، ويدل على تأخرها عن السنة الرابعة أن النبى ﷺ صلى فيها صلاة الخوف، وكانت أول شرعية صلاة الخوف فى غزوة عُسْفَان، ولا خلاف أن غزوة عسفان كانت بعد الخندق، وكانت غزوة الخندق فى أواخر السنة الخامسة. انظر: الرحيق المختوم.
ونحن ذكرنا هنا ما ذكره عامة علماء السيرة.. ولعل هناك اتفاقا في التسمية بين الغزوتين، مما خلط الأمر في تأريخها.

غزوة بدر الثانية:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، ثم قال: لعل هذا السيف يشير إلى غزوة بدر الثانية[1]، وهذه الغزوة دليل آخر من أدلة ما نصر الله به نبيه من النصر الخفي يوم أحد.

لا شك أنكم تذكرون ذلك الموعد الذي ضربه أبو سفيان للمسلمين بالالتقاء في بدر بعد سنة من غزوة أحد.

قال الجمع: أجل.. نذكر ذلك.. فما الذي حصل؟

قال الحكيم: أما المسلمون.. وعلى رأسهم رسول الله ﷺ، فقد حضروا أنفسهم لذلك الموعد خير تحضير، فبعد أن خضدوا شوكة الأعراب، وكفكفوا شرهم، أخذوا يتجهزون لملاقاة قريش عدوهم الأكبر.

ففي شعبان سنة ٤هـ خرج رسول الله ﷺ لموعده في ألف وخمسمائة، وكانت الخيل عشرة أفراس، وحمل لواءه علي بن أبي طالب، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة، وانتهى إلى بدر، فأقام بها ينتظر المشركين.

وأما أبو سفيان فخرج في ألفين من مشركي مكة، ومعهم خمسون فرساً، حتى انتهى إلى مَرِّ الظَّهْرَان على بعد مرحلة من مكة فنزل بمَجَنَّة، وهو ماء في تلك الناحية.

وقد كان في خروجه متثاقلاً خائفا من عقبي القتال مع المسلمين، فلما نزل بمر الظهران خار عزمه، فاحتال للرجوع، وقال لأصحابه: يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا.

وقد تبعه جيشه الذي لم يكن له أي طاقة معنوية بقتال المسلمين.

وكان أبو سفيان قد بعث ــ قبل ذلك ــ إلى المدينة شخصاً اسمه نُعَيْم ليرجف أصحاب رسول الله ﷺ بكثرة العدو ليحملهم على عدم الخروج، وذلك ليكون له عذر في الرجوع إلى مكة، ولكن رسول الله ﷺ لم يبال بما سمع من كثرة عدد الجيش وتثبيط همة الناس، فقال: (والذي نفسي بيده لو لم يخرج معي أحد لخرجت وحدي)

وأقام ﷺ ببدر ثمانية أيام ينتظر العدو، وباع المسلمون ما معهم من التجارة فربحوا بدرهم درهمين، ثم رجعوا إلى المدينة، وقد انتقل زمام المفاجأة إلى أيديهم، وتوطدت هيبتهم في النفوس، وزالت كل آثار ما حصل يوم أحد.

غزوة دُوَمة الجندل:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل هذا السيف يشير إلى غزوة دُوَمة الجندل.. فإن كان يريد ذلك، فهذه الغزوة من الغزوات التأديبية التي أراد بها رسول الله ﷺ أن يملأ المنطقة التي تحيط به أمنا، فلا حياة مع الخوف.

لقد مكث رسول الله ﷺ بعد بدر الصغري في المدينة ستة أشهر، ثم جاءت إليه الأخبار بأن القبائل حول

---

(١)وتعرف هذه الغزوة ببدر الموعد، وبدر الثانية، وبدر الآخرة، وبدر الصغرى.

دومة الجندل[1] تقطع الطريق هناك، وتنهب ما يمر بها، وأنها قد حشدت جمعاً كبيرا تريد أن تهاجم المدينة، فاستعمل رسول الله ﷺ على المدينة سِبَاع بن عُرْفُطَة الغفاري، وخرج في ألف من المسلمين لخمس ليال بقين من ربيع الأول سنة ٥هـ، وأخذ رجلاً من بني عُذْرَة دليلاً للطريق يقال له: مذكور.

وقد كان ﷺ يسير بالليل ويكمن النهار حتى يفاجئ أعداءهم وهم غارون، فلما دنا منهم إذا هم مغربون، فهجم على ما شيتهم ورعائهم، فأصاب من أصاب، وهرب من هرب.

أما أهل دومة الجندل ففروا في كل وجه، فلما نزل المسلمون بساحتهم لم يجدوا أحداً، وأقام رسول الله ﷺ أياماً، وبث السرايا وفرق الجيوش، فلم يصب منهم أحداً، ثم رجع إلى المدينة، ووادع في تلك الغزوة عيينة بن حصن.

وبهذه الغزوة استطاع المسلمون بقيادة رسول الله ﷺ أن يقفوا في وجه كل من تحدثه نفسه بزرع الرعب في نفوس الآمنين.

غزوة بني المصطلق:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى غزوة بني المصطلق أو غزوة المريسيع[2].. فإن كان يريدها، فهي من الغزوات التي فرضت على المسلمين فرضا.

وقد بدأت عندما جمع الحارث بن ضرار الخزاعي الجموع لمحاربة النبي ﷺ، فخرج رسول الله ﷺ وخرج معه كثير من المنافقين لم يخرجوا في غزوة قط مثلها، وكان معه ثلاثون من الخيل، عشرة للمهاجرين وعشرون للأنصار.

وعندما بلغ رسول الله ﷺ الْمُرَيْسيع من ناحية قديد إلى الساحل وصف أصحابه للقتال حمل المسلمون على المشركين فقتلوا عشرة وأسروا باقيهم، وكانوا أكثر من سبعمائة، وسبوا الرجال والنساء والذرية وساقوا النعم والشاء، و لم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد وهو هشام بن صبابة وقد قتل خطأ، أصابه رجل من الأنصار من رهط عبادة بن الصامت، وهو يرى أنه من العدو.

وقد كتب الله أن يكون من جملة السبي: جُوَيرية بنت الحارث بن أبي ضرار رئيس بني المصطلق، وكانت زوجة لمسافع بن صفوان الذي قتل في هذه الغزوة.

وقد كان زواج هذه المرأة الفاضلة من رسول الله ﷺ سببا فيما حصل لقومها من الخير.. قالت عائشة ــ رضي الله عنها ــ: لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق[3] وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن

---

(١) دُومَة الجَنْدَل مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال وبعدها من المدينة خمس عشرة ليلة وهي أقرب بلاد الشام إلى المدينة وبقرب تبوك.

(٢) الْمُرَيْسيع: ماء لبني خزاعة وتسمى هذه الغزوة غزوة بني المصطلق، وهم بطن من خزاعة، وقد حدثت في شعبان سنة خمس من الهجرة (ديسمبر سنة ٦٢٦ م)

(٣) سنتحدث عن الشبهات المرتبطة بهذا في رسالة (رحمة للعالمين) من هذه السلسلة.

قيس بن شماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حلوة مُلاّحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها، قالت عائشة: فوالله ما هو إلا أن رأيتها فكرهتها، وقلت: يرى منها ما قد رأيت، فلما دخلت على رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، وقد كاتبت على نفسي فأعني على كتابتي، فقال رسول الله ﷺ:(أو خير من ذلك أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك)، فقالت: نعم، ففعل رسول الله ﷺ فبلغ الناس أنه زوجها، فقال: أصهار رسول الله ﷺ، فأرسلوا ما كان في أيديهم من بني المصطلق، فلقد أعتق بها مائة من أهل بيت بني المصطلق، فما أعلم امرأة أعظم بركة منها على قومها، ولما تزوجها رسول الله ﷺ حجبها وقَسم لها.

وبسبب زواجها هدى الله أكثر بني المصطلق إلى الإسلام، ثم أسلم الحارث، ومن هنا تظهر حكمة رسول الله ﷺ في زواجها[1].

غزوة الأحزاب:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى غزوة الأحزاب.. فإن كان يريدها.. فهي من الغزوات التي تبرر الخيار الذي اختاره رسول الله ﷺ بالمواجهة الشديدة مع هؤلاء الذي لا يقنعهم سوى المنطق الذي تفرضه السيوف.

وقد كان الهدف المعلن من هذه الغزوة ــ التي خطط لها جميع أعداء رسول الله ﷺ من المشركين واليهود والمنافقين ــ هو القضاء على الإسلام قضاء كليا.

وقد بدأت المؤامرة[2] بخروج عشرين رجلاً من زعماء اليهود وسادات بني النضير[3] إلى قريش بمكة، يحرضونهم على غزو الرسول ﷺ، ويوالونهم عليه، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم، فأجابتهم قريش، وكانت قريش قد أخلفت موعدها في الخروج إلى بدر، فرأت في ذلك إنقاذا لسمعتها والبر بكلمتها.

ثم خرج هذا الوفد إلى غَطَفَان، فدعاهم إلى ما دعا إليه قريشاً فاستجابوا لذلك، ثم طاف الوفد في قبائل العرب يدعوهم إلى ذلك فاستجاب له من استجاب، وهكذا نجح ساسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الكفر على النبي ﷺ والمسلمين.

وقد حدث أنه لما دعت اليهود قريشاً لمحاربة النبي ﷺ وقالوا لهم: سنكون معكم حتى نستأصله، ارتابوا في أمرهم، لأن دين اليهود قريب من الإسلام وبعيد عن عبادة الأصنام كل البعد وقريش عباد أصنام، ولذلك قالوا لهم: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟

---

(١) سنعود إلى الحديث عنها بتفصيل أكثر في فصل (زوجات) من هذه الرسالة.

(٢) اتفق المؤرخون على أن هذه الغزوة وقعت في شوال من السنة الخامسة (فبراير سنة ٦٢٧ م) لكن ابن خلدون يقول في تاريخه (والصحيح أنها في الرابعة ويقويه ابن عمر يقول: ردني رسول الله ﷺ يوم أُحد وأنا ابن أربع عشرة سنة ثم أجازني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فليس بينهما إلا سنة واحدة وهو الصحيح فهي قبل دومة الجندل بلا شك)

(٣) منهم سلام بن مشكم ورئيسهم كنانة بن أبي الحقيق النضري وحييّ بن أخطب وهوذة بن قيس الوائلي وأبو عامر الفاسق.

قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه، فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ما قالوا واستعدوا للحرب.

وقد نزل في ذلك قوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴾ (النساء: ٥٠)

وقد كان هذا القول من علماء اليهود داعية لألم الأستاذ ولفنسون الذي قال:(والذي يؤلم كل مؤمن بإله واحد من اليهود والمسلمين على السواء، إنما هو تلك المحادثة التي جرت بين نفر من اليهود وبين قريش الوثنيين حيث فضل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية)[1]

ولكن الأحقاد التي كانت تملأ قلوب اليهود هي التي كانت تحكم ذلك الوقت لا العلم ولا المنطق.

بعد أن مهدت التربة، واجتمعت الأحزاب خرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة في بني فزارة والحارث بن عوف بن أبي حارثة المري في بني مرة ومسعود بن رُخيلة بن نويرة بن طريف فيمن تابعه من قومه من أشجع.

فلما سمع رسول الله ﷺ بتحزبهم وخروجهم لمحاربته أمر بحفر الخندق حول المدينة في الجهات التي لم تكن حصينة لتعوق العدو المهاجم.

وقد أشار عليه ﷺ بحفره سلمان الفارسي ــ رضي الله عنه ــ اقتداء بما كان الفرس يفعلونه للدفاع في الحرب، قال سلمان: يا رسول الله كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا.

وقد اشتغل رسول الله ﷺ بحفر الخندق بنفسه ليقتدي به المسلمون، وليشجعهم على العمل، فاشتغل المسلمون معه، أما المنافقون فكانوا يتوانون وينصرفون بدون إذن رسول الله ﷺ ويستثقلون العمل ويثبطون العزائم وتباطأ رجال من المنافقين وصار الواحد منهم ينصرف إلى أهله من غير استئذان.

ولينظم رسول الله ﷺ العمل بين أصحابه خط الخندق، ثم قطعه أربعين ذراعاً بين كل عشرة، فاختلف المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي، وكان رجلاً قوياً، فقالت الأنصار: سلمان منا، وقالت المهاجرون: سلمان منا، فقال رسول الله ﷺ:(سلمان منا أهل البيت)

وبينما جماعة من المسلمين يعملون في حفر الخندق في الجزء المخصص لهم ومعهم سلمان الفارسي إذ ظهرت صخرة بيضاء مَرْوَة، فكسرت حديد معاولهم وشقت عليهم، فقالوا: يا سلمان ارق إلى رسول الله ﷺ، فأخبره خبر هذه الصخرة، فإما أن نعدل عنها فإن المعدل قريب، وإما أن يأمر فيها بأمره، فإنا لا نحب أن نجاوز خطه.

فرقي سلمان حتى أتى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبة تركية، فقال: يا رسول الله بأبينا أنت وأمنا، خرجت صخرة بيضاء من الخندق مروة، فكسرت حديدنا، وشقت علينا حتى ما نحيكُ فيها قليلاً ولا كثيراً، فمرنا فيها بأمرك، فإنا لا نحب أن نجاوز خطك.

فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان في الخندق، وأخذ المعول من سلمان، فقال:(باسم الله)، ثم ضربها، فنثر

---

(١) تاريخ اليهود: ١٤٢.

ثلثها وخرج منها نور أضاء ما بين لابتيها يعني لابتي المدينة، فقال:(الله أكبر، أعطيتُ مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة من مكاني)

ثم ضرب الثانية، فقطع ثلثاً آخر، فبرقت برقة من جهة فارس أضاءت ما بين لابتيها، فقال:(الله أكبر أُعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن فأبشروا بالنصر)، فسُرَّ المسلمون.

ثم ضرب الثالثة وقال:(باسم الله)، فقطع بقية الحجر وخرج نور من قبل اليَمَن فأضاء ما بين لابتي المدينة حتى كأنه مصباح في جوف ليل مظلم، فقال:(الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة)

وفي حديث آخر عن جابر ــ رضي الله عنه ــ قال: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة فجاءوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال:(أنا نازل) ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب في الكدية فعادت كثيباً أهيل.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من دومة بين الجرف والغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تابعهم من كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غَطَفَان ومن تابعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نَقَمَى بجانب أُحد.

وفي هذا الموقف الحرج الذي اجتمعت فيه كل هذه الجموع على حرب المسلمين نقضت قريضة عهدها..

وقصة ذلك أن كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة كان قد وادع النبي ﷺ على قومه وعاقده على ذلك، فذهب إليه حُيَيّ بن أخطب النضري، وهو أحد الذين حزبوا الأحزاب، فلما سمع كعب حُيَيّ بن أخطب أغلق دونه باب حصنه فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فألح عليه ابن أخطب ففتح له وما زال يستميله ويغريه حتى نقض كعب عهده وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ وصار هو وقومه وبنو قريظة مع الأحزاب على رسول الله ﷺ، وعلم بذلك رسول الله ﷺ، وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف، وانتهز المنافقون هذه الفرصة لتثبيط العزائم، وهمّ بالفشل بنو حارثة وبنو سلمة معتذرين بأن بيوتهم عورة خارج المدينة، ثم ثبتهم الله، ودام الحصار على المسلمين قريباً من شهر ولم يكن بينهم غير الرمي بالنبال، وكان لدى المسلمين من المؤونة ما يكفيهم أكثر من عام.

لقد صور الله تعالى تلك المخاوف التي كانت تملأ قلوب المسلمين، فقال:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥)﴾ (الأحزاب)

وقد ذكر موقف المؤمنين بجنب هذه الشدائد، فقال:﴿ وَلَمَّا رَأى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً) (الأحزاب:٢٢)

في ذلك الموقف الشديد خرجت فوارس من قريش على خيلهم بعد أن تهيأوا للقتال حتى وقفوا خارج الخندق، فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، ثم يمموا مكاناً من الخندق ضيقاً، فضربوا خيلهم فاقتحمت منه، فجالت بهم السبخة بين الخندق وسلع وخرج عليّ بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ في نفر من المسلمين حتى أخذ عليهم الثغرة التي اقتحموها، وخرج عمرو بن عبد ود، وطلب المبارزة، فبارزه عليّ بن أبي طالب فقتله.

وفي ذلك الموقف الشديد الذي كان فيه رسول الله ﷺ يعصب الحجر على بطنه من الجوع أرسل المشركون إلى رسول الله ﷺ يشترون جيفة عمرو بعشرة آلاف، فقال رسول الله ﷺ:(هو لكم.. ولا نأكل ثمن الموتى)

وقد خرجت خيله منهزمة، حتى اقتحمت من الخندق هاربة، وقتل مع عمرو رجلان منبه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار أصابه سهم فمات منه بمكة، ومن بني مخزوم نوفل بن عبد الله بن المغيرة وكان اقتحم الخندق فتورط فيه فرموه بالحجارة فقال: يا معشر العرب قتلة أحسن من هذه فترل إليه عليّ فقتله، ومن الذين كانوا يناوشون المسلمين خالد بن الوليد وعمرو بن العاص.

ورُمِي سعد بن معاذ يومئذ بسهم فقال: خذها وأنا ابن العرقة، فقال سعد: عرّق الله وجهك في النار، فأصاب الأكحل منه فقطعه، فقال سعد: اللهم لا تمتني حتى تقر عيني في بني قريظة، وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية، ونقل سعد وهو مجروح إلى خيمة رُفيدة، وقد كانت امرأة تداوي الجرحى في المسجد.

وكما استعمل رسول الله ﷺ الخندق وسيلة لحماية المدينة.. فقد استعمل أسلوبا آخر لعله لا يرضي صاحبنا الفنان.. إنه أسلوب الخدعة الذي قال فيه ﷺ:(الحرب خدعة)

انتفض دوج قائلا: ألا تعجبون من نبي يقول هذا.. ألا تعجبون من نبي يخادع، ويدعو إلى الخدعة؟

قال الحكيم: إذا كانت الخدعة وسيلة لحقن الدماء وإحلال السلام كانت أسلوبا مشروعا.. بل كانت أسلوبا واجبا.. وليس هناك من أمة في الدنيا إلا وتلجأ إليها إذا لم تجد غيرها.

قال الجمع: فكيف حصل ذلك؟

قال الحكيم: لقد جاء جاء نُعيم بن مسعود إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ:(إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة)

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديماً في الجاهلية، فقال لهم: يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد، وقد ظاهرتموهم عليه، وإن قريشاً وغطفان ليسوا كهيئتكم، البلد بلدكم، به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره وإن قريشاً وغطفان أموالهم وأبناؤهم ونساؤهم وبلدهم بغيره

فليسوا كهيئتكم إن رأوا نُهْزَة وغنيمة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمداً حتى تناجزوه، فقالوا: لقد أشرت برأي ونصح.

ثم خرج حتى أتى قريشاً، فقال لأبي سفيان ومن معه من رجال قريش: يا معشر قريش قد عرفتم ودي إياكم وفراقي محمداً، وقد بلغني أمر رأيت حقاً عليّ أن أبلغكموه نصحاً، فاكتموا عليّ، قالوا: نفعل ذلك، قال: فاعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه أن قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك عنا أن نأخذ من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم، فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم؟ فأرسل إليهم أن نعم، فإن بعث إليكم يهود يلتسمون منكم رهناً من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً.

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان أنتم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إليّ ولا أراكم تتهمونني، قالوا: صدقت، قال: فاكتموا عليّ، قالوا: نفعل، ثم قال لهم مثل ما قال لقريش، وحذرهم ما حذرهم.

فلما كانت ليلة السبت في شوال سنة خمس، وكان ما صنع الله عز وجل لرسوله ﷺ أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه، فأرسلوا إليهم أن اليوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابه ما لم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلادنا، ولا طاقة لنا بذلك من محمد، فلما رجعت إليهم الرسل بالذي قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: تعلمون والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا إلى بني قريظة إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن أنتم تريدون القتال، فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا: إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فإن وجدوا فرصة انتهزوها، وإن كانوا غير ذلك تشمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلادكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً، فأبوا عليهم وخَذل الله بينهم، وبذلك نجحت الخدعة.

وبعد توفير المؤمنين كل أسباب النصرة الممكنة أرسل الله الريح في ليال شاتية شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم، وتطرح أبنيتهم، وأصيبوا بالبرد، وماتت مواشيهم، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم وما فرق الله من جماعتهم، دعا حذيفة فبعثه إليهم لينظر ما فعل القوم ليلاً، وكان حذيفة صاحب سر رسول الله ﷺ قال حذيفة: فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً، كما قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ (الأحزاب: ٩).

وقد وصف حذيفة ذلك الموقف الشديد، فذكر أن أبا سفيان بن حرب قام فقال:(يا معشر قريش لينظر امرؤ جليسه)، قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ فقال: أنا فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان:(يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من هذه الريح ما ترون والله ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإني مرتحل)، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه، ثم ضربه، فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم.

هذه خطبة أبي سفيان في الجيش، وكان قائدهم ولا بقاء للجند بعد رجوع القائد ونصيحته لهم بالعودة، ولا شك أنهم سئموا الإقامة و لم يروا فائدة من الانتظار أكثر مما انتظروا، وقد ساءت حالهم بسبب اشتداد البرد وهبوب الريح وعدم رغبة بني قريظة في القتال، وقد كانوا يؤملون دخول المدينة، فكان الخندق عقبة في سبيلهم بالرغم من كثرة عددهم.

ولما سمعت غطفان بما فعلت قريش تشمروا راجعين إلى بلادهم تاركين ما استثقلوا من متاعهم فغنمه المسلمون، وانصرف المسلمون عن الخندق ورجعوا إلى المدينة ووضعوا السلاح بعد أن حاصرهم المشركون خمسة عشر يوماً، وانصرف ﷺ من غزوة الخندق، وقد قال بعد انصراف الأحزاب:(لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا)، وقد كان كما أخبر ﷺ، فقد كانت هذه الغزوة آخر محاولة من أعداء رسول الله ﷺ من قريش ومن حالفهم للقضاء على الإسلام.

ومع عظم الجيش المعد لهذه الغزوة ــ التي كان يمكن أن تقضي على الإسلام في مهده لولا حنكة رسول الله ﷺ ــ إلا أن خسائر الطرفين فيها لم تكن كبيرة، فقد ذكر ابن إسحاق أنه استشهد من المسلمين يوم الخندق ستة لا غير: ثلاثة من الأوس وهم: سعد بن معاذ، وأنس بن أوس، وعبد الله بن سهيل، وثلاثة من الخزرج وهم: الطفيل بن النعمان، وثعلبة بن غنمة، وكعب بن زيد.

أما عدد قتلى المشركين فثلاثة: منبه بن عبد العبدري أصابه سهم فمات منه بمكة، ونوفل بن عبد الله المخزومي، وعمرو بن عبد وُدّ.

غزوة بني قريظة:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لا شك أن صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى غزوة بني قريظة.

قال دوج: أجل.. إن هذه الغزوة أكبر وصمة عار في تاريخ المسلمين.. ولن تستطيع مهما حاولت أن تغسل هذه الوصمة.

قال الحكيم: اصبر علي.. فما كان لك أن تستعجل الحكم قبل أن تسمع القضية ومواطن الاحتمال فيها.. لنرى ما يقول العقل والمنطق والحكمة.

لقد وقعت هذه الغزوة مباشرة بعد غزوة أحد[1] وكانت متوجهة لبني قريظة[1]، لا شك أنكم تعلمون

---

(١)وقعت في ذي القعدة سنة خمس – إبريل سنة ٦٢٧ م.

جريمتهم الكبرى التي فعلوها في غزوة الأحزاب.. لقد كان مصير الإسلام والمسلمين بين أيديهم، ولولا ما قدره الله من الفتنة بينهم ما بقيت للمسلمين باقية.. لقد كانوا بمثابة الباب الذي فتح على حصن المسلمين..

ولذلك ما إن انصرف رسول الله ﷺ من الخندق ودخل المدينة هو وأصحابه ووضعوا السلاح.. وجاء وقت الظهيرة حتى أتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ معتجراً بعمامة من استبرق على بغلة عليها رحالة عليها قطيفة من ديباج، فقال: أوَقد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال:(نعم)، فقال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة فإني عامد إليهم فمزلزل بهم.

فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً، فأذن في الناس من كان سامعاً مطيعاً، فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة.

وقدم رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة وابتدرها الناس، وكان عدد من خرج إلى القتال ثلاثة آلاف والخيل ستة وثلاثين فرساً.

دنا عليّ ـــ رضي الله عنه ـــ من الحصن، ومعه نفر من المهاجرين والأنصار وغرز اللواء عند أصل الحصن، فسمع من بني قريظة مقالة قبيحة في حقه ﷺ وحق أزواجه فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق فقال: يا رسول الله لا عليك ألاّ تدنو من هؤلاء الأخابث، قال: لِمَ؟ أظنك سمعت لي منهم أذى، قال: نعم يا رسول الله، لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً، فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال:(يا إخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟)، قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً.

ومرّ رسول الله ﷺ بنفرٍ من أصحابه بالصوْرَين قبل أن يصل إلى بني قريظة فقال:(هل مرّ بكم أحد؟)، قالوا: يا رسول الله قد مرّ بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحالة، عليها قطيفة ديباج فقال رسول الله ﷺ:(ذلك جبريل بُعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم)

وحاصرهم رسول الله [2] ﷺ حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وكان طعام الصحابة التمر يرسل به إليهم سعد بن عبادة.

وقد كان حُيَيّ بن أخطب دخل على بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه، فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يقاتلهم، قال كعب بن أسد لهم: يا معشر اليهود إنه قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيّها شئتم، قالوا: وما هن؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد كان تبين لكم أنه لنبيٌّ مرسل، وإنه للذي كنتم تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره.

قال: فإذا أبيتم عليَّ هذه، فهَلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مُصْلتين

---

(١)بنو قُرَيْظَة قوم من اليهود بالمدينة من حلفاء الأوس، وسيد الأوس حينئذ سعد بن معاذ.

(٢) خمساً وعشرين ليلة، كما قال ابن إسحاق وقال الواقدي: إحدى وعشرين ليلة.

بالسيوف، و لم نترك وراءنا ثقلاً يهمنا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك، نهلك و لم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإن نظفر فلعمري لنجدن النساء والأبناء.

قالوا: نقتل هؤلاء المساكين، فما خير العيش بعدهم؟

قال: فإذا أبيتم هذه عليَّ، فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمِنوا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غِرَّة.

قالوا: نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يكن أحدث فيه من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابه من المسخ ما لم يخف عليك.

قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً.

ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لُبابة أخو بني عمرو بن عوف وكانوا حلفاء الأوس نستشيره في أمرنا، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوه، قام إليه الرجال وأسرع إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه من شدة المحاصرة، فرق لهم، وقالوا له: يا أبا لبابة أترى أن نترل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه (إنه الذبح)، قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنتُ الله ورسوله بإذاعة سره.

ثم انطلق أبو لبابة على وجهه، و لم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده، وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى أموت أو يتوب الله عليَّ مما صنعت وعاهد الله أن لا يطأ بني قريظة أبداً، وقال: لا يراني الله في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً، فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره وأبطأ عليه وكان قد استبطأه قال:(أما لو جاءني لاستغفرت له، فأما إذا فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه)

ثم إن توبة أبي لبابة أنزلت على رسول الله ﷺ وهو في بيت أم سلمة فبشرت أبا لبابة بذلك ثم أطلقه رسول الله ﷺ.

فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فتواثبت الأوس فقالوا: يا رسول الله إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي الخزرج بالأمس ما قد علمت، وقد كان رسول الله ﷺ قبل بني قريظة حاصر بني قينقاع، وكانوا حلفاء الخزرج فترلوا على حكمه، فسأله إياهم عبد الله بن أبي بن سلول فوهبهم له، فلما كلمه الأوس قال رسول الله ﷺ:(ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟)، قالوا: بلى، قال:(فذاك إلى سعد بن معاذ)، وكان سعد بن معاذ قد جعله رسول الله ﷺ في خيمة امرأة من المسلمين يُقال لها رُفَيدة في مسجده كانت تداوي الجرحى وتحتسب نفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين، وقد قال رسول الله ﷺ لقومه حين أصابه السهم بالخندق:(اجعلوه في خيمة رُفيدة حتى أعوده من قريب)

وقد كان حكم سعد في بني قريظة معروفاً، لأنه لما أصيب في غزوة الخندق قال:(اللهم لا تمتني حتى تقرّ عيني في بني قريظة)، وقد بقي مجروحاً إلى أن استدعاه رسول الله ﷺ ليحكم في بني قريظة، فأتاه قومه فاحتملوه على حمار، وأقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو أحسن في مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتُحسن فيهم، فلما أكثروا عليه، قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فرجع بعض من

كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل، فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد بن معاذ عن كلمته التي سمع منه.

فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، قال رسول الله ﷺ:(قوموا إلى سيدكم فأنزلوه)، فقال رسول الله ﷺ:(احكم فيهم)، قال:(فإني أحكم فيهم أن تقتل مُقاتِلتُهم، وأن تُسبى ذراريُّهم، وأن تُقسم أموالهم)، فقال رسول الله ﷺ:(لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله)، فأمر رسول الله ﷺ أن تكون النساء والذرية في دار ابنة الحارث امرأة من بني النجار، وأمر بالأسارى أن يكونوا في دار أسامة بن زيد، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق ثم أمر بقتل كل المقاتلين، فبعث إليهم فجاءوا إليه أرسالاً تضرب أعناقهم، ويلقون في تلك الخنادق، وكان فيهم عدو الله الأكبر حُييّ بن أخطب، وكعب بن أسد رأس القوم[1].

و لم يقتل من النساء إلا امرأة واحدة، هي بنانة امرأة الحكم القُرَظي، وقد كانت طرحت رحى على خلاد بن سويد، فقتلته.

قال دوج: أترى أن هذا التصرف يمكن أن يقوم به نبي؟

قال الحكيم: نعم.. فالنبي هو الحكيم العدل الذي يضع الأمور في مواضعها الصحيحة.. إنه يمثل عدالة الله وحكمته، كما يمثل رحمته وفضله.

وحكمة الله وعدله تقتضي المعاقبة على الجرائم..

قال دوج: وقد تقتضي العفو عنها.

قال الحكيم: للعفو مواضعه، وللعقوبة مواضعها.. لقد رأينا عفو النبي ﷺ عن بني النضير واكتفائه بإجلائهم عن المدينة.. فماذا فعلوا؟

قال رجل من الجماعة: لقد كانوا سببا في تأليب الأحزاب على رسول الله ﷺ.

قال الحكيم: فالحكمة تقتضي ــ إذن ــ أن يظهر القائد من الحزم ما يحمي به من يقوده.

سكت قليلا، ثم التفت إلى دوج، وقال: أرأيت لو دخلت الأحزاب على المسلمين من جهة بني قريظة ماذا يمكن أن يحصل؟

سكت دوج، فقال الحكيم: لقد كان أهل المدينة جميعا ــ وهم آلاف مؤلفة ــ عرضة للذبح والقتل والأسر.. فكيف تستنكر عقوبة من عرض هؤلاء لهذا؟

ثم لماذا تستنكرون هذا، والقنبلة الواحدة من قنابلكم تلقونها على المدن والقرى.. فتحصد من البشر بل من المدنيين أضعاف هذه الأعداد.. مع أن النبي ﷺ لم يقتل إلا المحاربين.

سكت قليلا، ثم قال: ومع ذلك فقد كان بين يدي القرظيين سبل كثيرة للنجاة، ولكنهم ــ لكبرهم وعنادهم ــ أبوا أن يسلكوها، وآثروا القتل عليها، بل تكبروا حتى على الاعتذار لرسول الله ﷺ عن الجريمة الكبيرة التي اقترفوها.

---

(١) وقد اختلف في عددهم، فقيل: كانوا ٦٠٠ أو ٧٠٠، وقيل: إنهم كانوا من ٨٠٠ إلى ٩٠٠.

لقد روي أنه لما أتي بحييّ بن أخطب مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمتُ نفسي في عداوتك، ولكنه من يَخذل الله يُخذل، ثم أقبل على الناس، فقال: أيها الناس لا بأس بأمر الله، كتاب الله وقدره وملحمة قد كتبت على بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه وضربت عنق كعب بن أسد سيد بني قريظة.

فأنت ترى إصرار هذا الرجل على عناده وكبره إلى آخر لحظة.

ومثله ما روي أن ثابت بن قيس استوهب الزبير بن باطا وأهله وماله ــ وكانت للزبير يد عند ثابت ــ فوهبهم له رسول الله ﷺ، فقال له ثابت بن قيس: قد وهبك رسول الله ﷺ إلى، ووهب لي مالك وأهلك فهم لك، فقال الزبير بعد أن علم بمقتل قومه: سألتك بيدي عندك يا ثابت إلا ألحقتني بالأحبة، فضرب عنقه، وألحقه بالأحبة من اليهود .

وعلى خلاف هؤلاء رفاعة بن سموأل القرظي الذي استوهبته أم المنذر سلمي بنت قيس النجارية، فوهبه لها فاستحيته، فأسلم وله صحبة.

وأسلم منهم تلك الليلة نفر قبل النزول، فحقنوا دماءهم وأموالهم وذراريهم.

وخرج تلك الليلة عمرو بن سعدي ــ وكان رجلاً لم يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله ﷺ ــ فرآه محمد بن مسلمة قائد الحرس النبوي، فخلي سبيله حين عرفه، فلم يعلم أين ذهب.

سكت قليلا، ثم توجه لدوج قائلا: ألا ترى من العدل أن يحكم الغالب المغلوبين بما ارتضوه من قوانين؟

قال دوج: ذلك صحيح..

قال الحكيم: فقد حكم سعد بإقرار رسول الله ﷺ على بني قريظة بما نصت عليه قوانينهم، بل بما نص عليه كتابهم المقدس.

قال دوج: كيف ذلك؟

قال الحكيم: لقد جاء في سفر التثنية:(حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح فإن أجابتك وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً، التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما بل تحرمها تحريماً)(التثنية: ١/٢٠)

لقد علق مولانا محمد علي، على هذا النص بقوله:(وهكذا حكم سعد وفقا للشريعة الموسوية بقتل ذكور بني قريظة وبسبي نسائهم وأطفالهم وبمصادرة ممتلكاتهم.. ومهما بدت هذه العقوبة قاسية، فقد كانت على درجة الضبط للعقوبة التي كان اليهود يترلونها– تبعاً لتشريع كتابهم– بالمغلوبين من أعدائهم، فأي اعتراض على قسوة هذه العقوبة هو في الواقع انتقاد لا شعوري للشريعة الموسوية، وتسليم بأن شريعة أكثر إنسانية يجب أن تحل محلها، وأيما مقارنة بالشريعة الإسلامية في هذا الصدد خليق بها أن تكشف ــ في وضوح بالغ ــ أي قانون

رفيق عطوف رحيم قدمه الإسلام إلى الناس)[1]

سرية القرطاء:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل هذا السيف يشير إلى سرية القرطاء..

لقد كانت هذه السرية أول سرية بعد الفراغ من الأحزاب وقريظة، وكان عدد قوات هذه السرية ثلاثين راكباً.. وكان هدفها تأديب بطن بني بكر بن كلاب بالقرطاء ناحية ضَرِيَّة بالبَكَرات من أرض نجد، وكان بينها وبين المدينة سبع ليال، وقد تحركت هذه السرية لعشر ليال خلون من المحرم سنة ٦ هـــ.

فلما أغارت عليهم هربوا، فاستاق المسلمون نعما وشاء، وقدموا المدينة لليلة بقيت من المحرم ومعهم ثُمَامَة بن أثال الحنفي سيد بني حنيفة، كان قد خرج متنكراً لاغتيال النبي ﷺ بأمر مسيلمة الكذاب، فأخذه المسلمون، فلما جاءوا به ربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: (ما ذا عندك يا ثمامة؟) فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فَسَلْ تعط منه ماشئت، فتركه، ثم مرّ به مرة أخري ؛ فقال له مثل ذلك، فرد عليه كما رد عليه أولاً، ثم مر مرة ثالثة فقال ــ بعد ما دار بينهما الكلام السابق: (أطلقوا ثمامة)، فأطلقوه، فذهب إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم جاءه فأسلم، وقال: والله، ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلى من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى، والله ما كان على وجه الأرض دين أبغض إلى من دينك، فقد أصبح دينك أحب الأديان إلى، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فبشره رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر، فلما قدم على قريش قالوا: صبأت يا ثمامة، قال: لا والله، ولكني أسلمت مع محمد ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ. وكانت يمامة ريف مكة، فانصرف إلى بلاده، ومنع الحمل إلى مكة، حتى جهدت قريش، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامـــة يخلي إليـــه حمل الطعـــام، ففعـــل رســـول الله ﷺ .

غزوة بني لحيان:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل هذا السيف يشير إلى غزوة بني لحيان..

لقد وقعت هذه الغزوة في أول شهر ربيع الأول سنة ست من الهجرة (يونيه – يوليه سنة ٦٢٧ م)

أما سببها، فلعلكم تذكرون مأساة الرجيع.. تلك المأساة التي ذهب ضحيتها عشرة من أصحاب النبي ﷺ غدرا وعدوانا.. لقد كان بنو لحيان هم الذين غدروا بهؤلاء العشرة وتسببوا في إعدامهم، ولكن لما كانت ديارهم متوغلة في الحجاز إلى حدود مكة، ولم يكن رسول الله ﷺ يرى ــ من الحكمة ــ أن يتوغل في البلاد بمقربة من العدو الأكبر، فلما تخاذلت الأحزاب، واستوهنت عزائمهم، واستكانوا للظروف الراهنة إلى حد ما، رأي أن الوقت قد آن ليطبق حكم العدالة على هؤلاء الغادرين ليكونوا عبرة لغيرهم.

فخرج إليهم في مائتين من أصحابه، وأظهر أنه يريد الشام، ثم أسرع السير حتى انتهي إلى بطن غُرَان ــ

---

(١) حياة محمد ورسالته، ص ١٧٥.

واد بين أَمَجَ وعُسْفَان ـــ حيث كان مصاب أصحابه، فترحم عليهم ودعا لهم، وسمعت به بنو لحيان فهربوا في قمم الجبال، فلم يقدر منهم على أحد، فأقام يومين بأرضهم، وبعث السرايا، فلم يقدروا عليهم، فسار إلى عسفان، فبعث عشرة فوارس إلى كُرَاع الغَمِيم لتسمع به قريش، ثم رجع إلى المدينة، وكانت غيبته عنها أربع عشرة ليلة.

غزوة ذي قرد:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى غزوة ذي قرد.. فإن كان يشير إليها، فإن سببها يدل على الجو الذي كان يحيط برسول الله ﷺ والذي كان يفرض عليه أن يظهر بمظهر القائد الحازم لتنعم الرعية بالأمن الذي كانت تفتقده.

لقد وقعت هذه الغزوة في ذي قَرَد، وهو ماءٌ على نحو بريد من المدينة، مما يلي بلاد غطفان، وقد حصلت في ربيع الأول سنة ست (يوليه سنة ٦٢٧ م)[١]

أما سببها، فهو أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة لم يقم إلا ليالي قلائل حتى أغار عيينةُ بن حصن بن بدر الفزاري في خيل لغطفان على لقاح رسول الله ﷺ بالغابة، وكانت عشرين لقحة، وفيها رجل من بني غفار وامرأته، فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة في اللقاح.

والرجل الذي قتلوه هو ابن أبي ذر ـــ رضي الله عنه ـــ واسمه ذر، وكان يرعى الإبل، وامرأته التي أسروها اسمها ليلى، وقد نجت لأنهم أوثقوها وكانوا يريحون نعمهم بين يدي بيوتهم، فانطلقت وركبت ناقة للنبي ﷺ ليلاً على حين غفلتهم، فانطلقت ولما علموا بها طلبوها فأعجزتهم[٢].

ولما أغاروا على اللقاح في يومهم ذلك جاء الصريخ فنادى: الفزع الفزع، ونودي يا خيل الله اركبي.. فركب رسول الله ﷺ في خمسمائة واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم كعادته، وخلف سعد بن عبادة ـــ رضي الله عنه ـــ في ٣٠٠ رجل يحرسون المدينة، وعقد لواء للمقداد ـــ رضي الله عنه ـــ في رمحه، وقال: امض حتى تلحقك الخيول، وأنا على إثرك.

وكانت نتيجة هذه الغزوة أنهم أدركوا العدو فهزموه وقتلوا رؤساءه واستنقذوا اللقاح، ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد وهو محرز بن نضلة، وسار رسول الله ﷺ حتى بلغ ذا قرد في اتجاه خيبر فالتجأ العدو إلى بني غطفان، وقد أبلى في هذه الغزوة سلمة بن الأكوع بلاءً حسناً وكان رامياً.

سرية الغمر:

---

(١) وفي البخاري أنها كانت قبل خيبر بثلاثة أيام وبعد الحديبية بعشرين يوماً.

(٢) وقد روي أنها نذرت لئن نجت لتنحرنها، فلما قدمت على النبي ﷺ أخبرته بذلك، وقالت: يا رسول الله إني نذرت لله تعالى أن أنحرها إن نجاني الله عليها، فقال: (بئسما جزيتها أن حملك الله عليها ونجاك أن تنحريها، إنه لا نذر لأحد في معصية ولا لأحد فيما لا يملك إنما هي ناقة من إبلي، ارجعي إلى أهلك على بركة الله)

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى سرية الغمر [1].. أو سرية عكاشة بن محصن الأسدي.

لقد أرسل رسول الله ﷺ هذه السرية في شهر ربيع الأول سنة ست من الهجرة.. وكانت تتكون من أربعين رجلاً يتزعمهم عكاشة بن محصن الأسدي ــ رضي الله عنه ــ فنذر به القوم، فهربوا فنزلوا على بلادهم فوجدوا ديارهم خالية لهربهم، فبعث المسلمون طليعة، فرأوا أثر النعم قريباً فقصدوها، فأصابوا رجلاً منهم فأمنوه فدلهم على نعم لبني عم لهم فأغاروا عليها فاستاقوا ٢٠٠ بعير وأطلقوا الرجل وقدموا بالإبل على رسول الله ﷺ و لم يلقوا حرباً.

قال دوج: أليس هذا استيلاء على أموال الناس بغير حق؟

قال الحكيم: لا.. وإلا لكانت المحاكم التي تفرض الضرائب الضخمة على المجرمين محاكم لصوص.

قال دوج: كيف ذلك؟ وما العلاقة بينهما؟

قال الحكيم: لقد عرفت البيئة التي كان يعيشها المسلمون.. و لم يكن يردعها إلا هذا ومثله، ولهذا سلك رسول الله ﷺ معهم هذا السلوك التأديبي الذي آتى ثماره في فترة قصيرة جدا.. فما هي إلا أيام معدودات حتى استتب الأمن في الجزيرة جميعا، وتحقق بذلك تأويل قوله ﷺ لبعض أصحابه:(والله ليتمن الله هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف الا الله والذئب على غنمه)[2]

سرية ذي القَصَّة:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى سرية ذي القَصَّة.. فإن كان يشير إليها، فقد أرسل رسول الله ﷺ هذه السرية في شهر ربيع الأول (الموافق شهر أغسطس سنة ٦٢٧ م)

وكان سببها هو ما بلغ المسلمين من أن بني ثعلبة وأنمار أجمعوا على أن يغيروا على سرح المدينة، وهي ترعى بهيفاء.

وقد أرسل رسول الله ﷺ في بادئ الأمر محمد بن مسلمة ومعه عشرة إلى بني ثعلبة، فورد عليهم ليلاً بمن معه، وقد كمن لهم المشركون لشعورهم بمجيئهم إليهم، فتركوا محمد بن مسلمة حتى نام هو وأصحابه، ثم أحدقوا بهم، فما شعر المسلمون إلا بالنبل قد خالطهم فوثب محمد بن مسلمة ومعه قوس فصاح في أصحابه: السلاح فوثبوا فتراموا بالنبل ساعة من الليل، ثم انحاز أصحاب محمد إليه وقد قتلوا من القوم رجلاً، ثم حمل القوم عليهم بالرماح فقتلوهم إلا محمد بن مسلمة فوقع جريحاً فحمله رجل من المسلمين حتى ورد به المدينة جريحاً.

ثم بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة عامر بن الجراح في ربيع الآخر في أربعين رجلاً إلى منازلهم، فأغار عليهم فلم يجد أحداً ووجد نعماً وشاء فساقه وأصاب رجلاً واحداً فأسلم فتركه وأخذ نعماً من نعمهم فاستاقه وشيئاً

(١)الغَمْر ماء لبني أسد على ليلتين من فَيد – قلعة بطريق مكة –

(٢) رواه أحمد والبخاري وأبو داود.

من متاعهم وقدم به المدينة.

سرايا لزيد بن حارثة:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم بالجموم.. فإن كان ذلك كذلك.. فقد سارت هذه السرية في ربيع الآخر.. وقد من الله عليها بالتوفيق فيما أرسلت له، فأصابت نعماً وشاء ووجدت جماعة منهم فأسروهم.

وقد أرسل رسول الله ﷺ بعدها زيد بن حارثة إلى العيص، وكانت في جمادى الأولى سنة ست (سبتمبر سنة ٦٢٧م)

وذلك عندما بلغه أن عيراً قد أقبلت من الشام، فبعث زيد بن حارثة ومعه سبعون راكباً ليتعرض لها فأدركها وأخذها وما فيها وأخذ يومئذ فضة كثيرة لصفوان بن أمية بن خلف، وأسر منهم ناساً: منهم أبو العاص بن الربيع، وأم هالة بنت خويلد أخت خديجة، وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين تجارة ومالاً وأمانة، وهو زوج زينب بنت رسول الله ﷺ فدخلت زينب على رسول الله ﷺ فسألته أن يرد عليه ما أخذ منه فقبل.

ثم ذهب أبو العاص إلى مكة فأدى إلى كل ذي مال ماله، ثم أسلم وخرج فقدم المدينة.. وكانت زينب هاجرت قبله إلى المدينة وتركته على شركه ثم بعد أن أسلم وهاجر ردها ﷺ إليه.

ثم أرسل رسول الله ﷺ زيدا بن حارثة حِسْمَى، وهي أرض ينزلها جزام وراء وادي القرى وذلك من جهة الشام وكانت في جمادى الآخرة سنة ست (أكتوبر سنة ٦٢٧ م).

وسببها: أن رسول الله ﷺ كان قد أوفد دحية بن خليفة الكلبي بكتاب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، فأعطاه جائزة وكساه، فلقيه الهنيد بن عارض في الطريق وهو عائد فقطعوا عليه الطريق وأصابوا كل شيء كان معه عند حسمى، فسمع بذلك نفر من بني الضبيب رهط رفاعة بن زيد الجذامي ممن كان أسلم، فاستنقذوا ما كان في أيديهم وردوه على دحية.

وقد قدم دحية على رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، فبعث زيد بن حارثة في ٥٠٠ رجل، فكان زيد يسير بالليل ويكمن بالنهار، ومعه دليل من بني عذرة فأقبل بهم حتى هجموا على القوم، فأغاروا عليهم، وقتلوا الهنيد وابنه، وأخذوا ماشيتهم ونساءهم وصبيانهم.

ثم رحل رفاعة بن زيد الجذامي في نفر من قومه فدفع لرسول الله ﷺ كتابه الذي كان كتبه له ولقومه حين قدم عليه فأسلم، فلما قرئ الكتاب لرسول الله ﷺ قال: (كيف أصنع بالقتلى؟) فقال رفاعة: أنت أعلم يا رسول الله لا نحرّم عليك حلالاً ولا نحل لك حراماً، فأرسل رسول الله ﷺ علياً إلى زيد فرد عليهم كل ما أخذ منهم.

سرية عبد الرحمن بن عوف:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى سرية عبد الرحمن بن عوف

إلى دُومة الجَنْدَل[1] والتي وقعت في شعبان سنة ست (نوفمبر سنة ٦٢٧ م)

لقد ذكر المؤرخون قصة ذلك.. فذكروا أن عبد الرحمن بن عوف أصبح وقد اعتم بعمامة من كرابيس سوداء، فأدناه رسول الله ﷺ منه، فأقعده بين يديه وعممه بيده، ثم أمر بلالاً أن يدفع إليه اللواء، ثم حمد الله وصلى على نفسه ﷺ ثم قال: (خذه يا ابن عوف اغزوا جميعاً في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم)

فأخذ عبد الرحمن اللواء، وبعثه رسول الله ﷺ إلى كلب بدومة الجندل وقال: إن استجابوا لك، فأسلموا فتزوج ابنة ملكهم، فسار عبد الرحمن بجيشه وكانوا ٧٠٠ رجل حتى قدم دومة الجندل فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، وقد كانوا أبوا أول ما قدم عليهم أن يعطوا إلا السيف، ثم أسلم في اليوم الثالث الأصبغ بن عمرو الكلبي وكان نصرانياً، وكان ملكهم ورئيسهم وأسلم معه ناس كثير من قومه وأقام عبد الرحمن بقيتهم بالجزية[2]، وتزوج تماضر بنت الأصبغ وقدم بها المدينة وفازت بصحبة رسول الله ﷺ وهي أم ابنة أبي سلمة.

قال دوج: ألا ترى كيف يأمر نبيكم بزواج قائده من ابنة ملكهم مع كونه يحاربهم؟

قال الحكيم: الزواج في شريعتنا مبني على الرغبة التامة من الطرفين، ولا يمكن لعبد الرحمن ـــ مهما كانت سلطته القيادية أن يتزوج من تلك المرأة إلا بعد إذنها وإذن أبيها.

قال دوج: فكيف أمره نبيكم بالزواج منها؟

قال الحكيم: أمره بالزواج منها يعني أمره بخطبتها على الطريقة الشرعية، فإن وافقت ووافق وليها تزوجها.. وفي ذلك حكم كبيرة.. فالنبي ﷺ أراد أن يقرب تلك القبيلة من المسلمين بالمصاهرة.. وهي أسلوب من الأساليب الذي لا يزال مستعملا إلى اليوم، ولأجله أبيح زواج المسلمين من أهل الكتاب.

سرية بني سعد بن بكر:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى السرية التي أرسل فيها ﷺ عليّا بن أبي طالب ـــ رضي الله عنه ـــ إلى بني سعد بن بكر، ومعه (١٠٠) رجل إلى بني سعد بن بكر، في شعبان سنة ست.

فإن كان ذلك كذلك، فليعلم أنها تدخل ضمن حرص رسول الله ﷺ على تأمين كل ما يحيط به.. بل محاولة تأمين الجزيرة العربية جميعا.. تلك الجزيرة التي أهلكتها الحروب..

وسببها المباشر هو ما بلغه ﷺ من أن بني سعد بن بكر ساعون في جمع الناس لإمداد يهود خيبر.. وبذلك كانت هذه السرية تأديبًا لكل من تسول له نفسه مساعدة اليهود في بغيهم المتوقع، حيث علمت تلك القبائل أن عين المدينة يقظة لكل ما يدور حولها، وأن جميع التحركات كانت تحت المراقبة، وبذلك قطع الطريق على

(١) كان رسول الله ﷺ غزا دومة الجندل في ربيع الأول سنة خمس (يوليه سنة ٦٢٦ م) وقد تقدم ذكرها.

(٢) سبقت الإشارة إلى الشبهات المرتبطة بالجزية في رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، وسنتحدث بمزيد من التفاصيل عنها في الأجزاء التالية.

تجمع الأعداد الكبيرة بقطع الطريق على تجمع الإمدادات الصغيرة[1].

وقد نصر الله المؤمنين في هذه السرية.. ومن عليهم بغنائم عادوا بها إلى المدينة المنورة.

سرية أم قرفة:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى السرية التي أرسلها ﷺ إلى فزارة بقيادة زيد بن حارثة ــ رضي الله عنه ــ في رمضان سنة ست من الهجرة.

فإن ذلك كذلك، فليعلم أن سببها هو أن زيدا بن حارثة ــ رضي الله عنه ــ خرج في تجارة إلى الشام ومعه بضائع لأصحاب النبي ﷺ.. وهذه أول مرة خرج فيها أحد من أصحاب رسول الله ﷺ في تجارة إلى الشام.. فلما كان بوادي القرى لقيه ناس من فزارة من بني بدر، فضربوه وضربوا أصحابه وأخذوا ما كان معهم، وقدم على رسول الله ﷺ فأخبره فبعثه إليهم في جيش، فأحاطوا بمن وجدوه من بني فزارة فقتلوهم، وأخذوا (أم قرفة) وهي بنت ربيعة بن بدر الفزاري، وكانت ملكة رئيسة وذات شرف في قومها وكانت عجوزاً كبيرة فأسرها قيس بن المحسر، فقتلها.

قال دوج: ألا تعجبون من قتل امرأة؟

قال الحكيم: لقد كانت تجاهر بالعداوة لرسول الله ﷺ.. بل كانت تسبه علنا.. بل روي أنها جهزت ثلاثين راكباً من ولدها وولد ولدها، وقالت لهم: اغزوا المدينة واقتلوا محمداً.

قال دوج: لقد روى المؤرخون أن ذلك الصحابي قلتها قتلاً فظيعاً، بأن ربط رجليها بحبلين، ثم ربطهما إلى بعيرين حتى شقها، أليس هذا إرهابا؟

قال الحكيم: هذا مخالف لتعاليم الإسلام.. والأسانيد الصحيحة لا تقر مثل هذه الرواية.. زيادة على أن اسم قيس هذا الذي أسر أم قرفة اختلف فيه، فقيل: إنه ابن المحسر، وقيل: ابن سحل، وقيل: ابن المحسن.

ثم كيف لم يسمع هذا الصحابي بتلك التعاليم الكثيرة التي كان يتوجه بها رسول الله ﷺ إلى السرايا كل حين من النهي عن المثلة من مثل قوله:(اغزوا جَميعاً فِي سَبيلِ اللَّهِ فقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ باللَّهِ وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تُمَثِّلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيداً فَهذا عَهْدُ اللَّهِ وَسِيرَةُ نَبِيِّهِ فِيكُمْ)؟

سرية عبد الله بن عتيك:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى السرية التي أرسل فيها رسول الله ﷺ عبد الله بن عتيك لقتل سلام بن أبي الحقيق في رمضان سنة ٦هـ الموافق: ديسمبر سنة ٦٢٧م[2].

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١٨٩/٦).

(٢) اختلف المؤرخون في تاريخ هذه السرية، فقد قيل: إنها كانت في ذي الحجة سنة خمس بعد الخندق، وفي البخاري قال الزهري بعد قتل كعب بن الأشرف الواقع سنة ثلاث، وذكرها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في السنة الثالثة في النصف من جمادى الآخرة. أما الواقدي فإنه زعم أن هذه السرية التي وجهها رسول الله r إلى أبي رافع أو سلام بن أبي الحقيق، إنما وجهها في ذي الحجة من سنة أربع من الهجرة،

فإن كان ذلك كذلك، فليعلم أن أبا رافع سلام بن أبي الحقيق، وهو من يهود بني النضير كان كثير التحريض على المسلمين، حتى إنه جعل لغطفان ومن حولها من قبائل مشركي العرب الجعل العظيم إن هي قامت لحرب رسول الله ﷺ، وشاع أمر أبي رافع وانتشر، وكان ممن ألب الأحزاب على رسول الله ﷺ، وأصبح تحريضه على دولة الإسلام من الأخطار التي يجب أن يوضع لها الحد[1].

وقد بعث رسول الله ﷺ إلى هذا الرجل رجالا من حلفائه السابقين من الأنصار[2]، وأمر عليهم عبد الله بن عتيك..

وقد كان إرسالهم بناء على رغبتهم، فقد روي أن خمسة من الخزرج وهم: عبد الله بن عتيك، وعبد الله بن أنيس، وأبو قتادة، والأسود بن خزاعى، ومسعود بن سنان الأسلمي قدموا إلى رسول الله ﷺ، واستأذنوه في قتل سلام بن أبي الحقيق، وهو بخيبر لأن الأوس كانوا قد أصابوا كعب بن الأشرف، فأراد الخزرج أن لا يكون للأوس فضل عليهم عند رسول الله ﷺ.

فأمرهم ﷺ بقتله ونهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة وأمّرَ عليهم عبد الله بن عتيك، فذهبوا إلى خيبر فكمنوا، فلمّا هدأت الرِجل والحركة جاءوا إلى منزله وكان في حصن مرتفع فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم، قال عبد الله بن عتيك: اجلسوا مكانكم فإني منطلق ومتلطف للبواب لَعَلّي أدخل الحصن، فأقبل حتى دنا من البواب ثم تقنع بثوبه ليخفي شخصه، كأنه يقضي حاجته مخافة أن يعرف فدخل واختبأ عند باب الحصن، ثم صعد إليه وكان عبد الله بن عتيك يتكلم اليهودية، فقدمه أصحابه ليتكلم بكلام أبي رافع، فاستفتح باب غرفته فرأته امرأته، فقالت: من أنت؟ قال: جئت أبا رافع بهدية، ففتحت له، وقالت: ذاك صاحبك، فلما رأت السلاح أرادت أن تصيح، فأشار إليها بالسيف فسكتت، قال: فقلت: أبا رافع، لا أعرف موضعه، فقال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت فضربته ضربة وأنا دهش فما أغنت شيئاً، و لم أقتله وصاح أبو رافع، فخرجت من البيت وكمنت غير بعيد، فقالت امرأته: يا أبا رافع هذا صوت عبد الله بن عتيك، قال: ثكلتك أمك وأين عبد الله بن عتيك؟ قال: ثم دخلت عليه كأني أغيثه وغيّرت صوتي، فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ قال: لأمك الويل إن رجلاً في البيت ضربني قبل بالسيف، فضربته ضربة أثخنته و لم أقتله، فصاح وقام

وقد رجح ما ذكرناه من التاريخ الشيخ رشيد رضا، قال: والثابت أن سلام بن أبي الحقيق كان من الذين حزبوا الأحزاب في غزوة الخندق، وغزوة الخندق كانت في السنة الخامسة وكان سلام هذا ممن ذهب إلى خيبر بعد إجلاء بني النضير ثم إنه بعد الخندق أخذ يحرض بني فزارة والقبائل الأخرى، ولذلك نرجح أن هذه السرية كانت في السنة السادسة كما ذكرها السيد دحلان فقد قال:(إنها كانت في رمضان سنة ست) (شهر ديسمبر سنة ٦٢٧م)

(١)انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية، محمد قلعجي، ص٢١٢.

(٢)كل أعضاء هذه السرية كانوا من الخزرج فقد حرصوا على أن ينافسوا إخوانهم من الأوس، الذين قتلوا كعب بن الأشرف، فقد كانوا كفرسي رهان في المسابقة في نصرة الإسلام.

قال كعب بن مالك: وكان مما صنع الله تعالى به لرسوله ﷺ أن هذين الحيين من الأنصار، الأوس والخزرج، كانا يتصاولان مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلين؛ يعني يتسابقان في خدمته، لا يصنع الأوس شيئا فيه عن رسول الله ﷺ غناء إلا قالت الخزرج: والله لا تذهبون بهذه فضلا علينا عند رسول الله ﷺ وفي الإسلام، قال: فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها، وإذا فعلت الخزرج شيئا قالت الأوس مثل ذلك(السيرة لابن هشام (١٧٧/٦)

أهله وصاحت امرأته ثم وضعت ظبة السيف في بطنه حتى دخل في ظهره وسمعت صوت العظم فعرفت أني قتلته[1].

وفي رواية أنه (لما صاحت بنا امرأته جعل الرجل منا يرفع عليها السيف ثم يذكر نهي رسول الله ﷺ فيكف يده)[2]

قال ابن عتيك: فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً حتى انتهيت إلى درجة، فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض فوقعت في ليلة مقمرة فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامة؛ وكان عبد الله بن عتيك سيّيء البصر ولما علم ابن عتيك أنه قتل أبا رافع أخبر رسول الله ﷺ.

سرية عبد الله بن رواحة:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى السرية التي أرسل فيها رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة الأنصاري الخزرجي إلى أُسير بن رِزَام اليهودي بخيبر في شوال سنة ست من الهجرة (يناير سنة ٦٢٨ م)

فإن كان ذلك كذلك، فليعلم أن اليسير بن رزام هو أمير اليهود بخيبر بعد سلام بن أبي الحقيق، وقد أخذ في جمع يهود الشمال وتحريضهم على رسول الله ﷺ، و لم يكتف بذلك بل بدأ بتأليب قبائل غطفان وجمعها لقتال رسول الله ﷺ، وحين علم رسول الله ﷺ ما يبيته اليهود له من الخديعة والمكر رأى ﷺ أن يتأكد من ذلك قبل أن يقدم على أمر ما، فأرسل عبد الله بن رواحة في نفر من المسلمين روادًا يكتشفون ما تخبئه يهود ومن لف لفها من مشركي العرب[3].

وقد تأكدت المخابرات النبوية من أمر اليسير بن رزام، وكان هذا كافيًا لقيام النبي ﷺ ببعث سرية في ثلاثين راكبًا عليهم عبد الله بن رواحة، وفيهم عبد الله بن أنيس فأتوه فقالوا: أرسلنا إليك رسول الله ﷺ ليستعملك على خيبر، فلم يزالوا به حتى تبعهم في ثلاثين رجلاً مع كل رجل منهم رديف من المسلمين، وكان هو رديف عبد الله بن أنيس على بعيره، حتى إذا كانوا بقرقرة ثبار على ستة أميال من خيبر، ندم اليسير على مسيره إلى رسول الله ﷺ، فأهوى بيده على سيف رديفه ابن أنيس، ففطن له، فاقتحم به، ثم ضربه بالسيف، فقطع رجله وضربه اليسير بمخرش[4] في يده من شواحط[5]، فضرب به وجه عبد الله فأمه[6]، ومال كل رجل من المسلمين على رديفه من اليهود فقتله، إلا رجل واحد أفلت على رجليه، فلما قدم ابن أنيس على رسول الله ﷺ

---

(١) ووقع في بعض الروايات: أن الذي قتل أبا رافع عبد الله بن أنيس والصواب ما في صحيح البخاري أن الذي قتله هو عبد الله بن عتيك، وفي أسد الغابة: (وهو الذي ولي قتل أبي رافع بن أبي الحقيق بيده وكان في بصره ضعف)

(٢)انظر: شرح المواهب اللدنية (١٦٨/٢)
(٣) انظر: اليهود في السنة المطهرة (٣٨٨/١، ٣٨٩)
(٤) المخرش: شبه المقرعة يضرب به، وهي معوجة الرأس.
(٥) الشواحط: شجر ابن النبع، من أشجار الجبال التي يتخذ منها القسي والسهام.
(٦) فأمه: أي جرحه في رأسه، والشجة المأمومة هي التي تبلغ أم الرأس.

تفل على شجه، فلم تقح و لم تؤذه.

وفي رواية عن عبد الله بن رواحة ــ رضي الله عنه ــ:(وأهوى أسير بيده إلى سيفي ففطنت له (يتضح من ذلك أن أسيراً كان أعزل) فدفعت بعيري وقلت: غدراً أي عدو الله، مرتين، فترلت فسقت بالقوم حتى انفرد لي أسير فضربته بالسيف فأندرت عامة فخذه وساقه فسقط عن بعيره ومال أصحاب النبي ﷺ على أصحابه فقتلوهم و لم يفلت منه غير رجل واحد و لم يصب من المسلمين أحد.

ثم قدموا على رسول الله ﷺ فحدثوه الحديث فقال: (حقاً قد نجاكم الله من القوم الظالمين)

سرية كُرز بن جابر الفهري:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى سرية كرز بن جابر الفهري[1] ــ رضي الله عنه ــ التي وقعت في جمادى الأولى سنة ست.

فليعلم أن سببها هو أن أناساً من عكل وعُرَينة يبلغ عددهم نحو ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام وتلفظوا بكلمة التوحيد وكانوا حين قدموا المدينة سقاماً مصفرة ألوانهم عظيمة بطونهم[2] فقالوا: يا رسول الله إنا كنا أهل ضرع (أي ماشية وإبل) و لم نكن أهل ريف وكرهنا الإقامة بالمدينة، فلو أذنت لنا فخرجنا إلى الإبل فأمر لهم بذود من الإبل ومعها راع وأمرهم باللحوق بها ليشربوا من ألبانها وأبوالها[3] فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة وصحت أجسامهم باتباعهم إشارة رسول الله ﷺ كفروا بعد إسلامهم وقتلوا راعي رسول الله ﷺ وكان عبداً له، اسمه يسار، وحين قتلوه مثلوا به فقطعوا يدهُ ورجله وجعلوا الشوك في عينيه واستاقوا الذود وحُمل يسار ميتاً إلى قباء فدفن هناك.

وقد كان جزاء هؤلاء المجرمين أن بعث رسول الله ﷺ في آثارهم خَيلاً من المسلمين قريباً من العشرين وأمّر عليهم كرز بن جابر الفهري ــ رضي الله عنه ــ فلقحهم فجاء بهم فأمر النبي ﷺ بقطع أيديهم وأرجلهم وسمّر أعينهم و لم يفلت منهم أحد وتركوا في ناحية الحرة في الشمس حتى ماتوا.

وقد أنزل الله في هؤلاء قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة:٣٣)

سرية الخبط:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى سرية الخبط[4].. تلك السرية

---

(١) هو أحد رؤساء قريش أسلم بعد الهجرة واستشهد عام الفتح وهو الذي خرج رسول الله ﷺ لطلبه في غزوة بدر الأولى وقد مرَّ ذكرها.

(٢)نقل الشيخ رشيد رضا عن مستر موير أهم كانوا مصابين بداء الطحال.

(٣) انظر الرد على الشبهات المرتبطة بالتداوي بأبوال الإبل في رسالة (معجزات علمية) من سلسلة (أشعة من شمس محمد)

(٤)سمى البخاري هذه السرية بغزوة (سيف البحر) بكسر السين واشتهرت (بسريّة الخبط)، وقد سميت بذلك لأنه نفد ما كان معهم من الزاد فأكلوا الخبط وهو ورق السلم وأصابهم جوع شديد.

التي بعث فيها رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح على رأس ثلاثمائة رجل إلى أرض جُهينة[1].

فإن كان ذلك كذلك، فليعلم أنها من السرايا التي قصد بها ﷺ إضعاف قريش ومحاصرتها اقتصاديًّا على المدى الطويل، لتكف عن كبريائها ومعاداتها للإسلام.

وقد بعث ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في ثلاثمائة راكب قبل الساحل، ليرصدوا عيرًا لقريش، وعندما كانوا ببعض الطريق فني الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش فجمع، فكان قدر مزود تمر، يقوتهم منه كل يوم قليلاً قليلاً، حتى كان أخيرًا نصيب الواحد منهم تمرة واحدة، يقول جابر ـــ أحد أفراد هذه السرية: (كنا نمصها كما يمص الصبي، ثم نشرب عليها من الماء فتكفينا يومنا إلى الليل)، وقد سأل وهب بن كيسان جابرًا: ما تغني عنكم تمرة؟ فقال: لقد وجدنا فقدها حين فنيت.

وقد اضطر ذلك الجيش إلى أكل ورق الشجر، قال جابر: وكنا نضرب بعصينا الخبط[2]، ثم نبله بالماء فنأكله.

فبينما هم كذلك من الجوع والجهد الشديدين إذ زفر البحر زفرة أخرج الله فيها حوتًا ضخمًا، فألقاه على الشاطئ.

قال جابر بن عبد الله: وانطلقنا على ساحل البحر، فرُفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر، قال: قال أبو عبيدة: ميتة، ثم قال: لا بل نحن رسل رسول الله ﷺ وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكلوا، قال: فأقمنا عليها شهرًا، ونحن ثلاثمائة حتى سمَّنا، قال: ولقد رأيتنا نغترف من وقب[3] عينيه بالقلال[4] الدهن، ونقتطع منه الفدر[5] كالثور، أو قدر الثور، فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلا فأقعدهم في وقب عينيه، وأخذ ضلعًا من أضلاعه فأقامها، ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من تحتها، وتزودنا من لحمه وشائق، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فقال: (ما حبسكم؟ قلنا: كنا نتبع عيرات قريش، وذكرنا له من أمر الدابة، فقال:(هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا) قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله.

صلح الحديبية:

التفت الحكيم إلى دوج، وقال: لقد رأيت أصحابك يذكرون في غزوات النبي ﷺ غزوة يسمونها

([1])كانت هذه السرية على الأرجح قبل صلح الحديبية، وليس في رجب سنة ثمانٍ كما ذكر ابن سعد (الطبقات لابن سعد (١٣٢/٢))، وذلك لسببين: السبب الأول: أن الرسول ﷺ لم يغز ولم يبعث سرية في الشهر الحرام، والثاني: أن رجب سنة ثمان هو ضمن فترة سريان صلح الحديبية.

([2])الخبط: ضرب الشجر بالعصا لينثر ورقها واسم الورق الساقط خبط.

([3])الوقب: النقرة التي تكون فيها العين.

([4])القلال: الجرة العظيمة.

([5])الفدر: جمع فدرة وهي القطعة من اللحم.

(الحديبية[1])

قال دوج: أجل.. وذلك السيف يشير إليها.

قال الحكيم: فسأحدثك عنها إذن لتنسخ بحديثها كل ما يرمي به قومك نبينا من الشوق إلى الحرب أوالبحث عن أسباهما.

بعد تلك الغزوات والسرايا تكونت للمسلمين حرمة في نفوس تلك المجتمعات التي لم تكن تقيم حرمة إلا لمن يعرف كيف يحمل السيوف.

وقد انتهز النبي ﷺ هذه الفرصة ليفرض على قريش وغيرها من العرب الاعتراف بدينه، ليكون ذلك الاعتراف مقدمة للبحث فيه بحث المنصف لا بحث العدو.

وبما أن قصد البيت الحرام بالحج أو العمرة سبب من أهم أسباب هذا الاعتراف.. فقد أراد ﷺ في ذي القعدة ٦ هـ (فبراير سنة ٦٢٨ م) أن يخرج مع أصحابه لأداء عمرة.

في ذلك الشهر من الأشهر الحرم خرج ﷺ معتمرا لا يريد حرباً.. واستنفر العرب من البوادي ومن حوله من الأعراب ممن أسلم ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش أن يتعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت، فأبطأ عليه كثير من الأعراب خشية من قريش أن يحاربوه، فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق من العرب[2] وساق معه الهدي[3]، وأحرم بالعمرة بذي الحليفة بعد أن صلى بالمسجد الذي بها ركعتين ليأمن الناس حربه وليعلموا أنه إنما خرج زائراً للبيت ومعظماً له.

و لم يخرج ﷺ معه بسلاح إلا سلاح المسافر، السيوف في القُرُب، فلما كان بعُسْفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي، فقال له: يا رسول الله هذه قريش قد سمعوا بمسيرك فخرجوا ومعهم العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور وقد نزلوا بذي طوى يحلفون بالله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموا إلى كراع الغميم[4]، فقال رسول الله ﷺ:(يا ويح قريش، لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة)

ثم قال:(من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟)

فقال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقاً وعراً، فخرجوا منه بعد أن شق عليهم وأفضوا

---

(١) الحدَيبية هي بئر سُمي المكان باسمها؛ وهي قرية متوسطة ليست بالكبيرة وبينها وبين مكة مرحلة وبينها وبين المدينةِ تسع مراحل وبعضها في الحل وبعضها في الحرم.

(٢)جملة أصحابه الذين خرجوا معه من ١٤٠٠ إلى ١٦٠٠، أما ما رواه ابن إسحاق من أنه ﷺ ساق معه الهدي ٧٠ بدنة وكان الناس ٧٠٠ رجل فكانت كل بدنة عن عشرة نفر، فلا بد أن يكون هذا العدد في بدء خروجهم قبل أن ينضم إليه ﷺ من عداهم من الأعراب.

(٣)ما يهدى إلى الحرم من النعم.

(٤) كان فرسان قريش ٢٠٠ منهم عكرمة بن أبي جهل، وكان قائدهم خالد بن الوليد.

إلى طريق سهامة عند منقطع الوادي، قال رسول الله ﷺ للناس:(قولوا نستغفر الله ونتوب إليه)، فقالوا ذلك، فقال:(والله إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها)

ثم أمر رسول الله ﷺ الناس فقال:(اسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمض في طريق على ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة)

فسلك الجيش ذلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قترة الجيش قد خالفوا، رجعوا راكضين إلى قريش.

ثم واصل رسول الله ﷺ سيره حتى إذا سلك في ثنية المرار بركت ناقته القصواء فقال الناس خلأت، فقال:(ما خلأت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها)

ثم قال للناس:(انزلوا)، فقالوا: يا رسول الله ما بالوادي ماء يترل عليه، فأخرج سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه[1] فترل به في قليب من تلك القلب فغرزه في جوفه فجاش بالرواء حتى ضرب الناس عنه بعطن.

وقد ذكر البراء بن عازب ــ رضي الله عنهما ــ أنه ﷺ جلس على البئر، ثم دعا بإناء فمضمض ودعا ثم صبه فيها، ثم قال:(دعوها ساعة)، فأرووا أنفسهم وركابهم حتى ارتحلوا[2].

وفي حديث جابر قال: عطش الناس يوم الحديبية وبين يدي رسول الله ﷺ ركوة يتوضأ منها فأقبل الناس نحوه فقال:(ما بالكم؟) قالوا: يا رسول الله ليس عندنا ما نتوضأ به ولا نشرب إلاّ ما في ركوتك، فوضع يده في الرّكوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا[3].

فلما اطمأن رسول الله ﷺ أتاه بديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة فكلموه وسألوه ما الذي جاء به، فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمته، ثم قال لهم نحواً مما قال لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش، فقالوا: يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد، إن محمداً لم يأت لقتال، إنما جاء زائراً لهذا البيت، فاتهموهم وجبهوهم[4]، وقالوا: وإن كان جاء ولا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا تحدث بذلك عنا العرب.

وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله ﷺ مسلمها ومشركها لا يخفون عنه شيئاً كان بمكة.

ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص أخا بني عامر فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً، قال:(هذا رجل غادر)، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلمه قال له رسول الله ﷺ نحواً مما قال لبديل وأصحابه، فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ.

ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة وكان يومئذ سيد الأحابيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال:(إن هذا من قوم

---

(١) اختلف فيمن نزل في القليب بسهم رسول الله ﷺ فقيل: هو سائق بدنه ناجية بن جندب، وقيل: إنه البراء بن عازب، وقيل: عبادة بن خالد.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري ومسلم.. وقد ذكرنا الأدلة الكثيرة المثبتة لهذا في رسالة (معجزات حسية) من هذه السلسلة.

(٤)أي قابلوهم بما يكرهون.

يتألهون، فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه)، فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله، رجع إلى قريش و لم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، فقال لهم ذلك، فقالوا له: اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك، فغضب الحليس عند ذلك وقال: يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم، أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له، والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد، فقالوا له: كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفي فقال: يا معشر قريش إني قد رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ وقد عرفتم أنكم والد وأني ولد، وقد سمعت بالذي نابكم فجمعت من أطاعني من قومي ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسي، قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم، فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه ثم قال: يا محمد أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك[1] لتفضها بهم؟ إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً.

وكان أبو بكر الصديق جالساً خلف رسول الله ﷺ فقال له: (أنحن ننكشف عنه؟)، فقال عروة: مَن هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن قحافة، فقال: أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها ولكن هذه بها [2].

وبعد أن قال عروة ما قال كلمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلم أصحابه وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً.

فقام من عند رسول الله ﷺ ورجع إلى أصحابه بمكة وقد بهره ما رأى من احترام أصحابه ﷺ له، رأى أن رسول الله ﷺ لا يتوضأ إلا ابتدر أصحابه وضوءه ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه، يدلك به من وقع في يده وجهه وجلده ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ولا يحدون النظر إليه تعظيماً له ﷺ فقال لقريش:(أي قوم، فوالله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله ما يبصق بصاقا إلا وقع في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده إجلالاً وتوقيراً وما يمدون النظر إليه تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فروا رأيكم.. إني أخاف أن لا تُنصروا عليه)

فلم يسمع القوم ما قاله عروة بن مسعود وما رغبهم فيه من الصلح، فانصرف هو ومن تبعه إلى الطائف، ثم أسلم عروة بعد ذلك لما انصرف رسول الله ﷺ عن ثقيف ثم قتل لما دعاهم إلى الإسلام.

ثم دعا رسول الله ﷺ خراش بن أمية الخزاعي، فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على بعير له يُقال له الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له فعقروا به جمل رسول الله ﷺ أرادوا قتله فمنعته الأحابيش فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ.

---

(١) أي أصلك وعشيرتك.

(٢) قال الزهري: إن اليد المذكورة هي أن عروة كان يحمل دية فأعانه فيها أبو بكر ـــ رضي الله عنه ـــ بعون حسن.

وبعثت قريش أربعين أو خمسين رجلاً منهم ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً، فأخذوا أخذاً فأتى بهم رسول الله ﷺ فعفا عنهم وخلى سبيلهم وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل.

ثم دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة، فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال:(يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني: عثمان بن عفان)، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحربهم وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته، فرضي عثمان لأنه كان غائباً عن مكة، و لم يكن له أعداء بها، ثم إنه من بني أمية.

فخرج عثمان إلى مكة[1] فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ واحتبسته قريش عندها.

فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قُتل، فلما بلغ ذلك الخبر رسول الله ﷺ قال:(لا نبرح حتى نناجز القوم[2])

ثم دعا رسول الله ﷺ المسلمين إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، وأمر عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ أن ينادي الناس إلى البيعة.

قال سلمة بن الأكوع ــ رضي الله عنه ــ: بايعناه وبايعه الناس على عدم الفرار وأنه إما الفتح وإما الشهادة، و لم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلاّ الجد بن قيس من بني سلمة، فكان جابر بن عبد الله يقول: والله لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته قد ضبأ إليها يستتر بها من الناس[3].

وقد ذكر القرآن الكريم هذه البيعة، فقال:﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ (الفتح:١٨)

وقد كان تأثير هذه البيعة شديدا على قريش، فلذلك سمعت لما أشار أهل الرأي فيها بالصلح على أن يرجع ويعود من قابل فيقيم ثلاثاً معه سلاح الراكب، السيوف في القُرُب والقوس.

فبعثت سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ وقالوا له: ائت محمداً فصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدّث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً.

فلما أقبل سهيل، قال رسول الله ﷺ:(قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل)، وطالت المراجعة بينه وبين النبي ﷺ.. وفي الأخير اتفقوا على هذه البنود الأربعة:

---

(١) روي أن عثمان بن عفان دخل مكة ومعه عشرة من الصحابة بإذن رسول الله ﷺ ليزوروا أهاليهم و لم يذكروا أسماءهم.

(٢)أي نقاتلهم.

(٣) وقيل: إنه كان يُرمى بالنفاق.

١. الرسول ﷺ يرجع من عامه، فلا يدخل مكة، وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثاً، معهم سلاح الراكب، السيوف في القُرُب، ولا يتعرض لهم بأي نوع من أنواع التعرض.

٢. وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض.

٣. من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وتعتبر القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين جزءاً من ذلك الفريق، فأي عدوان تتعرض له أي من هذه القبائل يعتبر عدواناً على ذلك الفريق.

٤. من أتى محمداً من قريش من غير إذن وليه ـــ أي هارباً منهم ـــ رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد ـــ أي هارباً منه ـــ لم يرد عليه.

فلما انتهوا إلى هذه البنود، و لم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أوَلسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوَليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلامَ نعطي الدَّنِيَّة في ديننا، قال أبو بكر: الزم غَرْزَهُ فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله، ثم أتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله ألست برسول الله؟ قال: بلى، قال: أوَلسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوَليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلامَ نعطي الدنية في ديننا؟ قال: أنا أعبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني، فكان عمر يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيراً.

ثم دعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: لا أعرف هذا أي الرحمن الرحيم، ولكن اكتب باسمك اللهم، فكتبها وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو، فقال سهيل: لو شهدتُ أنك رسول الله لم أقاتلك و لم أصدك عن البيت، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال رسول الله ﷺ: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رَدَّه عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه، وإن بيننا عيبة مكفوفة، وإنه لا إسلال ولا إغلال، وإنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وإنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب: السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها)

وكتبت نسخة أخرى من هذا العقد لتبقى عند المسلمين، لأن سهيلاً قال يكون هذا الكتاب معي.

قال دوج: فها قد استسلم محمد أخيرا لأعدائه.

قال الحكيم: بل هكذا فتح لمحمد ﷺ من الفتح ما كان مقدمة لكل فتح.. وهكذا شاء الله أن يسد هذا الصلح كل مقولة ترمي الإسلام بالإرهاب، أو بالشوق إلى القتل.

أنت ترى أن محمدا ﷺ في هذا الصلح لان لكل شروط أعدائه، وذلك طلبا لشيء واحد هو تحقيق

السلام.. لأنه لا يمكن أن يفكر الناس في قضايا الإيمان إلا بعد توفير السلام.

قال دوج: ولكن الشروط لم تكن في مصلحة محمد.

قال الحكيم: ذلك في النظر القاصر.. أما النظر المحقق الحكيم، فيرى أن كل ما في هذه المعاهدة من بنود هو في صف المسلمين[1].

فقريش لم تكن تعترف بالمسلمين أي اعتراف، بل كانت تهدف استئصال شأفتهم، وتنتظر أن تشهد يوماً ما نهايتهم، وكانت تحاول بأقصي قوتها الحيلولة بين الدعوة الإسلامية وبين الناس، بصفتها ممثلة الزعامة الدينية والصدارة الدنيوية في جزيرة العرب، ومجرد الجنوح إلى الصلح اعتراف بقوة المسلمين، وأن قريشاً لا تقدر على مقاومتهم.

والبند الثالث يدل بفحواه على أن قريشاً نسيت صدارتها الدنيوية وزعامتها الدينية، وأنها لاتهمها الآن إلا نفسها، أما سائر الناس وبقية جزيرة العرب فلو دخلت في الإسلام بأجمعها، فلايهم ذلك قريشاً، ولا تتدخل في ذلك بأي نوع من أنواع التدخل. أليس هذا فشلاً ذريعاً بالنسبة إلى قريش؟ وفتحا مبيناً بالنسبة إلى المسلمين؟

إن الحروب الدامية التي جرت بين المسلمين وبين أعدائهم لم تكن أهدافها ــ بالنسبة إلى المسلمين ــ مصادرة الأموال وإبادة الأرواح، وإفناء الناس، أو إكراه العدو على اعتناق الإسلام، وإنما كان الهدف الوحيد الذي يهدفه المسلمون من هذه الحروب هو الحرية الكاملة للناس في العقيدة والدين لا يحول بينهم وبين ما يريدون أي قوة من القوات، وقد حصل هذا الهدف بجميع أجزائه ولوازمه، وبطريق ربما لا يحصل بمثله في الحروب مع الفتح المبين.

وقد كسب المسلمون لأجل هذه الحرية نجاحاً كبيراً في الدعوة، فبينما كان عدد المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف قبل الهدنة صار عدد الجيش الإسلامي في سنتين عند فتح مكة عشرة آلاف.

أما البند الثاني فهو جزء ثان لهذا الفتح المبين، فالمسلمون لم يكونوا بادئين بالحروب، وإنما بدأتها قريش، يقول الله تعالى:﴿ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (التوبة:١٣)، أما المسلمون فلم يكن المقصود من دورياتهم العسكرية إلا أن تفيق قريش عن غطرستها وصدها عن سبيل الله، وتعمل معهم بالمساواة، كل من الفريقين يعمل على شاكلته، فالعقد بوضع الحرب عشر سنين حد لهذه الغطرسة والصد، ودليل على فشل من بدأ بالحرب وعلى ضعفه وانهياره.

أما البند الأول فهو حد لصد قريش عن المسجد الحرام، وهو أيضاً فشل لقريش، وليس فيه ما يشفي قريشاً سوى أنها نجحت في الصد لذلك العام الواحد فقط.

لقد أعطت قريش هذه الخلال الثلاث للمسلمين، وحصلت بإزائها خلة واحدة فقط، وهي ما في البند الرابع، ولكن تلك الخلة تافهة جداً، ليس فيها شيء يضر بالمسلمين، فمعلوم أن المسلم ما دام مسلماً لا يفر عن الله ورسوله، وعن مدينة الإسلام، ولا يفر إلا إذا ارتد عن الإسلام ظاهراً أو باطناً، فإذا ارتد فلا حاجة إليه

---

(١) انظر: الرحيق المختوم، وغيره.

للمسلمين، وانفصاله من المجتمع الإسلامي خير من بقائه فيه، وهذا الذي أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: (إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله)، وأما من أسلم من أهل مكة فهو وإن لم يبق للجوئه إلى المدينة سبيل لكن أرض الله واسعة، ألم تكن الحبشة واسعة للمسلمين حينما لم يكن يعرف أهل المدينة عن الإسلام شيئاً؟ وهذا الذي أشار إليه النبي ﷺ بقوله: (ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً)

والأخذ بمثل هذا الاحتفاظ، وإن كان مظهر الاعتزاز لقريش، لكنه في الحقيقة ينبئ عن شدة انزعاج قريش وهلعهم وخَوَرِهم، وعن شدة خوفهم على كيانهم الوثني، وكأنهم كانوا قد أحسوا أن كيانهم اليوم على شفا جُرُف هار لا بد له من الأخذ بمثل هذا الاحتفاظ، وما سمح به النبي ﷺ من أنه لا يسترد من فرّ إلى قريش من المسلمين، فليس هذا إلا دليلاً على أنه يعتمد على تثبيت كيانه وقوته كمال الاعتماد، ولا يخاف عليه من مثل هذا الشرط.

سكت الحكيم قليلا، ثم قال: ولأجل هذا سمى الله تعالى هذا الصلح فتحا، فقال:﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ (الفتح: ١)

وقد روي في الحديث عن مجمع بن جارية الأنصاري الأوسي قال: شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها وجدنا رسول الله ﷺ عند كُرَاعِ الغَمِيم وقد جمع الناس وقرأ عليهم: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ (الفتح: ١)، فقال رجل: يا رسول الله أوَفتح هو؟ قال: (إي والذي نفسي بيده إنه لفتح)[1]

وروي عن عروة بن الزبير قال: أقبل النبي ﷺ راجعاً، فقال رجل من أصحابه: ما هذا بفتح، لقد صددنا عن البيت وصدّ هدينا ورد ﷺ رجلين من المؤمنين كانا خرجا إليه فبلغه ﷺ قول ذلك الرجل فقال:(بئس الكلام، بل هو أعظم الفتح قد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم في الأمان ولقد رأوا منكم ما كرهوا وأظفركم الله عليهم وردكم سالمين مأجورين فهو أعظم الفتوح، أنسيتم يوم أُحُد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم، أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا؟) فال المسلمون: صدق الله ورسوله هو أعظم الفتوح، والله يا نبيّ الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ولأنت أعلم بالله وأمره منا[2].

قال دوج بتهكم: فهل استطاع محمد أن يلتزم هذه المعاهدة، ويصبر عن الحرب.

قال الحكيم: لقد راعى رسول الله ﷺ تنفيذ هذه المعاهدة بدقة،

بل إنه ابتدأ تنفيذ هذه المعاهدة قبل أن يسري العمل بها.. فقد روي أنه بينما كان الكتاب يكتب إذ جاء أبو جَنْدَل بن سهيل يَرْسُفُ في قيوده، قد خرج من أسفل مكة حتى رمي بنفسه بين ظهور المسلمين، فقال سهيل: هذا أول ما أقاضيك عليه على أن ترده فقال النبي ﷺ : (إنا لم نقض الكتاب بعد).

فقال: فوالله إذا لا أقاضيك على شيء أبداً، فقال النبي ﷺ : (فأجزه لي). قال: ما أنا بمجيزه لك. قال: (بلى فافعل)، قال: ما أنا بفاعل. وقد ضرب سهيل أبا جندل في وجهه، وأخذ بتلابيبه وجره ؛ ليرده إلى

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والحاكم.

(٢) رواه البيهقي.

المشركين، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فقال رسول الله ﷺ : (يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله فلا نغدر بهم).

فوثب عمر بن الخطاب ـــ رضي الله عنه ـــ مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، ويدني قائم السيف منه، يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه، فضن الرجل بأبيه، ونفذت القضية.

وهكذا كان ﷺ في مدة الصلح يرد الرجال المهاجرين، ولا يرد النساء بعد الامتحان، وكان الامتحان أن تستحلف المرأة المهاجرة أنها ما هاجرت ناشزاً ولا هاجرت إلا لله ورسوله، قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ (الممتحنة: من الآية١٠)، فلما هاجرت إليه أم كلثوم بنت عقبة بن معيط ـــ رضي الله عنها ـــ وكانت أسلمت بمكة وبايعت قبل أن يهاجر ﷺ ثم خرجت في مدة الصلح مهاجرة ماشية على قدميها من مكة إلى المدينة وصحبت رجلاً من خزاعة وهي أخت عثمان بن عفان لأمه لم يردها النبي ﷺ لأن الشرط يقضي برجوع الرجال فقط، ولما خرج أخوها عمارة والوليد في ردها بالعهد، أخبرهما رسول الله ﷺ بأن النساء المؤمنات لا يرجعن وأن الشرط في الرجال فقط، وأن النساء يمتحن فرجعا إلى مكة وأخبرا قريشاً بذلك فرضوا به.

ورد رسول الله ﷺ أبا بصير، فذهب ـــ بعد أن قتل خنيساً الذي كان جاء في طلبه ـــ إلى محل في طريق الشام يمر به ذوو الميرة، واجتمع إليه جمع من المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة، فكانوا يتسللون إليه، وانفلت أبو جندل بن سهيل بن عمرو الذي رده ﷺ يوم الحديبية، وخرج من مكة في سبعين راكباً أسلموا، فلحقوا بأبي بصير، وكرهوا أن يقدموا على رسول الله ﷺ في مدة الهدنة خوفاً من أن يردهم إلى أهلهم، وانضم إليهم ناس من غفار وأسلم وجهينة وطوائف من العرب ممن أسلم حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل، فقطعوا مارة قريش لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تمرّ بهم عير إلا أخذوها، حتى كتبت قريش له ﷺ تسأله بالأرحام إلا آواهم ولا حاجة لهم بهم، فكتب رسول الله ﷺ إلى أبي جندل وأبي بصير أن يقدما عليه، وأن مَن معهم من المسلمين يلحقون ببلادهم وأهليهم ولا يتعرضوا لأحد مرّ بهم من قريش ولا لعيرهم، فقدم كتاب رسول الله ﷺ عليهما وأبو بصير مشرف على الموت لمرض حصل له فمات وكتاب رسول الله ﷺ في يده يقرأه، فدفنه أبو جندل مكانه وجعل عند قبره مسجداً، وقدم أبو جندل على رسول الله ﷺ مع ناس من أصحابه ورجع باقيهم إلى أهلهم وأمنت قريش على عيرهم وتحقق قول رسول الله ﷺ يوم الحديبية:(سيجعل الله لأبي جندل وأصحابه فرجاً ومخرجاً)

ولما أمن الكفار القتال اختلطوا بالمسلمين، فأثر فيهم الإسلام فأسلم كثير منهم، وكان أبو بكر الصديق يقول: ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد ﷺ وربه، والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد.

سكت قليلا، ثم قال: وفي تلك الفترة التي سكتت فيها ألسنة السيوف أرسل رسول الله ﷺ رسلا إلى الملوك والأمراء المحيطين بالجزيرة العربية، وكان من نتيجتها:

١ – أنه ﷺ تمكن من معرفة سياسة هؤلاء الملوك والأمراء نحوه وميلهم إليه فكانت هذه الكتب بمثابة جس نبضهم.

٢ – إسلام أمير اليمن ومن معه.

٣ – أن المقوقس وإن كان لم يسلم إلا أنه أظهر الود بتلطفه مع رسول الله ﷺ وإرساله الهدايا.

٤ – إسلام النجاشي على ما هو مشهور في كتب التاريخ وإن كان لم يستطع حمل شعبه على الإسلام.

٥ – إسلام المنذر بن ساوى التميمي صاحب البحرين.

٦ – إسلام مَلَكَيْ عُمان وإسلام خلق كثير معهما.

وقد علا صوت الإسلام بإرسال هؤلاء الرسل وعلا شأنه وصارت له مكانة دينية وسياسية بين الدول.. وكل ذلك تم قبل فتح مكة[1].

غزوة خيبر:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى غزوة خيبر[2]..

قال دوج: أجل.. لقد توجهت هذه الغزوة لأولئك اليهود البسطاء لتزرع فيهم الرعب.. وتنشر بينهم القتل.

قال الحكيم: أنت تعلم أن أولئك اليهود البسطاء هم الرأس المدبر للكثير من المؤامرات والدسائس التي أرادت أن تجهز على الإسلام.. وأنت تعلم أن أهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا في الاتصالات بالمنافقين وبغطفان وأعراب البادية، وكانوا هم أنفسهم يتهيأون للقتال، فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه في محن متوصلة، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبي ﷺ، وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى بعوث متواصلة، وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين، مثل سلام بن أبي الحُقَيْق، وأسِير بن زارم، ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك، وإنما أبطأوا في القيام بهذا الواجب ؛ لأن قوة أكبر وأقوي وألد وأعند منهم ــ وهي قريش ــ كانت مجابهة للمسلمين، فلما انتهت هذه المجابهة صفا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين[3].

---

(١) سنعرض لهذه المسألة بتفصيل في رسالة (النبي الهادي) من هذه السلسة.

(٢)خيبر واحة كبيرة على ثمانية برد من المدينة إلى جهة الشام، والبريد اثنا عشر ميلاً عربياً فتكون المسافة كلها ٩٦ ميلاً عربياً.

وقد كانت لهم ثلاثة حصون كبرى، وكل منها مؤلف من عدة حصون وهي كالآتي:

١ - حصون النطاة وهي أربعة: (النعام – الصعب – الكتيبة – بقلة)

٢ - حصون الشِّق، اثنان: (حصن أُبيّ – وحصن البري)

٣ - حصون الكتيبة وهي ثلاثة: (حصن القموص – الوطيح – سُلالم)

(٣) الرحيق المختوم.

قال رجل مسلم من الجمع: لقد سمعنا كثيرا في خلال حديثك عن هؤلاء.. فحدثنا كيف تعامل معهم النبي ﷺ؟

قال الحكيم: لقد وقعت هذه الغزوة سنة سبع من الهجرة (أغسطس سنة ٦٢٨ م) وذلك أن رسول الله ﷺ لما عاد من الحديبية أقام بالمدينة ذا الحجة وبعض المحرم من السنة السابعة، ثم خرج في بقية المحرم إلى خيبر وكان معه ١٦٠٠ من المسلحين، منهم ٢٠٠ فارس.

وقد استنفر ﷺ من حوله ممن شهد الحديبية يغزون معه، وجاء المخلفون عنه في غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة، فقال:(لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد، فأما الغنيمة فلا).. لأن الله قد وعد رسوله ﷺ عند انصرافه من الحديبية في سورة الفتح بمغانم كثيرة بقوله تعالى:﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ (الفتح: من الآية٢٠)

وقد روي أنه ﷺ لما أشرف على خيبر قال لأصحابه:(قفوا)، ثم قال:(اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها أقدموا بسم الله)

فلما أصبح خرجت اليهود إلى زروعهم بمساحيهم ومكاتلهم، ودفع رايته العقاب إلى الحباب بن المنذر، ودفع راية لسعد بن عبادة، ونزل بواد يقال له الرجيع بينهم وبين غطفان لئلا يمدوهم، وكانوا حلفاءهم ومُظاهرين لهم على رسول الله ﷺ وأن غطفان تجهزوا وقصدوا خيبر، فسمعوا حساً خلفهم فظنوا أن المسلمين خلفوهم في ذراريهم فرجعوا وأقاموا وخذلوا أهل خيبر، وكان أهل خيبر ١٠.٠٠٠ مقاتل.

وكان يهود خيبر أدخلوا أموالهم وعيالهم في حصن الكتيبة، وجمعوا المقاتلة في حصن النطاة، وكان النبي ﷺ نزل قريباً من حصن النطاة فأشار عليه ﷺ الحباب بن المنذر بالتحول قائلاً: إن أهل النطاة لي بهم معرفة ليس قوم أبعد مدى منهم ولا أعدل رمية منهم وهم مرتفعون علينا وهو أسرع لانحطاط نبلهم ولا نأمن من بياتهم يدخلون في حمر النخل، فتحول رسول الله ﷺ وتحول الناس إلى موضع حائل بين أهل خيبر وغطفان وابتنى هناك مسجداً صلى فيه طول مقامه بخيبر، وأمر بقطع نخيل أهل حصون النطاة، فوقع المسلمون في قطعها حتى قطعوا ٤٠٠ نخلة ثم نهاهم عن القطع، فما قطع من نخيل خيبر غيرها، وقاتل ﷺ يومه ذلك أشد القتال، وعليه درعان وبيضة ومغفر وهو على فرس يُقال له الظرب في يده قناة وترس وفي ذلك اليوم قُتل محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة برحى ألقيت عليه من حصن ناعم، ألقاها عليه مرحب اليهودي، وكان الحر في ذلك اليوم شديداً.

ومكث ﷺ سبعة أيام يقاتل أهل حصن النطاة يذهب كل يوم بمحمد بن مسلمة للقتال ويخلف على محل العسكر عثمان بن عفان، فإذا أمسى رجع إلى ذلك المحل ومن جرح من المسلمين يحمل إليه ليداوي جرحه، وكان اليهود كعادتهم يحاربون أمام الحصون لأنهم يخشون الحرب في الميدان، فإذا انهزموا عادوا إلى حصونهم وأغلقوها دونهم.

ولما كانت الليلة السادسة أتى رجل من يهود خيبر في جوف الليل إلى النبي ﷺ وأخبره أنه خرج من

حصن النطاة من عند قوم يتسللون من الحصن في هذه الليلة ويذهبون إلى حصن يجعلون به ذراريهم ويتهيأون للقتال وأخبره أن في حصن الصعب من حصون النطاة، في بيت فيه تحت الأرض منجنيقاً ودبابات ودروعاً وسيوفاً فإذا دخل فيه رسول الله ﷺ أوقفه على أسراره.

وكان رسول الله ﷺ تأخذه الشقيقة في بعض تلك الأيام فيبعث أناساً من أصحابه فلم يكن فتح ومنهم أبو بكر وعمر بن الخطاب.

ثم قال ﷺ لمحمد بن مسلمة:(لأعطين الراية غداً لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، لا يولي الدبر يفتح الله عز وجل على يديه فيمكنه من قاتل أخيك)

وفي الغد بعث رسول الله ﷺ إلى عليّ ـــ رضي الله عنه ـــ، وكان أرمد شديد الرمد، فجيء به إلى رسول الله ﷺ وقد عصب عينيه فعقد له لواءه الأبيض وتفل في عينيه ودلكهما فبرأ حتى كأن لم يكن بهما وجع، وقال عليّ ـــ رضي الله عنه ـــ: فما رمدت بعد يومئذ، ثم دعا النبي ﷺ لعليّ ـــ رضي الله عنه ـــ بقوله:(اللهم اكفه الحر والبرد)، قال عليّ ـــ رضي الله عنه ـــ: فما وجدت بعد ذلك لا حراً ولا برداً، فكان يلبس في الحر الشديد القباء المحشو الثخين ويلبس في البرد الشديد الثوب الخفيف فلا يبالي البرد[1].

فلما أخذ عليّ الراية قال: أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، فقال رسول الله ﷺ:(انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن لم يطيعوا لك بذلك فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم)

فخرج عليّ ـــ رضي الله عنه ـــ حتى ركز الراية تحت الحصن، ثم خرج إليه أهل الحصن، وكان أول من خرج إليه منهم الحارث أخو مرحب وكان مشهوراً بالشجاعة فقتله عليّ وانهزم اليهود إلى الحصن (وهو حصن ناعم) ثم خرج إليه مرحب لابساً درعين ومتقلداً سيفين ومعتماً بعمامتين، ولبس فوقهما مغفراً وحجراً قد ثقبه قدر البيضة، ومعه رمح فبرز له عليّ ـــ رضي الله عنه ـــ ثم حمل مرحب على عَلِيّ وضربه فطرح ترسه من يده، فتناول عليّ ـــ رضي الله عنه ـــ باباً كان عند الحصن فتترس به عن نفسه فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه الحصن، ثم إن علياً ضرب مرحباً فتترس فوقع السيف على الترس فقده وشق المغفر والحجر الذي تحته والعمامتين وفلق هامته حتى أخذ السيف بالأضراس.

ثم خرج ياسر أخو مرحب يطلب البراز، وكان أيضاً من مشاهير فرسان اليهود وشجعانهم، فخرج إليه الزبير ـــ رضي الله عنه ـــ وقتله، وعند ذلك قال له رسول الله ﷺ:(فداك عم وخال، لكل نبيّ حواريّ وحواريّ الزبير)

وكان أول حصن فتحه المسلمون وهو حصن الناعم من حصون النطاة على يد عليّ ـــ رضي الله عنه ـــ، ثم القموص، ولم يزل القتال ناشباً بين المسلمين واليهود، والمسلمون يفتحون حصونهم حصناً بعد حصن حتى أتموا فتحها جميعاً.

وقد قُتل من اليهود في جميع هذه المعارك ٩٣ واستشهد من المسلمين ١٥ رجلاً.

---

(١) ذكرنا النصوص الكثيرة الدالة على هذا ومثله في رسالة (معجزات حسية) من هذه السلسلة.

وقد فتحت الحصون كلها عنوة إلا حصن الوطيح وحصن سُلالم فقد مكث المسلمون على حصارها أربعة عشر يوماً فلم يخرج أحد منهم فهمّ رسول الله ﷺ أن يحمل عليهم وأن ينصب عليهم المنجنيق فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ﷺ الصلح على حقن دماء المقاتلة وترك الذرية والخروج من خيبر وأرضها بذراريهم وألا يصحب أحد منهم إلا ثوباً واحداً، فصالحهم على ذلك وعلى أن ذمة الله تعالى ورسوله بريئة منهم إن كتموه شيئاً، فتركوا ما لهم من أرض ومال، ووجد المسلمون في الحصنين المذكورين ١٠٠ درع و٤٠٠ سيف و١٠٠٠ رمح و٥٠٠ قوس عربية بجعابها ووجدوا في أثناء الغنيمة صحائف متعددة من التوراة فجاءت يهود تطلبها فأمر رسول الله ﷺ بدفعها إليهم.

وقد أشاد الأستاذ ولفنسون بهذا التصرف من النبي ﷺ، فقال:(ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف في نفس الرسول من المكانة العالية ممَّا جعل اليهود يشيرون إلى النبيّ بالبنان ويحفظون له هذه اليد حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة ويذكرون بإزاء ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة ٧٠ ب.م، إذ أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم وما فعله المتعصبون من النصارى في اضطهاد اليهود في الأندلس حيث أحرقوا أيضاً صحف التوراة، هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام)[١]

وقد قسم رسول الله ﷺ غنائم خيبر، فأعطى الراجل سهماً والفارس ثلاثة أسهم بعد أن خمسها خمسة أجزاء، ثم دفع ﷺ لأهل خيبر الأرض ليعملوا فيها بشطر ما يخرج منها من ثمر أو زرع وقال لهم: إنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم، ثم استمر على ذلك إلى خلافة عمر ــ رضي الله عنه ــ إلى أن وقعت منهم خيانة وغدْر لبعض المسلمين فأجلاهم إلى الشام بعد أن استشار في ذلك الصحابة.

وفي الطريق مر رسول الله ﷺ على فَدَك[٢].. ولما علم أهلها بانهزام خيبر خافوا فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدَك، فقدمت عليه رسلهم فقبل ذلك منهم، فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب يصرف ما يأتيه منها على أبناء السبيل، فكان ينفق منها ويعود منها على صغير بني هاشم ويزوج منها أيمهم.

غزوة وادي القرى:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى غزوة وادي القُرى[٣]، وهي غزوة تابعة ــ في أصلها ــ لغزوة خيبر.

وقد حاصرهم ﷺ أربعة أيام، وهيأ أصحابه للقتال فقُتل منهم أحد عشر رجلاً وفتحها رسول الله ﷺ عنوة، وغنمه الله أموالهم، وقسّم رسول الله ﷺ ما أصابه على أصحابه وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود وعاملهم عليها، وولاها عمرو بن سعيد بن العاص.

---

(١)(تاريخ اليهود ببلاد العرب) ص ١٧٠.

(٢)بلدة يهودية بالقرب من خيبر.

(٣) هو وادٍ بين الشام والمدينة، وهو بين تيماء وخيبر، فيه قرى كثيرة وبها سُمي (وادي القُرى) نزلها اليهود وزرعوها.

وصالحه أهل تيماء[1] على الجزية لما بلغهم فتح وادي القُرى وولاها ﷺ يزيد بن أبي سفيان، وكان إسلامه يوم فتحها،، ثم رجع إلى المدينة بعد أن بسط نفوذه على القبائل اليهودية شماليّ المدينة.

سرية أَبَان بن سعيد:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى سرية أَبَان بن سعيد[2].. فإن كان يشير إليها، فهي من السرايا التي كان يرسلها ﷺ للأعراب حتى لا تسول لهم أنفسهم غزو المدينة.

ذلك أن النبي ﷺ كان يعرف أن إخلاء المدينة تماما بعد انقضاء الأشهر الحرم ليس من الحزم قطعًا، بينما الأعراب ضاربة حولها، تطلب غرة من المسلمين للقيام بالنهب والسلب.. ولذلك أرسل سرية إلى نجد تحت قيادة أبان بن سعيد، بينما ذهب هو إلى خيبر، وقد رجع أبان بن سعيد بعد قضاء ما كان واجبًا عليه، فوافى النبي ﷺ بخيبر، وقد افتتحها.

سرية غالب بن عبد الله الليثي:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الْمُلَوَّح بُقدَيْد، والتي أرسلها ﷺ في صفر أو ربيع الأول سنة ٧ هـــ.

فإن كان ذلك كذلك، فليعلم أن بني الملوح ـــ الذين توجهت إليهم هذه السرية ـــ كانوا قد قتلوا أصحاب بشير بن سُوَيْد، فبعثت هذه السرية لتأديبهم، فشنوا الغارة في الليل فقتلوا من قتلوا، وساقوا النعم، وطاردهم جيش كبير من العدو، حتى إذا قرب من المسلمين نزل مطر، فجاء سيل عظيم حال بين الفريقين، ونجح المسلمون في بقية الانسحاب.

سرية عمر بن الخطاب:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى سرية عمر بن الخطاب ـــ رضي الله عنه ـــ إلى تُرَبَة، والتي أرسلها ﷺ في شعبان سنة ٧ هـــ، ومعه ثلاثون رجلاً.

فإن كان ذلك كذلك.. فليعلم أنها من السرايا التأديبية التي توجهت للأعراب الذين لم يكن يردعهم عما تعودوه من السلب والنهب إلا مثل هذه السرايا.

وقد روي أن أهل هذه السرية كانوا يسيرون الليل ويستخفون في النهار، وأتي الخبر إلى هوازن، فهربوا، وجاء عمر إلى محالهم فلم يلق أحداً، فانصرف راجعاً إلى المدينة.

سرية بني مرة:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى سرية بشير بن سعد

---

(١)تيماء بلدة معروفة بين المدينة والشام على سبع مراحل من المدينة.

(٢)الأغلب أن هذه السرية كانت في صفر سنة ٧هـــ، وقد ورد ذكرها في البخاري. قال ابن حجر: لم أعرف حال هذه السرية.

الأنصاري التي أرسلها رسول الله ﷺ إلى بني مرة بناحية فَدَك، والتي وقعت في شعبان سنة ٧هـ في ثلاثين رجلاً.

فإن كان ذلك كذلك، فليعلم أنها من السرايا التأديبية.. وقد وقعت الهزيمة بهذه السرية، فقتلوا جميعاً إلا بشير، فإنه ارْتُثَّ إلى فدك، فأقام عند يهود حتى برأت جراحه، فرجع إلى المدينة.

سرية غالب بن عبد الله الليثي:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى سرية غالب بن عبد الله الليثي، والتي أرسلها رسول الله ﷺ في رمضان سنة ٧ هـ إلى بني عُوَال وبني عبد ابن ثعلبة بالْمَيْفَعَة[1]، في مائة وثلاثين رجلاً.

فإن كان ذلك كذلك، فهي من الغزوات التأديبية الموجهة للأعراب، وقد نصر الله المؤمنين في هذه السرية.

وقد وقع في هذه السرية أن قتل أسامةُ بن زيد نَهِيكَ بن مِرْدَاس بعد أن قال: لا إله إلا الله، فلما قدموا وأخبر النبي ﷺ، كبر عليه وقال: (أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟) فقال: إنما قالها متعوذاً قال: (فهلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب؟)

التفت إلى دوج، وقال: وبذلك تعلم أن كل ما يفعله أولئك الذين يقتلون إخوانهم المسلمين بسبب وغير سبب لا علاقة لما يفعلونه بالإسلام.. بل ما ذلك إلا أحقاد نسبوها إلى الإسلام، والإسلام منها بريء.

سرية بشير بن سعد الأنصاري:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى سرية بشير بن سعد الأنصاري التي أرسلها ﷺ إلى يمن وجَبار[2] في شوال سنة ٧ هـ في ثلاثمائة من المسلمين.

فإن كان ذلك كذلك، فليعلم أن سببها هو لقاء جمع كبير تجمعوا للإغارة على أطراف المدينة، فساروا الليل وكمنوا النهار، فلما بلغهم مسير بشير هربوا، وأصاب بشير نعما كثيرة، وأسر رجلين، فقدم بهما المدينة إلى رسول الله ﷺ فأسلما.

سرية أبي حَدْرَد الأسلمي:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى سرية أبي حَدْرَد الأسلمي إلى الغابة.

فإن كان ذلك كذلك، فليعلم أن سببها أن رجلا من جُشَم بن معاوية أقبل في عدد كبير إلى الغابة، يريد أن يجمع قيسًا على محاربة المسلمين. فبعث رسول الله ﷺ أبا حدرد مع رجلين ليأتوا منه بخبر وعلم، فوصلوا إلى

---

(١) وقيل إلى الحُرَقَات من جُهَيْنَة.

(٢) بالفتح، أرض لغطفان، وقيل: لفَزَارَة وعُذْرَة.

القوم مع غروب الشمس، فكمن أبو حدرد في ناحية، وصاحباه في ناحية أخري، وأبطأ على القوم راعيهم حتى ذهبت فحمة العشاء، فقام رئيس القوم وحده، فلما مر بأبي حدرد رماه بسهم في فؤاده فسقط و لم يتكلم، فاحتز أبو حدرد رأسه، وشد في ناحية العسكر، وكبر، وكبر صاحباه وشدا، فما كان من القوم إلا الفرار، واستاق المسلمون الثلاثة الكثير من الإبل والغنم.

سرية الأخرم:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى سرية الأخرم التي وقعت في ذي الحجة سنة سبع (أبريل سنة ٦٢٩ م)

فإن كان ذلك كذلك، فليعلم أن سببها أن الأخرم خرج في خمسين رجلاً إلى بني سليم يدعوهم إلى الإسلام، فعلموا بخروجه فأمطروا المسلمين وابلاً من النبل، وأحاطوا بهم من كل ناحية حتى قُتل عامتهم وجُرح أميرهم، ثم تحامل حتى بلغ رسول الله ﷺ بالمدينة في أول صفر.

سرية غالب بن عبد الله الليثي:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوح بالكدِيد في صفر سنة ثمان (يونيه سنة ٦٢٩ م)

فإن كان ذلك كذلك، فليعلم أنها من السرايا التأديبية التي كان يرسلها رسول الله ﷺ إلى البوادي المحيطة.. وقد خرج المسلمون في هذه السرية حتى إذا كانوا بقديد لقوا الحارث بن مالك الليثي المعروف بابن البرصاء، فأخذوه، فقال: إنه جاء يريد الإسلام، فأوثقوه وخلفوا عليه رجلاً وشنوا عليهم الغارة واستاقوا النعم، وحملوا ابن البرصاء، وعادوا إلى المدينة، وقد أسلم ابن البرصاء.

ولما رجع غالب بن عبد الله الليثي من سريته الأولى بعثه رسول الله ﷺ إلى موضع مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك، ومعه ٢٠٠ رجل وذلك في شهر صفر سنة ثمان، وقد نجحت هذه السرية نجاحاً تاماً فقد قاتل المسلمون ساعة ووضعوا السيف وقتلوا منهم قتلى وأصابوا منهم نعماً وشاء فساقوها وعادوا إلى المدينة.

سرية شجاع بن وهب الأسدي:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى السرية التي أرسل فيها رسول الله ﷺ شجاع بن وهب الأسدي، ومعه أربعة وعشرون رجلاً، إلى جمع من هوازن يُقال لهم بنو عامر في شهر ربيع الأول سنة ثمان (يوليه سنة ٦٢٩ م)

فإن كان ذلك كذلك، فليعلم أنها من السرايا التأديبية التي كان يرسلها رسول الله ﷺ إلى البوادي المحيطة.. وقد نصر الله هذه السرية، فأصابوا بعض الغنائم، واستاقوا ذلك حتى قدموا المدينة، وكانت غيبتهم خمس عشرة ليلة.

سرية كعب بن عمير الغفاري:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى السرية التي أرسل فيها رسول الله ﷺ كعب بن عمير الغفاري بصحبة خمسة عشر رجلاً إلى ذات أطلاح من أرض الشام وراء ذات القرى في ربيع الأول سنة ثمان.

فإن كان ذلك كذلك، فليعلم أنها من السرايا التي كان يرسلها رسول الله ﷺ للدعوة إلى الله في النواحي المحيطة بالمدينة، وقد دعت هذه السرية إلى الإسلام، فلم يستجيبوا لهم ورشقوهم بالنبل فقاتلهم الصحابة أشد القتال حتى قتلوا، و لم ينجح منهم غير رجل جريح في القتلى، فلما برد عليه الليل تحامل حتى أتى النبي ﷺ فأخبره الخبر فشق عليه ذلك وهم بالبعث عليهم لكن بلغه أنهم ساروا إلى موضع آخر فتركهم.

سرية مؤتة:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى سرية[1] مؤتة[2] التي أرسلها ﷺ لحرب الروم في جمادى الأولى سنة ٨ هـ (سبتمبر سنة ٦٢٩ م)

فإن كان ذلك كذلك، فليعلم أن سببها أن رسول الله ﷺ كان قد أرسل الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى أمير بصرى من جهة هرقل وهو الحارث بن أبي شمر الغساني، فلما نزل مؤتة تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، وهو من أمراء قيصر على الشام فقال: أين تريد لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم، فأوثقه وضرب عنقه، و لم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره[3].

وكان قتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم، يساوي بل يزيد على إعلان حالة الحرب، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ حين نقلت إليه الأخبار، فجهز إليهم جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وهو أكبر جيش إسلامي لم يجتمع قبل ذلك إلا في غزوة الأحزاب.

بالإضافة إلى ذلك، فقد أراد ﷺ بهذه السرية الكبيرة تأديب عرب الشام التابعين للدولة الرومانية، والذين دأبوا على استفزاز المسلمين وتحديهم وارتكاب الجرائم ضد دعاتهم.

وقد أمّر رسول الله ﷺ مولاه زيد بن حارثة ــ رضي الله عنه ــ على هذه السيرة وندب رسول الله ﷺ الناس وقال:(إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس، فإن أصيب فليرتض المسلمون رجلاً من بينهم يجعلونه عليهم أميراً)

وعقد ﷺ لواء أبيض ودفعه إلى زيد، و لم يسبق لزيد تولي القيادة من قبل، وأوصاه أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا مَن هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم، فأسرع الناس بالخروج وعسكروا بالجرف.

وقد قال رسول الله يوصي الجيش قبل خروجه:(أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً،

---

(1) سمى البخاري هذه السرية غزوة، وإن لم يخرج فيها النبي ﷺ لكثرة جيش المسلمين فيها.
(2) من عمل البلقاء وهي مدينة معروفة بالشام على مرحلتين من بيت المقدس جنوب شرق البحر الميت.
(3)هذا هو السبب الذي ذكره أغلب المؤرخين إلا أن ابن إسحاق لم يذكر سبباً لهذه السرية.

اغزوا باسم الله في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً ولا منعزلاً بصومعة ولا تقربوا نخلاً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناءً)

ولما فصل الجيش من المدينة سمع العدو بمسيرهم، وقام شرحبيل بن عمرو الغساني، فجمع أكثر من مئة ألف من الروم، وضم إليهم القبائل القريبة الموالية، فلما نزل المسلمون معان من أرض الشام بلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء، فأقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا؛ فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له، فشجع الناسَ عبدُ الله بن رواحة على المضي فقال:(إن التي تكرهون للتي خرجتم لها، إياها تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا كثرة ولا قوة، وإنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فربما فعل، وإن تكن الأخرى فهي الشهادة وليست بشر المترلتين)، فقال الناس: لقد صدق ابن رواحة.

فمضوا إلى مؤتة، ووافاهم المشركون تحت إمرة إثيودور أخي هرقل فجاء منهم من لا قبل لأحد به من العدد الكثير الزائد على مئة ألف والسلاح والخيل وآلات الحرب مع من انضم إليهم من قبائل العرب المتنصّرة من بني بكر ولخم وجذام مئة ألف، فقاتل الأمراء الثلاثة يومئذ على أرجلهم، فأخذ اللواء زيد بن حارثة، فقاتل المسلمون معه بشجاعة على صفوفهم حتى قتل طعناً بالرماح، ثم أخذ اللواء جعفر بن أبي طالب ـــ رضي الله عنه ـــ فقاتل به وهو على فرسه فألجمه القتال وأحاط به فترل عن فرس له شقراء فعقرها وقاتل حتى قتل، وإنما عقرها خوفاً أن يأخذها العدو فيقاتل عليها المسلمين ولما أخذ اللواء قاتل قتالاً شديداً فقطعت يمينه، فأخذ اللواء بيساره فقطعت يساره فاحتضنه وقاتل حتى قتل ووجد فيه بضع وسبعون جرحاً ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة وتقدم به وهو على فرسه فجعل يستترل نفسه ويتردد بعض التردد ثم نزل عن فرسه وقاتل حتى قتل.

ثم أخذ اللواء ثابت بن أقرم العجلاني البلوي حليف الأنصاري وكان من أهل بدر فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل فاصطلحوا على خالد بن الوليد.

ثم نظر إلى خالد بن الوليد فقال: خذ اللواء يا أبا سليمان، فقال: لا آخذه، أنت أحق به، أنت رجل لك سن، فقد شهدت بدرًا، فقال ثابت: خذه أيها الرجل فوالله ما أخذته إلا لك، فأخذه خالد بن الوليد، وأصبحت الخطة الأساسية المنوطة بخالد في تلك الساعة العصيبة من القتال، أن ينقذ المسلمين من الهلاك الجماعي، فبعد أن قدر الموقف واحتمالاته المختلفة قدرًا دقيقًا، ودرس ظروف المعركة درسًا وافيًا وتوقع نتائجها، اقتنع بأن الانسحاب بأقل خسارة ممكنة هو الحل الأفضل، فقوة العدو تبلغ (٦٦) ضعفًا من قوة المسلمين، فلم يبق أمام هؤلاء إلا الانسحاب المنظم وعلى هذا الأساس وضع خالد الخطة التالية:

أولا ـــ الحيلولة بين جيش الروم وجيش المسلمين، ليضمن لهذا الأخير سلامة الانسحاب.

ثانيا ـــ لبلوغ هذا الهدف، لا بد من تضليل العدو بإيهامه أن مددًا ورد إلى جيش المسلمين فيخفف من ضغطه وهجماته، ويتمكن المسلمون من الانسحاب.

وصمد خالد حتى المساء عملا بهذه الخطة، وغير في ظلام الليل مراكز المقاتلين في جيشه، فاستبدل الميمنة

بالميسرة، ومقدمة القلب بالمؤخرة، وفي أثناء عملية الاستبدال اصطنع ضجة صاخبة وجلبة قوية، ثم حمل على العدو، عند الفجر، بهجمات سريعة متتالية وقوية ليدخل في روعه إن إمدادات كثيرة وصلت إلى المسلمين.

ونجحت الخطة؛ إذ بدا للعدو صباحًا أن الوجوه والرايات التي تواجهه جديدة لم يرها من قبل، وأن المسلمين يقومون بهجمات عنيفة، فأيقن أنهم تلقوا إمدادات، وأن جيشًا جديدًا نزل إلى الميدان، وكان البلاء الحسن الذي أبلاه المسلمون قد فت في عضد الروم وحلفائهم، فأدركوا أن إحراز نصر حاسم ونهائي على المسلمين أمر مستحيل، فتخاذلوا وتقاعسوا عن متابعة الهجوم، وضعف نشاطهم واندفاعهم، فخف الضغط عن جيش المسلمين، وانتهز خالد الفرصة فباشر الانسحاب.

لقد كانت عملية التراجع التي قام بها خالد في أثناء معركة (مؤتة) من أكثر العمليات في التاريخ العسكري مهارة ونجاحًا، بل إنها تتفق وتتلائم مع التكتيك الحديث للانسحاب، فقد عمد خالد إلى سحب الجناحين بحماية القلب، ولما أصبح الجناحان بمنأى عن العدو، وفي مأمن منه، عمد إلى سحب القلب بحماية الجناحين، إلى أن تمكن وضمن سلامة الانسحاب كليًّا[1].. بل لقد ذكر المؤرخون أن خسارة المسلمين لم تتعد الاثني عشر قتيلا في هذه المعركة، وأن خالدًا قال: (لقد انقطع في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي إلا صفيحة يمانية)

ويمكن القول إن خالدًا بخطته تلك، قد أنقذ الله المسلمين به من هزيمة ماحقة وقتل محقق، وأن انسحابه كان قمة النصر بالنسبة إلى ظروف المعركة، حيث يكون الانسحاب في ظروف مماثلة أصعب حركات القتال، بل أجداها وأنفعها[2].

قال دوج: ولكن ما سعى المسلمون لتحقيقه في هذه الغزوة لم يتحقق.. لقد رضوا من الغنيمة بالإياب؟

قال الحكيم: لا.. لقد كانت هذه الغزوة من أكبر الانتصارات التي من الله بها على المؤمنين.. ذلك أن مجرد التفكير في مواجهة الروم في ذلك الوقت لا يخطر على بال أحد.. فلذلك كان لمجرد التصدي لهم تأثيره العميق في كل المحيطين بالمسلمين.. ولذلك كانت هذه الغزوة مقدمة لفتح مكة، وما تلاها من فتوح الإسلام.

قال دوج: ولكنهم لم يزيدوا على أن انهزموا وأثبتوا فشلهم.

قال الحكيم: ليس بهذا المنطق يحكم الخبراء على الانتصار والهزيمة.. تصور الحادثة لتعرف مقدار النصر الذي حازه المؤمنون.. لقد كانت الروم في ذلك الوقت أعظم قوة في الأرض.. وتصدي المسلمين لها، ومواجهتها له تأثيره الكبير في تلك القبائل التي أكلتها الحرب.. وفي قريش.. التي لانت بعدها لينا لا مثله لين.

ولهذا لما عاد جيش المسلمين إلى المدينة تصور الناس أنهم انهزموا[3]، فصاروا يقولون لهم:(أنتم الفرارون) لكن الرسول ﷺ صحح لهم ذلك، وقال:(بل هم الكرارون)

وقد أخبر النبي ﷺ أصحابه بما حدث في ساحة القتال قبل رجوع الجيش إلى المدينة ونادى في الناس

([1]) انظر: معارك خالد بن الوليد، د. ياسين سويد، ص١٧٣.

([2]) انظر: السيرة النبوية: عرض وقائع، وتحليل أحداث.

([3]) وقد روي أن الرجل منهم كان يجيء إلى أهل بيته يدق عليهم بابه فيأبون الفتح له ويقولون: هلا تقدمت مع أصحابك فقتلت؟ حتى إن نفراً منهم جلسوا في بيوتهم استحياء كلما خرج واحد منهم صاحوا به وصار رسول الله ﷺ يرسل إليهم رجلاً، رجلاً.

الصلاة جامعة ثم صعد المنبر وعيناه تذرفان وقال:(يا أيها الناس باب خير، باب خير، أخبركم عن جيشكم هذا الغازي أنهم انطلقوا فلقوا العدو، فقتل زيد شهيداً فاستغفروا له، ثم أخذ الراية جعفر فشد على القوم حتى قتل شهيداً فاستغفروا له، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة وأثبت قدميه حتى قتل شهيداً فاستغفروا له، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد و لم يكن من الأمراء وهو أمّر نفسه ولكنه سيف من سيوف الله فآب بنصره) فمن يومئذ سُمي خالد (سيف الله)

سرية ذات السلاسل:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى سرية ذات السلاسل[1]، وهي السرية التي أرسل فيها رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى بلاد بلي وعذرة.

فإن كان ذلك كذلك، فليعلم أن سببها هو أنه ﷺ بلغه أن جمعاً من قضاعة تجمعوا للإغارة على المسلمين، وأرادوا أن يدنوا من أطراف المدينة منتهزين فرصة انهزام المسلمين في مؤتة.

وقد سار عمرو بن العاص في جمادى الآخرة ٨هـ (أكتوبر سنة ٦٢٩م) في صحبة (٣٠٠) من سراة المهاجرين والأنصار ومعهم (٣٠) فرساً.

وقد عقد له ﷺ لواء أبيض وجعل معه راية سوداء، فسار هو ومن معه وكان يكمن النهار ويسير الليل فلما قرب منهم بلغه أن جموع العدو كثيرة فبعث رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح وعقد له لواء وبعث معه (٢٠٠) من سراة المهاجرين والأنصار وفيهم أبو بكر وعمر ــ رضي الله عنهما ــ وأمره أن يلحق بعمرو وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا، فأراد أبو عبيدة أن يتولى القيادة، فقال عمرو: إنما قدمت عليّ مدداً وأنا الأمير، فقال أبو عبيدة: لا ولكن أنا على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه، وكان أبو عبيدة رجلاً سهلاً هيناً عليه أمر الدنيا فقال: يا عمرو إن رسول الله ﷺ قال لي: لا تختلفا وإنك إن عصيتني أطعتك، فأطاع له أبو عبيدة فكان عمرو يصلي بالناس وسار حتى وصل إلى العدو فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرقوا مذعورين بعد أن اقتتلوا ساعة فهزمهم المسلمون و لم يغنموا شيئاً.

سرية أبي قتادة:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى سرية أبي قتادة التي أرسلها ﷺ إلى خضرة في شعبان سنة ٨ هـ.

فإن كان ذلك كذلك، فليعلم أن سببها هو أن بني غَطَفَان كانوا يتحشدون في خَضِرَة ــ وهي أرض مُحَارِب بنَجْد ــ فبعث إليهم رسول الله ﷺ أبا قتادة في خمسة عشر رجلاً، فقتل منهم، وسَبَى وغنم، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة.

([1]) سُميت هذه السرية: (ذات السلاسل) لأن الأعداء ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفروا، وقيل: سُميت بذلك لأن بها ماء يُقال لها السلسل.

فتح مكة:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى فتح مكة..

قال دوج: أجل.. فكيف تجرأ على أن يدخل بجنوده إلى تلك المدينة المقدسة مع أنه كان قد صالح أهلها؟

قال الحكيم: أولا.. لقد كان محمد ﷺ من أهل مكة.. وكثير من الذين دخلوا مكة في هذا الفتح من أهلها الذين أخرجوا منها بغير حق.

وثانيا.. لقد كانت مكة محلا لانحرافات كثيرة.. وكان الدين الذي يشرع للاستبداد والظلم ينطلق من مكة.. أفترى في تطهير هذه البلاد من تلك الانحرافات إرهابا!؟

وثالثا.. لقد حاربت قريش رسول الله ﷺ منذ أرسله الله.. أفترى في نصر الله له عليهم إرهابا!؟

قال دوج: والصلح الذي عقدوه فيما بينهم؟

قال الحكيم: لقد كانوا هم البادئين بخرقه.. وسأحدثكم حديث ذلك.

لقد عرفتم أن من بنود معاهدة الحديبية أن من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأن القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين تعتبر جزءاً من ذلك الفريق، فأي عدوان تتعرض له أي من تلك القبائل يعتبر عدواناً على ذلك الفريق.

وحسب هذا البند دخلت خُزَاعَة في عهد رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وصارت كل من القبيلتين في أمن من الأخرى، وقد كانت بين القبيلتين عداوة وتوترات في الجاهلية، فلما جاء الإسلام، ووقعت هذه الهدنة، وأمن كل فريق من الآخر ــ اغتنمها بنو بكر، وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة الثأر القديم، فخرج نَوْفَل بن معاوية الدِّيلي في جماعة من بني بكر في شهر شعبان سنة ٨ هــ، فأغاروا على خزاعة ليلاً، وهم على ماء يقال له (الوَتِير) فأصابوا منهم رجالاً، وتناوشوا واقتتلوا، وأعانت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم رجال من قريش مستغلين ظلمة الليل، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر: يا نوفل، إنا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك، فقال كلمة عظيمة: لا إله اليوم يا بني بكر، أصيبوا ثأركم. فلعمري إنكم لتَسرِقُون في الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه؟

ولما دخلت خزاعة مكة لجأوا إلى دار بُدَيْل بن وَرْقَاء الخزاعي، وإلى دار مولى لهم يقال له: رافع.

وأسرع عمرو بن سالم الخزاعي، فخرج حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فوقف عليه، وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس فقال:

يا رب إني ناشد محمداً= حلفَ أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم ولداً وكنا والدَا= ثمت أسلمنا فلم نترع يدا
فانصر هداك الله نصراً أعتدا=وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا=إن سيم خَسفاً وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجري مزبدا=إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا=وجعلوا لي في كداء رصدا

وزعموا أن لست أدعو أحداً=وهم أذل وأقل عددا

هم بيتونا بالوتير هُجداً=وقتلونا ركعاً وسجدا

فقال رسول الله ﷺ: (نصرت يا عمرو بن سالم)، ثم عرضت له سحابة من السماء، فقال: (إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب).

ثم خرج بُدَيْل بن وَرْقَاء الخزاعي في نفر من خُزَاعَة، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فأخبروه بمن أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم رجعوا إلى مكة.

بعد أن أحست قريش بغدرها، وشعرت بعواقبه الوخيمة، عقدت مجلساً استشارياً، وقررت أن تبعث قائدها أبا سفيان ممثلاً لها ليقوم بتجديد الصلح.

وقد أخبر رسول الله ﷺ أصحابه بما ستفعله قريش إزاء غدرهم. قال: (كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العَقْدَ، ويزيد في المدة).

وخرج أبو سفيان ـــ حسب ما قررته قريش ـــ فلقي بديل بن ورقاء بعُسْفَان ـــ وهو راجع من المدينة إلى مكة ـــ فقال: من أين أقبلت يا بديل؟ ـــ وظن أنه أتى النبي ﷺ ـــ فقال: سرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي. قال: أو ما جئت محمداً؟ قال: لا.

فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان: لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوي، فأتى مبرك راحلته، فأخذ من بعرها، ففته، فرأى فيها النوي، فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً.

وقدم أبو سفيان المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس. فقال: والله لقد أصابك بعدي شر.

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يرد عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم رسول الله ﷺ، فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه، فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذَّرَّ لجاهدتكم به، ثم جاء فدخل على علي بن أبي طالب، وعنده فاطمة، وحسن، غلام يدب بين يديهما، فقال: يا علي، إنك أمس القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائباً، اشفع لي إلى محمد، فقال: ويحك يا أبا سفيان، لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة، فقال: هل لك أن تأمري ابنك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما يبلغ ابني ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ .

وحيئذ لم يجد أبو سفيان ما يفعل، فقال لعلى بن أبي طالب في هلع وانزعاج ويأس وقنوط: يا أبا الحسن، إني أري الأمور قد اشتدت علي، فانصحني، قال: والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك. ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الْحَقْ بأرضك. قال: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال: لا والله ما أظنه، ولكني لم أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس، إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره، وانطلق.

ولما قدم على قريش، قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمداً فكلمته، فوالله ما رد علي شيئاً، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيراً، ثم جئت عمر بن الخطاب، فوجدته أدنى العدو، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم، قد أشار علي بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغني عني شيئاً أم لا؟ قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا. قالوا: ويلك، إن زاد الرجل على أن لعب بك. قال: لا والله ما وجدت غير ذلك.

وقد روي أن رسول الله ﷺ أمر عائشة ـــ قبل أن يأتي إليه خبر نقض الميثاق بثلاثة أيام ـــ أن تجهزه، ولا يعلم أحد، فدخل عليها أبو بكر، فقال: يابنية، ما هذا الجهاز؟ قالت: والله ما أدري. فقال: والله ما هذا زمان غزو بني الأصفر، فأين يريد رسول الله؟ قالت: والله لا علم لي، وفي صباح الثالثة جاء عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً، وارتجز الأبيات، فعلم الناس بنقض الميثاق، وبعد عمرو جاء بديل، ثم أبو سفيان، وتأكد عند الناس الخبر، فأمرهم رسول الله ﷺ بالجهاز، وأعلمهم أنه سائر إلى مكة، وقال: (اللّهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها).

وزيادة في الإخفاء والتعمية بعث رسول الله ﷺ سرية قوامها ثمانية رجال، تحت قيادة أبي قتادة بن رِبْعِي، إلى بطن إضَم، فيما بين ذي خَشَب وذي المروة، على ثلاثة بُرُد من المدينة، في أول شهر رمضان سنة ٨ هـــ ؛ ليظن الظان أنه ﷺ يتوجه إلى تلك الناحية، ولتذهب بذلك الأخبار، وواصلت هذه السرية سيرها، حتى إذا وصلت حيثما أمرت بلغها أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة، فسارت إليه حتى لحقته.

ولعشر خلون من شهر رمضان المبارك ٨ هـــ، غادر رسول الله ﷺ المدينة متجهاً إلى مكـــــة، في عشرة آلاف من الصحابة، واستخـــلف على المدينة أبا رُهْم الغفاري.

ولما كان بالجُحْفَة ـــ أو فوق ذلك ـــ لقيه عمه العباس بن عبد المطلب، وكان قد خرج بأهله وعياله مسلماً مهاجراً، ثم لما كان رسول الله ﷺ بالأبواء لقيه ابن عمه أبو سفيان ابن الحارث وابن عمته عبد الله بن أبي أمية، فأعرض عنهما، لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى والهجو، فقالت له أم سلمة: لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك. وقال علي لأبي سفيان بن الحارث: ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف:﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ) (يوسف:٩١)، فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً. ففعل ذلك أبو سفيان، فقال له رسول الله ﷺ:﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) (يوسف:٩٢)

وواصل رسول الله ﷺ سيره وهو صائم، والناس صيام، حتى بلغ الكُدَيْد ـــ وهو ماء بين عُسْفَان وقُدَيْد ـــ فأفطر، وأفطر الناس معه. ثم واصل سيره حتى نزل بمر الظهران ـــ وادي فاطمة ـــ نزله عشاء، فأمر الجيش، فأوقدوا النيران، فأوقدت عشرة آلاف نار، وجعل رسول الله ﷺ على الحرس عمر بن الخطاب ـــ رضي الله عنه ـــ

وركب العباس ـــ بعد نزول المسلمين بمر الظهران ـــ بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، وخرج يلتمس، لعله يجد بعض الحَطَّابة أو أحداً يخبر قريشاً ليخرجوا يستأمنون رسول الله ﷺ قبل أن يدخلها.

وكان الله قد عمي الأخبار عن قريش، فهم على وَجَلٍ وترقب، وكان أبو سفيان يخرج يتجسس الأخبار، فكان قد خرج هو وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار.

قال العباس: والله إني لأسير عليها ـــ أي على بغلة رسول الله ﷺ ـــ إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء، وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً. قال: يقول بديل: هذه والله خزاعة، حَمَشَتْها الحرب، فيقول أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرالها وعسكرها.

قال العباس: فعرفت صوته، فقلت: أبا حَنْظَلَة؟ فعرف صوتي، فقال: أبا الفضل؟ قلت: نعم. قال: مالك؟ فداك أبي وأمي. قلت: هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباح قريش والله.

قال: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟، قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة، حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك، فركب خلفي، ورجع صاحباه.

قال: فجئت به، فكلما مررت به على نار من نيران المسلمين، قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عم رسول الله ﷺ على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال: من هذا؟ وقام إلي، فلما رأي أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان، عدو الله؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ، وركضتُ البغلة فسبقت، فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ، ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان فدعني أضرب عنقه، قال: قلت: يا رسول الله، إني قد أجرته، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، فقلت: والله لا يناجيه الليلة أحد دوني، فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر، فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت مثل هذا، قال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك كان أحب إلي من إسلام الخطاب، لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب.

فقال رسول الله ﷺ:(اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به)، فذهبت، فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه قال: (ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟) قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك؟ لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغني عني شيئاً بعد.

قال: (ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟)، قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك: أما هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيء. فقال له العباس: ويحك أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، قبل أن تضرب عنقك، فأسلم وشهد شهادة الحق.

قال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً. قال: (نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن).

وفي صباح يوم الثلاثاء للسابع عشر من شهر رمضان سنة ٨ هـــ غادر رسول الله ﷺ مر الظهران إلى مكة، وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خَطْمِ الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها، ففعل، فمرت القبائل على راياتها، كلما مرت به قبيلة قال: يا عباس، من هذه؟ فيقول ـــ مثلا ـــ سليم، فيقول: مإلي ولِسُلَيْم؟ ثم تمر به القبيلة فيقول: يا عباس، من هؤلاء؟ فيقول: مُزَيْنَة، فيقول: ما لي ولمزينة؟ حتى نفذت القبائل،

ما تمر به قبيلة إلا سأل العباس عنها، فإذا أخبره قال: مالي ولبني فلان؟ حتى مر به رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يري منهم إلا الحَدَق من الحديد، قال: سبحان الله! يا عباس، من هؤلاء؟ قال: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة، ثم قال: والله يا أبا الفضل، لقد أصبح مُلْكُ ابن أخيك اليوم عظيماً، قال العباس: يا أبا سفيان، إنها النبوة، قال: فنعم إذن.

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة، فلما مر بأبي سفيان قال له: اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستَحَلُّ الحُرْمَة، اليـوم أذل الله قـريشاً. فلما حـاذي رسول الله ﷺ أبا سفيان قال: يا رسول الله، ألم تسمع ما قال سعد؟ قال: (وما قال؟) فقال: قال كذا وكذا. فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله، ما نأمن أن يكون له في قريش صولة، فقال رسول الله ﷺ : (بل اليوم يوم تُعَظَّم فيه الكعبة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً) ثم أرسل إلى سعد فترع منه اللواء، ودفعه إلى ابنه قيس، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد.

ولما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان ومضي قال له العباس: النجاء إلى قومك، فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة، وصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحَمِيت الدسم الأحمش الساقين، قُبِّحَ من طَلِيعَة قوم.

قال أبو سفيان: ويلكم، لاتغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله، وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، ووبشوا أوباشاً لهم، وقالوا: نقدم هؤلاء، فإن كان لقريش شيء كنا معهم، وإن أصيبوا أعطينا الذي سئلنا، فتجمع سفهاء قريش وأخِفَّاؤها مع عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو بالخَنْدَمَة ليقاتلوا المسلمين، وكان فيهم رجل من بني بكر ـــ حِمَاس بن قيس ـــ كان يعد قبل ذلك سلاحاً، فقالت له امرأته: لماذا تعد ما أري؟ قال: لمحمد وأصحابه. قالت: والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء. قال: إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهم.

أما رسول الله ﷺ فمضي حتى انتهي إلى ذي طوي ـــ وكان يضع رأسه تواضعاً لله حين رأي ما أكرمه الله به من الفتح، حتى أن شعر لحيته ليكاد يمس واسطة الرحل ـــ وهناك وزع جيشه، وكان خالد بن الوليد على المُجَنَّبَةِ اليمني ـــ وفيها أَسْلَمُ وسُلَيْم وغِفَار ومُزَيْنَة وجُهَيْنَة وقبائلِ من قبائل العرب ـــ فأمره أن يدخل مكة من أسفلها، وقال: (إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصداً، حتى توافوني على الصفا).

وكان الزبير بن العوام على المُجَنَّبَةِ اليسري، وكان معه راية رسول الله ﷺ، فأمره أن يدخل مكة من أعلاها ـــ من كَدَاء ـــ وأن يغرز رايته بالحَجُون، ولا يبرح حتى يأتيه.

وكان أبو عبيدة على الرجالة والحُسَّر ـــ وهم الذين لاسلاح معهم ـــ فأمره أن يأخذ بطن الوادي حتى ينصب لمكة بين يدي رسول الله ﷺ .

وتحركت كل كتيبة من الجيش الإسلامي على الطريق التي كلفت الدخول منها.

فأما خالد وأصحابه فلم يلقهم أحد من المشركين إلا أناموه، وقتل من أصحابه من المسلمين كُرْز بن جابر الفِهْري وخُنَيْس بن خالد بن ربيعة، كانا قد شذا عن الجيش، فسلكا طريقاً غير طريقه فقتلا جميعاً، وأما سفهاء قريش فلقيهم خالد وأصحابه بالخَنْدَمَة فناوشوهم شيئا من قتال، فأصابوا من المشركين اثني عشر رجلاً، فانهزم المشركون، وانهزم حِمَاس بن قيس ــ الذي كان يعد السلاح لقتال المسلمين ــ حتى دخل بيته.

وأقبل خالد يجوس مكة حتى وافى رسول الله ﷺ على الصفا.

وأما الزبير فتقدم حتى نصب راية رسول الله ﷺ بالحَجُون عند مسجد الفتح، وضرب له هناك قبة، فلم يبرح حتى جاءه رسول الله ﷺ .

ثم نهض رسول الله ﷺ، والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله، حتى دخل المسجد، فأقبل إلى الحجر الأسود، فاستلمه، ثم طاف بالبيت، وفي يده قوس، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول:﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (الإسراء:٨١)، ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ (سبأ:٤٩)، والأصنام تتساقط على وجوهها.

وكان طوافه على راحلته، ولم يكن محرماً يومئذ، فاقتصر على الطواف، فلما أكمله دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، فأمر بها ففتحت فدخلها، فرأى فيها الصور، ورأي فيها صورة إبراهيم، وإسماعيل ــ عليهما السلام ــ يستقسمان بالأزلام، فقال: (قاتلهم الله، والله ما استقسما بها قط)، ورأي في الكعبة حمامة من عيدان، فكسرها بيده، وأمر بالصور فمحيت.

ثم أغلق عليه الباب، وعلى أسامة وبلال، فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب حتى إذا كان بينه وبينه ثلاثة أذرع وقف، وجعل عمودين عن يساره، وعموداً عن يمينه، وثلاثة أعمدة وراءه ــ وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة ــ ثم صلي هناك. ثم دار في البيت، وكبر في نواحيه، ووحد الله، ثم فتح الباب، وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ينتظرون ماذا يصنع؟ فأخذ بعضادتي الباب وهم تحته، فقال:(لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأْثُرَة أو مال أو دم فهو تحت قدمي هاتين، إلا سِدَانَة البيت وسِقاية الحاج، ألاوقتيل الخطأ شبه العمد ــ السوط والعصا ــ ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل أربعون منها في بطونها أولاد.

يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب ثم تلا هذه الآية:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات:١٣)

ثم قال: (يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟)

قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم.

قال: (فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته:﴿ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ ﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء)

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد فقام إليه علي[1] ــ رضي الله عنه ــ ومفتاح الكعبة في يده فقال: اجمع

(1) وفي رواية أن الذي قال ذلك هو العباس.

لنا الحجابة مع السقاية، صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: (أين عثمان بن طلحة؟). فدعي له، فقال له: (هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء)[1]

وحانت الصلاة، فأمر رسول الله ﷺ بلالا أن يصعد فيؤذن على الكعبة، وأبو سفيان بن حرب، وعتاب بن أسيد، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب: لقد أكرم الله أسيدا ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه. فقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه حق لاتبعته. فقال أبو سفيان: أما والله لا أقول شيئًا، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصباء. فخرج عليهم النبي ﷺ فقال لهم: (لقد علمت الذي قلتم) ثم ذكر ذلك لهم.

فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك.

ودخل رسول الله ﷺ يومئذ دار أم هانئ بنت أبي طالب، فاغتسل وصلى ثماني ركعات في بيتها، وأجارت أم هانئ حموين لها، فقال رسول الله ﷺ : (قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ)، وقد كان أخوها علي بن أبي طالب أراد أن يقتلهما، فأغلقت عليهما باب بيتها، وسألت النبي ﷺ فقال لها ذلك.

وأهدر رسول الله ﷺ يومئذ دماء تسعة نفر من أكابر المجرمين، وأمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، وهم عبد العزى بن خطل، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن نفيل بن وهب، ومقيس بن صبابة، وهبار بن الأسود، وقينتان كانتا لابن الأخطل، كانت تغنيان بهجو النبي ﷺ، وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب، وهي التي وجد معها كتاب حاطب.

فأما ابن أبي سرح فجاء به عثمان إلى النبي ﷺ، وشفع فيه، فحقن دمه، وقبل إسلامه بعد أن أمسك عنه رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله، وكان قد أسلم قبل ذلك وهاجر، ثم ارتد ورجع إلى مكة.

وأما عكرمة بن أبي جهل، ففر إلى اليمن، فاستأمنت له امرأته، فأمنه النبي ﷺ فتبعته، فرجع معها وأسلم وحسن إسلامه.

وأما ابن خطل فكان متعلقًا بأستار الكعبة، فجاء رجل إلى النبي ﷺ وأخبره، فقال: (اقتله) فقتله.

وأما مقيس بن صبابة فقتله نميلة بن عبدالله، وكان مقيس قد أسلم قبل ذلك، ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله، ثم ارتد ولحق بالمشركين.

وأما الحارث فكان شديد الأذى لرسول الله ﷺ بمكة، فقتله علي.

وأما هبار بن الأسود فهو الذي كان قد عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت، فنخس بها حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها، ففر هبار يوم مكة ثم أسلم.

وأما القينتان فقتلت إحداهما، واستؤمن للأخرى فأسلمت، كما استؤمن لسارة وأسلمت.

([1]) وفي رواية ابن سعد في الطبقات أنه قال له حين دفع المفتاح إليه: (خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف).

ممن أهدر دمه كعب بن زهير، وقصته مشهورة[1]، وقد جاء بعد ذلك وأسلم ومدح.

ومنهم وحشي بن حرب، وهند بنت عتبة امرأه أبي سفيان، وقد أسلمت.

أما صفوان بن أمية، فلم يكن ممن أهدر دمه، لكنه بصفته زعيماً كبيراً من زعماء قريش خاف على نفسه وفر، فاستأمن له عمير بن وهب الجمحي رسول الله ﷺ فأمنه، وأعطاه عمامته التي دخل بها مكة، فلحقة عمير وهو يريد أن يركب البحر من جدة إلى اليمن فرده، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: اجعلني بالخيار شهرين. قال (أنت بالخيار أربعة أشهر) ثم أسلم صفوان، وقد كانت امرأته أسلمت قبله، فأقرهما على النكاح الأول.

وكان فضالة رجلاً جريئا جاء إلى رسول الله ﷺ، وهو في الطواف؛ ليقتله، فأخبر الرسول ﷺ بما في نفسه فأسلم.

ولما كان الغد من يوم الفتح قام رسول الله ﷺ في الناس خطيباً، فحمد الله، وأثنى عليه، ومجده بما هو أهله، ثم قال: (أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً، أو يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسولة و لم يأذن لكم، وإنما حلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب).

وفي رواية: (لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده ولا تلتقط ساقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه)، فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر، فإنه لقينهم وبيوتهم، فقال: (إلا الإذخر).

وكانت خزاعة قتلت يومئذ رجلا من بني ليث بقتيل لهم في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ بهذا الصدد: (يا معشر خزاعة، ارفعو أيديكم عن القتل، فلقد كثر القتل إن نفع، ولقد قتلتم قتيالا لأدينه، فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين، إن شاءوا فدم قاتله، وإن شاءوا فعقله).

ولما تم فتح مكة على الرسول ﷺ – وهي بلده ووطنه ومولده – قال الأنصار فيما بينهم: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها – وهو يدعو على الصفا رافعاً يديه – فلما فرغ من دعائة قال: (ماذا قلتم؟) قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال رسول الله ﷺ : (معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم).

وحين فتح الله مكة على رسول الله ﷺ والمسلمين، تبين لأهل مكة الحق، وعلموا أن لا سبيل إلى النجاح إلا الإسلام، فأذعنوا له، واجتمعوا للبيعة، فجلس رسول الله ﷺ على الصفا يبايع الناس، وعمر بن الخطاب أسفل منه، يأخذ على الناس فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا.

وقد روى أن النبي ﷺ لما فرغ من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء، وهو على الصفا، وعمر قاعد أسفل منه، يبايعهن بأمره، ويبلغهن عنه، فجاءت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متنكرة، خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها؛ لما صنعت بحمزة، فقال رسول الله ﷺ:(أبايعكن على ألا تشركن بالله شيئا)، فبايع عمر النساء على ألا

([1]) ذكرناها في الرسالة السابقة.

يشركن بالله شيئا فقال رسول الله ﷺ : (ولا تسرقن) فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح، فإن أنا أصبت من ماله هنات؟ فقال أبو سفيان: وما أصبت فهو لك حلال، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها، فقال: (وإنك لهند؟) قالت: نعم، فاعف عما سلف يا نبي الله، عفا الله عنك.

فقال: (ولا يزنين). فقالت: أو تزني الحرة؟

فقال: (ولا يقتلن أولادهن). فقالت: ربيناهم صغارا، وقتلناهم كبارا، فأنتم وهم أعلم ـــ وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدرـــ فضحك عمر حتى استلقى فتبسم رسول الله ﷺ .

قال: (ولا يأتين ببهتان) فقالت: والله إن البهتان لأمر قبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق.

فقال: (ولا يعصينك في معروف) فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك.

ولما رجعت جعلت تكسر صنمها وتقول: كنا منك في غرور.

وفي رواية: جاءت هند بنت عتبة فقالت: يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلي أن يعزوا من أهل خبائك. قال: (وأيضا، والذي نفسي بيده) قالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل مسيك فهل علي حرج أن أطعم من الذي له عيالنا؟ قال: (لا أره إلا بالمعروف).

وأقام رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر يومًا يجدد معالم الإسلام، ويرشد الناس إلى الهدى والتقى، وخلال هذه الآيام أمر أبا أسيد الخزاعي، فجدد أنصاب الحرم، وبث سراياه للدعوة إلى الإسلام، ولكسر الأوثان التي كانت حول مكة، فكسرت كلها[1]، ونادى مناديه بمكة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته

([1])وقد سمى المؤرخون هذه البعوث سرايا، وهذه أسماؤها، ومهامها:

سرية خالد بن الوليد إلى العُزَّى: وقد كانت بنخلة، على بعد ليلة من مكة، زكانت لقريش وجميع بني كنانة، وكانت أعظم أصنامهم وكان سدنتها بنو شيبان من بني سليم، قال ابن حبيب: العُزَّى شجرة كانت بنخلة عندها وثن تعبده غطفان فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد قطع الشجرة وهدم البيت وكسر الوثن، والبيت كان مبنياً على العزى وكانوا يهدون لها كما يهدون للكعبة ويطوفون وينحرون عندها.

وقد خرج خالد في ثلاثين فارساً من أصحابه حتى انتهى إليها فهدمها ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: هل رأيت شيئاً؟ قال: لا، قال: لم تهدمها، فارجع إليها فاهدمها، فرجع خالد وهو متغيظ فوجد سيفه، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ناشرة الرأس، فجعل السادن يصيح بها فضربها خالد فجزلها باثنتين ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: نَعم تلك العزى وقد يئست أن تعبد ببلادكم أبداً.

سرية سعد بن زيد الأشهلي إلى مَناة: زمناة صنم للأوس والخزرج وغسان وكانت بالمشلَّل ومَناة من أقدم الأصنام وكانت العرب تسمّي عبد مناة وكانوا يحجون إليها ولم يكن أشد إعظاماً لها من الأوس والخزرج.

وقد بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصاري الأشهلي إليها ليهدمها، وذلك لست بقين من شهر رمضان، فخرج في عشرين فارساً حتى انتهى إليها وعليها سادن (خادم)، فقال السادن: ما تريد؟ قال: هدم مناة، قال: أنت وذاك، فأقبل سعد يمشي إليها فخرجت إليه امرأة سوداء عريانة ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها، فقال السادن: مناة دونك بعض غضباتك فضربها سعد فقتلها، وأقبل إلى الصنم ومعه أصحابه فهدموه ولم يجدوا في خزانتها شيئاً.

سرية عمرو بن العاص إلى سُواع: وهو اسم صنم لهذيل، على ثلاثة أميال من مكة، وكان بأرض يقال لها رُهاط من بطن نخلة، وكانت سدنته من بني لحيان.

صنما إلا كسره.

غزوة حنين:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى غزوة حنين[1]، تلك الغزوة التي قادها ﷺ في ١٠ شوال سنة ثمان من الهجرة (فبراير سنة ٦٣٠م)

فإن كان ذلك كذلك، فليعلم أن سببها هو أنه لما فتح الله مكة على رسوله والمؤمنين، وخضعت له

وقد بعثها ﷺ في شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة بعد فتح مكة، قال عمرو: فانتهيت إليه وعنده سادن فقال: ما تريد؟ قلت: أمرني رسول الله أن أهدمه، قال: لا تقدر على ذلك، قلت: لِمَ؟ قال: تُمنع، قلت: حتى الآن أنت في الباطل ويحك وهل يسمع أو يبصر؟ قال: فدنوت منه فكسرته وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزائنه فلم يجدوا منه شيئاً، ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله.

سرية الطفيل بن عمرو الدَّوسي إلى ذي الكَفَّين: لما أراد رسول الله ﷺ السير إلى الطائف بعث الطفيل بن عمرو الدَّوسي إلى ذي الكفين، وذلك في شوال سنة ثمان من الهجرة ليهدمه وأمره أن يستمد قومه ويوافيه بالطائف، فخرج سريعاً إلى قومه، فهدم ذا الكفين وجعل يحش النار في جوفه ويحرقه ويقول:

يا ذا الكفين لست من عبادكا ميلادنا أقدم من ميلادكا

إني حششت النار في فؤادكا

وانحدر معه من قومه ٤٠٠ سراعاً فوافوا النبي ﷺ بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام وقدم بدبابة ومنجنيق.

ومن السرايا التي أرسلت للدعوة إلى الإسلام **سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة**، وقد وقع فيها أكبر خطأ في تاريخ السرايا جميعا، وقد تبرأ رسول الله ﷺ من ذلك الخطأ الناتج عن عدم تعمق في معرفة الإسلام.

وقصة هذه السرية هي أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى بني جذيمة داعيًا إلى الإسلام، وكان ذلك في شهر شوال من السنة الثامنة للهجرة قبل حنين، ومعه جنود من بني سليم ومدلج والأنصار والمهاجرين، كان تعدادهم حوالي ثلاثمائة وخمسين رجلاً، فلما رأى بنو جذيمة الجيش بقيادة خالد أخذوا السلاح، فقال لهم خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا، فقام رجل منهم يسمى جحدرا فقال: ويلكم يا بني جذيمة! إنه خالد، والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحي أبدًا.

فلم يزالوا به حتى وضع سلاحه، فلما وُضع السلاح أمر بهم خالد فكتفوا، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون صبأنا صبأنا، وخالد يأخذ فيهم أسرا وقتلا.

فأنكر عليه بعض أصحابه ذلك، ثم دفع الأسرى إلى من كان معه، حتى إذا أصبح يومًا أمر خالد أن يقتل كل واحد أسيره، فامتثل البعض، وامتنع عبد الله بن عمر وامتنع معه آخرون من قتل أسراهم، فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه، فغضب ورفع يديه إلى السماء قائلا:(اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد)

ودار كلام بين خالد وعبد الرحمن بن عوف حول هذا الموضوع حتى كان بينهما شر، فقد خشي ابن عوف أن يكون ما صدر عن خالد ثأرا لعمه الفاكه بن المغيرة الذي قتلته جذيمة في الجاهلية، ولعل هذا الذي وقع بينهما هو ما أشار إليه الحديث المروي عند مسلم وغيره: كان بين ابن الوليد وعبد الرحمن بن عوف شيء فسبَّه خالد، فقال رسول الله ﷺ:(لا تسبوا أحدًا من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبًا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه)

وليصحح رسول الله ﷺ الخطأ الكبير الذي وقع فيه خالد بعث عليا ــ رضي الله عنه ــ فودى لهم قتلاهم وزادهم فيها تطييبًا لنفوسهم وبراءة من دمائهم.

وبهذا التصرف النبوي الحكيم واسى النبي ﷺ بني جذيمة، وأزال ما في نفوسهم من أسى وحزن.

([1])حُنين وادٍ في طريق الطائف إلى جنب ذي المجاز بينه وبين مكة ثلاث ليال وتسمى غزوة أوطاس اسم لموضع كانت به الموقعة وهو واد في ديار هوازن، وتسمى الغزوة أيضاً غزوة هوازن، وهوازن اسم قبيلة كبيرة من العرب فيها عدة بطون.

قريش، خافت هوازن وثقيف، وقالوا: قد فرغ محمد لقتالنا، فلنغزه قبل أن يغزونا، وأجمعوا أمرهم على هذا، وولوا عليهم مالك بن عوف النصري، فاجتمع إليه هوازن، وثقيف وبنو هلال، ولم يحضرها من هوازن كعب وكلاب.

بل قيل: إنهم كانوا يستعدون للقتال قبل فتح مكة، وذلك حين سمعوا بخروج رسول الله ﷺ من المدينة، وهم يظنون أنه إنما يريدهم فأسندوا الرياسة والقيادة إلى مالك بن عوف أحد بني نصر، فاجتمع إليه من القبائل جموع كثيرة منهم بنو سعد بن بكر وهم الذين كان رسول الله ﷺ مسترضعاً فيهم، ومعهم دُرَيد بن الصِّمَّة رئيس بني جُشَم وسيدهم وكان شجاعاً مجرباً لكنه كان شيخاً كبيرا قد عمي وصار لا ينتفع إلا برأيه وخبرته ومعرفته بالحروف، وكان قائد ثقيف كنانة بن عبد ياليل وقد أسلم بعد ذلك.

وكان جملة من اجتمع من بني سعد وثقيف ٤٠٠٠ وانضم إليهم من سائر العرب جموع كثيرة وكان مجموعهم كلهم نحو ٣٠.٠٠٠ مقاتل، وقيل: ٢٠.٠٠٠ وكانت هوازن رماة.

وكان مع النبي ﷺ ١٢.٠٠٠ مقاتل، منهم ١٠.٠٠٠ الذين جاءوا معه من المدينة لفتح مكة و٢٠٠٠ من الذين أسلموا في فتح مكة.

وروي أنه ذكر لرسول الله ﷺ عند عزمه على الخروج أن عند صفوان بن أمية دروعاً وسلاحاً فأرسل إليه فأعطاه مئة درع بما يكفيها من السلاح، وفي رواية ٤٠٠ درع وسأله رسول الله ﷺ أن يكفيهم حملها إلى موضع القتال ففعل، واستعار أيضاً من نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وهو ابن عمه ﷺ ٣٠٠٠ رمح وقال: كأني أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين.

وقد خرج رسول الله ﷺ من مكة يوم السبت لست خلون من شوال سنة ثمان من الهجرة (٢٨ يناير سنة ٦٣٠ م)، وأهل مكة معه ركباناً ومشاة حتى النساء ومن لم يكمل إسلامه، استعمل رسول الله ﷺ عَتّاب بن أسيد بن العيص على مكة أميراً، وكان شاباً وترك مُعاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي يعلِّم الناس الأحكام والشرائع.

ولما اقترب رسول الله ﷺ لى من مكان العدو رتب أصحابه وصفَّهم ووضع الألوية والرايات من المهاجرين والأنصار، ورتَّب قبائل العرب ووزع عليهم الألوية والرايات ولبس رسول الله ﷺ درعين والبيضة والمغفر وقدم سليماً من يوم خرج من مكة واستعمل عليهم خالد بن الوليد فلم يزل في مقدمته حتى ورد الجعرانة.

وكان قد أرسل مالك بن عوف رئيس هوازن ثلاثة نفر من الجواسيس ينظرون إلى جيش المسلمين، فرجعوا خائفين ونصحوا بالعودة فرماهم بالجبن وحبسهم عنده خوفاً أن يشيعوا ذلك في جيشه فتثبط هممهم وتخور عزائمهم.

وفي المقابل أرسل رسول الله ﷺ رجلاً من أصحابه وهو عبد الله بن أبي حَدْرد الأسلمي وأمره أن يدخل في جيش العدو ويسمع منهم ما أجمعوا عليه فمكث يوماً أو يومين، ثم أتى النبي ﷺ وأخبره أنه انتهى إلى خباء مالك بن عوف وعنده رؤساء هوازن فسمعه يقول لأصحابه: إن محمداً لم يقاتل يوماً قط قبل هذه المرة، وإنما كان يلقي قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب، فيظهر عليهم، فإذا كان السحر فصفوا مواشيكم ونساءكم

وأبناءكم من ورائكم، ثم صفوا، ثم تكون الحملة منكم واكسروا أغماد سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف، واحملوا حملة رجل واحد واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولاً.

ولما كان رسول الله ﷺ بحنين وانحدر في الوادي، وذلك عند غبش الصبح خرج عليهم القوم، وكانوا قد كمنوا لهم في شعاب الوادي ومضايقه عملاً بإشارة دريد بن الصمة، فحمل عليهم المسلمون، فانكشفوا ثم انشغلوا بالغنائم، مثلما حصل في غزوة أُحد.

وفي هذه الغزوة لما انشغل المسلمون بالغنائم استقبلهم العدو بالسهام، فعادوا منهزمين لا يلوي أحد على أحد، وانكشفت خيل بني سليم مولّية وكانت مع النبي ﷺ وأصحابه فتبعهم أهل مكة والناس فانهزموا، وكانت هوازن رماة.

وقد ثبت رسول الله ﷺ في هذه الموقف الشديد كما ثبت في غزوة أُحُد وكان ثباته سبباً في كسب الموقعة، فإنه انحاز ذات اليمين ومعه نفر قليل قيل: إنهم لم يبلغوا مئة وكان رسول الله ﷺ يركض وهو على بغلته نحو هوازن وهو يقول:(أنا النبيُّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب)

وأخذ كفاً من تراب فرماه في وجوه العدو قائلاً:(شاهت الوجوه)، فانهزموا، وهذا الرمي وقع مثله في غزوة بدر وهو من معجزاته الحسية [1].

ولما ثبت رسول الله ﷺ و لم يبق معه إلا بعض أصحابه، قال لعمه العباس: اصرخ: يا معشر الأنصار، يا أصحاب السَّمُرَة، وكان العباس عظيم الصوت، وفي رواية: قال له: ناد يا أصحاب البيعة يوم الحديبية، يا أصحاب سورة البقرة، فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنَت على أولادها فأمرهم أن يصدقوا الحملة على العدو، فاقتتلوا قتالاً شديداً فنظر إلى قتالهم فقال:(الآن حمي الوطيس)، فولى المشركون الأدبار والمسلمون يقتلون ويأسرون فيهم ويتبعون آثارهم وقتل بعض المسلمين ذرية العدو، فنهاهم رسول الله ﷺ عن قتل الذرية وقال:(من قتل قتيلاً فله سلبه)، وجُرح خالد بن الوليد جراحات أثقلت به، فتفل النبي ﷺ في جرحه فبرىء، ولما وقعت الهزيمة أسلم الناس من كفار مكة وغيرهم.

ثم قدم وفد هوازن على النبي ﷺ وهم أربعة عشر رجلاً ورأسهم زهير بن صرد وفيهم أبو برقان عم رسول الله من الرضاعة وهو من بني سعد، وقد جاءوا مسلمين فسألوه أن يمن عليهم بالسبي، فرضي رسول الله ﷺ ورضي المسلمون بما رضي به رسول الله ﷺ وردّوا عليهم نساءهم وأبناءهم و لم يختلف منهم أحد غير عيينة بن حصن، وكان من الأعراب الجفاة، فإنه أبى أن يرد عجوزاً صارت في يده منهم، ثم ردها بعد ذلك ووفد عليه ﷺ مالك بن عوف رئيس هوازن فرد عليه أهله وماله وأعطاه مئة من الإبل وأسلم وحسن إسلامه واستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه.

ولما رأت الأنصار ما أعطى رسول الله في قريش والعرب تكلموا في ذل وقالوا: حنَّ الرجل إلى أهله، فقال رسول الله:(يا معشر الأنصار أما ترضون أن يرجع الناس بالشاء والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟) قالوا: رضينا يا رسول الله بك حظاً وقسماً، فقال رسول الله ﷺ:(اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء

([1]) انظر: رسالة (معجزات حسية) من هذه السلسلة.

أبناء الأنصار)

وقد أنزل الله تعالى في هذه الموقعة قوله:﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الارْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذلِكَ جَزَآء الْكَفِرِينَ ﴾ (التوبة: ٢٥، ٢٦)

ولما فرغ رسول الله ﷺ من حُنين بعث أبا عامر الأشعري خلف الفارين من هوازن، وكان المنهزمون قد انقسموا ثلاث فرق: فرقة منهم لحقت بالطائف، وفرقة بنخلة، وفرقة بأوطاس، فانتهى إليهم أبو عامر فإذا هم مجتمعون فناوشوه القتال وقتل منهم أبو عامر تسعة مبارَزة بعد أن يدعو كل واحد منهم إلى الإسلام، وأفلت منه العاشر، ثم استشهد أبو عامر، ثم خلف أبا عامر أبو موسى باستخلاف عمر له فأقره الناس فقاتل القوم حتى هزمهم وظفر المسلمون بالغنائم والسبايا.

غزوة الطائف:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى غزوة الطائف، تلك الغزوة التي قادها ﷺ في شوال سنة ثمان من الهجرة (فبراير سنة ٦٣٠ م)

فإن كان ذلك كذلك، فليعلم أن سببها هو أن مالك بن عوف وجمعاً من أشراف قومه لحقوا بالطائف عند انهزامهم في حنين، وقد كانت ثقيف رَمّوا حصنهم، وأدخلوا فيه ما يصلحهم لسنة، فلما انهزموا من أوطاس دخلوا حصنهم وأغلقوه عليهم، وتهيأوا للقتال، وكان معهم مالك بن عوف النضري.

وسار رسول الله ﷺ، فترل قريباً من حصن الطائف وعسكر هناك، فرموا المسلمين بالنبل رمياً شديداً حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة وقتل منهم اثنا عشر رجلاً.

فارتفع رسول الله ﷺ إلى موضع مسجد الطائف الذي أنشيء بعد ذلك، ودام حصار الطائف ثمانية عشر يوماً، ونصب عليهم المنجنيق ونثر الحسَك سقبين من عيدان حول الحصن ونادى منادي رسول الله ﷺ: أيما عبد نزل من الحصن وخرج لنا فهو حر، فخرج منهم بضعة عشر رجلاً فأعتقهم رسول الله ﷺ.

ثم أمر رسول الله ﷺ برفع الحصار، وكانت حكمته ﷺ في رفع الحصار واضحة؛ فالمنطقة المحيطة بها لم تعد تابعة لها، بل صارت ضمن سيادة المسلمين، ولم تعد تستمد قوتها إلا من امتناع حصونها، فحصارها ورفعه سواء أمام القائد المحنك، وقد استشار رسول الله ﷺ من حوله في عملية الحصار، فقال نوفل بن معاوية الديلي: ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك، فأمر رسول الله ﷺ ابن الخطاب فأذن في الناس بالرحيل، فضج الناس من ذلك وقالوا: نرحل، ولم يفتح علينا الطائف؟ فقال رسول الله ﷺ:(فاغدوا على القتال)، فغدوا، فأصبت المسلمين جراحات، فقال رسول الله ﷺ:(إنا قافلون غدا إن شاء الله)، فسروا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون ورسول الله ﷺ يضحك، فلما ارتحلوا واستقلوا، قال:(قولوا: آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون)، وقيل: يا رسول الله، ادع الله على ثقيف، فقال:(اللهم اهد ثقيفًا وائت بهم)

وقد استعمل النبي ﷺ في حصاره للطائف أسلحة جديدة لم يسبق له أن استعملها من قبل.

منها المنجنيق، وهو من أسلحة الحصار الثقيلة ذات التأثير الفعال على من وجهت إليه، فبحجارته تهدم

الحصون والأبراج، وبقنابله تحرق الدور والمعسكرات، وهذا النوع يحتاج إلى عدد من الجنود في إدارته واستخدامه عند القتال.

ومنها الدبابة، وهي من أسلحة الحصار الثقيلة التي استعملها الرسول ﷺ لأول مرة في حصار الطائف، وهي على شكل بيت صغير تعمل من الخشب وتتخذ للوقاية من سهام الأعداء، عندما يراد نقض جدار الحصن، بحيث إذا دخلها الجنود كان سقفها حرزًا لهم من الرمي.

ومنها الحسك الشائك، وهو من وسائل الدفاع الثابتة، ويعمل من خشبتين تسمران على هيئة الصليب، حتى تتألف منهما أربع شعب مدببة، وإذا رمى في الأرض بقيت شعبة منه بارزة تتعثر بها أقدام الخيل والمشاة، فتتعطل حركة السير السريعة المطلوبة في ميدان القتال.

بعث قيس بن سعد إلى صُدَاء:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى بعث رسول الله ﷺ قيس بن عبادة الخزرجي إلى صداء[1] ناحية اليمن بعد انصرافه من الجعرانة.

فإن كان ذلك كذلك، فليعلم أنها من البعوث التي توجهت للدعوة إلى الله، وتوحيد الجزيرة العربية.

فقد أرسل رسول الله ﷺ قيسا في ٤٠٠ رجل، وأمره أن يدعو قبيلة صُداء إلى الإسلام أو الطاعة، فقدم زياد بن الحارث الصدائي، فسأل عن ذلك البعث فأخبره به فقال: يا رسول الله أنا وافدهم إليك، فاردد الجيش وأنا أتكفل بإسلام قومي وطاعتهم، فقال: اذهب إليهم فردّهم، فقال: إن راحلتي قد كلت فبعث ﷺ إليهم فردهم ورجع الصدائي إلى قومه فقدموا بعد خمسة عشر يوماً فأسلموا.

وقيل: كتب إليهم فجاء وفدهم بإسلامهم فقال رسول الله ﷺ:(إنك مطاع في قومك يا أخا صداء)، فقال: بل الله هداهم، قال: ألا تؤمرني عليهم؟ قال: بلى ولا خير في الإمارة لرجل مؤمن، فتركها وأمره رسول الله ﷺ أن يؤذن في صلاة الفجر، فأذن فأراد بلال أن يقيم، فقال رسول الله: إن أخاً صداء ومن أذن فهو يقيم.

سرية عيينة بن حصن الفزاري:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى سرية عيينة بن حصن الفزاري إلى تميم في المحرم سنة تسع من الهجرة (أبريل سنة ٦٣٠ م)

فإن كان كذلك، فليعلم أن سببها أن رسول الله ﷺ بعث بشر بن سفيان العدوي الكلبي إلى بني كعب من خزاعة لأخذ صدقاتهم، وكانوا مع بني تميم على ماء، فأخذ بشر صدقات بني كعب، فقال لهم بنو تميم وقد استكثروا ذلك: لم تعطونهم أموالكم؟ فاجتمعوا وانتهزوا السلاح ومنعوا بشراً من أخذ الصدقة، فقال لهم بنو كعب: نحن أسلمنا ولا بد في ديننا من دفع الزكاة، فقال بنو تميم: والله لا ندع بعيراً واحداً يخرج.

فلما رأى بشر ذلك قدم المدينة وأخبر النبي ﷺ بذلك، فبعث رسول الله عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم في خمسين فارساً من العرب ليس فيهم مُهاجري ولا أنصاري، فكان يسير الليل ويكمن النهار، فهجم

---

[1] صداء مخلاف باليمن بينه وبين صنعاء اثنان وأربعون فرسخاً سُمي باسم القبيلة.

عليهم في صحراء، فدخلوا وسرحوا مواشيهم، فلما رأوا الجمع ولّوا وأخذ منهم أحد عشر رجلاً ووجدوا في المحلة إحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً فجلبهم إلى المدينة، فأمر بهم رسول الله ﷺ فوضعوا في دار رملة بنت الحارث، فقدم فيهم عدة من رؤسائهم[1]، فلما رأوهم بكى إليهم النساء والذراري، فعجلوا فجاءوا إلى باب النبي ﷺ وكلموه في شأن السبي فرد عليهم رسول الله ﷺ سبيهم.. وقد أسلموا وبقوا في المدينة مدة يتعلمون الإسلام.

سرية قطبة بن عامر:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى سرية قطبة بن عامر التي أرسلها رسول الله ﷺ إلى خثعم في صفر سنة تسع من الهجرة.

فإن كان ذلك كذلك، فليعلم أنها من السرايا التأديبية التي أرسلها ﷺ ليوطد الأمن والوحدة في الجزيرة العربية.

وقد خرج قطبة في عشرين رجلاً على عشرة أبعرة يعتقبونها، فشن الغارة، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثر الجرحى في الفريقين جميعاً، وقتل قطبة مع من قتل

سرية علقمة بن مجزز المدلجي:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى سرية علقمة بن مجزِّز المدلجي إلى الحبشة في شهر ربيع الأول سنة تسع من الهجرة (يوليه سنة ٦٣٠ م)

فإن كان ذلك كذلك، فليعلم أن سببها هو أن رسول الله ﷺ بلغه أن أناساً من الحبشة ثار بهم أهل جدة، فبعث إليهم علقمة بن مجزز في ثلاثمائة، فانتهى إلى جزيرة في البحر، وقد خاض إليهم البحر فهربوا منه.

فلما رجع تعجل بعض القوم إلى أهلهم قبل بقية الجيش، فأذن لهم فتعجل عبد الله بن حذافة السهمي فيهم فأمّره على من تعجل[2].

سرية عليّ بن أبي طالب:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى السرية التي أرسل فيها ﷺ عليّ بن أبي طالب إلى الفُلُس[3] ليهدمه، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة تسع من الهجرة.

فإن كان ذلك كذلك، فليعلم أن سببها هو ما قصده ﷺ من تطهير جميع بلاد العرب من جميع مظاهر الشرك.

([1]) اختلف في عدد الوفد فقيل: كانوا سبعين، وقيل: كانوا ثمانين.

([2]) وكانت فيه دعابة، فنزلوا ببعض الطريق وأوقدوا ناراً يصطلون عليها ويصطنعون، فقال لهم: أليس طاعتي واجبة؟ قالوا: بلى، قال: فاقتحموا هذه النار، فقام بعض القوم فاحتجزوا حتى ظن أنهم واثبون فيها، فقال: اجلسوا إنما كنت أضحك، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال:(من أمركم بمعصية فلا تطيعوه)

([3])صنم كان بنجد تعبده طيِّيء.

وقد أرسله ﷺ في ١٥٠ رجلاً من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرساً، ومعه راية سوداء ولواء أبيض، فشنوا الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر، فهدموا الفلس، وخرّبوه، وقدموا بسبي للمدينة، وكان فيه سَفانة بنت حاتم الطائي وأخت عدي بن حاتم، وهرب عدي إلى الشام.

ولما جـاءوا إلى المدينة استعطفت أخـت عـدي بـن حاتم رسول اللّه ﷺ، قائلـة: يا رسول اللّه، غاب الوافد، وانقطع الوالد، وأنا عجوز كبيرة، ما بي من خدمة، فمُنَّ علي، منّ اللّه عليك. قال: (من وافدك؟) قالت: عدي بن حاتم،. قال: (الذي فر من اللّه ورسوله؟) ثم مضي، فلما كان الغد قالت مثل ذلك، وقال لها مثل ما قال أمس. فلما كان بعد الغد قالت مثل ذلك، فمن عليها، وكان إلى جنبه رجل ــ تري أنه على ــ فقال لها: سليه الحِمْلان فسألته فأمر لها به.

ورجعت أخت عدي بن حاتم إلى أخيها عدي بالشام، فلما لقيته قالت عن رسول الله ﷺ : لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها، ائته راغباً أو راهباً، فجاءه عدي بغير أمان ولا كتاب. فأتي به إلى داره، فلما جلس بين يديه حمد اللّه وأثني عليه، ثم قال: ما يُفِرُّكَ؟ أَيُفِرُّك أن تقول: (لا إله إلا اللّه؟ فهل تعلم من إله سوى اللّه؟) قال: لا. ثم تكلم ساعة ثم قال: (إنما تفر أن يقال: اللّه أكبر، فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟) قال: لا. قال: (فإن اليهود مغضوب عليهم، وإن النصاري ضالون). قال: فإني حَنِيف مسلم، فانبسط وجهه فرحاً، وأمر به فترل عند رجل من الأنصار، وجعل يأتي النبي ﷺ طرفي النهار.

وفي رواية عن عدي: أن النبي ﷺ لما أجلسه بين يديه في داره قال له: (إيه يا عدي بن حاتم، ألم تكن رَكُوسِيّا؟) قال: قلت: بلي، قال: (أو لم تكن تسير في قومك بالمِرْبَاع؟).قال: قلت: بلي. قال: (فإن ذلك لم يحل لك في دينك). قال: قلت أجل واللّه. قال: وعرفت أنه نبي مرسل، يعرف ما يُجْهَل.

وفي رواية : أن النبي ﷺ قال: (يا عدي، أسلم تسلم). فقلت: إني من أهل دين. قال: (أنا أعلم بدينك منك). فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: (نعم، ألست من الركوسية، وأنت تأكل مرباع قومك؟) فقلت: بلي، قال: (فإن هذا لا يحل لك في دينك). قال: فلم يعد أن قالها فتواضعت لها.

وروي عنه أنه قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: (يا عدي، هل رأيت الحيرة؟ فإن طالت بك حياة فلترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتي تطوف بالكعبة، لا تخاف أحداً إلا اللّه، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسري، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة، ويطلب من يقبله فلا يجد أحداً يقبله منه) الحديث.. قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتي تطوف بالكعبة لا تخاف إلا اللّه. وكنت فيمن افتتح كنوز كسري بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ : (يخرج ملء كفه).

غزوة تبوك:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى غزوة تبوك[1].. أو غزوة العُسرة[2].. أو الغزوة الفاضحة[3].. والتي كانت في رجب سنة تسع من الهجرة (سبتمبر – أكتوبر سنة ٦٣٠ م)

فإن كان ذلك كذلك، فليعلم أن سببها هو أن الأنباء وصلت للنبي ﷺ من الأنباط الذين يأتون بالزيت من الشام إلى المدينة بأن الروم جمعت جموعا كثيرة، وأجلبت معهم لخم وجذام وغيرهم من مستنصرة العرب، وجاءت في مقدمتهم إلى البلقاء، فأراد النبي ﷺ أن يسبقهم قبل أن يغزوه[4].

وليس في هذا السبب أي غرابة، فانضواء جزيرة العرب تحت لواء الإسلام، وبروز الرسول ﷺ كموحد للعرب وظهوره كحاكم ديني وسياسي وعسكري، وانتشار الإسلام كعقيدة سماوية انتشاراً واسعاً.. كل ذلك أخذ يقلق الإمبراطورية البيزنطية، فتحركت كوامن الغيرة الدينية والحسد لتلك الانتصارات الباهرة.. لذلك رأت بيزنطة أن تهب مسارعة إلى القضاء على هذا الخطر الجديد قبل استفحاله، وأخذ قيصر الروم يعد العدة للقيام بحملة عسكرية على الجزيرة العربية عن طريق سورية بهدف القضاء على المسلمين.

وقد وصلت الرسول ﷺ أخبار عن تلك الحملة، وأن عدداً من القبائل المسيحية انضمت إلى الروم لقتال المسلمين، ولذا سارع إلى إعداد جيش لملاقاة العدو عند الحدود الفاصلة بين الجزيرة العربية وسورية، تم تجهيزه على جناح السرعة وقوامه ٣٠ ألف مقاتل بينهم عشرة آلاف فارس، كما انضم إليه الكثير من القبائل العربية

---

(1) تَبُوك موضع شمال الحجاز، يبعد عن المدينة ٧٧٨ ميلاً حسب الطريق المعبدة في الوقت الحاضر، وكانت من ديار قضاعة الخاضعة لسلطان الروم آنذاك.

وأصل هذه التسمية جاء في صحيح مسلم، فقد روى أن رسول الله ﷺ قال:(ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئا حتى آتي)

(2) وقد ورد هذا الإسم في القرآن الكريم حينما تحدث عن هذه الغزوة في سورة التوبة، قال تعالى:﴿ لَقَد تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١١٧)، وقد روى البخاري عن أبي موسى الأشعري، قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله الحملان لهم إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك..

وقد سميت بهذا الاسم لشدة ما لاقى المسلمون فيها من الضنك، فقد كان الجو شديد الحرارة، والمسافة بعيدة، والسفر شاقًا لقلة المؤونة وقلة الدواب التي تحمل المجاهدين إلى أرض المعركة، وقلة الماء في هذا السفر الطويل والحر الشديد، ففي تفسير عبد الرزاق عن معمر بن عقيل قال: خرجوا في قلة من الظهر، وفي حر شديد حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون ما في كرشه من الماء، فكان ذلك عسرة من الماء.

وقال عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ يصف ما بلغ بهم العطش في هذه الغزوة: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان أحدنا يذهب يلتمس الخلاء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته تنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرشه فيشربه ويضعه على بطنه.

(3) ذكره الزرقاني في (شرح المواهب اللدنية)، وسميت بهذا الاسم لأن هذه الغزوة كشفت عن حقيقة المنافقين، وهتكت أستارهم، وفضحت أساليبهم العدائية الماكرة، وأحقادهم الدفينة، ونفوسهم الخبيثة، وجرائمهم البشعة بحق رسول الله ﷺ والمسلمين.

(4) وقد كان المسلمون على حذر من مجيء غسان إليهم من الشام، ومما يدل على ذلك ما روي من أن النبي ﷺ كان قد آلى من نسائه شهرا فهجرهن، ففي البخاري: وكنا تحدثنا أن آل غسان تنعل النعال لغزونا فنزل صاحبي يوم نوبته، فرجع عشاء فضرب بابي ضربًا شديدًا، وقال: أثمَّ هو؟ ففزعت، فخرجت إليه، وقال: حدث عظيم، فقلت: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم منه وأطول، طلق رسول الله ﷺ نساءه.

أثناء مسيرته، مما دفع الروم إلى العدول عن حرب المسلمين، كما فر رؤساء القبائل المسيحية حين يئسوا من وصول الحملة البيزنطية، وبعدها صالحوا الرسول، وأبدوا استعدادهم لدفع الجزية وعقد معاهدة معه، إذ أدركوا أن قوة الإسلام جعلت دولة الروم العظمى تخشى مواجهتها.

سرية خالد بن الوليد:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى السرية التي بعث فيها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب بنجران في شهر ربيع الأول سنة عشر (يونية سنة ٦٣١ م)

فإن كان كذلك، فليعلم أنها من السرايا التي أرسلها ﷺ لنشر الدعوة، وإخضاع جميع الجزيرة العربية لقوانين العدالة التي جاء بها الإسلام.

وقد أرسل رسول الله ﷺ في هذه المهمة خالدا بعد أن امتنعت هذه القبيلة دون سائر القبائل من الانضمام تحت الواء المسلمين، وقد أمره ﷺ أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً، فإن استجابوا لك فاقبل منهم وأقم فيهم وعلمهم كتاب الله وسنّة نبيّه ومعالم الإسلام، فإن لم يفعلوا فقاتلهم..

انتفض دوج، وصاح: ها هو محمد إذن ينشر الإسلام بالقوة.

قال الحكيم: ما كان لمحمد ﷺ أن ينشره بالقوة، فيخالف قوله تعالى:﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٥٦)

ويخالف بعدها كل القرآن الكريم الذي يعتبر الإيمان هبة من الله، ولا يمكن لأحد أن يستكره عليه.

قال دوج: فما معنى ما ذكرت؟

قال الحكيم: أنت تعلم أن الإسلام ينطوي على جانبين: قضايا عقدية، لا ينفع في الإيمان بها إلا اليقين الجازم من غير إكراه، ويتبع هذا النوع من القضايا كل التعبدات المرتبطة بها والمسلمة لها.

أما النوع الثاني، فهو القوانين المنظمة للحياة، ويدخل فيها جميع ما يشرع من قوانين ترتبط بالمجتمع والدولة.. وهذا ما أراد به ﷺ من إرسال الرسل.. فهي رسل تدعو إلى الخضوع إلى قوانين الإسلام، ونبذ تلك القوانين التي كانت تحكم تلك القبائل، والتي كانت تملأ حياتها بالخوف والاضطراب.

قال رجل من الجماعة: فما فعل خالد.. وهل نجح في مهمته؟

قال الحكيم: لقد خرج خالد حتى قدم عليهم، فبعث الركبان يدعون الناس إلى الإسلام، ويقولون: يا أيها الناس، أسلموا تسلموا، فأسلم الناس ودخلوا فيما دعاهم إليه، فأقام خالد فيهم يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنّة نبيّه، ثم كتب خالد إلى رسول الله ﷺ:(بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد النبي رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد، السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد يا رسول الله صلى الله عليك فإنك بعثتني إلى بني الحارث بن كعب، وأمرتني إذا أتيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة، وأن أدعوهم إلى الإسلام، إن أسلموا قبلت منهم وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنّة نبيّه وإن لم يسلموا قاتلتهم، وإني قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله ﷺ وبعثت فيهم ركباناً: يا بني

الحارث أسلموا تسلموا فأسلموا و لم يقاتلوا، وأنا مقيم بين أظهرهم وآمرهم بما أمرهم الله به وأنهاهم عما نهاهم الله عنه وأعلمهم معالم الإسلام وسنّة النبي ﷺ حتى يكتب إليّ رسول الله ﷺ والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته)

فكتب إليه رسول الله ﷺ:(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي رسول الله إلى خالد بن الوليد، سلام عليك، فإنّي أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو: أما بعد فإن كتابك جاءني مع رسلك بنجران أن بني الحارث قد أسلموا قبل أن يقاتلوا وأجابوا ما دعوتهم إليه من الإسلام وشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن قد هداهم الله بهداه فبشرهم وأنذرهم وأقبل وليقبل معك وفدهم، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته)

فأقبل خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ، وأقبل وفد بني الحارث بن كعب معه.

بعث عليّ بن أبي طالب:

أشار الحكيم إلى سيف آخر، وقال: لعل صاحبنا الفنان يشير بهذا السيف إلى البعث الذي بعث فيه رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب إلى إلى اليمن في شهر رمضان سنة عشر (ديسمبر سنة ٦٣١ م)

فإن كان كذلك، فليعلم أنها من السرايا التي أرسلها ﷺ لنشر الدعوة، وإخضاع إلى اليمن لقوانين الدولة الإسلامية الجديدة، وقد خرج عليّ ــ رضي الله عنه ــ في ٣٠٠ فارس، فلما انتهى إلى تلك الناحية لقي جمعهم، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورموا المسلمين بالنبل والحجارة، وخرج منهم رجل من مَذْحِج يدعو إلى المبارزة، فبرز إليه الأسود بن خزاعي، فقتله الأسود، ثم صفَّ عليّ ــ رضي الله عنه ــ أصحابه ودفع لواءه إلى مسعود بن سنان، فقتل منهم نحو عشرين رجلاً، فتفرقوا وانهزموا، فكف عن طلبهم قليلاً، ثم دعاهم إلى الإسلام، فأسرعوا وأجابوا وبايعه نفر من رؤسائهم على الإسلام.

وقد كان رسول الله ﷺ بعث قبل ذلك علياً ــ رضي الله عنه ــ إلى اليمن سنة ثمان، وهو أول بعث إلى اليمن بعد فتح مكة، وبعثه إلى همدان، فأسلمت جميعاً فكتب عليٌّ إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم، فلما قرىء الكتاب خرّ ساجداً، ثم رفع رأسه، وقال: السلام على همدان، أما البعث الثاني فكان في رمضان سنة عشر إلى مذ حج.

***

التفت الحكيم إلى دوج، وقال: هذه هي السيوف التي اضطر ﷺ إلى استعمالها لخدمة الأهداف الشريفة التي كلفه الله بالقيام بها.

قال دوج: ألا ترى كثرتها؟

قال الحكيم: لو أنك ذهبت إلى دوائر الشرطة في أي بلدة من بلاد العالم لوجدت كل يوم آلاف السرايا التي ترسل لتأديب المجرمين وبسط الأمن.. أم أنك تعتبر ما تمارسه الشرطه ــ من ذلك ــ إرهابا؟

قال دوج: فقد كان نبيكم شرطيا إذن لا نبيا؟

قال الحكيم: لقد شاء الله أن يجعل من محمد ﷺ نموذجا للإنسان الكامل الذي اجتمعت فيه كل خلال

الرحمة والكرم والطيبة والإنسانية.. لقد كان رحمة مهداة..

قاطعه دوج قائلا: وهل للرحمة سيف؟

قال الحكيم: إذا وقف في وجه الرحمة المجرمون وقطاع الطرق لم يكن هناك بد من استعمال الرحمة للسيوف.. لأنه إن لم يستعمل أهل الرحمة السيف استعمله أهل القسوة، وملأوا به عباد الله هلاكا، وملأوا به بلاد الله دمارا.

قال دوج: لقد زعمت أن منبع إرسال تلك السيوف هو خلال محمد الطيبة.

قال الحكيم: أجل.. فقد كان في إمكانه أن يعيش حياة رخية في بيته، وبين أصحابه، ولكنه لم يفعل.. لقد ظل يجاهد في سبيل نشر قيم الرحمة والعدالة والإيمان إلى أن توفاه الله..

بل إنه ــ وهو في احتضاره ــ كان يجهز جيشا لتحرير المستضعفين في الشام من قهر البيزنطيين[1].

ولولا ما قام به من تلك الجهود.. ولولا ما قام به أصحابه من بعده.. ما انتشرت في الأرض تلك القيم النبيلة التي وقف المستبدون حصونا منيعة دون انتشارها.

و لم يكن هناك بد من تقويض تلك الحصون، ليمنح للمستضعفين الحرية والأمن والسلام[2].

---

(1) وهو ما يسمى ببعث أُسامة بن زيد ــ رضي الله عنه ــ فإنه في آخر حياة رسول الله ﷺ ضرب على الناس بعثاً إلى الشام أمّر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة مولاه، وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والدّاروم من أرض فلسطين، فتجهز الناس وأوْعَبَ مع أُسامة بن زيد المهاجرين الأولين، فبينما الناس على ذلك ابتدأ ﷺ شكواه التي قبضه الله عز وجل فيها.
وقد أجل إرسال هذا البعث إلى ما بعد وفاة رسول الله ﷺ.

(2) انظر الخلاص الذي جاء به الإسلام للعالم في رسالة (ثمار من شجرة النبوة) من هذه السلسلة.

٣ ـــ أخلاق الحرب

أشاح الحكيم بوجهه عن اللوحة، وقال: دعنا من هذه اللوحة الآن.. فحسب أنا شرحناها بما يكفي.. ولنبحث في الركن الثالث من الأركان التي أسسنا عليها حديثنا.. لعلكم تذكرونه.

قال رجل من الجمع: أجل.. لقد ذكرت أنه النظر في الأخلاق التي صاحبت حروب محمد.. والتي صاحبت حروب غيره.

قال الحكيم: أجل.. فالأخلاق عند أصحاب الفطر السليمة هي الأساس الذي يحكم من خلاله على الأشياء..

ويسرني قبل أن أبدا في ذكر الأخلاق التي انصبغت بها حروب محمد ﷺ أن أقرأ بعض النصوص من الكتاب المقدس.. ذلك الكتاب الذي يحاكمنا به هؤلاء القضاة.

لقد جاء فيه:(فَحَرَّمْنَاهَا كَمَا فَعَلنَا بسيحُونَ مَلِكِ حَشبُونَ مُحَرِّمِينَ كُل مَدِينَةٍ: الرِّجَال وَالنِّسَاءَ وَالأَطْفَال. لكِنَّ كُل البَهَائِمِ وَغَنِيمَةِ المُدُنِ نَهَبْنَاهَا لأَنْفُسِنَا) (تثنية ٣: ٦ – ٧)

وفيه:(فَضَرْباً تَضْرِبُ سُكَّانَ تِلكَ المَدِينَةِ بحَدِّ السَّيْفِ وَتُحَرِّمُهَا بكُلِّ مَا فِيهَا مَعَ بَهَائِمِهَا بحَدِّ السَّيْفِ تَجْمَعُ كُل أَمْتِعَتِهَا إِلى وَسَطِ سَاحَتِهَا وَتُحْرِقُ بِالنَّارِ المَدِينَةَ وَكُل أَمْتِعَتِهَا كَامِلةً لِلرَّبِّ إِلهِكَ فَتَكُونُ تَلاًّ إِلى الأَبَدِ لا تُبْنَى بَعْدُ) (تثنية ١٣: ١٥ – ١٧)

وفيه:(حِينَ تَقْرُبُ مِنْ مَدِينَةٍ لِتُحَارِبَهَا اسْتَدْعِهَا لِلصُّلحِ فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلى الصُّلحِ وَفَتَحَتْ لكَ فَكُلُّ الشَّعْبِ المَوْجُودِ فِيهَا يَكُونُ لكَ لِلتَّسْخِيرِ وَيُسْتَعْبَدُ لكَ. وَإِنْ لمْ تُسَالِمْكَ بَل عَمِلتْ مَعَكَ حَرْباً فَحَاصِرْهَا. وَإِذَا دَفَعَهَا الرَّبُّ إِلهُكَ إِلى يَدِكَ فَاضْرِبْ جَمِيعَ ذُكُورِهَا بحَدِّ السَّيْفِ. وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالأَطْفَالُ وَالبَهَائِمُ وَكُلُّ مَا فِي المَدِينَةِ كُلُّ غَنِيمَتِهَا فَتَغْتَنِمُهَا لِنَفْسِكَ وَتَأْكُلُ غَنِيمَةَ أَعْدَائِكَ التِي أَعْطَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ. هَكَذَا تَفْعَلُ بجَمِيعِ المُدُنِ البَعِيدَةِ مِنْكَ جِدّاً التِي لَيْسَتْ مِنْ مُدُنِ هَؤُلاءِ الأُمَمِ هُنَا. وَأَمَّا مُدُنُ هَؤُلاءِ الشُّعُوبِ التِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيباً فَلا تَسْتَبْقِ مِنْهَا نَسَمَةً مَا بَل تُحَرِّمُهَا تَحْرِيماً.. (تثنية ٢٠: ١٠ – ١٨)

وفيه:(فَهَتَفَ الشَّعْبُ وَضَرَبُوا بِالأَبْوَاقِ. وَكَانَ حِينَ سَمِعَ الشَّعْبُ صَوْتَ الْبُوقِ أَنَّ الشَّعْبَ هَتَفَ هُتَافاً عَظِيماً، فَسَقَطَ السُّورُ فِي مَكَانِهِ، وَصَعِدَ الشَّعْبُ إِلَى الْمَدِينَةِ كُلُّ رَجُلٍ مَعَ وَجْهِهِ، وَأَخَذُوا الْمَدِينَةَ. وَحَرَّمُوا كُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ، مِنْ طِفْلٍ وَشَيْخٍ – حَتَّى الْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالْحَمِيرَ بِحَدِّ السَّيْفِ.. وَأَحْرَقُوا الْمَدِينَةَ بِالنَّارِ مَعَ كُلِّ مَا بِهَا. إِنَّمَا الْفِضَّةُ وَالذَّهَبُ وَآنِيَةُ النُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ جَعَلُوهَا فِي خِزَانَةِ بَيْتِ الرَّبِّ) (يشوع ٦: ٢٠– ٢٤)

وفيه:(فَقَامَ الْكَمِينُ بِسُرْعَةٍ مِنْ مَكَانِهِ وَرَكَضُوا عِنْدَمَا مَدَّ يَدَهُ، وَدَخَلُوا الْمَدِينَةَ وَأَخَذُوهَا، وَأَسْرَعُوا وَأَحْرَقُوا الْمَدِينَةَ بِالنَّارِ.. وَكَانَ لَمَّا انْتَهَى إِسْرَائِيلُ مِنْ قَتْلِ جَمِيعِ سُكَّانِ عَايٍ فِي الْحَقْلِ فِي الْبَرِّيَّةِ حَيْثُ لَحِقُوهُمْ، وَسَقَطُوا جَمِيعاً بِحَدِّ السَّيْفِ حَتَّى فَنُوا أَنَّ جَمِيعَ إِسْرَائِيلَ رَجَعَ إِلَى عَايٍ وَضَرَبُوهَا بِحَدِّ السَّيْفِ. فَكَانَ جَمِيعُ الَّذِينَ سَقَطُوا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفاً، جَمِيعُ أَهْلِ عَايٍ. وَيَشُوعُ لَمْ يَرُدَّ يَدَهُ الَّتِي مَدَّهَا بِالْحَرْبَةِ حَتَّى حَرَّمَ جَمِيعَ سُكَّانِ عَايٍ. لَكِنِ الْبَهَائِمُ وَغَنِيمَةُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ نَهَبَهَا إِسْرَائِيلُ لأَنْفُسِهِمْ

حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ الَّذِي أَمَرَ بِهِ يَشُوعَ. وَأَحْرَقَ يَشُوعُ عَايَ وَجَعَلَهَا تَلاًّ أَبَدِيّاً خَرَاباً إِلَى هَذَا الْيَوْمِ. وَمَلِكُ عَايٍ عَلَّقَهُ عَلَى الْخَشَبَةِ إِلَى وَقْتِ الْمَسَاءِ. وَعِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ أَمَرَ يَشُوعُ فَأَنْزَلُوا جُثَّتَهُ عَنِ الْخَشَبَةِ وَطَرَحُوهَا عِنْدَ مَدْخَلِ بَابِ الْمَدِينَةِ، وَأَقَامُوا عَلَيْهَا رُجْمَةَ حِجَارَةٍ عَظِيمَةً إِلَى هَذَا الْيَوْمِ. حِينَئِذٍ بَنَى يَشُوعُ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ إِلَهِ إِسْرَائِيلَ فِي جَبَلِ عِيبَالَ) (يشوع ٨: ١٨ — ٣٠)

وكذلك فعل يشوع بالشعوب الآتية: مَقِّيدَةَ وأَرِيحَا ولِبْنَةَ ولَخِيشَ ولَخِيشَ وحَبْرُونَ ودَبِيرَ وضربهم بحد السيف، وكل نفس بها و لم يبق بها شارداً، بل حرَّم كل نسمة بها كما أمر الرب، ففيه:(فَضَرَبَ يَشُوعُ كُلَّ أَرْضِ الْجَبَلِ وَالْجَنُوبِ وَالسَّهْلِ وَالسُّفُوحِ وَكُلَّ مُلُوكِهَا. لَمْ يُبْقِ شَارِداً، بَلْ حَرَّمَ كُلَّ نَسَمَةٍ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ) (يشوع ١٠: ٢٨-٤٠)

(ثُمَّ رَجَعَ يَشُوعُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَأَخَذَ حَاصُورَ وَضَرَبَ مَلِكَهَا بِالسَّيْفِ.. وَضَرَبُوا كُلَّ نَفْسٍ بِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ. حَرَّمُوهُمْ. وَلَمْ تَبْقَ نَسَمَةٌ. وَأَحْرَقَ حَاصُورَ بِالنَّارِ. أَخَذَ يَشُوعُ كُلَّ مُدُنِ أُولَئِكَ الْمُلُوكِ وَجَمِيعَ مُلُوكِهَا وَضَرَبَهُمْ بِحَدِّ السَّيْفِ. حَرَّمَهُمْ كَمَا أَمَرَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ) (يشوع ١١: ١٠-١٢)

وفيه:(فَالآنَ اذْهَبْ وَاضْرِبْ عَمَالِيقَ وَحَرِّمُوا كُلَّ مَا لَهُ وَلاَ تَعْفُ عَنْهُمْ بَلِ اقْتُلْ رَجُلاً وَامْرَأَةً، طِفْلاً وَرَضِيعاً، بَقَراً وَغَنَماً، جَمَلاً وَحِمَاراً.. وَأَمْسَكَ أَجَاجَ مَلِكَ عَمَالِيقَ حَيّاً، وَحَرَّمَ جَمِيعَ الشَّعْبِ بِحَدِّ السَّيْفِ. وَعَفَا شَاوُلُ وَالشَّعْبُ عَنْ أَجَاجَ وَعَنْ خِيَارِ الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ وَالْحُمْلاَنِ وَالْخِرَافِ وَعَنْ كُلِّ الْجَيِّدِ، وَلَمْ يَرْضُوا أَنْ يُحَرِّمُوهَا. وَكُلُّ الأَمْلاَكِ الْمُحْتَقَرَةِ وَالْمَهْزُولَةِ حَرَّمُوهَا. وَكَانَ كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَى صَمُوئِيلَ:(نَدِمْتُ عَلَى أَنِّي قَدْ جَعَلْتُ شَاوُلَ مَلِكاً، لأَنَّهُ رَجَعَ مِنْ وَرَائِي وَلَمْ يُقِمْ كَلاَمِي) (صموئيل الأول ١٥: ٣ - ١١)

وهكذا ينص الكتاب المقدس على أن الرب ندم عندما فوجىء بما حدث من شاول، وأنه عفا عن أجاج وعن الجيد من الغنم والبقر والحملان والخراف[1].

سكت قليلا، ثم قال: لعلك تقول بأن هذه النصوص من العهد القديم.. ومسيحية العهد الجديد تختلف كثيرا.. بل تختلف اختلافا جذريا.

إن قلت ذلك.. فإن جميع المسيحيين يقولون بأن الكتاب المقدس لم ينسخ ولا يمكن أن ينسخ ... ويستشهدون بقول المسيح: (السموات والأرض تزولان وكلمتي لا تزول)

ومع ذلك، فلا نفتقر في العهد الجديد لمثل هذه النصوص، ففي رسالة بولس إلى العبرانيين يقول:(بِالإِيمَانِ سَقَطَتْ أَسْوَارُ أَرِيحَا بَعْدَمَا طِيفَ حَوْلَهَا سَبْعَةَ أَيَّامٍ. بِالإِيمَانِ رَاحَابُ الزَّانِيَةُ لَمْ تَهْلِكْ مَعَ الْعُصَاةِ، إِذْ قَبِلَتِ الْجَاسُوسَيْنِ بِسَلاَمٍ. وَمَاذَا أَقُولُ أَيْضاً؟ لأَنَّهُ يُعْوِزُنِي الْوَقْتُ إِنْ أَخْبَرْتُ عَنْ جِدْعُونَ، وَبَارَاقَ، وَشَمْشُونَ، وَيَفْتَاحَ، وَدَاوُدَ، وَصَمُوئِيلَ، وَالأَنْبِيَاءِ، الَّذِينَ بِالإِيمَانِ قَهَرُوا مَمَالِكَ، صَنَعُوا بِرّاً، نَالُوا مَوَاعِيدَ، سَدُّوا أَفْوَاهَ أُسُودٍ، أَطْفَأُوا قُوَّةَ النَّارِ، نَجَوْا مِنْ حَدِّ السَّيْفِ، تَقَوَّوْا مِنْ ضُعْفٍ، صَارُوا أَشِدَّاءَ فِي الْحَرْبِ، هَزَمُوا جُيُوشَ غُرَبَاءَ، أَخَذَتْ نِسَاءٌ أَمْوَاتَهُنَّ بِقِيَامَةٍ. وَآخَرُونَ عُذِّبُوا وَلَمْ يَقْبَلُوا النَّجَاةَ لِكَيْ يَنَالُوا قِيَامَةً أَفْضَلَ. وَآخَرُونَ تَجَرَّبُوا فِي

([1]) وليست هذه أول مرة يندم فيها ربهم، فقد ندم مرات كثيرة، انظر (الكلمات المقدسة)، و(الله جل جلاله) من هذه السلسلة.

هُزُء وَجَلْدٍ، ثُمَّ فِي قُيُودٍ أَيْضاً وَحَبْسٍ. رُجِمُوا، نُشِرُوا، جُرِّبُوا، مَاتُوا قَتْلاً بِالسَّيْفِ، طَافُوا فِي جُلُودِ غَنَمٍ وَجُلُودِ مِعْزًى، مُعْتَازِينَ مَكْرُوبِينَ مُذَلِّينَ) (عبرانيين ١١: ٣٠ – ٣٦)

التفت الحكيم إلى الجمع، وقال: ألا ترون بولس يقر كل ما ورد في العهد القديم.. ألا ترونه يثني على كل ما فعله أولئك المجرمون من سفك دماء وجرائم حرب.. بل يعتبر كل ذلك تقوى وإيمان وخير....!؟

ليس ذلك فقط.. ففي العهد الجديد:(لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لِأُلْقِيَ سَلاَماً عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لِأُلْقِيَ سَلاَماً بَلْ سَيْفاً. فَإِنِّي جِئْتُ لِأُفَرِّقَ الإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ وَالاِبْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا) (متى ١٠: ٣٤-٤٠)

وفيه:(جِئْتُ لأُلْقِيَ نَاراً عَلَى الأَرْضِ ... أَتَظُنُّونَ أَنِّي جِئْتُ لأُعْطِيَ سَلاَماً عَلَى الأَرْضِ؟ كَلاَّ أَقُولُ لَكُمْ! بَلِ انْقِسَاماً. لأَنَّهُ يَكُونُ مِنَ الآنَ خَمْسَةٌ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ مُنْقَسِمِينَ: ثَلاَثَةٌ عَلَى اثْنَيْنِ وَاثْنَانِ عَلَى ثَلاَثَةٍ. يَنْقَسِمُ الأَبُ عَلَى الاِبْنِ وَالاِبْنُ عَلَى الأَبِ وَالأُمُّ عَلَى الْبِنْتِ وَالْبِنْتُ عَلَى الأُمِّ وَالْحَمَاةُ عَلَى كَنَّتِهَا وَالْكَنَّةُ عَلَى حَمَاتِهَا) (لوقا ١٢: ٤٩-٥٣)

وفيه:(أَمَّا أَعْدَائِي أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِيدُوا أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْهِمْ فَأْتُوا بِهِمْ إِلَى هُنَا وَاذْبَحُوهُمْ قُدَّامِي) (لوقا ١٩: ٢٧)

وفيه:(فَقَالَ لَهُمْ: (لَكِنِ الآنَ مَنْ لَهُ كِيسٌ فَلْيَأْخُذْهُ وَمِزْوَدٌ كَذَلِكَ. وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فَلْيَبِعْ ثَوْبَهُ وَيَشْتَرِ سَيْفاً. لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَتِمَّ فِيَّ أَيْضاً هَذَا الْمَكْتُوبُ: وَأُحْصِيَ مَعَ أَثَمَةٍ. لأَنَّ مَا هُوَ مِنْ جِهَتِي لَهُ انْقِضَاءٌ»، فَقَالُوا: يَا رَبُّ هُوَذَا هُنَا سَيْفَانِ، فَقَالَ لَهُمْ: يَكْفِي!) (لوقا ٢٢: ٣٦-٣٧)

وفيه:(لاَ تَكُونُوا تَحْتَ نِيرٍ مَعَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، لأَنَّهُ أَيَّةُ خِلْطَةٍ لِلْبِرِّ وَالإِثْمِ؟ وَأَيَّةُ شَرِكَةٍ لِلنُّورِ مَعَ الظُّلْمَةِ؟ وَأَيُّ اتِّفَاقٍ لِلْمَسِيحِ مَعَ بَلِيعَالَ؟ وَأَيُّ نَصِيبٍ لِلْمُؤْمِنِ مَعَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِ؟ وَأَيَّةُ مُوَافَقَةٍ لِهَيْكَلِ اللهِ مَعَ الأَوْثَانِ؟) (كورنثوس الثانية ٦: ١٤-١٦)

هذا عن المسيحية.. أما عن الجرائم التي حدثت طيلة عهود التاريخ البشري، فلا يمكن حصرها..

فى مصر قتل جستنيان الأول عام ٥٦٠م مائتي ألف فى الإسكندرية وحدها من أجل رفضهم اعتناق المسيحية.

وفى النرويج ذبح الملك (أولاف) كل من رفض اعتناق المسيحية.

وفى روسيا فرض فلاديمير عام ٩٨٨م المسيحية على كل الروس بالقوة.

وفى الجبل الاسود قاد الأسقف الحاكم دانيال بيتروفيتش عملية ذبح غير المسيحيين ليلة عيد الميلاد عام ١٧٠٣م.

ليس هذا سلوك برابرة تلك العصور فقط.. بل ما زال هذا هو سلوك أهل الحضارة إلى اليوم..

لقد شهد هذا القرن من الحروب التي قامت بها الدول المسيحية، ما شهدت تلك العصور الوسطى، بل وأشد وأقسى.

لقد كتب الأديبان الفرنسيان (كوليت) و(فرانسيس جانسون) يقولان:(لعل العبث بالدين الإسلامى

كان المجال المفضل لدى القائد (روفيجو) فقد وقف هذا القائد الفاجر ونادى فى قومه: إنه يلزمه أجمل مسجد فى المدينة ليجعل منه معبداً لإله المسيحيين، وطلب إلى أعوانه اعداد ذلك فى أقصر وقت ممكن)

ووقع الاختيار على جامع كتشاوة، وهو أجمل مساجد الجزائر ويقع فى وسط المدينة وفى قلب الحى الأوروبى. وتحدد ظهر يوم ١٨ من ديسمبر ١٨٣٢ لإنجاز هذا العمل وتحقيق رغبة القائد المسيحى.

ففى الميعاد المحدد تقدمت احدى فرق الجيش، وأخذت أهبتها للعمل فى ميدان السودان، وخرجت من بينها فرقة فهاجمت أبواب المسجد بالبلط والفئوس، وإذا داخل المسجد أربعة آلاف مسلم، قتلوا جميعاً، وفى الصباح كانت القرارات قد صدرت وصار المسجد الجامع (كاتدرائية الجزائر)

وما إن انتهى الجنود من هذا العمل حتى استداروا صوب (مسجد القصبة)، فدخله القواد والضباط والجنود، وأقاموا فيه شعائرهم الدينية، حتى إذا انتهى القداس، شرع القساوسة فى تمجيد إله الجيوش وترتيل نشيد الغفران.

وقد انضم القس سوشيه الوكيل العام لأسقف الجزائر إلى هؤلاء الجنود الجهلة وضباطهم العابثين دون أن يستنكر هذه الفعلة النكراء، بل مدح هذه الجرائم، فقد كتب سنة ١٨٣٩ كتاباً أسماه (رسائل مفيدة ومشوقة عن الجزائر) وجه فيه الكلام إلى عاهل فرنسا، يمتدح فيه القاتل مسيو فاليه ويصفه بالرجل ذى الضمير الحى.

كما كتب الأديبان الفرنسيان (كوليت) و(فرانسيس جانسون) أيضاً وهم لا يرويان عن شاهد، وإنما من واقع تقارير لجان رسمية أو من رسائل مكتوبة بخط قادة أو ضباط يتركون أنفسهم على سجيتها وهم يتحدثون إلى زوجاتهم، أو ذوى قرباهم:

(بناء على تعاليم الجنرال (روفيجو) خرجت قوة من الجنود فى مدينة الجزائر ليلة السادس من أبريل سنة ١٨٣٢، وانقضت قبيل الفجر على أفراد القبيلة وهم نيام تحت خيامهم، فبغتتهم جميعاً دون أن يستطيع أحد منهم الدفاع عن نفسه، وقد لقى الجميع حتفهم بلا تمييز بين رجل وطفل ولا بين رجل وامرأة، وعاد الفرنسيون من هذه الحملة وهم يرفعون رؤوس القتلى على أسنة رماحهم)

ويقول الجنرال شان جانييه: إن رجاله وجدوا التسلية فى جزر رقاب المواطنين من رجال القبائل الثائرة فى بلدتى (الحواش) و(بورقيقة)

كما جاء فى تقرير رسمى: (إن كل الماشية قد بيعت إلى قنصل الدنمارك، وعرض باقى الغنيمة فى سوق باب عزون، حيث كانت ترى أساور النساء محيطة بمعاصم مقطوعة، وأقراط تتدلى من قطع لحم أدمى، وقد بيعت هذه المصوغات ووزع ثمنها على ذابحى أصحابها، وفى ليل ذلك اليوم أصدر البوليس أوامره إلى أهل المدينة باضاءة الأنوار فى حوانيتهم علامة على الإبتهاج)

وقالت إحدى اللجان الرسمية الفرنسية فى تقرير لها كتبته بعد تحقيق أجرته أثر بعض هذه المذابح: (لقد ذبحنا أناساً كانوا يحملون تراخيصاً بالتنقل، كما قضينا على مناطق بأكملها اتضح فيما بعد أن ضحايانا فيها كانوا أبرياء، وقد حاكمنا رجالاً عرفوا بالقداسة بين عشيرتهم، وآخرين لا تنقصهم صفة الإحترام بين ذويهم

لمجرد أنهم مثلوا أمامنا سائلين الرحمة بزملائهم)[1]

وقد كتب المارشال سانت أرنو إلى أهله يقول:(إن بلاد بنى منصر بديعة، وهى من أجمل ما رأيت فى أفريقية، فقراها متقاربة، وأهلها متحابون، لقد أحرقنا فيها كل شىء، ودمرنا كل شىء)

وقد حدث ذات مرة أن ثار الجزائريون أثناء الحرب العالمية الثانية مطالبين بحريتهم، فما كان من البوليس الفرنسى أن تبادل اطلاق النار مع الثائرين بصورة وحشية فى الثامن من مايو سنة ١٩٤٥، فأعلنت الأحكام العرفية على أثر ذلك، وأقبل الطراد (ديجواى — تراون)، فأمطر مدينة (خزاطة) وابلاً من قنابله الثقيلة، وقامت قوات الجيش بالحملات التأديبية، وشنق الوطنيين من غير محاكمة، وكانت النتيجة أن قتل من الأوربيين ١٠٢ قتيلاً على وجه التحديد، أما عدد القتلى من العرب فقد قيل أولاً بصفة رسمية إنه ١٥٠٠، غير أن الجيش أعلن أنه يتراوح بين ٦٠٠٠ و٨٠٠٠.. ثم جاءت إحصاءات أخرى تقول إن العدد الصحيح ٢٠٠٠٠، وبعد إعادة النظر فى حقائق الأمور تبين أن العدد الصحيح هو ٤٠٠٠٠ قتيل، وقد أيده القنصل الأمريكى ببيانات من عنده)

وعلى إثر هذه الجرائم الكبرى يأتي القساوسة لينصِّروا اليتامى من أبناء وبنات الشهداء ـــ مثلما حدث تماماً لأبناء وبنات مسلمى البوسنة والهرسك ـــ وليقولوا لهم وهم يحشرونهم فى احدى الملاجىء المسيحية: (الله محبة.. وعلى الأرض السلام.. وللناس المسرة)

سكت قليلا، ثم قال: لقد ذكر النقيب الفرنسى (دى ليل) بعض جرائم الحرب التي كان يمارسها رجال الدين المسيحي، فقال:(رأينا غرفاً صغيرة فى حجم جسم الانسان، بعضها عمودى وبعضها أفقى، فيبقى سجين الغرف العمودية واقفاً على رجليه مدة سجنه حتى يموت، ويبقى سجين الغرف الأفقية ممدوداً بها حتى يموت. وتبقى الجثث فى السجن الضيق حتى تبلى. ويتساقط اللحم عن العظم وتأكله الديدان. ولكى تُصرَف الروائح الكريهة المنبعثة من جثث الموتى فتحوا نافذة صغيرة إلى الفضاء الخارجى. وقد عثرنا فى هذه الغرف على هياكل بشرية ما زالت فى أغلالها.

ثم انتقلنا إلى غرف أخرى، فرأينا فيها ما تقشعر لهوله الأبدان، عثرنا على آلات رهيبة للتعذيب، منها آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم البشرى. كانوا يبدؤون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجياً، حتى يهشم الجسم كله، ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوق، والدماء الممزوجة باللحم المفروم)

ويستطرد النقيب (دى ليل) قائلاً: ثم عثرنا على صندوق فى حجم رأس الانسان تماماً، يوضع فيه رأس الذى يريدون تعذيبه بعد أن يربطوا يديه ورجليه بالسلاسل والأغلال حتى لا يستطيع الحركة، وفى أعلى الصندوق ثقب تتقاطر منه نقط الماء البارد على رأس المسكين بانتظام، فى كل دقيقة نقطة، حتى يُجَن المعذَّب او يموت.

وآلة أخرى للتعذيب على شكل تابوت تثبت فيه سكاكين حادة، فكانوا يلقون المُعذَّب فى هذا التابوت،

([1])انظر: الإستعمار أحقاد وأطماع، ص ٢٨.

ثم يغلقون بابه المثبَّت فيه سكاكين وخناجر. فإذا أغلق باب التابوت مزَّق جسد المعذَّب وقطعه إرباً إرباً وهو ما زال على قيد الحياة!!

كما عثرنا على آلات كالكلاليب تغرز فى لسان المعذب، ثم تُشَدّ ليخرج اللسان معها، ليقص قطعة قطعة. وكلاليب تغرس فى أثداء النساء وتسحب بعنف حتى تتقطع الأثداء أو تبتر بالسكاكين!!

سكت قليلا، ثم قال: لقد استولت الحبشة على إريتريا المسلمة بتأييد من فرنسا وانجلترا، فماذا فعلت فيها؟ صادرت معظم أراضيها، وأسلمتها لإقطاعيين من الحبشة، كان الإقطاعى والكاهن مخولين بقتل أى مسلم دون الرجوع إلى السلطة، فكان الإقطاعى أو الكاهن يشنق فلاحيه أو يعذبهم فى الوقت الذى يريد ....

فتحت للفلاحين المسلمين سجوناً جماعية رهيبة، يجلد فيها الفلاحون بسياط أكثر من عشرة كيلو جرامات. وبعد إنزال أفظع أنواع العذاب بهم كانوا يُلقوْن فى زنزانات بعد أن تربط أيديهم بأرجلهم، ويتركون هكذا لعشر سنين أو أكثر، وعندما كانوا يخرجون من السجون كانوا لا يستطيعون الوقوف، لأن ظهورهم قد أخذت شكل القوس.

كل ذلك قبل استلام هيلاسيلاسى السلطة فى الحبشة، فلما أصبح امبراطور الحبشة وضع خطة لإفناء المسلمين خلال خمسة عشر عاما، وتباهى بخطته هذه أمام الكونجرس الأمريكى.

لقد سن تشريعات لإذلال المسلمين منها أن عليهم أن يركعوا لموظفى الدولة وإلا يقتلوا.

وأمر أن تستباح دماؤهم لأقل الأسباب، فقد وجد شُرطياً قتيلاً قرب قرية مسلمة، فأرسلت الحكومة كتيبة كاملة قتلت أهل القرية كلهم وأحرقتهم مع قريتهم، ثم تبين أن القاتل هو صديق المقتول، الذى اعتدى على زوجته.

حاول أحد العلماء وهو الشيخ عبد القادر أن يثور على هذه الإبادة فجمع الرجال، واختفى فى الغابات، فجمعت الحكومة أطفالهم ونساءهم وشيوخهم فى أكواخ من الحشيش والقصب، وسكبت عليهم البترين وأحرقتهم جميعاً.

ومن قبضت عليه من الثوار كانت تعذبه عذاباً رهيباً قبل قتله، من ذلك إطفاء السجائر فى عينيه وأذنيه، وهتك عرض بناته وزوجته وأخواته أمام عينيه، ودق خصيتيه بأعقاب البنادق.. وجره على الأسلاك الشائكة حتى يتفتت، وإلقاؤه جريحا قبل أن يموت لتأكله الحيوانات الجارحة، بعد أن تربطه بالسلاسل حتى لا يقاوم.

لقد أصدر هيلاسيلاسى أمراً باغلاق مدارس المسلمين، وأمر بفتح مدارس مسيحية، وأجبر المسلمين على إدخال أبنائهم فيها تمهيداً لتنصيرهم.

وفى بنجلاديش قتل الجيش الهندى الذى كان يقوده يهود عشرة آلاف عالم مسلم بعد انتصاره على جيش باكستان سنة ١٩٧١، وقتل مائة ألف من طلبة المعاهد الإسلامية وموظفى الدولة، وسجن خمسين ألفاً من العلماء وأساتذة الجامعات، وقتل ربع مليون مسلم هندى هاجروا من الهند إلى باكستان قبل الحرب، وسلب الجيش الهندى ما قيمته ٣٠ مليار روبية من باكستان الشرقية من أموال الناس والدولة.

سكت قليلا يسترجع أنفاسه، وقد ملأت الدموع الطاهرة عينيه، ثم قال: هل تعلمون أيها الجمع المبارك

أنه ــ قبل فترة قريبة ــ عُرِضَ اقتراح على هيئة الأمم المتحدة ضد التفرقة العنصرية بجنوب أفريقيا..

هل تتوقعون أن يرفض مثل هذا الاقتراح.. ومع ذلك وقفت هذه الدول المتحضرة التي تسخر من محمد ﷺ معارضة هذا الإقتراح[1]، بل وقفت تناصر التفرقة العنصرية، وتعلن العداء لحقوق الإنسان.

هل تعلمون ــ أيها الجمع المبارك ــ أن جزيرة مدغشقر ثارت بعد الحرب العالمية الثانية تطالب بحريتها، فكان جزاء الثائرين أن تحركت القوات الفرنسية، وقتلت من الآهلين ثمانين ألف نفس فى ضربة واحدة.

ونفس الشيء حدث لقبائل (الماو ماو) فى كينيا عندما ثارت تطالب بحريتها فقد أباد الإنجليز أهلها حتى لم يتبق من هذه القبائل سوى ٢٥٠ أو ٣٠٠ نفس على الأكثر.

لقد اشتركت الكنيسة الكاثوليكية فى صربيا مع قساوستها ورجال الإكليرك والرهبان وكذلك أعضاء منظمات الشباب الكاثوليك فى المذابح التى لاقاها الأرثوذكس من أهل الصرب فى معسكرات الاعتقال التى كان يشرف عليها القساوسة الكاثوليك وأسفرت عن مقتل ٧٠٠ ٠٠٠ من الصرب الأرثوذكس و٩٠ ٠٠٠ من اليهود والزيجويتر، على الرغم من علم البابا بما يحدث هناك تبعاً للتقرير المفصل الذى قدمه إليه (بوكون) فى الثامن من أكتوبر لسنة ١٩٤٢.

يقول أيوجين روستو رئيس قسم التخطيط فى وزارة الخارجية الأمريكية، ومستشار الرئيس جونسون لشؤون الشرق الأوسط حتى سنة ١٩٦٧: يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست خلافات بين دول أو شعوب، بل هى خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية.

ويستطرد قائلاً: لقد كان الصراع محتدما ما بين المسيحية والإسلام من القرون الوسطى، وهو مستمر حتى هذه اللحظة بصورة مختلفة، ومنذ قرن ونصف خضع الإسلام لسيطرة الغرب وخضع التراث الإسلامى للتراث المسيحى.

ويتابع قائلاً: إن الظروف التاريخية تؤكد أن أمريكا إنما هى جزء مكمل للعالم الغربى، فلسفته، وعقيدته، ونظامه، وذلك يجعلها تقف معادية للعالم الشرقى الإسلامى، بفلسفته وعقيدته المتمثلة فى الدين الإسلامى، ولا تستطيع أمريكا إلا أن تقف هذا الموقف المعادى للإسلام وإلى جانب العالم الغربى والدولة الصهيونية، لأنها إن فعلت عكس ذلك فإنها تتنكر لغتها وفلسفتها وثقافتها ومؤسساتها.

***

طأطأ دوج رأسه، ولم يجد ما يجيب، فقال رجل من الجمع متهكما: هلا تفضلت ــ حضرة الفنان البارع ــ فرسمت لنا صورة بالجرائم التى وقعت فيها هذه الأمم المتحضرة؟

([1]) عارضت الاقتراح كل من البلاد المسيحية المتحضرة الآتية: بريطانيا واستراليا وكندا ونيوزيلندة وبلجيكا. وامتنع عن التصويت كل من: الولايات المتحدة والنرويج وتركيا والدانيمارك وفرموزا.

أما سياسة فرنسا فى هذه القضية وغيرها فقد شرحها أحد علماء القانون الفرنسى فى هذه العبارات: (إذا قلنا سيادة الشعب فلا يعنى هذا شعوب مدغشقر أو أفريقيا الاستوائية أو مسلمى مراكش..! إن حقوق الانسان والمواطن لا تطبق ولا تراعى إلا لصالح الشعب الفرنسى بالقارة الأوربية. فالوطن فى مدغشقر أو الهند الصينية مهما بلغت مكانته الاجتماعية وثقافته وعلمه لا يعتبر مساوياً للفرنسى الأوربى)

ضحك آخر، وقال: ومن يملك ثمن اللوح الذي يرسم فيه صورة ذلك..؟

قال آخر: وبأي آلة يمكن أن يحملها..؟

قال آخر: وأي مداد هذا الذي يكفي لتصويرها؟

قال الحكيم: لقد نسي هؤلاء قول المسيح:(من كان منكم بلا خطيئة، فليرمها بحجر).. فراحوا ــ وهم الملطخون بجميع الجرائم ــ يرمون الطهر والنبل والكرم والسماحة بكل ما امتلأت به نفوسهم من أحقاد.

قال رجل من الجمع: حدثتنا عن أخلاقهم، فحدثنا عن أخلاق محمد في حروبه.

قال الحكيم: حتى نختصر حديثنا، فسنتحدث عن ناحيتين ترتبطان بكل حروب الدنيا، لنرى أنواع الأخلاق التي صاحبتهما في حروب محمد ﷺ، وفي حروب غيره.

وهما: الدوافع التي دفعت للحرب، والوسائل التي استعملت فيها.

دوافع:

قال رجل من الجمع: لقد حدثتنا بتفصيل عن الأسباب التي دفعت محمدا إلى حروبه.

قال الحكيم: يجمع كل ما ذكرناه من تفتصيل سببان:

١ ــ الدفاع:

أما السبب الأول، فهو الدفاع عن النفس، وقبلها عن المبادئ.. ولذلك كان المؤمنون يقدمون أنفسهم قرابين للمبادئ النبيلة التي يحملونها.

لقد ذكر القرآن الكريم هذا السبب، واعتبره مبررا لحمل السيوف، فقال:﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) (الحج:٣٩)

التفت إلى دوج، وقال: اذهب.. وابحث ــ بعقل وحكمة ــ في أكثر الغزوات التي غزاها النبي ﷺ تجد هذا السبب هو الدافع الأساسي لخوض تلك الغزوات..

وعندما تفرض الحرب على إنسان، فهو بين أمرين:

إما الاستسلام.. وبالاستسلام تموت المبادئ، وينتصر الظلم والاستبداد.. ولو فعل محمد ﷺ ذلك لرحت ترسم لوحة بجبن المسلمين وخوفهم وتزلزل أقدامهم أمام أعدائهم.

وإما قبول الحرب المفروضة.. وهذا ما فعله المسلمون.. وقد كتب الله لهم النصر، لأنهم لم يكن لهم هدفهم في حروبهم إلا الدفاع ونصرة الحق الذي يحملونه، وقد شهد الله تعالى لهم بذلك، فقال:﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ (النساء:٧٦)

٢ ــ الخلاص:

أما السبب الثاني، فهو الخلاص.. لقد كان الدافع الذي دفع المسلمون في حروبهم جميعا ــ حتى الدفاعية

منها ـــ هو تخليص المستضعفين من قيود المستكبرين.. لقد ذكر الله هذا الدافع، فقال:﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥)﴾(النساء: ٧٥)

لقد أراد رسول الله ﷺ من تلك الغزوات والسرايا كسر شوكة السلطات الطاغية والمتجبرة التي كانت تحكم تلك البلاد، وتحول بين شعوبها وبين الاستماع إلى هدي الإسلام.

لقد كانت تلك السلطات ترى أن لها الحرية في هذا الجانب، فلذلك لا تريد إلا أن يبقى الناس على دينها ومذهبها، ولا يفكر أحد في اعتناق دين آخر، ما لم يأذن له كسرى أو قيصر، أو الملك أو الأمير.

لقد عبر القرآن على لسان فرعون قديما حينما أسلم سحرته، وآمنوا برب موسى وهارون، فقال لهم:﴿ آَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤)﴾(الأعراف)

لقد كان حكم الأكاسرة والقياصرة والملوك في ذلك الزمن حاجزا حصينا دون وصول الدعوة العالمية إليهم، ولهذا حينما بعث محمد برسائله إلى هؤلاء الأباطرة والملوك، يدعوهم إلى الإسلام حملهم ـــ في حال عدم استجابتهم ـــ إثم رعيتهم:

فقال لكسرى:(فإن لم تسلم، فعليك إثم المجوس)

وقال لقيصر:(فإن لم تسلم، فعليك إثم الإريسيين)

وقال للمقوقس في مصر:(فإن لم تسلم، فعليك إثم القبط)

ولهذا، فإن محمدا ﷺ لم يتوقف عن القتال بمجرد أن فتح الله عليه مكة.. بل ظل يبعث بالسرايا للأقاليم المجاورة حتى يحررها من استبداد المستبدين، ولتنعم بظل العدل والأمن والحرية التي جاء بها الإسلام.

التفت إلى دوج، وقال: لقد رأيت ـــ عند سردنا للغزوات والسرايا ـــ كيف كان ﷺ يؤمر على كل قرية يفتحها أميرا منهم.. وكيف أنه لم يكن يطلب منهم أي جباية تخصه، بل كل ما كان يطلبه منهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم لترد على فقرائهم.. ويكتفي منهم بذلك.

قارن ذلك بجشع المستعمرين من هذه الحضارة الطاغية الذين أسسوا حضارتهم على تخريب البلاد، وهلاك العباد.. ولم يكتفوا بنهب خيرات الشعوب التي استعمروها، ولا باستذلالها وتسخيرها في مصالحها.. بل راحوا ـــ فوق ذلك ـــ وبعد خروجهم منها ينشرون الفتن بين أهلها، ليكملوا ما بدأه المستعمر من خراب.

وسائل:

قال رجل من الجمع: عرفنا الدوافع، ولا يشك أحد من الناس في شرفها، فقد ظل محمد في جميع حياته كما هو إنسانا بسيطا أقرب إلى الفقر منه إلى الغنى.. وقد كان في إمكانه أن تبني له القصور، وينعم بما نعم به المترفون، ولكنه أبى كل ذلك.. وليس ذلك من خلق المستبد أو المستعمر أو الذي يغلب مصالحه على مصالح غيره.

قال آخر: اقتنعنا بهذا، فحدثنا عن الآخلاق التي صاحبت تنفيذ محمد لما تتطلبه هذه الدوافع الشريفة.. فقد

تكون الدوافع شريفة، ولكن الطريق إليها خاطئ.

قال الحكيم: لقد عرفتم من خلال ما سردنا من آيات القرآن، ومن خلال ما سردنا من حوادث السيرة أن محمدا ﷺ اضطر إلى استعمال السلاح اضطرارا.. ومع ذلك، ومع أنه أبيح له هذا الاستعمال إلا أنه أبيح مقيدا بقيود كثيرة ترفعه إلى مستويات عالية لا نجد لها في تاريخ المبادئ مثيلا.

قال دوج: من السهل ادعاء مثل هذا.

قال الحكيم: ومن السهل إثبات مثل هذا.

قال رجل من القوم: فأثبت لنا وله ذلك.

قال الحكيم: سأذكر لكم أربع تشريعات مرتبطة بهذا.. وسأترك لكم كل الفرصة لتبحثوا في جميع حروب الدنيا لتجدوا نظيرا لها..

١ ــ الوفاء:

قال الحكيم: أما التشريع الأول، فهو حرص الإسلام على المعاهدات التي تحفظ السلام.. وهو ما يؤكد حرص الإسلام على السلام.

لقد رأيتم في عرضنا لغزوات النبي ﷺ ما وهبه الله من القوة بعد غزوة الأحزاب.. بل كان يمكنه بعد فترة وجيزة من صلح الحديبية أن يفتح مكة.. ولكنه لم يفعل حرصا على المعاهدة التي أقامها معها.

ونفس الشيء حصل مع جميع اليهود.. فلم يبدأهم ﷺ بالحرب حتى بدأوه.. ولم ينفذ فيهم بعد خيانتهم له إلا ما استوجبته قوانين العدالة التي يرتضونها، بل التي أسس عليها كتابهم المقدس.

ولمّا أسرت قريش حذيفة وأباه أطلقوهما، وعاهدوهما أن لا يقاتلاهم مع رسول الله ﷺ، وكانوا خارجين إلى بدر، فقال رسول الله ﷺ: (انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم)

وقد ردّ النبيُّ ﷺ أبا بصير للمشركين، وأبى أن يقبله بعد أن عاد إليه وفاءً بالعهد الذي بينه وبين المشركين.

وعن سليم بن عامر، قال: كان بين معاوية وبين أهل الروم عهد، وكان يسير في بلادهم؛ حتى إذا انقضى العهد أغار عليهم، فإذا رجل على دابة أو على فرس، وهو يقول: الله أكبر، وفاء لا غدر، وإذا هو عمرو بن عبسة ــ وهو أحد أصحاب النبي ﷺ الذين لاحظوا سلوكه في غزواته ــ فسأله معاوية عن ذلك، فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:(من كان بينه وبين قوم عهد؛ فلا يحلنَّ عهدًا، ولا يشدنَّه؛ حتى يمضي أمده، أو ينبذ إليهم على سواء) قال: فرجع معاوية بالناس[1].

والمؤمنون مع رسول الله ﷺ في ذلك يتأدبون بما ورد في القرآن الكريم من الأمر بالوفاء بالعهود.. قال تعالى:﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ

([1]) رواه أبو داود والترمذي، والنسائي، وابن حبان، وقال الترمذي: حسن صحيح.

يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) (النحل:٩١)، وقال تعالى:﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً)(الاسراء: من الآية٣٤)

وقد وصف الله تعالى الذين ينقضون العهد بالخسران، فقال:﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (البقرة:٢٧).. بل وصفهم بما هو أخطر من ذلك، فقال:﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) (الرعد:٢٥)

ولذلك، فإن القرآن الكريم يصف أعداء الإسلام بالخيانة، وذلك ليقرر في المؤمنين أن الخيانة ليست من أخلاقهم، ولا من دينهم، قال تعالى:﴿ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ) (لأنفال:٥٦)

وفي مقابل هذا أمر المؤمنون بإتمام مدة العهد، قال تعالى:﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (التوبة:٤)

وعلى هذا الميثاق القرآني كان النبي ﷺ يربي أصحابه، وسراياه التي كان يرسلها، وجيوشه التي كان يغزو بها، قال ﷺ: (لا دين لمن لا عهد له)[1]

وقد وصف رسول الله ﷺ ناقض العهد بالنفاق، قال ﷺ:(أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر)[2]

بل إنه ﷺ اعتبر خائن العهد خصما له، فقال:(من ظلم معاهدا أو انتقصه أوكلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة)[3]

وأخبر عن بعض الجزاء الذي يعانيه الغادر، فقال:(لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به)[4]

وانطلاقا من هذه النصوص، فقد ورد الأمر بالتعامل مع كل من تربط بينهم وبين المسلمين أي علاقة أو أي ميثاق بمقتضى ما تمليه تلك المعاهدات، ولا يجوز خيانتها بحال من الأحوال إلا إذا ظهرت من العدو بوادر الخيانة[5]، قال تعالى:﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) (لأنفال:٥٨)[6]

([1]) رواه أحمد.

([2]) رواه البخاري.

([3]) رواه أبو داود.

([4]) رواه البخاري ومسلم.

([5])من الصور التي ذكرها الفقهاء لغدر المعاهدين ونقضهم للعهد: قتالهم للمسلمين، أو امتناعهم عن إعطاء الجزية، ومن إجراء حكم الإسلام عليهم، أو من دل أهل الحرب على عورة المسلمين –تجسس عليهم– أو فتن مسلما فى دينه (انظر: شرح الجلال المحلى على المنهاج بهامش قليوبى وعميرة:٤ /٢٣٦)

([6])قال الطبريّ في تفسيرها:(يقول تعالى ذكره: وإمّا تخافنّ ـــ يا محمد ـــ من عدو لك بينك وبينه عهد وعقد أن ينكث عهده وينقض عقده ويغدر بك، وذلك هو الخيانة والغدر، (فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ)(لأنفال: من الآية٥٨) يقول: فناجزهم بالحرب، وأعلمهم قبل حربك إيّاهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم، بما كان منهم من ظهور آثار الغدر والخيانة منهم؛ حتى

وقال ﷺ يؤكد ذلك ويوضحه: (من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدا ولا يشدنه حتى يمضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء)[1]

٢ ــ النبل:

قال رجل من الجمع: حدثتنا عن الخلق الأول، أو التشريع الأول، فحدثنا عن التشريع الثاني، أو الخلق الثاني.

قال الحكيم: الخلق الثاني هو النبل.

قال الجمع: فما النبل؟

قال الحكيم: لا يعتبر في شريعتنا الجهاد جهادا إلا من النبلاء.. أولئك الذين يحملون نفوسا طيبة، وهمما رفيعة، وأرواحا يقدمونها هدايا لكل هدف نبيل.

لقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حَمِيَّة، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال:(من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[2]

التفت إلى دوج، وقال: أتدري ما معنى القتال حمية؟

قال نيورن: لا.. فما هو؟

قال الحكيم: هو ما تسمونه القتال من أجل القومية والوطنية.. وغيرها.

قال دوج: أفترى الإسلام محاربا لهذه القيم السامية؟

قال الحكيم: الإسلام يحترم القيم الإنسانية الرفيعة التي تضع البشر جميعا في محل واحد، فلا تفرق بين إنسان وإنسان، ولا بين شعب وشعب.. ولذلك يعتبر كل الحروب التي تقوم في سبيل رفعة وطن على حساب وطن، أو تسلب خيرات وطن لأجل وطن آخر قتال حمية يتنافى مع النبل الذي دعا له الإسلام.

إن فهمت هذا فهمت نبل المجاهد المسلم.

فهو ينطلق لأجل إعلاء كلمة الله.. وكلمة الله تعني القيم النبيلة من العدالة والرحمة ونصرة المستضعفين..

وهو في ممارسته للجهاد لا يمارسه إلا بذلك النبل الذي انطلق منه.. فجند الله رهبان بالليل فرسان بالنهار.. أصحاب عبادة وخلق.

قارن هؤلاء بجيوش العالم جميعا.. أولئك الجيوش الذين جعلوا من ثكناتهم مواخير للرذيلة والانحراف حتى أصبحت الجندية مرادفة للرذيلة والانحراف.

لقد استنبط بعضهم صفات المجاهد فى سبيل الله من النصوص المقدسة للمسلمين، فذكر أنه (ذلك الفارس النبيل الأخلاقى المدرب على أخلاق الفروسية العالية الراقية ؛ حتى يستطيع أن يمتثل إلى الأوامر والنواهى

تصير أنت وهم على سواء في العلم بأنك لهم محارب، فيأخذوا للحرب آلتها، وتبرأ من الغدر. ?إنّ الله لا يحب الخائنين? الغادرين بمن كان منه في أمان وعهد بينه وبينه أن يغدر به، فيحاربه قبل إعلامه إيّاه أنّه له حرب، وأنه قد فاسخه العقد)

([1]) رواه أبو داود والترمذى وقال: حديث حسن صحيح.

([2]) رواه البخاري ومسلم.

الربانية التي تأمره بضبط النفس قبل المعركة وأثناء المعركة وبعد المعركة، فقبل المعركة يجب عليه أن يحرر نفسه من كل الأطماع، وألا يخرج مقاتلا من أجل أى مصلحة شخصية، سواء كانت تلك المصلحة من أجل نفسه أو من أجل الطائفة التي ينتمي إليها، أو من أجل أى عرض دنيوى آخر، وينبغي أن يتقيد بالشروط التي أحل الله فيها الجهاد، وأن يجعل ذلك لوجه الله تعالى، ومعنى هذا أنه سوف يلتزم بأوامر الله، ويستعد لإنهاء الحرب فوراً، إذا ما فقدت الحرب شرطاً من شروط حلها أو سبباً من أسباب استمرارها، وسواء أكان ذلك الفارس منتصراً، أو أصابه الأذى من عدوه، فإن الله يأمره بضبط النفس، وعدم تركها للانتقام، والتأكيد على الالتزام بالمعاني العليا، وكذلك الحال بعد القتال، فإنه يجب عليه أن يجاهد نفسه الجهاد الأكبر ؛ حتى لا يتحول الفارس المجاهد إلى شخص مؤذٍ لمجتمعه أو لجماعته أو للآخرين)[1]

قال دوج: كيف تقول هذا.. وكيف تصف هؤلاء بهذا النبل، وقد ورد القرآن يصفهم بالشدة والغلظة.

قال الحكيم: صدقت.. لقد قال الله تعالى آمرا المجاهدين في سبيله بالغلظة مع من يقاتلهم:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة:١٢٣)، وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (التوبة:٧٣)

ولكن هذه الغلظة تمتلئ بالرحمة..

ضحك دوج ساخرا، وقال: كيف ذلك.. كيف تجتمع الغلظة مع الرحمة؟

قال الحكيم: لقد قال تعالى مبينا ذلك:﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (لأنفال:٥٧).. لقد قال المفسرون في معنى هذه الآية:(معناه: غلِّظ عقوبتهم، وأثخنهم قتلاً؛ ليخاف من سواهم من الأعداء وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة)

قال دوج: فالآية تحث المؤمنين على استعمال أسلوب التخويف.

قال الحكيم: إذا كان التخويف هو وسيلة السلام الوحيدة فلا حرج من استعماله.. وليس هناك في الدنيا أمة من الأمم إلا وتستعمله.

تصور لو أن المجرمين لم تمتلئ قلوبهم من الإرهاب المعد لهم في السجون والمقاصل.. إنهم لو أتيح لهم قوانين رحمة كما يريدون لأصبحت الأرض جميعا ملكا لهم، يقتلون من يشاءون، ويحيون من يشاءون.

٣ ــ الإنسانية:

قال رجل من الجماعة: فما الخلق الثالث؟

قال الحكيم: الإنسانية..

ضحك دوج، وقال: إن الحرب قتل للإنسان، فكيف تكون إنسانية؟

قال الحكيم: عندما يكون هدف المحارب هو قضيته فقط.. ولا يكون له أي غرض سواها.. وعندما تكون نفسه مشحونة بالإيمان الذي يطهرها من كل الأحقاد تكون الحرب إنسانية.

([1]) انظر: شبهات المشككين.

قال رجل من الجماعة: فما مظاهرها في جهاد المسلمين؟

قال الحكيم: مظاهرها كثيرة.. منها مثلا: رحمة القتيل بالإجهاز عليه، وعدم تركه لآلامه، كما أشار إلى ذلك قوله ﷺ:(إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته)[1]، فقد أمر ﷺ في هذا الحديث بالإحسان في القتل، واعتبر إحداد الشفرة من إراحة الذبيحة.

وقد نص على هذا المظهر الإنساني قوله تعالى:﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ)(محمد: من الآية٤)، فقد أمر الله تعالى في هذه الآية المؤمنين بضرب الرقاب، وهي أقرب المناطق التي تيسر الموت الرحيم.

وبما أن المقاتل بين أن يقتل من يقاتله أو يأسره، فقد خص الله تعالى موضعين فقط للمقاتل، أما أولهما فضرب الرقاب، وأما الثاني فضرب البنان الذي هو رؤوس الأصابع، وذلك لمن يريد أسره حتى لا يبقي فيه عاهة مستديمة قال تعالى:﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) (لأنفال:١٢)

التفت دوج، وقال للجمع: هل سمعتم مثل هذا.. إن القرآن يأمر بضرب الرقاب، إنه يقول بكل قسوة:﴿:﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ)(محمد: من الآية٤)

ابتسم الحكيم، وقال: وما تريد منه أن يقول في هذا الموضع؟.. هل تريد أن يقول: فإذا لقيتم الذين كفروا فسلموهم رقابهم.. أو تراه يقول لهم:(فانثروا الورود والرياحين في وجوههم)

إن المقام مقام شدة، ولا يردع الشدة مثل الشدة.

لقد أدرك الشاعر الحكيم ذلك، فقال:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا   مضر كوضع السيف في موضع الندى

وقال آخر:

والشر إن تلقه بالخير ضقت به   ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم

وقال آخر:

والناس إن تركوا البرهان واعتسفوا   فالحرب أجدى على الدنيا من السلم

ومع ذلك، فالقرآن لم يأمر بالقتل فقط، بل أمر معه بالأسر..

انتفض دوج بشدة قائلا: ماذا تقول!؟.. ألا تتحرج من الحديث عن الأسر في الإسلام!؟.. إن الإسلام يأمر بقتل الأسرى، ولا يتعامل معهم بأي رحمة؟

ولن نستطيع أن تجادلني في هذا، فقد قال القرآن كلمته فيها، ففيه:﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (لأنفال:٦٧).. والآية واضحة، فهي تنهى عن الإبقاء على الأسرى، وتأمر بالقضاء عليهم.

ابتسم الحكيم، وقال: أنت تفهم من القرآن ما يحلو لك.. بل أنت تحمل من القرآن من المعاني ما لا

([1])رواه مسلم.

يطيق.

سأزيل عنك هذا الوهم..

إن الآية التي ذكرتها لا تفهم إلا في ضوء قوله تعالى:﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا)(محمد: من الآية٤)

قال دوج: ألا يحتمل أن تكون هذه الآية منسوخة بتلك الآية؟

قال الحكيم: القرآن كله محكم ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت:٤٢)

قال دوج: ولكن التعارض بينهما واضح.

قال الحكيم: التعارض واضح في الأذهان التي لم ترتقي لتفهم أسرار التعابير القرآنية.

فهاتان الآيتان تبينان أسلوبا من أساليب الحرب الدفاعية.

أما الآية التي ذكرتها، فتأمر بأن يبدأ المقاتلون بتحطيم قوة عدوهم وكسر شوكتهم، فإذا أثخنوا في قتل أعداءهم حتى يكون عندهم خوف ورعب.. وحينذاك ــ حين تنهار قوة العدو ــ يبدأ استعمال الأسلوب الثاني، وهو أسلوب الأسر، قال تعالى:﴿ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ)(محمد: من الآية٤)، فالأسر يكون بعد الإثخان وليس معه أو قبله، فليس ثمت نهي عن الأسر، وإنما أمر أن يكون الإثخان هو الأول، وبعده يأتي الأسر.

من مظاهرها التعامل الإنساني مع الأسير..

سكت الحكيم قليلا، ثم قال: سأذكر لك بعض مظاهرة إنسانية التعامل مع الأسير في الإسلام، ثم قارنها بما شئت[1].

فمن حقوق الأسير عدم إكراهه على ترك دينه، فلا يُكره على الدخول في الإسلام، وإنما يُدعى إلى الإسلام بالتي هي أحسن، قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (لأنفال:٧٠)، ففي الآية استمالة للأسرى، وتجديد الدعوة لهم، وفتح باب التوبة أمامهم، وترغيبهم بما يعوضهم عما دفعوا من الفداء، ويعدهم إن هم دخلوا في الإسلام طائعين مختارين بالرزق الوفير في الدنيا والآخرة والمغفرة لما سلف من ذنوبهم قبل الإيمان، وفي هذا دليل واضح على أنهم لا يكرهون على الدخول في الإسلام.

([1])انظر: مقالا لسلمان العودة بعنوان (من لأسرى المسلمين؟) بتاريخ ١٤٢٣/٦/١ الموافق ٢٠٠٢/٠٨/١٠. موقع الإسلام اليوم www.islamtoday.net

و لم يقع قط أن أكره أسير على أن يدخل في الإسلام..

سأضرب لك مثالا عن كيفية تعامل رسول الله ﷺ مع بعض أسراه، روى ابن إسحاق عن أبي هريرة أن خيلاً لرسول الله ﷺ أخذت أسيرا، ولا يشعرون من هو حتى أتوا به رسول الله ﷺ، فقال:(أتدرون من أخذتم؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفي)، فربطوه بسارية من سواري المسجد بأمره ﷺ لينظر حسن صلاة المسلمين، واجتماعهم عليها فيرق قلبه، فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال:(ماذا عندك يا ثمامة؟)، قال: عندي خير يا محمد إن تَقْتل تَقْتُل ذا دم، وإن تُنْعِم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فتركه حتى كان الغد، ثم قال له:(ما عندك يا ثمامة؟)، قال: ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد، فقال:(ما عندك يا ثمامة؟)، قال: عندي ما قلت لك، فقال:(أطلقوا ثمامة)

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) ثم قال: والله يا محمد ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، وقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه إليّ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين كله إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إليّ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشره النبي ﷺ بخير الدنيا والآخرة وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة يلبي وينفي الشريك عن الله قال له قائل: صبوت؟ قال: لا، ولكن أسلمت لله رب العالمين مع محمد رسول الله ﷺ ولا والله تأتيكم من اليمامة حبّة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ.

ثم صار ثمامة هذا الرجل الذي كان أسيرا بفضل هذه المعاملة من رسول الله ﷺ من فضلاء الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ وهدى الله به خلقاً كثيراً من قومه، و لم يرتد مع من ارتد من أهل اليمامة ولا خرج عن الطاعة قط وقام مقاماً حميداً بعد وفاة النبي ﷺ حين ارتدت اليمامة مع مسيلمة فقال:﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حم تَنزِيلُ الْكِتَبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (غافر: ١ - ٣)، ثم قال: فأين هذا من هذيان مسيلمة؟ فأطاعه ثلاثة آلاف وانحازوا إلى المسلمين.

قال دوج: كيف تزعم أن نبيكم يحسن معاملة الأسرى، وقد ذكرت أنه ربطه بسارية من سواري المسجد.

ابتسم الحكيم، وقال: إن هذا الحديث يفهم على ضوء قوله ﷺ: (لا تغلوا ولا تمثلوا ولا تغدروا شيخاً فانياً ولا صبياً ولا امرأة)

إن من معاني قوله ﷺ: (لا تغلوا) هو وضع الأغلال في أيدي الأسارى، فقد نهت الشريعة الإسلامية عن وضع الأغلال بأيدي الأسرت، وأمرت بتركهم أحرارا من دون تقييد أو تحديد لحركتهم.

قال دوج: ولكن ما أمر به محمد من تقييده يتنافى مع هذا.

قال الحكيم: إن النبي ﷺ لم يقيد يديه بالأغلال ليعذبه بذلك، وإنما وضعه في موضع يستطيع معه أن يرى المسلمين ورحمة المسلمين وإنسانية المسلمين، ولو أنه رأى غير ذلك لما عاد بعد أن أطلق سراحه ليسلم، بل

ويحسن إسلامه، ويثبت في الوقت الذي ارتد فيه الناس على أعقابهم.

قال رجل من الجمع: واصل حديثك عن حقوق الأسير في الإسلام.

قال الحكيم: من حقوق الأسير التي نص عليها القرآن الكريم إعطاؤه ما يكفيه من الطعام والشراب، كما قال تعالى:﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾ (الانسان:٨-٩)، ففي هاتين الآيتين دليل على أن إطعام الأسير قربة يتقرب بها المؤمن إلى ربه سبحانه وتعالى، وفيهما أن المؤمن يؤثر الأسير حتى على نفسه، وفي قوله:﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ دليل على أنه لم يطعمه مما فضل من قوته، وإنما يطعمه من طيب طعامه مع حاجته إليه ومحبته له.

ولذلك نص العلماء على أن منع الطعام عن الأسير من الكبائر، كما يشير إلى ذلك قوله ﷺ:(عُذبتْ إمرأة في هرة، سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض)[1]

فلما كان الحبسُ مانعاً للمحبوس من التصرف في أمر معاشه وكسبه وجب على حابسه أن يقوم بحقه، ولو كان ذلك في حق الحيوان، فما بالك بالإنسان الذي كرمه الله تبارك وتعالى.

سكت قليلا، ثم قال: ومن حقوق الأسير حقه في الكسوة والثياب المناسبة التي تليق به وتجدر بمثله، وقد روي في الحديث عن جابر ــ رضي الله عنه ــ قال: لما كان يوم بدر أتي بأسارى وأتي بالعباس، و لم يكن عليه ثوب، فنظر النبي ﷺ لى له قميصاً، فوجدوا قميص عبد الله بن أبيّ يقدر عليه، فكساه النبي ﷺ إياه)[2]

ومن حقوقه حقه في المأوى والسكن المناسب أياً كان، فقد يُسكن في المسجد أو يُسكن في سجن خاص ويكون ملائماً أو حتى في بيوت بعض المؤمنين، وفي عهد النبي ﷺ لم يكن هناك دار خاصة للأسرى ولا للسجن، ولهذا ربما سجن الأسير في المسجد، وربما وزع الأسرى على المسلمين في بيوتهم إلى أن يُنظر في شأنهم[3].

ومما يدل لذلك ما روي من أن النبي ﷺ جعل ناساً من الأسرى الذين كانوا يتقنون القراءة والكتابة يُعلمون أولاد الأنصار القراءة والكتابة، وجعل ذلك فداءهم وفكاكهم[4]، ومن المعلوم أن الأسير كي يُعلم ويكتب لابد أن يكون طليقاً غير مقيد ولا مربوط، وقادراً على الذهاب والإياب، والوثاق إنما جُعل لمنعه من الهرب فإذا أمكن منعه بلا وثاق فلا حاجة إليه.

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) رواه البخاري.

(3)ذكر ابن كثير في البداية والنهاية (٥/١٩١) أن الرسول ﷺ فرق أسرى بدر على أصحابه، وقد وقد روى البيهقي في سُننه (٨٩/٩) عن ذكوان عن عائشة أن النبي ﷺ دخل عليها بأسير وعندها نسوة، فلهينها عنه فذهب الأسير فجاء النبي ﷺ فقال يا عائشة: (أين الأسير؟) قالت: نسوة كُنَّ عندي فلهينني عنه، فذهب فقال: رسول الله ﷺ:(قطع الله يدك)، وخرج فأرسل في أثره فجيء به فدخل النبي ﷺ وإذا عائشة ــ رضي الله عنه ــ قد أخرجت يديها فقال مالك قالت يا رسول الله إنك دعوت عليَّ بقطع يدي وإني معلقة يدي أنتظر من يقطعها، قال رسول الله ﷺ أجننت؟ ثم رفع يديه وقال: (اللهم من كنت دعوت عليه فاجعله له كفارةً وطهورًا)، قال الذهبي عن هذا الحديث: إسناده جيّد.

(4) رواه أحمد وغيره.

ومن حقوق الأسرى أن لا يفرق في الأسرى بين الوالدة وولدها أو بين الولد ووالده وبين الأخ وأخيه، وقد ورد هذا في حكم السبي، والسبي نوع من الأسر، وإن كان يطلق في الغالب على النساء والذرية.

لقد ورد الحديث ينص على هذا الحق، قال ﷺ: (من فرق بين والدة وولدها ـــ يعني من السبي ـــ فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة)[1]، وقد عقب الترمذي على هذا بقوله: والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم، كرهوا التفريق في السبي بين الوالدة وولدها وبين الولد والوالد وبين الإخوة.

ومن حقوق الأسير في الإسلام عدم تعريضه للتعذيب بغير حق، ولم ينقل في الشرع أنه أُمر بتعذيبهم، ولا أنه حصل لهم تعذيب خلال عصور العزة الإسلامية، وذلك لأنه إذا كان المسلم مأمورًا بإكرامهم وإطعامهم وسقيهم والجمع بينهم فإن تعذيبهم يتنافى مع هذا الأمر، اللهم إلا أن يكون هناك حالات خاصة يتطلب الأمر فيها أن يُمس بشيء من العذاب قليل لا يؤثر عليه من أجل كشف أمور يُعلم أنها موجودة عنده كما في حديث ابن عمر ـــ رضي الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم، فغلب على الأرض والزرع والنخل فصالحوه على أن يجلوا منها ولهم ما حملت ركابهم ولرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء ويخرجون منها واشترط عليهم أن لا يكتموا ولا يغيبوا شيئاً، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد فغيبوا مسكا فيه مال وحلي لحي بن أخطب كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير فقال رسول الله ﷺ لعم حيّ ما فعل مسك حيّ الذي جاء به من النضير فقال: أذهبته النفقات والحروب فقال: العهد قريب والمال أكثر من ذلك، فدفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير فمسه بعذاب وقد كان حيّ قبل ذلك دخل خربة فقال: قد رأيت حيّ يطوف في خربة ههنا فذهبوا وطافوا فوجدوا المسك في الخربة)[2]

ومما روي من النهي عن تعذيب الأسرى أن رسول الله ﷺ حين بلغه مقدم أبي سفيان ومن معه شاور أصحابه فيما يصنع، وفي القصة أنهم ظفروا بغلام، فأخذوه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه، فيقول: مالي علمٌ بأبي سفيان، ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية ابن خلف، فإذا قال ذلك ضربوه، فقال: نعم أنا أخبركم هذا أبو سفيان، فإذا تركوه فسألوه فقال: مالي بأبي سفيان علم، ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف في الناس، فإذا قال: هذا أيضاً ضربوه ورسول الله ﷺ قائمٌ يصلي، فلمّا رأى ذلك انصرف، قال:(والذي نفسي بيده لتضربوه إذا صدقكم وتتركوه إذا كذبكم)

فهذا دليل على أنه ينبغي ألا يكون هناك عدوان على الأسرى، ولا تعذيب لهم بغير حق.

قال دوج: نبيكم لم يعذب الأسرى، ولكنه قتلهم.

قال الحكيم: نعم.. لقد قتل النبي بعض الأسرى، وذلك لأن لهم سوابق وجرائم استوجبت قتلهم، ومع ذلك، فإن النبي ﷺ لم يقتل من الأسرى خلال حروبه الطويلة إلا عددًا قليلاً كانوا من أكابر عتاة المشركين

([1])رواه والترمذي وابن ماجة، قال الترمذي: حديث حسن غريب.

([2]) الحديث رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٣٧/٩) وقال ابن حجر في الفتح (٤٧٩/٧) إسناد رجال ثقات.
وقد جاء في التاج والإكليل أنه قيل لمالك: أيعذب الأسير إن رُجي أن يدل على عورة العدو؟! فقال: ما سمعت بذلك.

وقادة الحرب الضروس الفاجرة ضد الإسلام وأهله، ويمكن أن نطلق عليهم حسب التعبير المعروف اليوم (مجرمي حرب)

التفت إلى دوج، وقال: هذه بعض حقوق الأسرى في الإسلام، فقارنها بما شئت من اتفاقات دولية[1].. ولا

([1]) المبادئ الأساسية المتعلقة بحقوق الأسرى وضعت سنة ١٨٦٤م، وكان فيها أربع اتفاقيات، ووقع عليها حوالي (١٩٠) دولة من دول العالم وأدرج فيها عدد من الحقوق.

وفي وقت لاحق عام ١٩٧٧م تم إدراج لوائح جديدة فيما يسمى ببرتوكول إضافي أشار بوضوح إلى وجود مجموعات أو شرائح متعددة من أسرى الحروب.

والولايات المتحدة الأمريكية لم توقع على هذه الاتفاقية، وإنما وقعتها دول أخرى، وأهم النقاط الموجودة في هاتين الوثيقتين تتلخص فيما يلي:

أولاً: اتفاقية جنيف، بمقتضى الفقرة الرابعة من هذه الاتفاقية، فإن مصطلح أسرى الحرب ينطبق على الأفراد المنتمين للشرائح التالية:

القسم الأول: أفراد القوات المسلحة لأحد طرفي النزاع، ويدخل في ذلك:

١ــ المليشيات أو المتطوعون الذين يشكلون جزءاً من هذه القوات أي: ليسوا من أفراد القوات المسلحة، ولكنها مليشيات تابعة لهم أو متعاونة معهم.

٢ــ الأفراد المنتمون لمليشيات أخرى، أو المتطوعون، ومن بينهم أعضاء حركات المقاومة المنظمة ما دامت تنطبق عليهم الشروط التالية:

أ ــ أن يخضعوا لقيادة شخص مسؤول عنهم.

ب ــ أن يكون لهم علامة محددة بزي أو صفة معينة يتميزون بها عن بُعد.

ج ــ أن يحملوا السلاح علانية.

د ــ أن يلتزموا في العمليات التي ينفذونها بأعراف وقواعد الحرب المتبعة.

القسم الثاني ــ ممن تشملهم هذه الاتفاقية ويعتبرون أسرى حرب ــ: أعضاء القوات المسلحة النظامية، ممن يعلنون الولاء لحكومة أو سلطة قد لا يعترف بها النظام الحاكم في تلك الدولة، أو سكان أي أرض تتمتع بالاستقلال في حال حملهم السلاح لمقاومة أي غزو بشرط حمل السلاح بشكل علني والالتزام بأعراف وقواعد الحرب.

ثانياً: في حالة وجود أي إشكال أو شك في كون هذا الأسير تنطبق عليه الشروط السابقة أو لا تنطبق عليه، فإنه في هذه الحالة يتمتع بالحماية في ظل الاتفاقية إلى أن تتولى المحكمة المؤهلة البت في أمرهم وما إذا كانوا أسرى حرب أو ليسوا أسرى حرب.

ثالثاً: ما يتعلق بالبروتوكول الإضافي الذي أضيف بعد ذلك، وهذا يقول إن أي مقاتل يقع في أسر قوة مناوئة يعتبر أسير حرب، أي مقاتل على الإطلاق، والمقاتل عندهم الذي يلتزم بأعراف وقواعد الحرب، وحتى حينما يخالف هذه القواعد والأعراف فإن من حقه أن يُعامل كأسير حرب في حالة أسره.

لكن الواقع يثبت عدم تطبيق أي شيء من تلك الاتفاقيات.

وقد ذكر الأستاذ (عيسى يوسف آلب تكين) فى كتابه (المسلمون وراء الستار الحديدى) بعض صور التعذيب والقتل التي مارسها دعاة هذه الحضارة بمن يعتبرونه أسرى من المسلمين، ومنها:

١. دق مسامير طويلة فى الرأس حتى تصل إلى المخ .

٢. إحراق المسجون بعد صب البترول عليه وإشعال النار فيه .

٣. جعل المسجون هدفاً لرصاص الجنود يتمرنون عليه .

٤. حبس المسجونين فى سجون لا ينفذ إليها هواء ولا نور، وتجويعهم إلى أن يموتوا .

٥. وضع خوذات معدنية على الرأس وإمرار التيار الكهربائى فيها .

تنسى مقارنتها بالواقع كذلك، فأكثر اتفاقات البشر مأسور لم يمن عليه بالخروج من الورق، ومن قيود الحبر.

٤ ــ الرحمة:

قال رجل من الجمع: فحدثنا عن الخلق الرابع.

قال الحكيم: الرحمة..

ابتسم دوج، وقال: الحرب قتال.. فكيف تصاحبها الرحمة؟

قال الحكيم: عندما يمارس المجاهد النبيل ما تتطلبه الحرب من قتال لا يمارسه بقسوة، وإنما يفعل ذلك من باب الضرورة.. يفعله، وهو يود في كل لحظة أن يتوقف خصمه عن قتاله ليكيف عن قتاله.

لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال:﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (لأنفال:٦١)

وقد روي في الحديث أن ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ ذهبوا يتطرقون، فلقوا أناسا من العدو فحملوا عليهم فهزموهم فشد رجل منهم فتبعه رجل يريد متاعه فلما غشيه بالسنان قال: إني مسلم إني مسلم، فأوجره السنان فقتله، وأخذ متيعه فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ للقاتل: أقتلته بعد أن قال إني مسلم؟! قال: يا رسول الله إنما قالها متعوذا، قال: أفلا شققت عن قلبه؟ قال: لم يا رسول الله؟ قال: لتعلم أصادق هو أو كاذب! قال: وكنت عالم ذلك يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: إنما كان يعبر عنه لسانه إنما

---

٦. ربط الرأس فى طرف آلة ميكانيكية وباقي الجسم فى ماكينة أخرى، ثم تُدار كل من الماكينتين فى اتجاهات متضادة، فتعمل كل واحدة مقتربة من أختها حيناً ومبتعدة حيناً آخر حتى يتمدد الجزء من الجسم الذى بين الآلتين، فإما أن يُقر المعذب أو أن يموت .

٧. كيُّ كل عضو من أعضاء الجسم بقطعة من الحديد مسخنة إلى درجة الإحمرار .

٨. صبُّ زيت مغلى على جسم المعذَّب .

٩. دق مسمار حديدى أو إبر الجراموفون فى الجسم .

١٠. تسمير الأظافر بمسمار حديدي يخرج من الجانب الآخر .

١١. ربط المسجون على سرير ربطاً محكماً ثم تركه لأيام عديدة .

١٢. إجبار المسجون على أن ينام عارياً فوق قطعة من الثلج أيام الشتاء .

١٣. نتف كتل من شعر الرأس بعنف، مما يسبب اقتلاع جزء من جلد الرأس .

١٤. تمشيط جسم المسجون بأمشاط حديدية حادة .

١٥. صب المواد الحارقة والكاوية فى فم المسجونين وأنوفهم وعيونهم بعد ربطهم ربطاً محكماً .

١٦. وضع صخرة على ظهر المسجون بعد أن توثق يداه إلى ظهره .

١٧. ربط يدى المسجون وتعليقه بهما إلى السقف وتركه ليلة كاملة أو أكثر .

١٨. ضرب أجزاء الجسم بعصا فيها مسامير حادة .

١٩. ضرب الجسم بالكرباج حتى يُدميه، ثم يقطع الجسم إلى قطع بالسيف أو بالسكين .

٢٠. إحداث ثقب فى الجسم وإدخال حبل ذى عقد واستعماله بعد يومين كمنشار لتقطيع قطع من أطراف الجرح المتآكل .

٢١. ولكى يضمنوا أن يظل المسجون واقفاً على قدميه طويلاً، يلجأون إلى تسمير أذنيه فى الجدار .

٢٢. خياطة أصابع اليدين والرجلين وشبك بعضهما إلى بعض .

٢٣. وضع المسجون فى برميل مملوء بالماء فى فصل الشتاء.

كان يعبر عنه لسانه.

قال الحسن ــ راوي الحديث ــ: فما لبث القاتل أن مات فحفر له أصحابه فأصبح وقد وضعته الأرض، ثم عادوا فحفروا له فأصبح وقد وضعته الأرض إلى جنب قبره.

قال الحسن: فلا أدري كم قال أصحاب رسول الله ﷺ كم دفناه مرتين أو ثلاثة كل ذلك لا تقبله الأرض، فلما رأينا الأرض لا تقبله أخذنا برجليه فألقيناه في بعض تلك الشعاب، فأنزل الله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ (النساء:٩٤)

قال الحسن:(أما والله ما ذاك أن تكون الأرض تجن من هو شر منه ولكن وعظ الله القوم أن لا يعودوا)[١]

سكت قليلا، ثم قال: لقد كان في إمكان كل تلك الدماء التي سفكت أن لا تسفك لو أن أصحابها تخلوا عن غرورهم وكبرهم.. لقد رأيتم كيف سيق بنو قريظة بعد خيانتهم إلى المقصلة برؤوس مرفوعة تكبرت عن مجرد الاعتذار عما بدر منها من خيانة.

وقد رأيتم كيف عفا رسول الله ﷺ عن كل من ارتكب جرائم كبرى استحق لأجلها أن يهدر دمه، ولكنه بمجرد اعتذاره عفي عنه، ومحيت كل ذنوبه، وصار واحدا من أمته ﷺ.. بل هناك من أضاف إلى هذا شرف الصحبة.

نظر إلى دوج، وقال: هذا هو الوجه الأول من وجوه الرحمة..

أما الوجه الثاني، فتوجهت به تشريعات الإسلام لكل من لا ناقه له في الحرب ولا جمل.. كالنساء والصبيان والشيخ الفاني والأجير والعابد في صومعته وغيرهم.. فهؤلاء وردت النصوص الشديدة بتحريم المساس بهم.

عن ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ قال: وُجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان[٢].

وعن رباح بن ربيع، قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ في غزوةٍ، فرأى النَّاس مجتمعين على شيء، فبعث رجلاً، فقال:(انظر علام اجتمع هؤلاء)، فجاء، فقال: على امرأةٍ قتيلٍ. فقال: (ما كانت هذه لتقاتلَ). قال: وعلى المقدمة خالد بن الوليد، فبعث رجلاً، فقال: (قل لخالد: لا يقتلنَّ امرأةً ولا عسيفًا)[٣]

التفت إلى الجمع، وقال: انظر رحمة الجهاد في الإسلام.. حتى العسيف الذي هو الأجير، فالعمال الأجراء حتى لو حضروا المعركة لايجوز قصدهم بالقتال إذا كانت خدماتهم لا تتصل بالقتال، فغيرهم ممن لم يحضروا إلى

---

(١) رواه ابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) رواه أبو داود.

ساحة المعارك هم أولى بأن تشملهم تلك الحصانة من أن توجه إليهم الأسلحة، ولو كانوا في بلاد الأعداء.

لقد كانت هذه التعاليم المضمخة بعطر الرحمة توجه لكل جيش أو لكل سرية يبعثها رسول الله ﷺ.. عن أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث جيشاً قال له:(انطلقوا باسم الله، لا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً صغيراً، ولا امرأة، ولاتغلوا)[1]

***

بعد أن انتهى الحكيم من حديثه لم يجد (دوج مارلت) ما يقوله.. ولذا سار مطأطئ الرأس، متغير الوجه، خارج ميدان الحرية ليترك الجماعة ملتفة حول الحكيم تسأله ويجيبها..

التفت إلى أصحابنا المستغرقين في مشاهدة ما حصل في ساحة الحرية.. فرأيت وجوههم كالحة عابسة عليها غبرة ترهقها قترة.

أما أنا.. فقد تترلت علي حينها أنوار جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

([1]) رواه أبو داود.

عاشرا ـــ زوجات

في مساء اليوم العاشر دخل (سلمان رشدي)[1] دار الندوة الجديدة، بوجه غير الوجه الذي ذهب به.

([1]) أشير به إلى (أحمد سلمان رشدي) صاحب رواية (آيات شيطانية)، ولد في بومباي (الهند) ١٩ يونيو عام ١٩٤٧ أي قبل شهرين من استقلال الهند ونشوء باكستان، أما والده فهو أنيس رشدي وهو مسلم من كشمير ورجل أعمال معروف، توفي والده في ١٩٨٧م، وعائلته تتكلم الإنجليزية والأرودو.

التحق بمدرسة تبشيرية إنجليزية، وحين بلغ ١٣ من عمره أرسله أبوه لبريطانيا لمتابعة دراسته، بعدها ألحقه والده بجامعة كيمبريدج لدراسة التاريخ في الأعوام من ١٩٦٥ وحتى ١٩٦٨.

توجه بعد ذلك لباكستان حيث قطنت عائلته وحصل على وظيفة في التلفزيون الباكستاني، وسرعان ما تركها عائدا لبريطانيا للعمل في مجالات مختلفة، انتهت باحترافه الكتابة كما حصل على الجنسية البريطانية.

تزوج في البداية من إنجليزية تدعى كلاريسا لوارد عام ١٩٧٦ ولكنهما انفصلا، ثم تزوج الأمريكية ماريان ويغنر عام ١٩٨٦ وهي كاتبة روائية صدرت لها رواية تتناول المعتقدات المسيحية بالنقد والسخرية.

أصدر العديد من الروايات من بينها (غريموس) ١٩٧٥، (أطفال منتصف الليل) ١٩٨١ وهي تجابه الثقافة الهندية بكل عاداتها وتقاليدها ودياناتها ومدينة أيضا لنضال الهنود ضد المستعمر البريطاني، حتى أن أنديرا اغندي أقامت ضده دعوى قضائية بسبب هذه الرواية وربحتها، ومنعت روايته من دخول الهند، بيد أنها ترجمت لثلاثين لغة من العربية والفارسية والأردو، وهذه الرواية هي التي أكسبته شهرة واسعة في عالم الأدب فقد فازت بجائزة بوكر عام ١٩٨١.

أصدر أيضا (العار) ١٩٨٣ تناول فيها الحياة في باكستان وأدان الثقافة الباكستانية وحكومتها وتكررت الأحداث حيث منعت الرواية من دخول باكستان ولكنها ترجمت للغات عدة، أصدر بعدها (ابتسامة الجاكوار)، وهي رواية انتقدت تجربة الثورة في نيكاراجوا.

وقد كان الحدث الأهم في حياته هو صدور روايته (الآيات الشيطانية) ١٩٨٨ وهي عبارة عن رواية تبدأ بتخيل طائرة تنفجر بفعل إرهابي فوق الجزر البريطانية، فيموت ركابها وينجو اثنان أحدهما جبريل رمز للخير والآخر الشيطان رمز للشر، وخلال الرواية يهزأ الكاتب بالرسول ﷺ وبزوجاته الطاهرات، وبالمقدسات الإسلامية والأنبياء والملائكة بصورة فجة، ويجري على ألسنتهم الشريفة الألفاظ النابية، حتى أنه لم يكتب بالرموز وإنما تعمد أن يكتب كل شخصية باسمها الصريح، فهو مثلا ينعت النبي ﷺ بـــ (ماهوند) ـــ وهي كلمة تعني النبي المزيف ـــ ووصف مكة المكرمة بمدينة الجاهلية.. وهذا ما دعا غير المسلمين أنفسهم لاعتبار روايته رواية بذيئة.

وقد ختم رشدي روايته بتسجيل سعادته البالغة بأنه صار إنجليزيا، وأنه نجا من الإسلام ومن تخلف شعوب الشرق الإسلامي إجمالا، وتنتهي الرواية بإنتحار بطلها الذي يحمل انفصـــــاما في الشخصية، فتارة هو جبريل رمز الخير وتارة هو الشيطان رمز الشر.

وقد صدرت العديد من الإصدارات حول هذه الرواية منها (شيطانية الآيات الشيطانية) لأحمد ديدات، و(الآيات الشيطانية الظاهرة والتفسير) د. محمد محيي،..(همزات شيطانية وسلمان رشدي) د. نبيل السمان،..(آيات سماوية في الرد على آيات شيطانية) د. شمس الدين الفاسي، و(آيات شيطانية.. جدلية الصراع بين الإسلام والغرب) د. رفعت سيد أحمد، و(الرد على كتاب الآيات الشيطانية) هادي المدرسي.

وفي مقابل ذلك لقي رشدي كل التكريم من أكثر الدوائر الغربية، فقد أعلن الاتحاد السوفيتي ترشيح رشدي عضوا في اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا، كما طلب رؤساء الدول الغربية بحماية رشدي من إرهاب المسلمين، وتطوع العديد من الناشرين الأوربيين لطبع الرواية وبيعها بسعر التكلفة.

ونتيجة لذلك، فقد أصبح سلمان رشدي من الشخصيات الشهيرة حول العالم وتتسابق الصحف على نشر أخباره وصوره، حتى أن بريطانيا خصصت له حماية مشددة، وطلبت إســـرائيل أن يـــهاجر سلمان إليها ليعيش في أمان وتنفق عليه ببذخ وتطبع وتـــــوزع كتبه بالمجان.

صحت في البابا: أسلمان رشدي كان بينكم؟

قال: أجل.. ولكن المسكين لم يكن إلا عبدا مأمورا بسيطا لا يمكنه أن يتحرك حركة واحدة من دون أن نملي عليه ما يفعل، أو نأمره بما نريد.

قلت: لم ذلك.. ألم يكن رجلا سويا؟

قالت: إن كانت الرجولة تعني أنه كان ذكرا.. فقد كان رجلا.. ورجلا مسرفا في رجولته.. وإن كنت تعني بالرجول اكتمال الشخصية بأبعادها جميعا.. فقد كان الرجل قزما لا حظ له من الرجولة، كما لا حظ له من الشخصية.

قلت: لم كل ذلك؟

قال: لقد قدر لي أن أتعرف عليه عن كثب.. وقد تعرفت عليه من خلال مصادر موثوقة.

وقد عرفت ــ على ضوئها جميعا ــ أن الرجل كان في بداية حياته مغرما بامرأة إنكليزية شقراء الوجه زرقاء العينين.. وقد سامته الخسف في غرامه بها..

لقد طلق من أجلها كل مبادئه التي ورثها عن آبائه وأجداده، وباع كل ما ورثه من أرض.. وسار خلفها إلى بلادها..

قلت: فقد تزوجها إذن؟

قال: لقد كانت المرأة نبيلة من نبيلات الإنجليز، ولم تكن تنظر إليه بأكثر من نظرها إلى كلبها.. ولذلك رضيت منه أن يسير خلفها يحمل حقائبها، ويمسح حذاءها، ويأتمر بأوامرها..

قلت: وهل رضي لنفسه بهذه المهنة الخسيسة؟

قال: ليته رضي بها.. إذن لكف شره عن الناس، وكف الناس شرهم عنه.

لقد كان مع تلك الدناءة التي وصفتها لك ذا لسان.. وكان قد ورث عن جدته القدرة على قص القصص وتلفيق الأحاديث.. ولذلك اتخذته النبيلة الإنجليزية مسامرها، فهي كلما امتنع عنها النوم دعته ليقص عليها من أساطيره ما يريحها من وعثاء السهر.

قلت: فهل رضي بهذا؟

قال: لقد رضي بما دونه.. لقد اتخذته وسيلة لحرب من تشاء، والسخرية بمن تشاء.. كانت إذا حسدت امرأة لجمالها كلفته أن يكتب عنها من القصص ما يشوه سمعتها، ويرغب عنها الخطاب.

قلت: فكيف بدا له أن يكتب عن رسول الله ﷺ، ويشوه الحقائق المقدسة التي جاء بها.

قال: لقد أوحت إليه تلك النبيلة بذلك.. بل أمرته بذلك..

قلت: مقابل ماذا؟

قال: مقابل أن تمنحه لقبا معروفا بينهم يسمى لقب (الفرس)

ابتسمت، وقلت: الفارس.. يا سيدي.. لا الفرس.

قال: هو كذلك إذا أطلقه الإنجليز على الإنجليز، لكنهم إن أطلقوه على غيرهم حذفوا منها الألف شفقة

منهم عليها.

قلت: فقد كانت كل أحلامه في أن يصير فرسا؟

قال: لقد تحقق له حلمه بأكثر مما كان يرتضي.

قلت: أكانت له همة أدنى من هذه الهمة؟

قال: لقد كانت همته أن يصير حمارا.. لكنهم ــ بسبب ما قدم لهم ــ احترموه، فحولوه فرسا.

قلت: فحدثني حديثه.. وكيف انتهى.

قال: لعل أول مرة في حياته يصطدم بجدار صلب هي تلك التي حصلت له في ميدان الحرية، ومع ذلك الرجل الحكيم.

قلت: فأخبرني خبره.

قال: لقد دخل في ذلك المساء ميدان الحرية بوجه غير الوجه الذي ذهب به، فابتدرته الجماعة قائلة: ما الذي فعلت!؟.. ما نسبة نجاحك!؟.. هل هناك نتائج إيجابية!؟

نظر إليهم بعينين ذليلتين وكأنه خائف على شيء أن يترع منه، ثم قال: لقد حاولت كل جهدي.. لكنكم تعرفون القوم.. لا منطق يحكمهم، ولا قوانين تضبطهم.. ولكني استفدت أشياء كثيرة سأحولها إلى رواية أعظيم من رواية الشيطان التي كان الشيطان أوحاها لي.

ابتدر أخي، فأخذ القرص، ووضعه في القارئ، وبدأ شريط الأحداث:

ظهر سلمان في ساحة الحرية، وهو يصيح في الجموع الكثيرة المتفرقة قائلا: هلموا.. فسأروي لكم اليوم رواية تملؤكم سرورا.. وتملؤكم في نفس الوقت وعيا.

اقتربت الجموع منه، فقال ــ وقد غير نبرته لتشبه نبرة الحكواتي ــ:(كان يا ما كان في قديم الزمان.. وسالف العصر والأوان.. رجل له تسع من النسوان.. ولم يكن له هم في الحياة إلا رضاهن.. ولم يكن له مقصد إلا العبث معهن وبهن)

قال رجل من الجمع: حسبناك ستحدثنا عن الرجال، فإذا بك تحدثنا عن زير نساء.

قال سلمان: أتعرف من هذا الذي أريد أن أحدثكم حديثه؟

ابتسم رجل من الجمع، وقال: ربما تريد أن تحكي لنا قصتك.. فإن ملامح وجهك لا تدل إلا على أنك زير نساء.

ضحك الجمع، فكتم سلمان ألما في صدره، ثم صاح بهستيرية: ربما كنت كذلك.. ولكن الذي حدثتكم عنه الآن ليس أنا.. وإنما هو محمد.

فوجئ الجمع بتسميته لمحمد.. فقال: نعم.. لقد كنت أحدثكم عن محمد.. ولم أكن أحدثكم بالأساطير، وإنما كنت أحدثكم بالحقائق، وأتحدى أي رجل يكذب أن محمدا تزوج تسع نساء.. هذا عدا السرائر.

سكت الجمع، ولم يجدوا ما يجيبوه به، فتشجع سلمان، وراح يصيح: هل ترون رجلا مثل هذا يمكن أن يكون نبيا.. إن مثل هذا لا يصلح لأن يكلف إدارة مدرسة ابتدائية، فكيف بإدارة أمة!؟

ثم أضاف يصيح: إن هذا عدو للحضارة.. عدو للإنسانية.. عدو لكل الأعراف التي أقر بها البشر..

هنا اخترق حجاب الصمت صوت الحكيم، وهو يصيح بصوته القوي الممتلئ هدوءا، يقول: أنا مسلم.. وقلبي يمتلئ محبة لرسول الله ﷺ.. ولا أرى في العالم من هو أنزه منه وأطهر.. فإن شئت أن تسمع لأجيبك، فعلت.. وإلا فلا أرى أنه يصلح أن يجلس أحد في هذا المحل ليملي على غيره ما يريد دون أن يتيح لغيره فرصة الرد.

لم يجد سلمان إلا أن يقول وبنبرة ممتلئة احتقارا: سأسمع لك.. ومالي لا أسمع لك.. بل ما جئت هنا إلا لأسمع لك ولأمثالك.. فقل ما بدا لك.. ولكنك مهما قلت، فلن تستطيع أن تنقص امرأة واحدة من زوجات محمد.

قال الحكيم: أجبني أولا: أأنت تنكر على محمد ﷺ أصل زواجه.. فتعتبره انحرافا؟

أم تنكر عليه تعديده الزوجات.. فتعتبر تعديده للزوجات هو الانحراف لا أصل الزواج.

قال سلمان: أنا أنكر التصرف الثاني[1]، واعتبره منافيا للإنسانية.. بل هو البهيمية بعينها، فكيف يمكن لرجل واحد أن يضم قطيعا من النساء لممتلكاته؟

قال ذلك، ثم انفجر ضاحكا..

ابتسم الحكيم، وقال: وما رأيك في القطيع الذي يستغل أبشع استغلال، فينشر باستغلاله كل أنواع الانحراف من الرذيلة والأمراض والأطفال المشردين..

سكت سلمان، فقال الحكيم: أنتم تسمون هذا حرية.. وأنتم تعلمون أن هؤلاء النسوة معذبات، وينشرن من العذاب ما لا يمكن وصفه..

فإذا ما جاء الإسلام ليعطي الحل الأمثل لهذا نظرتم إليه نظرة الاحتقار، وكأنه يريد أن يخلصكم من المتع التي وفرها لكم هذه الحرية التي كسبتموها على حساب هؤلاء النسوة المعذبات.

نظر الحكيم إلى الجمع المحيط به، ثم قال: لكي تفهم أسرار إباحة الإسلام للتعدد لا بد أن تعرف أن الإسلام دين واقعي يتماشى مع الفطرة، ولا يجنح إلى الخيال الذي لا سند له من الواقع.

قال سلمان: والواقع.. كل الواقع يدل على عدم إنسانية التعدد.

قال الحكيم: أي واقع هذا الذي تحكم من خلاله على عدم إنسانية التعدد؟

قال: الواقع البشري.

قال الحكيم: أي واقع بشري؟

قال: الواقع البشري واحد.. وهو الواقع الذي يشكل الإنسان ركنه الوحيد.

قال الحكيم: ولكن الإنسان مختلف.. فهناك إنسان العصر الحديث.. وهناك إنسان العصور السابقة بمختلف أطوارها.. وهناك إنسان الصحراء.. وهناك إنسان التلال والسهول.. فعلى أي إنسان تحكم؟

([1]) سنرد في هذا المحل على شبهة تعدد الزوجات في الإسلام، وسنتحدث عما يرتبط بهذا من أحكام العدالة في رسالة (عدالة للعالمين) من هذه السلسلة.

قال: الإنسان هو الإنسان.

قال الحكيم: إن المنهج العلمي الذي يريد أن يعمم مثل هذا الحكم يتطلب مراجعة التواريخ والبيئات المختلفة للتعرف على مواقفهم من هذا.. فلا ينبغي أن نحكم انطلاقا من عينة من البشر على البشر جميعا.

قام رجل من الجمع، وقال: هذا صحيح.. وأنا عالم حضارات.. ولي اهتمام كبير بالنواحي الاجتماعية في مختلف الحضارات.. وسأذكر لكم ما وصل إليه بحثي في هذه المسألة[1].

لقد وجدت أن ظاهرة التعدد كانت منتشرة في جميع العهود البشرية، وفي أعظم بلدان العالم حضارة.

فبين الفراعنة، وأشهر الفراعنة على الإطلاق وهو رمسيس الثاني، كان له ثماني زوجات وعشرات المحظيات والجواري، وأنجب أكثر من مائة وخمسين ولدا وبنتا.. وأسماء زوجاته ومحظياته وأولاده منقوش على جدران المعابد حتى اليوم، وأشهر زوجات رمسيس الثاني هي الملكة الجميلة نفرتارى.. وتليها في المكانة والترتيب الملكة (أيسه نفر) أو (إيزيس نفر) وهي والدة ابنه الملك (مرنبتاح) الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه وإخوته الأكبر سنا.

وكان تعدد الزوجات شائعا في الشعوب ذات الأصل السلافى، وهي التي تسمى الآن بالروس والصرب والتشيك والسلوفاك.. وتضم أيضا معظم سكان ليتوانيا وأستونيا ومقدونيا ورومانيا وبلغاريا.

وكان شائعا بين الشعوب الجرمانية والسكسونية التي ينتمي إليها معظم سكان ألمانيا والنمسا وسويسرا وبلجيكا وهولندا والدانمارك والسويد والنرويج وانجلترا.

وكان التعدد ومازال منتشرا بين شعوب وقبائل أخرى لا تدين بالإسلام.. ومنها الشعوب الوثنية في أفريقيا والهند والصين واليابان ومناطق أخرى في جنوب شرق آسيا.

وكان تعدد الزوجات منتشرا في جزيرة العرب قبل الإسلام، ويروى من ذلك أن غيلان الثقفي أسلم وتحته عشر نسوة، فقال له النبي ﷺ: (أختر منهن أربعا)، وقال عميرة الأسدى قال: أسلمت وعندي ثماني نسوة، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: (اختر منهن أربعا)، وعن نوفل ابن معاوية الديلمى قال: أسلمت وعندي خمس نسوة، فقال لي رسول الله ﷺ: (اختر أربعا أيتهن شئت، وفارق الأخرى)[2]

ابتسم سلمان ابتسامة سخرية، وقال: وهل ترى أن تلك الأطوار التي مرت بها البشرية أطوار معتبرة.. إن الإنسان كان يعيش في بهيمية وانحطاط، فهل تعتبر ذلك الانحطاط مقياسا صحيحا للسلوك الإنساني؟

نهض عالم الحضارات، وقال: قبل أن أجيبك على هذا الاعتراض أحب أن أذكر لك أن علماء الاجتماع والمؤرخين، ومنهم وستر مارك وهوبهوس وهيلير وجنربرج وغيرهم، يلاحظون أن التعدد لم ينتشر إلا بين الشعوب التي بلغت قدرا معينا من الحضارة، وهي الشعوب التي استقرت في وديان الأنهار ومناطق الأمطار

---

(٢) اقتبسنا كثيرا من المادة الأساسية للمعلومات الإحصائية والتوثيقية في هذا المحل من كتاب (زوجات لا عشيقات) للأستاذ: حمدي شفيق، بالإضافة إلى: في ظلال القرآن: ٥٨٠/١، وفقه السنة: ١٨٩/٢، وكتاب « المرأة بين الشريعة والقانون » لمصطفى السباعي.

([2]) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة.

الغزيرة، وتحولت إلى الزراعة المنظمة والرعي بدلا من الصيد وجمع ثمار الغابات والزراعة البدائية.. ففي المرحلة البدائية من عمر المجتمعات كان السائد هو نظام وحدة الأسرة، ووحدة الزوجة.

ويرى هؤلاء المؤرخون وعلماء الاجتماع أن نظام التعدد سوف يتسع نطاقه كلما تقدمت المدنية، واتسع نطاق الحضارة في العالم.

ضحك سلمان بصوت عال، وقال: كيف هذا، والعالم الآن يسعى لإلغاء هذه الظاهرة، بل يقصر التمدن والتحضر على من تخلصوا منها؟

قال عالم الحضارت: لقد كان العالم ــ والمسيحي منه بالذات ــ ينكر الطلاق، ولكنه، وبفعل الضغوط الفطرية والواقعية الكثيرة اضطر إليه، فقنن له، وفتح له في تقنينه جميع الأبواب[1].

وهكذا الأمر سيحصل مع التعدد، فيوشك أن تطالب العشقات بحقوق الزوجية، كما طالبن بحقوق أبنائهن، بل قد حصل بعض ذلك بالفعل، ففي فرنسا (تهامس مشيعو جنازة الرئيس الراحل فرانسوا ميتران في دهشة وفضول عندما شاهدوا سيدة ترتدي قبعة سوداء ونظارة سميكة من ذات اللون، وبصحبتها فتاة شقراء تبدو على وجهها علامات حزن حقيقي دفين..كانت السيدة وابنتها تسيران إلى جانب أرملة الرئيس الراحل، وانقلبت الجنازة رأسا على عقب عندما علموا أن السيدة هي عشيقة الرئيس الراحل ومعها ابنته غير الشرعية منها: ثمرة الخيانة الزوجية للرجل الأول في فرنسا)

والأمر ليس قاصرا على هذا المشهد، بل تعداه فالعالم الآن ــ والذي ينتهض لحرب التعدد واعتباره ظاهرة تخلف ولا إنسانية ــ يقر العشيقة، بل العشيقات، كمظهر من مظاهر التحضر والإنسانية.

سكت عالم الحضارات، فقام رجل تبدو عليه ملامح السواح، وقال: أنا صحفي.. وسأحدثكم عن بعض الحياة الخاصة للزعماء الكبار الذين يدافعون عن حقوق النساء، لتروا كيف هم مع نسائهم:

لقد كان للرئيس الأمريكي القبيح ليندون جونسون ثماني سكرتيرات عاشر منهن خمسا معاشرة الأزواج في قلب البيت الأبيض، وكان يفتش عن الجميلات وسط زحام الحفلات، فإذا أعجبته واحدة يرسل معاونيه لكي يأتيه بها.

وذات يوم فتحت (ليدى بيرد) باب المكتب في البيت الأبيض لتجد زوجها الرئيس جونسون في وضع فاضح مع إحدى سكرتيراته داخل المكتب الذي يستقبل فيه زعماء العالم الزائرين لأمريكا، وبعد معركة زوجية

---

(١) ويقول وستر مارك في تاريخه:« إن مسألة تعدد الزوجات لم يفرغ منها بعــد تحريمه في القوانين الغربية، وقد يتجدد النظر في هذه المسألة كرة بعد أخرى كلما تحرجت أحوال المجتمع الحديث فيما يتعلق بمشكلات الأسرة »

ثم تساءل:« هل يكون الاكتفاء بالزوجة الواحدة ختــام النظم، ونظــام المستقبل الوحيد في الأزمنة المقبلة؟ »

ثم أجاب قائلا:« إنه سؤال أجيب عنه بآراء مختلفة، إذ يرى سبنسر أن نظام الزوجة الواحدة هو ختام الأنظمة الزوجية، وأن كل تغيير في هذه الأنظمة لا بد أن يؤدي إلى هذه النهاية »

وعلى نقيض ذلك يرى الدكتور Lepon أن القوانين الأوروبية سوف تجيز التعدد، ويذهب الأستاذ إهرنفيل Ehrenbel إلى حد القول بأن التعدد ضروري للمحافظة على بقاء « السلالة الآرية »

ثم يعقب وستر مارك بترجيح الاتجاه إلى توحيد الزوجة إذا سارت الأمور على النحو الذي أدى إلى تقريره.

حامية الوطيس استدعى جونسون أفراد حراسته الخاصة وصاح بهم:(كان يجب أن تفعلوا شيئا!)، فرد أحدهم عليه بشجاعة:(إننا لم نخطئ.. تلك هي مشكلتك وحدك)

وعلى الرغم من ذلك لم يتوقف الرئيس الأمريكي عن تصرفاته الطائشة، وكل ما حدث هو أنه أمر حراسه بتركيب جهاز للإنذار المبكر عند المصعد، حتى لا تضبطه زوجته مرة أخرى متلبسا بالخيانة الزوجية، فإذا شاهد الحرس الزوجة متجهة إلى المصعد المؤدى إلى غرفة المكتب يقوم أحدهم بدق الجرس، فينتبه الرئيس إلى أن زوجته في الطريق فيستعد لذلك.

وهناك قصص أخرى عن غراميات الرئيس جونسون مع صحفيات وفتيات أخريات كان معاونوه يحضرونهن له، وذات مرة أحضر جونسون ثلاث فتيات دفعة واحدة من مزرعة بتكساس، وأصر على توظيفهن في البيت الأبيض ليبقين رهن إشارته.

ومثله الرئيس (فرانكلين روزفلت) ــ الذي حكم الولايات المتحدة منذ عام ١٩٣٣، وأعيد انتخابه للمرة الثالثة في عام ١٩٤٠ ــ فقد كان ذا علاقات نسائية متعددة، على الرغم من أنه كان مقعدا يتحرك بكرسي طبي، وكانت أشهر عشيقاته امرأة تدعى (لوسى رزر فورد)، وكان يقابلها بصفة منتظمة عندما تكون زوجته (إليانور) غائبة عن البيت الأبيض.

أما الرئيس الأمريكي جون كيندي فقد كان من أشهر رؤساء العالم في ميدان الخيانة والعلاقات النسائية المتعددة.. وأشهر عشيقاته كانت هي ممثلة الإغراء الراحلة (مارلين مونرو)، والتي لقيت مصرعها في حادث غامض قيل إنه من تدبير المخابرات المركزية الأمريكية، وكان شقيقه (روبرت) على علاقة هو أيضا بمارلين مونرو في ذات الوقت، وكان يقابلها في مكتبه أثناء عمله مدعيا عاما للولايات المتحدة.

وقد أقام الرئيس جون كيندي علاقات جنسية أخرى مع عشرات من النساء أثناء ارتباطه بزوجته (جاكلين).. ومن عشيقاته سكرتيرتان هما الشقراء (فيدل) والسمراء (فادل) والثالثة كانت فتاة تعمل في عصابات المافيا وتدعى (جوديث كامبل)

ولم يفلت الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش من السقوط في خضم الاتهامات بالتورط في الخيانة الزوجية.. فقد ذكرت الكاتبة (سوزان ترينفو) في أحد كتبها أن أحد كبار مندوبى الولايات المتحدة في محادثات جنيف حول نزع الأسلحة، قام بترتيب لقاء غرامي بين بوش ــ نائب الرئيس ريجان في هذا الوقت ــ و(جينفر) التي كانت أحد مساعدي بوش، وكان اللقاء في بيت الضيافة في مدينة جنيف السويسرية عام ١٩٨٤، وبالطبع ثارت فضيحة كبرى في الصحف، وعلى شاشات شبكات التلفاز العالمية.

وبعد هؤلاء، لعل أشهر ذئب بشرى بين الرؤساء الأمريكان هو الرئيس بيل كلينتون الذي أعيد انتخابه لفترة رئاسة ثانية، رغم كل فضائحه وخيانات الزوجية التي صدرت عنها وحولها مئات الكتب والأبحاث والتحقيقات الصحفية والتليفزيونية، وقد اعترف كلينتون نفسه بصحة ما تردد عن بعض علاقاته الجنسية.. ولكنه رفض الخوض في أية تفاصيل، مؤكدا أن الأمر تسبب في مشاكل عائلية حادة كادت تنهى حياته الزوجية.

وتحتوى قائمة عشيقات كلينتون على أكثر من ثلاثين امرأة أشهرهن مونيكا صاحبة أكبر فضيحة في التاريخ الأمريكي كله، ومن بينهن: مغنية، وسكرتيرة، وزوجة قاض شهير، وصحفية، وبائعة في (سوبر ماركت).. الخ. ومن هؤلاء العشيقات (جينفر فلاورز) التي أصدرت كتابا فاضحا عن تفاصيل علاقتها الجنسية مع الرئيس، وحقق الكتاب أرقاما فلكية، فقد بيعت منه مئات الآلاف من النسخ في مختلف أنحاء العالم.

وقد كانت جينفر مذيعة نشرة في إحدى قنوات التليفزيون الأمريكي، ثم عملت بعد ذلك مغنية في ملهى ليلى بـ (أركنساس) حيث كان بيل كلينتون حاكما على هذه الولاية قبل ترشيحه لرئاسة أمريكا.

وتقول جينفر: إن علاقتها مع الرئيس دامت أثني عشر عاما كاملة.. وكان يهرب من زوجته (هيلارى) إلى بيت جينفر حيث كان الجيران يشاهدون سيارته وفيها سائقه الذي كان ينتظره لساعات طوال مع حراس كلينتون بوصفه حاكم أركنساس في ذلك الوقت..

ويقول الحراس إنهم كانوا يتلقون مئات المكالمات التليفونية من جينفر لكلينتون. وعندما كانت هيلارى تأتى إلى مكتب زوجها، فإن رجال الأمن كانوا يلفتون انتباه كلينتون ليذهب إلى غرفة الحرس، ويقومون هم بتحويل المكالمة إليه هناك حتى لا تضبطه زوجته هيلارى.

ويؤكد حراس كلينتون أن جينفر كانت واحدة من نصف دستة نساء يقابلهن كلينتون مرة أو مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع.

وحاول كلينتون بعد أن أصبح رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية أن يتناسى علاقته بجينفر، ولكنها فضحته بالكتاب وعلى صفحات الصحف وكبريات الشبكات التلفزيونية.

وبدأت الفضائح بحوار صحفي مع جينفر أجرته صحيفة (ستار) الأسبوعية مقابل مائة وخمسة وسبعين ألف دولار حصلت عليها عشيقة الرئيس التي زودت الصحيفة بالشرائط الصوتية المسجل عليها محادثاتها الهاتفية مع عشيقها كلينتون.

وبعد محاولات مستميتة للتهرب من الموقف بالغ الحرج، اضطر الرئيس كلينتون إلى الاعتراف في مؤتمر صحفي بأنه تورط في خطأ سبب ألما لزوجته، وقال:(لست على استعداد لمناقشة هذا الموضوع)

ويروى رجال الأمن الذين عملوا ضمن طاقم حراسة الرئيس كلينتون عشرات من الوقائع التي شاهدوه خلالها يطارح عشرات من الفتيات الهوى في فترات مختلفة من حياته قبل وبعد توليه الرئاسة، فقد كان يطلب من حرسه أن يحضروا الفتيات الجميلات اللاتي يعجبنه في الحفلات.

وعندما تأتى الفتاة التي تعجبه يبدأ الرئيس في مغازلتها مبديا إعجابه بها، ثم يعطيها الحرس رقم التليفون السري للرئيس لتتصل به فيما بعد، وأحيانا يقوم الحرس بحجز جناح بأحد الفنادق ليمارس فيه الرئيس نزواته الفاضحة بعيدا عن مراقبة زوجته.

ويحكى حراس الرئيس أن (هيلارى) زوجته أستيقظت مرة فلم تجد كلينتون في المنزل، فصرخت وشتمت الحراس بألفاظ بذيئة.. وعلى الفور اتصلوا بالرئيس في أحد الفنادق حيث كان مع أحدى الفتيات، وعاد مضطربا فزعا.. وسمع الجميع على الفور صراخا وصياحا وتكسيرا للأطباق والأكواب وأثاث المنزل.

وهناك قصة تلك البائعة في أحد المتاجر التي مارس كلينتون معها أفعالا فاضحة في سيارتها نصف النقل في منطقة نائية، كما يقول أحد حراسه.

ولا يزال القضاء الأمريكي ينظر القضية التي رفعتها امرأة تدعى (بولا جونز) ضد الرئيس كلينتون وتطالبه فيها بتعويض ضخم عن تحرشه الجنسي بها يوم ٨ مايو سنة ١٩٩١، في جناحه بفندق (إكسلسيور) في مدينة (ليتل روك)..

وقد رفض القضاء الأمريكي التخلي عن نظر الدعوى أو تأجيلها إلى ما بعد انتهاء فترة حكم كلينتون الثانية.. وأكد القاضي رئيس المحكمة التي تنظر دعوى التحرش الجنسي عدم تمتع الرئيس الأمريكي بأية حصانة ضد القضايا التي لا علاقة مباشرة لها بعمله كرئيس للولايات المتحدة. وأضافت المحكمة أن تهمة التحرش الجنسي الموجهة إلى كلينتون يجب التحقيق فيها مثل أي قضية أخرى مماثلة لعامة الناس.

ويؤكد أحد حراس كلينتون أن الرئيس دعا (بولا جونز) بالفعل إلى جناحه بعد ظهر اليوم المذكور.. وظن الحرس أنه لقاء غرامي بينهما على عادة كلينتون، ولكنهم فوجئوا بـــ (بولا) وهي تخرج مضطربة مرعوبة من جناح الرئيس، وظهر على وجهها الذهول والاضطراب، مما يؤكد أنها رفضت التحرش الجنسي الذي أرتكبه كلينتون.

وقد صدر كتاب حديث بعنوان (في أروقة الكونجرس) يتناول العشرات من الفضائح الجنسية التي أرتكبها نواب (موقرون) في الكونجرس الأمريكي العتيد!! فضلا عما لا يحصى من الجرائم والحوادث والفضائح اليومية التي تنشرها آلاف الصحف والمجلات وشبكات الإذاعة والتليفزيون في جميع أنحاء الغرب لنجوم السياسة والرياضة والفن وباقي المجالات.

هذا في أمريكا..

أما في فرنسا.. فقد عرفنا من قبل أن إحدى عشيقات الرئيس الفرنسي ميتران حضرت جنازته بجانب زوجته، ولم يقف الأمر عند عشيقة واحدة، بل فوجئت فرنسا والعالم بأسره بصحفية سويدية تدعى (كريستينا فورسن) تصدر كتابا عنوانه (قال لي فرانسوا) وفرانسوا المقصود هنا هو نفسه الرئيس ميتران، وتبين من صفحات الكتاب والصور المثيرة المنشورة بداخله أن وراءه قصة حب آثمة، وخيانة زوجية أخرى من الرئيس الفرنسي.

وحكت كريستينا قصتها مع ميتران منذ المقابلة الأولى بينهما في عام ١٩٧٩، عندما قدمها له رئيس وزراء السويد الراحل (أولوف بالم) على أنها صحفية شابة متحمسة تريد إجراء حوار صحفي معه، وكان عمره ضعف عمرها، لكن فارق السن الكبير لم يحل بين الاثنين، وتعلق هي على ذلك قائلة:(في هذه الأحوال تنسى الأسماء والأعمار والمناصب، ولا نذكر إلا الإحساس بالنشوة والانتعاش والسعادة في اللحظات الضائعة)

لم تشعر العشيقة – كريستينا – بأي خجل عندما ألحت لها الصحافة الفرنسية بأنها كانت شوكة فى قلب عائلة الرئيس ميتران..وردت قائلة:(لا عائلته ولا المحيط السياسي كله.. لا شيء من حوله يستطيع الهجوم علي، أو الانتقاص من وجودي، فقد كانوا لا يملكون ما أملكه.. فانسحبوا من أمامي بهدوء.. أدركوا أنني

بالنسبة له الحرية والنسمة التي يتنفسها بعيدا عن سجنه الذهبي وحياته العادية التقليدية المملة! لقد كنت أنا التي كسرت الملل الذي أصابه طوال حياته قبل أن يلقاني، وقد وجد بداخلي أسلوبا مستقلا في التفكير تجاه كل أمور حياته لم يتعوده من قبل)

وحكت كريستينا الكثير مما لم يكن يعلمه الناس عن ميتران.. كان لهما مترل خاص في الأدغال يتقابلان فيه بعيدا عن أعين الزوجة والحرس والصحافة، وكانا يهربان في الغابات بعيدا عن حرسه الخاص.

باختصار.. لم يكن ينقصهما سوى ورقة رسمية صغيرة تجعل العلاقة شرعية نظيفة، وتجعل ابنهما (رافن) ابنا شرعيا محترما في مجتمعه، لكنهما لم يفعلا.

وعن السياسي الفرنسي (جورج كلمنصو) كتب أنيس منصور يقول:(لم يكن غريبا أن يصدر فى فرنسا كتاب عن نمر السياسة الفرنسية ((جورج كلمنصو)) ١٨٤١ — ١٩٢٩ م.. هذا الرجل خاض معارك سياسية مخيفة، واستطاع أن يتغلب على الجميع، وكان قادرا على أن يتحدث إلى عشرين شخصا فى عشرين موضوعا في وقت واحد، ولم يكن أحد يتصور أن هذا الرجل كانت له ثمانمائة عشيقة، وكان له أربعون من الأبناء غير الشرعيين)[1]

وفي المقابل، ماذا فعل عندما خانته زوجته، يقول أنيس منصور:(لكن عندما علم أن زوجته الأمريكية خانته نهض عند منتصف الليل وفتح لها الباب لتهبط إلى الشارع بقميص النوم.. فكلمنصو ـــ مثل كل الذئاب البشرية ـــ من أكثر الناس احتكارا للمرأة، ولم يقل أحد في المرأة أسوأ ولا أبشع مما قاله هو، سواء على فراش اللهو أو على فراش المرض)

وفى النمسا كشفت الصحف عن فضيحة جنسية للرئيس (توماس كليستل) فقد تبن أن للرئيس عشيقة تعمل موظفة بوزارة الخارجية، وتمتد العلاقة بينهما إلى سنوات عمله وزيرا للخارجية قبل توليه الرئاسة.. وقد تسببت الفضيحة في مغادرة زوجته (أديت كليستل) المترل ومطالبتها بالطلاق.

وفي الأرجنتين تروى العلاقات الجنسية التي لا تحصى للرئيس الأرجنتيني (كارلوس منعم) وفضائحه تنشر يوميا في الصحف العالمية، ولم يردعه ذلك بالطبع. كما عجزت زوجته عن كبح جماحه فاضطرت إلى الانفصال عنه بعد خلافات طاحنة.

ومثل العالم الغربي الغارق في مستنقعات اللذة الآثمة، يحصل في العالم الشرقي.. ففى عام ١٩٩٤، أصدر الطبيب الصيني (لي زى سوى) كتابا مثيرا في الولايات المتحدة الأمريكية تحت عنوان (الحياة البربرية للزعيم ماو)، وقد كان هو الطبيب الخاص للزعيم (ماو تسى تونج) الحاكم المطلق لواحدة من أقوى دول العالم (كان ماو طاغية شيوعيا، لا راد لأوامره، ولا لرغباته ونزواته.. وكان ذئبا شرسا لا يشبع من الجنس، يبدل الفتيات كما يستبدل جواربه وأحذيته، يقيم الحفلات الصاخبة التي يرتبها مساعدوه خصيصا لمئات من الفتيات الصغيرات كي ينتقى منهن ما يهوى)

ويقول الطبيب المؤلف (إن الزعيم ماو كان يعتقد أن الجنس هو السبيل الوحيد لإطالة الحياة!! وكان

---

(١) عدد الأهرام ١٣ / ٩ / ١٩٧٩.

يعاني من العديد من الأمراض الجنسية المعدية، وكانت هوايته هي نقل العدوى لأكبر عدد ممكن من الفتيات الصينيات اللائي كن يتفاخرن بظهور أعراض المرض الجنسي لديهن بعد الخروج من غرفة نوم الزعيم.. فهذه كانت العلامة الوحيدة على أن الفتاة قد التقت فعلا بالزعيم الصيني)

قال سلمان ـــ وقد حاول أن يتملص من هذا الموقف ـــ: لو أن محمدا اكتفى بأن يكون زعيما أو رئيسا أو قائدا لقبل منه كل ذلك.. فهؤلاء لا علاقة لهم بالأخلاق، ولا علاقة للأخلاق بهم.. والبشر يعرفونهم.. فلذلك لا يتتلمذون عليهم في هذا الجانب.. ولكن محمدا ادعى النبوة.. والنبوة تقتضي الطهارة والعفاف[1].

قال الحكيم: إن ما تقوله هو نفس ما قاله اليهود حين أنكروا تعدد زوجات رسول الله ﷺ، فعن ابن عباس ﷺ قال: قال أهل الكتاب:(زعم محمد أنه أوتي ما أوتي في تواضع وله تسع نسوة وليس همه إلا النكاح، فأي ملك أفضل من هذا. فأنزل الله هذه الآية:﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾ (النساء:٥٤)[2]

وعن عطية قال: قالت اليهود للمسلمين:(تزعمون أن محمدا أوتي الدين في تواضع وعنده تسع نسوة، أي ملك أعظم من هذا؟ فأنزل الله الآية:﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾ (النساء:٥٤)[3]، يعني سبحانه ما آتى داود وسليمان ـــ عليهما السلام ـــ فقد تزوج كلاهما أكثر مما تزوج نبينا محمد ﷺ، وكان لكل منهما من الجواري ما لم يمتلك مثله رسولنا ﷺ.

فقد كان تعدد الزوجات معروفا في عهد إبراهيم عليه السلام وأنجبت له السيدة هاجر إسماعيل عليه السلام، بينما رزقه الله من سارة سيدنا إسحاق عليه السلام.

وجمع نبي الله يعقوب عليه السلام بين أختين — ابنتي خاله لابان — هما (ليا) و(راحيل)، وجاريتين لهما، فكانت له أربع حلائل في وقت واحد.

وأنجب عليه السلام منهما الأسباط، بالإضافة إلى سيدنا يوسف عليه السلام، وأمه هي (راحيل) التي كانت أحب زوجات النبي يعقوب عليه السلام إلى قلبه، وأنجبت له (بنيامين) بعد يوسف عليه السلام.

([1]) لعل القاسم المشترك بين جميع المبشرين ـــ مهما اختلفت مشاربهم ـــ هو استعمال مسألة التعدد وسيلة من وسائل حرب الإسلام، والدعوة إلى نبذه

وقد تحدث غوستاف لوبون في « حضارة العرب » عن موقف الأوروبيين عموما من تعـــدد الزوجـــات، فقال:« لا نذكر نظاماً اجتماعياً أنحى الأوروبيون عليه باللائمة كمبدأ تعـــدد الزوجات، كما أننا لا نذكـــر نظاماً أخطـــأ الأوروبيون في إدراكه كذلك المبـــدأ، فيرى أكثر مؤرخي أوروبا اتزاناً أن مبدأ تعدد الزوجات حجر الزاوية في الإسلام، وأنه سبب انتشار القرآن، وأنه علة انحطاط الشرقيين، ونشـــأ عن هذه المزاعـــم الغربية على العموم أصوات سخط ورحمة بأولئك البائسات المكدسات في دوائر الحريم فيراقبهن خصيان غلاظ، ويُقتلن حينما يكرههن سادتهن »

ثم أضاف مبينا رأيه في المسألة بعد إدراكه للواقع الإسلامي ومعايشته له:« ذلك الوصف مخالف للحق، وأرجو أن يثبت عند القارئ الذي يقرأ هـــذا الفصل بعد أن يطرح عنه أوهامه الأوروبية جانباً، أن مبـــدأ تعدد الزوجات الشرقي نظـــام طيب يرفع المستوى الأخـــلاقي في الأمم التي تقول به، ويزيد الأسرة ارتباطا ، ويمنـــح المرأة احتراماً وسعـــادة لا تراها في أوروبا)

([2]) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي.

([3]) رواه ابن المنذر.

وكانت لسيدنا داود عليه السلام عدة زوجات والعديد من الجواري، وزعموا أن سليمان عليه السلام تزوج بألف امرأة، سبعمائة منهن حرات من بنات السلاطين وثلثمائة جوار، بل زعموا أنه ارتد بإغوائهن في آخر عمره وبنى المعابد للأصنام، كما هو مصرح به في الباب الحادي عشر من سفر الملوك الأول.

يقول رحمة الله الهندي:(ولا يفهم من موضع من مواضع التوراة، حرمة التزوج بأزيد من امراة واحدة، ولو كان حراماً لصرح موسى عليه السلام بحرمته، كما صرح بسائر المحرمات وشدد في إظهار تحريمها، بل يفهم جوازه من مواضع. لأنك قد علمت أن الأبكار التي كانت من غنيمة المديانيين، كانت اثنتين وثلاثين ألفاً وقسمت على بني إسرائيل، سواء كانوا ذوي زوجات أو لم يكونوا، ولا يوجد فيه تخصيص العزب)

وفي الباب الحادي والعشرين من سفر الاستثناء هكذا:(وإذا خرجت إلى القتال مع أعدائك وأسلمهم الرب إلهك في يدك وسبيتهم ورأيت في جملة المسبيين امرأة حسنة وأحببتها، وأردت أن تتخذها لك امرأة، فأدخلها إلى بيتك وهي تحلق رأسها وتقص أظفارها، وتترع عنها الرداء الذي سبيت به وتجلس في بيتك وتبكي على أبيها وأمها مدة شهر ثم تدخل إليها وترقد معها ولتكن لك امرأة، فإن كانت بعد ذلك لا تهواها نفسك فسرحها حرة ولا تستطيع أن تبيعها بثمن ولا تقهرها أنك قد ذليتها، وإن كان لرجل امرأتان الواحدة محبوبة والأخرى مبغوضة ويكون لهما منه بنون وكان ابن المبغوضة بكراً، وأراد أن يقسم رزقه بين أولاده فلا يستطيع يعمل ابن المحبوبة بكراً ويقدمه على ابن المبغوضة، ولكنه يعرف ابن المبغوضة أنه هو البكر ويعيطه من كل ما كان له الضعف من أجل أنه هو أول بنيه ولهذا تجب البكورية)

قال سلمان: إن ما تذكره هو أحكام العهد القديم، والعبرة في المسيحية بالعهد الجديد وبرأي الكنيسة؟

قال الحكيم: لا يوجد نص صريح في أي من الأناجيل الأربعة يحظر تعدد الزوجات، وكل ما حدث هو أن تقاليد بعض الشعوب الأوروبية الوثنية كانت تمنع تعدد الزوجات، فلما اعتنقت هذه الأقلية التي تمنع التعدد المسيحية فرضت تقاليدها السابقة على المسيحيين، وبمرور الزمن ظن الناس أن تحريم التعدد هو من صلب المسيحية، بينما هو تقليد قديم فرضه البعض على الآخرين على مر السنين.

وأنا أتحداك بأن تأتيني بنص واحد على تحريم التعدد في أي إنجيل من الأربعة التي تمثل العهد الجديد.

أما العهد القديم ففيه نصوص صريحة على إباحة التعدد في دين الخليل إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وشريعة داود وسليمان، وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل.

يقول مصطفى السباعي:(ولم يرد في المسيحية نصٌّ صريح يمنع التعدد، وإنما ورد فيه على سبيل الموعظة أن الله خلق لكل رجل زوجته، وهذا لا يفيد –على أبعد الاحتمالات – إلاالترغيب بأن يقتصر الرجل في الأحوال العادية على زوجة واحدة، والإسلام يقول مثل هذا القول، ونحن لا ننكره، ولكن أين الدليل على أن زواج الرجل بزوجة ثانية مع بقاء زوجته الأولى في عصمته يعتبر زنـــا ويكون العقد باطلاً؟

ليس في الأناجيل نـــص على ذلك، بل في بعض رسائل بولـــس ما يفيد أن التعدد جائز، فقد قال:(يلزم أن يكون الأسقف زوجـــاً لزوجة واحدة) ففي إلـــزام الأسقف وحده بذلك دليل على جوازه لغيره.

وينقل أنه قد ثبت تاريخياً أن بين المسيحيين الأقدمين من كانوا يتزوجون أكثر من واحـــدة، وفي آباء

الكنيسة الأقدمين من كان لهـــم كثير من الزوجات، وقد كان في أقـــدم عصور المسيحية إباحة تعدد الزوجات في أحوال استثنائية وأمكنة مخصوصة.

قال وستر مارك Wester Mark العالم الثقة في تاريخ الزواج:(إن تعدد الزوجات ـــ باعتراف الكنيسة ـــ بقي إلى القرن السابع عشر، وكان يتكرر كثيراً في الحالات التي لا تحصيها الكنيسة والدولة)

ويقول أيضاً في كتابه المذكور:(إن ديار ماسدت ملك أيرلندة كان له زوجتان وسرِّيتـــان)

وتعددت زوجات الميروفنجيين غير مرة في القرون الوسطى، وكان لشرلمان زوجتان وكثير من السراري، كما يظهر من بعض قوانينه أن تعدد الزوجات لم يكن مجهولاً بين رجال الدين أنفسهم.

وبعد ذلك بزمن كان فيليب أوفاهيس، وفردريك وليام الثاني البروسي يبرمان عقد الزواج مع اثنتين بموافقة القساوسة اللوثريين، وأقر مارتن لوثر نفسه تصرف الأول منهما كما أقره ملانكنون.

وكان لوثر يتكلم في شتى المناسبات على تعدد الزوجات بغير اعتراض، فإنه لم يحرم بأمر من الله، ولم يكن إبراهيم ـــ وهو مثل المسيحي الصادق ـــ يحجم عنه إذ كان له زوجتان.. نعم إن الله أذن بذلك لأناس من رجال العهـــد القديم في ظروف خاصة ولكن المسيحي الذي يريد أن يقتدي بهم يحق له أن يفعل ذلك متى تيقن أن ظروفه تشبه تلك الظروف، فإن تعدد الزوجات على كل حال أفضل من الطلاق.

وفي سنة ١٦٥٠ ميلادية بعد صلح وستفاليا، وبعد أن تبين النقص في عدد السكان من جراء حروب الثلاثين، أصدر مجلس الفرنكيين بنورمبرج قراراً يجيز للرجل أن يجمع بين زوجتين.. بل ذهبت بعض الطوائف المسيحية إلى إيجاب تعدد الزوجات، ففي سنة ١٥٣١م نادى اللامعمدانيـــون في مونستر صراحة بأن المسيحي ـــ حـــق المسيحي ـــ ينبغي أن تكون له عدة زوجات، ويعتبر المورمون كما هو معلوم أن تعدد الزوجات نظام إلهي مقدس.

ويقول العقاد:(ومن المعلوم أن اقتنـــاء الســـراري كان مباحاً ـــ أي في المسيحية ـــ على إطلاقه كتعدد الزوجات، مع إباحة الرق جملة في البلاد الغربيـــة، لا يحده إلا ما كان يحد تعدد الزوجات، من ظروف المعيشة البيتية، ومن صعوبة جلب الرقيقات المقبولات للتسري من بلاد أجنبية، وربما نصح بعض الأئمة ـــ عند النصارى ـــ بالتسري لاجتناب الطلاق في حالة عقم الزوجة الشرعية.

ومن ذلك ما جـــاء في الفصل الخامس عشر من كتاب الزواج الأمثـــل للقديـــس أوغسطين، فإنه يفضل التجـــاء الزوج إلى التسري بدلاً من تطليق زوجته العقيم

وتشير موسوعة العقليين إلى ذلك، ثم تعود إلى الكلام عن تعدد الزوجات فتقول:(إن الفقـــيد الكبير جروتيوس دافع عن الآباء الأقدمين فيما أخذه بعـــض الناقدين المتأخرين عليهم من التزوج بأكثر من واحدة، لأنهم كانوا يتحرون الواجب، ولا يطلبون المتعة من الجمع بين الزوجات)

وقال جرجي زيدان:(فالنصرانية ليس فيها نص صريح يمنع أتباعها من التزوج بامرأتين فأكثر، ولو شاءوا لكان تعدد الزوجات جائزاً عندهم، ولكن رؤساءها القدماء وجدوا الاكتفاء بزوجة واحدة أقرب لحفظ نظـــام العائلة واتحادها، وكان ذلك شائعاً في الدولة الرومانية، فلم يعجزهم تأويل آيات الزواج حتى صار

التزوج بغير امرأة واحدة حراماً كما هو مشهور)

بل نرى المسيحية المعاصرة تعترف بالتعـــدد في أفريقيا السوداء، فقـــد وجدت الإرسالية التبشيرية نفسها أمام واقع اجتماعي وهو تعدد الزوجات لدى الافريقيين الوثنيين، ورأوا أن الإصرار على منع التعدد يحول بينهم وبين الدخول في النصرانية، فنادوا بوجوب السماح للافريقيين المسيحيين بالتعدد إلى غير حد محدود.

وقد ذكر السيد نورجيه مؤلف كتاب (الإسلام والنصرانية في أوساط أفريقية) هذه الحقيقة ثم قال:(فقد كان هؤلاء المرسلون يقـــولون: إنه ليس من السياسة أن نتدخل في شؤون الوثنيين الاجتماعية التي وجدناهم عليها، وليس من الكياسة أن نحرم عليهم التمتع بأزواجهم ما داموا نصارى يدينون بدين المسيح، بل لا ضرر من ذلك ما دامت التوراة وهي الكتاب الذي يجب على المسيحيين أن يجعلوه أســـاس دينهم تبيح هذا التعدد، فضلاً عن أن المسيح قد أقر ذلك في قوله (لا تظنوا أني جئت لأهدم بل لأتمم)[1]

بل أعلنت الكنيسة رسمياً السماح للأفريقيين النصارى بتعدد الزوجات إلى غير حدٍّ.

ظهر على سلمان كثير من الارتباك لكنه فر منه بقوله: لا بأس.. قد نقبل كل ما ذكرتم.. ولكن التعدد الذي قام به محمد مختلف تماما.. لقد قهر زوجاته قهرا.

ابتسم الحكيم، وقال: لاشك أنك محام؟

قال سلمان: لقد أخطأت في حدسك، أنا روائي، ولست محاميا.

قال الحكيم: فكيف عرفت أن نساءه قهرن قهرا.. عادة لا يعرف هذا إلا المحامون الذين يلجأ إليهم النساء ليخلصوهن من أزواجهن.

قال سلمان: التاريخ.. وحقائق التاريخ.. فهي أفصح من كل لسان.

قال الحكيم: ما دما التاريخ هو الحاكم.. أليس من الأجدر أن نبحث في تواريخ هؤلاء النسوة التي أثير كل هذا الشغب من أجلهن، فانبرى كل الناس يدافع عنهن.. يريد أن يخلصهن من حبيبهن.. لنرى مدى السعادة أو الشقاء الذي وجدنه صحبة رسول الله ﷺ لنحكم بعد ذلك.

قال سلمان، وقد فوجئ بجواب الحكيم الهادئ: ومن أين لنا أن نعرف تواريخ هؤلاء النسوة؟

قال الحكيم: ليس هناك في الدنيا شخصية عرفت جميع أسرارها.. بل عرف جميع أسرار المحيطين بها مثل رسول الله ﷺ..

إن كثيرا من الحكام لا نعرف حتى زوجاتهم.. فكيف بعشيقاتهم الكثيرات.. فكيف بغيرهن.. ولكن رسول الله ﷺ نعرف كل تفاصيل حياته.. بل نعرف كثيرا من تفاصيل المحيطين به.

لقد كان في إمكان محمد ﷺ.. بل كان في إمكان المقربين إليه أن يستروا تلك الحياة الخاصة التي عاشها رسول الله ﷺ.. ولكنهم لم يفعلوا.. وكان ذلك لسبب واحد، وهو أن حياة رسول الله ﷺ لا تحتضن إلا الكمال.

التفت الحكيم إلى مجموعة نسوة، ثم قال: لن أحدثك أنا.. فهؤلاء نسوة من أهل بلدنا.. كن مثلك..

---

(١) انظر: ص ٩٢-٩٨ من الكتاب المذكور.

مسيحيات متعصبات.. أو غارقات في أوحال المذاهب والفلسفات.. لكنهن ما إن رأين محمدا حتى أقبلن عليه بكل كيانهن.

لن أكلمك أنا.. بل سأدع الكلام لهن[1].

([1]) من المراجع التي تحدثت عن أمهات المؤمنين، والتي رجعنا إليها هنا: عائشة والسياسة – سعيد الأفغاني، شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول – محمد علي الصابوني، حقوق النساء في الإسلام – محمد رشيد رضا، الإسلام والمرأة – سعيد الأفغاني، أمهات المؤمنين – محمد أحمد برانق، صور من حياة الرسول – أمين دويدار، خديجة أم المؤمنين – عبد الحميد الزهراوي، المرأة صانعة الأبطال – د. نشأة ظبيان، نساء النبي – بنت الشاطئ، زوجات النبي الطاهرات– محمد محمود الصواف، المرأة في موكب الدعوة – مصطفى محمد الطحان.

بالإضافة إلى كتب السيرة المعروفة والتي تعودنا الرجوع إليها في هذه السلسلة.

وهذا سرد مختصر يعرف بأزواجه ﷺ:

أزواجه اللاتي توفين قبله ﷺ:

مات في حياة رسول الله ﷺ ست زوجات، هن:

خديجة بنت خويلد: وهي أول نسائه تزوجها قبل النبوة وعمره خمس وعشرون سنة وهي أم أولاده ما عدا إبراهيم فإنه من مارية القبطية، ولم يتزج عليها حتى ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين، وهي أول من آمن من النساء بالله وبرسوله، وكانت حكيمة تقدر الأمور حق قدرها وتبذل من العطاء ما فيه إرضاء لله ولرسوله ﷺ، وبذلك استحقت أن يبلغها جبريل من ربها السلام ويبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

زينب بنت خزيمة الهلالية: ولم تلبث عند رسول الله ﷺ إلا يسيراً، شهرين أو ثلاثة، حتى توفيت في حياته ﷺ، وكانت تسمى أم المساكين، لرحمتها إياهم ورقتها عليهم، كانت تحت عبد اللَّه بن جحش، فاستشهد في أحد، فتزوجها رسول اللَّه ﷺ سنة ٤هـــ.

سبا بنت الصَّلت أو سناء بنت الصَّلت: ماتت قبل أن يدخل بها.

أساف أو شراف أخت دحية الكلبي: ماتت قبل أن تصل إليه.

خولة بنت الهُذيل: ماتت قبل أن يدخل بها وقد وهبت نفسها له.

خولة بنت حكيم السلمية: ماتت قبل أن يدخل بها، وقد وهبت نفسها للنبي ﷺ وكانت تخدمه وكانت صالحة فاضلة.

أزواجه اللاتي مات عنهن:

عائشة بنت الصِدِّيق: تزوجها بعد موت خديجة بسنتين أو ثلاث بمكة بعد زواجه بسودة بسنة، وقبل الهجرة بسنتين وخمسة أشهر، وبنى بها في شوال بعد الهجرة بسبعة أشهر في المدينة، وكانت بكراً، ولم يتزوج بكراً غيرها، وكانت وفاتها سنة ٥٧ من الهجرة، ولم يتزوج بكراً غيرها.

سودة بنت زُمعة: تزوجها رسول اللَّه ﷺ في شوال سنة عشر من النبوة، بعد وفاة خديجة بأيام، وكانت قبله عند ابن عم لها يقال له السكران بن عمرو فمات عنها، توفيت في آخر زمان عمر بن الخطاب.

حفصة بنت عمر بن الخطاب: تزوجها بالمدينة بعد سودة، بعد أن تأيمت من زوجها خنيس بن حذافة السهمي بين بدر وأحد، فتزوجها رسول اللَّه ﷺ سنة ٣هـــ، وكانت من المهاجرات ولدت قبل البعثة بخمسة سنين.

أم حبيبة بنت أبي سفيان: واسمها رملة، كانت تحت عبيد اللَّه بن جحش، وهاجرت معه إلى الحبشة، فارتد عبيد اللَّه وتنصر وتوفي هناك، وثبتت أم حبيبة على دينها وهجرتها،فلما بعث رسول اللَّه ﷺ عمرو بن أمية الضمري بكتابه إلى النجاشي في المحرم سنة ٧هـــ. خطب عليه أم حبيبة فزوجها إياه، توفيت سنة أربعة وأربعين.

أم سَلَمَة: هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزوميَّة،، كانت تحت أبي سلمة، فمات عنها في جمادى الأخرى سنة ٤هـــ فتزوجها رسول اللَّه ﷺ في شوال من نفس السنة.

ميمونة بنت الحارث: بدأ به ﷺ المرض في بيتها، وقد قيل إنها من اللائي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ، وكانت آخر نسائه موتاً.

١ ــ خديجة

وقفت امرأة من النساء، قد بدأت آثار العمر المتقدم تبدو عليها، ولكن وجهها ظل محتفظا بأنوار وقورة جعلتها تبز بجمالها الجميلات، وقالت: سأبدأ أنا.. فأنا أكبركن سنا.. وأقدمكن إسلاما.. واسمي يوافق اسم تلك المرأة الطاهرة (خديجة بنت خويلد) أولى زوجات النبي ﷺ.. فهي المرأة الفاضلة التي طرقت بها أبواب محمد ﷺ.. وبها تنعمت بأشعة شمسه التي لا تكسف.

لقد درست بعمق سيرة رسول الله ﷺ مع خديجة ــ رضي الله عنها ــ بعد أن اكتويت بنيران الرجال الذين امتلأوا غرورا وخداعا.. فلم أر في رسول الله ﷺ إلا المحبة والوفاء والصدق والإخلاص.

لن أحدثكم عن نفسي.. فلن تحتاجوا إلى الحديث عن نفسي.. ولكني سأحدثكم عنها.. فهي خير من حدث عن نفسها.. وهي خير من عبر عن نفسي:

هي خديجة بنت خويلد.. وقد كانت من أوسط قريش نسبا، وأعظمهن شرفا، وأحرصهن على التزام جانب الأمانة، والاحتفاظ بالعفة والكرامة.

كان لها مال كثير، ولها تجارة واسعة ترسلها إلى أسواق العرب مع ما ترسله قريش من قوافلها، وكانت ــ لثرائها ــ تعدل قافلتها أحيانا قوافل قريش بأجمعها.

بدأت قصتها مع رسول الله ﷺ في كهولتنا، وفي شبابه ﷺ.. وذلك حينما اختارته ليخرج في تجارتها إلى الشام [1]..

صفية بنت حُيَيّ بن أخطب: من سبي بني النَّضير، اصطفاها ﷺ وأعتقها، ثم تزوجها بعد فتح خيبر سنة ٧هـــ، وكانت عاقلة حليمة فاضلة توفيت في رمضان سنة خمسين هجرية.

جويرية بنت الحارث: من بني المصطلق، كان اسمها برَّة فسمّاها النبي ﷺ جويرية، كانت أبرك امرأة على قومها لأنها عندما تزوجت النبي ﷺ تسامع الناس بذلك فأطلق المسلمون ما في أيديهم من السَّبي، تزوجها ﷺ في شعبان سنة ٦هـــ.

زينب بنت جحش: كانت ممن أسلم قديماً وهاجرت مع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وهي بنت عمة رسول اللَّه ﷺ، وكانت تحت زيد بن حارثة، وفيها نزلت من سورة الأحزاب آيات فصلت قضية التبني، تزوجها رسول اللَّه ﷺ في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة.

فهؤلاء هن زوجاته ﷺ، أما **السراري** فالمعروف أنه تسري باثنتين إحداهما مارية القبطية، أهداها له المقوقس فأولدها ابنه إبراهيم، الذي توفى صغيراً بالمدينة في حياته ﷺ، في ٢٨/أو ٢٩ من شهر شوال سنة ١٠هـــ وفق ٢٧ يناير سنة ٦٣٢م. والسرية الثانية هي ريحانة بنت زيد النضرية أو القرظية، كانت من سبايا قريظة، فاصطفاها لنفسه، وقيل بل هي من أزواجه ﷺ، أعتقها فتزوجها، والقول الأول رجحه ابن القيم، وزاد أبو عبيدة اثنتين أخريين، جميلة أصابها في بعض السبي، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش.

([1]) هناك من ذكر سببا آخر لتعرفها ــ رضي الله عنها ــ عليه ﷺ، ثم زواجها منه، وهو ما رواه أحمد برجال الصحيح عن ابن عباس، والبزار والطبراني برجال ثقات أكثرهم رجال الصحيح عن جابر بن سمرة والبزار والطبراني بسند ضعيف عن عمار بن ياسر، والبزار والطبراني بسند ضعيف عن عمران بن حصين، قال جابر: إن رسول الله – ﷺ – كان يرعي غنما، فاستعلى الغنم فكان يرعى الابل هو وشريك له، فأكريا أخت خديجة، فلما قضوا السفر بقي لهما عليها شئ، فجعل شريكه يأتيها، فيتقاضيا، ويقول لمحمد: انطلق، فيقول: اذهب أنت، فإني أستحي.

سأدع مؤرخو سيرة رسول الله ﷺ يقصون علينا حديثها.. والأسس التي جعلتها ترغب في رسول الله ﷺ.. بل تشتد رغبتها فيه.

فقد ذكروا أن خديجة كانت تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قوما تجارا ؛ فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام.

وقد رأى هذا الغلام من رسول الله ﷺ عجائب حكاها لها بعد ذلك.. فازدادت رغبتها.. منها أنه ﷺ نزل في ظل شجرة قريبا من صومعة راهب من الرهبان، فاطلع الراهب إلى ميسرة، فقال له: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ قال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم ؛ فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي.

ثم باع رسول الله ﷺ سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد أن يشتري ثم أقبل قافلا إلى مكة ومعه ميسرة.

فكان ميسرة ــ كما يذكر ابن إسحق ــ إذا كانت الهاجرة واشتد الحر، يرى ملكين يظلانه من الشمس، وهو يسير على بعيره..

فلما قدم مكة على خديجة بمالها، باعت ما جاء به فأضعف أو قريبا.

وحكى ميسرة لها ما رآه منه من عجائب، فذهبت إلى قريب لها يقال له ورقة بن نوفل.. وكان نصرانيا.. وكان يعلم نبأ النبي الموعود الذي كان ينتظره أحبار الأرض ورهبانها.. وحكت له ما ذكره لها غلامها، فقال ورقة: لئن كان هذا حقا يا خديجة، فإن محمدا لنبي هذه الأمة، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر هذا زمانه، ثم أخذ يذكر أشواقه إلى هذا النبي الموعود ويقول:

لجحت وكنت في الذكرى لجوجا ... لهم طالما بعث النشيجا

ووصف من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظاري يا خديجا

ببطن المكتين على رجائي ... حديثك أن أرى منه خروجا

بما خبرتنا من قول قس ... من الرهبان أكره أن يعوجا

بأن محمدا سيسود فينا ... ويخصم من يكون له حجيجا

ويظهر في البلاد ضياء نور ... يقيم به البرية أن تموجا

فقالت مرة وأتاهم شريكه، فقالت: أين محمد؟ قال: قد قلت فزعم أنه يستحي، فقالت: ما رأيت رجلا أشد حياء، ولا أعف ولا ولا، فوقع في نفس أختها خديجة، فبعثت إليه، فقالت: ائت أبي فاخطبني، قال: إن أباك رجل كثير المال، وهو لا يفعل.

وفي بعض روايات الحديث الضعفية كلام أعرضنا عنه يتهم خديجة ــ رضي الله عنها ــ بأنها احتالت على أبيها حتى يزوجها رسول الله ﷺ.

فيلقى من يحاربه خسارا ويلقى من يسالمه فلوجا

فيا ليتي إذا ما كان ذاكم شهدت فكنت أولهم ولوجا

في الذي كرهت قريش ولو عجت بمكتها عجيجا

أرجي بالذي كرهوا جميعا إلى ذي العرش إن سفلوا عروجا

وهل أمر السفالة غير كفر بمن يختار من سمك البروجا

فإن يبقوا وأبق تكن أمور يضج الكافرون لها ضجيجا

وإن أهلك فكل فتى سيلقى من الأقدار متلفة حروجا

لقد ملأها هذا الحديث بأشواق عظيمة لهذا النبي الموعود، ولمحمد.. فقد ارتبط محمد في ذهنها بالنبي الموعود.. أو ارتبط النبي الموعود بمحمد.

ولعلها تذكرت في ذلك الحين ما روي أن نساء أهل مكة احتفلن في عيد كان لهن في رجب، فلم يتركن شيئا من إكبار ذلك العيد إلا أتينه، فبينما هن في عيدهن تمثل لهن رجل، فلما صار منهن قريبا نادى بأعلى صوته: يا نساء مكة إنه سيكون في بلدكن نبي يقال له أحمد، يبعث برسالة الله، فأيما إمرأة أستطاعت أن تكون له زوجا فلتفعل.

فحصبته النساء وقبحنه وأغلظن له، وأغضت خديجة على قوله، و لم تعرض له فيما عرض فيه النساء [1].

لهذا ولغيره.. سارعت خديجة تذكر لمحمد ﷺ نفسها، وتقول له: يا ابن عم.. إني قد رغبت فيك لقرابتك، وسطتك في قومك، وأمانتك وحسن خلقك، وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها.

فلما قالت ذلك لرسول الله ﷺ ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على أبيها خويلد بن أسد، فخطبها إليه فتزوجها..

نظرت إلى الجمع المحيط بها، ثم قالت: ألا ترون ــ حضرة الجمع ــ أن خديجة هي التي رغبت في رسول الله ﷺ، وهي التي طلبته لنفسها.. وقد كان عمرها حينذاك أربعين سنة، بينما هو لا يزال شابا لم يتجاوز خمسا وعشرين.. وكان في إمكانه حينها أن يتزوج بمن يشاء.. لكنه لم يفعل، و لم يرد هذه المرأة الصالحة التي طلبته.. فقد كان طبعه ﷺ يأبى أن يرفض القلوب التي تطلبه، وتتوجه إليه.. وسترون أن هذا سر من أسرار تعدد زواجه ﷺ !؟

قال سلمان: ألا يمكن أن يكون محمد قد تزوجها طمعا في مالها، فقد علمت أنه كان قبل أن يتاجر في مالها، ثم يتزوج بها يشتغل في رعي الغنم.. فقد حدث أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:(ما بعث الله نبيا إلا راعي غنم)، فقال له أصحابه وأنت يارسول الله؟ قال:(وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط)[2]

---

(١) رواه ابن سعد.

(٢) رواه البخاري.

ابتسمت، وقالت: إن ما ذكرته يستدعي من العاقل الحكيم أن يدرس حياة رسول الله ﷺ معها، وكيف كانت.. وهل أثرى رسول الله ﷺ بسببها، أم لا.. لتعرف جواب سؤالك؟

قال سلمان: فما الذي جعله يتزوج بها؟

قالت: أولا.. هو تزوجها كما يتزوج كل رجل أي امرأة.. فهو في العادة إما أن يطلبها رغبة منه فيها، أو تطلبه هي، فيصادف رغبة من نفسه، فيتزوجها، وحين تتوفر الرغبة والرضى التام لا يهمه بعد ذلك غناها أو فقرها.

وهذا ما حصل مع رسول الله ﷺ كما تدل الأخبار بدقة.. وهل ترى من الحكمة أن يرسل رسول الله ﷺ ليقول لخديجة: لا.. لن أقبل الزواج بك، لأنك غنية، وأخاف أن يتهمني الناس بأني تزوجتك لغناك.

إن هذا لا يستقيم.. ولو فرضنا أنه قال ذلك لأقمتم الدنيا، و لم تقعدوها، ولقلتم حينها: هذا دين يحارب الأغنياء.. أو هذا نبي يمتلئ بالعقد من الأغنياء..

هذا أولا.. وهو كلام نوجهه لمن يتصور رسول الله ﷺ بشرا كالبشر، لم يهيأ لوظيفة خطيرة.. بل أخطر الوظائف على الأطلاق.

أما الذي يؤمن بهذا، فهو يعرف أن حياة رسول الله ﷺ ليست كحياة سائر الناس، فهي مضبوطة بدقة محكمة لا يمكن تصور حدودها..

إن حياة رسول الله ﷺ، وما حدث له فيها من أحداث، وما مر به من علاقات.. كل ذلك كان مخططا له بدقة من طرف الحكيم الخبير.

لقد أريد من محمد ﷺ أن يكون نموذجا للإنسان الكامل، فهو النبي الخاتم، ولابد لمثل هذه الوظيفة التي هي أخطر الوظيفة أن يكون كل ما يرتبط بها محكما غاية الإحكام.

ولهذا.. فقد كان رسول الله ﷺ في هذه السن، وفي المرحلة التي ترتبط بنشأة الرسالة محتاجا إلى صدر حنون يلجأ إليه يكون له كالأم الرؤوم.. وقد كانت خديجة بما أوتيت من حنان ورحمة ولطف مثالا عاليا لهذا الصدر:

قبل البعثة، كان محمد ﷺ بعيدا عن ترهات قومه، فقد حبب إليه الخلاء، فكان يأخذ السويق والماء، ويذهب إلى غار حراء يتحنث.

وكانت خديجة تؤمّن له الهدوء الشامل، والاستقرار الكامل، تأخذ له الطعام إلى الغار إذا أبطأ عنها.. وتكلأه بحبها إذا حضر إليها، كانت مقتنعة بتصرفاته.. مدركة بفطرتها السليمة أن لزوجها شأنا عظيما.

وعند البعثة، عندما جاء الوحي إلى رسول الله ﷺ.. و لم يكن يعلم بالوحي.. وخاف على نفسه، قالت له خديجة:(كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. أبشر يا ابن عم، واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة)

إن هذا الموقف في حياة النبي ﷺ لم يكن يصلح له إلا خديجة.. فلذلك لم تكن له زوجة في ذلك الحين إلا

خديجة.

و لم تكتف هذه الزوجة الحنون العاقلة بما قالت، بل ذهبت به إلى قريبها ورقة بن نوفل.. لتقول له: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال ورقة:(هذا هو الناموس الأكبر نزّله الله على موسى، ليتني فيها جَذَعًا أنصرك حين يخرجك قومك، ولئن أدركني يومك لأنصرنك نصرا مؤزرا)

وقد روي أنها ــ لعقلها وحكمتها ــ اختبرت ما يأتي لرسول الله ﷺ هل هو وحي أو شيطان.

فقد حدث أن إسحق بسنده أن خديجة ــ رضي الله عنها ــ قالت لرسول الله ﷺ:(أي ابن عم أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم، قالت: فإذا جاءك فأخبرني به، فجاءه جبريل ــ عليه السلام ــ كما كان يصنع، فقال رسول الله ﷺ لخديجة: يا خديجة هذا جبريل قد جاءني، قالت: قم يا ابن عم، فاجلس على فخذي اليسرى ؛ فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها، قالت هل تراه؟ قال: نعم قالت: فتحول فاجلس على فخذي اليمنى ؛ قالت: فتحول رسول الله ﷺ فجلس على فخذها اليمنى، فقالت: هل تراه؟ قال: نعم. قالت: فتحول فاجلس في حجري، قالت: فتحول رسول الله ﷺ فجلس في حجرها. قالت: هل تراه؟ قال: نعم قال: فتحسرت، وألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس في حجرها، ثم قالت له: هل تراه؟ قال: لا، قالت: يا ابن عم، اثبت، وأبشر، فوالله إنه لملك وما هذا بشيطان.

منذ ذلك الحين الذي عرف فيه رسول الله ﷺ ضخم المسؤولية التي أنيطت به، ومنذ نزل قوله تعالى:﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً) (المزمل:٥)، وخديجة معه تؤازره بكل ما أطاقت أن تؤازره به.

يقول ابن إسحق:(وآمنت به خديجة بنت خويلد، وصدقت بما جاءه من الله ووازرته على أمره، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله وصدق بما جاء منه، فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ لا يسمع شيئا مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عليه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس رحمها الله تعالى)

وقد حدث عن بعض أهل العلم:(أن الصلاة حين افترضت على رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقبه في ناحية الوادي، فانفجرت منه عين فتوضأ جبريل ــ عليه السلام ــ ورسول الله ﷺ ينظر إليه ليريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله ﷺ لى كما رأى جبريل توضأ ثم قام به جبريل فصلى به وصلى رسول الله ﷺ بصلاته ثم انصرف جبريل ﷺ، فجاء رسول الله ﷺ خديجة، فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل فتوضأت كما توضأ لها رسول الله ﷺ ثم صلى بها رسول الله ﷺ كما صلى به جبريل فصلت بصلاته)

وفي الحصار الاقتصادي الذي فرضته قريش على المسلمين، تركت خديجة دارها، وانتقلت مع زوجها رسول الله ﷺ إلى شعب أبي طالب، تقاسي ما يقاسي زوجها وما يقاسي أتباعه معه، و لم تتوان رغم تجاوزها الستين في أن تقوم لمحمد ﷺ بما كانت تقوم له من قبل، فظلت هي هي المواسية المشجعة المؤازرة وزير الصدق الذي عاون محمدا ﷺ، وأخذ بيده.

ليس هذا فقط.. بل وكانت تدبر أمر إيصال الطعام إلى الشعب المحاصر، وتشرف بنفسها على توزيعه على المحاصرين.

لقد مكث المسلمون ثلاث سنوات طوال محاصرين في الشعب، حتى اشتد بهم البلاء وبلغ منهم الجهد، فأكلوا ورق الشجر وسُمع صراخ أطفالهم من بعيد..

ألا ترون ـــ حضرة الجمع المبارك ـــ مقدار العناء الذي عانته معه ﷺ!؟

هل ترون مثل هذه المرأة يمكنها ـــ وهي من هي في مرتبتها بين قومها، وفي غناها ـــ تصبر على هذا البلاء إذا لم تكن موقنة بصدق زوجها الذي تعرفه كل المعرفة!؟

ولهذا، فقد أخبر ﷺ عن الجزاء العظيم المعد لها، ففي الحديث أن جبريل أتى النبي ﷺ، فقال: (يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب[1].. لا صخب[2] فيه ولا نصب[3])[4]

وفي رواية عندما بلغها النبي ﷺ السلام من ربها جل وعلا ومن جبريل قالت: (هو السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام، وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته)

لقد كانت هذه البشارة متناسبة تماما مع ذلك العناء العظيم الذي كانت تعاني هذه المرأة الفاضلة التي بقيت وفية للرسالة التي تحملتها مع رسول الله ﷺ إلى أن توفاها الله تعالى، وكان لها من العمر خمسا وستين سنة[5].

وقد حفظ رسول الله ﷺ لها ذلك الدور العظيم الذي قامت به، بل ظل حزنه عليها إلى آخر عمره، وقد سمى العام الذي توفيت فيه عام الحزن.

هل ترون وفاء أعظم من هذا الوفاء؟

وبعد أن رزقه الله غيرها من الزوجات.. وكن أصغر منها سنا.. لم ينسها، بل ظل يذكرها إلى أن جلب غيرتهن:

فعن عائشة قالت: ما غرت على نساء النبي، إلا على خديجة، وإني لم أدركها. قالت: وكان رسول الله ﷺ، إذا ذبح الشاة يقول: (أرسلوا بها إلى صدائق خديجة)، قالت: فأغضبته يوما، فقلت: خديجة، فقال رسول

---

(١) اللؤلؤ المجوف المنظوم بالدر والياقوت.
(٢) الصياح.
(٣) التعب.
(٤) رواه البخاري ومسلم.
(٥) اختلف في سنة وفاتها، قال ابن عبد البر: قيل: توفيت قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل: بأربع سنين، وقال قتادة: تؤفيت خديجة قبل الهجرة بثلاث سنين.
وقال: ويقال كانت وفاتها بعد موت أبي طالب بثلاثة أيام (الإستيعا ب ٢٨٩ / ٤)
وقد دفنت في الحجون، ونزل رسول الله ﷺ حفرتها، ولم تكن شرعت الصلاة على الجنائز بعد (الطبقات: ١٨ / ٧، الإصابة: ٦٢ / ٨)

الله ﷺ: (إني رزقت حبها)[1]

وقالت: كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة، فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوما من الأيام فأدركتني الغيرة، فقلت: هل كانت إلا عجوزا، فقد أبدلك الله خيرا منها، فغضب، ثم قال: لا والله ما أبدلني الله خيرا منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني في مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها أولادا إذ حرمني أولاد النساء، قالت عائشة: فقلت في نفسي لا أذكرها بسيئة أبدا[2].

وقالت: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة وتذكره، فارتاع لذلك، فقال: (اللهم هالة بنت خويلد)، فغرت، فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين[3] هلكت في الدهر، فأبدلك الله خيرا منها، فغضب النبي ﷺ حتى قالت له: لا أذكرها بعد هذا إلا بخير.

وفي حديث آخر روته عائشة، رضي الله عنها، قالت: جاءت عجوز إلى النبي ﷺ، وهو عندي، فقال لها رسول الله ﷺ: من أنت؟ قالت: أنا جثامة المزنية فقال: بل أنت حسانة المزنية، كيف كنتم؟ كيف حالكم؟ كيف أنتم بعدنا؟ قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فلما خرجت قلت: يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال فقال:(إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان)[4]

هل هناك وفاء أعظم من هذا الوفاء.. الرسول يعبر بكل رقة عن حبه لها، وهي ميتة.. ولا ينسى — وفاء لها — أن يحسن لكل من له علاقة بها، بل يغضب زوجه الصغيرة البكر لأجلها.

ليس ذلك فقط.. بل إن النبي ﷺ اعتبرها من سيدات نساء العالمين، فقال: (خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد، وأشار الراوي إلى السماء والأرض)[5]

وفي حديث آخر، قال النبي ﷺ:(حسبك من نساء العالمين: مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون)[6]

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أحمد واسناده حسن (الزوائد ٢٢٤ / ٩) وابن عبد البر (الإستيعاب ٢٨٧ / ٤)
(٣) حمراء الشدقين: أي سقطت أسنانها وبقيت حمرة اللثاث.

(٤) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين على الاحتجاج برواته في أحاديث كثيرة وليس له علة، الحاكم:٦٢/١، أحمد: ١٣٤/١، المعجم الكبير:١٤/٢٣، شعب الإيمان:٥١٧/٦.
(٥) رواه البخاري ومسلم.
(٦) رواه الترمذي بسند صحيح والنسائي والحاكم.

٢ ــ عائشة

سكتت خديجة، فقامت امرأة شابة ــ تمتلئ نشاطا وجمالا وحياة ــ وقالت: أما أنا فعائشة.. وسأحدثكم عن عائشة.. تلك المرأة الطاهرة العالمة التي تشرفت بخير زواج في الدنيا.. وظفرت بخير حبيب فيها.

لقد كانت عائشة بابي إلى محمد ﷺ.. وقد فهمت من سلوكها الإسلام بجميع معانيه.. ورددت ــ بمواقفها الجريئة ــ على جميع التهم التي يكيلها المغرضون لمحمد ودين محمد.

سأبدأ من حيث انتهت أختي الفاضلة خديجة، فبعد أن توفيت أمنا خديجة ــ رضي الله عنها ــ وحزن النبي ﷺ كل ذلك الحزن.. جاءته امرأة مؤمنة من الصالحات، وهي خولة بنت حكيم ــ رضي الله عنها ــ وقد آلمها ما كان عليه رسول الله ﷺ من الضيق الذي مارسه معه المشركون، ثم مع ذلك لم يكن له في بيته من يأوي إليه ليمحو عنه بعض آثار تلك الآلام، وقالت له: يا رسول الله.. ألا تتزوّج؟ فقال ﷺ: ومن؟ قالت: إن شئت بكرا، وإن شئت ثيبا، فقال ﷺ: فمن البكر؟ قالت: ابنة أحب خلق الله إليك عائشة بنت أبي بكر، فقال ﷺ: فمن الثيب؟ قالت: سودة بنت زمعة، فقال ﷺ: فاذهبي فاذكريهما عليّ.

فجاءت فدخلت بيت أبي بكر، فوجدت أم رومان أم عائشة ــ رضي الله عنهما ــ فقالت: يا أم رومان ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة! أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة، قالت: وددت، انتظري أبا بكر، فإنه آت، فجاء أبوبكر فقالت: يا أبا بكر ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة! أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة، فقال: هل تصلح له؟ إنما هي بنت أخيه، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال: ارجعي إليه، فقولي: أنت أخي في الإسلام، وأنا أخوك، وابنتك تصلح لي، فأتت أبا بكر فقال: ادعي لي رسول الله ﷺ فجاء فزوجه.

وقد روي أن عائشة كانت في ذلك الحين قد خطبت (لجبير بن المطعم بن عدي).. وكان لا زال كافرا.. وكان أبو بكر قد وعده.. فلما طلبها رسول الله ﷺ ذهب أبو بكر إلى المطعم ليكلمه بشأن هذه الخطبة فوجد عنده امرأته (أم جبير)، فبادرت أبا بكر، وقالت: لعلنا إن أنكحنا هذا الفتى تصبيه، فيرتد عن دينه، وتدخله في دينك الذي أنت عليه، فأقبل أبو بكر على المطعم، وقال له: ماذا تقول أنت؟ فقال: إنها لتقول ما تسمع.

فخرج من عنده، واعتبر هذا الكلام يحلّه من وعده السابق.. فدعا إليه النبي ﷺ وزوجه عائشة.

قال سلمان، وكأنه قد ظفر بنقطة الضعف التي ظل يبحث عنها: فكم كان عمر عائشة في ذلك الحين يا عائشة؟

قالت: ليس هناك نص قطعي متواتر يمكن اللجوء إليه في هذا الباب، والتواريخ التي تذكر في كتب السير عادة لا يكون لها من الدقة ما يمكن الاعتماد عليه.

ولكن المعتمد هو أن عائشة ــ رضي الله عنها ــ كانت في ذلك الحين قد وصلت إلى سن يسمح لها بالزواج بدليل أنها خطبت لرجل آخر قبل النبي ﷺ، وأن خولة رأتها أهلا للزواج، فلذلك عرضتها على النبي

ﷺ.

بالإضافة إلى أن بيئة الجزيرة تنضج فيها الفتاة في وقت مبكر خلافا لبيئة أوروبا التي عليها تقيسون، ففي المناطق الحارّة يكون النضج مبكّرا جداً، وهو في سنّ الثامنة عادة، وتتأخّر الفتاة في المناطق الباردة إلى سنّ الواحد والعشرين كما يحدث ذلك في بعض البلاد الباردة.

وقد أدرك ذلك المستشرق بودلي بعدما زار الجزيرة العربية، فعاد من زيارته يقول: (كانت عائشة على صغر سنها نامية ذلك النمو السريع الذي تنموه نساء العرب، ومثل هذا الزواج مازال عادة آسيوية، وشرق أوروبية، وكذلك كان طبيعيا في إسبانيا والبرتغال حتى سنين قليلة)[1]

بالإضافة إلى أنّ قريشا التي كانت تتربّص بالرسول ﷺ الدوائر لتأليب الناس عليه من فجوة أو هفوة أو زلّة، لم تُدهش حين أُعلن نبأ المصاهرة بين أعزّ صاحبين وأوفى صديقين، بل استقبلته كما تستقبل أيّ أمر طبيعي.

زيادة على أن السيدة عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ لم تكن أول شابة تُزفّ في تلك البيئة إلى رجل في سنّ أبيها، ولن تكون كذلك أُخراهنّ.. فقد تزوّج عبد المطلب الشيخ من هالة بنت عمّ آمنة في اليوم الذي تزوّج فيه عبد الله أصغر أبنائه من شابة هي في سنّ هالة، وهي آمنة بنت وهب.

ثمّ إن عمر بن الخطّاب تزوج من بنت علي بن أبي طالب، وهو في سنّ جدّها، كما أنّ عمر عرض ابنته الشابة حفصة على أبي بكر الصدّيق وبينهما من فارق السنّ مثل الذي بين الرسول ﷺ وعائشة.

بل إن الرسول ﷺ زوج بنتين من بناته لعثمان، ولو كان في ذلك أي حرج في الشرع أو في العرف لما فعل.

شيء آخر يرد على الأراجيف التي يذكرها المرجفون الذين لم يعرفوا رسول الله ﷺ، ولم يعرفوا مسيرة حياته المملوءة بالطهر والعفاف.

إنهم يعتبرون العلة في زواجه هي الشهوات والغرائز.. ومع أن هذا في الإسلام لا يعتبر قادحا في الزواج إلا أنه لا يمكن أن يصح بحال من الأحوال مع رسول الله ﷺ.

فالمطالع لسيرة رسول الله ﷺ ـــ في جميع مظاهرها ـــ يراه بعيدا كل البعد عن زخرف الحياة الدنيا، وزينتها منفذا ما أمره الله تعالى به من قوله : ﴿ وَلا تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) (طـه: ١٣١)

وقد كان هذا الخلق مرتبطا بحياته جميعا قبل البعثة وبعدها..

فلو كان ﷺ قبل البعثة مهتما بالشهوات كبقية أقرانه من الشباب لتزوج في بداية شبابه بمن هي أقل من خديجة سناً، أو بمن ليست أكبر منه على أقل تقدير.

ولكن النبي ﷺ ظل مع خديجة وفيا لها محبا لها إلى أن ماتت، وقد بلغت خمسة وستين عاماً.. بينما لم يجاوز النبي ﷺ الخمسين من عمره.

([1]) نساء النبي – بنت الشاطئ، ص– ٨٩.

وفي كل تلك الفترة التي ظل معها، وهي خمسا وعشرين سنة ـــ وهي الزمن الذى تتحرك فيه رغبة الإستزادة من النساء، والميل الى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية ـــ لم يفكر رسول الله ﷺ بأن يضم الى خديجة مثلها من النساء زوجة أو أمة.. ولو شاء لوجد الزوجة، والكثير من الإماء، دون أن يخرق بذلك عرفاً، أو يخرج عن مألوف أو عرف بين الناس، وذلك رغم أنه تزوج خديجة وهى أيّم، وكانت تكبره بما يقارب مثل عمره[1].

أفيمكن لمثل هذا أن يرمى بمثل هذه الأراجيف؟

ثم.. أتدرون من هي المرأة التي تزوجها رسول الله ﷺ في نفس الوقت التي تزوج عائشة؟

سكت الجمع، فقالت: إنها سودة.. ستحدثكم أختي سودة الحاضرة معنا عنها.. ولكن هل تعلمون كم كان سنها حينذاك؟.. لقد كانت امرأة مسنة في نحو ست وستين سنة.

فهل يمكن لطالب شهوة أن يجمع بين شابة صغيرة في مقتبل شبابها، وبين امرأة عجوز تكاد تصل السبعين، وهي ـــ فوق ذلك ـــ تكبره بأكثر من عشر سنوات؟

سكت الجمع، فقالت: إن هذا كله يدل على أن الغاية من الزواج من عائشة تختلف تماما عن زواجه من خديجة أو من سودة أو من غيرهن من النساء.

قال سلمان: فما الغاية من ذلك؟

قالت: أجبني ـــ أولا ـــ لا شك أنك ـــ بحسب هندامك قد مارست التدريس.

قال سلمان: أجل.. وقد مارسته طويلا.. بل درست في جميع مراحل التعليم.

قالت: فمن خلال ذلك.. هل رأيت فرقا بين ذاكرة الصغار والكبار، وبين دقة ملاحظة الصغار والكبار؟

قال سلمان: أجل.. ولست الوحيد في ذلك.. بل كلهم يعرفون أن العلم في الصغر كالنقش على الحجر.. فالصغير كالصفحة البيضاء التي يمكن أن يسجل فيها كل شيء.

قالت: فقد كانت عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ هذه الصفحة.. وكان من غايات الزواج منها أن تنقل لنا بدقة ما يحصل في بيت النبوة حتى تتمكن الأمة من الاقتداء به في ذلك.. فرسول الله ﷺ هو محل للقدوة في كل شيء.

قال سلمان: ولكن كيف ترضى عائشة أن تضحي بشبابها لأجل هذا؟

قالت: ومن قال لك بأن عائشة ضحت.. إن عائشة كان من أكبر أمانيها أن تظفر بالزواج من رسول الله ﷺ..

فرسول الله ﷺ ليس كما يخيل لكم كان شيخا طاعنا في السن، صاحب لحية بيضاء وقامة مقوسة.. لا.. لقد كان مختلفا تماما.. فقد ظل موفور الشباب مكتمل القوة إلى آخر أيام حياته.

وفوق ذلك كان يتمتع بجمال وهيبة تجعل أي امرأة ترغب في الزواج منه[2].

---

(1) انظر: فقه السيرة، البوطي.

(2) سنتحدث عما يرتبط بالناحية الجسدية من رسول الله ﷺ في رسالة (النبي الإنسان) من هذه السلسلة.

وقد كانت ــ لحبها لرسول الله ﷺ، ولحبه لها ــ تلقب (حبيبة رسول الله ﷺ)[1]، وكانت تحب هذا الوصف، بل تحدث به، فعن كريمة بنت همام قالت: دخلت المسجد الحرام، فأخلوه لعائشة فسألتها امرأة: ما تقولين يا أم المؤمنين في الحناء؟ فقالت: (كان حبيبي ﷺ يعجبه لونه ، ويكره ريحه وليس بمحرم عليكن بين كل حيضتين أو عند كل حيضة)[2]

التفتت إلى الجمع المحيط بها، وقالت: تأملوا هذا التعبير من عائشة، وهي تعبر عن مشاعرها تجاهه ﷺ لا كرسول فقط، بل كزوج أيضا، ثم مسارعتها فيما يحبه ﷺ، وبحثها عما يعجبه.

وقد كان من حبها له ﷺ شدة غيرتها عليه، قالت تذكر حادثة لها معه ﷺ أنه ﷺ خرج من عندها ليلا، قالت: فغرت عليه قالت: فجاء فرأى ما أصنع فقال: ما لك يا عائشة أغرت قالت: فقلت: وما لي أن لا يغار مثلي على مثلك، فقال رسول الله ﷺ: أفأخذك شيطانك قالت: يا رسول الله أو معي شيطان قال: نعم قلت: ومع كل إنسان قال: نعم قلت: ومعك يا رسول الله قال: نعم، ولكن ربي عز وجل أعانني عليه حتى أسلم[3].

التفتت إلى الجمع المحيط بها، وقالت: انظروا إلى حرصها على التعلم، وكثرة مساءلتها لرسول الله ﷺ.. لا لتستفيد هي وحدها من منبع العلوم.. ولكن لتفيد الأمة جميعا منها.

ثم واصلت حديثها تقول: قالت: كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ، فأقول: أوتهب الحرة نفسها فأنزل الله: ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾(الأحزاب:٥١)، قلت: والله ما أرى ربك إلا يسارع لك في هواك.

التفتت إلى الجمع المحيط بها، وقالت: هل يمكن لامرأة تغير على زوجها كل تلك الغيرة أن تكون مضحية بزواجها منه؟.. وهل يمكن لامرأة ينعم الله عليها بمثل هذا الزوج أن تلتفت للفارق الذي بينهما في السن؟

نظرت إلى سلمان، فقال: ولكن..

قالت: لا بأس.. فلنفرض صحة ما ذكرته.. ولنفرض أن عائشة تزوجت مكرهة كما وصفت.. ألا ترى أنها ستستغل أول فرصة تتاح لها لتتخلص من زوجها؟

قال: بالخلع الذي يذكره المسلمون؟

قالت: لا.. بأن يخيرها زوجها بين البقاء معه، وبين أن تتركه.. أليست هذه فرصة عظيمة لتتخلص منه؟

قال: بلى.. ولكن هل حصل ذلك؟

قالت: أجل.. وقد توفرت كل الدواعي لأن تختار استقلالها عنه، ولكنها لم تفعل.. كما لم يفعل سائر نساء النبي ﷺ.. وهو دليل على مدى حبهن له ﷺ.

قال الجمع: كيف كان ذلك؟

---

(1) كان مسروق رحمه الله يقول إذا حدث عنها: « حدثتني الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله ﷺ المبرأة من فوق سبع سموات» (انظر: إغاثة اللهفان:٢/١٤٠)

(2) رواه أحمد.

(3) رواه مسلم.

قالت: أنتم تعلمون شدة العيش التي كان يعيشها رسول الله ﷺ زهدا في الدنيا، ورغبة فيما عند الله، وحرصا على أن يعيش كسائر المسلمين، بل كأفقر بيت من بيوت المسلمين..

تصف عائشة، رضي الله عنها، ذلك، فتقول:(إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول اللّه ﷺ نار، فقال لها عروة: ما كان يعشيكم؟ قالت: الأسودان، التمر والماء[1].

لقد كان زوجات رسول الله ﷺ بما أنعم الله عليهم من الإيمان راضيات بهذا الشظف من العيش.. ولكنهن مرة طالبن بأن يحسن رسول الله ﷺ ظروف معيشتهن، وكان طلبا مشروعا، ولهذا لم ينكره عليهن رسول الله ﷺ.. ولكن الوظيفة الخطيرة التي كلف رسول الله ﷺ بأدائها كانت تقتضي ذلك النوع من الحياة، فلذلك نزل القرآن يخيرهم.. ويخبرهم بأن رسول الله ﷺ في وظيفة معينة.. وأن هذه الوظيفة تقتضي حياة معينة، فإن شئن أن يبقين معه، وإن شئن اخترن ما يشهتين من حياة.

لقد نزل في ذلك الظرف قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾ (الأحزاب)

ففي هذه الآية أمر من الله لرسوله ﷺ بأن يخَيّر نساءه بين أن يفارقهن، فيذهبن إلى غيره ممن يَحصُل لهن عنده الحياةُ الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله في ذلك الثواب الجزيل.

وعندما نزلت هذه الآيات دعا النبي ﷺ عائشة، رضي الله عنها، بل بدأ بها، فقال: (إني ذاكر لك أمرا، فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك)، قالت عائشة، وهي تحكي هذا الموقف النبيل: وقد عَلِمَ أن أبويّ لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: وإن الله قال:﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾ (الأحزاب)، فقلت له: ففي أي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة[2]..

ثم كان هذا الموقف موقف جميع أزواج النبي ﷺ [3]..

التفتت إلى سلمان، وقالت: أليس غرض المحامين في مثل هذه القضايا هو أن يعطوا الحق للمرأة في أن تنفصل عن زوجها؟

قال: بلى..

قالت: فقد كفاكم رسول الله ﷺ هذا.. بل أضاف إلى ذلك أنه وعد في حال اختيارهن المفاصلة أن يمتعهن.. أي يعطيهن من المال ما يرضيهن.. أرأيتم عدالة أعظم من هذه العدالة، ورحمة أعظم من هذه الرحمة؟

أين.. ومتى هذا.. إنه في مجتمع لم يكن يعترف بالمرأة أصلا.. وفي زمن كان رجال الدين فيه من

([1]) رواه البخاري ومسلم.
([2]) رواه البخاري.
([3]) انظر: البخاري رقم(٤٧٨٦).

المسيحيين يشككون في وجود روح إنساني في المرأة.

سكت الجمع، فقالت: لاشك أن أخانا سلمان لا زال ينتظر سر زواجه ﷺ من عائشة ــ رضي الله عنها ــ، أو سر تزويج الله له منها[1].

ولهذا سأذكر لكم ما يدل على ضرورة وجود امرأة في حياة النبي ﷺ يكون لها سن عائشة، والدور الذي قامت به عائشة.

أول الأدوار التي قامت بها عائشة ــ رضي الله عنها ــ خير قيام هي نقلها لصورة حية من بيت النبي ﷺ، وهي ــ بالنسبة للمسلمين ــ صورة لا تعرض لمجرد الفضول، وإنما تعرض لتكون محل قدوة.

فقد ورد في الحديث ما يشير إلى لزوم الاقتداء به في ﷺ سلوكه مع زوجاته، قال ﷺ: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)[2].. إن هذا الحديث لا يختلف كثيرا عن قوله ﷺ: (صلوا كما رأيتموني أصلي)[3]، وقوله ﷺ: (خذوا عني مناسككم)[4]، ففيها جميعا أمر بلزوم الاقتداء به كان الأمر تصريحا أم تلميحا.

سكتت قليلا، ثم قالت: سأذكر لكم أمثلة تدل على هذا الدور الخطير الذي أنيط بها.. ولنبدأ بأخطر اختبار يمكن أن يتعرض له الزوج.. وخاصة من كان في محل كمحل رسول الله ﷺ.

لاشك أنكم تعرفون الحادثة[5].. إنه ما يسمى بحادثة الإفك.. وهي أخطر حادثة يمكن أن يتعرض لها رجل له جاهه في المجتمع ورئاسته فيه.

وقد قدر الله هذه الحادثة لنستشف من خلالها أشياء كثيرة عن النبي ﷺ وحياة النبي ﷺ وصدق النبي ﷺ وحكمة النبي ﷺ.. وغيرها كثير.

لن أطيل عليكم.. بل سأدع أمي عائشة ــ رضي الله عنها ــ تتحدث عما حصل لها، وعن موقف النبي

([1]) فالنصوص تدل على أن النبي ﷺ لم يتزوجها بمحض رغبته، وإنما بأمر من الله تعالى، فقد ورد في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال لي رسول الله ﷺ:(رأيتك في المنام قبل أن أتزوجك مرتين)، وفي لفظ:(ثلاث ليال، جاءني بك ملك في خرقة من حرير فيقول: هذه امرأتك فيكشف عن وجهها، فإذا هي أنت، فأقول إن يك من عند الله يمضه)

وروى الترمذي وحسنه وابن عساكر عنها ــ رضي الله عنها ــ قالت: جاء بي جبريل لرسول الله ﷺ في خرقة حرير خضراء، فقال: هذه زوجتك في الدنيا والآخرة.

وروى ابن عساكر عنها ــ رضي الله عنها ــ قالت: ما تزوجني رسول الله ﷺ حتى أتاه جبريل ﷺ بصورتي فقال: هذه زوجتك في الدنيا والاخرة، تزوجني وإني لجارية على حرف، فلما تزوجني أوقع الله علي الحياء.

روي الترمذي عن عمر ــ رضي الله عنه ــ ي قال: قال رسول الله ﷺ:(أتاني جبريل فقال إن الله عز وجل زوجك بابنة أبي بكر ومعه صورة عائشة)

([2]) رواه ابن حبان والترمذي والبيهقي وابن ماجة.

([3]) رواه ابن حبان والبيهقي والدارقطني.

([4]) رواه البيهقي.

([5]) انظر الحديث في: البخاري: ٢/٩٤٢، النسائي: ٦/٤١٦.

ﷺ، ونكتفي بحديثها ووصفها، فهو خير تعليق على ما حدث.

قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ؛ وإنه أقرع بيننا في غزاة، فخرج سهمي، فخرجت معه بعد ما أنزل الحجاب، وأنا أحمل في هودج، وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقفل، ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل ؛ فقمت حين آذنوا بالرحيل، حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الرحل، فلمست صدري، فإذا عقد لي من جزع أظفار قد انقطع، فرجعت فالتمسته فحبسني ابتغاؤه ؛ وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني، فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري، وهم يحسبون أني فيه؛ وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلهن اللحم ؛ وإنما نأكل العلقة من الطعام ؛ فلم يستنكر القوم حين رفعوه خفة الهودج، فحملوه ؛ وكنت جارية حديثة السن ؛ فبعثوا الجمل وساروا.

ثم تحكي ما حصل بعد هذا التصرف البسيط مع ما يحمله من المعاني الجليلة، قالت: (فوجدت عقدي، بعدما استمر الجيش، فجئت منزلهم، وليس فيه أحد منهم، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي ؛ فبينما أنا جالسة غلبتني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي. ثم الذكواني. قد عرس وراء الجيش، فأدلج، فأصبح عند منزلي ؛ فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني. وكان يراني قبل الحجاب. فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي ؛ والله ما يكلمني بكلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ؛ وهوى حتى أناخ راحلته، فوطىء على يديها، فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش، بعد ما نزلوا معرسين.

فهذا هو الموقف جميعا بكل ملابساته وتفاصيله، ولكن النفوس المريضة تأبى إلا أن تنشر غلها وحسدها، ولو على أطهر خلق الله، قالت: فهلك في شأني من هلك، وكان الذي تولى كبر الإثم عبد الله بن أبي بن سلول.

ثم تذكر موقف رسول الله ﷺ بعدما أشيع عنها ما أشيع، وهو موقف المتأني المتثبت الذي لا يستعجل حتى في إخبارها بما قيل عنها، قالت: فقدمنا المدينة، فاشتكيت بها شهرا ؛ والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك ولا أشعر، وهو يريبني في وجعي أني لا أرى من النبي ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل فيسلم ثم يقول: كيف تيكم؟ ثم ينصرف، فذلك الذي يريبني منه، ولا أشعر بالشر حتى نقهت، فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا وكنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل وذلك قبل أن نتخذ الكنف، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط. فأقبلت أنا وأم مسطح، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب – حين فرغنا من شأننا نمشي. فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح! فقلت لها: بئسما قلت. أتسبين رجلا شهد بدرا؟ فقالت: يا هنتاه ألم تسمعي ما قال؟ فقلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضا إلى مرضي.

ثم تتحدث موقفها بعدما سمعت بما يتحدث الناس به عنها، فقالت: فلما رجعت إلى بيتي دخل رسول الله ﷺ فقال: كيف تيكم؟ فقلت: ائذن لي أن آتي أبوي، وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما. فأذن لي،

فأتيت أبوي، فقلت لأمي: يا أمتاه ماذا يتحدث الناس به؟ فقالت: يا بنية هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها. فقلت: سبحان الله! ولقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم. ثم أصبحت أبكي.

ثم ذكرت موقف رسول الله ﷺ وهو في تلك الحالة، وهو موقف التحري والاستشارة، قالت: فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد – رضي الله عنهما – حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله.

قالت: فأما أسامة فأشار عليه بما يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه من الود لهم، فقال أسامة: هم أهلك يا رسول الله، ولا نعلم والله إلا خيرا، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تخبرك، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال لها: أي بريرة. هل رأيت فيها شيئا يريبك؟ فقالت: لا والذي بعثك بالحق نبيا إن رأيت منها أمرا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله. قالت: فقام رسول الله ﷺ من يومه.

ثم تذكر موقفه ﷺ العام، والذي أظهره على الملأ قبل أن يتحدث إلى عائشة، رضي الله عنها، قالت: (واستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول. فقال وهو على المنبر: من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا. ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي، قالت: فقام سعد بن معاذ – رضي الله عنه – فقال: يا رسول الله أنا والله أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك. فقام سعد بن عبادة – رضي الله عنه – وهو سيد الخزرج، وكان رجلا صالحا ولكن أخذته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على ذلك. فقام أسيد بن حضير ــ رضي الله عنه ــ وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت – لعمر الله – لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيان – الأوس والخزرج – حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ على المنبر، فلم يزل يخفظهم حتى سكتوا ونزل.

ثم تبين كيف واجهها ﷺ بعد تلك الفترة الطويلة من التأني والانتظار، وهو لا يجزم بأي قرار لا نحوها ولا نحو غيرها، فلما تبين له ﷺ ما تبين من أمر عائشة، رضي الله عنها، حصل ما ذكرته عائشة، رضي الله عنها، بقولها: (وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم. ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم. فأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويوما، حتى أظن أن البكاء فالق كبدي. فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنت امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي. فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ، ثم جلس، ولم يجلس عندي من يوم قيل في ما قيل قبلها، وقد مكث شهرا لا يوحى إليه في شأني بشيء، فتشهد حين جلس، ثم قال: أما بعد فإنه بلغني عنك كذا وكذا. فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله تعالى وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله تعالى عليه.

وهو حوار إيماني هادئ مع زوجته يذكرها بالله، وليس فيه أي انفعال قد يمكن للمشكلة دون أن يؤثر في

علاجها، وقد كان لهذا الحديث تأثيره الشديد الإيجابي في نفس عائشة، رضي الله عنها، حيث قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه بقطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ فيما قال، قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ قالت: وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن. فقلت: إني والله أعلم أنكم سمعتم حديثا تحدث الناس به، واستقر في نفوسكم، وصدقتم به. فلئن قلت لكم: إني بريئة لا تصدقوني بذلك. ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة، لتصدقنني. فوالله مما أجد لي ولكم مثلا إلا أبا يوسف إذ قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾(يوسف: ١٨)

ثم تتحدث عن خاتمة هذا الاختبار الذي حصل لها، فقالت:(ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي. ولكن والله ما كنت أظن أن يترل الله تعالى في شأني وحيا يتلى ؛ ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله تعالى في بأمر يتلى ؛ ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله تعالى بها. فوالله ما رام مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، فسري عنه، وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي: يا عائشة احمدي الله تعالى فإنه قد برأك. فقالت لي أمي: قومي إلى رسول الله ﷺ فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله تعالى، هو الذي أنزل براءتي. فأنزل الله ﷻ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ (النور: ١١) العشر الآيات.

نظرت عائشة إلى الجمع، وقالت: لقد كانت هذه الحاثة سببا لإسلامي، فيستحيل أن يقف هذا الموقف العظيم رجل، ثم لا يكون صادقا فيما يدعيه.

إن كل كلمة من هذه الحادثة تدل على أن محمدا لا ينبغي إلا أن يكون رسولا لله..

أولا.. كان يمكن لمحمد ﷺ أن يمحو المشكلة في مهدها بالأساليب التي يمارسها المستبدون، فيفتعل حادثا يموت فيه الجاني والمجني.. وتموت فيه معهما المشكلة بجميع ملابساتها.

وكان يمكن أن يعالج المشكلة باعتقال الجانين وتعذيبهم.. ثم إنطاقهم بما يشاء من التصريحات.. ثم قتلهم بعد ذلك بما شاء أن يقتلهم به.

وكان يمكن أن يتكلم في بداية المشكلة بما شاء من قرآن.. لو كان القرآن قرآنه.. ولما انتظر شهرا كاملا كان فيه كامل الحرية للمنافقين ليبثوا ما شاء لهم أن يبثوا من سموم..

وكان يمكن أن يمارس أساليب كثيرة جدا قد يمارسها المتهورون أو المستبدون.. ولكن محمدا ﷺ كان في منتهى العقل والحكمة، فلم يمارس إلا ما اقتضاه العقل والحكمة.

هذه هي الحادثة الأولى.. وقد كانت عائشة طرفا رئيسيا فيها.. وبسببها تترلت أحكام قرآنية ترتبط بتنظيم المجتمع الإسلامي.. ووضع القوانين الرادعة للمتكلمين في الأعراض من غير بينة.

وقد شاء الله أن تكون التي تكلم الناس في عرضها هي عائشة الطاهرة، ليبين للناس خطورة الكلام في الأعراض.. وأن المتكلم في الأعراض قد لا يستحي من الكلام في عرض النبي نفسه.

هذه هي الحادثة الأولى.. وهي درس عظيم لا زال المسلمون يستفيدون منه، وقد كانت عائشة ــ رضي الله عنها ــ أحد أساتذته.

حادثة أخرى تنقلها عائشة ــ رضي الله عنها ــ تبين مقدار الصدق الذي كان عليه رسول الله في علاقته بربه، وفي علاقته بالمؤمنين.

وهي درس قيم يوجه للذين نصبوا أنفسهم محامين عن عائشة يريدون أن يحرموها من أعظم شرف نالته في حياتها، أو يمكن أن تناله امراة، وهو زواجها من رسول الله ﷺ.

لقد حديث عائشة ــ رضي الله عنها ــ، وهي تحكي ليلة من لياليها معه ﷺ فقالت: ألا أحدثكم عن النبي ﷺ وعني؟.. قالوا: بلى قال قالت لما كانت ليلتي التي كان النبي ﷺ فيها عندي انقلب، فوضع رداءه وخلع نعليه فوضعهما عند رجليه وبسط طرف إزاره على فراشه فاضطجع..

التفتت إلى الجمع، وقالت: ألا ترون دقة النقل والتصوير.. إن هذا لا يمكن أن يحصل إلا من امرأة في منتهى القوة العقلية..!؟

ثم واصلت تحدث حديث عائشة، قالت:، فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدت، فأخذ رداءه رويدا، وانتعل رويدا، وفتح الباب، فخرج ثم أجافه رويدا، فجعلت درعي في رأسي واختمرت، وتقنعت إزاري، ثم انطلقت على إثره، حتى جاء البقيع، فقام فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات، ثم انحرف، فانحرفت فأسرع فأسرعت، فهرول فهرولت، فأحضر فأحضرت فسبقته، فدخلت فليس إلا أن اضطجعت.

قالت: فدخل فقال: ما لك يا عائش حشيا رابية قالت: قلت: لا شيء قال: لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير، قالت: قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي فأخبرته قال: فأنت السواد الذي رأيت أمامي، قلت: نعم فلهدني في صدري لهدة أوجعتني، ثم قال: أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله، قالت: مهما يكتم الناس يعلمه الله، نعم، قال: فإن جبريل أتاني حين رأيت، فناداني، فأخفاه منك فأجبته فأخفيته منك ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك وظننت أن قد رقدت فكرهت أن أوقظك وخشيت أن تستوحشي فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم، قالت: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله قال: قولي السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون)[1]

ألا ترون حرص عائشة ــ رضي الله عنها ــ على رسول الله ﷺ وغيرتها عليه.. ثم ألا ترون صدقه ﷺ ووفاءه لا لأحياء المسلمين فقط، بل لموتاهم أيضا.. ثم ألا ترون حرص عائشة ــ رضي الله عنها ــ في ذلك الموقف، وفي ذلك الوقت من الليل على التعلم من رسول الله ﷺ.. ثم ألا ترونها كيف تتبع حركاته وتصفها بدقة.. ثم ألا ترون ذلك الأدب العظيم من رسول الله ﷺ والذي منعه من إيقاظها..؟

إن الدروس التي يمكن استخلاصها من هذه الحادثة لا يمكن حصرها.. إنها وصف دقيق للبيت المسلم الرباني الصادق الوفي المخلص..

حادثة أخرى تنقلها عائشة ــ رضي الله عنها ــ عن بيتها.. وعن رسول الله ﷺ توجه لأولئك الذين

([1]) رواه مسلم.

يرمون حياة الرسول ﷺ بالشهوانية ليروا كيف كان ليله مع هذه الشابة الجميلة.

فعن عبيد بن عمير أنه قال لعائشة رضي الله عنها: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ قال: فسكتت، ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي، قال: يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي، قلت: والله إني أحب قربك، وأحب ما يسرك، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بل حجره، قالت: وكان جالسا، فلم يزل يبكي ﷺ حتى بل لحيته، قالت: ثم بكى حتى بل الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله، تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: أفلا أكون عبدا شكورا، لقد نزلت علي الليلة آية ويل لمن قرأها و لم يتفكر فيها:﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(آل عمران:١٩٠)الآية كلها [١].

وفي رواية أخرى عن عطاء قال: انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب، فقالت: يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا قال: قول الشاعر: زر غبا تزدد حبا، فقال ابن عمر: ذرينا، أخبرينا بأعجب ما رأيته من رسول الله ﷺ، فبكت وقالت: كل أمره كان عجبا، ثم أوردت الحديث.

التفتت إلى الجماعة المحيطة بها، وقالت: هل ترون هذا ليل رجل شهواني.. أو ترونه ليل زير نساء..!؟

إن هذا الحديث.. ومثله أحاديث كثيرة.. تبين كيف كان رسول الله ﷺ في بيته، مع ربه، ومع أهله لا يمكن أن تنقل لنا لو لم يكن في حياة رسول الله ﷺ امرأة في مثل ذكاء عائشة ودقة ملاحظتها وسعة ذاكرتها وعظم أدبها.

ألا ترون في هذا الحديث كيف كان يتعامل ﷺ مع زوجته، خلافا لمن يرون العبادة في الجفاء، والورع في الخشونة، فهو ﷺ يستأذن عائشة، رضي الله عنها، في عبادته لربه، وتجيبه عائشة الزوجة الصالحة بأدب جام، فلا تقول: أذنت لك، وإنما تخبره عن حبها لقربها منه ﷺ، وحبها في نفس الوقت لما يسره.

وفي الوقت الذي يذهب فيه ﷺ ليعبد ربه تمارس عائشة، رضي الله عنها، عبادة أخرى لعلها أهم من نهوضها وقيامها معه، فقد بقيت تنظر إلى حركاته وتسجلها وتملأ قلبها وقلب المؤمنين بها.

وتروي عائشة ــ رضي الله عنها ــ كيف كان ﷺ يصلي وهي بين يديه تنظر إلى صلته بربه، فعنها أنها قالت: كنت أنام بين يدي رسول الله ﷺ ورجلاي في قبلته، فإذا سجد غمزني فقبضت رجلي، فإذا قام بسطتهما، قالت: والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح [٢].

ولهذا عاتبت عائشة، رضي الله عنها، من قال ببطلان الصلاة في حال اعتراض الكلب والحمار والمرأة، فقالت: (أعدلتمونا بالكلب والحمار، لقد رأيتني مضطجعة على السرير، فيجيء النبي ﷺ فيتوسط السرير، فيصلي فأكره أن أسنحه، فأنسل من قبل رجلي السرير حتى أنسل من لحافي) [٣]

---

(١) رواه ابن حبان.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) رواه البخاري.

بل كان ﷺ يصلي بتلك الحالة بثوب مشترك بينه وبين عائشة، رضي الله عنها، وهي حائض، ولا يتعفف عن ذلك كما يتعفف من يريدون أن يكونوا أورع من رسول الله ﷺ، فعن معاذة قالت: سألت عائشة، رضي الله عنها، عن الحائض يصيب ثوبها الدم فقالت: (لقد كنت أحيض عند رسول الله ﷺ ثلاث حيض جميعا لا أغسل لي ثوبا، وقالت: لقد كان رسول الله ﷺ يصلي وعلي ثوب عليه بعضه وعلي بعضه، وأنا حائض نائمة قريبا منه)[1]

وكما نقلت عائشة ــ رضي الله عنها ــ ما يحصل من حياة الإيمان والتقوى في بيت النبي ﷺ نقلت ما يرتبط بحياة أي أسرة من مشاكل بسيطة، لتنقل لنا هديه ﷺ في كل شيء.. ليكون أسوة حسنة لكل زوج مسلم، ولكل بيت مسلم.

فمن ذلك قولها: قال لي رسول الله ﷺ:(إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت علي غضبى، قالت: فقلت: من أين تعلم ذاك، قال: إذا كنت عني راضية فإنك تقولين لا ورب محمد، وإذا كنت علي غضبى تقولين: لا ورب إبراهيم عليه السلام قلت: أجل والله ما أهجر إلا اسمك)[2]

ففي هذا الحديث نرى رسول الله ﷺ يذكر موقف عائشة ــ رضي الله عنها ــ في حال غضبها ورضاها، وهي ناحية مهمة ترتبط بها الحياة الزوجية، وكأن رسول الله ﷺ من خلالها ينبه الزوجين إلى التعرف على بعضهما.. لأنه لا يمكن أن تقوم الحياة الزوجية من دون ذلك.

وتنقل لنا هديه في علاج مشكلة لو حصلت في بيت أي وجيه من الوجهاء لأقام الدنيا وأقعدها، ولكن النبي ﷺ حلها بكل بساطة..

سأذكر لكم الحادثة لتعرفوا أن حياة النبي ﷺ كلها مبرمجة برمجة الربانية ليستفيد منها الكل.. وفي كل الظروف.

كان النبي ﷺ عند إحدى أمهات المؤمنين، فأرسلت زوجة له أخرى بقصعة فيها طعام فضربت عائشة، رضي الله عنها، يد الرسول ﷺ فسقطت القصعة فانكسرت فأخذ النبي ﷺ الكسرتين فضم إحداهما إلى الأخرى فجعل يجمع فيها الطعام ويقول:(غارت أمكم، كلوا فأكلوا فأمسك حتى جاءت بقصعتها التي في بيتها فدفع القصعة الصحيحة إلى الرسول وترك المكسورة في بيت التي كسرتها)[3]

وفي رواية أخرى عن عائشة قالت: ما رأيت صانعة طعام مثل صفية، أهدت إلى النبي ﷺ إناء فيه طعام، فما ملكت نفسي أن كسرته، فسألت النبي ﷺ عن كفارته فقال: إناء كإناء وطعام كطعام.

وفي رواية أخرى عن رجل من بني سوءة قال قلت لعائشة، رضي الله عنها، أخبريني عن خلق رسول الله ﷺ قالت: أو ما تقرأ القرآن ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤) قالت: كان رسول الله ﷺ مع أصحابه فصنعت له طعاما وصنعت له حفصة طعاما، فسبقتني حفصة فقلت للجارية: انطلقي فأكفئي قصعتها، فلحقتها

---

(1) رواه البيهقي.
(2) رواه البخاري.
(3) رواه البخاري.

وقد همت أن تضع بين يدي رسول الله ﷺ، فأكفأها فانكسرت القصعة وانتشر الطعام قالت فجمعها رسول الله ﷺ وما فيها من الطعام على النطع فأكلوا، ثم بعث بقصعتي فدفعها إلى حفصة، فقال: خذوا ظرفا مكان ظرفكم، وكلوا ما فيها، قالت: فما رأيت ذلك في وجه رسول الله ﷺ.

التفتت إلى الجمع، وقالت: انظروا.. لقد شاء الله أن تمارس زوجة من زوجات الرسول ﷺ هذا السلوك.. ليقف رسول الله ﷺ هذا الموقف ليكون درسا لكل زوج.

تصوروا لو أن زوجة رسول الله ﷺ كانت مبرأة من الغيرة.. فإن أي زوج لو طلبت منه أن يهتدي بهدي رسول الله ﷺ لقال لك: ومن لي بزوجة مثل زوجته؟

ولكن الله شاء أن تختلف طباع نسائه، ليمثلن جميع الطباع، ويمثل رسول الله ﷺ معهن جميعا الدور الأمثل باعتباره القدوة.

انظروا كيف عالج رسول الله ﷺ هذه المشكلة بكل يسر وسهولة مع أنها مع بساطتها لو لم تعالج كذلك كان يمكن أن تتحول إلى خلاف عظيم يصعب حله، وهذا الحل يتعلق بجميع جوانب المشكلة لا ببعض عوارضها.

فأول ما فعل الرسول ﷺ بعد حصول هذا هو توجهه للحاضرين اعتذارا لهم عن السبب الذي حصلت به هذه المشكلة، وهو سبب لا يمكن تفاديه باعتباره مركوزا في طبائع النساء، فقال ﷺ:(غارت أمكم) بل في قوله ﷺ:(أمكم) إشارة إلى عدم المؤاخذة، لأن الإنسان لا يؤاخذ أمه لارتفاع الكلفة بينهما.

ثم أصلح ﷺ الأثر المادي للمشكلة، فقد أخذ الكسرتين فضم إحداهما إلى الأخرى فجعل يجمع فيها الطعام، وهو علاج آني للمشكلة، فقد أسرع إليه ﷺ فور حصوله في الوقت الذي يثورون فيه الناس ويهيجون، أما هو ﷺ فبدل أن يعنف من فعلت أو يعاقبها توجه إلى الصحن المكسور أمامه يرأب صدعه، ثم توجه إلى من فعلت ذلك يلزمها بالضمان، فقال ﷺ:(طعام بطعام وإناء بإناء)

أما الآثار المستقبلية لهذا التصرف، فقد عالجه ﷺ بنفس القول الذي بدأ به ﷺ موقفه من هذه المشكلة، لأن الأثر المستقبلي عادة ما ينبع من الموقف الآني، قال الطيبي في قوله ﷺ:(غارت أمكم):(الخطاب عام لكل من يسمع بهذه القصة من المؤمنين اعتذارا منه ﷺ لئلا يحملوا صنيعها على ما يذم، بل يجري على عادة الضرائر من الغريزة، فإنها مركبة في نفس البشر بحيث لا تقدر أن تدفعها عن نفسها)[1]

والأكمل من ذلك كله هو ما عبرت عنه عائشة، رضي الله عنها، بقولها:(فما رأيت ذلك في وجه رسول الله ﷺ)

قال الجمع: عرفنا هذا الدور.. فبورك فيك.. فحدثينا عن دور آخر.

قالت: كما حاولت عائشة ــ رضي الله عنها ــ أن تنقل صورة بيت رسول الله ﷺ لأجيال الأمة.. فقد حاولت أيضا أن تنقل كثيرا من هديه ﷺ المرتبط بالأسرة، مما أهلها لأن تكون فقيهة الأمة الكبرى، بل هي مرجع الفقهاء في هذا الباب.. بل في غيره من الأبواب.

---

(٢) عون المعبود: ٩/٣٤٨

فقد اتفق الكل على سعة علمها وكونها أفقه النساء مطلقا، بل تفوق بفقهها الجم الغفير من الرجال:

فعن أبي موسى الاشعري ــ رضي الله عنه ــ قال:(ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علما)[1]

وعن الزهري أن رسول الله ﷺ قال:(لو جمع علم نساء هذه الأمة فيهن أزواج رسول الله ﷺ كان علم عائشة أكثر من علمهن)[2]

وعن مسروق أنه كان يحلف بالله، لقد رأيت الاكابر من أصحاب رسول الله ﷺ ــ وفي لفظ مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ ــ يسألون عائشة عن الفرائض[3].

وعن عروة بن الزبير قال: ما رأيت أحدا أعلم بالقرآن ولا بفريضة ولا بحلال ولا بحرام ولا بفقه، ولا بطب، ولا بشعر، ولا بحديث العرب ولا بنسب من عائشة ــ رضي الله عنها[4] ــ

وعن موسى بن طلحة، قال: ما رأيت أحدا كان أفصح من عائشة ــ رضي الله عنها[5] ــ

وعن عروة، وقد قيل له: ما أرواك يا أبا عبد الله وكان أروي الناس للشعر! فقال: ما روايتي في رواية عائشة، ما كان يترل بها شئ إلا أنشدت فيه شعرا.

وعنه أنه كان يقول لعائشة: يا أمتاه لا أعجب من فهمك، أقول: زوجة رسول الله ﷺ وابنة أبي بكر، ولا أعجب من علمك بالشعر، وأيام الناس، أقول ابنة أبي بكر، وكان أعلم أو من أعلم الناس، ولكن أعجب من علمك بالطب كيف هو؟ وأين هو؟ قال: فضربت على منكبه، وقالت: أي عرية، إن رسول الله ﷺ كان يسقم ــ وفي لفظ كثرت أسقامه عند آخر عمره ــ فكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه ــ وفي لفظ: فكانت أطباء العرب والعجم ينعتون له ــ وكنت أعالجها فمن ثم[6].

وعن الأحنف بن قيس قال: سمعت خطبة أبي بكر وعمر وعثمان، وعلي، والخلفاء وهلم جرا فما سمعت منهم كلام مخلوق أفخم ولا أحسن منه من في عائشة[7].

وعن عطاء بن رباح قال: كانت عائشة أفقه الناس، وأعلم، وأحسن الناس رأيا في العامة[8].

وعن القاسم بن محمد، قال: كانت عائشة ــ رضي الله عنها ــ قد اشتغلت بالفتوى زمن أبي بكر وعمر

([1]) رواه الترمذي وحسنه وصححه وابن أبي خيثمة.. وقد روي لها عن رسول الله ﷺ ألف حديث ومائتا حديث وعشرة أحاديث، اتفق البخاري ومسلم على مائة وأربعة وسبعين حديثا، وانفرد البخاري بأربعة وخمسين، ومسلم بثمانية وسبعين، وروى عنها خلق كثير من الصحابة، والتابعين.

([2]) رواه ابن أبي خيثمة والطبراني برجال ثقات.

([3]) رواه سعيد بن منصور وابن أبي خيثمة والطبراني بسند حسن.

([4]) رواه ابن أبي خيثمة، والحاكم، والطبراني بسند حسن وابن عساكر.

([5]) رواه الطبراني برجال الصحيح.

([6]) رواه أحمد.

([7]) رواه أحمد في الزهد والحاكم.

([8]) رواه الحاكم، وابن أبي خيثمة والبلاذري.

وعثمان وهلم جرا إلى أن ماتت[1].

التفتت عائشة إلى الجمع، وقالت: ليس هذا وحده بركات رسول الله ﷺ عليها، لقد كان من بركاته عليها أنها صارت العابدة الزاهدة.. زيادة على كونها الفقيهة العالمة.

عن أم ذرة وكانت تغشى عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: بعث إليها بمال في غرارتين، قالت: أراه ثمانين أو مائة ألف، فدعت بطبق وهي يومئذ صائمة فجلست تقسم بين الناس، فأمست وما عندها من ذلك درهم، فلما أمست قالت: يا جارية هلمي فطري، فجاءتها بخبز وزيت فقالت لها أم ذرة: أما استطعت مما قسمت اليوم أن تشتري لنا لحما بدرهم نفطر عليه، قالت: لا تعنفيني لو كنت ذكرتيني لفعلت[2].

وعن ابن أبي مليكة قال: استأذن ابن عباس على عائشة، فقالت: لا حاجة لي بتزكيته، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: يا أمتاه إن ابن عباس من صالح بيتك جاء يعودك، قالت: فأذن له فدخل عليها فقال: يا أمه أبشري فوالله ما بينك وبين أن تلقي محمدا والأحبة إلا أن يفارق روحك جسدك؟ كنت أحب نساء رسول الله ﷺ إليه ولم يكن رسول الله ﷺ يحب إلا طيبا، قالت: أيضا؟ قال: هلكت قلادتك بالابواء فأصبح رسول الله ﷺ يلتقطها فلم يجدوا ماء، فأنزل الله عز وجل:﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً ﴾ (النساء: من الآية٤٣)، فكان ذلك بسببك وبركتك ما أنزل الله تعالى لهذه الأمة من الرخصة، وكان من أمر مسطح ما كان فأنزل الله تعالى براءتك من فوق سبع سمواته، فليس مسجد يذكر الله فيه إلا وشأنك يتلى في آناء الليل وأطراف النهار، فقالت: يابن عباس دعني منك ومن تزكيتك، فوالله لوددت أني كنت نسيا منسيا[3].

([1]) رواه البلاذري.
([2]) رواه أبو نعيم.
([3]) رواه أبو نعيم.

٣ ـــ سودة

جلست عائشة، فقامت امرأة عجوز طاعنة في السنة، ليس لها أي حظ من الجمال، وقالت: ألا تتعجبون أن تتزوج امرأة في مثل سني رجلا ذا هيبة ومكانة ومال وجمال؟

قال سلمان: إلا إذا كانت ذات مال أو منصب، فيرغب في مالها أو جاهها.

قالت: فإن لم يكن لها مال ولا منصب؟

سكت سلمان، فقالت: لقد فعل محمد ﷺ هذا.. بل تزوج سودة وهي امرأة في مثل سني، وفي مثل حالتي في الوقت الذي تزوج فيه تلك الشابة التي أقمتم الدنيا، و لم تقعدوها لأجل زواجه منها.

قال سلمان ساخرا: فلم تزوج سودة يا سودة؟

قالت: لينسخ بزواجها تلك الأراجيف التي تنشرها الأحقاد.. فمحمد ﷺ لم يكن كسائر البشر.. كان صاحب رسالة.. وكانت الرسالة تقتضي منه مسؤوليات كثيرة، منها ما يرتبط بالرجال، ومنها ما يرتبط بالنساء.

أما الرجال، فكان لهم حظ الصحبة.. وأما النساء، فمن الصعب أن ينلن مثل هذا الحظ كالرجال، فلذلك كان تعدد الزواج هو السبيل لهذه الصحبة التي تنقل هديه ﷺ إلى العالمين.

لن أطيل عليكم.. بل سأقص عليكم قصة سودة، لتروا عظم النبل الذي دعا محمدا ﷺ إلى الزواج منها:

هي سودة بنت زمعة.. وقد كان زوجها قبل رسول الله ﷺ ابن عمها (السكران بن عمرو)، وقد أسلم الاثنان في مكة، وتعرضا مثل بقية المؤمنين لأشد صنوف العذاب والاضطهاد.

وقد هاجرت هي وزوجها مع نفر قليل من الذين آمنوا إلى الحبشة[1].

ومرت الأيام ثقيلة على مهاجري الحبشة في دار غير دارهم.. وبين قوم غرباء عنهم.. حتى وصلت إليهم الأخبار تحمل نبأ دخول أكثر أبناء قريش في الإسلام [2].. ورأى نفر من المهاجرين أن يعودوا إلى مكة إلى جوار النبي ﷺ وإلى قومهم وبلدهم.. وكان من هؤلاء السكران وزوجه سودة.

وقبل أن يصلوا إلى مكة اكتشفوا كذب ما وصلهم من أخبار، بل علموا فوق ذلك أن قريشا ضاعفت إيذاءها للمسلمين، وحاصرتهم ومن انضم إليهم في شعب أبي طالب.. فقرر نفر من هؤلاء العودة إلى دار هجرتهم في الحبشة.. بينما قرر السكران وزوجه دخول مكة ليلاقيا ما يلاقيه المسلمون فيها من أذى وعذاب وحصار..

وما إن استقر المقام بالأسرة المجاهدة في مكة حتى توفي السكران.. وبقيت إلى جانبه زوجه سودة تبكيه، فقد كان ابن عمها ورفيق دربها في الإيمان والهجرة..

---

(١) هؤلاء النفر هم: السكران وزوجه سودة وأخوها مالك، وأخواه سليط وحاطب وابن أخيه عبد الله بن سهيل بن عمرو. وصحب ثلاثة من الثمانية زوجاتهم، وكلهن عامريات.

(٢) وهو خبر كاذب بالطبع.

وكانت من أهم الأحداث التي وقعت في تلك الفترة ــ كما سمعتم من خلال حديثي أختي خديجة ــ وفاة أبي طالب عم رسول الله ﷺ الذي كفله صغيرا، وآزره كبيرا، وناصره على دعوته، وحماه من عوادي المشركين. ووفاة السيدة خديجة زوج النبي ﷺ التي صدقته وآمنت به وكانت له وزير صدق طول سني كفاحه وجهاده.

في ذلك الوقت ذكرت خولة بنت حكيم السلمية للنبي ﷺ كلا المرأتين، فأذن لها ﷺ في أن تحدثهما، وقد قضى الله بأن توافقا جميعا.

أما عائشة، فقد عرفتم خبرها.

وأما سودة، فلم تكن تصدق أن يتزوجها رسول الله.. وهي في مثل تلك السن..

أنتم تعلمون أن امرأة في مثل تلك السنة (في نحو ست وستين سنة) لا يمكن لرجل أقل منها بأكثر من عشر سنوات أن يتزوجها لشهوة له في النساء..

قال سلمان: فما الهدف إذن؟

قالت: لقد علم ﷺ أن هذه المرأة لو عادت إلى أهلها لأكرهوها على الشرك، أو عذبوها عذابا شديدا ليفتنوها عن دينها، فاختار النبي ﷺ كفالتها.

وقد قابل الجميع ــ في ذلك الوقت ــ هذا التصرف الكريم من الرسول الكريم بالإعجاب والثناء.. بل إنه قد خفف من بعض عداء قومها من بني عبد شمس، وهم أعداء الرسول وأعداء بني هاشم، وأُنقذت سودة مما كان ينتظرها من الضياع.

وقد بقيت زوجة إلى أن توفاه الله تعالى لها حظها من العدل بين زوجاته كسائر زوجاته إلى أن توفاه الله..

ربما لو كان هناك رجل آخر في منصب محمد لطلقها بعد أن تحسنت ظروف المؤمنين، ولفرض لها من المال ما يكفيه زواجه منها، ولكن النبي ﷺ لم يفعل.

قال سلمان: ولكني علمت بأنها وهبت ليلتها لعائشة.

قالت: وهل تتصور من امرأة فاقت في ذلك الحين خمسا وسبعين سنة أن تظل في مزاحمتها لمن هم أقل منها سنا بكثير.. لقد كانت راضية بكونها زوجة رسول الله ﷺ.. وزهدت بسبب سنها فيما يرغب فيه النساء..

٤ ــ حفصة

جلست سودة، فقامت امرأة ممتلئة شبابا، ولكن لم يكن لها من الجمال ما كان لعائشة، وقالت: أما أنا فحفصة.. وقد كانت حفصة زوج النبي ﷺ هي بابي إلى الإسلام، فلذلك اخترت اسمها اسما لي، ولعل الله أن يحشرني رفيقة لها في جنات الله.

قال سلمان: فما سر زواج محمد من حفصة؟

قالت: كانت حفصة متزوجة من رجل يقال له (خنيس بن حذافة السهمي)، وهو من أصحاب النبي ﷺ.. بل من السابقين الأولين.. فقد هاجر إلى الحبشة مع المهاجرين الأولين، ثم هاجر إلى المدينة، وكان الوحيد من بني سهم الذي شهد إلى جانب رسول الله بدرا، وجرح في أحد، ثم مات في دار الهجرة شهيدا، متأثرا بجراحه، وترك وراءه أرملته الشابة.

وبمجرد وفاة زوجها ــ وفي مجتمع محافظ مليء بالعفاف لم يكن للمرأة فيه ولا للرجل أن يظل بلا زواج ــ ذهب أبوها عمر إلى عثمان، وقال له: إن شئتَ زوجتك حفصة، فقال عثمان: سأنظر في أمري، فلبث ليالي فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج.

ثم ذهب إلى أبي بكر، وقال: إن شئت زوجتك حفصة، فصمت أبو بكر.

قال عمر: فكنت عليه أوجد مني على عثمان، فلبثت ليالي، ثم خطبها النبي ﷺ فزوجتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وجدتَ عليّ حين عرضت عليّ حفصة، فلم أرجع إليك شيئا، قلت: نعم، قال: إنه لم يمنعني أن أرجع إليك إلا إني علمت أن النبي ﷺ ذكرها، فلم أكن أفشي سره، ولو تركها لقبلتها[1].

قال سلمان: فلم تزوجها محمد؟

قالت: لقد أراد رسول الله ﷺ أن يسر صاحبه عمر بزواجه منها، كما سر صاحبه أبا بكر بزواجه من عائشة..

---

(١) رواه البخاري والنسائي.

٥ ـــ أم سلمة

جلست حفصة، فقامت امرأة بدأ كبر السن يلقي عليها بجرانه، وقالت: أما أنا.. فقد كان بابي إلى حضرة محمد ﷺ هي أم سلمة.. ولذلك سميت ولدي الأكبر سلمة، وتكنيت بكنيتها.

وسأحدثكم عنها.. لتعلموا أن محمدا ﷺ أقدس من أن تمسه الشبهات، وأعظم من أن يتطاول لمقامه الشريف المرجفون.

أم سلمة هي هند بنت أبي أمية، وهي قرشية مخزومية، وقد كان من عائلة لها حسبها ونسبها في قريش، وقد كان أبوها يلقب زاد الراكب، لأنه كان أحد الأجواد، فكان إذا سافر لم يحمل أحد معه من رفقته زادا، بل كان يكفيهم.

وكان زوجها هو أبو سلمة بن عبد الأسد، وهو ابن عمها.. وقد أسلم ولاقى من اضطهاد قريش ما لاقى المؤمنون، وقد هاجرت معه إلى الحبشة، ثم هاجرت إلى المدينة المنورة، وقد كانت أول ظعينة دخلت إلى المدينة مهاجرة.

وقد مات زوجها شهيدا بعد جراح أصابته في غزوة أحد.

ولما انقضت عدّها بعث النبي ﷺ من يخطبها إليه، فقالت: (أخبر رسول الله ﷺ أني امرأة غَيْرَى، وأني امرأة مصبية، وليس أحد من أوليائي شاهدا)

فقال ﷺ: (قل لها: أما قولك غَيْرَى، فسأدعو الله فتذهب غيرتك، وأما قولك: إني امرأة مصبية، فستُكفين صبيانك، وأما قولك: ليس أحد من أوليائي شاهدا، فليس أحد من أوليائك شاهد أو غائب يكره ذلك)

فلما قال لها رسول الله ﷺ ذلك، قالت لابنها عمر: قم فزوّج رسول الله ﷺ، فزوّجه[1].

قال سلمان: أرى أنها قبلت زواجها بمحمد بنوع من الإكراه..

قالت: وكيف عرفت ذلك؟

قال: لقد ذكرت له تلك الأعذار، وربما لم تكن تقصد من ذكرها لها إلا أن تتهرب من الزواج منه.

قالت: وهل اطلعت على ما في قلبها لتحكم ذلك الحكم؟

قال: لست بحاجة إلى ذلك..

قالت: ألم يعرض عليك في يوم من الأيام بعض الناس أشياء، فرفضتها مع رغبتك الشديدة فيها؟

قال: مثل ماذا؟

قالت: كأن تجلس معه ـــ مثلا ـــ إلى وقت الغداء، فيطلب منك أن تبقى عنده لتأكل من طعامه.

قال: لقد حصل هذا.. بل حصل كثيرا.. فأنا من طبعي أني لا أحب أن أحرج أحدا، ولو مت جوعا.. هذا طبع في.. وأحسبه طبعا سليما.

---

(١) رواه النسائي بسند صحيح عن أم سلمة.

قالت: وهكذا كان طبع هذه المرأة الصالحة.. فقد كانت تعلم أنه لم يكن لرسول الله ﷺ رغبة في الدنيا.. ولو رغب في الدنيا ما تزوج مثلها في كبر سنها وكثرة أولادها.. وكانت تعلم أنه لم يطلبها إلا رأفة بها، ورحمة، فتعللت بما تعللت به، وإن كان قلبها يود لو أنها ظفرت به.. فمن مثل محمد ﷺ في الرجال؟

سكتت قليلا، ثم قالت: مما يدلك على شدة رغبتها في رسول الله ﷺ ما روي أن زوجها السابق أبا سلمة جاء إليها، فقالت: سمعت من رسول الله ﷺ شيئا هو أعجب إلي من كذا وكذا، لا أدري ما أعدل به، سمعت رسول الله ﷺ يقول:(لا يصيب أحدا مصيبة فيسترجع عند ذلك، ثم يقول: اللهم عندك أحتسب مصيبتي فأجرني فيها وأبدلني بها خيرا منها)، فلما مات أبو سلمة قلت: ومن خير من أبي سلمة، فلم أزل حتى قلتها.

وكان من بركات قولها لها أن تزوجها رسول الله ﷺ.

٦ ــــ زينب

جلست أم سلمة، فقامت امرأة قصيرة تبدو عليها السماحة والكرم، وقالت: أنا زينب.. وقد كانت زينب بنت جحش هي المرأة التي عرفت بها محمدا.. وبها امتلأت محبة له.

لقد كان جزاء هذه المرأة المسلمة الفاضلة التي أراد الله بها أن يقضي بها على عادات خطيرة من عادات الجاهلية أن يحقق لها أعظم أمنية في حياتها، وهي أن يتزوجها رسول الله ﷺ.

أولا.. هذه المرأة قريبة لرسول الله ﷺ.. بل هي أقرب زوجاته إليه، فأمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم عمة رسول الله ﷺ.. فهي سليلة بني أسد، وحفيدة عبدالمطلب، وابنة عمة رسول الله ﷺ.

وقد كان العنصرية متفشية في القبائل العربية، فكانت قريش تعتبر نفسها أشرف العرب، ولم تكن ترضى أن تزوج بناتها بالموالي.. فأراد النبي ﷺ أن يقضي على هذه العادة.

فلذلك طلب منها أن تتزوج زيدا، وقد كان غلاما لحكيم بن حزام بن خويلد، ثم صار بعده لعمته خديجة بنت خويلد، ثم استوهبه منها محمد ﷺ زوجها فأعتقه.

ومع أنه كان حرا إلا أنه كان يعتبر من الموالي الذين تترل مكانتهم كثيرا عن منازل الأحرار.

وقد رفضت زينب أول مرة، ومثل ذلك كره أخوها عبد الله بن جحش أن تزف أخته إلى مولى من الموالي.

وبما أن هذا النوع من الكراهية غير معتبر شرعا، فقد نزل قوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾ (الأحزاب:٣٦) ينهى عن هذا النوع من الاعتبارات في الكفاءة.

وكانت زينب امرأة صالحة، فسلمت لأمر الله.. قال ابن عباس في تفسير الاية السابقة: وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية، فخطبها، فقالت: لست بناكحته، فقال رسول الله ﷺ:(بل فانكحيه)، قالت: يا رسول الله، أؤامر في نفسي، فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسوله ﷺ:﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا ﴾ الآية، قالت: قد رضيته لي منكحا يا رسول الله؟ قال:(نعم)، قالت: إذًا لا أعصي رسول الله ﷺ، قد أنكحته نفسي [1]

قال سلمان: ولكن أليس هذا استبدادا من محمد.. فكيف يأمرها بهذا، وهو مرتبط بنفسها؟

قالت: لقد كان ﷺ يصحح الأساس الذي رفضته من أجله.. وهو أساس جاهلي، فقد ورد ما يدل على أن سبب رفضها هو ذلك التصور الجاهلي الخاطئ.. فعن ابن عباس قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة، فاستنكفت منه، وقالت: أنا خير منه حسبا ــ وكانت امرأة فيها حدة ــ فأنزل الله، عز وجل:﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ ﴾ الآية كلها.

ومثل هذا ما روي عن أنس قال: خطب النبي ﷺ على جُلَيْبيب امرأة من الأنصار إلى أبيها، فقال: حتى

(١) تفسير الطبري (٩/٢٢)

أستأمر أمها، فقال النبي ﷺ: فنعم إذًا. قال: فانطلق الرجل إلى امرأته، فذكر ذلك لها، فقالت: لاها الله ذا، ما وجد رسول الله ﷺ إلا جلَيبيبا، وقد منعناها من فلان وفلان؟ قال: والجارية في سترها تسمع. قال: فانطلق الرجل يريد أن يخبر النبي ﷺ بذلك. فقالت الجارية: أتريدون أن تَرُدّوا على رسول الله ﷺ أمره؟ إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه، قال: فكأنها جَلَّت عن أبويها، وقالا: صدقت. فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: إن كنت رضيته فقد رضيناه. قال:(فإني قد رضيته) قال: فزوجها، ثم فزع أهل المدينة، فركب جُلَيْبيب فوجدوه قد قتل، وحوله ناس من المشركين قد قتلهم، قال أنس: فلقد رأيتها وإنها لمن أنفق بيت بالمدينة [1].

فقد كان النبي ﷺ في قضائه على عادات الجاهلية مضطرا لهذا.. و لم يكن يقصد في مثل هذا إلا الصادقين والصادقات من المؤمنين الذين وهبوا أنفسهم لله ليقضي بهم على عادات الجاهلية.

ومع ذلك كان رسول الله ﷺ يجازيهم على تلبيتهم لأمر الله بكل ما أطاق أن يجازيهم به.

وقد كان الجزاء الذي أعده الله لزينب جزاء يقضي على عادة أخرى من عادات الجاهلية.. وفي نفس الوقت يمحص المؤمنين الصادقين مع رسول الله ﷺ من غيرهم.

كان رسول الله ﷺ قد تبنى زيدا قبل الإسلام، وبما أن التبني يخالف المنهج الذي أراده الله، وهو المنهج المعتمد على الصدق، وتسمية الأمور بأسمائها، فزيد لم يكن ــ في الحقيقة ابن محمد ــ بل كان ابن حارثة.. وليس من العدل ولا من الرحمة أن ينسب الابن إلى غير أبيه.

ولهذا اشتد القرآن في هذا، ونزلت آيات تنهى عن هذا ومثله، قال تعالى:﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آَبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥)﴾ (الأحزاب)

فهذه الآيات التي تنظم العلاقات الاجتماعية تنص على تحريم التبني ودعوة الأبناء إلى غير آبائهم، لأنها تسبب تخلخلا كبيرا في بناء الأسرة، وفي بناء المجتمع كله.

لقد كانت هذه الظاهرة مشهورة في الجاهلية متعارف عليها فيما بنيهم، فقد يوجد في المجتمع أبناء لا يعرف لهم آباء.. وكان الرجل يعجبه أحد هؤلاء، فيتبناه، يدعوه ابنه، ويلحقه بنسبه، فيتوارث وإياه توارث النسب.

وكان هناك أبناء لهم آباء معروفون، ولكن كان الرجل يعجب بأحد هؤلاء فيأخذه لنفسه، ويتبناه، ويلحقه بنسبه، فيعرف بين الناس باسم الرجل الذي تبناه، ويدخل في أسرته، وكان هذا يقع بخاصة في السبي، حين يؤخذ الأطفال والفتيان في الحروب والغارات؛ فمن شاء أن يلحق بنسبه واحداً من هؤلاء دعاه ابنه، وأطلق عليه اسمه، وعرف به، وصارت له حقوق البنوة وواجباتها.

وبما أن هذه عادة جاهلية.. ولها آثارها الخطيرة في العلاقات الاجتماعية.. فالابن ينسب لغير أبيه الذي

---

(١) رواه أحمد.

ولده ورباه وحرص عليه بمجرد لفظة يقولها المتبني، وقد يقولها صادقا مريدا لمعناها أو كاذبا له أغراض خلف قوله لها.. فقد حرم الإسلام هذا النوع من التبني.. واعتبره لغوا لا معنى له.. فالكلام وحده لا يقلب الحقائق:﴿ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ (الأحزاب: من الآية٤)

قال سلمان: أيحرم الإسلام رحمة هؤلاء؟

قالت: الرحمة لا تعني الكذب.. ولا تكون بالكذب.. وليست بالكلام.. الرحمة سلوك.. وقد اعتبرها الإسلام قمة الأخلاق.. ودعا إلى استعمالها خصوصا مع هذا النوع من المستضعفين.. ولكن لا بالكذب عليهم وسلبهم من آبائهم.

سكتت، فقالت الجماعة المحيطة بها: عودي بنا إلى زينب.

قالت: لقد كانت تلك العادة مستقرة في النفوس.. وقد صعب عليهم أن يتقبلوا رفضها.. ولهذا اختار الله تعالى نبيه ﷺ ــ القدوة الأمثل ــ ليقضي على هذه العادات، فيتمحص بذلك المؤمنون الذين لا يختارون مع الله من غيرهم من الذين استعبدتهم الأعراف والتقاليد.

لقد كان زيدا متبنى لرسول الله ﷺ.. وكانوا يقولون عنه: زيد بن محمد، وكان أول من آمن به من الموالي.

وقد اختار الله أن يبطل تلك العادة الجاهلية برسول الله ﷺ باعتباره القدوة.. فلذلك أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالزواج من زينب بعد أن طلقها زيد.. وقد كان ذلك امتحانا صعبا.

فقد استغرب الناس كيف يتزوج محمد زينبا.. وهو الذي أعلن في الملأ من قريش أن زيدا ابنه وارثا ومورّثا.

وهل يتزوج الرجل من كانت امرأة ابنه؟!

إن ذلك أمر ما كانت تقبله أعراف العرب.. ولكن الله شاء أن يحطم ذلك العرف بهذا الزواج..

٧ ـــ جويرية

جلست أم سلمة، فقامت امرأة شابة عليها جمال وملاحة[١]، وقالت: أنا جويرية.. وقد كان من أشعة اهتدائي إلى شمس محمد ﷺ امرأة من زوجاته اسمها كاسمي.. كان اسمها جويرية بنت الحارث.. وكان أبوها سيد بني المصطلق.. ولعلكم سمعتم بغزوة بني المصطلق.. تلك الغزوة التي كان سببها ما أجمع عليه قومها من حرب رسول الله ﷺ.

وقد نصر الله رسول الله ﷺ.. وكانت جويرية من جملة السبي.. وقد أرادت أن تفتدي نفسها، فجاءت إلى رسول الله ﷺ تستعينه بشيء من المال، فعرض عليها الرسول الكريم ﷺ أن يدفع عنها الفداء، وأن يتزوج بها فقبلت ذلك، بل كان ذلك غاية أمانيها، فتزوجها النبي ﷺ.

وكانت بركاتها بسبب زواجه بها عظيمة على قومها، فقد قال المسلمون: أصهار رسول الله ﷺ تحت أيدينا ـــ أي أنهم في الأسر ـــ فأعتقوا جميع الأسرى الذين كانوا تحت أيديهم.

فلما رأى بنو المصطلق هذا النبل والسمو وهذه الشهامة والمروءة أسلموا جميعًا، ودخلوا في دين الله وأصبحوا من المؤمنين[٢].

فكان زواجه ﷺ بها بركة عليها وعلى قومها وعشيرتها، لأنه كان سببًا لإسلامهم وعتقهم، حتى قالت عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ:(لا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها)[٣]

وقد أثر هذا الموقف تأثيرا حسنا في سائر العرب، بل كان هذا الموقف من الأسباب الرئيسية لتصدع جبهة المشركين.

وذلك أن أبا سفيان بن حرب كان يرتكز في حربه للنبي ﷺ على هذا البطن من خزاعة بني المصطلق، فلما أسلموا تصدعت جبهة أبي سفيان، وفتح الطريق أمام الدعوة بعد ذلك، وأرسلت الرسائل إلى القادة والملوك.

قال سلمان: نعم.. آثار هذا الزواج طيبة.. ولكن ذلك لا يمنع من أن هذه المرأة المسكينة ضحت بنفسها في سبيل تحقيق هذه الآثار.

قالت جويرية: لعله لم يأت يوم في حياة هذه المرأة أسعد لها من ذلك اليوم الذي خطبها فيه رسول الله

---

(١)هكذا وصفتها عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ في الحديث الذي رواه ابن إسحق، وأحمد وأبو داود ـــ قالت:(كانت جويرية امرأة حلوة ملاحة، لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه)

(٢)نص الحديث كما رواه البخاري: عن عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ أنها قالت: أصاب رسول الله ﷺ نساء بني المصطلق فأخرج الخمس منه ثم قسمه بين الناس فأعطى الفارس سهمين والراجل سهمًا فوقعت جويرية بنت الحارث في سهم ثابت بن قيس، فجاءت إلى الرسول فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه وقد أصابني من الأمر ما قد علمت، وقد كاتبني ثابت على تسع أواق فأعني على فكاكي فقال ﷺ:(أو خير من ذلك؟) فقالت: ما هو؟ فقال: (أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك)، فقالت: نعم يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ:(قد فعلت)، وخرج الخبر إلى الناس فقالوا: أصهار رسول الله ﷺ يسترقون؟ فأعتقوا ما كان في أيديهم من سبي بني المصطلق فبلغ عتقهم مائة بيت بتزوجه ﷺ بنت سيد قومه.

(٣) رواه ابن إسحق، وأحمد وأبو داود.

ﷺ..

وقد كانت تحدث بأن ما حصل لها سبقته رؤيا تبشرها به، قالت: رأيت قبل قدوم النبي ﷺ بثلاث ليال كأن القمر يسير من يثرب حتى وقع في حجري، فكرهت أن أخبرها أحدا من الناس، حتى قدم رسول الله ﷺ، فلما سبينا رجوت الرؤيا، فلما أعتقني وتزوجني والله ما كلمته في قومي، حتى كان المسلمون هم الذين أرسلوهم، وما شعرت إلا بجارية من بنات عمي تخبرني الخبر، فحمدت الله تعالى.

التفتت إلى سلمان، وقالت: أترون هذا الكلام كلام امرأة مكرهة على الزواج بمن تكره؟.. ثم ألم تر بأن النبي ﷺ عرض عليها تزوجه بها عرضا، وهي حرة في موافقتها ورفضها، وقد قبلت مباشرة، مع أنه كان لها أن ترفض؟

٨ ـــ أم حبيبة

جلست جويرية، فقامت امرأة قد رسمت على ملامحها آلام كثيرة، وقالت: أنا أم حبيبة.. وقد كان من أشعة اهتدائي إلى شمس محمد ﷺ امرأة من زوجاته كانت تحمل هذه الكنية التي أحملها.

وقد كتب لهذه المرأة الفاضلة أن تكون بنتا لأعدى أعداء محمد ﷺ.. وكتب لها أن تكون بعد ذلك أن تكون زوجة لزوج يرتد عن دينه.. وقد مسح رسول الله ﷺ عنها كل هذه الآلام بتشريفها بزواجه منها.

لن أستعجل فسأقص لكم القصة من أولها.. لقد أسلمت ـــ رضي الله عنه ـــ مع زوجها عبيد الله بن جحش.. وعندما أوذي المسلمون في دينهم فرت بدينها معهم إلى الحبشة.. وهناك ارتد زوجها، وهو أول مرتد عن الإسلام..

وقد حكت ـــ رضي الله عنها ـــ قصة ذلك، فقالت: رأيت في النوم كأن عبيد الله بن جحش زوجي بأسوأ صورة وأشوهها، ففزعت فقلت: تغيرت والله حاله.

فإذا هو يقول حين أصبح: يا أم حبيبة، إني نظرت في الدين، فلم أر دينا خيرا من النصرانية، وكنت قد دنت بها ثم دخلت في دين محمد، ثم رجعت في النصرانية.

فقلت: والله ما خير لك.

وأخبرته بالرؤيا التي رأيتها فلم يحفل بها وأكب على الخمر حتى مات، فأرى في النوم كأن آتيا يقول: يا أم المؤمنين ففزعت فأولتها أن رسول الله ﷺ يتزوجني.

قالت: فما هو إلا أن قد انقضت عدتي، فما شعرت إلا برسول النجاشي على بابي يستأذن، فإذا جارية له يقال لها أبرهة كانت تقوم على ثيابه ودهنه فدخلت علي، فقالت: إن الملك يقول لك إن رسول الله ﷺ كتب إلي أن أزوجه، فقالت: بشرك الله بخير.

قالت: يقول لك الملك وكلي من يزوجك.

فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص فوكلته، وأعطيت أبرهة سوارين من فضة وخدمتين كانتا في رجلي وخواتيم فضة كانت في أصابع رجلي سرورا بما بشرتها.

فلما كان العشي أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومن هناك من المسلمين فحضروا، فخطب النجاشي فقال: الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم ﷺ.

أما بعد: فإن رسول الله ﷺ كتب إلي أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، فأجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وقد أصدقتها أربعمائة دينار.

ثم سكب الدنانير بين يدي القوم، فتكلم خالد بن سعيد فقال: الحمد لله، وأحمده وأستعينه وأستنصره وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدي ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.. أما بعد.. أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وزوجته أم حبيبة بنت أبي

سفيان، فبارك الله لرسول الله ﷺ.

ودفع الدنانير إلى خالد بن سعيد بن العاص فقبضها.

ثم أرادوا أن يقوموا فقال: اجلسوا فإن سنة الانبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج، فدعا بطعام وأكلوا ثم تفرقوا.

قالت أم حبيبة: فلما وصل إلي المال أرسلت إلى أبرهة التي بشرتني، فقلت: لها: إني كنت أعطيتك ما أعطيتك يومئذ ولا مال بيدي، فهذه خمسون مثقالا فخذيها فاستعيني بها.

فأبت وأخرجت حقا فيه كل ما كنت أعطيتها، فردته علي، وقالت: عزم علي الملك أن لا أرزأك شيئا، وأنا التي أقوم على ثيابه ودهنه، وقد اتبعت دين محمد رسول الله ﷺ وأسلمت لله عز وجل، وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بكل ما عندهن من العطر.

قالت: فلما كان الغد جاءتني بعود وورس وعنبر وزباد كثير فقدمت بذلك كله على رسول الله ﷺ فكان يراه علي وعندي فلا ينكره، ثم قالت أبرهة: فحاجتي إليك أن تقرأي على رسول الله ﷺ مني السلام وتعلميه أني قد اتبعت دينه.

قالت: ثم لطفت بي وكانت التي جهزتني، وكانت كلما دخلت علي تقول: لا تنسي حاجتي إليك.

قالت: فلما قدمت على رسول الله ﷺ أخبرته كيف كانت الخطبة وما فعلت بي أبرهة، فتبسم، وأقرأته منها السلام فقال: وعليها السلام ورحمة الله وبركاته[1].

التفتت أم حبيبة إلى سلمان، وقالت: هذه هي قصة زواج رسول الله ﷺ بأم حبيبة، وقد روتها بنفسها، وأنت ترى في كل لفظ من ألفاظها، وفي كل جملة من جملها مدى الفرحة العظيمة التي نالت بسبب هذا

([1]) هذه هي القصة الصحيحة في إسلامها، وهي ما دلت عليه الروايات الكثيرة، أما ما رواه مسلم في صحيحه من حديث عكرمة بن عمار اليماني عن أبي زميل سماك بن الوليد عن ابن عباس أن أبا سفيان لما أسلم قال في حديث لرسول الله ﷺ: عندي أحسن العرب وأجمله، أم حبيبة بنت أبي سفيان أزوجكها)، فقد استغرب العلماء ذلك من مسلم كيف لم يتنبه لهذا؟

لأن أبا سفيان، إنما أسلم ليلة الفتح، و قد كانت بعد تزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بسنة وأكثر، وهذا مما لا خلاف فيه.

وقد أشكل هذا على كثير من العلماء.. حتى ذهب ابن حزم إلى أن الحديث الذي أورده مسلم موضوع، وضعف عكرمة بن عمار.

وأما محمد بن طاهر المقدسي فقال: أراد أبو سفيان أن يجدد العقد، لئلا يكون تزوجها بغير إذنه غضاضة عليه، أو أنه توهم أن بإسلامه ينفسخ نكاح ابنته.. وقد تبعه على هذا التاويل أبو عمرو بن الصلاح والنووي في شرح مسلم، وهو بعيد جداً، فإنه لو كان كذلك لم يقل: عندي أحن العرب و أجمله، إذ رآها رسول الله ﷺ منذ سنة فأكثر، و توهم فسخ نكاحها بإسلامه بعيد جداً.

والصحيح في هذا ــ وهو الذي ذهب إليه المحققون ــ هو أن أبا سفيان لما رأى في مصاهرة رسول الله ﷺ شرفاً أحب أن يزوجه ابنته الأخرى وهي عزة، و استعان على ذلك بأختها أم حبيبة.

وقد ورد ما يدل على ذلك في الصحيحين، ففيهما عن أم حبيبة ــ رضي الله عنها ــ أنها قالت: يا رسول الله انكح أختي بنت أبي سفيان، قال: أوتحبين ذلك؟ قالت: نعم..) الحديث.

وفي صحيح مسلم أنها قالت: يا رسول الله، انكح أختي عزة بنت أبي سفيان.. الحديث.

وعلى هذا فيصح الحديث الأول، ويكون قد وقع الوهم من بعض الرواة في قوله: و عندي أحسن العرب و أجمله: أم حبيبة، وإنما قال: عزة، فاشتبه على الراوي، أو أنه قال الشيخ: يعني ابنته، فتوهم السامع أنها أم حبيبة، إذ لم يعرف سواها.

الزواج..

وقد كانت مخلصة في زواجها لرسول الله ﷺ غاية الإخلاص حتى أنه لما قدم أبوها أبو سفيان بن حرب المدينة جاء إلى رسول الله ﷺ وهو يريد مكة، فكلمه أن يزيد في هدنة الحديبية، فلم يقبل عليه رسول الله ﷺ فقام ودخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش النبي ﷺ طوته دونه فقال: يا بنية أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه، فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس مشرك، فقال: يا بنية لقد أصابك بعدي شر.

هنا انتفض سلمان، وقال: ها.. لقد تزوجها محمد إذن رغم أنف أبيها.

قالت: في الإسلام للمرأة حقها الكامل في التزوج بمن شاء ورفض من تشاء.. وليس لأبيها من سلطة غير سلطة الحماية[1].. فإذا تزوجت من خاف عليه منه حق له أن يتدخل.. أما فيما عدا ذلك، فلا حق له.

ومع ذلك، فإن والدها لما سمع بزواجها من رسول الله ﷺ فرح أبوها بذلك الزواج، وتشرف به.. وقد روي عن مصعب بن عبد الله الزبيري، قال: تزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة، زوجه إياها النجاشي، فقيل لأبي سفيان يومئذ وهو مشرك يحارب رسول الله ﷺ: إن محمدا قد نكح ابنتك، قال: ذاك الفحل لا يقرع أنفه[2].

وقد روي أن ذلك الزواج كان من أسباب تأليف قلوب أعداء رسول الله ﷺ عليه، وأن ذلك هو المشار إليه في قوله تعالى:﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الممتحنة:٧)

([1]) هذا هو المفهوم الصحيح للولاية في الإسلام، وقد ذكرنا أدلة ذلك بالتفصيل في (الضوابط الشرعية لحماية الزواج) من سلسلة (فقه الأسرة برؤية مقاصدية)

([2]) رواه ابن أبي خيثمة في تاريخه.

٩ ــ صفية

جلست أم حبيبة، فقامت امرأة عليها وضاءة ونور، وقالت: أنا صفية.. كنت يهودية، وكنت أرى ما يفعله قومي بالمسلمين.. وقد كدت أصير واحدة منهم لولا أن من الله علي، فقرأت كتابا عن صفية زوجة رسول الله ﷺ.. وكان شعاع النور الذي برز منها أول أشعة اهتدائي إلى شمس محمد ﷺ.. ولذلك فقد اخترت بعد إسلامي أن أحمل اسمها.. وسأحدثكم عنها لتعلموا مدى الشرف العظيم الذي نالته بزواجها من رسول الله ﷺ:

لقد كانت صفية[1] ابنة عدو لدود من أعداء محمد ﷺ.. وكانت بعد ذلك زوجة لأعداء كبار من أعدائه.. ولكن معاملة رسول الله ﷺ وما كانت تعرفه عنه جعلتها أما للمؤمنين، ومن أعظم الناس إخلاصا لرسول الله ﷺ.

روي أن جارية لصفية أتت عمر بن الخطاب، فقالت: إن صفية تحب السبت، وتصل اليهود، فبعث عمر يسألها، فقالت: أما السبت، فلم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة؛ وأما اليهود، فإن لي فيهم رحما، فأنا أصلها، ثم قالت للجارية: ما حملك على ما صنعت؟ قالت: الشيطان: قالت: فاذهبي، فأنت حرة[2].

وقد كان ﷺ يسليها أعظم السلوى، فقد روي أنه دخل عليها، فرآها حزينة لكلام بلغها عن عائشة وحفصة نتيجة غيرتهما الزوجية[3]، فذكرت له ذلك، فقال ﷺ:(ألا قلت: وكيف تكونان خيرا مني، وزوجي محمد، وأبي هارون، وعمي موسى)[4]

وروي أن النبي ﷺ حج بنسائه، فبرك بصفية جملها ؛ فبكت، وجاء رسول الله ﷺ لما أخبروه، فجعل يمسح دموعها بيده، وهي تبكي، وهو ينهاها، فنزل رسول الله ﷺ بالناس ؛ فلما كان عند الرواح، قال لزينب بنت جحش:(أفقري أختك جملا)، وكانت من أكثرهن ظهرا، فقالت: أنا أفقر يهوديتك! فغضب ﷺ، فلم يكلمها، حتى رجع إلى المدينة، ومحرم وصفر ؛ فلم يأتها، و لم يقسم لها، ويئست منه[5].

وقد كان من إخلاصها ــ رضي الله عنها ــ أنها قالت لرسول الله ﷺ في وجعه الذي توفي فيه: (والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك بي)، فغمزها أزواجه ؛ فأبصرهن.

فقال ﷺ:(مضمضن)، قلن: من أي شئ؟

فقال ﷺ:(من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة)[6]

([1]) هي بنت حيي بن أخطب من ذرية هارون عليه السلام تزوجها قبل إسلامها: سلام بن أبي الحقيق، ثم خلف عليها كنانة بن أبي الحقيق، وكانا من شعراء اليهود، فقتل كنانة يوم خيبر عنها، وسبيت، قيل: توفيت سنة ست وثلاثين، وقيل: توفيت سنة خمسين.

([2]) رواه ابن إسحق.

([3]) كان بلغها، أنهما قالتا: نحن أكرم على رسول الله ﷺ منها، نحن أزواجه، وبنات عمه.

([4]) رواه الترمذي.

([5]) رواه أحمد.

([6]) رواه ابن سعد.

وقد وقع لها حادث في عهد رسول الله ﷺ.. فعن أنس قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ، أنا وأبو طلحة، وصفية رديفته، فعثرت الناقة، فصرع، وصرعت، فاقتحم أبو طلحة عن راحلته، فأتى النبي ﷺ؛ فقال: يا نبي الله، هل ضرك شيء؟ قال:(لا، عليك بالمرأة)، فألقى أبو طلحة ثوبه على وجهه، وقصد نحوها، فنبذ الثوب عليها، فقامت، فشدها على راحلته ؛ فركبت، وركب النبي ﷺ [1].

التفت صفية إلى سلمان، وقالت: هل ترى فيما فعله رسول الله ﷺ أي مغمز؟

قال سلمان: كيف يقتل أباها وزوجها، ثم يتزوجها؟

قالت: إن ما ذكرته دليل على مدى صدقها، ودليل على مدى ظلم زوجها وأبيها لرسول الله ﷺ.. وأن ما حصل لهما لم يكن إلا جزاء وفاقا على ما ارتكباه من جرائم.

زيادة على ذلك، فإن رسول الله ﷺ خيرها بين أمرين: إما أن يعتقها ويتزوجها ﷺ.. وإما أن يطلق سراحها فتلحق بأهلها.

وقد اختارت ـــ رضي الله عنها ـــ أن يعتقها وتكون زوجة له، وذلك لما رأته من جلالة قدره وعظمته وحسن معاملته، وقد أسلمت وأسلم بإسلامها عدد من الناس.

لقد روي أنها لما دخلت على النبي ﷺ قال لها:(لم يزل أبوك من أشد اليهود لي عداوة حتى قتله الله)، فقالت يا رسول الله: إن الله يقول في كتابه:﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾(فاطر: من الآية١٨)، فقال لها رسول الله ﷺ:(اختاري، فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسي، وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك)، فقالت: يا رسول الله: لقد هويت الإسلام وصدقت بك قبل أن تدعوني إلى رحلك، وما لي في اليهودية أرب، وما لي فيها والد ولا أخ، وخيرتني الكفر والإسلام، فالله ورسوله أحب إلي من العتق وأن أرجع إلى قومي، فأمسكها رسول الله ﷺ لنفسه [2].

وقد حصل لها من الرؤى الدالة على ما ينتظرها من خير ما حصل لأم حبيبة، فعن ابن عمر ـــ رضي الله عنه ـــ قال: كان بعين صفية خضرة، فقال لها رسول الله ﷺ:(ما بعينيك؟)، فقالت: قلت لزوجي إني رأيت فيما يرى النائم كأن قمرا وقع في حجري، فلطمني، وقال: أتريدين ملك يثرب.. قلت: وما كان أبغض إلي من رسول الله ﷺ قتل أبي وزوجي فما زال يعتذر إلي، وقال: يا صفية، إن أباك ألب علي العرب وفعل وفعل حتى ذهب ذاك من نفسي[3].

وعنها ـــ رضي الله عنها ـــ قالت: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وما من الناس أحد أكره إلي منه، فقال:(إن قومك صنعوا كذا أو كذا)، قالت: فما قمت من مقعدي، وما من الناس أحد أحب إلي منه.

وفي رواية عنها: قالت: ما رأيت قط أحسن خلقا من رسول الله ﷺ رأيته ركب من خيبر على عجز ناقته ليلا، فجعلت أنعس، فيضرب رأسي بمؤخر الرحل فيمسني بيده، ويقول يا هذه، مهلا يا بنت حيي، حتى إذا

([1]) رواه البخاري.
([2]) رواه ابن سعد.
([3]) رواه الطبراني برجال الصحيح وابن حبان في صحيحه.

جاء الصهباء، قال: أما إني أعتذر إليك، يا صفية بما صنعت بقومك، إنهم قالوا لي كذا وكذا[1].

***

بعد أن انتهى الحكيم من حديثه لم يجد (سلمان رشدي) ما يقوله.. ولذا سار مطأطئ الرأس، متغير الوجه، خارج ميدان الحرية ليترك الجماعة ملتفة حول الحكيم تسأله ويجيبها..

التفت إلى أصحابنا المستغرقين في مشاهدة ما حصل في ساحة الحرية.. فرأيت وجوههم كالحة عابسة عليها غبرة ترهقها قترة.

أما أنا.. فقد تنزلت علي حينها أنوار جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

([1]) رواه أبو يعلى بأسانيد ورجال الاولى رجال الصحيح إلا جندب بن هلال، لم يدرك صفية.

الخاتمة

بعد أن أخبرني البابا حديث هؤلاء العشرة الذين أرادوا أن يحيوا سنة أبي جهل وأبي لهب، التفت إلي، وقال: لقد كانت تلك الأيام العشرة من أكثر الأيام بركة في حياتي.. لقد كانت كالمطر الذي يغسل الأرض من أدرانها.. أو كالدواء الشافي الذي ينقض على السموم، فيقضي عليها واحدا واحدا.

ابتسمت، وقلت: فأين تلك الدار المباركة التي حصلت ببركتها كل هذه البركات، لعل الله ييسر لنا، فنجعلها مزارا؟

قال: لم تبق تلك الدار بعد تلك الأيام العشرة.. و لم يبق لها إلا حديث طويل مر لازالت نفسي تتألم له.

قلت: هل ترى طائفا من السماء طاف عليها، فحولها كهشيم المحتضر، أو ترى الطير الأبابيل عادت من جديد، فرمتها بحجارة السجيل؟

قال: لا هذا، ولا ذاك..

قلت: فما الذي حصل لها؟

قال: لذلك قصة طويلة سأختصرها لك اختصارا.

تنفس البابا الصعداء بألم، ثم قال: في نهاية اليوم العاشر، وبعد أن نثرت جماعتنا آخر سهم من كنانتها عاد أخي إلى دارنا بحزن شديد، وقال لي: أحضر لي جميع الأقراص التي قمنا بتسجيلها في هذه الأيام العشرة.

فقلت له متعجبا: هل انتهيت من التجريب، وتريد أن تخوض غمار التنفيذ؟

قال: ما تقصد؟

قلت: هل تريد أن تري قداسة البابا هذه الأقراص ليعاين الطريقة الجديدة التي تقترح على الكنيسة أن تتعامل بها مع محمد، ومع الإسلام؟

قال بغضب: لا.. هذه الأقراص لا ينبغي أن يراها أحد.. لا ينبغي لأحد في الدنيا أن يسمع حديثها.. إنها أشعة جديدة.. بل هي أشعة حارقة من شمس ذلك الرجل الذي أتعب الكل.. ولا زال يتعب الكل.

قلت: فما الذي تريد أن تفعل بها؟

قال: لا يصلح لتلك الأقراص إلا أن تحرق، ثم يدفن رمادها في أي كوكب من الكواكب حتى لا يأتي من يحلل ذلك الرماد ليستخرج ما حصل في هذه الأيام العشرة المشؤومة.

قلت: أراك تحمل حقدا عظيما.. والمسيح الذي نتمسح بهديه ما علمنا أن يكون في قلوبنا غير السلام.. السلام هو وحده المعراج الذي يرتقي بأرواحنا إلى الملكوت.

لست أدري كيف انتفض أخي من مكانه، وقال: السلام.. نعم.. السلام..

ثم توجه إلي، والسرور يملأ أسارير وجهه، وهو يقول: نعم.. السلام.. لطالما كنت أراك مفكرا.. بل أنت عبقري.. لقد وضعت يدك على الإكسير الأحمر.

قال ذلك، ثم انصرف من دون أن يأخذ الأقراص..

قلت: فهي معك إذن؟

قال: لا.. ولتلك الأقراص حديث آخر له علاقة بهذا الحديث.

قلت: فحدثني عنه.

قال: في الغد ذهبت صباحا مع أخي إلى دار الندوة الجديدة، حيث تعودنا أن نلتقي، لكنا فوجئنا بأعمدة الدخان تخرج منها لتصعد في أجواء السماء، وتملأ ما حولها بالتلوث.

هرعت أنا وأخي إليها، وقد امتلأنا بهول المفاجأة، وهناك وجدنا الشرطة، ومعها رجل منا..

قاطعت البابا قائلا: من هو؟

قال: لن أذكر لك اسمه.. المهم أنه رجل منا..

قلت: هل كان ذلك الرجل هو الجاني الذي تاب من حرفته، فراح يحرق كل أثر لمعصيته؟

قال: لا.. لقد كان هو المخاتل المخادع الذي سايف خصمه، فلما غلبه ارتد عليه فطعنه في ظهره.

قلت: احك لي قصة ذلك، ولا تحدثني بالألغاز.

قال: بعد أن انصرف أخي في ذلك اليوم.. جاء في المساء بوجه ممتلئ سرورا، وقال: أرأيت.. لقد أوحت لي كلماتك بفكرة عبقرية لم تخطر ببال أحد من الناس.

قلت: ما هي؟

قال: لقد عرفت أن سر انتصار الإسلام هو السلام.. انظر حتى اسم الإسلام فيه حروف السلام.. ولذلك فإن خلع السلام من الإسلام سيحوله إلى دين ميت.. ولن يبق في اسم الإسلام أي حرف يصلح للتعبير عنه.

قلت: فكيف يمكن أن نفعل ذلك؟

قال: ليس ذلك دورنا.. هناك أجهزة خاصة يمكنها أن تؤدي هذا الدور..

قلت: فأنت لا تزال تلح على فكرة التحالف؟

قال: لا شك في ذلك.. فلم يتحقق أي انتصار في الدنيا من دون تحالف.

قاطعت البابا قائلا: أنا إلى الآن لم أفهم سر حرق الدار، وعلاقته بالسلام، وعلاقة ذلك كله بذلك الرجل اللغز، وعلاقة القصة جميعا بأخيك.

كتم البابا عبرات تكاد تنحدر من عينيه، ثم قال: بعد أن نفذت كل السهام التي أرادت جماعتنا أن تعيد تصويبها لمحمد ﷺ قام رجل منا هو أكثرنا حيلة وأعظمنا دهاء، وأقربنا مع ذلك إلى عروش السلاطين، فأوحى إلى بعض ضعاف العقول من المسلمين، الذي اختلطت عليهم مفاهيم الإسلام بمفاهيم الصراع التي غذتهم عليها وسائل إعلامنا، فقاموا بحرق الدار..

وبعد أن أحرقوها نسبوا التهمة للحكيم، ذلك الرجل الحكيم المضمخ بعطر السلام.

قلت: فما الأدلة التي استندوا إليها؟

قال: تلك الأقراص التي كانت محفوظة عندي.. لقد فتشوها حرفا حرفا، وكلمة كلمة.. ثم أحضروا مصممين دهاة، فحولوا من كل تلك المناظرات الطاهرة المسالمة خطبا مملوءة بالحقد والصراع.. ثم نشروا كل

ذلك بين الناس يحذرونهم من الإسلام ومن صراع الإسلام.

قلت: والحكيم.. هل ظفروا به؟

قال: لا.. لقد ذكرت لك بأنه أشبه الناس بمعلم السلام، بل لعله معلم السلام عينه، فقد كان يحضر، فلا نعرف من أين جاء، ويذهب، فلا نعرف أين ذهب.

قلت: وأولئك الطيبون الذين ملأوا ميدان الحرية؟

قال: لم يغادروه.. هم لا يزالون فيه إلى اليوم.

قلت: فميدان الحرية لا يزال قائما إذن؟

قال: نعم.. هو لا يزال قائما.. ولكن اسمه فقط هو الذي تبدل..

قلت: تبدل الاسم!؟

قال: أجل لقد تحول من (ميدان الحرية) إلى (معتقل..)

قلت: هل ندموا على الحرية التي فتحوها للناس؟

قال: لقد عرفوا أن الإسلام لا ينتشر إلا في وسط ممتلئ بالحرية، ولذلك سارعوا يكفرون عن خطيئة الحرية، وما جرت عليهم من ويلات.

قلت: ولكني لا أزال أسمع بأن في بلادكم حرية.

قال: نعم.. أنت حر في أن تكفر، أو أن تسب محمدا.. بل أنت حر في أن تسب المسيح نفسه.. ولكنك لست حرا في أشياء أخرى كثيرة[1] ..

([1])كتب رجل من ستوكهولم في بعض المواقع مقالا بعنوان (الغرب بين حريّة سبّ الإسلام، وحرمة الحديث عن الهولوكست) تحدث فيه عن تناقضات مفهوم الحرية في الأعراف الغربية.. ومما جاء فيه قوله:(تجيز القوانين الغربية للمواطن الغربي أن يعيش الحريّة بكل تفاصيلها وأن يتحررّ من كل القيود التي تكبّله وبناءا عليه أصبحت الحريّة الجنسية المقرفة والحرية السياسية والحرية الاقتصادية في متناول الجميع، و هناك كمّ هائل من القوانين الرئيسية والفرعية التي تكفل مبدأ الحرية للمواطن الغربي الذي يحقّ له أن يستهين بالقيم الدينية وبالأنبياء، وعلى الرغم من ذلك فإنّ مناقشة موضوع الهولكست تعتبر محرمة ولا يجوز مطلقا الخوض فيها أو الحديث عنها أو الدعوة إلى إعادة قراءة ظاهرة الهولوكست، فإنّ ذلك يعتبر محرما ويعرّض الداعي إلى إعادة قراءة هذه الظاهرة إلى الملاحقات القانونية و الإعتقالات ، كما حدث مع روجي غارودي وفريسون في فرنسا، وكما حدث مع أحمد رامي في السويد الذي سجن ستة أشهر بسبب تناول إذاعته راديو الإسلام موضوع الهولوكست واستضاف شخصيات غربية تحدثت في راديو الإسلام عن خرافة الموضوع.

وقد تعرض الكثير من الكتّاب الغربيين إلى الإعتقال في ألمانيا وهولندا و النمسا بسبب حديثهم عن الهولوكست و تفنيد مزاعم الرواية الإسرائيلية للمحرقة اليهودية.

وفي الدانمارك سمحت جريدة رسمية لنفسها بتصوير رسول الله ﷺ في رسوم كاريكاتورية، بينما تلتزم كل الصحف الدانماركية بمبدأ عدم جواز الحديث عن الهولكوست أو حتى الحركة الصهيونية.

و للإشارة فإنّ السويد، وعندما دعت الكاتب البريطاني الهندي الأصل سلمان رشدي صاحب كتاب (آيات شيطانية) رحّبت كل وسائل الإعلام السويدية بقدومه، وأتاحت له فرصة واسعة لمخاطبة الجمهور السويدي، وفي نفس زمن وجوده في السويد دعت جمعية عربية الكاتب الفرنسي المعروف بطروحاته ضدّ الحركة الصهيونية فوريسون وقامت الدنيا ولم تقعد ضدّ فوريسون المعادي للصهيونية، وقوبل بتظاهرات مضادة، الأمر الذي جعل البعض يقول: لماذا الحرية متاحة لسلمان رشدي، والذي تهجمّ

ثم التفت إلي بألم، وقال: نحن في معتقل كبير سدنته أصحاب بطون منتفخة.. أما نحن وذلك الغثاء الذي يسكن أرضنا، فمجرد مستهلكين.. نستهلك الطعام، ونستهلك الإعلام.. ويباح لنا أن نستهلك كل شيء إلا أن نستهلك الإسلام.

قلت: ألا زال البحث جاريا عن الحكيم؟

قال: ما دام الصراع هو المسيطر على هذه البشرية فإن البحث عن الحكيم وعن معلم السلام لن يتوقف أبدا.

شعرت بما يشعر به البابا من ألم، فأردت أن أخفف عنه، فقلت: عم ستحدثنا غدا إن شاء الله؟

قال: سنرحل إلى (النبي الإنسان)[1] .. لنجد الحكيم.. أو معلم السلام.. لنتعلم منه كيف كان النبي الإنسان.

على المسلمين، وشبّه طوافهم حول الكعبة بمثابة طواف الزناة حول بيت الزانية، و غير متاحة لرجل كفوريسون أو روجي غارودي بمجرّد حديثهم عن الحركة الصهيونية و أكاذيبها.

وفرنسا التي حظرت الحجاب، وتصف المسلمين بأخس النعوت لا تسمح مطلقا بالحديث عن الهولوكست وغرف الغاز، وأبرز من تعرض للإيذاء في هذا المجال الكاتب الفرنسي روجي غارودي.. وقد ظل غارودي محل ملاحقة منذ سنة ١٩٩٨ فرض عليه عندها حصارا متعددّ الوجوه وفي كل المجالات بمجرّد أنّه تنكرّ للهولوكست.

([1]) عنوان الرسالة الثامنة من (أشعة من شمس محمد)، وهي تتحدث عن الشمائل المحمدية، وعلاقتها بالكمال الإنساني.

الفهرس

هذه السلسلة

هذه السلسلة مدرسة متكاملة في براهين النبوة ودلائلها، وفي الحوار الإسلامي المسيحي، وفي رد الشبهات التي يبثها المبشرون والمستشرقون والمستغربون.

وهي تعتمد الحوار العقلي، وتخاطب المخالف باللغة التي يفهمها، وتنطلق من المصادر التي يرجع إليها.

وقد صيغت بشكل روائي مبسط مليء بالأحداث المشوقة، لتجعل من كل مسلم داعية إلى الله، وحاميا يحمي حمى رسوله، ومناظرا ينتصر به الحق، وينهزم به الباطل، وتدفع به الشبهات..وهذه أجزاؤها:

١. أنبياء يبشرون بمحمد
٢. الكلمات المقدسة
٣. معجزات علمية
٤. معجزات حسية
٥. ثمار من شجرة النبوة
٦. قلوب مع محمد
٧. النبي المعصوم
٨. النبي الإنسان
٩. النبي الهادي
١٠. سلام للعالمين
١١. عدالة للعالمين
١٢. رحمة للعالمين
١٣. الله جل جلاله
١٤. الإنسان
١٥. الحياة